

السخرية

مواقعها ، وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم

دكتور

باهي عبد الله باهي والي

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

إهداء

إلى مكتبة البلاغة العربية، التي نستمد منها عظمة الماضي، وعدة
الحاضر، وأمل المستقبل المشرق الزاهر
منها خرج هذا الكتاب إلى النور، وإليها يرد.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، والصلاة والسلام على من بُعث للناس هاديا وبشيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ومبشرا المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ، ثم أما بعد

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت : ٤٢ ، وهو كتاب العربية الخالد ، الذي حماها من الاندثار ، ورفع قدرها بين اللغات ، وبوأها مكانتها العالية ، فجرت في كل ميدان تنساب على ألسنة الناطقين والدارسين والباحثين ، وشاءت إرادة الله ﷻ أن ينهض جيلاً من الرواد الأوائل الذين قيضهم الله - سبحانه لخدمة العلم والدين ، فأقاموا للأمة مجدها وعزها ، مستلهمين في ذلك ضياء القرآن ، وعطاءه الذي لا ينقطع ، فتنوعت العلوم وتعددت طرقها ، وتشعبت مسالكها ، وكلٌّ من البحر مغترف .

وكان مما ازدان من العلوم علم البلاغة فبزغ فجره ، وذاع صيته ، وعلا في الآفاق ذكره لأنه يتخذ من كتاب الله مادة أصيلة ؛ ليصوغ منها لألئه ، ويعقد جواهره . وكان من أعظم القضايا التي فجرت ينبوعه وفتقت أكامه قضية الإعجاز القرآني ، فقد أعجز القرآن فرسان الكلام وعمالقة البيان ، وأعيان أصحاب الفصاحة وأرباب اللسان ، فقد حصر الرماني في (النكت) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - وهو من العلماء المبرزين في هذا الشأن - البلاغة في عشرة أبواب ، وجعلها أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ومن هنا بدأ العلماء ينقبون عن هذه الأبواب ، ويقومون فيها الدراسات والأبحاث ؛ لنيل شرف البحث والدرس والمطالعة والقرب من كتاب الله ﷻ ، وقد توالت جهود الباحثين وقوافل الدارسين تترا متخذة من آيات القرآن وموضوعاته دراسة بلاغية ، تقف حول بلاغته العالية ، وما فيه من جمال رائع ، وتأنق بالغ في سوق مفرداته ، وصوغ تراكيبه ، وحسن تشبيهاته ، وجميل استعاراته ، وبديع كناياته ، ولطيف تعريضاته ، وغير ذلك من المباحث البلاغية التي عج بها النص القرآني .

وقد تعددت الموضوعات في هذا الشأن ، من آيات الجهاد ، واليوم الآخر ، والمال ، والمنافقين والأحكام ، والحدود ، والفضائل ، والإنسان ، والطاعة ، والعصيان ، والنداء ، والقسم ، والتوكيد ، والقصص ، والحوار ، وغير ذلك .

ومع كثرة هذه الدراسات ، فإن القرآن الكريم ما زال - وسيظل - نبعاً ثرياً لا يُسبر غوره ، ولا ينفد عطاؤه للدراسات البلاغية .

من أجل ذلك تاقت نفسي ، وعلت همتي ، وتناولت بعنقي ؛ علني أحظى بموضوع في القرآن الكريم أنال به شرف القرب من كتاب الله ﷻ ، فتأملت طويلا حتى أصبت بحمد الله وتوفيقه موضوعا بعنوان : (السخرية ، مواقعها وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم) ، وهو من الأهمية بمكان ، وبخاصة إذا عرف أن سخرية القرآن الكريم إنما هي موجهة في المقام الأول إلى أعداء الدين من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين ، الذين يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين ، ويحيطونه بكل أنواع الكراهية والمقت الشديد ، ويعملون بكل قوة على تحطيمه ، بل محوه من الوجود .

ولذا جاءت سخرية القرآن الكريم من هؤلاء الأعداء ؛ لتكون سلاحا للمسلمين ضدهم ؛ وبيانا لضعف أولئك وتفاهتهم ، ومن هنا كانت أهمية تناول هذا الموضوع من الوجهة البلاغية .

وقد كانت هناك أسباب ودوافع حدثت بي لاختيار هذا الموضوع ، من أهمها

إلى جانب السبب السابق :

أولا : أن السخرية مع وضوحها في القرآن الكريم لم يتناولها الباحثون - فيما أعلم - من الوجهة البلاغية ، وليست هناك دراسات سابقة في هذا الموضوع سوى رسالة العالمية (الدكتوراه) للدكتور: عبد الحليم حفني بعنوان : (أسلوب السخرية في القرآن الكريم) سنة ١٩٦٩ م ، وهي رسالة في الأدب والنقد ، تحدث فيها عن معنى السخرية ، ودواعيها ، ومجالاتها ، كما تعرض للأثر النفسي ، ووحى الألفاظ ، كل ذلك بأسلوب فكري ، ولم يعن بتحليل الآيات القرآنية التي وردت فيها السخرية إلا نادرا ، برغم أنها جديرة بأن يفرغ الباحثون فيها جهودهم مهما اقتضت من جهد وتعب .

ثانيا : أن المسلمين - وبخاصة في هذه الآونة - في أشد الحاجة إلى إيقاظ كل ذرة في كيانهم ؛ لينظروا إلى الأخطار المحدقة بهم من كل صوب ، وإلى الأعداء المتربصين من كل حذب ، ومثل هذا الموضوع من شأنه - بحكم طبيعة السخرية والدافع إليها - أن يكون منظارا يرى المسلمون من خلاله أعداءهم ، وكثيرا من أساليب عداوتهم ، ومن ثم كان اختياري لهذا الموضوع .

ثالثا : ثقتي بأن أي عمل يقوم به الباحث لابد أن يحاول أن يأتي فيه بجديد ، بحيث يضيف شيئا على غير مثال في ميدان دراسته ، وإلا فما جدوى البحوث إذا كانت تكرر لما سبق مع تغيير في العناوين وبقاء المضمون دون تغيير .

رابعا : إن دراسة أي موضوع بلاغي دراسة تطبيقية على كتاب الله ﷻ يُتوخى فيها الدقة والتعمق قدر المستطاع ، بحيث تشارك في إيضاح بلاغة القرآن وإعجازه ، وهو عمل مطلوب

في ميدان الدراسة البلاغية ، ومن ثم كان هدفي من هذا الموضوع الإسهام في بيان بلاغة وإعجاز القرآن الكريم من خلال تناول أسلوب السخرية فيه على قدر ما أتاح الله لي من معرفة ؛ إيماناً بإعجازه البلاغي الفريد ؛ وإمعاناً في الاستزادة من أسرار نظمه ودقائقه ؛ لمواجهة كل التيارات الفكرية المناهضة للإسلام ، المعادية لكتابه ، عسى أن تكون رمية في أعناق أعدائنا ، وتسديدة في نهورهم ، وخطوة في طريق العلم .

أما المنهج الذي اتبعته - بعد الحصر والتصنيف لأساليب السخرية - فهو المنهج التحليلي التدقيقي الذي أصّل له الإمام عبد القاهر (رحمه الله) ؛ حيث إن البحث معنيّ بأساليب السخرية في القرآن ، ولذا ركزت الدراسة جهودها على بيان وتوضيح هذه الأساليب في الآيات ، ثم التحليل البلاغي المتعمق المتأنّي لجزئيات الصورة الساخرة ، مع بيان أثر الصور والأساليب المصاحبة في إظهار هذه السخرية وزيادة حدتها ، وإمعان النظر في خصائص النظم وجمالياته التي أحاطت بأسلوب السخرية ، وعاونت على إبرازه وإكمال المشهد الكلي .

وقد آثرت قبل ذلك أن أذكر الآيات السابقة واللاحقة لموضع الشاهد دون أن أقطع أسلوب السخرية من الآية ؛ حتى يتسنى للقارئ الكريم الوقوف على السياق الذي وردت فيه الصورة الساخرة وعلاقتها بالسياق العام .

كما شرحت الآيات شرحاً موجزاً مستمداً من أمهات كتب التفسير المختلفة ، ثم ذكرت أسباب النزول إن وجدت ، مع بيان المفردات الصعبة في الهامش ، مع عقد موازنات بلاغية بين الآيات المتشابهات مستأنساً بما قدمه العلماء الأجلاء في هذا الشأن ، ثم الاجتهاد قدر الاستطاعة في إظهار فروق التعبير التي تناسب مقتضيات الأحوال ، وتسهم في تعجيز وتبكيث وإفحام مَنْ تناولتهم سخرية القرآن .

أما بالنسبة للآيات التي استشهدتُ بها فينبغي الإشارة إلى ناحيتين :

- الأولى : أن هذه الآيات لا تعني أنها كل ما في القرآن الكريم من مواضع السخرية ، فليس الاستقصاء هدفاً للبحث ؛ لصعوبة ذلك ، وإن كان فيه استقصاء فهو قدر المستطاع ، وإنما الهدف بيان القيمة والأثر البلاغي لهذه السخرية باعتبارها سلاحاً فعالاً موجهاً ضد أعداء الدين من اليهود ، والنصارى ، والمشركين ، والمنافقين .

كما لا يجب أن يُفهم أن هذه الدراسة البلاغية التي قامت حول أسلوب السخرية قد استوفت كل ما فيه من أسرار عالية ، وأنها أتت على كل ما فيها ، فحاشا لله أن يكون هذا عرضي في التعامل مع كتابه ، فأياته أرحب معنيّ ، وأوسع بلاغة ، وأكمل إعجازاً من أن يلّم بها باحث ، أو يحددها دارس ، ولكنني حاولت قدر جهدي أن أفق على بعض الأسرار ، وغاب عني بعضها الآخر ؛ إيماناً مني بأن أسرار القرآن لا تنتهي ، ولا تقنى عجائبه ، ولكن حسبي هذا الجهد الذي يكثره إخلاص النية ، وصدق العزيمة ، وكفى بهذا شافعاً .

- **والثانية :** من حيث الكيف ؛ حيث إن السخرية مهما تكن واضحة ، فهي ليست شيئاً مادياً محسوساً يمكن لكل إنسان أن يدركه ، وأن يحدد مقداره وحجمه ، بل إدراك السخرية والإحساس بها أمر عقلي نفسي ، بحيث يتفاوت الناس فيه بمقدار تفاوتهم في قواهم العقلية وفي أمزجتهم وتكوينهم الوجداني وثقافتهم ، فقد يحس شخص في كلامٍ بفكاهة أو سخرية لا يحس بها شخص آخر ، وقد يكون إحساس شخص في كلام ما بدرجة من السخرية تختلف عن الدرجة التي يحس بها شخص آخر ، ونتيجة لذلك فليس بغريب ألا يحس شخص بالسخرية في بعض ما استشهدت به من آيات ، وليس بغريب - أيضاً - أن يحس شخص بالسخرية في هذه الآيات أو في آيات أخرى أقوى مما أحسست به ، والاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية .

وبعد

فأسأل الله العليّ القدير أن أكون موفقاً فيما كتبتُ ، فإن كان هذا ، فمنه وحده سبحانه ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي المخطئة ومن الشيطان ، وحسبي أنني بشر معرض للصواب والخطأ ، وأرجو من ربي العفو عن الزلل ، وأطمع في غفرانه إن تعثر الفكر أو جمح القلم ، أو تاه البيان ، وأتمنّى قول القائل :

وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنِّي بَشَرٌ أَسْهُو وَأَخْطِئُ مَا لَمْ يَحْمِنِي الْقَدْرُ

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي

عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ [النمل : ١٩] .

د . باهي عبد الله باهي والي

التمهيد

السخرية : أسبابها ، وخصائصها في القرآن الكريم

ويشمل :

- ١- مفهوم السخرية .
- ٢- السخرية والهجاء والعلاقة بينهما .
- ٣- الساخر وصفاته .
- ٤- أهم أسباب ودواعي سخرية القرآن الكريم .
- ٥- أساليب السخرية في القرآن الكريم .
- ٦- خصائص السخرية في القرآن الكريم .
- ٧- الأغراض البلاغية للسخرية في القرآن الكريم.
- ٨- مواضع السخرية في القرآن الكريم .
- ٩- الأثر البلاغي لأسلوب السخرية في القرآن الكريم .

التمهيد

السخرية : أسبابها ، وخصائصها في القرآن الكريم

كانت السخرية بالأنبياء والمرسلين والدعاة إلى الخير هي ديدن الأمم منذ آدم عليه السلام وإلى أن يرث الأرض ومن عليها ، فقد سخر إبليس من آدم عليه السلام لما أمر بالسجود له فقال : ﴿ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : من ٦١] ، وما من رسول أرسل ، ولا نبي بُعث إلا وواجه شداً ومحنًا وابتلاءاتٍ ، كان على رأسها السخرية والاستهزاء به وبدعوته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزخرف : ٧] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] ، وتكاد المحن والعقبات أن تكون ملاصقة للدعوة الإسلامية قديماً وحديثاً ، مما دفع الكثير من الدعاة للشكوى من عنت الساخرين المستهزئين ، ولكن عندما وقفوا على سيرة المرسلين والدعاة من قبل وجدوا أن ما حدث لهم من سخرية واستهزاء إنما هو في حقيقة الأمر يمثل تسرية وعزاءً وقذوة ، قال تعالى : ﴿ حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وقبل أن أتحدث عن السخرية ذاتها ، وأستعرض أسبابها وخصائصها في القرآن الكريم ، لابد من التنبيه على وضع القرآن الكريم بالنسبة إليها ، لا من حيث احتوائه عليها فذلك أمر مفروغ منه ، ولكن من حيث إن السخرية بالمعنى المفهوم قد ينظر إليها ممّن ضاقت آفاق تفكيرهم من المؤمنين بالقرآن على أنها لا تتفق مع إجلالهم للقرآن من حيث إنه كلام الله ، فقد لا يسيغ بعض هؤلاء نسبة السخرية بمعناها المفهوم إلى الله ﷻ ، ولكنهم يغفلون عن أن القرآن - مع أنه كلام الله ، ومع أنه مهما تعددت أهدافه واعتباراته - هو الناطق بلسان المسلمين ، والممثل لحالهم بالنسبة إلى أعدائهم .

وإذا كان المسلمون وأعداء الإسلام حزبين متنافرين متخاصمين أبداً ؛ فإن القرآن الكريم هو الممثل لحزب المسلمين ، والناطق بلسانهم ، والمدافع عنهم ، والمهاجم لأعدائهم ، " ومن البدهي أن القرآن الكريم لا ينطق بلسان المسلمين ولا يدافع عنهم باعتبارهم أشخاصاً أو جماعة وإنما بوصفهم ممثلين للعقيدة الإسلامية ، ومن هذه الزاوية فليس هناك اختلاف أو تباعد بين عداء القرآن وعداء المسلمين لأعداء العقيدة الإسلامية ؛ لأن القرآن لا يعتبر ممثلاً للمسلمين إلا فيما يتعلق بالإسلام بوصفه عقيدة وشريعة " (١) .

١- مفهوم السخرية :

أولاً : المدلول الوضعي للكلمة :

السخرية تطلق في اللغة ويراد بها عدة معان وهي :

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د / عبد الحليم حفني ص ١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ م .

ثانيا : المدلول العرفي للكلمة :

حين تحدث النقاد والباحثون عن السخرية في مدلولها العرفي لم يتحدثوا عنها بصورة مستقلة تماما ، وإنما تناولوها باعتبارها جزءا من ظاهرة عامة في الطبيعة البشرية ، فيقول أحد الباحثين : " الابتسام ، والضحك ، والمرح ، والفكاهة والمزاح ، والدعابة والهزل ، والنكتة ، والملحة ، والنادرة ، والكوميديا ، ما هي إلا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة ، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة ، التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس ، فتلتمس في اللهو ترويحاً عن نفسها، وتبحث في الفكاهة عن منفذٍ للتنفيس عن آلامها وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذي كثيراً ما يثقل كاهلها " (١) .

وبناء على هذا يجملون هذه الأنواع ، ويجعلونها ظاهرة واحدة ؛ هي ظاهرة (الضحك) معللين ذلك بأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع ، كما أنه جزء أساسي من هدفها جميعاً ، " وقد استثارت هذه الظاهرة اهتمام الفلاسفة والباحثين ، فعنوا بدراستها منذ أفلاطون وأرسطو حتى الباحثين المعاصرين " (٢) ، (وبعض الباحثين لا يُخفي أنها ظاهرة معقدة من حيث تعليل طبيعتها ، ولكنهم مع ذلك ، وبملاحظة هذه الظاهرة في صورها المختلفة ، ودراسة دوافعها وأهدافها في مجالات متعددة يصلون إلى نتائج ذات قيمة من الناحية النفسية والناحية الاجتماعية) (٣) .

وعلى الرغم من أن المواقف الإنسانية المضحكة كثيرة جدا لا تحيط بها نظريات ، ولا تقننها قوانين ، فإن بعض النقاد والباحثين لاحظوا أن الضحك ناشئ في الأصل عن الشعور بالانتصار في معركة جسمية بدائية ، وحاولوا تقسيم الضحك نوعين : ضحك إيجابي ، وهو الضحك الذي ينبعث عن غير غرض أو هدف إلا الإضحاك ، وهو ما يطلق عليه الفكاهة ، وضحك سلبي ، وهو الضحك المتولد من الشعور بنقص الآخر ، أو ضعفه ، أو ضعفه ، بمعنى أن له هدفاً وغرضاً معيناً ؛ هو الاحتقار والازدراء والسخرية .

وهناك نقاد آخرون يقسمون هذه الظاهرة - أعني السخرية - باعتبار مصدرها الانفعالي فيرون أن نوع الفكاهة يخضع لنوع الانفعال الذي أثارها ، ولا شك أن انفعال الغضب يولد الفكاهات العدوانية ، والسخرية اللاذعة ، فالسخرية إذن نابعة من انفعال عدواني بين خصمين ، ولكن الخصم الأقوى والأقدر منهما هو الذي يستطيع أن يسخر من الآخر ، وهذا أيضا تأييد وتأكيد بأن الضحك عنوان السخرية ، ومظهر من مظاهر التفوق والانتصار .

وهناك تعريفات كثيرة لمفهوم السخرية عند النقاد العرب ، وكلها تدور في فلك واحد ، ومتقاربة في المعنى إلى حد بعيد ، على الرغم من اختلافها في الأسلوب ، ومن هذه التعريفات - على سبيل المثال لا الحصر :

*** أن السخرية هي : " فن إبراز الحقائق المتناقضة ، والأفكار السلبية في صورة تغري**

(١) سيكلوجية الفكاهة والضحك ، د : زكريا إبراهيم ص ٨ ، مكتبة مصر للطبعات ، ٢٠١٢ م .

(٢) السابق : الصفحة نفسها ، بتصريف يسير .

(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ص ١٤ .

بمقاومتها ، والرد عليها ، وإيقاف مفعولها ، من غير أن يلجأ إلى الهجوم المباشر ، أو يبدو في موقف يكون فيه هدفاً للانتقام " (١) .

وهذا التعريف يكشف عن الدور المهم الذي تقوم به السخرية في إظهار المتناقضات والسلبيات الموجودة في المجتمع ، بهدف العمل على مقاومتها ، وإيقاف انتشارها ، كما أنه يشير إليها باعتبارها أسلوباً غير مباشر في النقد .

***والسخرية أيضا هي :** " العنصر الذي يحتوي على توليفة درامية من النقد والهجاء والتلميح والتهكم والدعابة ، وذلك بهدف التعريض بشخص ما ، أو مبدأ ما ، أو فكرة ، أو أي شيء ، وتعريضه بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور فيه " (٢) .

*** ويرى الدكتور نعمان طه أن السخرية هي :** " النقد المضحك أو التجريح الهازئ " (٣) . وهذا يعني أن السخرية مهما كانت مضحكة إلا أنها تخفي وراءها هدفاً جادا ، وغاية إصلاحية نبيلة .

*** أما الدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - فيرى أن السخرية :** " أرقى أنواع الفكاهة ؛ لما تحتاج من ذكاء ، وخفاء ، ومكر ، وهي لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات ، ويستخدمها الساسة للنكايه بخصومهم ، وهي حينئذ تكون لذعا خالصا وقد تستخدم في رقة ، وحينئذ تكون تهكما " (٤) .

وإذا كان الدكتور شوقي ضيف يشير في كلامه السابق إلى استخدام الرفض في السخرية بجعلها من باب التهكم ؛ فإن كثيرا من النقاد والباحثين لا يتفقون معه في هذا الزعم ؛ لأنه من المعروف أن التهكم إنما يصدر عن النفوس العنيفة التي لا ترحم حمق الغير أو جهله فتهكم به .

وهناك تعريفات أخرى كثيرة للسخرية لا يتسع المقام لذكرها ، بل يكفي الإشارة إلى أن السخرية مظهرٌ من مظاهر النفس البشرية ، وسرٌّ من أسرارها ، والتي لها أثر كبير في درء مفسد المجتمع ، أو جلب مصالحه ، فما هي إلا أداة اصطنعها المجتمع لتأديب أفراد الخارجين عن تقاليده وأعرافه ، فلها أهدافٌ أعمق وأسمى .

٢. السخرية والهجاء والعلاقة بينهما :

جاء في لسان العرب: أن الهجاء في اللغة : الشتم بالشعر، وهو خلاف المدح ، وقد ذكر اللسان العربي لمادة (هَجَوْ) عدة معان لغوية : فالهجاء: القراءة وتقطيع اللفظة بحروفها، و هَجَوْ يومنا: اشتد حره، والهجاء: الضفدع ، وهجى البيت هجياً : انكشف، وهجيت عينُ البعير:

(١) السخرية في أدب المازني ، د : حامد الهوال ، ص ٣٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ م .

(٢) الأدب الساخر ، د: نبيل راغب ، ص١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠ م .

(٣) السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، د: نعمان أمين طه ، ص ١٤ ، الطبعة الأولى ، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ١٩٧٨ .

(٤) الفكاهة في مصر ، د : شوقي ضيف ، ص١٣ ، سلسلة دار الهلال ، فبراير ، ١٩٥٨ م .

أي : غارت^(١) ، فمادة الهجاء تدور - إذن - حول معاني البشاعة والقبح والشدة والنكال والكشف لذا عرفه بعض الباحثين بأنه : " تعدادٌ للمعائب، وكشفٌ لبشاعة الرذائل والنقائص في الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية "^(٢) .

- والهجاء عند نقاد الأدب نوعان : هجاء شخصي ، وهو ما عرّفته العربية ، ودرج عليه معظم الشعراء ، وهجاء اجتماعي ، ويراد به : " ذلك اللون التهكمي الساخر ، الذي يقصّد إلى إبراز عيب في المجتمع ، وتصويره في صورة بشعة ؛ رغبة في الإصلاح والتقويم "^(٣) .

وعلاقة السخرية بالهجاء ، اختلف النقاد والباحثون في تحديد ماهيتها على النحو التالي :

١- الترادف المشروط :

ذكر بعض الباحثين أن السخرية قد ترادف الهجاء ؛ إذا تحقق فيها شرطان : أولهما: صدق المعنى ، ومعناه : أن يذكر الشاعر تعليلاً للسخرية ، بأن يذكر لها سبباً يقتنع به السامع .

وثانيهما: صدق التصوير، ومعناه أن يكون حكم الشاعر على المسخور منه صادقاً ومقبولاً لدى السامع، ومناسباً للسبب الذي دعاه إلى السخرية منه .

فإذا تحقق هذان الشرطان في السخرية، كانت مرادفة للهجاء، مدرجة ضمنها، ولكن تحقق الشرطين في شعر السخرية أمر بعيد المنال ؛ لأن غالبية شعر السخرية غير معلل .

أما عن كون الحكم صادقاً ، ومقبولاً لدى السامع، فهذا أمر مستبعد أيضاً ؛ إذ كيف يكون الحكم مقبولاً لدى السامع ، والغرض من السخرية إثارة الضحك ؟ ! ، وإثارة الضحك لا تكون إلا بغريب الأحكام ، وأشدها مبالغة ، فإذا جاء الحكم على ما يتوقع لم تؤد السخرية غرضها^(٤) .

ولعل ذلك هو ما دفع بعض النقاد إلى القول بالمغايرة بين السخرية والهجاء من حيث المنشأ والغرض ؛ فالهجاء صادرٌ عن نفسٍ واجدة غاضبة حاقدة ، بينما السخرية صادرةٌ عن نفسٍ ساخرة ناقدة ، مبرأة من الحقد والغضب .

ثم إن الغرض من الهجاء التجريح والتشهير، والانتقاص والعدوان ، بينما الغرض من السخرية : التهذيب والتقويم والإصلاح ، ويكثر في الهجاء السب والإقذاع ، لكن السخرية لا سبّ فيها ولا إقذاع^(٥) .

٢- الامتزاج من ناحية والافتراق من ناحية أخرى :

ذهب بعض النقاد إلى القول بأن السخرية تمتزج بالهجاء من ناحية الوظيفة والغرض، فكلاهما غرضه واحد ، أو يكاد ، وهو الانتقام والتشفي ، لكنهما يفترقان من ناحية المادة أو الطبيعة التي يشتمل عليها كل منهما ، أو بتعبير آخر : هما يفترقان في طريقة الوصول إلى

(١) ينظر : لسان العرب - هجو .

(٢) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي ، ص ١٢ ، دار المسيرة - بيروت .

(٣) الشعر الاجتماعي عند جماعة الديوان ، د : رزق محمد داود ٨٤ (رسالة دكتوراه ١٩٨٦م) .

(٤) ينظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ص ٣٩٥ .

وأيضاً : شعر الهجاء بين الحطينة وابن الرومي (رسالة ماجستير) ، للباحث : عادل نصورة التمساحي ص ٦٣ وما بعدها .

(٥) ينظر: الفكاهة في الأدب ، د : أحمد الحوفي ، ٧٢/١ ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٥٦م .

الغرض المطلوب ، فالهجاء طريقة مباشرة في الهجوم على الخصم ، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة في الهجوم ^(١) .

٣- أن السخرية جزء من الهجاء وطور من أطواره :

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن السخرية مرحلة متطورة من مراحل الهجاء ، وقد ظهرت بشكل واضح في العصر الإسلامي على يد الحطيئة ، وحسان بن ثابت ، وغيرهما ، وإن كانت لها جذور في العصر الجاهلي ، وقد نمت وترعرعت عند شعراء النقائض ، واشتد عودها واستوى على سوقه في العصر العباسي ، حتى أصبحت سمة غالبية على معظم شعر الهجاء ^(٢) . وهذا معناه أن السخرية فن قائم بذاته في الهجاء ، يرتفع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع ، الذي يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة . وعلى ذلك ، فالعلاقة بين السخرية والهجاء علاقة عموم وخصوص ؛ فالهجاء مصطلح عام والسخرية مصطلح خاص ينضوي تحت لوائه ، وقد ظهر نتيجة ارتقاء الأذواق ، وتغير الطباع بسبب الحضارة .

ومع أن الأقوال السابقة قد اجتمعت على أن الهجاء يحمل بين طياته الحقد والكرامية والبغض ، وأنه يتسم بالغلظة والخشونة والجفاف ، فإن الهجاء قد يكون هو السلاح الوحيد في بعض الأحيان ؛ ذلك أن الفساد والتعفن حين يصل إلى قمته ، فإن التورية والتلميح والغمز واللمز تصبح أسلحة غير فعّالة بالمرّة .

ويشير بعض النقاد إلى أن إصابة الهدف بأقل قدر ممكن من التجريح من الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر في فن السخرية ، أما الهجاء الفاحش ، والإهانة ، والسب الصريح فلا يدخل في فن السخرية ، وإنما هو شيء آخر ^(٣) .

والظاهر أن هناك نوعين من الهجاء : نوعاً أنشئ لأجل الهجاء والسب والإقذاع فقط ، وهذا النوع ليس داخلاً في موضوعنا ، ونوعاً آخر قصد به السخرية ، فهو هجاء السخرية ، والشاعر لا يصدر فيه غالباً عن حقد أو سخط ، وإنما يعمد فيه إلى العبث بنفسية أحد الأشخاص وإظهاره في صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف ^(٤) .

٣. الساخر وصفاته :

هل القدرة على إنشاء السخرية وصياغتها متاحة لكل أحد ؟ وهل في وسع الشخص العادي أن يكون ساخراً ؟

حقيقة إن الإجابة على هذا السؤال من السهولة بمكان ؛ فالإجابة بالنفي واضحة مؤكدة ؛ ذلك أن السخرية ليست من السهولة واليسر بحيث تتاح لكل أحد ، بل ولا لعدد كبير في المجتمع الواحد

(١) ينظر: السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، د : نعمان أمين طه ص ١٠ .

(٢) ينظر : الهجاء في الأدب الأندلسي ، د : فوزي سعد عيسى ، ص ١٦ ، ١٧ ، دار المعارف .

(٣) ينظر : الأدب الساخر ، د : نبيل راغب ص ٢١ .

(٤) ينظر : الهجاء في الأدب الأندلسي ، ص ١٨٧ .

فالواقع يؤكد أن القادرين على السخرية ليسوا بالكثيرين ، ولا يمكن أن يقال إنهم يمثلون أي نسبة في مجتمع ما ؛ لأنهم من القلة بحيث لا يكونون نسبة ، وإنما هم أفذاذ بارزون في المجتمع فالمجتمع قد يبرز فيه ساخر واحد ، بل والأمة والعصر قد يمثل سخريتها شخص واحد ، فمثلا يبرز فولتير في الغرب ، والجاحظ في الشرق العربي في هذا المجال .

ويكاد يجمع الباحثون على أن الساخر لا بد أن تتحقق فيه عدة صفات حتى يكون ساخرا حقا ، وأكثرها متعلق بالناحية العقلية ، وهي صفات ملازمة للساخر نفسه كحسن المنطق ، والذكاء ، وسرعة البديهة ، وحسن التخلص ، والبراعة في الرد ، والتهكم ، والقدرة على التلميح ، كما تحتاج السخرية إلى العقلية الفذة القادرة على صياغتها ، بل إن الصياغة أهم عنصر في السخرية ، وفي أنواع الفكاهة كلها .
ويؤكد الجاحظ تلك الحقيقة فيقول : " ومتى سمعت بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ؛ فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت عن تلك الحكاية و عليك فضل كبير ، كذلك إذا سمعت بنادرة من العوام فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظا حسنا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها " (١) .

كذلك من صفات الساخر أيضا : أن يسيطر عليه الشعور بالتفوق ، والانتصار والاستعلاء على من يسخر منه ، وهذه حقيقة يؤيدها المنطق والواقع ؛ فالسخرية - بالإضافة إلى كونها أسلوبا عدائيا - تعني احتقار من توجه إليه السخرية ، وازدراءه في الجانب الذي تصوره السخرية ، والاحتقار والازدراء لا يعقل صدورهما إلا من الأقوى الأعز ، ولا يكفي فيها مجرد القوة والعزة ؛ بدليل أنك قد تكون قويا ولكن قد يكون لك خصم مكافئ فلا تستطيع أن تسخر منه وقد يقال : " إنه ربما تشاهد سخرية الضعيف من القوي كما يشاهد أحيانا سخرية بعض العاملين من رئيسهم ، أو المرؤوسين من زعيمهم ؛ مع أن الرئيس هو القوي المسيطر بحكم مركزه وسلطته وهم الضعفاء ، نقول : إن السخرية حينئذ لا تتأتى إلا في حالة شعور المرؤوسين بفشل رئيسهم ، أو عدم صلاحيته لمركزه فيتحول شعورهم نحوه إلى نوع من الاحتقار والازدراء قد يتيح لهم أن يسخروا منه فيما بينهم ، وحيث يستقر ذلك في نفوسهم يكونون في مركز نفسي أقوى من مركز الذي يسخرون منه مهما يكن ذا قوة مسيطرة " (٢) .

هذا عن صفات الساخرين عموما ، أما الساخرين المستهزئين بالرسول وأتباعهم وكتبهم في القرآن الكريم ؛ فقد نعتهم الله ﷻ بعدة صفات من أهمها ما يأتي :

١- الكفر :

يقول الله ﷻ : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة من / ٢١٢] ، فهؤلاء غرتهم الحياة الدنيا ، وطغوا وتجبروا في الأرض ، وفي قوله : ﴿ وَسَخَّرُونَ ﴾ إشارة إلى كفار قريش

(١) البيان والتبيين ، ١ / ١٤٥ ، ١٤٦ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، الطبعة السابعة ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

(٢) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د : عبد الحليم حفني ، ص ٢٥ .

لأنهم يعظمون حالهم في الدنيا ، ويرتبطون بها ، ويسخرون من أتباع النبي ﷺ ، كما أن التعبير بالفعل المضارع يؤكد استمرار السخرية من الذين آمنوا والنبي ﷺ أيضا ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُمُ كَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] . .
ويقول أيضا : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلهًا هُزُوا ﴾ [الأنبياء من / ٣٦] .

٢ - النفاق :

هو الوجه الآخر للكفر ، وقد قرن الله ﷻ بين المنافقين والكفار في الصد عن سبيله ، وفي السخرية والاستهزاء بدينه ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنذَرْتُمُوهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] .

فالنفاق حليف الكفر وربيبه ، وكما اجتمع المنافقون والكفار على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا ، فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة ، يقول الواحدي : " وقد نزل عليكم أيها المؤمنون في القرآن أن إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غير الكفر والاستهزاء ؛ وذلك أن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن ، فهى الله ﷻ المسلمين عن مجالستهم ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء من / ١٤٠] ، فكما اجتمعوا على الاستهزاء بالآيات يجتمعون في جهنم على العذاب " (١) .

لقد فضح الله ﷻ هذه الفئة المارقة التي تتخذ الإيمان ستارا لها ، تستر به فضائحتها ، ولذلك كان التهديد الرباني بقوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ نُنزِّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةً تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤] ، يقول الطبري : " إن الله أنزل هذه الآية على رسول الله ﷺ ؛ لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله ﷻ وذكروا شيئا من أمره وأمر المسلمين قالوا : لعن الله لا يفشي سرنا ، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : قل لهم : استهزئوا مهددا لهم متوعدا ، فكانت هذه السورة تُدعى الفاضحة " (٢) .

٣ - الجهل وعدم العقلانية :

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بقرَةً قَالُوا أَنُذِئِدْنَا هُرُوقًا قَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة : ٦٧] ، قال ابن الجوزي : " قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، وإنما

(١) التفسير البسيط ، ١ / ٢٩٦ ، ت د : محمد بن صالح الفوزان ، الرياض ، ١٤٣٠ هـ .

(٢) جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، ٦ / ٧١١ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

انتفى الهزء ؛ لأن الهازئ جاهل لآعب " (١) .
والآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ، وأن المستهزئ جاهل مستخف بوعيد الله تعالى (٢) .
يقول الأستاذ محمد رشيد رضا : " قالوا أتخذنا هزوا ؛ أي سخرية تهزأ بنا ، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم ، وجهلهم بعظمة الله تعالى " (٣) .

وقد وصف الله تعالى أولئك الجهلة بعدم العقلانية والفهم فقال : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ٥٨] .

أي : " وإذا أذن مؤذنكم داعياً إلى الصلاة سخرؤا من دعوتكم إليها ، واتخذوها هزوا ولعبا ، وإنما كان فعلهم لجهلهم بالله تعالى ، وما أوجب عليهم من تعظيم وثناء له عز وجل " (٤) .

٤ - الظلم :

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّغَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .
تشير الآية إلى ضرورة تجنب أمور ثلاثة فيها كل الإساءة إلى المجتمع الإيماني ؛ وهي السخرية ، واللمز ، والتنابز ، وبذلك يضع الإسلام قواعد اللياقة الاجتماعية ، والأدب النفسي في التعامل مع المجتمع الإنساني ، والذي لا يمتثل هذه الأوامر يكون من الظالمين ؛ لأنه حقر من وقره الله ، واستهزأ بمن عظمه الله ، يقول الطاهر بن عاشور : " وإذا كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي ، فقد وجبت التوبة منها ، فمن لم يتب فهو ظالم ؛ لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم ، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة ، مع التمكن من الإقلاع عن ذلك ، فكان ظلمه شديداً ، فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم ، كأنه لا ظالم غيرهم ؛ لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا " (٥) .

٥ - الإجمام :

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المطففين : ٢٩ - ٣٢] .
قال ابن عاشور : " الإجمام : ارتكاب الجرم وهو الإثم العظيم ، وأعظم الإجمام الكفر " (٦) .
ويقول المراغي : " ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ أي المعتدين الآثمين الذين ضربت نفوسهم على الشر ، وصمّت آذانهم عن سماع دعوة الحق ، كانوا في الدنيا يضحكون من الذين آمنوا " (٧) .

(١) زاد المسير في علم التفسير ، ١ / ٨٤ ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .
(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ١ / ٣٠٣ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
(٣) تفسير المنار ١ / ٢٨٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .
(٤) تفسير المراغي ، مصطفى المراغي ٢ / ١٤٦ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، بدون .
(٥) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٥٠ ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ، بدون تاريخ .
(٦) السابق : ١٥ / ٢١٠ .
(٧) تفسير المراغي ١٠ / ٨ .

ويقول الإمام الشوكاني : " ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ هم كفار قريش ومن وافقهم على الكفر ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ أي كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم بغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ ﴾ من مجالسهم انقلبوا معجبين بما هم فيه ، متلذذين به ، يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم ، والاستهزاء بهم ، والسخرية منهم " (١) .

٦- أخلاقهم من طباع النساء :

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات من / ١١] .

خص الله تعالى النساء بتكرار النهي عن السخرية من العباد مع شمولهن في قوله : ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ ؛ وذلك لتفشي هذه العادة السيئة بين اللواتي لم يفقهن عن الله أو امره ، ولم يحذرن غضبه وعذابه .

٤- أهم أسباب ودواعي سخرية القرآن الكريم :

حين تنتظر إلى سخرية القرآن الكريم نظرة تأمل وبحث ، تجد أنها أبعد مدى مما توحيه النظرة العجلى ، وبنظرة متأملة فاحصة لأسباب السخرية في القرآن الكريم ، وُجد أنه من الممكن تصنيفها إلى أسباب تتعلق بسخرية أهل الكتاب و المشركين من الرسل - عليهم السلام - وأسباب أخرى تتعلق بسخرية القرآن من أهل الكتاب و المشركين .

أولا : أسباب سخرية المشركين وأهل الكتاب من الرسل عليهم السلام :

١- كره الحق واستحباب الباطل :

الإسلام دين عام ، ونظام شامل ، جاء للناس جميعا ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة : ١٥ - ١٦] .

" جاء الإسلام بنظم ، وأفكار ، وعقيدة ، وأخلاق تخالف الجاهلية في أخلاقها ، وعقيدتها ، ومبادئها ، وأفكارها ، فكان ثورة على الجاهلية ، ومن ثم كان الصدام معها ، وقد سجل لنا القرآن الكريم - وعلى مدى دعوات الأنبياء جميعا - تصدّي أهل الجاهلية لدعوات الله ﷻ انطلاقا

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ، ٥ / ٥٧٦ ، تحقيق : سيد إبراهيم ، ط ٣ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م دار الحديث ، القاهرة .

من حقدهم وبغضهم لأصحاب الدعوات ؛ لأن دعواتهم تتعارض ومصالحهم وأفكارهم وشهواتهم " (١) ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت من / ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٢] .

وحيثما جاء النبي - صلى الله عليه وسلم - بدعوته ، كان موقف الكفار لا يتغير عن موقف الكفار الذين تصدوا لدعوات الأنبياء قبله ؛ فقد وصفوه بالشاعر والكاهن ، والمجنون والساحر ، وغيرها من التهم التي تُلصق في كل حين ، وفي كل عصر لأتباع سيدنا محمد ﷺ بأنهم رجعيون ، وإرهابيون ، وغير ذلك من التهم الباطلة .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦١﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجر: ٦ - ٧] ، وقال أيضا : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَرِيكَ لَشَاعِرًا مَّجْنُونًا ﴾ [الصفوات: ٣٦] وغيرها من الآيات .

٢- الاستخفاف والاستهانة والتعالي والكبر :

وقد بين الله ﷻ ذلك في قوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢] ، قال الطبري : " وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله : هذا سحر ، فإن كان حقا ، فهلا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف " (٢) ، فهم قد قالوا هذا الكلام استخفافا بسيد الخلق محمد ﷺ صلى الله عليه وسلم .

كما قص الله ﷻ علينا موقف فرعون مستهزئا بموسى ﷺ بقوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢] ، وما من شك في أن حب الظهور والتعالي على حساب الآخرين من أخلاق ذوي السخرية والاستهزاء ، وأصحاب النفوس المريضة ، وقد قص الله ﷻ

(١) محنة السخرية والاستهزاء بالدعوة في ضوء القرآن الكريم ، د : عبد السميع خميس العرابيد ، ص ٤٥٠ ، بحث منشور في كلية أصول الدين والدعوة ، الجامعة الإسلامية بغزة ، ٢٠٠٥ م .

(٢) جامع البيان ١٣ / ٦٤ .

علينا قصة الرجلين في سورة الكهف بقوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف : ٣٤] ، فلا غرابة في أن تجد أصحاب الكبر والإعجاب يتصفون بخلق السخرية والاستهزاء واللمز بالدعاة والمرسلين .

٣ - التقليد الأعمى :

يقول الله ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [التوحيات : ٥٢ - ٥٣] ، كأن هؤلاء القوم قد تواصلوا بهذا الاستقبال على مدى التاريخ والأزمان ، يقول الطبري : " كما كذبت قريش نبيها محمدا ﷺ وقالت : هو شاعر ، أو ساحر ، أو مجنون ، كذلك فعلت الأمم المكذبة رسلها ، الذين أحل الله بهم نعمته ؛ كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وفرعون وقومه " (١) .

لقد وصل هذا التواصل لمن مسخت عقولهم ، وفتنوا بالحضارة الغربية أو الشرقية في عصرنا الحاضر ، فأخذوا ينعمون بسخرية واستهزاء بمن يطلب بتحكيم شرع الله تعالى ، ويصفون تلك الشريعة بشريعة البتر ، والقطع ، والقمع ، والرجم ، وقد نقل الله ﷻ عن هؤلاء المقلدة قولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف من / ٢٢] .

٤ - الحسد :

الحاسد يريد أن يرى المحسود أقل درجة وأسوأ حالا ، فهو يعتقد أنه بتهجمه وسبه وتنقيصه والاستهزاء به والسخرية منه ينزل قدره ومقداره ، قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُتِنَ لَهُمْ الْحَقُّ ﴾ [البقرة من / ١٠٩] ، وقال : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٩] ، وقال أيضا : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] .

ولذلك كان تحذير رسولنا الكريم من الحسد المهلك للأمم التي كانت قبلنا بقوله : " دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين " (٢) .

٥ - الفراغ وحب الضحك على الآخرين :

فإنسان الذي خلا قلبه من الإيمان والتقوى يشعر بفراغ ، وسرعان ما يتجه لدروب الشيطان حتى يملأ فراغه ، ولو كان ذلك بالاستهزاء بالله ودينه ورسوله ، وبعض من أولئك يتلذذ

(١) جامع البيان ١٣ / ٨ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، مسند العشرة المبشرين بالجنة ، ١ / ١٦٥ - ١٦٧ حديث ١٣٥٥ .

بالضحك والسخرية من الآخرين ، قال تعالى : ﴿ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ نَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٠] ، وقال أيضا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ المطففين : ٢٩ ، وقد حذر النبي ﷺ من هذا الخلق السيء بقوله : " إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق " (١) .

٦- البغض :

والبغض أت من الحسد ، وهو سبب آخر من أسباب السخرية من المرسلين ، فالأشرار يسعون دائما إلى تشويه سمعة الأخيار بكل الوسائل ، وقد قص الله ﷻ علينا قصة النبي لوط عليه السلام حين بين أن سبب إخراجهم هو العفة والطهارة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، فعلى منطلق هؤلاء المجرمين لا بد من تحويل المجتمع كله إلى مجتمع رذيلة ، وسقوط ، وندس ، أما أن يبقى في الأمة أصحاب طهر وعفاف ، فهذا أمر لا يطيقه الأشرار ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] .

٧- حب المال :

فقد يحرص بعض الناس على جلب المال بأي صورة كانت ، حتى ولو كان الأمر يتعلق بالسخرية والاستهزاء بالدين ، كما يفعل بعض الممثلين الهابطين الساقطين في عصرنا الحاضر مقابل حفنة من الأموال ، فقد أصبحت السخرية بالدعاة فناً وبطولة ونجومية عند من لا يعقل ، حتى أصبح هذا الهزل يردد ويكرر عند بعض العوام ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان : ٦] ، أي : يشتري بماله ويشتري بوقته ، ويشتري بحياته ، ويبدل تلك الأثمان الغالية في لهو رخيص ليضل عن سبيل الله ، فهو جاهل محجوب ، وهو سيء الأدب ، يتخذ سبيل الله هزواً ، ويسخر من المنهاج الذي رسمه الله للحياة والناس .

ثانيا : أسباب سخرية القرآن من المشركين وأهل الكتاب :

١- الدفاع عن الإسلام ومواجهة أعدائه :

مما لا شك فيه أن أغراض السخرية في القرآن الكريم مهما تعددت فإنها تنتهي إلى غاية وهدف واحد ؛ هو الإصلاح العام ، والهداية الشاملة للبشرية كلها ، فإذا كان القرآن الكريم قد اتخذ من السخرية أو غيرها سلاحاً لحرب أعدائه ، فمن الواضح في مبادئ الإسلام - والذي

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقائق - باب حفظ اللسان ١١ / ٢٢٩ ، حديث رقم ٦٤٧٧ .

ينبغي أن يكون واضحا لكل نفس - أن أعداء القرآن لا ينبغي أن يُنظرَ إليهم على أنهم مجرد أعداء للمسلمين جماعةً أو أمةً ، وإنما يُنظرُ إليهم باعتبارهم أعداء الله ، والله ﷻ ليس بينه وبين أحد نسب أو صلة خاصة ، وليست عنده للمسلمين أو غيرهم محاباة أو تحيز ، وإنما الكلُّ عباده ، وهو - سبحانه - ربُّ الجميع .

وحين تمد البصر مع القرآن الكريم في نظرتة إلى أعدائه - الذين هم أعداء المسلمين - تجد أن الإسلام أحيط - ولا يزال يُحاطُ - بأموج عاتية ومتلاحقة من الأعداء الألداء ، والعداوات المتنوعة الألوان والوجوه ، ومن أبرز هؤلاء الأعداء ، وكانوا مرمى لسخرية القرآن : المشركين ، واليهود ، والنصارى ، والمنافقين ، فقد أحاطوا الإسلام - ولا يزالون - بكل أنواع العداوات ؛ لتحطيمه ، بل محوه من الوجود .

أما المشركون : فقد انقسموا في عداوتهم للمسلمين إلى ثلاثة أقسام :

- الأول : جمهور المشركين الذين كانوا يمثلون جبهة مضادة للإسلام وأهله .
- الثاني : جماعة معينة من المشركين ، كانوا يملكون - إلى جانب عداوتهم للإسلام - سلاحا آخر

هو سلاح السخرية ، وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] .

- الثالث : هم قادة المشركين أو أئمة الكفر كما سماهم القرآن نفسه ، والذين ميزهم بسخريات

خاصة ، مثل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ

فَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد : ١ - ٥] .

وأما اليهود ، فقد جعلهم القرآن أشد الناس عداوة للذين آمنوا في قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ

أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۗ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّا نَصْرَكَ ۗ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قَتِيلَةً مِّنْهُمْ فَيَتَّبِعُونَ ۗ ﴾ [المائدة : ٨٢] ، وقد أعلن

اليهود حربا عاتية ، متنوعة الأساليب والألوان على المسلمين والإسلام ، بعضها ظاهر ، وبعضها خفي ، وبعضها مباشر ، وبعضها غير مباشر ، وكان طبيعيا أن يبادلهم القرآن هذه الحرب ، وأن يوجه إليهم أسلحة متنوعة أيضا من بينها السخرية .

وأما النصارى ، فعلى الرغم من وضعهم في مؤخرة الأعداء بالنسبة للمسلمين إلا أنهم

نوع من الأعداء بدليل أن الله ﷻ شملهم في آية المائدة السابقة ؛ لأنها تتحدث عن أعداء المؤمنين ، وكل عدوٍّ لجنس المؤمنين فهو غير مؤمن ، ولا يختلف الوضع إن كانت اللام للعهد ، بمعنى أن يكون المقصود بالمؤمنين : المسلمين ، وهو الأظهر ، أو أن تكون اللام للجنس ؛ أي جنس المؤمنين .

وحين يتحدث القرآن عن النصارى لا يهاجمهم في خلق أو سلوك كما يفعل مع اليهود ، وإنما يركز حديثه في ناحية العقيدة ، فيسخر من اعتقادهم ألوهية عيسى - عليه السلام - وقولهم

بالتثليث ، يقول القرآن : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِئْتِي إِلَهُينِ مِن

دُونَ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّهِ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٣٦﴾ [المائدة : ١١٦] ، فالاستفهام في الآية يتضمن سخرية واضحة من النصارى .

وأما المنافقون ، فقد ابتلي المسلمون بهم منذ ظهور الإسلام بالمدينة ، وعانوا منهم ومن كيدهم عناء شديدا ؛ لأن هؤلاء استطاعوا أن يخلقوا حربا كاملة التنظيم عسكريا واقتصاديا ونفسيا ضد المسلمين ، فحزبوا الأحزاب ، ونظموا حروبا نفسية استهدفت تحطيم وحدة الصف داخل المسلمين أنفسهم ، خاصة بين الأوس والخزرج من جانب ، وبين المهاجرين والأنصار من جانب آخر ، ولا شك أن هؤلاء بما نظموا من حروب مختلفة قد أرهقوا المسلمين وكلفوهم من أرواحهم وأموالهم ونفسياتهم شططا ، ولكن القرآن الكريم تكفل المسلمين ، وتصدى للمنافقين بأقوى الأسلحة الفتاكة ؛ ومنها سلاح السخرية الذي اتخذوه - أيضا - سلاحا من أهم الأسلحة لحرب الإسلام والمسلمين (١) ، وفي الفصل الرابع من هذا البحث حديثا بالتفصيل عن ذلك ، وتحليل بلاغي مسهب .

٢- تقوية المسلمين وتحطيم معنويات أعدائهم :

مما لاشك فيه أن العداوات والحروب الفكرية التي مني بها المسلمون كانت تستهدف في أهم جوانبها الحرب النفسية ضد المسلمين ، حيث كان الهدف الأول من تلك العداوات هو زعزعة فكر المسلمين وعقيدتهم ؛ لأنها مصدر القوة المعنوية التي تمنح صاحبها قوة العزيمة والثبات ، وتحمل المشقة والتضحيات ، فإذا اهتزت العقيدة ضاعت الشجاعة والثقة بالنفس ، وتحطمت المعنويات ، ولذلك فإن القرآن حين اختار السخرية سلاحا من أهم أسلحة مقاومته وحربه لأعدائه ، إنما يعطي المسلمين سلاحا قويا نافذا يصدون به سخرية أعدائهم من جانب ، ويسهمون في تحطيم معنوياتهم وثقتهم بأنفسهم من جانب آخر .

٣- تسلية الرسول ﷺ والتسرية عنه :

إن من يتتبع سيرة الرسول ﷺ وحياته يجد أنه تحمل من ألوان العذاب والاضطهاد ما يفوق طاقة البشر ، ولذلك تجد القرآن كثيرا ما يسلي رسول الله ﷺ ويسري عنه همومه ، كقوله تعالى فيما يتعلق بالسخرية : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنعام : ١٠] ، وكقوله أيضا عن سخرية أعداء النبي ﷺ به : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَدَيْكَ إِذَا يُتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلْذَى يَذُكُّرُ الْهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكُّرُ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] .

وهذه السخرية لم يقف القرآن أمامها عاجزا، بل واجهها بسخرية أقوى وأشد وقعا حين

(١) ينظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ٥٤ ، وما بعدها .

سخر من المشركين في عقيدتهم وعقولهم ، وجعلهم في مرتبة الموازنة بينهم وبين الأنعام ، ثم فضل الأنعام عليهم في قوله جل شأنه : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُكَ إِلَّا هُرُوءًا أَلَدًا لَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٤١ - ٤٤] .

ومما لا شك فيه أن هذه التسلية وإن كانت منوطة بشخص النبي ﷺ ، إلا أنها ليست قصرا عليه وحده ، وإنما هي تسلية للمسلمين جميعا ؛ لأنهم يعانون مع النبي ﷺ بعض ما يعاناه .

ومن الواضح أن القرآن الكريم يعرض سخرية أعداء الرسول ﷺ به بكل ما تحمله من تهكم وتهوين ؛ ليشعرهم ويشعر المسلمين معها أنها غير ذات شأن ، ولو كان القرآن يرى أن فيها خطرا أو تأثيرا على نفوس المسلمين ما ساقها ، ثم بعد ذلك يدحض القرآن حججهم وأباطيلهم من خلال السخرية بهم ، ووضعهم في صورة مزرية مهينة ، يقول القرآن : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنَزِّلُ إِلَيْهِ كِتَابًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان : ٧ - ٩] .

٤- السخرية من أجل التغيير الاجتماعي :

اصطدم الإسلام في بداية ظهوره بمجتمع تسيطر عليه قوة العادات والتقاليد ، فلم يكن هناك قانون ، ولا سلطة تشريعية ، أو تنفيذية ، وإنما هي سلطة العادات التي تسيطر المجتمع وتتحكم في كل شؤونه ، حتى في نفسيات أفرادهم بخضوعهم وانقيادهم الكامل لكل ما هو موروث متبع عن الآباء والأجداد (١) .

ولذلك اتخذ القرآن الكريم سلاح السخرية والاستهزاء في مقاومة هذه العادات وتلك التقاليد ، وفي تحقيق التغيير الاجتماعي الذي كان من أبرز أهداف القرآن وسخريته ، فتجده يسخر سخرية لاذعة من تمسكهم باتباع الآباء على أي وضع وفي أية حال .

وكثيرا ما يسوق هذه السخرية في صورة استفهام تهكمي كقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوْلَوْكَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ

كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بكم عُمى فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة : ١٧٠ - ١٧١]

ويقول أيضا : ﴿ إِنَّمِ الْفُؤَاءِ ءِآبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦١﴾ فَهُمْ عَلَى ءِثَرِهِمْ يَرْعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات : ٦٩ - ٧٠] .

٥. أساليب السخرية في القرآن الكريم :

تعددت أساليب السخرية في القرآن الكريم وتتنوع ، فجاءت مباشرة بألفاظ صريحة مثل : سخر ، ونسخر ، ويسخر ، وسخرنا ، وغيرها ، كما جاءت بشكل غير مباشر في صور وأساليب شتى ، من أهمها ما يأتي :

١- السخرية بالمشاكلة كقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧] .

٢- استعمال ألفاظ البشارة في موضع النذارة ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران من / ٢١] .

٣- السخرية بالمقابلة بين حالين كقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤٤] .

٤- السخرية بالصوت ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

٥- استعمال ألفاظ المدح والمقصود الذم ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود من / ٨٧] .

٦- استعمال ألفاظ الوعد في مكان الوعيد ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا بِغَائِثٍ بِمَاءٍ كَأَمْهَلٍ يَشْوِي الْوُجُوهُ ﴾ [الكهف من / ٢٩] .

٧- الاستهانة بعقول الكافرين ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَوْهَمُوا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] .

٨- السخرية بالتعريض في المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ من / ٢٤] .

٩- استعمال ألفاظ الإجلال في موضع التحقير ، أو ما يسمى السخرية بالقلب في اللفظ ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] .

١٠- السخرية بالتبكيث كقوله تعالى على لسان أهل الجنة لأهل النار : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَفَقِّهُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلذَّيْتِ ءَأَمِنُوا أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣] .

١١- السخرية بالإشارة والحركة كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠] .

٦. خصائص السخرية في القرآن الكريم :

تمتاز سخرية القرآن الكريم بعدة خصائص من أهمها ما يلي :

١- الإيجاز (١) ؛ حيث إن اللفظة الواحدة المستخدمة في السخرية والتهكم تحمل من المعاني والدلالات شيئا كثيرا ، وتوفر جملة من الكلام في كلمة واحدة ، ولو أخذت كلمة (الفتح) في قوله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفِينُوا فَعَدَّ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال من / ١٩] مخاطبا كفار قريش لوجدت أن هذا اللفظ يثير جملة من المعاني والتصورات ، ويبعث على التساؤلات ، كيف كانت الهزيمة التي لحقت بهؤلاء فتحا ؟ ولم سماها الله بذلك ؟ وكيف استطاع القرآن أن يحول كل ما لحق بهم من قتلٍ وأسرٍ وضياحٍ للأموال إلى نصر ؟ ثم ما الذي فعله هؤلاء حتى يقال لهم ذلك ؟ أما كان بالإمكان أن يكتفي القرآن بعدم استجابة استفناحهم ؟ إن هذه التساؤلات وغيرها مما يحمله لفظ الفتح في طياته ههنا ، وهذا من الإيجاز ما لا غاية وراءه .

٢- العفة والطهارة (٢) ، فلا تجد في سخرية القرآن الكريم ما قد تجده في سخرية البشر من الإقذاع والإفحاش وسقط الألفاظ ؛ ذلك لأن القرآن الكريم هو من كلام الله تعالى ، والله عليم بمنزلة عن كل عيبٍ ونقص ، ونزلة كتابه عن كل ما ينفر ؛ ليكون كتاب دعوة وهداية .

٣- السمو والتعالي : حيث إن القرآن الكريم لا يلتفت في سخريته إلى سفاسف الأمور وسقطها ، بل إنه يعالج قضايا جوهرية ومفصلية تمس حياة الإنسان ، وتشكل عاملا أساسيا في طبيعة وجوده في هذا الكون ، ولا ينزل سخريته إلى المستوى البشري الذي يحمل في طياته أحيانا طابع الغل والحقد الشخصي (٣) .

٤- التنزه عن العبث واللغو ، فلا تجد القرآن الكريم ولو لمرة واحدة يقصد من سخريته مجرد الضحك على نحو ما قد تجده في أساليب البشر ، إذ إن ذلك ضرب من العبث ، والقرآن كله منزله عن العبث .

٧. الأغراض البلاغية للسخرية في القرآن الكريم :

١- التأكيد وتمكين المعنى ، كما في قوله تعالى حكاية عن الكفار والمنافقين : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران من / ٢١] ، فجاء التعبير بالبشارة وموضعها الخير في سياق الشدة والعناء ، والغرض تأكيد وقوع العذاب (٤) .

٢- التوضيح والتفسير ، ومن هذا القبيل قوله تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَخَكَبٌ شَهَدْتُهُمْ وَيَسْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] ، فإن هذا يدل على

(١) ينظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ص ١١٦ وما بعدها .

(٢) ينظر : التصوير الساخر في القرآن الكريم ، د : عبد الحلیم حفني ص ٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م .

(٣) ينظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ص ١٢١ .

(٤) ينظر : مجاز القرآن ، خصائصه الفنية والبلاغية ، د : محمد حسن الصغير ، ص ١٥٣ ، الطبعة الأولى ، دار المؤرخ العربي ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ .

الجهل العظيم ؛ إذ إنهم نطقوا بما لا سبيل لهم إلى معرفته ، ولا إثارة لهم من علم ، ويوضح ذلك الصورة الساخرة في قوله تعالى : (..... أشهدوا خلقهم ؟) ، فإن ما نطقوا به لا يقدم عليه إلا جاهل أعمى البصيرة (١) .

٣- التنبيه وإثارة الاهتمام (٢) ، كما في قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] ، فإن الوصف بالعزة والكرامة مع الأمر بذوق العذاب ، أمرٌ لافت للنظر ، ويبعث على التفكير والانتباه .

٤- الاستبعاد ، ومن شواهد قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَا وَعَدَ اللَّهُ فَأْمُرْنَا عَلَيْهِمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، فإن طلبهم للعذاب ليس على حقيقته وإنما لاستبعاد أن يكرم الله - تعالى - نبيه ﷺ بإنزال القرآن عليه ، على حد زعمهم حسداً من عند أنفسهم (٣) .

٥- التهديد والتهويل (٤) ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَتَزَلَّ مِنَ حَمِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٩٣] ، فإن جعل الحميم نزلاً فيه من التهديد ما لا يوصف ؛ لما يوحيه من العذاب الأليم ، فإذا كان أول ما يلاقونه الحميم فكيف بما وراءه .

٦- التحقير نحو قوله تعالى على لسان كفار قريش : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخُذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان : ٤١] ، فالاستفهام ليس على حقيقته ، وإنما هو من باب التهكم ، ومرادهم تحقير شأن النبي ﷺ ، وحاشاه .

٧- التنبيه على الوهم والحمق ، نحو قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد من / ١١] ، فإن مَنْ فسر هذه المعقبات - هنا - بالحرس ، جعل ذلك من باب التهكم (٥) والغرض منه الدلالة على الحمق والوهم ، فإن هذه الأعوان لا تنجّي محروسها من أمر الله .

(١) ينظر : البديع في القرآن الكريم أغراضه ووظائفه ، إبراهيم علان ، ص ٤٧٦ - الطبعة الأولى ، دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة ، ٢٠٠٢ م .

(٢) السابق ص ٤٧٦ .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، عبد الحق غالب بن عطية الأندلسي ، (٨ / ٥١) ، ت : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، لبنان - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

(٤) ينظر : البديع في القرآن الكريم ص ٥٢٨ .

(٥) ينظر : الكشاف للزمخشري ٣ / ٣٤٣ ، ت الشيخ : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

٨. مواضع السخرية في القرآن الكريم :

وردت السخرية بنوعيهما اللفظية والمعنوية كثيرة ماثورة في القرآن الكريم ، واختلفت باختلاف السياقات والأشخاص والأمم التي وجهت نحوها تلك السخرية ، فقد وردت في مواقف الأمم السابقة مع رسلهم ، ووجهت نحو المشركين ، واليهود ، والمنافقين ، وغيرهم من أعداء الدين .

- أما السخرية في مواقف الأنبياء مع أقوامهم ، فتمثلت في السخرية من نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى (عليهم جميعا وعلى نبينا الصلاة والسلام) .

فالسخرية من نوح عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] .

والسخرية من هود عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَّ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسْمِهِ ﴾ [هود : ٥٣ - ٥٤] .

والسخرية من صالح عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء : ١٥٣ - ١٥٤] .

وسخرية إبراهيم من الأصنام كقوله تعالى : ﴿ ..أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ [الصافات : ٩١ : ٩٢]
والسخرية من لوط عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ ﴿١٠٦﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] .

والسخرية من شعيب عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] .

والسخرية من موسى عليه السلام كقوله تعالى على لسان فرعون : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : ٢٧] .

ومن أمثلة السخرية من المشركين قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٦] .

ومن سخرية القرآن من اليهود قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥] .

ومن سخرية القرآن من المنافقين قوله تعالى : ﴿ بَشِيرٌ الْمُنْفِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٣٨] .
وآيات أخرى لا يتسع المقام لذكرها ، وسيتم تحليلها بلاغيا بالتفصيل من خلال هذه الدراسة .

٩. الأثر البلاغي لأسلوب السخرية في القرآن الكريم :

القرآن الكريم كله في درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة ، مهما تعددت موضوعاته ، وتنوعت أساليبه في التعبير ، ولا شك أن السخرية تمثل أسلوباً بارزاً من أساليب التعبير القرآني ووجوه مخاطباته ، فلا بد وأن يكون له أثره البلاغي ، وهذا ما نبه إليه العلوي في حديثه عن التهكم فقال : " وله موقع عظيم في إفادة البلاغة والفصاحة " (١) .

وإذا كانت البلاغة : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فلا غرو أن تكون السخرية من أساليب القرآن الأعلى بلاغة ؛ لما لها من فاعلية هادفة في النفس ؛ تؤثر فيها ، فتحرك مكنوناتها ، وتستثير ملكاتها ، فيتحقق المقصود ، ولا يتحقق هذا إلا باختيار أحسن الألفاظ المعبرة ، والمؤثرة في أعماق النفس ، وهذا مدلول قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء من / ٦٣] .

ثم إن السخرية من الأساليب الموجهة إلى النفس ، تحدث فيها ما لا يحدثه ضرب السيوف إذ لا شيء يهز كيان الشخص ، ويحطم من قوته المعنوية سوى شعوره بأنه أصبح سخرية لأحد (٢) ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك الأثر الذي يتركه التهكم في نفس الشخص المتهم عليه ، وكيف يصل به إلى حالة من الضيق عظيمة فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] ، أي : ما يقولون من الشرك ، والطعن في القرآن ، والاستهزاء بك (٣) .

وقد أكد الله - تعالى - هذا الضيق بعدة مؤكدات : اللام ، قد ، والنون المشددة ، والفعل المضارع بالإضافة إلى لفظ الضيق نفسه .
وقد كثر استعمال القرآن الكريم لهذا الأسلوب مع أعداء الله تعالى ، خاصة في القضايا الكبرى ؛ كالوحدانية ، والنبوة ، والبعث ، والتي كان إنكارها متأصلاً فيهم ، ويعتقدون أنهم الأصح منهاجاً فأراد الله ﷻ أن ينبههم على فساد عقائدهم ، وسذاجة مسالكهم عن طريق هذا الأسلوب .

أما الوجه الآخر في أثر السخرية البلاغي ؛ فيظهر في أنها تأتي غالباً في صورة الاستعارة ، والاستعارة لها من السحر والقدرة على التخيل والإيحاء ما لا يخفى ؛ (حيث إن تركيبها يدل على تناسي التشبيه ، فيتخيل السامع صورة جديدة رائعة تنسيه ما تضمنه الكلام من تشبيه مستور) (٤) .

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ٣ / ١٦٢ ، مطبعة المقتطف - القاهرة ، ١٣٣٣هـ - ١٩١٤م .

(٢) ينظر : التصوير الساخر ص ٢٤ .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، ٢ / ٤٤٠ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١هـ .

(٤) ينظر : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، للسيد أحمد الهاشمي ، ص ٣٦٦ بتصرف يسير ، ت - د : يوسف الصميلي - المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت - لبنان . بدون تاريخ .

فحين تسمع قول الله ﷻ وهو يخبر عما أعدَّ للكافرين من ألوان العذاب الأليم في الآخرة ﴿وِظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة : ٤٣] ، تجد أن استعارة الظل ، ونسبته لليحموم - وهو دخان جهنم الأسود الحار - تفتح المجال واسعا كي يتخيل الإنسان طبيعة هذا الظل ، وكيف يكون ؟ وهل فيه ما في الظل الحقيقي من البرودة والراحة ؟ وإذا لم يكن كذلك فلماذا يسميه الله ظلا وهو لا يقل أذى وحرارة عن جهنم ؟ فكيف سيكون حالهم وهم يستظلون بهذا اللهب ؟ ثم ما جرم هؤلاء حتى يُعدَّ لهم مثل ذلك الظل ؟ إن مثل هذه الأسئلة والتصورات وغيرها مما توضحه صورة التهكم هنا ، فتحرك مكنونات النفوس ، وتلهب مشاعرها ، وتستثير كوامنها ، فتكون أقوى في الدلالة ، وأعمق في التأثير ، وهذه هي البلاغة .

وبعد ... فهذا غيظ من فيض في أثر السخرية البلاغي ، وما سيق من شواهد فهو للاستشهاد فقط ، أما التحليل البلاغي المفصل لمواضع السخرية ، وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم فسيأتي بعون الله وتوفيقه في ثنايا البحث ، وأسأل الله ﷻ التوفيق والسداد .

الفصل الأول

السخرية في مواقف الأنبياء مع أقوامهم وأسرارها البلاغية
وفيه سبعة مباحث :

- المبحث الأول : السخرية من نوح عليه السلام وعاقبتها .
- المبحث الثاني : السخرية من هود عليه السلام والرد عليها .
- المبحث الثالث : السخرية في قصة ثمود مع النبي صالح عليه السلام .
- المبحث الرابع : سخرية إبراهيم عليه السلام من قومه .
- المبحث الخامس : السخرية في قصة لوط عليه السلام مع قومه .
- المبحث السادس : السخرية في قصة شعيب عليه السلام مع قومه .
- المبحث السابع : السخرية في قصة موسى عليه السلام مع فرعون .

الفصل الأول

السخرية في مواقف الأنبياء مع أقوامهم وأسرارها البلاغية

اقتضت حكمة الله - تعالى - وسنته أن يكون الحق في صراع أبدي مع الباطل ، فمنذ أن ولد الخير ، ووجد الشر ، والصراع بينهما عنيف ، فما من رسول أرسل ، ولا نبي بُعث إلا وواجه شدائد ومحناً وابتلاءاتٍ على رأسها السخرية والاستهزاء به وبدعوته ، قال تعالى :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزخرف : ٧] .

وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] ، وتكاد المحن والعقبات أن تكون ملاصقة للدعوة الإسلامية قديما وحديثا ، مما دفع كثيرا من الدعاة للشكوى من عنت الساخرين المستهزئين ، ولكن عندما وقفوا على سيرة المرسلين والدعاة من قبل ؛ وجدوا أن ما حدث لهم من سخرية واستهزاء ، إنما هو في حقيقة الأمر يمثل تسرية وعزاء وقدوة ، قال تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ ۗ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وحين تقرأ القرآن الكريم تجد أنه كثيرا ما يورد قصص الأنبياء والمرسلين ؛ لنعتبر ونتعظ ونأخذ من سيرهم - عليهم السلام - منهجاً ، فهم يحتلون الصدارة في البلاغ عن الله تبارك وتعالى ، وقمة النجاح في استخدام الأسلوب المناسب مع أقوامهم ، فلا تكاد تفتقد الحوار والجدل بين الأنبياء وأقوامهم ، أي قصة من قصص الأنبياء ، فكانوا يخاطبون أقوامهم ، ويجادلونهم أفرادا وجماعات ، وأقصد هنا حوار الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله - عز وجل - لأقوامهم ، سواء كان معهم كتاب سماوي ، أو بعض الصحف والألواح ، ومما كان يغلف هذه الحوارات أسلوب السخرية الذي كان شائعا في هذه القصص .

وفي هذا الفصل تتجلى مشاهد من هذه السخرية ؛ وسيتم بعون الله - تعالى - التحليل البلاغي المتعمق لها ؛ في محاولة للكشف عن بعض أسرارها البلاغية ، من خلال المباحث التي يحتوي عليها ، وأستعين بالله ﷻ على ما أرجو جلاءه وبيانه .

- المبحث الأول : السخرية من نوح ﷺ وعاقبتها :

بعث الله نوحًا ﷺ إلى قومه لما عُبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد ، " وكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول أهل الموقف يوم القيامة ، وكان قومه يقال لهم بنو راسخ " (١) ، وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير موضع من كتابه العزيز ، في الأعراف (٢) ويونس (٣) ، وهود (٤) ، والأنبياء (٥) ، والمؤمنون (٦) ، والشعراء (٧) ، والعنكبوت (٨) ، والصفوات (٩) ، والقمر (١٠) ، وأنزل فيه سورة كاملة (١١) .

وقد مكث نوح ﷺ في دعوته قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، دعاهم بشتى وسائل وطرق الدعوة ليلا ، ونهارا ، سرا وعلانية ، فرادى وجماعات ، فقبيل بالعناد الشديد ، والسخرية والاستهزاء ، لكنه لم ييأس ، واستمر في دعوته ، حتى أوحى الله - تعالى - إليه :

﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] .

وبالمجمل ، فقد تعرض نوح ﷺ من خلال دعوة قومه للإساءة والأذى الذي تمثل في أمور تدل على النقائص الأخلاقية التي كانت عند هؤلاء القوم ، والتي كان يدعو إلى مقابلها من مكارم الأخلاق ، بجانب دعوته إلى التوحيد ، وتتلخص هذه النقائص فيما يأتي :

١- إسراف الملأ من قومه في الطعن والزراية به ؛ حيث قالوا بصيغة التأكيد : ﴿ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف من / ٦٠] .

٢- ازدرأؤهم لأتباعه واحتقارهم ؛ بسبب قلة ذات اليد ، وخلوهم من الجاه والرياسة ، وكونهم من طبقة الصناع وأصحاب الحرف ﴿ وَمَا نَرِيكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن كَفُرُوا ﴾ [هود : ٢٧] ، وسيتم تحليل هذه السخرية بلاغيا بالتفصيل في موضعها .

٣- تكذيبهم نوحًا ﷺ في دعوى الرسالة احتكاما إلى القيم المادية في موازنة الأمور ﴿ وَمَا نَرِي

لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نُنظِّمُ كَذِبَاتٍ ﴾ [هود من / ١٥] .

(١) قصص الأنبياء للإمام الحافظ ابن كثير ١ / ٨٤ - ت . د : عبد الحي الفرماوي - دار الطباعة والنشر الإسلامية - الطبعة الخامسة - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

(٢) ٥٩ - ٦٤ .

(٣) ٧١ - ٧٣ .

(٤) ٢٥ - ٤٩ .

(٥) ٧٦ - ٧٧ .

(٦) ٢٣ - ٣٠ .

(٧) ١٠٥ - ١٢٢ .

(٨) ١٤ - ١٥ .

(٩) ٧٥ - ٨٢ .

(١٠) ٩ - ١٧ .

(١١) سورة نوح .

٤- السخرية والاستهزاء بنبي الله وأتباعه ، وقد وردت في ثمانية شواهد (١) بصيغ مختلفة ، منها ما هو صريح بلفظ السخرية ، ومنها ما هو معنوي يفهم من السياق .

وأول شواهد ما قوله تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسِمْ ﴿٥٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْبَىٰ الرَّاْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَعَاسَىٰ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أُنزُلُمُكُمْ هَا وَاتَمَّ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٥٨﴾ وَيَتَقَوَّمُ لَكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأِنْ أَجْرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِيْنِ أَرْسَلَكُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ ﴿٥٩﴾ وَيَتَقَوَّمُ مِّنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٦٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٦٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٦٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴿٦٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ [هود : ٢٥ - ٤٠] .

الآيات السابقة وردت في سورة هود عليه السلام ، وهي سورة مكية نزلت لتعنى بأصول العقيدة ، والتوحيد ، والرسالة ، والبعث ، والجزاء ، كما تستعرض ما جاء به النبي ﷺ ، وما جاء به الرسل من قبله ، من غرس للعقيدة الصحيحة ، ونبذ للشرك ، ودعوة للتوحيد ، كما تعنى بقصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بإيجاز في بعضها ، وإسهاب في الأخرى

(١) ينظر : الأعراف ٥٩ ، وهود ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٨ والمؤمنون ٢٤ ، ٢٥ والقمر ٩ .

معاني المفردات :

أرادنا : أسقاطنا أشرارنا ناقصو الأقدار (رذل - المعجم الجامع لمفردات غريب القرآن) .

بادي الرأي : ظاهر الرأي (بدا - المعجم الجامع) .

عميت عليكم : اشتبهت عليكم (عمى - المفردات في غريب القرآن) .

تزدري أعينكم : تستحقهم وتستهن بهم (ازدري - معجم كلمات القرآن) .

التنور : نبع الماء (نور - المعجم الجامع) .

تبعاً لمقتضيات الأحوال ، وقد جاء ذكر هذه القصص على الترتيب الزمني لوجودهم ، وفي كل قصة الكثير من الآيات والعبر .

وهذه الآيات تحكي قصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، حيث بين لهم أنه نذير مبين ، وأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم ، لكن علية القوم المتكبرين أعمتهم الدنيا عن بلاغ الله لنوح - عليه السلام ، ورفضوا أن يكون الرسول من البشر ، وإن جاز ذلك فلا بد أن يكون من أمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض ، كما سماوا الفقراء من الناس ممن اتبع نوحاً عليه السلام بالأراذل ؛ لأنهم اتبعوه بلا روية ولا تفكير من وجهة نظرهم ، ولا يليق بالكبراء أن يهجوا نهجهم ، أو يسلكوا طريقهم .

وتوضح الآيات أن نوحاً عليه السلام قابل هذا الاتهام والإعراض والاستكبار في سماحة النبي واستعلائه ، وفي ثقة بالحق الذي جاء به ، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله ، فتلطف في توجيه أنظارهم ، وبصرهم بأن الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها ، بل إلى مبدأ عظيم قويم هو مبدأ الاختيار في العقيدة ، والافتناع بالنظر والتدبر ، وأن المؤمنين الذين وصفوهم بالأراذل قد آمنوا به حين دعاهم ، وليس له عند الناس إلا الإيمان ، فلم يطلب مالا من هذه الدعوة ، ولن يطرد هؤلاء المؤمنين بناء على طلبهم .

ثم نفى نوح عليه السلام عن نفسه ورسالته كل قيمة زائفة ، وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملامن قومه في الرسول والرسالة ، من مال ، أو جاه ، أو سلطان .

وعند هذا الحد ، كان الملامن قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة ، فأخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجة ، فتركوا الجدل إلى التحدي ، وطلبوا من نوح عليه السلام أن يأتيهم بالعذاب الأليم الذي أنذرهم به ؛ متعللين بعدم تصديقه ، وعدم مبالاتهم بوعيده . ولكن نوحاً عليه السلام ردهم إلى هذه الحقيقة ؛ وهي أنه ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا البلاغ ، أما العذاب فمن أمر الله ، وهو الذي يدبر الأمر كله ، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله ، وسنته هي التي ستنفذ ، وما يملك هو أن يردّها أو يحولها .

ويمضي السياق في القصة ليعرض مشهداً ثانياً ؛ وهو مشهد تلقي نوح عليه السلام وحي ربه بصنع السفينة ، وعدم مخاطبته في هؤلاء الظلمة ، فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد ، وقد تقرر مصيرهم ، وانتهى الأمر .

وعندئذ اعتزل نوح عليه السلام القوم ، وترك دعوتهم وجدالهم ، وبدأ يصنع السفينة ، ولكنهم لم يتركوه في حاله ، بل كانوا يمرّون عليه ، ويسخرون منه ، حتى حانت اللحظة المناسبة ، وفار التهور ، وجاء الأمر الإلهي بأن يحمل في السفينة معه من كل زوجين اثنين وأهله ومن آمن إلا من سبق عليه القول منهم .

ثم ختمت الآيات بمشهد الطوفان الرهيب ، وما حدث من غرق قومه ، ونجاة نوح عليه السلام ومن معه بقدره الله - عز وجل - ورحمته بعباده المؤمنين .

هذا عن السياق الذي وردت فيه القصة ، أما مواضع السخرية فتبدو في ثلاثة مواضع :

١- الأول في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَبُّكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا نَرَبُّكَ أَنْبَعَكَ

إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿ [هود : ٢٧] .

٢- والثاني في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا فَإِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود : ٣٢] .

٣- والثالث في قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] .

أما السخرية الأولى فجاءت في سياق دعوة سيدنا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ، وإنذارهم بالعذاب الأليم يوم القيامة ، وتوجيههم إلى ما فيه نجاتهم وخلصهم ، حيث قابلوا دعوته المفعمة بمشاعر الأخوة والتلطف والاستمالة بالتطاول المتعنت ، والاستكبار ، وسوء الأدب ، والسخرية منه ومن أتباعه .

- فسخروا منه بقولهم : ﴿ مَا نَزَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ .

- وسخروا من أتباعه بقولهم : ﴿ وَمَا نَزَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ ﴾ .

- ثم سخروا منه ومن أتباعه جملة بقولهم : ﴿ وَمَا نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴾ .

وقد استخدموا في هذه الآية كل الوسائل المعينة على السخرية - في تقديرهم - حيث بنوا

قولهم : ﴿ مَا نَزَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ على القصر الذي طريقه النفي والاستثناء بما وإلا ، وهو أبلغ في مقام الإنكار والجحود والعدا ، والغاية من ذلك تحقير نوح عليه السلام ، والتهوين من شأنه ، فهو في منظورهم ليس أهلا للرسالة ، وليس فيه مزية تخصه بالنبوة دونهم ، ولذا نزلوا نوحًا عليه السلام منزلة من يدعي أنه ملك ، وردوا عليه بالنفي والاستثناء ، وأكدوا بشريته بقصر الصفة على الموصوف قصرًا إضافيًا ، ولا شك أن اختيارهم هذا النوع من القصر - تحديدًا - له قيمة بلاغية يوضحها شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني في قوله : " وأما الخبر بالنفي والإثبات ، نحو : ما هذا إلا كذا ، وإن هو إلا كذا ، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، فإذا قلت ما هو إلا مصيب ، أو ما هو إلا مخطئ ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت : ما هو إلا زيد ، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أن ليس بزيد ، وأنه إنسان آخر ، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك " (١) .

وكما يرى الدكتور محمد أبو موسى : (أن هذا الأسلوب لا يأتي إلا في المقامات التي هي أكثر توترًا وأعلى حرارة ، والتي يكسوها النبرة العالية ، والنغمة الحاسمة ، والتعبير الشديد الذي يستدعي مزيدًا من الوثاقة والتركيز) (٢) ، وقد كثر في القرآن الكريم حين تحدث عن القضايا التي تصف عناد المشركين في قضايا الوجدانية ، والغيب ، والرزق (٣) .

(١) دلائل الإعجاز ٣٣٢ ، ت محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) دلائل التراكم ص ١٠٥ بتصرف - الطبعة الثانية - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م - مكتبة وهبة - القاهرة .

(٣) ينظر : البلاغة القرآنية د : صباح عبيد دراز ٣٢ - ٣٤ - المطبعة التوفيقية - مصر - بدون تاريخ .

وجملة القصر عموماً يفوح منها " تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم " (١) ، وهذا يؤكد نظرة الاستخفاف منهم تجاهه عليه السلام بدليل استخدام الفعل الماضي - الدال في أصل وضعه على اليقين - والذي يُظهر تيقنهم بالعين والقلب من كونه إنساناً لا يزيد عليهم جوارح أو قوائم زائدة ، ويجزم بأنه غير حقيق بالسيادة عليهم (حاشاه) ، فضلاً عن إيهام السامع بأن ما قالوه في حق نوح عليه السلام لم يصدر جزافاً ، بل جاء بعد التأمل في الأمر والتدبر فيه ، والذي بنوه على شبهات تافهة تنم عن سخف وركاكة عقل ، حيث لا يجوز - في منطقهم - أن يكون الرسول من البشر .

وبعد أن سخروا منه عليه السلام ، سخروا من أتباعه بقولهم : **وَمَا زَنَّاكَ أَتْبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ** ، والسخرية هنا نابعة من موقفهم الرفض للدعوة ؛ حيث إنهم لما فرغوا من السخرية من نوح عليه السلام اتجهوا إلى السخرية من أتباعه ، ونظروا إليهم نظرة دونية فيها استحقار وازدراء وإهانة بنفس الطريقة وبذات الأسلوب ؛ بالقصر الذي طريقه النفي والاستثناء بـ (ما) و (إلا) ، حيث قصروا أتباع دعوة نوح عليه السلام على الأراذل من قومه قصر صفة على موصوف قصرها إضافياً ، وبنوا جملة القصر - على إيجازها - من ألفاظ وتراكيب وصور بلاغية غاية في القوة ؛ ليدرك المتلقي أن هؤلاء المعنيين بالسخرية جديرون بها ، بل هم أكثر جدارة بها - حاشاهم - ، فعبروا بفعل الرؤية للإيحاء بجزمهم وتأكدهم من رذالة هؤلاء الأتباع وحقارتهم بين الناس ، وأوردوا صيغة الافتعال (اتبعك) دون (تبعك) بزيادة في المبنى ؛ للزيادة في المعنى وهي الإيحاء بأن هؤلاء الفقراء قد عالجوا أنفسهم حين دعاهم نوح عليه السلام حتى انقادت طباعهم إلى غير ما تشهد به الفطرة ، وكأنهم يؤكدون أن الذين اتبعوا نوحاً عليه السلام قد خرجوا - في نظرهم - عن الفطرة السليمة التي ورثوها عن الآباء والأجداد ، وتسرعوا في متابعتها ، وأنهم لو أعادوا النظر وتأملوا لعلموا أن نوحاً لا يستحق أن يُتبع - حاشاه .

كما أنهم عبروا عن الأتباع بالموصول وضمير الفصل فقالوا : **(الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا)** ولم يقولوا : **(إِلَّا أَرَادُوا)** ؛ " للإيحاء إلى شهرة أتباع نوح عليه السلام بينهم بوصف الرذالة والحقارة " (٢) وذلك إمعاناً في السخرية منهم والتهمك بهم ، ليس هذا فحسب ، بل إنهم وصفوهم بـ (الأراذل) جمعاً ومعرفة ؛ " للمبالغة في استزدالهم لفقيرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية ، أو لسرعة اتباعهم لنوح عليه السلام من غير تأمل ، وهو جهل منهم ، واعتقاد فاسد ؛ لأنهم كانوا جهالاً لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له مال وجاه " (٣) .

ووصفوا الأراذل بقولهم : **(بادئ الرأي)** ؛ للكناية عن السفاهة والجهل وسطحية التفكير التي دعت هؤلاء الأتباع إلى المسارعة في تلبية دعوة نوح عليه السلام من غير بديهة ولا تأمل ، وهي سخرية معنوية من هؤلاء الأتباع ؛ لأن القصد المبالغة في عدم اعتبار ذلك الاتباع ، وأنه لا قيمة له في نظرهم .

(١) الكشف ٣ / ١٩٢ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢ / ٤٨ .

(٣) الكشف ٣ / ١٩٣ .

وعلى قراءة أبي عمرو (بادئ الرأي) بالهمزة (١) على معنى : " اتبعوك في ظاهر رأيهم أو أوله ولم يتأملوا " (٢) تكون الكناية عن الإتياع في الظاهر دون الباطن .
 " وعلى الوجه الذي يرى نصب (بادئ الرأي) على أنه نعت لـ (بشرا) ، أو حال من ضمير (نوح) في (اتبعك) ، أو منصوب على النداء لنوح عليه السلام بتقدير : (يا بادئ الرأي) " (٣)
 فإن الجملة كناية عن سطحية تفكير نوح عليه السلام وعدم حصافته ، وظهور ما في نفسه من الرأي لكل أحد .

وأيا ما كان الوجه الراجح فإن الجملة - عموما - تفوح منها سخرية واضحة من نوح عليه السلام ومن أتباعه من خلال تحقيرهم ، ونفي السيادة عنه من جهتي ذاته وأتباعه " وذلك تعريض بأنهم لا يتبعونه ؛ لأنهم يترفعون عن مخالطة أمثالهم ، وأنه لو أبعدهم عنه لاتبعوه " (٤) .

وإمعانا في تحقيرهم والاستخفاف بهم وصلوا جملة (وما نرى لكم علينا من فضل) بجملة : (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) ؛ للتوسط بين الكمالين ؛ حيث اتحدت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى ، ووجد الجامع بينهما وهو : تحقير نوح عليه السلام وأتباعه والخط من شأنهم ، والاستهانة بهم .
 ويلاحظ أنهم كرروا نفي فعل الرؤية ثلاث مرات متتابعات فقالوا : (ما نراك..) ، (وما نراك ..) و (ما نرى لكم...) ؛ للإغراق في نفي الفضل والشرف عن نوح عليه السلام وأتباعه ، وتأكيد ذلك بالتكرار اللفظي .

كما أوردوا لفظ (فضل) نكرة منفية بحرف النفي (ما) ؛ لإفادة العموم والشمول ، ونفي أي فضل من أي نوع ، واستعملوا فعل المضارع (نرى) دون (رأينا) مع ضمير العظمة في (علينا) ؛ للدلالة على تجدد واستمرار نظرهم التحقيرية لنوح ومن تبعه .
 والجملة توحى بخلو نوح عليه السلام ومن معه من حظوظ الحياة المادية من جاه ، ومال ، وسلطان ، كما توحى بأن إيمان الأتباع بنوح عليه السلام لم يضيف فضيلة لهم تستوجب اتباعهم له ، فقد كانوا أراذل قبل اتباعهم ، وما زالوا كذلك بعد إيمانهم .

كما أن قوم نوح لم يقفوا عند هذه الدرجة من القوة في السخرية ، بنفي الفضل والوصف بالأراذل ، بل جاوزوا ذلك إلى الإضراب الانتقالي بقولهم : (بل نظنكم كاذبين) ؛ للتسجيل على نوح عليه السلام وأتباعه صفة الكذب فيما يدعيه من النبوة ، ولأتباعه في تصديقهم إياه ، حيث انتقلوا من خبر إلى خبر دون أن يبطلوا الأول ، فبعدما قالوا لنوح عليه السلام : إننا لا نرى لك علينا مزية وشرفاً يؤهلك للنبوة ، ويجعلك أهلا لاستحقاق المتابعة ، انتقلوا إلى الطعن في أتباعه ووصفهم بأنهم (أراذل ، بادي الرأي) دون أن يبطلوا ما قبله ، ثم انتقلوا إلى تكذيب الجميع ؛ لكون كلامهم واحد ، ودعوتهم واحدة ، وإنما أرادوا بذلك زيادة المبالغة في التكذيب ، وذلك لشدة حسدهم وحنقهم الذي دعاهم إلى الاستخفاف بنبي الله نوح عليه السلام وأتباعه ، واحتقارهم ، ومن ثم السخرية منهم .

(١) ينظر : شرح طيبة النشر في القراءات العشر لأبي القاسم محمد بن محمد النويري ١ / ٤٦٨ ، ت د : مجدي محمد سرور - الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

(٢) روح المعاني ١٢ / ٣٨ .

(٣) السابق : الصفحة نفسها .

(٤) التحرير والتنوير ١٢ / ٤٨ .

والواضح أنهم وصفوا نوحًا عليه السلام ومن تبعه باسم الفاعل (كاذبين) ؛ للدلالة على تأصل صفة الكذب فيهم ، وأنهم بلغوا فيها مبلغا بعيدا ، حتى صارت هذه الصفة ملازمة لهم لا تتفك عنهم (حاشاهم وهم المؤمنون الصادقون) .
ثم إنهم استعملوا الظن - هنا - موضع العلم (بل نظنكم ...) ؛ (احترازا منهم عن نسبتهم إلى المجازفة) (١) .

وهكذا تجد أن نظم الآية كله يسلك مسلك الترقي في السخرية والاستهزاء بنوح عليه السلام والذين آمنوا معه عن طريق الطعن في نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات :
- الأولى : أنه بشر مثلهم ، ولا يجوز في منطقهم أن يكون الرسول من البشر .
- والثانية : أن الذين تكلفوا أتباعه هم الأخساء ، وليسوا من السادة الوجهاء ، بل من الطبقة المعدمة الفقيرة التي لا تملك الحصافة والروية في اختيار الأمور ، واختبار الأشياء .
- والثالثة : خلو نوح عليه السلام ومن معه من حظوظ الحياة المادية ؛ من جاه ، ومال ، وسلطان ، فضلا عن نعمة الكبر والعظمة التي تحدثوا بها مع نوح وأتباعه .
ولذا رد عليهم نوح عليه السلام هذه الشبه الثلاثة ، وفند مزاعمهم بأسلوب راق مهذب ، حيث ردّ على الفضل الذي نفوه عنه ، وعن أتباعه بقوله : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْ رَبِّي وَءَانِنِّي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزِلْكُمْ مِّنْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] .

- ثم علل لعدم طلب المال بقوله : ﴿ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلْكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآئِنَ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ ﴾ [هود من / ٢٩] .
- ولما كان استردالهم لأتباعه يعني التعريض بطردهم من مجلسه رد عليهم بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَفُوا رَبِّهِمْ وَلِكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) [هود : ٢٩ - ٣٠] .

- ثم رد على شبهات قومه تفصيلا بقوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ٣١] .
وجملة (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ) كناية عن المؤمنين المتبعين نوحًا عليه السلام ، وعبر عنهم بالموصول وصلته ؛ للدلالة على قصر نظر هؤلاء المعاندين ، وتخطئتهم في زعمهم ، وأنهم لو تدبروا شأنهم ما قالوا ذلك ، وما فعلوا بهم الازدراء ، وفي ذلك تحقير لهؤلاء ، وتخطئة لرايهم (٢) .
وفي مجيء جملة الصلة فعلا مضارعا ؛ للدلالة على استمرارهم في ذلك الباطل ، واستحضارا للصورة ؛ لأنه حكاية للحال الماضية ، فالازدراء قد وقع ، ثم جاء لفظ (تزدري) ليدل على الاحتقار والانتقاص والعيب ، والتقليل من شأنهم ، والسخرية منهم .
وفي إسناد الازدراء إلى الأعين ؛ للتنبية على أنهم احتقروهم بادئ الرؤية ، واستحقروهم عندما رأوا رثانة حالهم وقلة منالهم ، دون تدبر في معانيهم وكمالاتهم ، وفيه مجاز عقلي ؛ لكون

(١) إرشاد العقل السليم ٣ / ٣٣ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : السابق ٤ / ٢٠٣ .

الأعين سببُ الازدراءِ غالباً ؛ لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر (١) .
والقرينة هي أن العين مجردة لا يصدر عنها ازدراء إلا تبعاً لإرادة الرائي ومقصده ، وسره
البلاغي : الإشارة إلى تجاوز ازدرائهم كل واحد ، حتى لكأن الازدراء من كثرته جعل للأعين
منه نصيبٌ ، ويجوز حمل الكلام على المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل نحو :
(أرسلنا العيون) ، أو العلاقة الآلية ؛ لأن العين آلة الازدراء ، فمن يزدرى إنساناً ينظر إليه
نظرة سخرية واستهجان .

ويُلحظ في رد نوح عليه السلام على أباطيلهم بناء الجمل على الوصل ؛ ولعل السر البلاغي يكمن في
أنها تُعدّد تلك الشبهات التي أثاروها ، والأباطيل التي ارتضوها ، ظناً منهم أنهم على الحق
المبين وهم في ضلال كبير ؛ ليكرّر عليهم واحدة تلو الأخرى ، فيفندها ويدحضها ، وفي ذلك
تناسبٌ - أيضاً - لأسلوبهم الذي بنوا عليه شبهاتهم ، حيث كانت الجمل فيها مبنية على الوصل ؛
بقصد تكثير أسباب رفضهم الدعوة ، وتكذيبهم الداعية ؛ ولإشعار بأن كل حجة من حججهم
كفيلة بتكذيبه ، ومسوغة لرفض الإيمان به .
هذا هو التحليل البلاغي للسخرية الأولى ، والرد عليها .

أما السخرية الثانية في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ

كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ هود : ٣٢ ، فجاءت بعدما أفحم نوح عليه السلام قومه ببراهينه المبهتة ، وحججه
الدامغة ، وأقنمهم الحجر ، حيث أيقنوا أنهم غير قادرين على الصمود لقوارع جدله ، فلجأوا إلى
التعنت والتحدي والتعجيز ، ومن ثم السخرية من عجزه ، حيث طالبوه بإتيان ما توعدهم به
واستعجلوا ذلك ؛ تعجيزاً له ؛ لتيقنهم بأن ذلك متعذر ؛ لظنهم أنه من الكاذبين (حاشاه) .
وموطن السخرية قولهم : (فأتنا بما تعدنا) ؛ حيث سموا وعيده بالعذاب وعدا سخرية به ،
(أي أن هذا الذي جعلته وعيده هو عدنا حسنٌ سارٌ باعتبار أننا نحب حلوله) (٢) .
وقد بدأها بالنداء بـ (يا نوح) باستعمال حرف النداء للبعيد مع قرب نوح عليه السلام من قومه ؛
للإشعار بمدى الفراغ والبعد الهائل الذي كان يشعر به هؤلاء المارقون بينهم وبين نبي الله ،
ويوحى - أيضاً - بمدى البعد عن الاقتناع بهدايته ، فحرف النداء كاشفٌ عن أوضاعهم النفسية ،
ورامز إلى الهوة السحيقة بين واقع الرسالة وهؤلاء المتمردين .
ولذلك أتبعوا حرف النداء بـ (قد) والفعل الماضي (جادلنا) ؛ للدلالة على تحقق وقوع
المجادلة (٣) من نوح عليه السلام لهم قبل هذه الآية ، وهي المجادلة التي استفرت امتعاضهم ،
وأبرزتهم متذمرين ، حتى عطفوا جملة (فأكثر جدالنا) على (قد جادلنا) ؛ " للكناية عن
التمادي والاستمرار في تلك المجادلة " (٤) ؛ وللدلالة على كثرة مجادلتها في إثبات التوحيد
والنبوة والمعاد ، وقولهم هذا جملة خبرية توحى بالتذمر والتضجر ، والتأفف من مجادلتها

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٥٨ .

(٢) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ليرهان الدين البقاعي ٩ / ٢٧٧ - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - بدون تاريخ
(٣) المجادلة : " المخاصمة بالقول ، وإيراد الحجة عليه ، فتكون في الخير كقوله تعالى : (يجادلنا في قوم لوط) هود : ٧٤ ،
ويكون في الشر كقوله : (ولا جدال في الحج) البقرة : ١٩٧ ، وإنما أرادوا أنه جادلهم فيما هو شر ، فعبّر عن مرادهم بلفظ
الجدال الموجه " التحرير والتنوير ١٢ / ٦٠ ، " وأصل الجدال من جدلت الحبل أي : أحكمت فتله ، وسميت المنازعة جدالاً ؛
لأن المتجادلين كأنهما يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه ، وقيل الأصل في الجدال : الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على
الجدال ، وهي الأرض الصلبة " روح المعاني ١٢ / ٤٥ .

(٤) حاشية الشهاب على البيضاوي ٥ / ٩٤ دار صادر - بيروت - لبنان .

وعدم اقتناعهم بكلامه البتة ، ليس هذا فحسب بل إنهم استعاروا الجدل للخصام والنزاع ، واشتقوا من الجدل بمعنى الخصام والنزاع (جادلنا) بمعنى (خاصمتنا ونازعتنا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ؛ للمبالغة في إظهار شدة الخصام والعداوة لنوح ومن تبعه ، ومحاولتهم إبراز نوح عليه السلام بأنه مجادل فقط ، وغير مقنع ، وكلامه معهم بلا طائل أو فائدة ، والسبب أنه غلبهم بالحجة ، وأقم أفواههم الحجر ، وأبرز لهم بينات واضحة المدلول ، وحججا تتلقاها العقول بالقبول ، ولذا فإنهم لما أرادوا طي بساط الجدل وأرادوا إفحامه طلبوا تعجيل ما توعدهم به من العذاب بقولهم (**فأتنا بما تعدنا**) بالأمر على سبيل السخرية والتهمك ، ثقة منهم بأنه لن يأتي بما أوعده به ، ولا يقدر عليه البتة .

وإمعانا في السخرية والاستهانة به عبروا بـ (ما) المبهمة الموصولة بدلا من (الذي) ؛ للدلالة على التعميم ؛ ولالإيحاء بالتأفف وعدم المبالاة ، وختموا التحدي بالشرط التبكيطي (**إن كنت من الصادقين**) ؛ لذات الغرض ؛ ولإثبات عجزه أمام أتباعه وأمامهم ، وفيه إيجاز بالحذف ، حيث حذفوا منه جواب الشرط ؛ لدلالة ما قبله عليه ، وفي ذلك دلالة على تكرار الإسناد ؛ لتأكيد التحدي والسخرية ، وكذلك حذفوا متعلق الصدق والتقدير : (**إن كنت من الصادقين فيما تقول أو في حكمك بلحوق العذاب إن لم تؤمن بك فأت به**) (١) ؛ لإثبات كذبه ، ومن ثم التهمك به ؛ لأنه لم يفعل ما أمر به ، فلا شك أنه كاذب في نظرهم (حاشاه) ، والشرط بـ (**إن**) التي تفيد الشك مع تأكدهم من عدم صدقه عليه السلام - في نظرهم - هو عين السخرية به ، فضلا عن الإيحاء بشكهم وارتياحهم في صدقه ومن اتبعه .

ولذا جاء رد نوح عليه السلام على هذا التعنت بلغة الواثق المؤمن بربه قائلا : (**إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين**) ، فوكل أمر الإتيان بالعذاب إلى الله عز وجل الذي كفروا به وعصوا رسله دون غيره ، وهذا هو سر الإتيان بأسلوب القصر بإنما ، (وهو حملٌ لكلامهم على ظاهره على طريقة مجازاة الخصم في المناظرة ، وإلا فإنهم جازمون بتعذر أن يأتيهم بما توعدهم ؛ لا اعتقادهم الكذب فيه على الله) (٢) .

أما السخرية الثالثة الواردة في قوله تعالى : ﴿ **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ** .

سَخَرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿ [هود : ٣٨] .

فهي سخرية لفظية جاءت بعد مجادلة نوح عليه السلام لقومه ، والتي انتهت إلى استعجالهم العذاب تحديا وعنادا ، وبعد أن أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن أحد من قومه إلا الذي آمن به من قبل ، وسرى عن نبيه الحزن عليهم بسبب كفرهم وإيذائهم له وللمؤمنين ، وطلب منه أن يصنع الفلك تحت رعايته وعنايته ، ولا يراجع في شأن قومه ؛ لأنهم مغرِقون لا محالة ، وقد قضى الأمر ولا رجوع فيه .

وموطن السخرية في قوله تعالى : (**وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه**) وقد جاءت

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٠٤ ، وروح المعاني ١٢ / ٤٥ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٦١ وحاشية الشهاب ١١ / ٩٥ .

بعد قوله تعالى : (**ويصنع الفلك**) بالمضارع ، " وكان مقتضى الظاهر أن يقال : (**وصنع الفلك**) بصيغة المضي ، لكن عدل عن الظاهر إلى صيغة المستقبل استحضارا للصورة الماضية " (١) ، " ولتخييل السامع أن نوحا عليه السلام بصدد العمل " (٢) ، فضلا عن ملاءمة الفعل للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره : (وكلما مر عليه ملاً من قومه سخرُوا منه) .

وإسناد الصناعة إلى نوح عليه السلام فيه دلالة على مهارته وخبرته بذلك الفعل عن طريق الإلهام ؛ لأنه مشمول بعناية الله وحفظه بدليل قوله تعالى : (**واصنع الفلك بأعيننا ووحينا**) ، وهي جملة خبرية جاءت تمهيدا لبناء سخرية قوم نوح منه .

والتعبير بجملة : (**وكلما مر عليه ملاً من قومه**) قبل جملة : (**سخرُوا منه**) - وهي جملة واقعة في محل نصب حال - تمهيداً آخر يؤذن بأن السخرية الواردة مشروط فيها المرور على نوح عليه السلام حال كونه يصنع السفينة ، واسم الشرط (**كلما**) يفيد تكرار السخرية بتكرار مرور الملاً على نوح ، فضلا عن التعبير بالفعل الماضي (**مروا**) و (**سخرُوا**) الدالان على تحقق الوقوع ، ثم إن تنكير (**ملاً**) فيه دلالة على التعميم ، إضافة إلى تحقير هؤلاء الساخرين .

وسبب السخرية آتٍ من صنعه عليه السلام السفينة ؛ " إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ، ولا كيفية استعمالها ، والانتفاع بها ، فتعجبوا من ذلك وسخرُوا منه ؛ وإما لأنه كان يصنعها في برية بهما في أبعد موضع من الماء أو ان عزته ، فكانوا يضحكون منه ويقولون : يا نوح ، صرت نجارا بعدما كنت نبياً ، وقيل : لأنه عليه السلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ، ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه من باب المحال ، ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا " (٣) ، وفي جميع الأحوال فإن سخريتهم توحى بإنكار أن يكون لعمله عليه السلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التي لا تطاق .

ولذا رد عليهم نوح عليه السلام بقوله : (**إن تسخرُوا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون**) ، وهي جملة حوت من الصور البلاغية ما لا يخفى :

فقد عبر بـ (**إن**) الشرطية التي تفيد الشك ؛ تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، " وتجهيلا لهم على سخريتهم ، وإظهارا بأنه كان ينبغي منهم الإيمان ، وأن العناد والسخرية من الأمور التي كان يستبعد وقوعها منهم " (٤) ، وفصل هذه الجملة عن سابقتها ؛ لشبه كمال الاتصال ؛ لأنها جاءت جوابا عن سؤال مفاده : فما صنع نوح عليه السلام عند بلوغه منهم هذا المبلغ ؟ فقيل : قال : (**إن تسخرُوا منا ... الآية**) ، وهذا الجواب يوضح أسباب حلول سخط الله - تعالى - على قوم نوح والتي من جملتها السخرية بنوح عليه السلام والاستهزاء به .

(١) حاشية القنوي على تفسير البيضاوي ١٠ / ٧٦ - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

(٢) التحرير والتنوير ١٢ / ٦٧ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٠٦ ، وينظر أيضا : روح المعاني ١٢ / ٥٠ ، وحاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي ٤ / ٦٤٢ ت محمد عبد القادر شاهين - الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

(٤) أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو) ومواقعه في القرآن الكريم / ٢٠ - محمد موسى حمدان - الطبعة الأولى - ٢٠١١م - مكتبة وهبة - القاهرة .

كما عبر بفعل السخرية (**نَسَخِر**) رداً على سخريتهم به إما على سبيل المشاكلة ، أو أنه مجاز مرسل لعلاقة المسببية ، حيث أطلق المسبب وهو السخرية ، وأراد السبب وهو الاستجهال وفي ذلك يقول الألوسي : " وإطلاق السخرية عليهم حقيقة ، وعليه عليه السلام للمشاكلة ؛ لأنها لا تليق بالأنبياء عليهم السلام ، وفسرها بعضهم بالاستجهال ، وهو مجاز ؛ لأنه سببٌ للسخرية ، فأطلقت السخرية وأريد سببها " (١) ، وهذه الجملة فيها التفاتٌ من الخطاب في قوله تعالى : (**وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**) للغيبة في قوله تعالى : (**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ...**) ، وقد جاء الالتفات - هنا - في سياق التهديد ؛ للإشارة إلى أن الله عز وجل يسوق العذاب بذاته العلية كيف شاء ، ولا يدع ذلك لأحدٍ من خلقه ، وهو كما يقول العلامة الزمخشري : " أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد " (٢) . كما أن التعبير بالمضارع " يعطي المشهد حيويته وجدته ، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير يصنع الفلك ، ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرُونَ " (٣) .

وأرجح الرأي القائل : إنَّ السخرية الصادرة من نوح عليه السلام لقومه حقيقةً على سبيل المشاكلة للآتي :

١- أن سخريته عليه السلام كانت جزاء ما صنعوا به من السخرية المستمرة والمتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ، ولم يكن يجيبهم في كل مرة ، وإنما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية (٤) .
٢- أن تقدير الجملة على المجاز المرسل : " إن تسخروا منا أي: إن تستجهلوا لنا فيما نحن فيه فإننا نسخر منكم ، أي نستجهلكم فيما أنتم عليه " (٥) مردود بأن استجهاله عليه السلام إياهم كان بسبب إصرارهم على الكفر ، وليس له علاقة البتة باستجهالهم إياه بسبب صنع السفينة . إذن فالسخرية حقيقية .

٣- الذي يدل على أن السخرية حقيقية من نوح عليه السلام ما قدره بعض العلماء كابن جريج والطبرسي وغيرهم ، حيث قال ابن جريج : " المعنى : إن تسخروا منا في الدنيا فإننا نسخر منكم في الآخرة ، وقيل في الدنيا عند الغرق ، وفي الآخرة عند الحرق ، وقال الطبرسي : إن المراد من (نسخر منكم) على هذا نجازيكم على سخريتكم ، أو نشمت بكم عند غرقكم وحرقتكم " (٦) .

٤- قال بعض العلماء : " إن في الآية دليلاً على جواز مقابلة نحو الجاهل والأحمق بمثل فعله ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، ﴿ **وَحَرِّقُوا سَنِينَ سَنِينَ مِثْلَهَا** ﴾ [الشورى : ٤٠] إلى غير ذلك ، والظاهر أن كلا الفعلين واقع في الحال " (٧) ، وهذا دليل على جواز سخرية نوح عليه السلام من قومه سخرية حقيقية لا مجازية .

(١) روح المعاني ١٢ / ٥١ .

(٢) الكشف ١ / ١٠ .

(٣) في ظلال القرآن ١٢ / ١٨٧٧ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٠٧ .

(٥) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ١٠ / ٧٧ .

(٦) روح المعاني ١٢ / ٥١ .

(٧) السابق : الصفحة نفسها .

٥- الملحوظ أنه عليه السلام استعمل ضمير الجمع في (**منا**) (**فإنا**) ؛ للإشارة إلى أنهم سخروا منه في عمل السفينة ، ومن الذين آمنوا به أيضا ، إذ كانوا حوله واثقين بأنه يعمل عملا عظيما (١) ، ولذلك تعرض الجميع للمجازاة في قوله : (**نسخر منكم**) ؛ ليكافئ الكلام من الجانبين ، وتكون السخرية الصادرة منه على سبيل المشاكلة .

٦- كما يُلحَظ - أيضا - أنه بنى التشبيه على المشاكلة في قوله : (**كما تسخرون**) بكاف التشبيه ؛ لبيان وجه الشبه بين السخريتين ؛ فهو إما مجرد التحقق والوقوع ، وإما التجدد والتكرار حسبما صدر عن ملاً بعد ملاً (٢) . (ويجوز أن تكون الكاف مفيدة معنى التعليل كالتي في قوله تعالى : " واذكروه كما هداكم " ، فتفيد حينئذ التفاوت بين السخريتين ؛ لأن السخرية المعللة أحق من الأخرى ، فالكفار سخروا من نوح عليه السلام ؛ لعملٍ يجهلون غايته ، ونوح عليه السلام وأتباعه سخروا من الكفار ؛ لعلمهم بأنهم جاهلون في غرور) (٣) .

والخلاصة : إن نوحًا عليه السلام قال ذلك بعد أن يؤس من إيمانهم ، ولم يبالي بإغصابهم ، فقد بلغ السيل الزبى ، ولذا أحسن التهديد بقوله : ﴿ **فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ** ﴾ [هود : ٣٩] ، وانتهت القصة بغرق قوم نوح بالطوفان ، ونجاة النبي نوح عليه السلام والذين آمنوا معه بعناية الله تعالى وحفظه .

وفي سورة (**المؤمنون**) كانت السخرية من نوح عليه السلام في سياق قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ (٣٣) **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ** ﴾ (٣٤) **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُهُمْ إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَاتَّبِعُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾ [المؤمنون : ٢٣ - ٢٥] ، وموطن السخرية في قولهم : ﴿ **مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ ، والفرق بين السخرية - هنا - والسخرية السابقة الواردة في سورة هود : ﴿ **مَا زُرْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا** ﴾ [من / ٢٧] ، أن كليهما مبنيتان على القصر الذي طريقه النفي والاستثناء ، وهو أقوى طرق القصر كما سلف والغرض منه في الحالتين : السخرية والاستهزاء بالنبي نوح عليه السلام ، وتحقيره ، وإثبات أنه بشر ، ومن كان هذا شأنه في نظرهم لم يكن جديرا بأن يتبع ويطاع ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى ، وأنهم مأمورون بطاعته ، غير أنهم في سورة هود كانوا يجادلون نوحًا عليه السلام ويخاطبونه ، ويسخرون منه وجها لوجه ، ولذا استعملوا كاف الخطاب في الفعل (**نراك**) ، وفي سورة (**المؤمنون**) كانوا يقولون ذلك للعوام ، ويتجادبون أطراف الأحاديث معهم بشأنه ، ولذا أشاروا إليه باسم الإشارة للقريب (**هذا**) ؛ للتنبيه على ضعفه عليه السلام

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٢ / ٦٨ .

(٢) ينظر : روح المعاني ١٢ / ٥١ .

(٣) التحرير والتنوير ١٢ / ٦٨ بتصرف يسير .

(٤) الكشف ٣ / ١٩٢ .

وللمبالغة في وضع رتبته العالية ، وحطها عن منصب النبوة " (١) ، يقول ابن عاشور :
" واسم الإشارة منصرف إلى نوح عليه السلام ، وهو يقتضي أن كلام الملائكة وقع بحضرة نوح عليه السلام في
وقت دعوته ، فعدلوا من اسمه العلم إلى الإشارة ؛ لأن مقصودهم تصغير أمره ، وتحقيره لدى
عامتهم كي لا يتقبلوا قوله " (٢) ، وكأن في اسم الإشارة للقريب ما يشير إلى ما أرادوا
الإفصاح عنه من أن هذا الشخص القريب منا والذي نعلم من أموره ما نعلم ، لا تقبل منه دعوى
الرسالة لأنه غير جدير بها .

وقول الملائكة هذا لعامتهم جاء عطفاً على قول نوح لهم : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ** (١٣) ﴾ بالاستفهام الإنكاري على عدم اتقائهم عذاب الله تعالى .

(وقد جاء الجواب بالفاء الدالة على السرعة ﴿ **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ** ﴾ ليفيد وجهين :
الأول : أنهم لم يوجهوا الكلام إليه ، بل تركوه وأقبلوا - على وجه السرعة - إلى قومهم ينفذون
لهم ما دعاهم إليه نوح عليه السلام .
والثاني : ليفاد أنهم أسرعوا بتكذيبه والسخرية منه ، وتزييف دعوته قبل النظر في هذه الدعوة
والتأثر بها) (٣) .

ولذا عانقوا جملة القصر (ما هذا إلا بشر مثلكم) بالكناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة بدليل
من ذاته عليه السلام ، " حيث أوهموهم أن المساواة في البشرية مانعة من الوساطة بين الله
وبين خلقه " (٤) ، وأنه لا بد أن يكون المرسل من الملائكة ؛ لأنهم أعلى شأنًا ، وأشد سطوة ،
وأكثر علماً ، وزادوا إلى شبهة كونه بشراً مثلهم شبهةً أخرى هي أنه : ﴿ **يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ**

عَلَيْكُمْ ﴾ ، وهي جملة خبرية جاءت كناية عن السيادة والكمال ؛ لتوحي بالتحريض ضده
عليه السلام ؛ ولإغراء العامة على معاداته ، وقد فصلت عن جملة (ما هذا إلا بشر مثلكم) قبلها لشبه
كمال الاتصال ؛ حيث جاءت الثانية بمنزلة إجابة لسؤال اقتضته الأولى ، كأنه قيل : فما حمله
على ذلك ، فقالوا : (يريد أن يتفضل عليكم) ، والغرض من ذلك هو إلهاب مشاعر العامة ضد
سيدنا نوح عليه السلام خشية أن يسود عليهم ، ويكون سبباً في زوال سيادتهم ورئاستهم ، وفي هذا
اللون البلاغي إيجاز وتأکید لتلك المعاني في الأذهان ، وتثبيت لها في الأفهام ؛ لأنها تأتي بعد
تطلع النفوس وترقبها لها ، فتتأكد في النفس أيما تأكد ، وقد جاءت هذه الجملة خالية من
المؤكدات ؛ للإيحاء بأن العوام في غاية التسليم والإقرار بما يقولونه عن نوح عليه السلام ، ولا
يحتاجون إلى أية مؤكدات .

ويجوز أن يكون (**التفضل**) مستعاراً للسيادة والكمال استعارة تصريحية تبعية في الفعل
(**يتفضل**) بمعنى (يسود) بقرينة دلالة المقام ؛ للمبالغة في إزكاء وإشعال نار الكراهية
والعداء ضد نوح عليه السلام ، وهي نظرة قاصرة تدل على جهلهم واهتمامهم فقط بحب الرئاسة دون
النظر إلى مصالح الناس ، كما أن استخدام صيغة التفعّل (**يتفضل**) بدلاً من (**يفضل**) يوحي
للعامة بتدرج نوح عليه السلام معهم حتى يسود عليهم ، وكأنهم يحذرونهم من هذا المدخل .

(١) روح المعاني ١٨ / ٢٥ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦ / ١٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨ / ٤٢ .

(٣) السابق : الصفحة نفسها - بتصرف يسير .

(٤) السابق : الصفحة نفسها .

ولتأكيد شبهتهم الأولى الفاسدة التي مهدوا لها ؛ وهي أن البشرية مانعة من أن يكون صاحبها رسول الله ، زادوا الشبهة الثالثة بقولهم : (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) ، وهي جملة خبرية تفيد تهكمهم من نوح عليه السلام بطريق التلويح ؛ لأنها تشير إلى أن هؤلاء يتكلمون وكأنهم لا ينكرون إرسال الرسل ، بدليل إسناد المشيئة إلى الله - عز وجل - ولكنهم ينكرون صلاحية نوح لحمل رسالة الله - تعالى - إليهم ، وكأنه لا مانع لديهم من قبول هذه الرسالة لو كان المرسل ملكا من الملائكة ، والواقع يشهد عكس ذلك ، فهم لا إيمان لهم ، ولا بما أنزل على نوح عليه السلام .

وكما سخروا من الداعي وهو نوح عليه السلام ، سخروا من الدعوة ذاتها باسم الإشارة (هذا) في قولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ ، الذي يشير إلى دعوتهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، وهذه الجملة كناية عن تقليدهم للأباء والأجداد ، وقد قالوا ذلك : " إما لكونهم وآبائهم في فترة متطاولة ، وإما لفرط غلوهم في التكذيب والعناد ، وانهماكهم في الغي والفساد " (١) .

وزادت سورة (المؤمنون) سخرية أخرى عن سورة هود بقولهم : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِمْ

جِنَّةٌ ﴾ أي مجنون ، وهذه الجملة - على قصرها - تكشف مدى الاستخفاف بنبي الله نوح عليه السلام لأنهم نسبوا إليه الجنون كذبا وبهتاناً ، وهم يعلمون علم اليقين أنه أرجح الناس عقلا ورزانة ، ولذا صاغوها في ألفاظ قليلة قصدا إلى الوصول إلى أذن السامع وقلبه ، فضلا عن التأثير عليه من أقصر الطرق وأسرعها ، وبنوها على القصر الذي طريقه النفي والاستثناء بـ (إن) و(إلا) ، تأكيدا للسخرية ، ودفعاً للإنكار ؛ لأن المقام يستدعيه ؛ إذ وصفوا أ عقل الناس بالجنون وقصروه على صفة الجنون قصرا إضافيا فيه قلب ، أي هو مجنون وليس برسولٍ من الله . وبنوا القصر على حرف الشك (إن) المفيد للنفي ، والنكرة (جنة) المفيدة للنوعية ؛ للاحتراز عن توريط أنفسهم في وصفه بالخبال مع أن المشاهد من حاله ينافي ذلك ، ولذا وصفوه بأنه متلبس بشيء من الجنون الخفيف الذي لا تبدو آثاره واضحة ، (وفرعوا على ذلك الحكم أمرا لقومهم بانتظار مآله بعد فترة من الزمن ، إما شفاءً من الجنة فيرجع إلى الرشده ، أو ازدياد الجنون به فيتضح أمره ، فيعلموا أنه لا اعتداد بكلامه) (٢) .

كما أنهم استعملوا ضميره (هو) دون التصريح باسمه استهجانا واستصغارا ، ووصفوه بـ (رجل) نكرة ؛ لتحقيره ، وذلك عون على السخرية به قاتلهم الله أني يؤفكون ، وجملة القصر (إن هو إلا رجل به جنة) جاءت مفصولة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال ؛ لأن جميع ما قالوه يثير في نفوس السامعين سؤالا مفاده : إذا كان هذا حال دعوته في الزيف والبطلان ، فماذا دعاه إلى القول بها ؟ فأجيب بأنه أصابه خلل في عقله ، فطلب ما لم يكن ليناله مثله من التفضل على الناس كلهم ، وطمع فيما لا يطمع فيه عاقل ، فدل طمعه ذلك على أنه مجنون (٣) .

(١) إرشاد العقل السليم ٦ / ١٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨ / ٤٤ بتصرف يسير .

(٣) السابق ، الصفحة نفسها ، بتصرف .

وفي سورة القمر تحولت السخرية من وصفه بأنه (رجل به جنّة) - كما في سورة المؤمنون - إلى وصفه بالجنون الصريح في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [القمر : ٩] ، فلم يقتصروا على مجرد التكذيب ، بل نسبوه إلى الجنون صراحة ، فقالوا : مجنون ، ونهروه وأذوه بالسخرية وهددوه بالرجم ، وهذا الموقف يتسم بالعنف والإيجاز ، ويتناسق مع جو الإنذار العنيف التي تنسم به السورة عموماً .

هذا عن السياق الذي وردت فيه السخرية ، أما الخصائص البلاغية فتتضح في كونها جملة خبرية جاءت لتسليية النبي ﷺ ، فضلاً عن بيان وجه الشبه بين تكذيب قوم نوح رسولهم ﷺ وتكذيب المشركين سيدنا محمداً ﷺ ، ووصف كل فريق رسولهم بالجنون ، وإيدائه بالبذاءة والزجر ، بالإضافة إلى النعي على المشركين عدم ازديارهم بما جاءهم من أنباء الأمم السابقة ، وفصلت عن جملة : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر : ٤] ، للاستئناف البياني (شبه كمال الاتصال) ؛ لأن من أشهر الأنبياء تكذيب قوم نوح رسولهم ، وسبق الإنبياء به في القرآن الكريم في السور النازلة قبل هذه السورة .

ويُلاحظ أن قومَ نوح لما سخرُوا منه في هذه الآية حذفوا المسند إليه (اسمه أو ضميره) على خلاف السخرية في سورة (المؤمنون) ، فلم يقولوا : (نوح مجنون) أو (هو مجنون) لعلة بلاغية ؛ هي استهجان التصريح باسمه أو بضميره ﷺ ، والتسابق إلى الصفة التي هي مرمى الغرض ، ومدخل الطعن فيه ، سخرية واستهزاء ، وهو نتيجة حتمية للاحتقار المتأني من إيراد الوصف (مجنون) نكرة .

كما أن التعبير بالفعل (اذُجِر) ، من الافتعال على وزن (افتعل) بالعطف على (قالوا) ؛ للمبالغة في المنع من أداء الرسالة بقسوة وغلظة ، وهذه الكلمة - على إيجازها - تحمل معنى الاتهام والزجر ، والمنع ، والتهديد ، والسخرية ، فجرسها ، وامتزاج حروفها يعبران عن المعنى الذي سيقت من أجله (١) .

وهكذا تدرجت السخرية في قصة سيدنا نوح ﷺ ، واختلفت باختلاف المواقف والسياقات التي قيلت فيها ، فكانت كل سخرية في موقعها معبرة عن الشعور النفسي المسيطر على قومه ، حيث بدأت بنفي البشرية عنه في سورة هود في بداية الدعوة ، ثم انتهت إلى وصفه صراحة بالجنون في نهايتها في سورة القمر ، ولذا دعا نوح ﷺ على قومه بالإهلاك بعد أن يؤس من إيمانهم بعدما لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فكان عقاب الله ﷻ بإغراقهم بالطوفان .

(١) من أسرار النظم في سورة القمر ١٦ بتصرف .

المبحث الثاني : السخرية من هود عليه السلام والرد عليها :

أرسل الله ﷻ هودًا عليه السلام إلى عاد (١) ؛ وهي قبيلة من القبائل العربية البائدة المتفرعة من أولاد سام بن نوح ، وسميت بذلك نسبة إلى أحد أجدادها ، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام ، وهو عليه السلام من هذه القبيلة ، ويتصل نسبه بها .

وكانت مساكن عاد في أرض الأحقاف جنوبي شبه الجزيرة العربية ، وتقع في شمال حضرموت ، ويقع في شمال الأحقاف الربع الخالي ، وفي شرقها عُمان ، وموضع بلادهم اليوم رمالٌ قاحلة لا أنيس فيها ولا ديار .

وقد فصل القرآن الكريم قصة سيدنا هود عليه السلام مع قومه عاد في نحو إحدى عشرة سورة (٢) وأبرز ما فيها ما يلي :

- ١- إثبات نبوته عليه السلام ورسالته إلى عاد .
- ٢- ذِكر أن عادًا كانوا خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح .
- ٣- ذكر أن هؤلاء القوم كانوا أقوياء أشداء ، مترفين في الحياة الدنيا ، أمدهم الله بأنعام وبنين وجنات وعيون ، وألهموا أن يتخذوا مصانع لعلهم يخلدون ، وقصورا فخمة شامخة ، وبنوا على الروابي والمرتفعات مباني شامخة ، ليس لهم فيها مصلحة تُقصد إلا أن تكون آية يتباهون بها تظهر قوتهم وبأسهم في الأرض ، كما كانوا أهل بطش وأصحاب آلهة من الأوثان يعبدونها من دون الله ، " وكانت أصنامهم ثلاثة صمدا ، وصمودا ، وهرا " (٣) .
- كما ذكر القرآن أنهم كانوا ينكرون الدار الآخرة ، وأن هودا أرسل إليهم ؛ ليدعوهم بمثل دعوة الرسل ، ويأمرهم بالتقوى ، وينذرهم عقاب الله وعذابه ، ولكنهم كذبوه واستهزأوا بدعوته ، وأصروا على العناد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد منهم ، ولم يؤمن معه إلا قليل منهم ، فاستنصر الله - تعالى - فأرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية في أيام نحسات ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأهلكتهم جميعا ، ونجى الله برحمته هودا والذين آمنوا معه ، وتم بذلك أمر الله وقضاه .

هذا عن ملخص القصة باختصار ، أما مواضع السخرية الواردة فيها ، فبلغت تسعة مواضع في كتاب الله الكريم (٤) .

(١) لمعرفة تفاصيل القصة ينظر : قصص الأنبياء لابن كثير ٢٥ / ١٤٣ - ت د : عبد الحي الفرماوي - الطبعة الخامسة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م - دار الطباعة والنشر الإسلامية - القاهرة .

(٢) في الأعراف ٦٥ - ٧٢ ، وهود ٥٠ - ٦٠ ، والمؤمنون ٣١ - ٤١ ، والشعراء ١٢٣ - ١٤٠ ، وفصلت ١٥ - ١٦ ، والأحقاف ٢١ - ٢٥ ، والذاريات ٤١ - ٤٢ ، والنجم ٥٠ - ٥٥ ، والقمر ١٨ - ٢٢ ، والحاقة ٦ - ٨ ، والفجر ٦ - ١٤ .

(٣) قصص الأنبياء ١٢٦ .

(٤) ينظر : الأعراف ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، وهود ٥٤ ، والمؤمنون ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، والأحقاف ٢٢ .

وأول هذه الشواهد قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَنظُرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجَبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَنَا فَأِنَّا بِنَمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَضِبْتُ أَبْصَارِي فِيمَ آسَمَاءٍ سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۖ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجِئْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾] [الأعراف ٦٥ - ٧٢] .

فهذه آيات من سورة الأعراف، وهي من السبع الطوال المكية ، ومهمتها كمهمة السور التي تتمثل في تقرير أصول الدعوة الإسلامية ، وقد تعرضت في بدء آياتها للحديث عن القرآن الكريم ، تلك المعجزة الخالدة ، ولفنت الأنظار إلى نعمة الخلق من نفس واحدة وهو آدم عليه السلام ، ثم حذرت من كيد الشيطان ؛ ذلك العدو الذي يصد الناس عن الهدى ، ويبعدهم عن خالقهم ، كما تعرضت لمشهد من مشاهد يوم القيامة ، وهو مشهد المحاورة والمناظرة بين ثلاث فرق ، فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، وفرقة الكافرين أصحاب النار، وفرقة ثالثة سميت بأصحاب الأعراف ، وبهم سميت السورة ، وتناولت - أيضا - قصص بعض الأنبياء ، وما لأقوه من أقوامهم من جحود ، وعناد ، وتكذيب ، وإعراض ، تسرية وتسلية للحبيب محمد ﷺ وتذكرا واعتبارا للناس أجمعين .

وجاءت هذه الآيات الكريمات بعد قصة سيدنا نوح عليه السلام ؛ لتحكي قصة سيدنا هود عليه السلام مع عاد ، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، حيث أنكروا دعوته ، واتهموه بالسفاهة ، والجهل ، والكذب ، فبين لهم أنه ليس سفيها ، وأنه رسول رب العالمين ، وناصح أمين ، أرسله الله لهدايتهم إلى الحق ، وأنه منهم ، وعليهم أن يتقوا الله الذي جعلهم سكان الأرض من بعد قوم نوح ، وزادهم طولا في الخلق ، وعظما في الجسم ، ولكنهم أنكروا عليه ذلك ، وطلبوا منه تحديا وعنادا واستهزاءً أن يعجل لهم العذاب الذي لوَّح به ، فأخبرهم هود عليه السلام أنه قد وجب وحق عليهم من الله عذاب شديد الاضطراب وغضب ؛ بسبب تكذيبهم وعبادتهم لأصنام نحتوها بأيديهم وسموها آلهة من تلقاء أنفسهم هم وآباؤهم ما نزل الله بها دليلا ولا برهانا ، ثم بين أن عليهم أن ينتظروا العذاب الأليم من الله ، وبأسه الذي لا يرد ، ونكاله الذي لا يصد .

معاني المفردات : سفاهة : خفة عقل وسخافة ، والسفه : ضد الحلم وهو الجهل (مقاييس اللغة - سفه) .

- بسطة : البسطة في كل شيء : السعة والزيادة ، وهنا الطول في الخلق وعظم الجسم (لسان العرب - بسط) .

- رجس : عذاب ، عقاب ، غضب . (لسان العرب - رجس) .

- قطعنا دابر القوم : استأصلنا القوم عن آخرهم ، ولم يبق لهم أثر ، كناية عن إهلاكهم جميعا . (المعجم الجامع - دبر) .

ومن ثم يتجلى أن قوم عاد سخروا من هود عليه السلام في غير موضع من هذه الآيات ، وأول شواهد هذه السخرية قوله تعالى على لسانهم : ﴿ ... إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ حيث وصفوه بالسفه ، والجهل ، وخفة العقل والكذب ، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وجعلوا قوله : (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) كلاما لا يصدر إلا من مختل العقل ؛ لأنه من قول المحال عندهم ، ولذا سخروا منه بالاستعارة التبعية في الحرف (في) ؛ مبالغة في انغماسه في السفاهة - حاشاه وأن خفة العقل قد تمكنت منه ، وأحاطت به من كل جانب إحاطة الظرف بمظروفه ، حتى أصبح هود عليه السلام - وهو أعدل الناس - منسوبا إلى الخفة والطيش لا يستطيع الفكاك عنه ، كما تضمن هذا الحرف تثريبا عليه ، وازدراء بعقله ، وتهكما به .

كما أوردوا جملة السخرية مؤكدة بان واللام والجملة الاسمية ؛ للجزم بصحة موقفهم ووجهة نظرهم فيه ، فضلا عن استعمال المضارع (نراك) وهو من أفعال اليقين ؛ للدلالة على استمرار رأيهم فيه ، وتيقنهم من سفاهته كأنها شيء محسوس يُرى ويُحس ، وكذا إيراد (سفاهة) نكرة ؛ للتحقير .

وإمعانا في السخرية منه عطفوا قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ على جملة : ﴿ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ ، وأكدوه بثلاثة مؤكدات : إن واللام والجملة الاسمية ؛ دفعا للإنكار ؛ لأن المقام يقتضيه وحالهم مكذب له ، وكأنهم يؤكدون بما لا يدع مجالا للشك أنه متعمد للكذب في ادعائه الرسالة عن الله ﷻ ، دل على ذلك مجيء (الكاذبين) بصيغة اسم الفاعل ؛ للإيحاء بتعمده الكذب - في نظرهم - وبلوغه فيه مبلغا بعيدا ، وأن صفة الكذب متأصلة فيه .

ويُلحظ - هنا - أنهم عندما اتهموه بالكذب استعملوا الفعل (نظنك) بدلا من (نراك) مما يدل على أنهم غير جازمين بكذبه ، والسبب كما يقول العلامة البقاعي : أنه كان عندهم علم بالرسول ، وما يحيط بأقوالهم ممن خالفهم من العذاب من قصة نوح عليه السلام ، ولم يكن العهد بعيدا ، أما قوم نوح فجزموا بالضلال وأكدوه بكونه مبينا ؛ لأنه لم يكن عندهم شعور بأحوال الرسول ، وعذاب الأمم قبل ذلك ، ولهذا قالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴾ [المؤمنون من / ٢٤] ، وأمّا ما ورد في سورة هود من جواب قوم نوح : " بل نظنكم كاذبين " فإن هذا كان في ثاني الحال بعد أن نصب لهم الأدلة ، وأقام البراهين على صحة ما ادعاه ، والأمر كذلك في قصة هود عليه السلام (١) .

وهذا الرأي على النقيض من رأي ابن عاشور الذي يرى أن الظن في الآية بمعنى اليقين وهو مستعمل كثيرا في القرآن الكريم كما في قوله تعالى : " الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم " (٢) . وأرجح رأي البقاعي (رحمه الله) ؛ لأنه علل لكلامه بحجة يرتضيها العقل ، ويقبلها الوجدان . وأيا ما كان الأمر فإن سخريتهم من هود عليه السلام ، ونسبته إلى السفاهة ، وخفة العقل والكذب

(١) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧ / ٤٣٥ بتصرف - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - بدون تاريخ .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٨ / ب / ٢٠٨ .

يوحى بعراقتهم في التقليد ، وحرمانهم من النظر الصحيح ، والتدبر السليم العاقل ، وأنهم ما قالوا ذلك إلا عنادا واستكبارا كما هو ديدن السفهاء المقلوبين (١) .

ولذا رد عليهم هود عليه السلام بأدب النبوة التي أبت عليه أن يرد بالمثل ، ويقابل الإساءة بالإساءة فأغضى عن جهالتهم ، وأسبل عليهم أذيال حلمه برغم علمه بأنهم أضل الناس

وأسفهم بقوله : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَلَيْفَ كُنتُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا

لَكُمْ ناصحٌ أمينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن

بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ [الأعراف : ٦٧ - ٦٩] ، فنفى

السفاهة ، وأضاف لنفسه غاية الشرف والأدب بإثبات الرسالة ، وزاد صفة الأمانة ؛ ليرد على مقولتهم فيه بالكذب ، وقال (ناصح) بصيغة اسم الفاعل ولم يقل : (أنصح) كما قال نوح لقومه ؛ ليقابل ما وصفوه به من أنه (من الكاذبين) ، فقابل الاسم بالاسم ، كما أنهم لما وصفوه بالسفاهة - وهي صفة لازمة لصاحبها قابل ذلك بصفة في المعنى بقوله : (ناصح) (٢) .

وبانتهاء كلامه عليه السلام لقومه ودفاعه عن نفسه ، وتوضيحه أمر الرسالة مرهبا ومرغبا ، عادوا إلى السخرية منه مرة أخرى بقولهم : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ

ءَابَاؤَنَا فَأَنَّا إِنَّمَا تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ، ووجه السخرية أت من استعمال ألفاظ الوعد في

الوعد ؛ حيث إنهم سموا وعيده لهم بالعذاب وعدا ، وطلبوا منه الإتيان به على وجه السرعة تهكما به ؛ لجزمهم بعدم قدرته على فعل ذلك ؛ لأنهم يكفونه بما ليس في مقدوره في نظرهم ،

ولذا مهدوا بالاستفهام الإنكاري التوبيخي : (أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ) ، وسلطوا الأداة على مجيئه بهذه الصفة ؛ وهي أمرهم بعبادة الله وحده ، ونهيه عن دين الآباء ، " واستعملوا فعل

المجيء خاصة ؛ للدلالة على مجيئه من مكان يتحنت فيه ، كما كان رسول الله ﷺ يفعل بغار حراء ، أو للدلالة على مجيئه من السماء لغرض التهكم والاستهزاء به ، أو أنه مجاز عن القصد

إلى الشيء والشروع فيه " (٣) ، فاستعاروا فعل المجيء لمعنى الاهتمام والتحفز استعارة أصلية

تبعية ؛ مبالغة في زيادة الإنكار عليه ، وتسفيها على اهتمامه بما دعاهم إليه . وجاءوا بـ (كان) والفعل المضارع (يعبد) بعد الفعل (نذر) ؛ ليفيدوا مواظبتهم على عبادتها

من قديم ؛ ولتكون حجتهم في تسويقهم لأنفسهم عبادتها ، ثم ساقهم توبيخه لهم بقوله : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) إلى كبر وعناد واستهزاء به ، وإصرار على اتهامه بالكذب ، فتحذوه في إنزال العذاب

بفعل الأمر (فَاتُّنَا) المصدر بفاء الفصيحة ؛ للتعجيز ؛ والدلالة على ضرورة الإسراع بتحقيق ما وعد به ، وإلا يكون كاذبا ، ويصدق عليه قولهم : (وَإِنَّا لَنُنظِّكُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) ، وكنوا عن

العذاب بقولهم : (بِمَا تَعِدُّنَا) ؛ للإيحاء باعتقادهم الجازم بكونه كاذبا وسيُخلف وعده ، وأيضا لإفادة التعميم ؛ لأنهم لم يعينوا وعيدا في كلامهم بل أبهموه ؛ لأن هودا لم يصرح به بل عرض

بقوله : (وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) وهو يؤذن بأن الله استأصل قوم نوح

(١) حاشية الفونوي ٨ / ٤١٩ .

(٢) ينظر : كشف المعاني في المتشابه من المثاني لبدر الدين بن جماعة ص ١٧٩ ، ت / د : عبد الجواد خلف - الطبعة الأولى دار الوفاء للطبع والنشر والتوزيع ، المنصورة ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

(٣) روح المعاني ٨ / ١٥٦ .

وأخلفهم بعاد ، فيوشك أن يهلك عادا ويخلفهم بغيرهم .
 وختموا طلبهم بالشرط التبكيثي : (إن كنت من الصادقين) ؛ للمبالغة في التحدي ، والتعريض بعدم صدقه ، وآثروا التعبير بأداة الشرط (إن) المفيدة للشك ؛ للدلالة على أن صدقه غير محتمل ، وغير محقق في الواقع ، وعبروا بفعل الكون ماضيا ؛ للإيحاء بأن الكذب جبلةً فيه وطبع ، وحذفوا الجواب مع أداة الشرط ؛ لدلالة ما قبله عليه والتقدير : (فأت به وإلا فلست بصادق) (١) ؛ لاستقصاء مقدرته ، وإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب ، ومن ثم لا يسعه إلا الاعتراف بأنه كاذب (حاشاه) .

والخلاصة ، فإن الأمر : (فأتنا) " فيه تصميمٌ على التكذيب ، واحتقارٌ لأمر النبوة ، واستعجالٌ للعقوبة " (٢) ، والشرط التبكيثي يؤكد السخرية والتهكم به عليه السلام ، ولذا رد عليهم غاضبا لدين الله : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٧١]
 وهو ردٌ كله ملامة وتعنيف لقومه ، وسخرية من الأصنام التي يعبدونها ، وتلويحٌ بخفة عقل عابديها .

وموطن السخرية في قوله : (أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) حيث نعى على قومه مجادلته ومخاصمته في أسماء خالية من معنى الإلهية ، ولا يجوز أن تكون آلهة البتة ؛ لأنه لا وجود لها في الواقع ، ففيها من معاني النقص من كل جهة ما لا يحصى ، ومن ثم لا تستحق العبادة ، وهو تهكم بالآلهة التي لا تقدر أن تدافع عن نفسها هذا الهجوم ، وتهكم أيضا بخفة عقل عابديها الغارقين في تقليد الآباء والأجداد .

وقد مهد هود عليه السلام لهذه السخرية بالجملة الخبرية : (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) ردا على سخريتهم منه باستعجال العذاب في قولهم : (فأتنا بما تعدنا) ، حيث عبر عن ثبوت العذاب بـ (قد) التحقيقية والفعل الماضي (وقع) ؛ للدلالة على تحقق وقوعه لامحالة على معنى : " حق ووجب وقرب أن يقع " (٣) ، فجعل ما هو متوقع كالواقع فعلا بالمجاز المرسل في الفعل (وقع) الذي علاقته المسببية ، فذكر المسبب ؛ وهو وقوع العذاب ، وأراد سببه وهو الوجوب أو الحق أو الثبوت في علمه تعالى (٤) .

ويرى شيخنا ابن عاشور أن في الفعل (وقع) استعارة تبعية باعتبار الزمان ؛ حيث شبه الوقوع في الزمان المستقبل بالوقوع في الزمان الماضي ، بجامع تحقق الوقوع في كل ، مبالغة في جعل الشيء المتوقع حدوثه كالواقع فعلا (٥) ، وهو ما يؤكد الإمام الشعراوي - رحمه الله - في قوله : " كلام الله مجرد عن الزمان ماضيا كان أو حاضرا أو مستقبلا ، وهود قال : (وقع)

(١) التحرير والتنوير ٩ / ٢٠٩ بتصرف يسير .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسي ٣ / ٤١٩ - دار ابن حزم - بدون تاريخ .

(٣) نظم الدرر ٣ / ٥٥ .

(٤) ينظر : حاشية القونوي ٨ / ٤٢٣ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ٨ب / ٢١٠ .

والعذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغا عن الله ، فإنه يؤكد وقوع العذاب حتماً ؛ لأن الذي أخبر به قادرٌ على إنفاذه في أي وقت " (١).

فالحاصل أن العذاب واقع لامحالة ، ولا مرد له من الله بدليل (قد) والفعل الماضي ، فضلا عن تقديم الجار والمجرور (عليكم من ربكم) على الفاعل (رجس) ؛ " لإفادة الاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب ؛ إيقاظا لبصائرهم لعلمهم ببادرون بالتوبة " (٢) أو لإفادة الاختصاص والحصر ، وأن العذاب واقع عليهم خاصة لا على غيرهم ؛ بسبب كفرهم ، وتكذيبهم ، واستهزائهم بنبي الله هود عليه السلام ؛ وأيضا لتخويفهم من المؤخر (رجس وغضب) ، حيث أوردهما نكرتين ؛ لزيادة التهويل والتفطيع والترجيع .

" و (رجس) هو الشيء الخبيث ، وأطلق مجازا على خبث الباطن ؛ أي فساد النفس ، والمعنى : أصاب الله نفوسهم بالفساد لكفرهم ، فلا يقبلون الخير ، ولا يصيرون إليه ، وعن ابن عباس أنه فسر الرجس باللعنة والغضب بالعذاب ، والجمهور فسر الرجس - هنا - بالعذاب ، ومنهم من فسر الرجس بالسخط ، وفسر الغضب بالعذاب " (٣) ، فيكون في (غضب) مجاز مرسل علاقته السببية ، من إطلاق السبب وهو الغضب وإرادة المسبب وهو العذاب ؛ للمبالغة في شدة غضب الله عليهم ؛ بسبب تمكن الخبث من قلوبهم ، فلا يزول ، ولا يرجى منهم إيمان وقدم الرجس على الغضب ؛ للدلالة على أن الله فطرهم على خبث لا ينتهي ، جعلهم يستمرون في كفرهم وعنادهم ، ومجادلتهم بالباطل .

وهذه المجادلة هي التي جعلت هودا عليه السلام يسخر منهم ومن آلهتهم المزعومة بقوله : (...أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وأبائكم ما نزل الله بها من سلطان) ، ومنبع السخرية أت من الكناية عن الأصنام ب (أسماء) ؛ حيث جعل أصنامهم التي يعبدونها ويعظمونها مجرد أشياء حقيرة سُمّوها آلهة ، وما هي إلا محض أسماء من غير أن يكون فيها من مصداق الإلهية شيء ، وصاغها نكرة وجمعا ؛ لتحقيرها على الرغم من كثرتها . وقد صدرّ جملة السخرية بالاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله : (أتجادلونني ؟) ؛ لأنهم سموا الأصنام آلهة ، وذلك معدوم فيها ؛ لأنها لا تضر ولا تنفع ، وما أنزل الله بعبادتها من حجة ولا برهان ، ومن ثم لا مجال للمجادلة بشأنها .

وفصلها عن جملة : (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) ؛ للاستئناف البياني ؛ لأنها تعليل لوقوع العذاب والغضب ؛ وهو مجادلتهم في نفس الوجدانية بأسماء لا مسميات تحتها ولا طائل ، ولم ينزل عليها حجة من الله صاحب الخلق والأمر ، فعبادتها إذن مجرد هراء وخفة عقل ، وفيه سخريّة من قومه بطريق التلويح ، وإيحاء بأنهم لم يعملوا عقولهم فيما يأتون به من العبادة والجدال فيها ، ليس هذا فحسب ، بل إنه عطف على ضمير المخاطبين (وأبائكم) ؛ ليجمع بينهم وبين آبائهم في الدخول تحت الذم والسخرية ؛ لأن الجرم واحد ، وهو وضع أسماء لأشياء لا مسمى لها ، وفي ذلك يقول الشيخ : ابن عاشور : " وعطف على ضمير المخاطبين (وأبائكم) ؛ لأن من آبائهم من وضع لهم تلك الأسماء ، فالواضعون وضعوا وسموا

(١) تفسير الشعراوي ٤٢١٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٨ / ٢١٠ .

(٣) السابق : الصفحة نفسها .

والمقلدون سموا ولم يضعوا ، واشترك الفريقان في أنهم يذكرون أسماء لا مسميات لها " (١)

ولذا أمعن في السخرية من تلك الأصنام المسماة بآلهة ومن عابديها بقوله : (ما نزل الله بها من سلطان) برد الأمر لله - تعالى - رغما عنهم ، ونفى الأمر بعبادتها من الله تعالى ، واستغرق النفي بـ (من) ، (واستعمل صيغة التفعيل (نزل) الدالة على التدرج في التنزيل ، أو الفعل المجدد ؛ لنفي كل اعتبار سواء أكان تجديداً أو تدرجاً ؛ وإشارة إلى أنه لو نزل عليهم في الأمر بعبادتها شيء واحد لتوقفوا فيه ؛ لعدم فهمهم لمعناه ، حتى يكرر عليهم الأمر فيه مرة بعد أخرى) (٢) ، كما نكر لفظة (سلطان) ؛ للدلالة على خلو مذاهبهم من أي حجة ، أو بيئة تبيح لهم عبادتها ، وختم جملة السخرية بالأمر : (فانظروا) ؛ للتهديد والتحدي بحلول العذاب ، حيث أمرهم بالانتظار ولم يذكر المنتظر وهو العذاب ؛ لكونه مفهوماً ؛ وإمعانا في تهويله ؛ لتذهب النفس في تقديره أي مذهب ، وفيه إيجاز بحذف المفعول به ؛ لإثارة الرعب والفرع في نفوسهم من انتظار شيء مجهول ، وعاقبة وخيمة .

ثم استأنف بجملة : (إني معكم من المنتظرين) وجاء بها خبرية مؤكدة بإن واسمية الجملة ؛ بيانا لحالته لمن رام معرفتها بعد أن هددهم بالأمر بالانتظار .

وقد صدق الله وعيد نبيه ، فحلَّ بالمكذبين عذاب الاستئصال ، عقابا لهم على الإشراك به وتكذيب نبيه عليه السلام .

أما السخرية في سورة هود فوردت في قوله ﷻ على لسان قومه حين دعاهم إلى عبادة الله وحده : ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٣) إن قَوْلُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ ﴿ [هود : ٥٣ - ٥٤] .

وموطن السخرية في قولهم : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ، حيث مهدوا لها بثلاث جمل خبرية متوالية ؛ لتدل على بلوغهم في العناد والاستخفاف بهود عليه السلام مبلغا بعيدا ، - الأولى : (ما جئنا ببينة) .

- والثانية : (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) .

- والثالثة : (وما نحن لك بمؤمنين) .

وبدأوا الأولى بالنداء : (يا هود) ، فنزلوا نبي الله منزلة البعيد ؛ لغفلة في نظرهم (حاشاه) ونادوه وهو قريب بما ينادى به البعيد ؛ ليهتم بما سيقولونه له ، ثم بنوا كلامهم على جمل معطوفةٍ بعضُها على بعض بالواو المفيدة للمغايرة ؛ إيهاما بأن كل واحدة منها كفيلاً برّد دعواه فقالوا : (ما جئنا ببينة) ، بنفي خبر إتيانه لهم بحجة واضحة يعملون عليها ، ويؤمنون

(١) السابق : ٢١٢ / ٨ .

(٢) نظم الدرر ٧ / ٤٤١ بتصرف يسير .

معاني المفردات :

بيئة : حجة (بين - لسان العرب) .

اعتراك : افتعلت من عروته فأصبته ، يقال : اعتراني كذا : إذا ألم بي ، واعتراك : أصابك وعرض لك (عرو - المعجم الجامع) .

بها ؛ لتدل على عدم اعترافهم بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه ، عنادًا وبعْدًا عن الحق (١) على الرغم من أنه عليه السلام كان قد أظهر لهم المعجزات إلا أنهم بجهلهم أنكروها ، وزعموا أنه ما جاء بشيء ، فقالوا ذلك ، ونكروا (بينة) وأفردوها ؛ لإفادة العموم والشمول ؛ ولنفي مجيئه بأي بينة من أي نوع ، فضلا عن التقليل من أهمية ما جاء به في نظرهم ، وأنه لا قيمة له ، كأنه والعدم سواء .

ثم قالوا عقب ذلك : (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) كناية عن تصميمهم على عبادة آلهتهم ، والتأكيد على عدم تركهم آلهتهم من أجل دعواه ، وهذا التأكيد مستفاد من تقديم المسند إليه المنفي على الخبر المشتق .

ويحتمل إرادة القصر ، أي ما نحن خصوصا بتاركي آلهتنا عن قولك ، فضلا عن نفي الترك بصيغة اسم الفاعل المسبوق بباء التعدي (بتاركي) ؛ للدلالة على إصرارهم على الكفر والعناد وعدم ترك عبادة هذه الآلهة مهما جاء لهم بآيات بينات ، والإيجاز بحذف المضاف والتقدير : (بتاركي عبادة آلهتنا) ؛ للإيحاء بتمسكهم بالهتهم في جميع الأحوال من عبادة ، وتضرع وخشوع لها واعتقاد ... الخ .

وأغرقوا في النفي بالخبر الثالث : (وما نحن لك بمؤمنين) ، وهو تذييل غير جار مجرى المثل ؛ للتأكيد على عدم الإيمان به ، وتيئيسه بطريق التقديم المفيد للاختصاص أو التقوية ، " وإيراد الجملة اسمية مع زيادة الباء ، وتقديم المسند إليه المفيد للتقوي ؛ للدلالة على أنهم لا يُرجى منهم ذلك بوجه من الوجوه " (٢) .

ثم سخروا منه صراحة بقولهم : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) أي : " ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التي تعييبها وتسفه رأينا في عبادتها بجنون ، حتى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا ، وتكرره علينا من التنفير عنها " (٣) .

وهذه السخرية ناشئة من اتهامه بكونه ممسوسا من بعض آلهتهم ، ومخبولا بفعله ، وأن ما يدعيه ما هو إلا هذيان المجانين ، وقد صاغوها مفصولة عن الجملة السابقة : (وما نحن لك بمؤمنين) للاستئناف البياني ؛ (لأن ما قالوه قبل ذلك من شأنه أن يثير تساؤلا مفاده : إن لم تؤمنوا بما جاء به ، فماذا تعدون دعوته فيكم ، فقالوا : إنك ممسوس من بعض آلهتنا) (٤) .

" ونسبوا المس إلى بعض آلهتهم دون الجميع ؛ تهديدا للناس بأنه لو تصدى له جميع الآلهة لدكوه دكا " (٥) بما ينبئ عن قوة هذه الآلهة المزعومة ، وعظمة تأثيرها ، وقدرتها على إصابة من يصد الناس عنها ، وهو كلام غير جارٍ على انتظام الحجة من نوع ما يصدر عن السفسطائيين ؛ لأنه بلا دليل .

وأوردوا نوع الإصابة (بسوء) نكرة مسبوقة بباء الملابسة ؛ للمبالغة في إصابته بالجنون كأنه ملتصق به التصاقا من الهتهم مع التعمد والقوة ، جزاءً له على سبها وصد الناس عنها وخطها عن مرتبة الإلهية ، ومكافأة له على سوء فعله بسوء الجزاء ، ونكروا لفظة (سوء) ؛

(١) ينظر : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ٢ / ٧٠٣ ت / يوسف الغوشي - الطبعة الرابعة - ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م - دار المعرفة - بيروت - لبنان .

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٥ / ١٠٦ .

(٣) فتح القدير ٢ / ٧٠٣ .

(٤) التحرير والتنوير ١٢ / ٩٨ بتصرف يسير .

(٥) السابق : الصفحة نفسها .

(للتقليل ؛ على أساس أنهم نسبوا ذلك إلى بعض آلهتهم ؛ أو للتكثير ؛ إشارة إلى أن ما قاله في حقهم لا يصدر إلا ممن أصيب بكثير سوء ، مبالغة في خروجه عن قانون العقل) (١) .

كما صاغوا جملة السخرية بصيغة الخبر الخالي من التأكيد بتنزيل المخاطب المنكر وهو - هنا - هود عليه السلام منزلة غير المنكر أو الخالي ؛ للإيحاء بصدق كلامهم ، وأن ما قالوه عن تأثير آلهتهم فيه بالسوء لا يحتاج إلى تأكيد ؛ لأنه متناهٍ في الظهور والوضوح . فضلا عن التعبير بالفعل المضارع : (نقول) ؛ للدلالة على استمرارهم في هذا اللغو والمعتقدات الفاسدة الخاصة بتأثير تلك الآلهة المزعومة .

وقد رد هود عليه السلام على هذا المعتقد الفاسد بالسخرية منهم ومن آلهتهم بقوله : ﴿ قَالَ إِنِّي

أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدٌ فِي جَمِيعَةٍ لَّا تُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ

مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦] .

وهذا الرد كما يقول شيخنا الفخر الرازي : " معجزة قاهرة ؛ لأن الرجل الواحد إذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم : بالغوا في عداوتي وفي موجبات إيذائي ، ولا تؤجلوا فيه ، فإنه لا يقول هذا إلا إذا كان واثقا من عند الله - تعالى - بأنه يحفظه ويصونه عن كمد الأعداء " (٢) . وهو قول ينضح بالسخرية والاستهزاء بهؤلاء القوم ، ويدل على الاستخفاف بهم وبآلهتهم الصماء ، التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تقدر على فعل شيء البتة ؛ لأنها لو كانت مما تضر وتنفع - كما زعموا - لفنكت به ، أو أصابته بأذى انتصارا لنفسها ، ولكنها أحجار صماء لا تبصر ولا تحس ، ولا تضر ، ولا تنفع ، فلم تستطع أن تنتصر لنفسها ، فضلا عن الانتصار لغيرها .

ولذا أجاب - عليه السلام - بهذا عن مقاتلتهم الشنعاء المبنية على الاعتقاد في كون آلهتهم تضر وتنفع ، وسخر منها ، ونزلها منزلتها من علو الاعتقاد إلى أسفل سافلين ، وبدأ سخريته بإشهاد الله - تعالى - على براءته من آلهتهم ، وفراغه من إضرارهم ، وأمر قومه - أيضا - بأن يشهدوا عليه ؛ استهانة بهم فقال : (إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون) ، وكان مقتضى الظاهر أن يقول : (إني أشهد الله وأشهدكم) ، ولكنه عدل عن الخبر إلى الإنشاء كما يقول العلامة الزمخشري : " لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل عن لفظ الأول ؛ لاختلاف ما بينهما ، وجيء به بلفظ الأمر بالشهادة تهكما واستهانة بحالهم " (٣) ، وكما يرى الشيخ البقاعي : (أنه عدل أدبا مع الله أن يقول : (وأشهدكم) بصيغة الأمر تهاونا بهم ، ودفعاً لتوهم التسوية بينهم وبين الله الملك الأعظم) (٤) .

(١) روح المعاني ١٢ / ٨٢ بتصرف .

(٢) التفسير الكبير ٩ / ١١ - الطبعة الأولى - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

(٣) الكشاف ٣ / ٢٠٩ .

(٤) نظم الدرر ٩ / ٢١٠ بتصرف يسير .

وقد أكد براءته من هذه الآلهة باسمية الجملة المصدرية بحرف التوكيد (إِنَّ) ، و (أشهد الله) الذي هو كالقسم في إفادة التأكيد ، والأمر (واشهدوا) المفيد للاستهانة والاستهزاء ، والكناية عن هذه الآلهة المزعومة بقوله : (مما تشركون) ، فلم يقل : (إني بريء من ألهتكم) صراحة ، بل كنى عنها باسم الموصول المبهم وصلته ؛ استهجانا ، واستصغارا ، واحتقارا ، وحذف العائد ؛ لزمها ، وبيان أنها أحقر من أن تذكر .
ثم كانت المعالجة بفعل الأمر : (كيدوني) المستعمل في الإباحة ؛ كناية عن تعجيز الأصنام وعابديها ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴾ [المرسلات : ٣٩] ، وهذا إبطال لقولهم : (إن نقول إلا اعتراضك بعض ألهتنا بسوء) ، وهو مستعمل في السخرية ضمناً باعتبار نزوله على معتقدهم في أنها آلهة تضر وتنفع ، ثم استكمل تحديدهم بالنهي : (لا تنظرون) ، وهو نهي عن التأخير بكيدهم إياه ؛ ارتقاءً في رتبة التعجيز ، ونهايةً للاستخفاف بالأصنام وبهم ، وتعريضاً بكونهم لا يصلون إلى ذلك مهما حاولوا .

كما أن التعبير بلفظ التوكيد (جميعاً) يدل على دعوتهم للاجتماع والاحتشاد مع جميع ألهتهم دون البعض ، وفيه دلالة على استهانتهم بالجميع وليس بعض الآلهة الذين ذكروا في قولهم (اعتراضك بعض ألهتنا بسوء) ، ومنبع الثقة أت من توكله على الله ﷻ وهو الغالب الذي لا يقهر ، وكونه وحيدا في قومه يدل على أن معبوده هو الإله وغيره باطل وليس بإله ؛ لأنه يندرج تحت مقهورية الله ﷻ وسلطانه .

أما الجديد في موقفهم من دعوة هود عليه السلام في (سورة المؤمنون) فهو السخرية من بشريته ، واتخاذها ذريعة إلى تكذيبه ؛ لأنه لا يفضلهم بشيء ، واتباعه غاية الخسران حيث قالوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنْكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ [المؤمنون : ٣٣-٣٤] ، حيث أكدوا بشريته بطريق القصر بالنفي والاستثناء ، وأكدوا المثلية بحاجته إلى ما يحتاج إليه غيره من الناس من أكلٍ وشربٍ وما ينتج عن ذلك ، ثم أكدوا السخرية بالإشارة إليه بـ (هذا) دون اسمه أو ضميره ؛ لتحقيره ، ونكروا المستثنى (بشر) لتحقيره أيضا ، والتحقير من مستلزمات السخرية والاستخفاف بالشخص .
كما أكدوا خسران من اتبعه بجملة من المؤكدات (إِنَّ) واسمية الجملة واللام) ؛ إمعانا في التضييل وصرف الناس عنه .

وفي سورة الشعراء بلغ بهم الاستهتار والاستخفاف مبلغه ، حيث أعلنوا له أنه يستوي عندهم وعظه وعدم وعظه ؛ تبييسا له من إيمانهم ، وأن الذي هم عليه ما هو إلا دين الآباء والأجداد منذ أقدم الدهور ، ولا مناص عن سنة الآباء وتقليد الأسلاف ، وأنهم غير معذبين ؛ لأن ما هم عليه من الحياة والموت ليس إلا عادة لم يزل الناس عليها من قديم الزمان ، فلا عقاب

ولا ثواب ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا بعث ، ولا نشور ، حيث ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ (١٣٦) **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** ﴿١٣٧﴾ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ** ﴿١٣٨﴾ [الشعراء : ١٣٦ - ١٣٨] ، وقد جاءوا بهذه الآيات مفصولة عن سابقتها لشبهه كمال الاتصال ؛ للتئيس من الانصياع لدعوته بما أرشدهم به . فالاستفهام في (**أُوْعِظَتْ**) مع معادلِهِ (**أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ**) مجازي للتسوية بين الحاليين ، إذ جعلوا وعظه وعدمه سواء ؛ استخفافا به وبدعوته ، وعدم أكثراتٍ بما خوفهم به . ومما يثير في النفس مدى تغافلهم وتغاييبهم عن سبيل الرشاد ، واستهزائهم بنبيهم وبدعوته بالمحسن البديعي طباق السلب بين (**أُوْعِظَتْ**) و (**أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ**) ، فضلا عن العدول عن نفي الفعل حسب مقتضى الظاهر بـ (**أَمْ لَمْ تَعُظْ**) إلى النظم الجليل ، بنفي الصفة المشتقة في (**أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ**) ؛ للمبالغة في بيان قلة الاعتداد بهذا الوصف ، وهو أشد في نفي الصفة وصرفها عنه ؛ لانقضاء دخوله في جنس الواعظين أصلا ، وأشد في التهكم والسخرية .

ثم إنهم عللوا لامتناع قبولهم الوعظ ، وجعلوه سببا للسخرية منه بقولهم : (**إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**) بأسلوب القصر بالنفي والاستثناء ؛ لتأكيد أن ما يدعو هود عليه السلام إلى تركه باسم الإشارة (**هَذَا**) ما هو إلا خلق الأولين من أسلافهم وأسوتهم ، فلا يقبلوا فيه عدلا ولا ملاما ؛ لأنه مدعاة للفخر في نظرهم ، والجملة كناية عن تقليد الآباء ، وتقديس الأصنام .

وأكدوا مضمون الجملة السابقة بقولهم : (**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ**) بطريق العطف للمغايرة ، وتعداد الأسباب ، والتصريح بإنكار العذاب والبعث بتقديم المسند إليه (**نَحْنُ**) ؛ لتقوية موقفهم الراض لدعوة المرسلين ، وتأكيد إعراضهم بتأكيد نفي تعذيبهم ، ولم يقصدوا بذلك قصر نفي العذاب عنهم خصوصا وإثباته لغيرهم ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث أصلا ؛ استهتارا وتعنتا وافتراء عليه (١) ، ولذا زادوا الكلام تأكيدا بإدخال الباء في المسند (**بِمُعَذِّبِينَ**) .

وفي سورة الأحقاف كان موقفهم مشابها لموقفهم في سورة الأعراف ؛ حيث أنكروا دعوته واستعجلوا وقوع العذاب ؛ تحديا وعنادا وتكديبا بقولهم : ﴿ قَالُوا أٰجِئْنَا بِتَأْفِكِنَا عَنْ ءٰمٰهِنَا فَاٰنَا بِمَا تَعِدُنَا اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ ﴿٢٢﴾ [الأحقاف : ٢٢] ، وموطن السخرية في قولهم : (**فَاتَنَا بِمَا تَعِدُنَا**) **إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ**) ، وقد سبق تحليل نظيرها (٢) .
والخلاصة : إن مواقف قوم هود - عليه السلام - تجاه دعوته اتسمت بطابع الاستهتار والتعنت ، والتكبر ، والافتراء ، والسخرية ؛ فاتهموه بخفة العقل ، والكذب ، واتخذوا بشريته مانعة من تصديقه ونبوته ، وأنكروا البينة الدالة على صدق نبوته ، ثم اتهموه بالخبل والجنون بفعل آلهتهم المزعومة ، ثم أعلنوا شدة تمسكهم بدين الآباء والأجداد ، وكذبوا بالبعث والنشور ، وتحذوا أن يأتي بعذاب ، وتلك عادة الجاهليين يتواصون بها فيما بينهم ؛ لأن الكفر ملة واحدة ، وما أشبه الليلة بالبارحة .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٩ / ١٧٠ .

(٢) ينظر : ص ٤٣ و ٤٤ من البحث .

المبحث الثالث : السخرية في قصة ثمود مع النبي صالح (عليه السلام) :

أرسل الله ﷻ صالحًا عليه السلام إلى قومه ثمود ، وهم قبيلة مشهورة سميت باسم الجد ثمود أخي جديس ، وهما ابنا عائر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحِجْر الذي بين الحجاز وتبوك ، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك ومن معه من المسلمين .

وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك ، بعث الله فيهم رجلا منهم ، وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيدين حادر بن ثمود بن عائر بن إرم ابن نوح عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ، ولا يشركوا به شيئا ، فأمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وهموا بقتله ، وقتلوا الناقة التي جعلها الله عليه السلام حجة عليهم ، فأخذهم الله عليه السلام أخذ عزيز مقتدر ، وأهلكهم بالصيحة (١) .

وقصة النبي صالح عليه السلام مع قومه ثمود وردت في سور كثيرة ، فجاءت مفصلة في سور: الأعراف (٢) ، وهود (٣) ، والحجر (٤) ، والشعراء (٥) ، وفصلت (٦) ، والقمر (٧) ، وجاءت أقل تفصيلاً في سور: الإسراء (٨) ، والنمل (٩) ، والذاريات (١٠) ، والحاقة (١١) ، والشمس (١٢) وأشير إليها في سور: إبراهيم (١٣) ، والحج (١٤) ، والفرقان (١٥) ، والعنكبوت (١٦) ، و(ص) (١٧) ، وغافر (١٨) و(ق) (١٩) ، والنجم (٢٠) ، والبروج (٢١) ، والفجر (٢٢) .

ويمكن تلخيص القصة باختصار في ستة عناصر رئيسة :

- **العنصر الأول :** دعوة سيدنا صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ، ونبذ كل معبود سواه ، سواء أكان المعبود وثنا أم صنما أم غير ذلك ، وقد تعددت الآيات في ذلك منها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ثَمُودَ آخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٧٣] و[هود : ٦١] ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء : ١٤٢ - ١٤٤] .

- **العنصر الثاني :** تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من نعم ، وما منَّ عليهم من منن كما في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ [الأعراف من / ٧٤] ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود من / ٦١] .

(١) ينظر : قصص الأنبياء ١٤٧ .	(٢) ٧٩-٧٣ .	(٣) ٦٨-٦١ .
(٤) ٨٤-٨٠ .	(٥) ١٥٩-١٤١ .	(٦) ١٨-١٧ .
(٧) ٣٢-٢٣ .	(٨) ٥٩ .	(٩) ٥٣-٤٥ .
(١٠) ٤٥-٤٣ .	(١١) ٥-٤ .	(١٢) ١٥-١١ .
(١٣) ٩ .	(١٤) ٤٢ .	(١٥) ٣٨ .
(١٦) ٣٨ .	(١٧) ١٣ .	(١٨) ٣١ .
(١٩) ١٢ .	(٢٠) ٥١ .	(٢١) ١٨ .
(٢٢) ٩ .		

- العنصر الثالث : ذكر المعجزة التي جاءهم بها تصديقا لرسالته ، وانقيادا لدعوته كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ [الأعراف من / ٧٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَءَايَاتُنَا مُّودًا نَّاقَةٌ مُّبْصِرَةٌ ﴾ [الإسراء من / ٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٥] .

- العنصر الرابع : الإنكار على ما هم فيه من فساد عريض وطغيان كبير ، وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَذَكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤] وقوله تعالى : ﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَهْنَأَ ءَامِينَ ﴿١٦٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٦٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَمَهَا هَٰضِمٌ ﴿١٦٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَدَرِينٍ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لِمَ لَا تَنْتَعِبُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ٤٦] .

- العنصر الخامس : موقف قوم صالح عليه السلام من دعوته ، والذي نحى منحى السخرية والتكبر والاستعلاء في الأرض ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ - ٧٧] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِيَاةٍ إِِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤] وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل .

- العنصر السادس : بيان عاقبة المعرضين عن دعوة الله عليه السلام المنكرين لها ، وعاقبة المستجيبين لها المنقادين لأمرها ، وهو ما عبرت عنه الآيات في غير موضع ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ [هود : ٦٧] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥١] ، وعلى العكس من ذلك ، فقد كانت عاقبة المؤمنين النجاة والتأييد من الله رب العالمين كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [النمل : ٥٣] .

وما يهم البحث في المقام الأول التناول البلاغي للعنصر الخامس من العناصر السابقة ؛ وهو السخرية الواردة من قوم صالح تجاهه عليه السلام ، والتي بلغت سبعة مواضع في كتاب الله الكريم (١) ، وأول شواهدا قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَبُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ آثِنَا بِمَا وَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ [الأعراف : ٧٥ - ٧٧] .

وجاءت هذه الآيات إثر دعوة صالح عليه السلام قومه ثمود إلى عبادة الله وحده ، وبيان المعجزة التي تدل على صدق نبوته ودعوته وهي الناقة ، ، وطلبه منهم أن يتركوها ترعى في أرض الله خالقها ورازقها ، ولا يمسوها بسوء ، حتى لا ينتج عن ذلك تعرضهم لعذاب أليم فيه إبادتهم واستئصالهم ، ثم إرشادهم وتوجيههم إلى العبادة عن طريق التذكير بنعم الله عليه السلام عليهم المتمثلة في استخلافهم بعد قوم هود ، وتمكينهم في الأرض ، وكان المقضى واللائق بعد التذكير بهذه النعم العظيمة من الله لهم أن يؤمنوا به ، ولا يشركوا به شيئا ، ولكنهم عاندوا واستكبروا ، وسخروا من صالح عليه السلام ومن دعوته ، بقولهم للمؤمنين المستضعفين تهكما وسخرية واستهزاء (**أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه**) ؟ ، ومنبع السخرية آت من استعلامهم عن رسالة صالح عليه السلام مع أنهم جازمون بعدم إرساله ، فالسؤال عن رسالته ليس سؤالا من جاهل عن شيء مجهول يستعلم عنه ، فهم يعرفون الإجابة في نظرهم ، ولكنه سؤال من أجل السخرية والاستهزاء بصالح وبدعوته ، وتعريض - أيضا - بسخريتهم من أتباعه المستضعفين ، ونظرتهم الدونية لهم ، بدليل قوله عليه السلام بعد جملة السخرية : (**قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم**) ، وبناء الفعل (استضعفوا) للمفعول ؛ للدلالة على أنهم في غاية الضعف بحيث يستضعفهم كل أحد ويستحقروهم (٢) ، فضلا عن التعبير عنهم بالاسم الموصول (**الذين استضعفوا**) ؛ للدلالة على كون المستكبرين يستضعفونهم ويستحقرونهم ، وهذا ليس فعلا صادرا عنهم بل عن غيرهم ، واستضعافهم ليس ذما في حقهم ، وإنما الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم .

هذا عن توضيح السخرية في الآية ، أما التحليل البلاغي لها فيلاحظ أنهم بنوها على جملة إنشائية استفهامية مصدرية بالهمزة والفعل المضارع (**أتعلمون**) ؛ للدلالة على سخريتهم من أتباع صالح عليه السلام ومنه أيضا ، وآثروا التعبير بالفعل (**تعلمون**) الدال على اليقين ؛ لتأكيد وجهة نظرهم في تيقنهم بعدم رسالته ، (أو إجبارا وإرهابا للضعفاء ليجيبوهم بما يرضيهم) (٣) ، وإيحاء بوصف هؤلاء الضعفاء بصد هذه الصفة وهو عدم العلم برسالة صالح عليه السلام ، وأنهم في الأصل جاهلون - لا عالمون - بأمر هذه الرسالة ، وأنهم اتبعوا صالحا على غير هدى وضلال

(١) ومواضعها : الأعراف ٧٥، ٧٦، ٧٧ و الشعراء ١٥٣، ١٥٤، والقمر ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٧ / ٤٤٦ .

(٣) ينظر : السابق نفس الصفحة بتصريف يسير .

كما صرحوا باسم النبي صالح عليه السلام دون ضميره جفاءً ، وغلظة ، وعبروا عن الإرسال بصيغة اسم المفعول (مرسل) وأسندوا الرب إلى ضمير صالح في (ربه) ؛ للدلالة على عدم اعترافهم بالمرسل والمرسل ، وفيه من السخرية والتجاهل والاستخفاف ما لا يخفى ، فلا يوجد في عقيدتهم إليها آخر غير آلهتهم المزعومة .

ولذا جاء جواب المؤمنين عن هذه السخرية ، وهذا الإنكار بالتأكيد على شدة تيقنهم بصدق نبوته ورسالته بقولهم : (إنا بما أرسل به مؤمنون) ببناء كلامهم على الخبر المؤكد بإنّ وتقديم المعمول (الجار والمجرور) على عامله (مؤمنون) واسمية الجملة ؛ دفعا لمطمعهم في التشكيك ، وكان يكفي أن يجيبوهم بـ (نعم) مثلا ، ولكنهم عدلوا عن ذلك مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي تنبئ عنه الجملة الاسمية ، وتنبئها على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يُسأل عنه ، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به (١) .

وبنوا الفعل (أرسل) للمفعول (وسبقوه بـ (ما) المبهمة الموصولة ؛ إشارة إلى تعميم التصديق وإلى أن كونه من عند الله عز وجل أمر مقطوع به لا يحتاج إلى تعيين (٢) ، وعبروا باسم الفاعل (مؤمنون) ؛ للدلالة على زيادة رسوخهم وثباتهم على الإيمان في مقابلة حملة التشكيك من الذين استكبروا ، وهذا الرد من الذين آمنوا يدخل في باب الأسلوب الحكيم ؛ كأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان فنخبركم بأننا به مؤمنون ، ولذلك كان جواب الكفرة بالخبر الذي ينضح بالسخرية والاستهزاء والكبر والعنجهية (إنا بالذي آمنتم به كافرون) ؛ حيث سخروا مما جاء به صالح عليه السلام من الدعوة إلى عبادة الله وحده باسم الموصول وصلته (الذي آمنتم به) ، وجاءوا بهذه السخرية مؤكدة بنفس المؤكدات التي أكد بها ضعاف المؤمنين إيمانهم ؛ بإنّ ، والجملة الاسمية ، وتقديم الجار والمجرور على معموله (كافرون) الذي جاء بصيغة اسم الفاعل ؛ للدلالة على رسوخ هؤلاء في الكفر وبلوغهم فيه مبلغا بعيدا ، وفي توحد الألفاظ وتقابلها بين كلام الفريقين تقابل في المعنى وتباعد في المقامين .

كما أنهم لم يقولوا : (إنا بما أرسل به كافرون) كما كان الظاهر يقتضي ؛ إظهارا لمخالفتهم إياهم ، وردا لما جعلوه معلوما مسلما به (٣) ، يقول ابن عاشور : " ومراجعة الذين استكبروا بقولهم : (إنا بالذي آمنتم به كافرون) تدل على تصلبهم في كفرهم وثباتهم فيه ، إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة ، والموصول في قولهم : (بالذي آمنتم به) هو ما أرسل به صالح عليه السلام ، وهو كلام جامع لرد ما جمعه كلام المستضعفين حين قالوا : (إنا بما أرسل به مؤمنون) فهو من بلاغة القرآن في حكاية كلامهم ، وليس من بلاغة كلامهم " (٤) .

أما السخرية الثالثة فجاءت بعد أن عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا على سبيل التحدي والعناد والاستهزاء : (... يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) ، حيث استعملوا أداة النداء للبعيد (يا) مع قرب صالح عليه السلام منهم ؛ للإشعار بمدى البعد المعنوي الهائل بينهم وبينه عليه السلام ، وبُعدهم - أيضا - عن الهداية والاقتناع .

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢ / ٣٦٤ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٧ / ٤٤٧ .

(٣) ينظر : روح المعاني ٨ / ١٦٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٨ / ٢٢٤ .

ثم استعجلوا العذاب ، وسموا وعيده وعدا على سبيل التهكم والسخرية بقولهم : (**انتنا بما تعدنا**) ، وأكدوا عدم قدرته على إنفاذ وعيده بأداة الشك (**إن**) ، وكنوا عن العذاب الذي توعدهم به مجملا بالموصول وصلته ؛ للدلالة على أنهم لا يخشون شيئا مما يعدهم به مهما كان وفي ذلك يقول الإمام البقاعي : " ولما أنزلوا وعيدهم له - حيث لم يؤمنوا به - منزلة الوعد والبشارة قالوا : (**بما تعدنا**) استخفافا منهم ومبالغة في التكذيب كأنهم يقولون : نحن على القطع بأنك لا تقدر على أن تأتينا بشيء من ذلك ، وإن كنت صادقا فافعل ولا تؤخره ؛ رفقا بنا ، وشفقة علينا فإننا لا نتأذى بذلك ، بل نتلذذ به تلذذ من يلقى الوعد الحسن ، وحاصله التهكم منهم به ، والإشارة إلى عدم قدرته " (١) .

وفي سورة الشعراء كان موقفهم واضحا أيضا ؛ وهو إنكار الرسالة بسبب بشريته عليه السلام ، والسخرية منه باتهامه بالسحر ، وتحديه بطلب دليل على صدق دعواه حيث ﴿ **قَالُوا إِنَّمَا**

أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٥٣﴾ **مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴿١٥٤﴾ [الشعراء : ١٥٣ - ١٥٤] .

وهاتان الآيتان وردتا في سورة الشعراء ، وهي سورة مكية النزول ، مقصودها الأصلي العقيدة والدعوة إلى التوحيد ، والنهي عن الإشراف به سبحانه ، وذكر قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، والعذاب الذي حل بأولئك المكذبين لرسولهم ، المستهزئين بهم ، كما يغلب عليها - أيضا - إنذارٌ مشرقي قريش الذين كذبوا رسول الله ﷺ ، وأذوه ، وتقولوا على الوحي والقرآن (٢) ، والآيتان وردتا إثر دعوة صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ، وتقواه ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم حيث جعلهم آمنين يعيشون في بساتين تستر الداخل فيها وتخفيه ؛ لكثرة أشجارها ، وعيون من الماء تسقيها ، وزروع ، ونخلٍ جوادٍ كريم ، ومع ذلك كانوا يبارزون الله الكريم بعظائم الأمور ويعبدون غيره ، ولذا كرر عليهم صالح عليه السلام دعوته إلى تقوى الله وطاعته ، ونهاهم عن إطاعة أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فما كان من القوم إلا أن كذبوه وسخروا منه بقولهم : (**إنما أنت من المسحورين**) ، وزادوا (**ما أنت إلا بشر مثلنا**) وتوغلوا في السخرية بالتحدي : (**فأت بآية إن كنت من الصادقين**) .

فأجابوا موعظته بالبهتان ، وزعموا فقد رُشده ، وتغير حاله ، واختلقوا أن ذلك من أثر سحر شديد ، وأكدوه بطريق القصر بإنما ، حيث قصروا صالحا عليه السلام على تلك الصفة قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا فيه قلب ، أي أنك : مسحور لا مرسل من الله ؛ مبالغة في إظهار أن ما يصدر عنه من الدعوة إلى التوحيد إنما هو صادر عن اختلاطٍ في العقل ، واختلالٍ في قواه البشرية ، وأن تأثير السحر فيه بلغ به حد الجنون (حاشاه) .

وأكدوا ذلك بإيثار التعبير بـ (**المسحورين**) بالتضعيف دون (**المسحورين**) ؛ للزيادة في المعنى وهي المبالغة في ادعائهم اتصافه بالسحر ، وآثروا القصر بإنما ؛ لينزلوا صالحا عليه السلام

(١) نظم الدرر ٧ / ٤٤٩ .

(٢) ينظر : مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، برهان الدين البقاعي ٢ / ٣٢٧ - ت : د / عبد السمیع محمد أحمد

حسنين - مكتبة المعارف - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ - ١٩٨٧ م .

منزلة العالم بالشيء غير المنكر له ؛ خروجاً على مقتضى الظاهر للمبالغة في التكذيب والتهكم مع التعريض بغفلته وشروده ؛ لأن أمر سحره واضح - في زعمهم - ولا يحتاج إلى التنبيه والإيقاظ .

ويجوز أن يكون المراد من (المسحرين) الذين يعطلون بالطعام والشراب ، مأخوذ من السَّحَر وهي الرئة ، فيكون المعنى : إنك بشر مثلنا فلا يصح أن تكون رسولا إلينا (١) ، فيكون القصر بإنما موافقا لمقتضى الظاهر .

وهذا ما دعاهم إلى تأكيد هذه التهمة (وهي كونه بشرا مثلهم) عن طريق القصر الإضافي بـ (ما) و (إلا) في قولهم : (ما أنت إلا بشر مثلنا) بالفصل بين هذه الجملة والتي قبلها : (إنما أنت من المسحرين) لكمال الاتصال ؛ حيث جاءت الثانية تأكيدا لمضمون الجملة الأولى أو بدلا منها ؛ لأن الرسول - في زعمهم - لا يكون إلا مخلوقا خارقا للعادة ، كان يكون ملكا أو جنيا (٢) ، ولا شك أن التعبير بأسلوب القصر بالنفي والاستثناء فيه خروج على مقتضى الظاهر لأنهم أنزلوا صالحا عليه السلام منزلة الجاهل أو المنكر لبشريته ، فأكدوا هذا الخبر بالقصر ، وفرعوا على هذا القصر طلب بيينة تدل على صدق دعواه فقالوا : (فأت بآية إن كنت من الصادقين) وهي جملة إنشائية ساخرة مبنية على افتراض صدقه بحرف الشك (إن) واسم الفاعل (الصادقين) الدال على تمكن الصدق منه ، ثم الأمر (فأت) الدال على التحدي والإلحاح والتعجيز ليظهر عجزه عن تحقيق المطلوب ، ومن ثم يكون جديرا بالسخرية .

والحق أن قولهم : (بشر مثلنا) بعد وصفهم له عليه السلام بأنه من (المسحرين) من غير عطف يدل على أنهم غير جازمين بتكذيبه ، فالوصفان عندهم بمنزلة شيء واحد ، والذي يؤيد هذا الشك استعمال الشرط (إن) دون غيره ، وإيراد المطلوب (آية) نكرة ؛ للإفراد والنوعية وقد قبل صالح عليه السلام هذا التحدي ، وطلب من ربه المعجزة ، فأخرج لهم ناقة من صخرة عليه السلام قال

هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْوَاهَا يَسْوَىٰ ۖ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا

نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ الشعراء : ١٥٥ - ١٥٧ .

أما السخرية في سورة القمر فجاءت في سياق قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا

أَبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلالٍ وسعيرٍ ﴿٢٤﴾ أهلقى الذكرَ عليه من بيننا بل هو كذابٌ أشيرٌ ﴿٢٥﴾ سيعامون غدا من

الكَذَّابِ الْأَشِيرِ ﴿٢٦﴾ [القمر : الآيات ٢٣ - ٢٦] *

وموطن السخرية في قوله تعالى على لسانهم : (.....أبشرا منا واحدا نتبعه ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشير) ، حيث جعلوا من بشريته مادة للسخرية ، وبنوها على

(١) ينظر : الكشاف ٣ / ١٢٣ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٩ / ١٧٧ .

* الأشر : المتكبر المعجب بنفسه المدعي ما ليس فيه (المفردات للراغب - أشر) .

الاستفهام الإنكاري الاستبعادي الذي ينضح بالسخرية والاستهزاء ، والحسد والحقد الدفين تجاه النبي صالح عليه السلام حيث قالوا : (أبشرا نتبعه) بتقديم المفعول به ، ولم يقولوا : (أنتبع بشرا) وأدخلوا همزة الاستفهام على المفعول لإنكار اتباع أي بشر مهما كان ، فالرسول - في زعمهم - لا بد أن يكون من جنس غير جنس البشر ، ولو قالوا : (أنتبع بشرا) لانصرف الإنكار إلى الاتباع فقط دون ما عداه وهو غير مراد ، وهذا ما أصّل له الإمام عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن الاستفهام بالهمزة ، وقد ذكر هذه الآية وهو يتحدث عن تقديم المفعول على الفعل المضارع فقال : " إن للتقديم من الحسن والمزية والفخامة ما لا يكون لو أحرّ ؛ وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشرا لم يكن بمثابة أن يُتَّبَعَ ويُطَاع ويُصدَّق أنه مبعوث من الله تعالى ، وأنهم مأمورون بطاعته " (١) . ولذلك قدموا المفعول على الفعل المضارع لما سبق ذكره ، ونكروا (بشرا) فلم يقولوا : (أصلحا نتبعه) أو (أرجلا نتبعه) لتحقيره ، كما أنهم وصفوه بقولهم : (أبشرا منا واحدا) ؛ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة بينهم أقوى (٢) ، وانعدمت المزية له عليهم ، وبذلك ينتفي اختصاصه بالنبوة من بينهم .

وإذا كان (واحدا) كانت الدلالة على أنه منفرد في دعوته ، ولا أتباع له ، ولا نصراء ، وكانت الكناية عن كونه ضعيفا لا يُخشى جنبأه بعكس قول أهل مدين لنبيهم شعيب عليه السلام : ﴿ وَكَوَلَا رَهْطَكَ لَرَجْمَتِكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود من / ٩١] ، أو كانت الدلالة على أنه من جملة آحاد الناس ، وليس من الأشراف ، أو أنه منفرد في ادعاء الرسالة لا سلف له فيها ، وأياً ما كان الذي يقصدونه فإنه في جميع الأحوال هو تلويح بالسخرية من صالح عليه السلام والاستخفاف به ، وجعل بشريته ، وكونه واحدا ، وأنه منهم ، ذريعة لها .

وفائدة تقديم الوصف (واحدا) على (نتبعه) ؛ لبيان أنهم محقون في ترك اتباعه ؛ لأنه بشر من نوعهم ، وهو واحد وحيد ، وليس له جند ولا حشم فكيف يُتَّبَع ؟ فالغرض أنهم قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع (٣) ، وهذا رأي الفخر الرازي ، وقد أثبتته لأهميته .
والحق أن كل هذه الأعدار التي قدموها لا تتفق مع العقل والمنطق ، بل هي مراوغة أهل الكفر والضلال ، ولذا أكدوا مقصدهم السابق وإنكارهم الشديد لرسالة صالح عليه السلام بجملة : (إنا إذا لفي ضلال وسعر) (٤) ، أي إذا اتبعناه ، فأكدوا الجملة بـ (إن) و (إذا) واللام ، والجملة الاسمية ؛ لإدراكهم أن كلامهم أهلّ لأن يُنكَرَ ويُكذَّبَ ، وهو تعليل لإنكار أن يتبعوا بشرا منهم . (وروي أن نبيهم كان يقول لهم : إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر أي نيران ، فعكسوا ذلك عليه) (٥) ، وعبروا بالظرفية المجازية (في ضلال) للمبالغة في تلبسهم بالضلال والجنون كتلبس الظرف بالمظروف على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف ؛ سخرية منه ، وتهكما به .

(١) دلائل الإعجاز ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٨ / ١٨٠ .

(٣) ينظر مفاتيح الغيب ٢٩ / ٥٠ .

(٤) الضلال : عدم الانتهاء إلى الطريق ، والسُّعْر : جمع سعير وهو العذاب ، وقيل معناه : الجنون .

ينظر : التحرير والتنوير (٢٧ / ١٩٧)

(٥) البحر المحيط ٨ / ١٨٠ بتصرف يسير .

وقد يكون المراد أنهم قالوا : لو اتبعناه فإننا إذا في الحال في ضلال وسعر من الذل والعبودية ؛ لأنهم كانوا لا يعترفون بالسعير ، فاستخدموا الضلال والسعر مجازا في الذل والعبودية ، وهذا ما يسمى عند البلاغيين بالأسلوب الحكيم ، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده ، وعبد القاهر يسمي هذا الأسلوب المغالطة (١) ، وفي جمعهم (سعير) على (سعر) دلالة على شدة ما يصيبهم إن اتبعوا نبيهم ، وكأنهم أحرص على أنفسهم منه .

ثم عطفوا على إنكارهم الأول إنكارا آخر فقالوا : (ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) بأسلوب الاستفهام الإنكاري ، وهو أبلغ في النفي من قولهم : (لم ينزل عليه الذكر) ؛ لأنهم لو عدلوا إلى الأسلوب الخبري ربما يكذبهم السامع أو يظن كذبهم ، أما إنكارهم بأسلوب الاستفهام : (ألقى الذكر عليه) فمعناه أن السامع يجيب بقوله : (ما ألقى) ، فيكون النفي ظاهرا لا يخفى على أحد ، وهو مرادهم من النفي بطريقة الاستفهام ، كما أن التعبير بضميره دون ذكر اسمه صراحة يدل على استهجان التصريح باسمه ، واحتقارهم إياه ، ومن ثم التهكم به والتعبير بالإلقاء بدل الإنزال ؛ للمبالغة في الإنكار ؛ لأن الإلقاء معناه : الإنزال بسرعة (٢) ، فهم يستبعدون أن يكون هناك إنزال للذكر من السماء البعيدة ، ولو قالوا : (أنزل) لكان فيه إشارة إلى أنهم مؤمنون به ، وهو غير مراد ؛ لأنهم مكذبون به ، ومؤكدون ذلك التكذيب بقولهم (من بيننا) ، بما يوحي بأنهم أحق منه بالنبوة ، وليس فيه ميزة تميزه منهم حتى يختص بالنبوة دونهم ، ولذا أوغلوا في السخرية منه بالإضراب الانتقالي : (بل هو كذاب أشر) ، حيث ذكروا أنه ليس نبيا ، ولم ينزل عليه الذكر ، وأنه كاذب فيما ادعاه ، وعبروا عن هذه الصفة بصيغة المبالغة (كذاب) ؛ للمبالغة في الكثرة أو الشدة في أن يقول ما لا يقبله العقل ، وأردفوا صفة أخرى بعد ذكر كذبه (حاشاه) ، فقالوا : (أشر) ؛ للدلالة على أنه معجب بنفسه مدع ما ليس فيه ، وهذه جراءة ووقاحة منهم ، ولذا جاء الرد الإلهي شديدا متوعدا : (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) بالسين والظرف (غدا) ؛ كناية عن المستقبل القريب ، وقرب وقوع عذابهم المستبعد من جهتهم ، وهو رد غليظ غرضه التهديد والوعيد .

والخلاصة :

إن مواقف قوم صالح عليه السلام تجاه دعوته إلى التوحيد ومكارم الأخلاق اتسمت بالسخرية ، والاستهزاء والاستخفاف به وبمن معه من المؤمنين المستضعفين ، كما اتسمت بالاحتكام إلى تقاليد الآباء في أمور الدين ، والتكذيب ، مع التشكيك في صدق نبوته باتخاذ بشريته شبهة مانعة للنبوة ، واتهامه بالجنون ، وطلب البينة على صدق دعواه تعنتا ، وعنادا ، ثم الكفر به ، وأخيرا تحديه تحديا سافرا بعقر الناقة ظلما وعدوانا ، فكان عقاب الله سريعا بإهلاكهم بعذاب الاستئصال.

(١) ينظر : خصائص التراكيب ، د : محمد أبو موسى ص ٢١١ - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الرابعة - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

(٢) ينظر : (لسان العرب - لقي) .

المبحث الرابع : سخرية إبراهيم عليه السلام . عليه السلام . من قومه :

ولد إبراهيم عليه السلام في بابل بالعراق سنة ١٩٩٦ قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وكان أهل بابل ينعمون برغد العيش ، ويتفيتون ظلال النعمة ، ولكنهم كانوا يتخبطون في دياجير الضلال ؛ يعبدون الأصنام التي ينحتونها بأيديهم ، ويعظمون ملكهم نمرود بن كنعان الذي نصب نفسه إلهاً وأمرهم بعبادته (١) .

وكان أزر والد إبراهيم أو عمه نجارا يصنع الأصنام ويبيعها للقوم، ويعطيها في بعض الأحيان ولده إبراهيم كي يبيعها للناس ، فكان إبراهيم عليه السلام يحملها ، ويسير بها في الأسواق ، ويقول : مَنْ يشتري ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها منه أحدٌ، ثم ينطلق بعد ذلك إلى الماء ، ويغمس رؤوسها فيه ، ويقول : اشربي (٢) .

وكبر إبراهيم على بغض الأصنام ، ويقينه بأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تصلح أن تكون آلهة ، إلى أن أرسله الله ﷻ إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وترك عبادة الأصنام والكواكب ، فبدأ بدعوة أبيه وعشيرته الأقربين ، ثم بدعوة قومه أجمعين ، وتلطف في دعوتهم ، ولكنهم عارضوه وكذبوه ، وآذوه ، وظلوا على أصنامهم عاكفين ، وفي ضلالهم سائرين ، فتيقن إبراهيم عليه السلام أن الدعوة بالحسنى لن تؤتي ثمارها ، فكسر أصنامهم ، فما كان منهم إلا أن قاموا بإلقائه في النار ، ولكن الله ﷻ نجاه منها بفضلها ، فخرج قوي العزيمة ، ثابت الجنان ، وذهب إلى طاغية عصره : النمرود بن كنعان ، وانتصر عليه بالبرهان ، ثم هاجر من وطنه ، وألقى عصاه في (حران) (٣) ، ونزل بين أهلها فوجدهم يعبدون الكواكب من دون الله ، فجادلهم بالحجة ، وبيّن بطلان عبادتها ، ودعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار (٤) .

وقد ركزت قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم على جوانب أربعة :

- الجانب الأول : دعوة إبراهيم إلى الله ﷻ (٥) .

- الجانب الثاني : حوارهم مع الملائكة (٦) .

- الجانب الثالث : بناؤه للبيت العتيق ودعاؤه فيه (٧) .

- الجانب الرابع : عقيدته ومنزلته (٨) .

(١) ينظر : قصص القرآن ٥٣ .

(٢) ينظر : تاريخ الأنبياء ٩٦ . د / محمد الطيب النجار ٩٥ - مكتبة المعارف - الرياض - بدون تاريخ .

(٣) ينظر : قصص القرآن ٥٠ .

(٤) للاستزادة ينظر : قصص الأنبياء لابن كثير ص ٧٠ وما بعدها ، وتاريخ الأنبياء ص ٩٥ وما بعدها .

(٥) وقد وردت في سورة البقرة ٢٥٨ ، والأنعام ٧٤ - ٩٠ ، ومريم ٤١ - ٥٠ ، والأنبياء ٥١ - ٧٣ ، والشعراء ٦٩ - ٨٩ ، والعنكبوت ١٦ - ٢٧ ، والصفافات ٨٣ - ١١٣ وفيها بجانب الدعوة تفصيل لحادث الابتلاء المبين ، والفداء العظيم .

(٦) وقد ورد في سورة هود ٦٩ - ٧٦ ، والحجرات ٥١ - ٦٠ ، والعنكبوت ٣١ - ٣٢ ، والذاريات ٢٤ - ٣٤ .

(٧) وقد ورد في سورة البقرة ١٢٤ - ١٣٤ ، وسورة إبراهيم ٣٥ - ٤١ ، وسورة الحج ٢٦ - ٢٩ .

(٨) وقد وردت في سورة البقرة ٢٦٠ ، وآل عمران ٦٥ ، ٦٨ ، ٩٥ ، والنساء ١٢٥ ، والتوبة ١١٤ ، والنحل ١٢٠ - ١٢٣ .

(و) ص (٤٥ - ٤٧ ، والزخرف ٢٦ - ٢٨ ، والممتحنة ٤ - ٦ .

وما يخص البحث البلاغي - هنا - من الجوانب السابقة هو الجانب الأول ؛ لأنه هو الذي وردت فيه السخرية في نحو خمسة عشر موضعا من كتاب الله الكريم ؛ وهذا الجانب المقصود هو دعوة إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده ، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة مطالب رئيسة حسب ترتيبها في المصحف :

- الأول : إبطال عبادة الكواكب ، وقد ورد في سورة واحدة فقط ؛ هي سورة الأنعام (الآيات ٧٤ - ٨٤) .

- الثاني : دعوة إبراهيم عليه السلام أباه إلى التوحيد ، وقد وردت في سورة مريم (الآيات ٤١ - ٥٠) .

- الثالث : دعوة إبراهيم عليه السلام أباه وقومه إلى التوحيد ، وقد وردت في أربع سور على الترتيب هي : الأنبياء (الآيات ٥١ - ٧٣) ، والشعراء (الآيات ٦٩ - ٩٠) والعنكبوت (الآيات ١٦ - ٣٥) ، والصفات (الآيات ٨٣ - ١١٣) .

وقد اشتملت السور السابقة - دون غيرها - على أساليب السخرية ، ولذا سيتم بعون الله تعالى تحليلها بلاغيا ، وبيان ما فيها من أسرار البيان ، وخصائص التعبير ، ثم المقارنة بين متشابهه النظم فيها ، معتمدا في ذلك على تراث العلماء ، وما يفتح الله عليه به ، والله المستعان .

المطلب الأول : إبطال إبراهيم عبادة الكواكب :

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزِدُّ اتِّخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰ ذِكْرَكَ وَتَوَمَّكَ فِي صَلَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَلِيلٌ رءَا كَوْكَبًا قَالَهُ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلٰكَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رءَا الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَهُ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رءَا الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَهُ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقَوِرَ إِنِّي رَبِّيءُ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِذِي فَطَرِ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام : ٧٤ - ٧٩] (١) .

هذه الآيات من سورة الأنعام ، وهي كغيرها من السور المكية التي تهتم بإرساء دعائم عقيدة التوحيد ، وإثبات البعث والحساب ، وذلك عن طريق تدبر آيات الله في الكون ، وقد بدأت بذكر خلق الله للسموات والأرض ، والظلمات والنور ، وخلق الإنسان من طين ، وقضائه الأجل ، وعلمه بالسر والجهر ، وانتقلت إلى بيان تكذيب المشركين بالرسول ﷺ ، والحق الذي جاءهم به ، وعنادهم وتحديدهم له أن يأتيهم بكتاب من السماء ، أو ملك يكون معه نذيرا .

(١) معاني المفردات : ضلال : الضلال هو العدول عن الطريق المستقيم ، ويقال لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا ، يسيرا كان أو كثيرا (المفردات ٢٩٧) .

- ملكوت : مصدر ملك كالرغوت والرحموت ، وتاؤه زائدة للمبالغة ، وهو مختص بملك الله تعالى (المفردات ٤٧٣) .

- أفل : الأفول غيبوبة النيرات كالقمر والنجوم (المفردات ٢٠) .

- جن عليه الليل : ستره بظلمته (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٣٥٣ - ت : محمد علي النجار - الطبعة الرابعة - القاهرة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م) .

ثم بينت ملكية ما في السماوات والأرض لله تعالى ، وجمعه الناس ليوم لا ريب فيه ، وقهره لعباده ، وإنزاله القرآن على الرسول ﷺ ؛ لإنذار الناس به ، وعدم فقه الكافرين له ، وبعدهم عنه ، ونهيهم الناس عن سماعه ، وعرضت موقف الكافرين يوم القيامة ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ؛ ليكونوا من المؤمنين ، وانتقلت إلى تسليية الرسول ﷺ عن تكذيب المكذبين ، وإلزام الحجة على الكفار ، وإقرارهم بقدرة الله تعالى ، وبيان استعجالهم العذاب ، وذكرت اختصاص الله - تعالى - بعلم الغيب ، وقهره ، وغلبته على المخلوقات ، ونهت عن مجالسة المكذبين الذين يخوضون في آيات الله ، ويتخذون الدين لعبا ولهوا .

وبعد هذا تذكر جانبا من قصة إبراهيم عليه السلام وهو يحكي استدلاله على استحاله ربوبية الكواكب ، وعلى بطلان عبادتها من دون الله تعالى ، ويفصل محاورته لقومه في ذلك معتمدا على أساليب بلاغية غاية في القوة ، ومن أهمها أسلوب السخرية والتهمك .

وبالنظر في هذه الآيات إجمالا يتبين أن بدايتها جاءت دالة على نهايتها ؛ ليُعرف من أول الأمر رأي إبراهيم عليه السلام في عبادة أبيه وقومه ؛ حتى لا تكون هناك شبهة في عقيدة إبراهيم عليه السلام بسبب ما سيصدر عنه من أقاويل يجاري بها خصومه ؛ لإبطال شبههم ومزاعمهم .

وقد مهد النظم القرآني للصور الساخرة في الآيات بقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا أَزْرَأُتَّخِذُ

أَصْنَامًا ءِالِهَةً إِنِّي أَرْكَبُ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) فبدأ إبراهيم عليه السلام حديثه لأبيه أزر بالاستفهام الإنكاري التوبيخي (أتخذ أصناما آلهة) ؛ للإشعار بأنه لا ينبغي أن يكون منه ذلك ، ونكّر (أصناما) لتحقيرها وإبطال اتخاذها آلهة ؛ لأنها في الحقيقة أصنام ، والأصنام لا يمكن ولا يجوز أن تكون آلهة ، فهي سخرية من الأصنام بطريق التلويح ، ولما أنكر عليه ذلك عن طريق الاستفهام صرّح برأيه فيما هو وقومه عليه ؛ ليجمع بين الإنكار بالمفهوم والإنكار بالمنطوق المؤكّد بأنّ (و أرى) : (إني أراك وقومك في ضلال مبين) ، فأكد الجملة ؛ لتحقيق مضمونها في مواجهة المخاطبين المنكرين له ، وعبر بالفعل (أراك) ؛ لما في الرؤية من دلالة على اليقين التام عن طريق المشاهدة ، وإشارة إلى أن ضلاله ظاهر للعيان ، وأسند القوم إلى أبيه ؛ ليدل على أنه قائدهم في ذلك ، وهم أتباعه في عبادتها .

وعبر عن ضلالهم بالظرفية المجازية (في ضلال) ؛ للإشعار بغرقهم في هذا الضلال ، وإحاطته بهم إحاطة الظرف بمظروفه ، ونكّره لتفخيمه وتهويله ؛ فهو ضلال هائل مطبق لا ينفك عنهم ، ووصفه بـ (مبين) ؛ لبيان أنه ظاهر واضح لا شبهة فيه عن طريق البرهان ؛ لأنه إذا كان مبينا لضلالهم فهو بيّن في نفسه من باب أولى .

وبعد هذا الإنذار القوي من إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ، وبعد أن بين الله - تعالى - فضله على إبراهيم عليه السلام في تبصيره طريق الحق ، وتعريفه أسرار السماوات والأرض ، بدأت المناظرة والدعوة إلى التوحيد عن طريق إبطال مذهب عبدة الهياكل والأفلاك بإرخاء العنان لخصومه ، ومجاراتهم في عبادة الكواكب ، ثم كرّ عليهم وأثبت أن هذه الكواكب متغيرة ، غير ثابتة ، ومن ثم لا تستحق مرتبة الألوهية .

وأول وقفة كانت مع الكوكب في قوله تعالى : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ

قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ) ، وموطن السخرية في قول إبراهيم عليه السلام : (هذا ربي) ؛ لأن إبراهيم عليه السلام حين قال ذلك لم يكن يؤمن بالكوكب ولا يعتقد فيه ، ولكنه أرخى العنان لعابدي هذا الكوكب ، وجاراهم في الحديث ليصل إلى بغيته ، وأظهر أنه معتقد بربوبيته من باب السخرية والتهكم بعقول عابديه بطريق التلويح ، والتعريض بضلالهم في اتخاذ هذا الكوكب إلها ؛ لأنه غير ثابت الوجود بل هو متغير ومنقول ، والرب الحقيقي لا بد أن يكون ثابت الوجود ؛ ليقوم دائما على شئون عابديه ومربوبيه ، لا يتغير ، ولا ينتقل ، فلا يصلح إذن هذا الكوكب أن يعبد من دون الله ومن ثم يكون قوله عن الكوكب : (هذا ربي) غير حقيقي ، وإنما أريد به السخرية والتهكم من عابدي هذا الكوكب .

هذا عن تفسير السخرية ، أما عن بلاغتها فالواضح أن النظم القرآني بدأها بالفعل (جَنَّ) الدال على الستر ، وآثره على غيره ؛ لما يتضمنه من إشعار بالحماية المؤدية إلى السكينة والهدوء وصفاء الفكر للتدبر في الكون ، ونكَّر (كوكبا) ؛ لعدم الحاجة إلى تعيينه ، فهو كوكب من الكوكب السيارة في الأفق ، ومن ثم فلا داعي إلى البحث في اسمه كما فعل المفسرون .

ثم جاءت السخرية في قول إبراهيم عليه السلام عن الكوكب (هذا ربي) ، وهذا القول استئناف بياني مبني على سؤال مفاده : ماذا فعل إبراهيم عليه السلام حين رأى الكوكب ؟ فقيل : قال : هذا ربي ، وفي استعمال اسم الإشارة وما فيه من معنى القرب تمييز له أكمل تمييز ، فضلا عن الإيحاء بتفخيمه وتعظيمه ، كما أن إيثار (ربي) دون (إلهي) ؛ لما فيه من الإشعار بأن هذا الكوكب مربيه ومدبر أمره ، ورحيم به في مقام يفتقر إلى هذه المعاني ، وهذا بالطبع مخالف لاعتقاد إبراهيم عليه السلام العارف بربه الحقيقي ، ولكنه قال ذلك تهكما وسخرية .

والحق أن قوله : (هذا ربي) في الكوكب وما يليه في القمر والشمس مما اختلف فيه العلماء ، فأكثرهم على أنه قال ذلك وهو عارف بربه تعالى ، عابد له ، وإنما قاله على سبيل الفرض والتقدير ؛ مجازاة لعابدي الكواكب في مناظرته لهم ؛ كي يمهد بذلك لإبطال مزاعمهم في هذا الكوكب ، وإقامة الحجة عليهم ، فإن المستدل على فساد قول يحكيه على رأي خصمه ، ثم يكرُّ عليه بالإبطال (١) .
وقيل : إنه قال ذلك في مقام النظر والاستدلال لنفسه ، وكان ذلك في زمان مراهنته وأوان بلوغه (٢) .

ورجح الرازي الرأي الأول للأدلة الآتية :

- ١- أنه قال قبل هذا لأبيه : " أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءِالِهَةً لِئِيَّكَ وَوَعْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " .
- ٢- أنه رأى ذلك بعد رؤية ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين .
- ٣- أن الفاء تقتضي الترتيب ، فتدل على أن هذا كان بعد الإراءة التي كان بسببها من الموقنين .

(١) ينظر : التفسير الكبير ٤ / ٧٥ ، وإرشاد العقل السليم ٣ / ١٥٣ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٧ / ٢٢٤ .

٤- أن هذه الواقعة حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، حيث قيل في آخر القصة : **" وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه "** ، ولم يقل على نفسه ، فُعلم من ذلك أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه (١) .

وهذا ما أرجحه - أيضا - للأدلة السابقة ؛ فضلا عن قول إبراهيم عليه السلام في مشهد القمر : **" لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين "** ، فهذا تصريح منه بمعرفة الرب الحقيقي ، الذي بيده الهداية والتوفيق إلى الطريق المستقيم ، ولعل سلوك هذه الطريقة مع قومه في بيان استحالة ربوبية الكوكب دون بيان استحالة إلهية الأصنام - كما سيأتي - ؛ لما أن هذا أخفى بطلانا واستحالة من الأول ، فلو صدع بالحق من أول الأمر كما فعله في حق عبادة الأصنام ؛ لتمادوا في المكابرة والعناد ؛ وللجأوا في طغيانهم يعمهون (٢) .

وبعد غيبة الكوكب قال : **(لا أحب الآفلين)** على تقدير مضاف عند الزمخشري ، والتقدير **" لا أحب عبادة الأرباب الآفلين المتغيرين من حال إلى حال ، المنقلبين من مكان إلى مكان ، المحتجبين بستر ، فإن ذلك من صفات الأجرام "** (٣) . ولم يقدر البيضاوي مضافا ، وقال : **" لا أحب الآفلين فضلا عن عبادتهم "** (٤) ، وقوله : **(فضلا عن عبادتهم)** إما إشارة إلى عدم العبادة بالبرهان ، أو أنه كنى بعدم المحبة عن عدم العبادة ؛ لأنه يلزم من نفي المحبة نفي العبادة بطريق أولى . كما أن التعبير بعدم المحبة يشعر بأن العبادة يجب أن تؤسس على المحبة المتمكنة من قلب العابد ؛ ليكون إقباله على العبادة بشغف .

أما السخرية الثانية فجاءت في قوله تعالى : **(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ**

يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) ، وموطن السخرية - أيضا - في قوله عن القمر : **(هذا ربي)** وقد تم بيانها وتوضيحها في السخرية السابقة فلا داعي للتكرار ، ولكن الفرق بينهما : أن القمر على ما يبدو للناس أقوى نورا ، وأكبر حجما ، وأكثر نفعا ، فيكون أحق بالربوبية من سابقه ، ولكنه - أيضا - سرعان ما يأفل ويحتجب ، فتكون ربوبيته مستحيلة ، وعبادته باطلة ، وفي تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد ، وتعليق الضلال على عدم هداية الله ﷻ تقرير وتحقيق بما لا يدع مجالاً للشك في أن مصدر الهداية هو الله ﷻ .

وقوله : **(لأكونن من القوم الضالين)** تعريض بقومه ، وتنبيه لهم على أن من اتخذ إليها قمرا - وهو نظير الكوكب في الأفل - فهو ضال ، والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله سابقا : **(لا أحب الآفلين)** ، وأقوى - أيضا - في تأكيد السخرية والتهكم بضلالهم وانحرافهم عن التفكير السديد ، وفي التعبير القرآني معنى لا يوجد فيما لو قال : **(لأكونن ضالاً)** ؛ حيث سيكون موسوما بالضلال معروفا به مشهورا .

(١) ينظر : التفسير الكبير ٤ / ٧٦ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ٣ / ١٥٣ .

(٣) الكشف ٢ / ٣١ .

(٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤ / ٨٦ .

وفي الوقفة الثالثة ترقى إبراهيم في حدة السخرية حين نظر إلى الشمس وتأملها ، وافترض ربوبيتها ، بل أحقيتها بالربوبية من الكوكب والقمر ؛ لأنها أكبر جُرمًا ، وأقوى ضوءًا وأعظم نفعًا ، ولكنها أفلتت كما أفلت الكوكب والقمر ، فاستحالت بذلك أن تكون ربًّا . ولذلك كانت السخرية منهم أشد بقوله حين رآها بازغة : **(هذا ربي هذا أكبر)** ، والملاحظ - هنا أنه أشار إلى الشمس - وهي مؤنثة - باسم الإشارة للمذكر (هذا) ؛ والسر في ذلك : أن المشار إليه والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد ، من حيث هو لا من حيث هو مسمى بالشمس أو لتذكير الخبر روعي تذكير المبتدأ ؛ لأنهما شيء واحد ، وفي التذكير صيانة الرب عن وصمة التأنيث (١) ، وهو قول ينضح بالسخرية والاستهزاء بعقولهم ، وفيه إشارة خفية إلى فساد دينهم ، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر ، وحذف المفضل عليه مشعرًا بكبره العظيم فهو أكبر مما سبق ومن غيره .

ولما أفلتت الشمس كما أفلت ما قبلها ، لم يبق أمام إبراهيم عليه السلام إلا أن يصدع في قومه بالحق الذي لا محيد عنه : **(يا قوم إني بريء مما تشركون)** ، وفي هذه الجملة من خصائص التعبير وعناصر القوة ما يأتي :

١- النداء **(يا قوم)** ، وفيه تنبيه وإيقاظ لهم ؛ ليتهيئوا لتلقي حكمه القاطع بشركهم ، وبرأته من هذا الشرك ، واستعمال أداة البعد مع قربهم منه مشعر بقوة ندائه لهم ، وعلو صيحته عليهم ؛ لما هم فيه من غفلة ، ولهو ، وإعراض عن الحق الواضح ، ونداؤه بـ **(يا قوم)** دون **(يا بني فلان)** ونحو ذلك ؛ إشارة إلى حرصه عليهم ، واهتمامه بأمرهم ، وإخلاصه في نصيحتهم .

٢- تأكيد الخبر لتحقيق برأته وتخليصها من شائبة الشرك ، والمقام يستدعي ذلك بعدما قال : **(هذا ربي)** على سبيل الفرض والمجازاة لقومه ، والإتيان بالخبر جملة اسمية ؛ للدلالة على أنه ثابت على هذه البراءة ، مستمرٌ عليها ، وهي ليست جديدة في حقه .

٣ - إبهام ما يشركون عن طريق الموصول ، وفيه تعميم لبرأته من عبادة الكواكب ، ومن كل ما يشركون من أصنام وغيرها ، وإيثار الشرك على العبادة فلم يقل : **(مما تعبدون)** وإنما قال : **(مما تشركون)** ؛ لدمهم بالشرك ، وللإشارة إلى علة البراءة ، والتعبير بالمضارع ؛ للدلالة على استمرارهم ودوامهم على هذا الشرك .

ولذا لم يقتصر إبراهيم عليه السلام على التبرؤ مما يشركون ، بل أتبع ذلك ببيان عقيدته التي يدين بها وهي التوحيد الخالص لله تعالى بقوله : **(إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين)** .

والخلاصة : إن النظم القرآني حين عرض الوقفات التأملية لإبراهيم عليه السلام في الأجرام السماوية رتبها ترتيبًا تصاعديًا فيه ارتقاء من الأدنى إلى الأعلى ، فبدأها بالتأمل في الكوكب ، وهو أصغر الأجرام الثلاثة في مرأى العين ، ثم بالتأمل في القمر الذي يكبره ، ثم بالتأمل في الشمس التي هي أكبر من سابقتها ، وبنى افتراض ربوبية هذه الأجرام على أساس واحد هو بزوغها نيرة مشرقة ، ثم بنى استحالة ربوبيتها عقلا على أساس واحد هو أفولها واحتجابها ، والاحتجاج

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ٣ / ١٥٤ .

بالأفول بعد البزوغ أظهر ؛ لأنه انتقال إلى خفاء واحتجاب ، ففيه نقص بعد كمال ، كما أن الأفول حالة مقتضية لانطماس الآثار وبطلان الأحكام المنافيين لاستحقاق الربوبية منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد ، وأن الأفول السابق على البزوغ غير مشاهد لهم حال الاستدلال ، فكان الأفول بعد البزوغ أخصر في الاحتجاج من أن يقال : إن هذا البازغ كان أفلا من قبل (١) .

وقد روعي في ختام الوقفات الثلاثة الترقى من التعريض الخفي : (لا أحب الأفلين) إلى التعريض الظاهر : (لنن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين) إلى التصريح الجلي : (يا قوم إني بريء مما تشركون) ، وفي داخل التعريض ترقى آخر في التهكم والسخرية من عقل عابدي هذا الكوكب ، والشمس ، والقمر .

وأما السخرية الأخيرة في هذا النص القرآني فجاءت بعد أن جادلوه بأدلة فاسدة مبنية على التقليد ، وخوفوه بالهتهم أن تصيبه بسوء ، فسخر من ذلك وقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١] .

وشاهد السخرية قوله : (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا) ، وبيان ذلك : أن ظاهر النظم يشعر بأن الإشراك بالله - تعالى - وما شابهه من المعاصي العظيمة مما يتصور أن ينزل فيه الإذن من الله ﷻ ، وهذا محال ؛ لأن من أعظم الذنوب عند الله ﷻ الإشراك به ، فدل ذلك على أنه ليس المراد حقيقة الكلام ، وإنما هو وارد على طريقة التهكم لتوبيخ هؤلاء الكفرة الذين اجترأوا على الله ، وتساهلوا في أمر المعصية ، حيث قللوا من شأنها وهي عند الله أكبر الكبائر ، لذلك يقول العلامة أبو السعود : " كيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلا ، وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخلوقات وأهولها ؛ وهو إشراككم بالله الذي ليس كمثلته شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما عبر عنه بقوله : (ما لم ينزل به) أي بإشراكه (عليكم سلطانا) على طريق التهكم " (٢) .

وقد بُنيت جملة السخرية على الاستفهام الإنكاري (وكيف أخاف) ؛ لإنكار وقوع خوفه من آلهتهم ، ونفيه عنه بالكلية ، وفي توجيه الإنكار إلى كيفية الخوف من المبالغة مما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقال : أخاف ؟ .
وقرر إنكار الخوف ونفيه عنه بالجملة الحالية : (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا) ، وقد صرح في هذه الجملة الحالية بما لم يصرح به في الجملة الاستفهامية ؛ حيث جاء فيها بمتعلق الإشراك وهو اسم الجلالة ، كما ذكر المفعول به للفعل (ينزل) وهو (سلطانا) ، وحذف ذلك في الجملة الاستفهامية (وكيف أخاف ما أشركتم) ؛ والسبب أن في

(١) ينظر : الكشاف ٢ / ٣٢ ، إرشاد العقل السليم ٣ / ١٥٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٣ / ١٥٥ .

حذف اسم الجلالة في الجملة الاستفهامية إشارة إلى بُعد وحدانيته عن الشرك ، فلا ينبغي عنده نسبتته إلى الله ﷻ ولا ذكره معه ، أما الجملة الحالية ففيها بيان لحال المشركين ، وهم لا يزهون الله تعالى عن الشرك ، ومن ثم صرح باسم الجلالة ، وفي التصريح به تهويل للأمر ، وتفضيع له ، فإن المنكر المستبعد عند العقل السليم هو الإشراك بالله تعالى لا مطلق الإشراك (١) .

والإتيان بالمفعول اسما موصولا مبهما دون ذكره باسمه الصريح في قوله : (وكيف أخاف ما أشركتم ...) ؛ لتحقير آلهتهم ؛ ولذمها بما في حيز الصلة التي تبين أن اتخاذها شريكا كذب وبهتان لا أساس له .
وتقديم الجار والمجرور (عليكم) على المفعول به (سلطانا) ؛ للاهتمام ببيان عدم نزول حجة عليهم بما يشركون حتى يتخذوه شريكا .
وفي نفي نزول سلطان به عليهم نفي لنزوله على غيرهم ؛ لأنهم أصحاب الشأن في ذلك ، فإذا لم ينزل عليهم السلطان فلا محل لنزوله على غيرهم ممن ليست لهم مصلحة فيه .

والجملة الاستفهامية الثانية (فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) لم يعين فيها إبراهيم عليه السلام الأحق بالأمن مع يقينه بأنه لا أحق بالأمن إلا هو ، وهو ما يسمى عند البلاغيين بتجاهل العارف ، أو المنصف ، أو سوق المعلوم مساق غيره كما يسميه السكاكي (٢) ؛ للتعريض بهم ؛ ولحثهم على التفكير في حالهم وحاله ؛ ليقفوا بأنفسهم على خطأ ما هم عليه ، ويعلموا بالبرهان أنهم على ضلال .
ولم يقل : (فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ؟) ؛ احترازا عن تزكية نفسه ، فعدل عنه إلى قوله : (فأي الفريقين) ؛ ليعني فريق المشركين وفريق الموحدين ؛ وكذلك ليعم بالأمن كل موحد ، وبالخوف كل مشرك (٣) ، وفي هذا المسلك - أيضا - تأكيد لإلجائهم إلى الجواب الحق بالتنبيه على علة الحكم ، والتفادي عن التصريح بتخطئتهم التي قد تدعو إلى العناد ، ومن ثم جاء بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له في الجملة ؛ لاستنزاهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الإنصاف (٤) .

وختام الاستفهام بالجملة الشرطية (إن كنتم تعلمون) ؛ للتهييج والإلهاب على الإقرار ؛ لأنهم إن عجزوا عن الإجابة أو تباطأوا فيها وُسِموا بالجهل ، وحذف مفعول (تعلمون) ؛ إما لظهوره بمعونة المقام ، أو قصدا إلى التعميم ، أي : (إن كنتم تعلمون شيئا) ، وإما متروك بالمرة تنزيلا للفعل المتعدي منزلة اللازم ، أي (إن كنتم من أولي العلم) (٥) .
والتعبير بـ (إن) دون (إذا) مشعرٌ برجحان عدم علمهم ، فهم يتجاهلون الحقائق ، أو جهلونها ، وهكذا يظهر من نظم الآية مدى استخفاف إبراهيم عليه السلام بعقول هؤلاء ، وقدرته الفائقة على إثبات وحدانية الله تعالى بأبلغ الصور ، وأقوى التراكيب .

(١) ينظر : حاشية الشهاب ٤ / ٨٨ ، وروح المعاني ٤ / ٢٠٦ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي ٢٤٦ ، ت : نعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٣) ينظر : الكشاف ٢ / ٣٣ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ٣ / ١٥٦ .

(٥) ينظر : جامع البيان ٧ / ١٦٧ ، وحاشية الشهاب ٤ / ٨٩ .

المطلب الثاني : دعوة إبراهيم عليه السلام أباه إلى التوحيد :

وقد جاءت هذه الدعوة في سورة مريم في قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۗ ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۗ ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۗ ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۗ ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِلْأَرْجَمَاتِ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ۗ ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۗ ﴿٤٧﴾ وَأَعَزَّلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۗ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعَزَّلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۗ ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ۗ ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم : ٤١-٥٠] .

وهذه الآيات من سورة مريم ، وهي مكية النزول ، غرضها الأصلي تقرير التوحيد ، توحيد الله ﷻ في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، ونفي الولد والشريك عنه ، مع الإلمام بقضية البعث والجزاء ، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين ، وبيان أن الخلق مبعوثون للحساب والجزاء ، ويسير السياق في موضوعات السورة في ثلاثة محاور :

- المحور الأول : يتضمن قصة زكريا ويحيى ، وقصة مريم وعيسى - عليهم السلام - ، ثم التعقيب على القصة بالفصل في قضية عيسى عليه السلام التي كثر فيها الجدل ، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

- والمحور الثاني : يتضمن حلقة من قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ، واعتزاله ملة الشرك وطائفة المشركين ، ثم إشارات سريعة وموجزة إلى قصص الأنبياء ، ومن اهتدى بهديهم ، ومن خلف بعدهم من الغواية ، ومصير هؤلاء وهؤلاء ، ثم ينتهي الحديث بإعلان الربوبية الواحدة .

- والمحور الثالث والأخير : يبدأ بالجدل حول قضية البعث ، ويستعرض بعض مشاهد القيامة ، ويعرض صورة حركية من استنكار الوجود كله لدعوى الشرك .

وسميت السورة بذلك ؛ تخليدًا لتلك المعجزة الهائلة التي تتمثل في إنجاب إنسان من أم بلا أب ، ثم إنطاق الله ﷻ للوليد وهو طفل رضيع في مهده ، وما جرى من أحداث عجيبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام (١) .

وهذه الآيات تحكي دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه خاصة ، وتبين تطفه معه في الدعوة ، في الوقت الذي لم يجد من أبيه إلا الإنكار ، والجفاء ، والمقاطعة ، حيث طلب منه أن ينتهي عما يقوله له وإلا سيرجمه إما بالحجارة ، وإما باللسان ، ثم أمره بأن يبتعد عنه ويتركه زمانا طويلا ، فقد بلغ الضيق من إبراهيم منتهاه ، ولم يعد يحتمل رؤيته ، ولا يطيق بقاءه في بلده ، ولكن إبراهيم عليه السلام قابل السيئة بالحسنة ، ودعا لأبيه بالسلامة من كل سوء ، وودعه ، ووعدته بأن يستغفر له ربه

(١) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور ٢ / ٢٦٣-٢٦٤ .

لعله يوفقه للتوبة والإيمان ، ويهديه إلى الطريق المستقيم ، وكان هذا الوعد من إبراهيم عليه السلام قبل أن يعلم أن أباه يموت على كفره .

وموطن السخرية في الآيات في قول إبراهيم لأبيه : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً) ، وهي سخرية من الأصنام التي كان يعبدها أبوه ، حيث بدأها إبراهيم عليه السلام بدعوة أبيه إلى التوحيد ، وندائه بالأطف نداء وأرقه وأحبه إلى كل أب بقوله : (يا أبت) ، (ومع أنه في حضرته إلا أنه ناداه ؛ لإحضار سمعه ؛ وتهيئة ذهنه ؛ لتلقي ما سيلقى إليه) (١) .

واستعمل في نداء أبيه (يا) التي للبعيد مع أنه بجواره ؛ للإشعار برفعته ، وعلو منزلته عنده ، وشدة حرصه عليه ، وليس هذا نداءً محضاً ، بل يحمل في طياته الإشفاق ، والتلطف ، والاستمالة بتحريك مشاعر الأبوة ؛ ليتمثل لنصائحه ، ويستجيب لدعوته ، وبعد أن لفت انتباهه وناداه بما يدفعه إلى الإصغاء إليه والاستجابة له ، سأله منكرًا عليه ، ومتعجباً من عبادته ، وساخرًا من صنم ليس فيه من صفات الألوهية من شيء : (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً) ؟ ! ، فسخر من هذا الصنم الذي يعبده أبوه ؛ لأنه لم يجد فيه سبباً موجبا لعبادته فهو لا يسمعه إذا ناداه ، ولا يبصره إذا عاينه ، ولا يغني عنه شيئاً إذا احتاج إليه في شيء ، أو حل به مكروه .

والاستفهام يحمل في طياته معاني عدة لم يفصح عنها إبراهيم عليه السلام ، ولكنها مفهومة من سياق الكلام ، فهو استفهام إنكاري توبيخي تعجبي توجيهي ، مقصود به إرشاده ، وإثارة تفكيره السليم ؛ علّه يدرك خطأه ، ويثوب إلى رشده ، ويدرك خطأ ما وقع فيه ، وهذا الاستفهام - أيضاً - فيه تهكم ضمني بعقل أبيه ، المعتقد بألوهية هذا الصنم برغم فقدانه أوضح الصفات التي ينبغي أن تكون في المعبود .

وهذه السخرية جاءت من سلب صفتي السمع والبصر عنه ، فضلا عن الإيجاز البديع بترك مفعولي : (يسمع ويبصر) ؛ وهذا إما للقصد إلى نفي الفعل عن الفاعل على الإطلاق من غير تعرض لذكر المفعول كقولك : ليس به استماع ولا إبصار ، بتنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم ؛ مبالغة في نفي حقيقة الاستماع والإبصار عنه ، وإما للقصد إلى إفادة العموم والشمول مع الاختصار ؛ أي : لا يسمع شيئاً من المسموعات ، ولا يبصر شيئاً من المبصرات (٢) .

كما أنه خصص السمع والبصر من بين سائر الخصائص ؛ لأنهما أظهرها ، وأكثرها تعلقاً بالعبادة في نظر الناس ، فعدم وجودهما فيمن يدعى له الألوهية يعني عدم صلاحيته لشيء أصلاً فهو لا يسمع دعاء ولا رجاء ، ولا يبصر له فعلاً ولا عبادة ، ولا يرى طاعة ولا معصية ، فكيف يكون إلهاً معبوداً يُتوجّه إليه بالدعاء والعبادة ؟ ! .

ولم يقتصر إبراهيم في سخريته عليه السلام على سلب هاتين الصفتين ، بل زاد في السخرية بسلب جميع القدرات عنه ، فهو لا يغني عنه شيئاً ، ولا يقدر على شيء ، ووجوده كعدمه ، لا يقدم منفعة ، ولا يؤخر مضرة ، فكيف يكون إلهاً معبوداً ، وهو معدوم القدرة على فعل شيء ، فالسخرية هنا من عجز هذا الصنم .

(١) التحرير والتنوير ١٦ / ١١٣ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز ١٥٤ ، ومفتاح العلوم ٢٢٨ وما بعدها .

وجاء المفعول (شيئا) لإفادة العموم في نفي الإغناء ، ونكره للتحقير والتقليل ، أي : لا يغني عنك شيئا من الأشياء مهما كان ، قليلا كان أم حقيرا .

ويلحظ أنه صرح بالسخرية من الصنم ، ولوح بها بالنسبة لأبيه في اعتقاده ألوهية ما لا يسمع ولا يبصر ، وهذا من أدب النبوة الذي أبى عليه أن يسخر من تفكير أبيه ، وهو والده وأحب الناس إليه ، ومظاهر الكمال والنفع والضر فيه أظهر من الصنم الذي يعبده ؛ لأنه يسمع ويبصر ويتحرك ، فهو أشرف درجة منه ، ولا يصح في ديدن العقل أن يكون العابد أشرف وأكمل من المعبود ، ومن ثم كانت السخرية من الصنم صريحة ، ومن أبيه ضمنية .

المطلب الثالث : دعوة إبراهيم عليه السلام أباه وقومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام :

وهذه الدعوة جاءت بعد دعوة أبيه أزر إلى عبادة الواحد القهار ، ونبذ عبادة الأصنام ، حيث إنه لما لم يجد منه استجابة اتجه بالدعوة إلى قومه وهو معهم ، باذلا لهم ما في وسعه ؛ لإقناعهم بدعوته ، لكنهم استمروا في ضلالهم وكفرهم ، ولم يستجيبوا لنصحه ، ولم يقتنعوا بحججه ، وانتهى الأمر إلى تكسير أصنامهم ، فقاموا بإلقائه في النار ، ولكن الله سبحانه ونجاه منها ، فخرج قوي العزيمة ، ثابت الجنان .

وقد وردت السخرية مقرونة بالمعاني السابقة في سور : الأنبياء الآيات (٥١ - ٧٣) ، والشعراء الآيات (٦٩ - ٧٧) ، والعنكبوت الآيات (١٦ - ٢٧) ، والصفوات الآيات (٨٣ - ٩٨) . وفيما يلي من صفحات سأتناول بلاغيا مواطن السخرية في هذه السور على الترتيب ، مع بيان أوجه التشابه والاختلاف بينها إذا وجدت ، والمقامات التي قيلت فيها .

وأول هذه المواطن قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ يَكُ لَكُمْ وَلِيمَاتُكُمْ وَمِن دُونِ اللَّهِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ يَكُ لَكُمْ وَلِيمَاتُكُمْ وَمِن دُونِ اللَّهِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَك بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾

الأنبياء : ٥١ - ٧٣ .

وهذه السورة مكية النزول بالإجماع ، وقد ركزت على قضية البعث والنشور ، وبينت أن الساعة لا محالة واقعة ، وأنها وشيكة الوقوع ، وقد حفلت ببيان ذلك في البدء والختام ، ثم عرجت إلى إثبات الوحي والرسالة ، وبيان بشرية الرسول والمرسلين من قبله ، وتوجيه أنظار المشركين إلى التعرف على تلك الحقيقة ، ثم اتجهت إلى تأصيل العقيدة في نفوس المخلوقين ، وشرحت مظاهر القدرة ، وبينت الدلائل الماثلة في الأنفس والآفاق على عظمة الخالق ، وأنه واحد لا شريك له ، ثم استعرضت مواقف مواقف من قصص الأنبياء والمرسلين ، مثل إبراهيم عليه السلام ، وداود ، وسليمان ، ونوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذو الكفل ، وذو النون ، وزكريا ، ويحيى (عليهم جميعا السلام) ، وختمت بالحديث عن هلاك العاصين ، ونجاة الطائعين يوم القيامة (١) .

وتحكي هذه الآيات مجادلة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه في شأن الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى ، وإبطال عبادتها بالدليل العقلي والفعل العملي المؤيد له ، وما ترتب على ذلك من إلقاءهم له في النار ، ونجاته منها بقدرة الله سبحانه وإنعامه عليه بالذرية الصالحة .

وقد بُدئت القصة بنبرة عالية التأكيد ؛ حيث أُكِّدت بقدر ولام القسم : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) ؛ لتحقيق مضمونها لدى المخاطبين ، وتقديره في أذهانهم ؛ لأنه من الأمور المهمة التي يجب أن يعلموها علم اليقين ؛ ولتنزيل العرب في مخالفتهم شريعة أبيهم إبراهيم منزلة المنكر لكون إبراهيم عليه السلام أوتي رشداً وهدياً (٢) .

وبعد هذه البداية المؤكدة التي تضمنت الثناء على إبراهيم عليه السلام ، وبينت أهليته للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى تعرض الآيات ما دار من حوار بين إبراهيم عليه السلام وقومه في شأن عبادتهم للأصنام ، وإبطالها بأساليب بلاغية غاية في القوة من أهمها أسلوب السخرية من الأصنام وعبادتها في غير موضع منها .

(١) ينظر : مصاعد النظر ٢ / ٢٨٦ - ٢٨٧ ، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٥٤٣ - لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - الطبعة ٢٠ - القاهرة - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٧ / ٩٢ .

وأول شواهد هذه السخرية قوله تعالى : (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) (١) ومنبع السخرية آت من استنهامه بقوله : (ما هذه التماثيل) ؟ ! ؛ حيث إن الغرض منه سوق المعلوم مساق غيره ، أو ما يسمى عن البلاغيين بـ (تجاهل العارف) ؛ لأنه سألهم عن أصنامهم بـ (ما) التي يطلب بها بيان حقيقة الشيء ، أو شرح الاسم كأنه لا يعرف أنها تماثيل مع إحاطته بأن حقيقتها حجرٌ أو شجرٌ اتخذوها معبودا ، والنكته في ذلك : التمهيد لتخطئتهم بعد أن يجيبوه ببيان حقيقتها (٢) ، بجانب ما يحمله من تحقير لشأنها ، وتوبيخ لهم على عبادتها ، والجملة الاستفهامية تحمل ألوانا من التهوين والتحقير لأصنامهم والسخرية بها ، والتوبيخ والتقريع لهم من خلال الخصائص الآتية :

١- السؤال عن شيء معلوم بالنسبة للسائل ، وفي هذا تصغير وتحقير لشأن المسئول عنه ، وتهكم وتوبيخ للمسئولين .

٢- التعبير باسم الإشارة (هذه) ، وفيه تحقير للأصنام بواسطة الإشارة القريبة التي تميز حقيقتها المهانة ، المنحطة عن رتبة الإلهية ، والتحقير عون على السخرية بلا شك .

٣- ذكر ألتهنهم باسم التماثيل جمع تمثال ، وهو اسم للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى من مثلت الشيء بالشيء : إذا شبهته به (٣) ، وفي هذه التسمية إشعار بعدم استقلالها ، وإثبات لتمام عجزها ؛ إذ هي صور مصنوعة لا حقائق موجودة ، وفي هذا زيادة تحقير لها .

٤- وصفها بجملة (التي أنتم لها عاكفون) مما يزيد من توبيخهم على فساد تفكيرهم ، حيث يعكفون على تماثيل لا حقائق .

٥- خطابهم بـ (أنتم) ، وفيه استهانة بهم ، وتوقيف على سوء صنيعهم (٤) ، وإشارة إلى عدم مشاركة أحد لهم في هذه الفعلة الشنعاء .

٦- تقديم الجار والمجرور (لها) على متعلقه ، وفي هذا مزيد تخصيص لهم بهذا الفعل القبيح ، مما يضاعف من ذمهم ، وتوبيخهم .

٧- التعبير عن عبادتهم لها بمطلق العكوف ، الذي هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض ؛ قصدا إلى تحقيرها ، وإذلالها ، وتوبيخها لهم على إجلالها (٥) .

٨- الإتيان بالعكوف على صيغة اسم الفاعل ؛ للإشارة إلى استمرارهم ، ودوامهم على ذلك ، مما يقتضي مزيدا من الذم والتوبيخ لهم ، والتهكم بهم .

ولذا أجاب القوم على إبراهيم عليه السلام : (قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين) ، وهو جواب ليس

(١) (إذ) : ظرف متعلق بـ (آتينا) على أنه وقت متسع وقع فيه الإتياء وما يترتب عليه من أقواله وأفعاله ، أو متعلق بـ (رشد) ، أو بمحذوف ، أي : اذكر من أوقات رشده هذا الوقت . ينظر : الكشاف ٥٧٥ / ٢ . واختار ابن عاشور أنه ظرف لـ (آتينا) ، أي : كان إيتاؤه الرشد حين قال لأبيه وقومه : (ما هذه التماثيل) ؟ . ينظر التحرير والتنوير ٩٣ / ١٧ .

وفي رأيي : أن إيتاءه الرشد لم يكن حين قال لأبيه وقومه ما قال ؛ فقد أوتي الرشد قبل ذلك ، وما قاله لأبيه وقومه مثلٌ للرشد الذي أوتيته ، وليس هو كل الرشد ، ولم يكن هذا بدء الوحي والدعوة بالنسبة له ، فقد سبق ذلك دعوته لأبيه وحده كما جاء في سورة مريم ، وليس من الحكمة في الدعوة أن تبدأ بهذا الجدل القوي الذي انتهى بإلقائه في النار .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ٧٢ / ٦ ، والتحرير والتنوير ٩٤ / ١٧ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير ١١٠ / ٦ .

(٤) ينظر : البحر المحيط ٣٢٠ / ٦ .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم ٧٢ / ٦ .

عن سؤال إبراهيم عليه السلام ، وإنما جواب عما لزمه السؤال عما اقتضى عبادتها ، وحملهم عليها (١) إذ لما سألهم عنها وهي مشاهدة معلومة حملوا كلامه على السؤال عن سبب عبادتها بقريئة توصيفها بـ (التي أنتم لها عاكفون) (٢) ، وهذا من الأسلوب الحكيم ، وإن كانت لا حكمة فيما يقولون ، وما يفعلون ، حيث أجابوه عن سبب عبادتها لا عن حقيقتها وماهيتها كما هو مقتضى سؤاله ، وفي هذا هروب من الوقوع في طوق الحجة الملزمة ؛ إذ لو أجابوه ببيان حقيقتها للزمتهم الحجة ، حيث عبدوا أصناما صنعوها بأيديهم من الحجر أو الشجر ، وبطلان هذا من الوضوح بمكان ، ولذا كانت السخرية الثانية منهم عالية مدوية ، تدوي في كل سمع ، وتقفز في كل قلب ، (قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين) ، فوصفهم وأباءهم بالضلال المبين ، وأكد ذلك باللام وقد ؛ لإثبات مضمون كلامه بقوة ، وتقريره بوضوح ، وعبر بـ (كنتم) ؛ للإشعار بقدمهم وعراقتهم في هذا الضلال هم وأباؤهم .

وأكد نسبته إليهم بالضمير (أنتم) ؛ إمعانا في مواجهتهم بهذه السخرية الشديدة ، ونعتهم بالضلال على سبيل الخصوص ، وعطف آباءهم عليهم ؛ لإشراكهم معهم في الضلال المبين ، فهم سبب وقوع أبنائهم فيه ، فحكم بالضلال على المقلدين والمقلدين (٣) ، وفي هذا مزيد إثبات لضلالهم ، إذ ورثوه كابرا عن كابر ، وقدم الأبناء على الآباء خلافا للترتيب الوقوعي ؛ لأن الأبناء هم المخاطبون بهذا الرد ؛ تشديدا في النكير عليهم ، وجعل الضلال مستقرا لهم ، وهم متمكنون فيه عن طريق الظرفية المجازية (في ضلال) .

ونكر (ضلال) ؛ إشعارا بشيوعه وكبره ، وعجب أمره ، وهو ضلال كبير عجيب ، فوصف بأنه (مبين) ؛ " للدلالة على أنه ظاهر جلي لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك " (٤) وعبر بـ (مبين) وهو بمعنى : (بيّن) ، وفيه إشارة إلى أن ضلالهم كما هو ظاهر في نفسه مظهرٌ فسادَ عقولهم وتخبّطهم في عمى التقليد .

أما الشاهد الثالث للسخرية فجاء بعد أن انتظر خروجهم في يوم عيدهم ، ودخل على الأصنام فوجدها سبعين صنما مصطفة ، وثم صنمٌ عظيم فكسرها بفأس في يده ، حتى لم يبق إلا الكبير ، فعلق الفأس في عنقه استهانة به وبالأصنام ، واستخفافا بعابديها ، وهي سخرية فعلية لا مقالية ، وضحا النظم الكريم في قوله تعالى : (فجعلهم جذاذا (٥) إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون) .

والسخرية آتية من تحطيم هذه الأصنام ، وتكسييرها قطعا صغيرة ، وهي عاجزة عن صد إبراهيم عليه السلام ، والدفاع عن نفسها دفاعا من أي نوع ، وهذا الفعل يدل على أنه بلغ في الاستهانة بها وبعجزها المدى والغاية ، كما أتت السخرية - أيضا - من إجراء ضمير العقلاء على الأصنام

(١) ينظر: تفسير البيضاوي ٢٤٢ .

(٢) ينظر : حاشية الشهاب ٦ / ٢٥٩ .

(٣) ينظر : البحر المحيط ٦ / ٣٢٠ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٦ / ٧٢ .

(٥) الجذ : الكسر والقطع ، وجعلهم جذاذا : أي كسرها قطعا ، وإيثار (جذاذا) على غيرها مما هو بمعناها ؛ لما فيها من إشعار بشدة تكسييرها إلى قطع صغيرة ، ومن ثم يقال للحب الذي يجذ ويجعل سويقا : جذية . (ينظر : مقاييس اللغة - جذ) .

في (جعلهم) وفي (إلا كبيرا لهم) ؛ جريا في التعبير على مزاعم القوم في معاملتها معاملة العقلاء من تعظيمها والتقرب إليها وأيضا آتية من الضمير في (إليه) بإرجاع الضمير إلى الكبير الذي استبقاه : " والمعنى لعلهم يرجعون إلى هذا الكبير كما يرجعُ إلى العالم في حل المشكلات ، فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا ، وهذا مبنيُّ على علمه بأن جهلهم سيؤدي بهم إلى استشارته ، والفائدة التي ينشدها إبراهيم عليه السلام من ذلك : أنهم إذا رجعوا إليه تبين لهم أنه عاجز ، لا ينفع ولا يضر ، وظهر أنهم في عبادته على ضلال عظيم " (١) ، ويحتمل أنه عليه السلام يعلم أنهم لا يرجعون إليه لكن ذلك من باب الاستهزاء والاستجهال (٢) .

ويجوز أن يكون الضمير في (إليه) عائداً على إبراهيم عليه السلام عند الجمهور ، (أي : لعلهم يرجعون إلى إبراهيم عليه السلام لا إلى غيره ، لما سمعوا من إنكاره لدينهم ، وسبه لألهتهم ، فيحاجُّهم ويبيكتهم ، فيكون تقديم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص) (٣) .

أو أن الضمير في (إليه) عائداً على الله ﷻ ، أي : لعلهم يرجعون إلى الله تعالى ، وتوحيده حين يسألونه عليه السلام فيجيبهم ، ويُظهرُ عجزَ ألهتهم عن دفع ما يصيبها من ضرر ، وعلى هذا الوجه يكون تقديم الجار والمجرور للحصر ، أو للتأكيد ، أو للتقوية ، وأداء حق الفاصلة (٤) .
وأيا ما كان مرجع الضمير، فإن الجملة تفيد الاستهزاء والسخرية من عجز الأصنام عن الدفاع عن نفسها ، والاستهزاء والاستجهال لقومه الذين يعبدون أصناما عاجزة لا تضر ولا تنفع.

أما السخرية الرابعة فجاءت بعد أن رجع القوم من عيدهم ، وذهبوا إلى أصنامهم ، فرأوا ما حدث لها ، فاستفهموا على سبيل البحث والإنكار عن الذي فعل ذلك ، فعرفوا أنه إبراهيم عليه السلام فأحضره ، وقرروه بالفعل بالاستفهام : (**أأنت فعلت هذا بألهتنا يا إبراهيم ؟**) ، وهذا السؤال من القوم لإبراهيم عليه السلام كان على ما يريد ويتوقع ، ومن ثم كان قد أعد جوابه سالفا بالفعل حين علق الفأس في عنق الصنم الكبير ، ولما جاءوا به في مجمع من الناس أجابهم بسخرية شديدة : (**بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**) ، وهذا الجواب يحوي في طياته سخرية شديدة وتهكم لاذع بهم ، وقد اهتم الزمخشري بتخريج جواب إبراهيم عليه السلام على ثلاثة أوجه :

- **الأول** : أنه وارد على سبيل التعريض ؛ حيث قصد إثبات الفعل لنفسه من حيث أثبتته للصنم الكبير وهو عاجز عنه ، تهكما واستهزاء به وبعابديه ، وإلزاما لهم بالحجة عندما يتيقنون بعجزه عن ذلك .

- **والثاني** : أنه من الإسناد المجازي ؛ حيث أسند الفعل إلى سببه ، فقد غاظته الأصنام وبخاصة كبيرها ، وكان هذا سببا في تكسيره لها .

- **والثالث** : أنه من قبيل إلزام الخصم بمقتضى مذهبه ؛ تضيقا عليه ؛ ليتبين ما فيه من باطل ، وما يجرده عليه من حرج فيرجع عنه (٥) .

(١) الكشف ٢ / ٥٧٦ ، والبحر المحيط ٦ / ٣٢٣ .

(٢) ينظر : روح المعاني ١٧ / ٦٢ .

(٣) الكشف ٢ / ٥٧٦ بتصرف يسير .

(٤) ينظر : روح المعاني ١٧ / ٦٢ .

(٥) ينظر : الكشف ٤ / ١٥٣ ، والتعريض في القرآن الكريم ٤٦ - د : إبراهيم محمد عبد الله الخولي - دار البصائر - القاهرة -

الطبعة الأولى - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

وقال أبو السعود في تخريج هذا الجواب : " سلك - عليه السلام - مسلكا تعريزيا يؤديه إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على أطف وجه وأحسنه ، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب ، حيث أبرز الكبير قولاً في معرض المباشر للفعل بإسناده إليه ، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلاً بجعل الفأس في عنقه ، وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب " (١) .

والفرق بين الزمخشري و أبي السعود : أن الزمخشري يفصل فكرة التعريض عن فكرة المجاز العقلي ، ويجعل كلا منهما أساساً لتخريج مستقل ، أما أبو السعود فلا يفصل بينهما وإنما يوظفهما معاً في اتجاه نحو غاية واحدة هي إلزام الحجة على أطف وجه وأحسنه (٢) .

وبالعودة إلى التأمل في جواب إبراهيم عليه السلام ، وما فيه من خصائص بلاغية يتضح ما يأتي :
١- أنه عبر بـ (كبيرهم) ؛ لمزيد من التهكم بالأصنام وبعابديها ؛ لأن الكبير - وهو الذي عنده من المكانة ما له - إذا كان عاجزاً فالصغار منه أعجز ، (وفي تقييده بالإشارة (هذا) دلالة على أن الأصنام كان فيها كبير غير الذي تركه بغير كسر) (٣) ، ومن ثم ميّز المقصود بالإشارة أكمل تمييز ، ولم يكتف بتعريفه بالإضافة (كبيرهم) .

٢- جاء بفعل الأمر (فاسألوهم) ؛ للتعجيز والتهكم ؛ لأنه عليه السلام يعلم أن الأصنام لا تجيبهم ، وأن القوم لن يسألوهم لعلمهم بذلك ، والضمير للأصنام ، ما تحطم منها وما بقي قائماً ، وضمير الجمع لإجرائهم مجرى العقلاء مجارة لهم في زعمهم .

٣- أتى بـ (إن) التي للشك في قوله : (إن كانوا ينطقون) ؛ لمجاراتهم في زعمهم حتى يفحمهم بالحجة ، حيث لم يجزم بعدم قدرتها على النطق ، ولم ينف ذلك عنها نفياً صريحاً ، وترك الأمر مشكوكاً فيه - وهو على يقين من عدم نطقها - كي يتوصلوا إلى ذلك بأنفسهم بعد مراجعتها ، فلا يدرون جواباً ويكبتون ، وفي ذلك غاية الاستهانة والتهكم بالأصنام وبعابديها .
" وقيل : (إن كانوا ينطقون) دون (إن كانوا يسمعون أو يعقلون) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ؛ لما أن نتيجة السؤال هو الجواب ، وأن عدم نطقهم أظهر ، وتبكيتهم بذلك أدخل " (٤) .

ولم يقل : (يجيبون) مراعاة للفظ (اسألوهم) ؛ لما في النطق من عموم يشمل الإجابة وغيرها فهو أنسب لبيان عجزهم التام عن النطق بالإجابة أو بغيرها ، وهذا من أسرار عدم تقييد النطق بمفعول أو نحوه ، كما أن إيثار (إن كانوا ينطقون) على (إن نطقوا) ونحو ذلك ؛ لما فيه من إشارة إلى قدم عهدهم في عدم النطق ، وأنه ليس أمراً جديداً عليهم .

ويبدو أن هذا التهكم اللاذع قد هزهم هذا ، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكير (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) ، وكانت بادرة خير أن يرجعوا إلى أنفسهم ، ويستشعروا ما في موقفهم من سخف ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم ، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ؛ (ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أي :

(١) إرشاد العقل السليم ٦ / ٧٤ .

(٢) ينظر : التعريض في القرآن الكريم ٤٧ .

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٤٠ بتصرف يسير .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ٦ / ٧٥ .

" استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم ، وجاءوا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة في المجادلة بالباطل والمكابرة " (١) مما حدا بإبراهيم عليه السلام أن ينتفض ويغضب من قومه ومعبوداتهم ، ويصرح بالسخرية بعد التلويح بها بقوله : (**قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون**) .
ورد إبراهيم عليه السلام يتضمن ثلاثة أمور :

- **الأول** : إبطال عبادة الأصنام بالدليل : (**أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم**) وهو إبطال لعبادة الأصنام بالحجة المقنعة مع التلويح بالسخرية من عجزها ومهانتها ، وعدم صلاحيتها للألوهية ، وهم يعلمون ذلك ، وقد أقرروا به أمام إبراهيم عليه السلام ، ونظم الآية يوحى بذلك حيث أتى بالجملة على صيغة الاستفهام لتوبيخهم ، وتقريعهم ، والإنكار عليهم ، إلى جانب الحث على التأمل ، والدعوة إلى النظر ، والتدبر فيما يعبدون ، وفي مدى استحقاقه للعبادة ، ومن ثم ينتهون عما هم فيه من ضلال مبين ، وعبر بالمضارع (**تعبدون**) ؛ للدلالة على التجدد في عبادتهم ، كما عبر عن الأصنام بالموصول المبهم (**ما**) ؛ للإشارة إلى جهالتها واستهجان التصريح باسمها ، وإدخال كل ما يعبد من دون الله تحت هذا الحكم .

ونكر (**شيئا**) لإفادة العموم والتحقير ، مما يدل على أن هذه الأصنام لا تنفعهم شيئا من الأشياء وحذف مفعول (**يضركم**) ؛ لعلمه مما سبق ؛ وللاشعار بمزيد العموم ، وأنها لا تلحق بهم ضرراً من أي نوع ، فهي عاجزة ، ولإظهار ذلك المعنى وتأكيد استخدام التطابق بين النفع والضرر ، وأثر التعبير بـ (**ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم**) على (**ما لا ينطقون**) كما كان السياق يقتضي ؛ لإظهار عموم عجزها وشموله ، إذ لا يقتصر عجزها على عدم النطق فقط ، بل عجز كلي عن فعل ما لا ينفع ولا يضر ، وهذا التحقير لا شك عون على السخرية من عجز هذه الأصنام .

- **الأمر الثاني** : إعلان تضجره وغضبه من قومه ومعبوداتهم بقوله : (**أف لكم ولما تعبدون من دون الله**) ، وهذا استئناف لتبكيته بعد أن أثبت لهم عجز معبوداتهم وعدم أحقيتها بالعبادة ، وقد استعمل فيه أعلى كلمات التحقير التي لا تقال إلا لما هو غاية في القذارة (٢) ، حيث استعمل اسم الفعل (**أف**) بمعنى : أتضجر ؛ للدلالة على تضجره واستفذاره منهم ومن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، وسبب ضجره ما رأى من ثباتهم على عبادة الأصنام بعد انقطاع عذرهم بوضوح الحق وزهوق الباطل ، ولذا قال : (**أف لكم**) ؛ لبيان المتأفف به ، أي : لكم ولآلهتكم هذا التأفف (٣) .

وقال : (**ولما تعبدون من دون الله**) دون أن يقول : (**ولآلهتكم أو أصنامكم**) ونحو ذلك ؛ تشنيعاً بهم ، وتنديداً بجريمتهم ، حيث عبدوا الأصنام من دون الله ، كما أن فيها إشعاراً بعلّة التأفف منهم ، إذ تشبثوا بعبادة باطلة ، وتلك جريمة تدعو إلى ضجره منهم ، واحتقاره لهم ولمعبوداتهم .

وأظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار ؛ لزيادة البيان ، وتشنيع عبادة غير الله عز وجل .

(١) الكشاف ٢ / ٥٧٧ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ١٢ / ٤٤٣ .

(٣) ينظر : الكشاف ٢ / ٥٧٧ .

- والأمر الثالث : توبيخهم على عدم تدبرهم وتعقلهم بالاستفهام الإنكاري التوبيخي (أفلا تعقلون؟!) ، والفاء عاطفة على مقدر دل عليه ما عطف عليه ، أي : لا تتفكرون فلا تعقلون ، والفعل (تعقلون) منزل منزلة اللازم ، وذلك لوصفهم بعدم التعقل على الإطلاق ، فهم لا يعقلون شيئاً ما ، وهذا أبلغ في الإنكار عليهم والتوبيخ لهم .
وآثر (تعقلون) على (تتفكرون) ونحوه ؛ لأن عدم تعقلهم يلزم منه عدم تفكرهم وتدبرهم ، إذ العقل أداة التفكير والتدبر ، فعدمه عدم لها ، كما أن نفي التعقل عنهم يثبت ضده وهو الجنون ، وهذا أبلغ في التشنيع عليهم ، والذم لهم ، والسخرية بهم .

والخلاصة ، ومما سبق يُرى أن رد إبراهيم عليه السلام عليهم جاء قويا جامعا لخصائص الإنكار والتوبيخ ، والذم ، والتشنيع ، والسخرية ، حيث اشتمل على إنكارين بينهما تأفف واستقذار منهم ومن معبوداتهم ، مع تضمنها العناصر التعبيرية الدالة على التهكم والسخرية ، وقد رتبت هذه الأمور الثلاثة ترتيبا طبيعيا ، حيث بُدئت بإبطال عبادتهم ، تلا ذلك تأففه من هذا الباطل ، وتشبثهم بعبادته ، وخُتمت ببيان سبب ذلك وهو عدم التعقل ، وفصلت جملتنا : (أف لكم) (أفلا تعقلون) عن سابقتها ؛ لأنها متفرعتان عليها ؛ لزيادة الذم والتوبيخ ، فعبادة ما لا ينفع ولا يضر تقتضي تحقير فعلهم واستقذاره ، وهما مقتضيان عدم التعقل والتفكر ، وهذه الآيات تصور الحالة النفسية التي كان عليها إبراهيم عليه السلام ، إذ كان قد بلغ به الضيق منهم مبلغه ؛ لإعراضهم عن الحجة الواضحة ، وتمسكهم بالباطل ودفاعهم عنه ، فانطلق انطلاق المغيظ الذي ينفث عن نفسه بتقريع معانده والسخرية منه ، في جمل متواليات لا عطف بينها ؛ كي لا يعطيه فرصة يقطع من خلالها تقريعه وتفريغ شحنته النفسية ، مما دفعهم إلى الانتقام منه بإلقائه في النار ، ولكن الله ﷻ نجاه منها ، وأظهر حجته ، ونصره على القوم الكافرين .

وفي سورة الشعراء كانت دعوة إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد ، ونبذ عبادة الأصنام بإثبات عجزها ، وإثبات الكمال المطلق لله عن طريق جمل استفهامية عن أوصاف لا تجد أسلوبا أنصف منها في إلقاء قومه إلى الاعتراف بسلب تلك الأوصاف الكمالية عن الأصنام ، مع علم كل عاقل إذا تعقل أنه لا تصلح رتبة الألوهية مع فقد واحدة منها ، فكيف مع فقدها كلها ؟

ومن بين الأساليب التي انتهجها إبراهيم عليه السلام في مناظرته لقومه أسلوب السخرية والتهكم ، الذي يظهر في سياق الآيات الآتية :

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عُكُوفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء : ٧٧-٦٩] .

وهذه الآيات من سورة الشعراء ، مقصودها الأصلي العقيدة ملخصة في عناصرها الأساسية : الدعوة إلى توحيد الله ﷻ ، والنهي عن الإشراك به ، ثم التصديق بالوحي المنزل على رسول الله ﷺ .

ومطلع السورة يتحدث عن تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ ومعارضتهم لدعوته ، وتسليته عليه الصلاة والسلام ، والتهوين عليه ، وجسم السورة هو قصص الأنبياء التي تشغل حيزاً كبيراً من مجموع آياتها ، وبداية هذه القصص قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، ثم قصة إبراهيم عليه السلام ثم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة قوم شعيب ، وكل هذا وذاك وحدة متكاملة متجانسة ، ويغلب على هذه القصص كما يغلب على السورة جو الإنذار والتكذيب وذكر العذاب الذي يقع بأولئك المكذبين لرسولهم ، وكذا بمشركي قريش الذين كذبوا رسول الله ﷺ ، وآذوه وتقولوا على الوحي والقرآن (١) .

وهذه الآيات تتناول دعوة إبراهيم عليه السلام أباه وقومه إلى عبادة الله ﷻ ، ونبذ عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، كما تتناول الاحتجاج على بطلان عبادتها وفساد اللجوء إليها بمجموعة من التعبيرات القوية الموحية ، والأساليب البلاغية لا سيما أسلوب السخرية والتهكم بالأصنام وعبادتها .

وقبل تحليل شواهد السخرية لابد من النظر في بداية القصة الواردة في قوله تعالى : (**واتل عليهم نبأ إبراهيم**) ؛ حيث إنها بداية مثيرة للفت الانتباه ، واستدعاء الإنصات ، وهي بداية تختلف عن بدايات كل القصص في السورة ؛ لما فيها من عظات بالغات لقوم النبي ﷺ ، نظرا لصلتهم بإبراهيم عليه السلام ، وتشابههم مع قومه في عبادة الأصنام ودفاعهم عنها ، كما أن الأمر بتلاوة هذا النبأ على القوم ؛ لما فيه من تذكيرهم بسيرة أبيهم إبراهيم عليه السلام الذي يفخرون بالانتساب إليه ، لعلمهم يعتبرون بعداوتهم للأصنام وإبطاله عبادتها ، ويثوبون إلى رشدهم ، وإضافة النبأ إلى إبراهيم عليه السلام دون قومه مع أنهم طرف فيه ؛ لأنه الأصل ، إذ كان البادئ بالدعوة إلى عبادة الواحد القهار ونبذ عبادة الأصنام ، كما أن العرب يقدرّون إبراهيم عليه السلام نفسه ، ويرغبون في سماع أخباره .

وبعد هذه البداية المشوقة تبدأ الآيات في سرد الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وقومه ، وقد اشتمل على شاهدين للسخرية :

- الأول في قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ .

- والثاني في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ** ﴾ (٧٣) **أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ** ﴾ .

أما الشاهد الأول : (**إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون**) فمنبع السخرية فيه أت من سؤال القوم عن عبادة الأصنام مع أنه يعلم بذلك ، ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء لأنه حقير ، فالاستفهام صوري أراد به التهكم والسخرية من الأصنام وعبادتها فضلا عن افتتاح المجادلة معهم بإلقاء هذا السؤال ؛ ليكونوا هم المبتدئين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم ، فيلوح له من خلال شرح ذلك ما فيه من فساد ؛ لأن الذي يتصدي لشرح الباطل

(١) ينظر : مساعد النظر ٢ / ٣٢٧ ، والظلال ٥ / ٢٥٨٣ .

يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر مما يشعر بذلك من يسمعه ؛ ولأنه يعلم أن جوابهم ينشأ عنه ما يريده من الاحتجاج على فساد دينهم (١) .
ولذا أجابه قومه بتعيين نوع معبوداتهم بقولهم : (... نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) ، وكان مقتضى السؤال أن يقتصروا في الجواب على قولهم : (أصناما) ، ولكنهم أطالوا في الجواب وقالوا : (فنظل لها عاكفين) ؛ ابتهاجا بعبادتها ، وافتخارا بها بإطالة الحديث عنها ، وفي ذلك يقول الزمخشري : " فإن قلت : (ما تعبدون) سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا : (أصناما) قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب إبراهيم عليه السلام ، وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار " (٢) .

وجاء التعبير بصيغة الجمع في : (قالوا نعبد ...) وما بعدها ؛ للإشارة إلى رضاهم عن الجواب ، فأجريت الإجابة على لسانهم جميعا ، كأنهم قالوا في نفس واحد : نعبد أصناما ... ، وفي ذلك إشعارٌ بإجماعهم على الضلال ، وتوحدتهم في نصرته .
كما أنهم نكروا (أصناما) ؛ لتعظيم شأنها ، وبيان أن لها مكانة جلية في نفوسهم ، واستعملوا الفعل المضارع (نظل) بمعنى (نداوم) ؛ لإشعار إبراهيم باستمرارهم على عبادتها فضلا عن إثبات التعبير باسم الفاعل (عاكفين) بدلا من (عابدين) ؛ (لما فيه من دلالة على الحبس) (٣) ، وإشعاراً بشدة إقبالهم عليها ، وعدم انصرافهم عنها ، وانحباسهم على عبادتها .

ولذا كان الشاهد الثاني للسخرية منهم ومن معبوداتهم بقوله - عليه السلام - متسائلا :
(... هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون)؟! سالكا في بيان حجته مسلك الاستفهام دون أن يبين لهم عجزها بأسلوب خبري ؛ لإرادة التهكم بقولهم التي زينت لهم عبادة أصنام عاجزة ، لا تسمع من يدعوها ، ولا تنفعه ولا تضره ، فضلا عن التهكم بعجز هذه الأصنام وأنها أحقر من أن تعبد ، وإلى جانب الغرض السابق من الاستفهام كان الهدف - أيضا - أن يتوصل القوم إلى النتيجة بأنفسهم ، ولتكون إجاباتهم إقرارا منهم بعجزها ؛ إذ لن يستطيعوا إثبات أي قدرة لها ، وبذلك تلزمهم الحجة .

وفي سبيل إثبات ذلك حذف المسموع ليشعر بعموم عدم سماعهم لأي شيء ، فهم لا يسمعون دعاءهم ، ولا يسمعون غير ذلك ، والسماع مؤدٍ إلى الإجابة ، وإنما قال : (يسمعونكم) دون (يجيبونكم) ؛ لأن السماع أقل من الإجابة ، فإذا عجزت الأصنام عن السماع فهي عن الإجابة أعجز .

كما أنه جاء بالمضارع دون الماضي المناسب لها (فلم يقل : يسمعونكم إذ دعوتموهم ؛ لاستحضار الحال الماضية وحكايتها ، أي : استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها ، وقولوا : هل سمعوا ، أو أسمعوا قط ؟ ، وهذا أبلغ في التبكيت) (٤) .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٩ / ١٣٨ .

(٢) الكشف ٣ / ١١٦ .

(٣) ينظر : (مقاييس اللغة - عكف) .

(٤) ينظر : الكشف ٣ / ١١٦ ، وحاشية الشهاب ٧ / ١٧ .

وإمعانا في السخرية من عجز هذه الأصنام قدم السمع على النفع والضرر ؛ ليفيد أن عدمه أدل على العجز منهما ، كما أن النفع والضرر بينيان على السمع ، إذ يكون السمع أولاً ثم يترتب عليه الفعل ، كما قدم النفع على الضرر ؛ لأن تحقيق النفع أهم بالنسبة لهم ، والنفوس مولعة بما يحقق لها نفعاً ، ومن ثم خاطبهم بالنفع فقال : (**ينفعونكم**) ولم يخاطبهم بالضرر ، وترك مفعول (**يضررون**) ؛ للدلالة على العموم ، فهم لا يضررونهم ولا يضررون غيرهم ، بجانب ما في ذلك من مراعاة الفواصل ، كما أن الطباق بين (**ينفعون**) و (**يضررون**) أكد تمام عجز تلك الأصنام وذلك بارتفاع النقيضين عنها ، فهي لا تنفع ولا تضر ، ومن ثم كانت جديرة بالسخرية .

وفي سورة العنكبوت اتسمت دعوة إبراهيم عليه السلام بطابع الترغيب والاستمالة ، وإثارة العواطف والوجدان ، مع التلويح بالسخرية من الأصنام وعابديها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ هَبْنَا دُورَانَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾** [سورة العنكبوت : ١٦-١٧] (١) .

وموطن السخرية في قوله - تعالى - على لسان إبراهيم عليه السلام : (**إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً**) ، وقد جاءت بعد أن أمر إبراهيم عليه السلام قومه بعبادة الله عز وجل وتقواه ، ثم بين لهم بطلان عبادتهم ، وسخر منهم بسبب عبادة أوثان صنعوها بأيديهم عن طريق القصر بإنما في قوله : (**إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً**) ، وهو قصر صفة على موصوف ؛ أي : ما معبودهم إلا أوثاناً ، وما مخلوقهم إلا إفكاً ، أو أن عبادتهم مقصورة على تعلقها بالأوثان ، وخلقهم مقصوراً على تعلقه بالإفك ، أو أنه قصر موصوف على صفة على تقدير : هم مقصورون على عبادة الأوثان وخلق الإفك (٢) .

وسر القصر هنا هو الإشعار بأن عبادتهم للأوثان ، وخلقهم الإفك من الأمور المعلومة الواضحة التي لا تجهل ، ولا يُشكُّ فيها ؛ لأنهم يعبدون تماثيل من أخشاب وأحجار لا غير ، وتلك عبادة سخرية تدل على سخفٍ وبله ، وخاصة إذا كانوا يعدلون بها عبادة الله تعالى ، وهم في هذه العبادة لا يستندون إلى دليل أو برهان ، وإنما يخلقون إفكاً ، وينشئون باطلاً ، ولا شك أن استعمال صيغة المضارع (**تعبدون**) و (**تخلقون**) تصور حالهم الواقعة ، وما هم مستمررون عليه من ضلال وبهتان .

والتقييد بالجار والمجرور (**من دون الله**) مع تقديمه على المفعول الصريح ؛ للمسارة ببيان المعبود الحق الذي ضلوا عن عبادته وتذكيرهم به قبل بيان معبوداتهم المفتراة التي لا تنفع

(١) الأوثان : جمع وثن ، وهو صورة من حجر أو خشب مجسمة على صورة إنسان أو حيوان ، والوثن أخص من الصنم ؛ لأن الصنم يطلق على حجارة غير مصورة ، أما الوثن فيطلق على المصور ، وكانت أصنام قوم إبراهيم مصورة ، أي منحوتة (المفردات - وثن) .
- والإفك : كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ، ويطلق على الكذب ؛ لأنه مصروف عن الحق (السابق - أفك) .
(٢) ينظر : مذكرات في الفصل والوصل والقصر - سليمان نوار ص ١١ - مطبعة العلوم - الطبعة الثانية ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م .

ولا تضر ، كما أنّ جعل الأوثان إفكاً فيه مبالغة في الكذب والافتراء ، وسخرية من عقولهم التي صورت لهم هذه الأوثان - التي نحتوها بأيديهم - آلهة فعبدوها .

ولما أبطل عبادتهم ، وسخر منهم انتقل إلى السخرية من آلهتهم عن طريق بيان ضعفها وعجزها ، حيث لا تملك إيصال النفع لعابديها أو دفع الضر عنهم ، فهي لا ترزقهم وإن طلبوا منها الرزق أي رزق ، وهي إضافة جديدة لم تذكر في السور السابقة .
ولتأكيد تلك السخرية من الأوثان المعبودة جاء بالجملة مؤكدة ؛ لتحقيق مضمونها في مقام يقتضي التأكيد حيث إن المخاطبين غير مقرّين به ، وعبر بالموصول المستعمل في جماعة العقلاء ؛ جريا على معتقدهم في معاملة الأوثان معاملة العقلاء .

وكرر (**تعبدون من دون الله**) ؛ لمزيد من التشنيع بهم ، وفضح ضلالهم بإظهار جريمتهم النكراء ، حيث يعبدون الأوثان من دون الله ، وهي لا تنفع ولا تضر ، ولا ترزق عابديها أدنى رزق بدليل إيراد (**رزقا**) نكرة للتحقير والتقليل ، وإيقاعه في سياق النفي ؛ ليدل على عموم نفي قدرة أوثانهم على أي رزق مهما كان قليلا ، وتخصيص الرزق بالذكر ؛ لأهميته الكبيرة لجميع الناس ، فهو محصلة سعيهم وكفاحهم في الحياة ، وبه تقوم حياتهم .
والتقييد بالجار والمجرور (**لكم**) مع تقديمه على المفعول به ؛ للمسارة ببيان أن الأصنام لا تملك لهم رزقا مع أنهم عابدوها ، وهذا يقتضي أنها لا تملك رزقا لغيرهم من باب أولى ، وإمعانا في السخرية من هذه الأوثان قال : (**لا يملكون لكم رزقا**) ولم يقل : (**يرزقونكم**) لما في نفي الملكية من مبالغة في نفي قدرتهم على الرزق ؛ إذ قد يملكون رزقا ولا يرزقونهم ، فنفي عنهم السبب ، وهذا يقتضي نفي المسبب .

والجملة - عموما - تتضمن دعوة القوم إلى ترك عبادة الأوثان وحثهم على ذلك ، مع السخرية من الأصنام التي لا تملك رزقا ، ولا تصح أن تكون آلهة ، وتذكير بالرازق الحقيقي وهو الله ﷻ الذي يجب أن يتوجهوا إليه بالعبادة ، وينصرفوا إليه بالتعظيم ؛ لأن عبادتهم لله وحده تتضمن لهم الرزق ، والشكر له يضمن بقاء الرزق واستمراره .

أما دعوته في سورة الصافات فتختلف عن سابقتها في إثبات عجز الأصنام وعدم استحقاقها للألوهية بأدلة عملية مشاهدة ، حيث كسر الأصنام تكسيرا ؛ ليثبت عجزها عن دفع الضرر عن نفسها ، فضلا عن دفعه عن غيرها ، وهو يختلف عن دعوة إبراهيم عليه السلام في السور السابقة التي كانت تعتمد على الاستدلال العقلي .

وهذه الدعوة لم تخل من شواهد للسخرية ، فضلا عن الجمل الاستفهامية المتتابعة المشوبة بالإنكار ، والتوبيخ ، والذم ، والمخاشنة في مخاطبة القوم ، وتخويفهم ، وإنذارهم بعذاب الله إن استمروا على الكفر والعناد .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَمُ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَأَى إِلَآءَ الْهَيْمَمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرَآءًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ [الصافات : ٨٣ - ٩٨] .

هذه الآيات من سورة الصافات ، وهي سورة مكية ، وأول أهدافها بناء العقيدة في النفوس وتخليصها من شوائب الشرك في كل صورته وأشكاله ، ولكنها تركز على صورة معينة من صور الشرك كانت سائدة في البيئة العربية آنذاك ، وتقف أمام الصورة وقفاتٍ طويلة متأنية ؛ لتكشف عن زيفها ، وتعرض دلائل بطلانها .
وهذه الصورة هي زعم المشركين أن هناك قرابة بين الله ﷻ وبين الجن ، وهذه القرابة قائمة على التزاوج ، ونتيجة لهذا التزاوج ولدت الملائكة ، ثم زعمهم أن الملائكة بنات الله ، ثم يتلوه حديث الشياطين المردة ، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة ؛ كي لا يقربوا من الملائكة الأعلى ، وفي ثنايا السورة يجيء تشبيه ثمار شجرة الزقوم برؤوس الشياطين .

وإلى جانب الصور السابقة تعرض السورة جوانب أخرى كصفة الوحدانية ، وقضية البعث ، والحساب ، والجزاء ، والوحي ، والرسالة .
وبجانب هذا وذلك تعرض لسلسلة من قصص المرسلين ؛ نوح ، وإبراهيم وبنيه ، وموسى ، وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس ؛ تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله (١) .

وتبدأ هذه الحلقة من قصة إبراهيم عليه السلام موصولة بقصة نوح عليه السلام : (وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم) ، وهذا تخلص بديع إلى قصة إبراهيم عليه السلام ، فأبراهيم عليه السلام من شيعه نوح عليه السلام على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ؛ نظرا لما بينهما من صلة العقيدة والدعوة والطريق (٢) .

وبعد بيان مجيء إبراهيم عليه السلام ربه بقلب سليم بينت الآيات أثرا من آثار هذه السلامة ، حيث أنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام ، ودعاهم إلى عبادة الله رب العالمين بأساليب بلاغية غاية في القوة والبلاغة ، مثل الاستفهام الإنكاري التوبيخي : (ماذا تعبدون) ؟ ! وقوله : (أنفكا الهة دون الله تريدون) ، وقوله : (فما ظنكم برب العالمين) ؟ ، وهي استفهامات إنكارية عنيفة متوالية لم ينتظر فيها إبراهيم عليه السلام ردودهم عليها ؛ لأنه غير طالب لها ؛ لأنها معروفة لديه ، كما أن في طي ردودهم عليه إيجاز بديع في القصة القرآنية يشير إلى كبتهم

(١) ينظر : مساعد النظر ٢ / ٤١٠ - ٤١١ ، وفي ظلال القرآن ٥ / ٢٩٨٠ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٥ / ١٩٩٢ .

وعدم قدرتهم على النطق في مواجهة تقاريعه النازلة عليهم نزول الصواعق ، ويشعر بضيق صدره من تماديهم في الكفر والضلال ، ونفاد صبره عن سماع جوابهم .

ومن الأساليب القوية التي استعملها - أيضا - أسلوب السخرية والتهكم من الآلهة ومنهم ، بعد أن تركه القوم وأداروا له ظهورهم ، وأسرعوا إلى عيدهم دون تأمل في كلامه وحاله ، (فراغ إلى آلهتهم) في خفية وسرعة ، وأمامها ما تركوه من طعام ، فقال لهم على سبيل التهكم والاستهزاء : (ألا تأكلون) ؟ !

ومنبع السخرية آتٍ من مخاطبة إبراهيم عليه السلام هذه الأصنام التي اتخذوها آلهة ، وكأنَّ هذه الأصنام مما يتصور منها السماع ، والقدرة على الأكل والنطق مع أنه عليه السلام يعلم أنها لا تقدر على ذلك البتة ، ولكنه أراد التهكم بها وبعبادها ، وتوبيخ قومه على اتخاذ هذه الحجارة - التي لا حول لها ولا قوة - آلهة من دون الله .

والفاء تدل على أن ذهابه إليها كان عقب توليهم عنه مدبرين ، حيث سنحت له الفرصة للخلو بها ، والروغ : الميل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثعلب ، يروغ ، روغانا وراغ فلان إلى فلان : مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال (١) ، فاستعماله في الذهاب في خفية وسرعة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ؛ لِمَا أَنَّ المتخفي يميل إلى جانب عادة ليتم له الاختفاء والتليس ، وتسمية أصنامهم آلهة فيه مراعاة لمعتقدهم فيها وتسميتهم لها ، وهذا منه على سبيل الاستهزاء والتحقير لها ، وفي إضافتها إلى ضميرهم إشارة إلى ذلك ، فهي آلهتهم المزعومة وهم أصحابها ، وليست آلهة لجميع الناس ، والهمزة في (ألا تأكلون) للعرض على سبيل الاستهزاء والتهكم ، حيث عرض على آلهتهم الأكل مع علمه بأنها لا تستطيع ذلك ، ولا تقدر عليه البتة ، ويمكن أن تكون للإنكار ؛ بأن أنكر عليهم عدم الأكل من الطعام الشهي الذي وضعه القوم أمامهم ، وفي الإنكار توبيخ لهم ، وتعجيب من شأنهم .

ولما لم يسمع من الأصنام جوابا كما هو معلوم له أعاد التهكم سائلا ساخرا مستخفا بشأنها (مالكم لا تنطقون) ؟ ! ، وتهكمه المتوالي بالأصنام يشعر بشدة غيظه منها ، فهو يشفي غليله بمزيد من الاستخفاف بها قبل أن يقوم بتحطيمها ، بجانب ما في ذلك من شحذ همته ، وتقوية عزيمته على تنفيذ ما خطط له .

والتعبير بالنطق دون الجواب ؛ لما أن في عدم نطقهم نفي لجوابهم وزيادة ، وعدم تقييد الأكل والنطق بالمفعول ؛ للقصد إلى ذات الفعل ونفيه نفيًا عاما ؛ مبالغة في نفي قدرتها على ذلك ، ولا شك أن استعمال ضمير العقلاء في مخاطبة الأصنام مبني على تسميتها آلهة ، ومعاملتها معاملة عبديتها ، وفي ذلك غاية الاستخفاف بها ، والسخرية منها من حيث إن القول مخالف للاعتقاد .

ولما لم تُجِبْ الأصنامُ إبراهيم عليه السلام ، ألهمه عجزها التأمُّ على الانتقام منها بالفعل بعد أن سخر منها بالقول ، (فراغ عليهم ضرباً باليمين) أي : مال مستعليا عليهم ضاربا باليمين (٢) .

(١) ينظر : (المفردات - راغ) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ٧ / ١٩٨ .

والفاء تشير إلى حدوث الضرب والتكسير عقب استفهامه التهامي دون تراخ في ذلك ، وتقيد الضرب باليمين كناية عن شدته وقوته ؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّها عادة ، وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وشدته ، ومن ثم جعلها جذاذا كما في سورة الأنبياء ، ويجوز أن يكون اليمين مجازاً عن القوة (١) .

وإيثار التعبير القرآني على أن يقال : (فضربهم باليمين) ؛ لما في الروغان من دلالة على الميل في جوانب مختلفة ، فيشعر التعبير به بأنه أخذ في ضربهم على مختلف الجوانب والجهات حتى قضى عليهم ، مع ما في التعبير القرآني من جزالة وفخامة لا تتأتى في سواه ، ولفظ الاستعلاء (عليهم) مشعرٌ بتمكنه منهم وتفوقه عليهم ، فلم يحركوا تجاهه ساكناً ، ولم يستطيعوا دفع شيء من الضرب الشديد النازل عليهم .

وبعد أن حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام مبقياً على كبيرها ، وجاء القوم فرأوا ما فعل بأصنامهم وتساءلوا عن الفاعل ، ووجهوا أصابع الاتهام إلى إبراهيم عليه السلام ، وأمر كباراهم بإحضاره أمام الناس ليشهدوا ما كان وما يكون ، وبعد أن أسرعوا بإحضاره على الفور بدون تحقيق في الحادث ؛ لتيقنهم من أنه هو الفاعل الحقيقي بدليل استعمال فاء السرعة (فأقبلوا إليه يزفون) ، ودار بينه وبينهم حوار على النحو المفصل في سورة الأنبياء ، كان رد إبراهيم عليه السلام عليهم يحوي في طياته سخرية واضحة منهم ، وتهكما بعقولهم ، وتوبيخاً على عبادتهم أصناماً نحوها بأيديهم .

وموطن السخرية في قوله عليه السلام لهم مستفهما : (....أتعبدون ما تحتون * والله خلقكم وما تعملون) ، وقد بنى إبراهيم عليه السلام سخريته على الاستفهام الإنكاري التوبيخي ؛ لحثهم على الرجوع إلى أنفسهم ، والتفكير فيما هم عليه من ضلال ، وعند ذلك يخلون مما يرتكبون ، ويستحون مما يفعلون ، وعبر بالمضارع (تعبدون) ؛ لتصوير حالهم في عبادتهم الباطلة واستمرارهم عليها .

كما عبر عن الأصنام بـ (ما تحتون) دون (أتعبدون الأصنام) ؛ لتحقير شأنها بإبهامها ، وعدم ذكرها باسمها الصريح ؛ للإيحاء بعلّة التوبيخ والسخرية ، حيث يعبدون ما ينحتونه ويصورونه بأيديهم ، ولذا عطف بواو الحال المؤكدة (والله خلقكم وما تعملون) ؛ للإنكار والتوبيخ والتعجب من أمرهم وقلة عقولهم ، حيث يعبدون ما ينحتون ، ولا يعبدون الله ﷻ الذي خلقهم .

وهذه الحجة القوية من إبراهيم عليه السلام - والتي أبطل بها عبادتهم - جعلتهم ينجحون للإيذاء والعدوان والانتقام بإحراقه في النار ، ولكن الله ﷻ نجاه منها ، ونصره على القوم الكافرين .

أسرار تشابه وتنوع السخرية في قصة إبراهيم (عليه السلام) :

١- في سورة مريم قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ

شَيْئاً ۗ ﴾ آية ٤٢ ، وفي سورة الأنعام قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَأَيْتَ أَصْنَامًا ۗ إِنَّهَا

(١) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

إِنِّكَ أَرَبُّكَ وَوَمَلِكٌ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ آية : ٧٤ ، والفرق بين الآيتين يبدو من وجوه (*) :

الأول : في الآية الأولى أضمر القائل وهو إبراهيم عليه السلام ؛ وذلك لتقدم ذكره في الآية السابقة عليها (واذكر في الكتاب إبراهيم ...) ، وفي الآية الثانية أظهر القائل لعدم تقدم ذكره في الآيات السابقة .

الثاني : في الأولى قيل : (لأبيه) ، وفي الثانية قيل : (لأبيه آزر) ، ولعل السر في ذلك أن الكلام جرى في الآية الأولى على منهج الرفق والأناة كما هو مطلوب في مخاطبة الابن لأبيه ، فعلم من ذلك أنه أبوه الحقيقي بدلالة الأسلوب ، وقرر ذلك بنداؤه (يا أبت) مع تكراره بعد ذلك . وفي الآية الثانية علت نبرة التوبيخ والتعنيف بعد أن تبين إصرار الأب على الكفر والعناد مع القوم ، وهذا غير معتاد في مخاطبة الآباء ، فصرح باسم الأب ؛ دلالة على أنه الأب الحقيقي لا على سبيل المجاز الذي يوحي به الأسلوب التوبيخي ، والغلظة في الآية ليست من قبيل الغلظة المحرمة ؛ فهي في سبيل الله ﷻ لا في سبيل مصلحة دنيوية ، ولم تزد عن كونها مصارحة بالحقيقة وحكاية للحال القائمة .

الثالث : جاء الاستفهام في الآية الأولى رقيقا لنا ، فهو - وإن كان مفيدا للتوبيخ والتعجيب - إلا أنه ورد في صيغة سؤال عن العلة من عبادة ما يعبد ، وكأنه بذلك يتيح لأبيه فرصة يجيب فيها ويبين عذره في هذه العبادة ، فيتواصل الحوار بأن يبطل إبراهيم عليه السلام عذره ويزيله ، أما الاستفهام في الآية الثانية فجاء منطويا على توبيخ شديد ، وتهكم وتعجيب ، وسخرية من شيء حاصل بالفعل وهو اتخاذ المبني على الاختيار ، فالآية ليس فيها عَرْضٌ للدعوة بل وصفٌ وتقديرٌ بحالة موجودة ، مع اللوم والتعنيف عليها ، فبنيت على المصارحة بالحقيقة مهما كانت شديدة أو مؤلمة .

٢- في سورة الشعراء قيل في حكاية كلام إبراهيم عليه السلام : (إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) وكان الجواب : (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) .

- وفي سورة الصافات قيل : (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) ولم يكن هناك جواب .
- وفي سورة الأنبياء قيل : (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) وكان الجواب : (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) .

وتتفق الحلقات الثلاثة في أن القول كان من إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ، والاهتمام بالنص على أبيه مع أنه يدخل في جملة القوم ؛ لإظهار العناية بتبليغه أكثر من غيره ؛ حيث دُعي على انفراد ودُعي مع القوم ؛ وللإشارة بأن أباه كان مشاركا للقوم في ناديم ، ومصرا على عبادة الأصنام . وتنوع الحلقات الثلاث في السؤال والجواب ، (ولعل السر في ذلك : أن دعوة إبراهيم لأبيه وقومه لم تكن مرة واحدة ، بل تكررت في فترات مختلفة ، وبأساليب متنوعة ؛ إذ لا يعقل أنه دعاهم مرة واحدة وكان بعدها ما كان من إلقائه في النار ، وبهذا يضعف ما قيل من أن القصة واحدة وقد اختلف المحكي (١) .

(*) قدمت آية مريم - هنا - على آية الأنعام ؛ لأسبقية النزول من ناحية ، وليكون التوجيه البلاغي سديدا من ناحية أخرى ؛ لأنه مرتب على أحداث ووقائع لا ينبغي أن تغفل في التحليل .

(١) ينظر : ملاك التأويل ٢ / ٨٣٨ بتصرف .

نعم القصة واحدة من حيث موضوعها العام ، وواحدة في نتائجها النهائية ، ومتعددة في أحداثها الداخلية نتيجة لتكرار عرض الدعوة ، ومن ثم فلا تكرر للقصة على سبيل الحقيقة .

فسورة الشعراء : هي أولى الحلقات نزولا ، وتحكي أولى مراحل الدعوة (١) ، ومجرد التنبيه والإيقاظ إلى ما يعبدون كافٍ فيها ، فجاء السؤال فيها عن ماهية ما يعبدون بقوله : (ما تعبدون) أي : أي شيء تعبدون ؟ ، وكأنه (عليه السلام) لم يشاهدها ، وعلم أنهم يعبدون أصناما لا تعقل عبادتها ، ومن ثم أجروه مجرى المستفهم حقيقة عنها ، فأجابوه مُبينين حقيقة ما يعبدون ، وكيفية عبادتهم لها حيث (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) ، وبذلك طابق جوابهم سؤاله (٢) .

وسورة الصافات : تمثل مرحلة تالية للتي قبلها ، ومن ثم كان السؤال فيها : (ماذا تعبدون) فجاء بـ (ما) الاستفهامية داخلية على اسم الإشارة (ذا) المُشرب معنى الموصول ، و (تعبدون) صلته ، وهذا يقتضي أن ما يعبدونه مُشاهد ومعروف لإبراهيم عليه السلام ، فانصرف الاستفهام بذلك عن معناه الحقيقي إلى معنى الإنكار ، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوه كما أجابوه في الحلقة السابقة ، ومن ثم استمر في توبيخهم وتبكيتهم فقال : (أنفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين) .

والمقرر عند النحويين أن (ماذا) إما مركبة من (ما) الاستفهامية و (ذا) التي هي اسم إشارة أو اسم موصول ، أو هي كلها اسم استفهام ، وهي على كل حال أقوى وأكد من (ما) وحدها ، فلما كان القصد في حلقة الشعراء هو تنبيههم كانت (ما) كافية في أداء المقصود ، ولما اشتد في التوبيخ والتقرع في مرحلة تالية كانت (ماذا) هي الأقوى ، والأبلغ ، والأنسب بالمقام (٣) .

أما سورة الأنبياء فتمثل مرحلة تالية في الدعوة لمرحلة حلقة الصافات ، فجاء سؤال إبراهيم عليه السلام فيها أشد في التوبيخ ، وأقوى في السخرية والتهكم بهم وبمعبوداتهم ، حيث قال : (... ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون)؟! ، فعبر باسم الإشارة منفصلا عن (ما) الاستفهامية لا مركبا معها ، وألحق به هاء التنبيه ، فكمل في الدلالة على حقارة المعبودات وضعتها ، وسماها (تماثيل) خلافا لما يسمونها به سخرية واستهزاء ، ووصفهم بالعكوف عليها والملازمة لها زيادة في التهكم بهم ؛ حيث يعكفون على تماثيل صنعوها بأيديهم ، وقد دفعهم هذا التوبيخ الشديد ، والتهكم اللاذع إلى البحث عن إجابة تدرأ ما حل بهم فلم يجدوا إلا أن يلجأوا إلى التقليد ، ويتشبثوا باتباع الآباء .

ولما كان في سؤاله إشارة تحقيرية إلى تماثيلهم التي يعبدونها ، مما يدل على معرفته التامة بها ، وأن السؤال ليس حقيقيا بل على سبيل الإنكار والتهكم ، لم يجيبوه ببيان حقيقتها كما هو ظاهر سؤاله ، بل أجابوه ببيان سبب عبادتها وهو تقليد الآباء ، وبذلك اختلف الجواب هنا عنه في الشعراء .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٣ / ١٣٨ .

(٢) ينظر : درة التنزيل ٣٣١ ، وملاك التأويل ٢ / ٨٣٩ .

(٣) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص ٢٤١ - ت : د / فخري الدين قباوة ومحمد نديم - دار الأفاق - بيروت لبنان ، وينظر أيضا : درة التنزيل ٣٣١ .

٣- في سورة الصافات جاء قوله تعالى : (قال أتعبدون ما تتحتون * والله خلقكم وما تعملون) وفي الأنبياء جاء قوله تعالى : (قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) .

والاختلاف بين الآيتين يبدو من وجوه :

- الأول : قيل في الصافات : (أتعبدون) من غير فاء ، وفي الأنبياء (أفتعبدون) بالفاء ، والسر في ذلك أن الاستفهام في الأنبياء مبني على قول سابق لهم ، ومفزع عليه وهو قولهم : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) ، فجاء قوله : (أفتعبدون) عقيبه مباشرة ، ومبني عليه ، ومن ثم صُدِّرَ بالفاء .

أما الاستفهام في الصافات فليس مفزعا على مجيئهم إليه ، ولا كان عقيبه مباشرة ، بل بينهما أحداث مطوية وهو التحقيق معه وما تبعه من رجوعهم إلى أنفسهم ، ثم نكسبهم على رؤوسهم حسبما فصل في سورة الأنبياء .

- والثاني : في الصافات قيل : (ما تتحتون) ، وفي الأنبياء قيل : (ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم) ولعل السر في ذلك : أن حلقة الصافات لم يتقدم فيها ذكر لبيان حقيقة هذه المعبودات ، ولم يعترفوا بأنها جمادات لا تنطق ، فناسب ذلك أن يكشف عن حقيقتها ، ويبين أصلها . أما حلقة الأنبياء فتقدمت فيها الإشارة إلى أنها تماثيل صنعوها بأيديهم ، وأقروا هم بأنها جمادات لا تنطق ، فناسب ذلك وصفها بوصف لم يتقدم ذكره هو عدم قدرتها على نفعهم أو ضررهم .

- والثالث : قيل في الصافات (والله خلقكم وما تعملون) ، ولم يرد نحو هذا في الأنبياء ، والسر في ذلك : أن هذه الجملة الحالية من تكلمة الدليل ، ومن موجبات التوبيخ ؛ لأن الله ﷻ خلقهم وخلق ما ينحتون ، فهو الأولى بالعبادة ، ولم يتقدم في هذه الحلقة بيان لقدرة الله ﷻ يعرفون من خلاله الإله الحق ، بينما في حلقة الأنبياء ورد في الآية نفسها قوله : (من دون الله) ، كما تقدم ما يعرفهم بالإله الحق من خلال بيان قدرته في خلق السماوات والأرض (بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن ...) ، فناسب ذلك عدم تكرار ما يدل على قدرة الله ﷻ نظرا لتقدمه .

وفي النهاية :

تعد قصة إبراهيم عليه السلام من أطول القصص في القرآن ، وقد تعددت حلقاتها ، وتتنوع مشاهدتها واشتملت على ضروب من العظات ، وألوان من الدلائل البينات على وحدانية الله ﷻ ، وقدرته وسائر صفاته القدسية ، كما أن الخصائص البلاغية في القصة لها جانب كبير في إبراز المعاني المقصودة ، وإظهار الأغراض المرادة ، ومن ثم برزت هذه الخصائص في ثنايا القصة ، فلم يخل منها تعبير ولا أسلوب ، بل لم تخل منها كلمة ولا لفظة ، وكان الاستفهام الإنكاري التوبيخي ، وأسلوب السخرية والتهكم في طليعة هذه الأساليب .

المبحث الخامس : السخرية في قصة لوط . عليه السلام . مع قومه :

لوط عليه السلام هو لوط بن هاران بن تارح ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، كان قد نزع عن محلة عمه الخليل إبراهيم عليه السلام بأمره وإذنه ، ونزل بمدينة سدوم من أرض غور ، ولها قرى مضافة إليها ، وكان أهلها من أفجر الناس وأكفرهم ، وأسوأهم طوية ، وأردئهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ؛ وهو إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين ، فدعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن فعل هذه المحرمات والفواحش ، والمنكرات ، والأفاعيل المستقبحة ، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله عليهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدكم وحسبانهم ، وجعلهم عبرة للعالمين (١) ، وذكر قصتهم في غير موضع من كتاب الله الكريم (٢) ، وذكر مواقفهم من دعوة لوط عليه السلام إلى ترك الفواحش المنكرة والرذائل الشنيعة التي كانوا يرتكبونها والتي اتسمت بالرفض والسخرية والاستهزاء .

ومواطن السخرية في القصة وقعت في ثلاث آيات من القرآن الكريم :

الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنظَهُرُونَ ﴾ (٨١) [الأعراف : ٨٢] .

والثانية في قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنظَهُرُونَ ﴾ (٥٦) [النمل : ٥٦] .

والثالثة في قوله تعالى : ﴿ أَيِنكُم لَنَأْتُونَ الرِّجَالَ وَنَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَنَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣١) [العنكبوت : ٢٩] .

أما السخرية الأولى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنظَهُرُونَ ﴾ فجاءت بعد أن أنكر عليهم لوط عليه السلام ما هم عليه من المساوي الخلقية ، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات في قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ النِّجْسَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ [الأعراف : ٨٠ - ٨١] .

(١) تنظر القصة بالتفصيل في قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٤٣ وما بعدها .
(٢) في الأعراف ٨٠ - ٨٤ ، وهود ٦٩ - ٨٣ ، والحجر ٥٨ - ٧٨ ، والأنبياء ٧١ - ٧٥ ، والشعراء ١٦٠ - ١٧٥ ، والنمل ٥٤ - ٧٩ ، والعنكبوت ٢٨ - ٣٥ ، والصفوات ١٢٣ - ١٣٨ ، والقمر ٣٣ - ٣٩ ، والتحريم ١٠ .

حيث أنكر عليهم فاحشتهم في جملة إنشائية مبنية على استفهام مشوب بالإنكار، واللوم والتوبيخ مطنبا بالتفصيل والإيضاح بعد الإبهام ؛ لنشويق نفوسهم إلى الاستماع إليه ، حتى إذا فسّر تمكن الإنكار في نفوسهم فضل تمكن ؛ حيث قال مبهما : (أتأتون الفاحشة) ثم فصل بقوله : (إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) .

ولتوقع حدوث إنكار من القوم ؛ لتأصل الفاحشة فيهم وشدة استغراقهم فيها أكد الكلام بأكثر من مؤكد ؛ (إن ، واللام ، والجملة الاسمية) ، وذيل إنكاره السابق بالإضراب الانتقالي : (بل أنتم قوم مسرفون) ؛ لبيان مدى انغماسهم في هذه الفاحشة الشنعاء ، ووضع الشيء في غير موضعه ؛ لينسجم مع إتيانهم الرجال من دون النساء اللواتي خلقن لهذا الغرض .

والملاحظ قبل التحليل البلاغي للسخرية الواردة أن أسلوب عرض القصة في سورة الأعراف يختلف عن باقي قصص السورة ؛ فقصة نوح عليه السلام بدأت بقوله تعالى : (لقد أرسلنا نوحا) ، وعُطفت القصص بعدها عليها بقوله تعالى : (وإلى عادٍ أخاهم هودا...) ، (وإلى ثمود أخاهم صالحا ...) ، أما قصة لوط عليه السلام فقد اختلف مطلعها عن باقي أخواتها بقوله : (ولوطا إذ قال ...) ، وفي اختلاف المطلع دليل على اختلاف المقصد ، فإن لأهل هذه القصة خصوصية شذوا بها عن غيرهم ، وهذه الخصوصية وضحتها الآية : (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) ، حيث لم يذكر لهم اسما ولا تعريفا كما لغيرهم من الأقوام ، وقد ذكر الإمام البقاعي أن هذا صيانة للآيات عن ذكر اسمهم (١) .

وقد دعت خصوصيتهم الشاذة إلى خلف المطلع ؛ ليلفت إلى الطبيعة التي شذوا بها عن غيرهم زيادة على كفرهم وشركهم بالله ، يقول الإمام البقاعي : " وقصص من عدا قوم لوط مشابهة لقصة قريش في الشرك بالله ، والأذى لعباده المؤمنين ، وأما قصة لوط عليه السلام فزائدة تهويلا للأمر وتبشيعا له " (٢) .

كما يُلحظ - أيضا - أن لوطا عليه السلام لم يدعُ قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده كما جاء في دعوات الأنبياء من قبله وفي زمانه ومن بعده كإبراهيم عليه السلام وشعيب عليه السلام ، والسبب كما يقول الألوسي (رحمه الله) : " أن لوطا كان من قوم إبراهيم وفي زمانه ، وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده ، واشتهر أمره عند الخلق ، فذكر لوطا عليه السلام بم اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها ، وأما إبراهيم وشعيب (عليهما السلام) فجاءا بعد انقراض من كان يعبد الله عليه السلام ويدعو إليه سبحانه ، فلذلك دعا كل منهما قومه إلى عبادته تعالى " (٣) .

وعلى الرغم من وجاهة ما ذكره الألوسي (رحمه الله) إلا أن الباحث يرى أنه لا بد من أن

(١) ينظر : نظم الدرر ٢ / ٦٢ .

(٢) السابق : الصفحة نفسها .

(٣) روح المعاني ٢٠ / ١٥٣ .

يكون لوط عليه السلام قد دعا قومه إلى عبادة الله ﷻ وتقواه وطاعته ، فتلك مهمة الرسل الأولى جميعا وما نهيه إياهم عن ارتكاب الفواحش إلا من صميم الدعوة إلى توحيد الله بالعبادة ، واتقاء عذابه بالطاعة ، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ﷻ ويرضاه من الأقوال والأفعال ، ولو أنهم وحدوا الله ﷻ واتقوه وعبدوه حق عبادته لما فعلوا تلك الفاحشة البغيضة المنكرة ، ويُستأنس في هذا الرأي بآيات سورة الشعراء : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نَتَّقُونَ ﴿١٣١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ ﷻ ﴾ [الآيات : ١٦١ - ١٦٣] ، وهي آيات تمثل دعوة لوط عليه السلام قومه بمثل ما دعا به الأنبياء من قبله ، من الأمر بالتقوى والإطاعة ، وإثبات صفتي الرسالة والأمانة لنفسه ، ثم نفي الطمع فيما بأيدي الناس من وراء الدعوة ، أضف إلى ما سبق ما ذكر في سورة الذاريات من أن ملائكة العذاب لما أتت القرية لم تجد إلا بيتا من المسلمين : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا

وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الآيات : ٣٥ - ٣٦] ، مما يدل على أن القوم لم يكونوا على التوحيد ، الأمر الذي يحتم على لوط عليه السلام دعوتهم إلى التوحيد أولاً ، ثم نهيمهم عن الفاحشة تبعاً لذلك . ولعل السر في الاقتصار على إنكاره فواحش القوم في هذه السورة وغيرها هو التهويل والتفطير ببشاعة جرمهم ، حتى كأنه أبشع وأفظع من كفرهم بالله ؛ لأنهم ابتدعوا هذه الفاحشة المهذبة للوجود البشري على غير منوال سابق ، ولا بد من إنكارها على منوال غير مسبوق أيضا .

هذا عن سبب اختلاف عرض قصة لوط عليه السلام عن غيرها من القصص ، وقد ذكرته لأهميته ، أما السخرية الواردة في القصة ، وهي المقصودة بلاغيا من هذا المبحث فجاءت في قوله تعالى : (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناسٌ يتطهرون) ، وهو قولٌ يتسم بالضجر ، والضيق ، والبغي ، والعدوان ، وموطن السخرية في قولهم : (إنهم أناسٌ يتطهرون) ؛ حيث جعلوا التطهر من هذه الفاحشة النكراء جريمة كبيرة يستحق صاحبها العقاب بنفيه عن المدينة حتى لا يعاود الإنكار ، وقصدوا من قولهم هذا السخرية بلوط عليه السلام ومن تبعه ، وبتطهرهم من الفواحش ، والافتخار بما كانوا فيه من القدارة .

وقد بدئت جملة السخرية بالقصر الذي طريقه النفي والاستثناء ، حيث قُصِرَ جوابُ قوم لوط على قول بعضهم لبعض بإخراج لوط عليه السلام من القرية ؛ لتأكيد عنادهم وفحشهم ، حيث أجابوه عما كلمهم به من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ووصفهم بصفة الإسراف بما ليس جوابا وجاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته ، فأمرؤا بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريبتهم ؛ ضجرا بهم وبما يسمعون من وعظهم ونصحهم ، مع أنهم وصفوهم بأنهم (أناسٌ يتطهرون) ، وهو وصفٌ مقتضٍ لاحترامهم ، ولكن لتبجحهم وغفلتهم جعلوا ما هو سبب للتثبيت سببا للإخراج .

ونذكر الإمام الألويسي أن القصد من القصر هنا نفي الجواب على أبلغ وجه ؛ لأن ما ذكر في حيز الاستثناء لا تعلق له بكلامه عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ، ووسمهم بما هو أصل الشر كله ، ولو قيل : (وقالوا أخرجوهم) لم يكن بهذه المثابة من الإفادة (١) . ولذا كانت

جملة : (فما كان جواب قومه) فيها تهكم من باب تسمية ما ليس جوابا حقيقة بالجواب ، والمعنى : ما جاءوا بجواب حقيقي عما كلمهم به (١) .
وجاءت الجملة الخبرية (إنهم أناس يتطهرون) بعد الأمر بإخراج لوط عليه السلام ومن معه من القرية ؛ لتعليل سبب الأمر بالإخراج ، وأكدوها بـ (إن) والجملة الاسمية ؛ لتأكيد الذم بما يوهم المدح ، فظاهر الجملة مدحٌ للوط عليه السلام ومن معه ، وباطنها ذم وانتقاص من طهارتهم وتقواهم ، ومقتضى الظاهر أن يذكروا الجملة بلا تأكيد ؛ لأن ما قالوه عن طهارة لوط عليه السلام مما لا شك فيه ولا إنكار ، ولكنهم أكدوا الجملة لمجرد الاهتمام والتعليل لما يقولون ، وفيها سخرية وتهكم عن طريق قلب الحقائق ؛ لأنهم يعرفون طهارة لوط عليه السلام ومن معه جيدا ، وأهل المجون والخلاعة يسمون المتعفف عن سيرتهم بالتائب أو المتطهر ونحو ذلك ، فالقصد من الجملة هو السخرية لا المدح والإطراء .

وإمعانا في السخرية به عبروا بـ (أناس) ، وأتوا بها نكرة للذم والتحقير ، وجاءوا بالخبر جملة فعلية فعلها مضارع (يتطهرون) ؛ للدلالة على أن التطهر متكررٌ منهم ، ومتجددٌ حدوثه وذلك أدعى لمنافرتهم والغضب عليهم .
ويلمح من جملة السخرية بلوغ قوم لوط في الشذوذ مبلغًا بعيدا بحيث لا يطبقون معه وجود الأظهار بينهم ، وربما عبر بضمير الغيبة في (أخرجوهم) و (إنهم) ؛ لإظهار الضيق والضجر على ألسنتهم بعد التصريح بهم .

وفي سورة النمل جاءت السخرية الثانية في قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴾ [آية : ٥٦] ، وهي لا تختلف عن جملة السخرية في سورة الأعراف إلا بزيادات طفيفة ، والفرق بين السخريتين :
١- أنه قال في الأعراف : (وما كان جواب قومه) بالواو ، وفي النمل قال : (فما كان جواب قومه) بالفاء ، والسبب أنه عبر بالواو في الأعراف ؛ لأنها سبقت باسم ، حيث قال عليه السلام : (بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه) ، إضافة إلى أن الواو مع (ما) أفادت أن جوابهم كان بعد أن تناقشوا بينهم ، فاتفقوا على ما سيقولونه ثم جاء ردهم (٢) .
وفي سورة النمل عبر بالفاء ، وكذا سورة العنكبوت ؛ لتقدم الفعل قبلها ، حيث قال عليه السلام في سورة النمل : (بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه) ، وقال في سورة العنكبوت : (...وتأتون في ناديكم المنكر * فما كان جواب قومه) ، فيلحظ في كلتا السورتين أن الفاء سبقت بالفعل ، فضلا عن التناسب في المبنى .
يقول الإسكافي (رحمه الله) : " الواو والفاء جائزتان في الموضعين ، إلا أنه يختار حيث جاء الأصل الذي وضعت الفاء فيه ؛ لتوجب ما بعدها لوجود ما قبلها وهو الفعل ، واختيرت الواو

(١) حاشية القونوي ١٥ / ٤٦ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم - د : عبد المجيد يس ص ٩٨ - دار ابن حزم - لبنان - الطبعة الأولى - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

حيث كان الملفوظ به الاسم ؛ لتفرق بين الموضوعين ، فنختار لكل ما هو به أليق ؛ إذ ليس الاسم أصلاً فيما جعلت الفاء الجواب فيه " (١) ، ومفاد قوله : أن الواو يسبقها الاسم ، والفاء يسبقها الفعل ، وهذا ما جاءت عليه السور .
ولا يختلف الكرمانى عن الإسكافي ، حيث يقول : " عبر بالواو ؛ لأنه ما جاء قبله اسم ، أما الفاء فللتعقيب ، ويكون هذا مع الأفعال " (٢) .
أما الطاهر بن عاشور فيرى أن اختلاف حرف العطف يعود إلى تفنن في الحكاية ، ومراعاة للنظير في النسج (٣) .

٢- قالوا في سورة الأعراف : (**أخرجوهم من قريتهم**) وفي سورة النمل قالوا : (**أخرجوا آل لوط من قريتهم**) ، وفي سورة العنكبوت قالوا في الجواب : (**انتنا بعذاب الله**) ، والسبب أن للسياق القرآني دوراً في إدراك ما عليه مشتبه النظم ؛ ففي سورة الأعراف والنمل أشار لوط عليه السلام باختصار إلى أفضع قبائحهم فقال : (**... لتأتون الرجال شهوة من دون النساء**) فناسب ذلك اختصار ردهم في إخراجهم من القرية ، بينما في سورة العنكبوت عدد مساوئ أفعالهم مما زاد من غيظهم ، فدفعهم إلى التحدي وأمره بإنزال العذاب بهم .
ومن جهة أخرى فإن ترتيب السور في عرض تطور الأحداث كان متناسبا ، ففي الأعراف جاء جوابهم : (**أخرجوهم**) ، فكأن الأمر كان من بعض القوم لبعض ، وقد يكون من الأمراء إلى الآخرين بإخراجه عليه السلام ، ولكن لما زاد في توبيخهم في النمل بقوله : (**أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون**) جاء جوابهم بالتنصيص وتخصيص آل لوط بالخروج فقالوا : (**أخرجوا آل لوط**) ، ولما استمر سيدنا لوط عليه السلام في التحاور معهم ، وعدد لهم قبائح مرتكبهم - وكان ذلك أشد توبيخا وتقريعا مما زاد في الكشف عن سوء طباعهم ورداءة خلقهم - قالوا : (**انتنا بعذاب الله**) ؛ تصميما على عنادهم وتكذيبهم .

والإسكافي يرى أن جوابهم في سورتى الأعراف والنمل جاء بعد أن تكرر الإنذار والإعذار من لوط عليه السلام لقومه ، أما اختلاف جوابهم في سورة العنكبوت فهو لا ينفي أن يكون من جهتهم ، على أنه لو كان كل ذلك في موقف واحد لكان جائزا أن يكون جواب طائفة منهم ما ذكر أولاً ، وجواب طائفة أخرى ما ذكر ثانياً ، وكل من الطائفتين قومه (٤) .

وينظر الرازي للجمع بين الجوابين من زاوية أخرى فيقول : " لوط عليه السلام كان ثابتاً على الإرشاد ، مكرراً عليهم التغير والنهي والوعيد ، فقالوا أولاً : (**انتنا**) ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا : (**أخرجوا**) " (٥) ، فهي كلها أجوبتهم ، لكنها اختلفت بتعدد مواقف النصيح من لوط عليه السلام ، ونكران قوم لوط لهذا النصيح .

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ١١٩ .

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، ص ٧٩ - ت : عبد القادر أحمد عطا - دار الكتب العربية لبنان - الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ٢٠ / ٤ .

(٤) ينظر : درة التنزيل ص ١٢ .

(٥) التفسير الكبير ٢٥ / ٥٢ ، وقال برأيه : أبو حيان التوحيدي في البحر المحيط ٧ / ١٤٦ ، وكذا أبو السعود ٢ / ١٦٩ ، والشوكاني في فتح القدير ٤ / ٢٠١ .

أما ابن الزبير الغرناطي فيرى عكس ما ذكر الرازي ، حيث يقول : " وكأنّ قد قالوا : (أخرجوهم) ، فإن كان عذابا فليأت به ، فلما اشتد حنقهم طلبوا العذاب ، وعدلوا عن ذلك السبب استعجالا للمسبب ، فجوابهم في سورة العنكبوت كان مترتبا على تعداد قبائح مرتكباتهم ، فكان أشد توبيخا وأكثر اشتعالا لسوء أخلاقهم ، فصدر عنهم ذلك الجواب (ائتنا بعذاب الله) (١) .

وأخيرا يجمع بدر الدين بن جماعة بين ما قاله الإسكافي والغرناطي ، ويعلل اختلاف الجوابين باختلاف المجالس ، فجوابهم في الأعراف كان مناسبا لاختصاره في ذكر إتيانهم الفاحشة وإظهارها ، وفي مجلس آخر عدّد ذنوبهم فناسب مطالبتهم بإتيان العذاب إليهم ، أو أن كلّ جواب صدر من طائفة فحكي كما ذكر عنهم (٢) .

وفي سورة العنكبوت كانت السخرية الثالثة في قوله تعالى : ﴿ أَيَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَئِنَّا لَبَعْدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [آية ٢٩] ، وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن ابتلاء الأنبياء بأقوامهم ومنهم لوط عليه السلام ، فلم يتوقف أمرهم عند تكذيبهم ، بل تعداه إلى اقترافهم لأعظم الآثام وأفظعها ، فناسب هذا قدوم الاستفهام الإنكاري التوبيخي على هذا الفعل المشين الذي كان عليه قوم لوط ؛ وذلك لارتكابهم الفواحش على مرأى ومسمع من الناس دون إنكار لبشاعة ما يفعلون ، ولذا استفهم لوط عليه السلام بقوله : (أنكم لتأتون الرجال) ؟ استفهما إنكاريا مشوبا بالتوبيخ والزجر والاستقذار ، وجاء به مؤكدا بآن واللام ؛ للتأكيد على أن هذا الذي يفعلونه إنما هو عملٌ قبيح بالغ الغاية في القبح ، وعلى قراءة (إنكم لتأتون الرجال) (٣) بهمزة واحدة ؛ تكون الجملة خبرا مستعملا في التوبيخ والإنكار أيضا .

وكنى بالاستفهام هذا عن فعل الفاحشة بالرجال صونا للسان عن التدنس بما يستقبح ذكره (٤) ، وهي كناية بليغة ، ثم عطف على إتيان الرجال عبارة موجزة من كلمتين : (وتقطعون السبيل) ؛ لتشير إلى عدة مدلولات بلاغية :

- الأول : إما أن يكون قطع السبيل مجاز عقلي علاقته السببية ؛ حيث إن سوء فعلهم تسبب في انقطاع الطريق عن المارة ، فيكون المجاز في النسبة الإيقاعية .

- والثاني : أن يكون قطع السبيل كناية عن انقطاع أو انعدام التناسل ، وهي كناية تلويح ؛ حيث تعددت الوسائط بقوله : (لتأتون الرجال) أي : تعزفون عن نكاح النساء ، ثم عطف عليه (وتقطعون السبيل) أي : أن عزوفكم عن النساء أدى إلى انعدام النسل لانعدام إتيان الحرث .

(١) ينظر : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه متشابه اللفظ من أي التنزيل ١ / ٤٢٥ ، ت : سعيد الفلاح - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٢) ينظر : كشف المعاني في متشابه المثاني ص ١٠٦ - ت : د / محمد محمد داود - دار المنار - الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

(٣) ينظر : طبية النشر ٢ / ٥٠٠ .

(٤) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم - د : عبد العظيم إبراهيم المطعني ٣ / ٢٢٨ - مكتبة وهبة - القاهرة ١٤٢١ هـ - ١٩٩٩ م .

- **والثالث :** أن يكون قطعُ السبيل مجازاً مرسلًا بناءً على معنى قطع السبيل بالاعتداء على المارة بالسرقة والقتل وغير ذلك ، فيكون مجازاً مرسلًا علاقته المسببية ؛ حيث أطلق المسبب وهو قطع الطريق وأراد السبب وهو تعطيل طريق المارة بإيذائهم (١) ، ثم عطف بالواو على المفسدتين الأوليين مفسدةً ثالثة بقوله : **(وتأتون في ناديكم المنكر)** (٢) ؛ للدلالة على اجتماعهم لإتيان الأفاعيل المنكرة ، فضلاً عن فعل الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وهذه الجملة تعريضٌ بعدم حيائهم وخطبهم من تلك الأفعال الفظيعة .

ويلحظ أن لوطاً عليه السلام أورد جملة : **(أنكم لتأتون الرجال ...)** مفصولة عن جملة : **(إنكم لتأتون الفاحشة)** قبلها ؛ لكمال الاتصال بينهما ، حيث إن جملة **(أنكم لتأتون الرجال)** بدل اشتمال من جملة **(لتأتون الفاحشة)** .

كما يلحظ أنه عليه السلام أورد الأفعال في الجمل مضارعة : **(تأتون - تقطعون)** ؛ للدلالة على تجدد تلك الأفعال القبيحة منهم ، واستمرارهم في ارتكاب تلك المنكرات والمفاسد دون رادع أو حياء أو خجل ، ولذا ردوا عليه بجملة السخرية : **(انتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين)** بالأمر التعجيزي **(انتنا)** والشرط التبكيئي : **(إن كنت من الصادقين)** ، " وعبروا باسم الله الأعظم زيادة في الجرأة " (٣) ، وزيادة في السخرية ؛ لأنهم قالوا ذلك وهم مصممون على اعتقاد كذبه فيما وعدهم به (٤) ، ولذا رد عليهم بقوله : **(قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ**

الْمُفْسِدِينَ) [العنكبوت : ٣٠] .

والخلاصة :

إن السخرية في قصة لوط عليه السلام جاءت في صورة الخبر المؤكد **(إنهم أناس يتطهرون)** في موضعين ؛ في الأعراف والنمل ، وجاءت في صورة الإنشاء الطلبي في موضع واحد : **(انتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين)** في العنكبوت ، ولكلِّ موضعٍ وجهاته البلاغية ، وقد تم بيانها والله - سبحانه وتعالى - أعلى وأعلم .

(١) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) قال ابن عباس : المنكر هو الحذف بالحصى والرمي بالبندق ، ومضغ العلك ، والسواك بين الناس ، وحل الإزار ، والسباب ، والفحش في المزاح ، وقيل : السخرية بمن مر بهم ، وقيل : المجاهرة في ناديهم بذلك العمل .

ينظر : إرشاد العقل السليم ٣٨ / ٧ والكشاف ٤ / ٥٤٧ .

والنادي : المكان الذي ينتدي فيه الناس ، أي : يجتمعون نهاراً للمحادثة والمشاورة ، وهو مشتق من الندو (ندو - المفردات للراغب) .

(٣) نظم الدرر ١٤ / ٤٢٩ .

(٤) ينظر : البحر المحيط ٧ / ١٤٥ .

المبحث السادس : السخرية في قصة شعيب . عليه السلام . مع قومه :

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينة (مدين) التي هي قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز ، قريبا من بحيرة قوم لوط ، وكانوا كفارا يقطعون السبيل ، ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ؛ وهي شجرة من الأيكة حولها غيضة ملتفة بها ، وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطفون فيهما ، يأخذون بالزائد ، ويدفعون بالناقص ، فبعث الله ﷺ فيهم رجلا منهم ؛ وهو رسول الله شعيب عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة ؛ من بخرس الناس أشياءهم ، وإخافتهم في سبيلهم وطرقاتهم ، فأمن به بعضهم وكفر أكثرهم ، وسخروا من شعيب عليه السلام حتى أحلَّ الله ﷻ بهم البأس الشديد (١) ، وأخذهم عذاب يوم الظلة .

وقد ذكرت قصة شعيب عليه السلام في القرآن الكريم في أربع سورٍ على الترتيب :

١- سورة الأعراف (الآيات ٨٥ - ٩٢) .

٢- سورة هود (الآيات ٨٤ - ٩٥) .

٣- سورة الشعراء (الآيات ١٧٦ - ١٩١) .

٤- سورة العنكبوت (الآيات ٣٦ ، ٣٧) .

وفي هذه السور بيانٌ بما كان عليه أهل مدين قوم شعيب ، من تطفيفٍ في الكيل والميزان ، وبخرس الناس أشياءهم ، والإفساد في الأرض ، وعبادتهم شجرة الأيكة ، ثم دعوة سيدنا شعيب عليه السلام لهم بثلاثة أمور :

- الأول : إصلاح الاعتقاد ، وهو من إصلاح الأفكار والعقول .

- الثاني : صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بعدم الإفساد في الأرض .

- الثالث : الكف عن نقص المكيال والميزان والأمر بالوفاء فيهما .

وكان موقف قوم شعيب من دعوته عليه السلام إلى التوحيد ومكارم الأخلاق يتسم بالعنف ، والشدّة ، والتبجح بالقوة التي أعطاها الله ﷻ لهم ، فهددوه ، وطلبوا منه اختيار أحد أمرين : إما إخراجهم من القرية ونفيه هو ومن معه من المؤمنين ، وإما دخوله في ملّتهم ، وعودة من آمنوا معه إليها ، وذلك واضح في سورة الأعراف (٢) .

وقد رفض نبي الله الخيارين معًا ، وأنكر عليهم ذلك ، ووبخهم على هذا الطلب .

وفي سورة هودٍ والشعراء اصطبغ موقفهم بالسخرية والتندر عليه ، والتمسك بدين الآباء ، واستضعافه ، وتحقيره ، واتهامه بالجنون ، واستعجال العذاب تكذيبا وتهكما .

وقد وردت تلك السخرية في خمسة شواهد في القرآن الكريم :

- الأول والثاني في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَشْعَبُ آبَاؤُنَا وَإِبْنَاؤُنَا أَوْ أَنْ

فَعَمَلٌ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ [هود من / ٨٧] .

(١) ينظر : قصص الأنبياء ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) الآيات ٨٥ - ٩٢ .

- والثالث في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٥] .
 - والرابع في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِقُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٦] .
 - والخامس في قوله تعالى : ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] .

وفي الصفحات التالية سيتم تحليل هذه الشواهد بلاغيا ، مع بيان خصائصها التركيبية وصورها البيانية ، وما تحمله من أسرار ودلائل .

- الشاهد الأول والثاني :

يقول تعالى : ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْتَك تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧) .

جاء هذا الشاهد إثر دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ، والوفاء في الكيل والميزان ، والبعد عن الإفساد في الأرض وبخس الناس أشياءهم ، وكان موقفهم من دعوته هو السخرية والاستهزاء ، وظهر ذلك جليا في مشهدين :

- الأول في قوله تعالى : (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) ، والسخرية آتية من نسبة الأمر إلى الصلاة ، وأصل العبارة : أصلاتك تأمرك أن تأمرنا بترك ما يعبد آباؤنا ؟ ! ، فاكتفى بذكر الأمر الأول عن الثاني ؛ لأنه معلوم من فحوى الكلام (١) .

فهؤلاء الكفرة من قوم شعيب عليه السلام لا يعتقدون بصحة ما جاء به من التعاليم السماوية التي تنهاهم عن سوء المعاملات والتصرفات التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم ، ولكنهم ساقوا الكلام مساق الجاهل الذي لا يدري هل الصلاة تأمر بمثل هذا أم لا ؟ ، وكأنهم يقرون بصحة صلاته مع أنهم في قرارة أنفسهم لا يعترفون بشيء اسمه صلاة ، وأن الصلاة لا يصدر منها أمرٌ ولا نهْيٌ وهم - لاشك - موقنون بذلك ، إلا أنهم يسخرون من حيث إنهم لا يعترفون بالله عز وجل ، فشعيب يقول لهم : الله يأمرني بهذا ، وكأنهم يقولون : لا يوجد شيء اسمه الله ، وبالتالي لا يوجد ما يأمرك إلا صلاتك التي نراها (٢) .

هذا عن توجيه السخرية في الآية ، أما التحليل البلاغي فواضح أنهم بدأوا بالنداء : (يا شعيب) وهو نداء للبعيد على الرغم من قربهم ؛ للدلالة على البعد الهائل بينهم وبينه في الفكر والعقيدة ، وكذا جاء حرف النداء ليكشف عن الهوة السحيقة بين واقع الرسالات وهؤلاء المتمردين عليها ، وسموه باسمه جفاءً وغلظة ، وأردفوا النداء بالاستفهام : (أصلواتك

(١) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي ١٦٦ - ت : محمد عبد الغني حسين - الطبعة الأولى - دار إحياء التراث .

(٢) ينظر : التصوير الساخر في القرآن الكريم - د : عبد الحليم حفني ص ٤٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٢ .

تأمرك) وهو استفهام ليس على حقيقته ، وإنما المراد به السخرية والاستهزاء (١) .
وكما يقول الزمخشري : " قصدوا بقولهم : (أصلاتك تأمرك) السخرية والاستهزاء
والصلاة - إن جاز أن تكون أمرة على طريق المجاز كما كانت ناهية في قوله : (إن الصلاة
تنتهى عن الفحشاء والمنكر) العنكبوت من آية ٤٥ - إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز (٢) ، وجعلوا
الصلاة أمرة على سبيل التهكم بصلاته ، وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان
باطل لا وجه لصحته ، وإن مثله لا يدعوك إليه داعي العقل ، ولا يأمرك به أمر فطنة ، فلم يبق
إلا أن يأمرك به هذيان أو وسوسة شيطان وهو صلاتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك ،
وعندهم أنها من باب الجنون " (٣) .

وتأكيداً لهذه السخرية أسندوا الأمر إلى ضمير الصلاة فقالوا : (أصلاتك تأمرك) على
سبيل المجاز العقلي ؛ لأنهم يعلمون أن الصلاة لا يصدر منها فعل أو قول ، ولكنهم يسخرون
من صلاته ، ويحطون من قدره من جهة أخرى ، وكأنهم يقولون لشعيب عليه السلام : إن ما قلته لا
ينبغي أن يصدر من عاقل ، فمن الذي أوحاه إليك ؟ وكأن الصلاة التي أتى بها شعيب قد استبدت
به وسيطرت عليه وجعلته يقول ما يقول مما يرفضونه ، ويعتقدون أنه هذيان أو وسوسة شيطان
كما يشعر بذلك التجوز في الإسناد (٤) .

كما أن سؤالهم : (أصلاتك تأمرك...) - وهو سؤال عما يعلمون حقيقته في نظرهم أو ما
يسمى عند البلاغيين بـ (تجاهل العارف) أو سوق المعلوم مساق غيره - جاء هنا ليخرج
مخرج التوبيخ ؛ لأنهم يتهمون به ، ويعتقدون - في نظرهم - أن هذه الصلاة هذيان ووسوسة
شيطان ، ولا يخفى ما في كلامهم هذا من تعريض بذهاب عقله (٥) .
وفي التخصيص بإسناد الأمر إلى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة ؛ لأنه عليه السلام كان كثير
الصلاة ، معروفًا بذلك ، وكانوا إذا رأوه يصلي يتغامزون ويتضحكون ، فجعلوا تلك الصلاة
سبباً للسخرية والتهكم (٦) .

ولم يقفوا بكلامهم عند هذا الحد ، بل أنكروا عليه دعوته إياهم إلى التوحيد وترك البخس
بجملة : (أن نترك ما يعبد آباؤنا) إشارة إلى دعوته إلى التوحيد ، وجملة (أو نفعل في أموالنا
ما نشاء) إشارة إلى أنه أمرهم بترك البخس ، فأنكروا عليه ذلك ، واستبعدوا منه أن يأمرهم
بترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم بهذه الطريقة ، وهي جملة توحى بالتمسك المحض بالتقليد ، كما
أن التعبير بالموصول المبهم (ما) يدل على إظهار استحقاق تلك الآلهة المزعومة أن يلتزموا
بها ويعبدوها في زعمهم ؛ اقتداء بالذين سبقوهم من آباؤهم لأنهم قدوة لهم .

(١) ينظر : الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ص ٢٦٥ - ت : محمود مصطفى وحسن عون ، مؤسسة شباب الجامعة .

(٢) الطنز : السخرية (مختار الصحاح - طنز) ١ / ١٦٧ .

(٣) الكشف ٣ / ٢٢٥ وما بعدها .

(٤) ينظر : الحوار في القرآن الكريم ٢٨٧ - محمد حسين فضل الله - دار التعارف - بيروت - لبنان - بدون تاريخ .

(٥) ينظر : الحوار في القرآن الكريم ، خصائصه التركيبية وصوره البيانية - رسالة جامعية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه - إعداد
الباحث : محمد إبراهيم شادي - إشراف الدكتور : محمد عبد الرحمن الكردي ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير ١٠ / ١٠٩ .

فضلا عن التعبير بالمضارع (يعبد) و(نعبد) بدلا من الماضي (عبد) ؛ للدلالة على وقوعهم صرعى في محاكاة آبائهم ، واستمرار عبادتهم للأصنام كما كان آباؤهم مستمرين في عبادتها ، وتصميمهم على ذلك مهما كانت الأوامر بترك تلك العبادة .

وجاء قولهم له عليه السلام : (إنك لأنت الحليم الرشيد) ليصعدوا في حدة التهكم والسخرية بإتيان ألفاظ المدح في معرض الاستهزاء ، وذلك إذا كان هذا الكلام هو نفس الكلام الذي قالوه ؛ لأن في تفسير الآية أقوالا أخرى ، فقيل : كانت ألفاظهم : إنك لأنت السفیه الجاهل ، فكنى الله عن ذلك ، وقيل : إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك ، قال ابن عرفة : هذا من أشد سباب العرب أن يقول الرجل لصاحبه إذا استجهله : يا حليم ؛ أي : أنت عند نفسك حليم وعند الناس سفیه (١) ، وقيل : قالوه على جهة الحقيقة وأنه اعتقادهم فيه (٢) ، وقيل : هذا لفظهم بعينه ، إلا أنهم قالوه على جهة الاستهزاء (٣) .

فظاهر الكلام أنهم يُثبتون لشعيب عليه السلام الحلم والرشد بعدة مؤكدات : (إن ، ولام القسم ، وتقديم المسند على المسند إليه لإفادة القصر ، والجملة الاسمية) ، وباطنه التقليل من شأنه والخط من قدره ، إذ لو كانوا صادقين فيما يقولون لأمنوا به ؛ لأن من اتصف بالحلم والرشد لا تُسمّى دعوتُهُ هذيانًا ، لكنهم أطلقوا عليه لفظ الحلم والرشد على طريق الاستعارة التهكمية لعلاقة التضاد ، فاستعاروا الحلم والرشد للسفه ، والغواية ، والاستهزاء والتهكم به عليه السلام (٤) ، حيث أظهروا شيئا وأبطنوا آخر ، أظهروا المدح والتوقير وأبطنوا الازدراء والتحقير .

والواضح أن هذه السخرية صدرت من عامة القوم وليس من خاصتهم بدليل أمرين :
- أحدهما : أن خطاب شعيب عليه السلام كان موجها إلى القوم عامة وليس إلى (الملأ) وهم السادة والخاصة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم .
- ثانيهما : أن مَنْ كان شعيب يحاورهم قالوا في نهاية الحوار ردًا عليه : (يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) ، فاعترفهم أنهم لا يفهمون أكثر كلامه دليل واضح على أنهم من العامة وليس الخاصة (٥) .

وفي سورة الشعراء كان موقفهم من شعيب عليه السلام ودعوته تكذيبا ، واتهاما بالجنون ، ورفضاً قاطعا لدعوته تحت سيطرة المنطق الجاهلي الفاسد ، الذي يرفض النبوة ويرضى بالإلهية لشجر ، كما نجد منهم تحديا سافرا ، وتكذيبا ، وتهكما .

(١) نقل ذلك عنه ابن منظور في لسان العرب ١٢ / ١٤٦ .
(٢) ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٧ / ٣٨٠ ، ومفاتيح الغيب ٦ / ٣٨٧ ، وقد مال الرازي إلى القول الأخير : إن المراد الحقيقة .
(٣) ينظر : جامع البيان عن تأويل أي القرآن لمحمد بن جرير الطبري ١٢ / ١٠٣ .
والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ١٥١ ، وجامع البيان في تفسير القرآن لمحمد عبد الرحمن الشافعي ٢ / ١٩٣ -
ت : عبد الحميد الهنداوي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ .
(٤) ينظر : حاشية الشهاب ٤ / ٦٨٣ .
(٥) ينظر : التصوير الساخر في القرآن الكريم ٤٥ - ٤٦ .

وقد وردت السخرية الخاصة بشعيب عليه السلام في هذه السورة في سياق قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ نِيكَّةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُوتُ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً (١٨٨) فَأَجَابَ لَهُمْ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٩) ﴾ [الشعراء : ١٧٦ - ١٨٨] .

والسخرية الواردة في الآيات السابقة جاءت في ثلاثة شواهد :

- **الأول** في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ ، وقد سبق تحليل نظيرها بالتفصيل عند الحديث عن قوم ثمود مع النبي صالح عليه السلام (١) .

- **الثاني** في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ حيث سخروا من بشريته عن طريق القصر الإضافي بالنفي والاستثناء (وما أنت إلا بشر مثلنا) وقد سبق تحليل نظيرها (٢) ، والفرق بين إدخال الواو هنا وترك الواو في قصة ثمود (ما أنت إلا بشر مثلنا) أن دخول الواو هنا قصدُ معنيين كلاهما منافي للرسالة عندهم : التسحير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحورا ، ولا يجوز أن يكون بشرا ، أما ترك الواو في قصة ثمود فلم يُقصدَ به إلا معنىً واحداً وهو كونه مسحورا ، ثم تقرير كونه بشرا مثلهم (٣) . فالسخرية منه - هنا - أقوى والتكذيب أشد ؛ لأنهم نفوا رسالته عن الله كنايةً وتصريحا ، فزعموه مسحورا ؛ أي مختل الإدراك والتصورات من جراء سحر سلط عليه ، وذلك كناية عن بطلان أن يكون ما جاء به رسالة عن الله (٤) .

وزادوا كونه بشرا مثلهم ، ومن ثم يكون ما يصدر عنه ليس وحيا عن الله ولكنه من تأثير كونه مسحورا ، ثم كان الترقى في السخرية والتهكم وإبطال رسالته بقولهم : (وإن نظنك لمن الكاذبين) فجعلوا إنكار النبوة أمرا مفروغا منه ، وجعلوا كل واحد صفة مستقلة في المناقاة ؛ ليكون أبلغ ، وقال النيسابوري في وجه الوصل بالواو هنا وتركها في قصة صالح : " أن صالحا قلل في الخطاب فقللوا في الجواب ، وأكثر شعيب في الخطاب - ولذا قيل له : خطيب الأنبياء - فأكثروا في الجواب " (٥) ، (ولعله أراد أن شعيبا عليه السلام بالغ في زجرهم فبالغوا في تكذيبه والسخرية منه ، ولا كذلك في صالح عليه السلام مع قومه) (٦) .

(١) ينظر ص ٥٦ من البحث وما بعدها .

(٢) ينظر ص ٥٧ من البحث .

(٣) ينظر الكشاف ٥ / ٤١٣ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٩ / ١٨٦ .

(٥) غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري ٥ / ٢٢٧ ، المجلد الخامس ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

(٦) ينظر : روح المعاني ١٩ / ١١٩ بتصرف يسير .

والواضح أنهم في الوصف الثالث المنفي (وإن نظنك لمن الكاذبين) استعاروا الظن لليقين ، وعنوا بالظن الإدراك الجازم بقريئة دخول اللام على المفعول الثاني لـ (ظن) ؛ لأن أصلها لام القسم ؛ مبالغة في السخرية ، وأكدوها بـ (إن) المخففة من الثقلية واللام الفارقة ، وأوردوا الوصف (الكاذبين) بصيغة اسم الفاعل للدلالة على عراقته في الكذب (حاشاه) ، وعلى رأي الكوفيين الذين يرون أنّ (إن) في مثل هذا الموقع حرف نفي واللام بمعنى (إلا) فتكون السخرية واردة بطريق القصر بالنفي والاستثناء ، والتقدير : (ما نظنك إلا من الكاذبين) ويكون القصر إضافيا ، ومرادهم أنه عليه السلام - حاشاه - راسخ القدم في الكذب في دعواه الرسالة ، وفي دعوى نزول العذاب الذي يشعر به الأمر بالتقوى من التهديد (١) ، وأنهم متأكدون من ذلك وليس لهم ظن يتوجه إلى غير الكذب ، وهو أبلغ من إثبات الظن به ، ويؤيد ذلك قولهم بعد هذه

السخرية : ﴿ فَأَسْقَطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٧) قَالَ رَبِّيَّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ، وهذا هو الشاهد الثالث للسخرية ، ومنبعها آتٍ من الأمر المصدر بفاء الفصيحة (فأسقط علينا كسفا من السماء) ، والكِسْفُ : جمع كسفة وهي القطع ، والمراد بالسماء : إما المظلة وهو الظاهر ، وإما السحاب (٢) .

والغرض من الأمر هو التعجيز لا شك ، والتعجيز عون للساخر على السخرية من عجز المسخور منه وهو هنا شعيب عليه السلام ، فضلا عن الاستخفاف بصدق دعوته باستعجال العذاب ، وهذا الطلب منه بعد وصفه بأنه من الكاذبين يُشعر بتصميمهم على الجحود والتكذيب ؛ لأنه لو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلا عن أن يطلبوه ، والمعنى : " نحن نعلم أنك من الكاذبين وإن كنت صادقا في أنك نبي فادع الله أن يسقط علينا كسفا من السماء " (٣)

وهو كقول ثمود لصالح عليه السلام قبل ذلك : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ الشعراء ١٥٤ ، والفرق بين الجملتين : أن هؤلاء عينوا الآية المطلوبة ، أو أن شعيبا عليه السلام أُنذرهم بكسف يأتي فيه العذاب وذلك هو يوم الظلة المذكور في الآية التالية ، أما قوم ثمود فلم يعينوا آية واضحة أو محددة والله أعلم .

وخلاصة القول : أن قوم شعيب عليه السلام في سورة الأعراف وهود هددوه بالنفي والإخراج من القرية ، أو الإكراه على الكفر أو الشرك ، ولجأوا إلى السخرية والاستهزاء به ، وهددوه بالاغتيال ؛ اعتدادا بما لديهم من قوة ، واستضعافا له . وفي سورة الشعراء تعنتوا وأظهروا تمسكهم بتقاليد الآباء في العبادة والمعاملة ، وكذبوه ، واتهموه بالجنون ، واحتكموا إلى المنطق الجاهلي الفاسد في رفض النبوة لبشر بدعوى المماثلة لهم في البشرية ، وأخيرا طلبوا منه إنزال العذاب تعنتا واستهزاء ، وكان أسلوب السخرية في سورتي هود والشعراء واضحا متنوعا بين الخير والإنشاء ، وكان نهاية هؤلاء القوم من جنس ما طلبوا واستهزأوا ؛ حيث أخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم .

(١) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) ينظر : الكشاف ٥ / ٤١٣ .

(٣) السابق : الصفحة نفسها .

المبحث السابع : السخرية في قصة موسى . عليه السلام . مع فرعون :

أرسل الله ﷻ نبيه موسى ﷺ إلى فرعون (عليه اللعنة) ؛ لدعوته إلى التوحيد ، ومكارم الأخلاق ، وتخليص بني إسرائيل - الذين هم قوم موسى ﷺ - من أسر فرعون ، واسترقاقه لهم وتعذيبه إياهم ، فيخرجوا من مصر إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ليتسنى لهم عبادته وحده دون شريك ، فهو ربهم ورب فرعون ورب العالمين جميعا .

وكانت دعوة موسى ﷺ لفرعون ذات مطلبين رئيسيين :

- الأول : دعوة فرعون إلى التوحيد .

- الثاني : إرسال بني إسرائيل مع موسى ﷺ .

ولكن كانت المهمة شاقة ، والحمل ثقيل ؛ لأن المرسل إليه (وهو فرعون) كان جبارا في الأرض ، وادّعى لنفسه الألوهية ، وظل دهورا يستعبد بني إسرائيل بتكليفهم بالأعمال الشاقة والحقيرة في مملكته ، وكان إقراره بوجود الخالق ووحدانيته ، وإرساله بني إسرائيل مع موسى يعنيان زوال ملكه ، وذهاب هيئته في شعبه .

وكان نبي الله موسى ﷺ مدركا لصعوبة مهمته ؛ فهو أعرف الناس بهذا الجبار ، وقد تربى في قصره ، ونشأ في حضنه ، فهياًه الله لهذه المهمة وأداء الرسالة ، وأيده بعد معيته بالمعجزات ، وشد عضده بأخيه هارون ﷺ وزييرا ونبييا يصدقه في كل ما يقول ، وقد واجه فرعون برسائلته ، فطلب من موسى بيّنة تصديقا لدعواه ، فلبّى موسى رغبته بإلقاء عصاه فتحوّلت إلى ثعبان ضخم مخيف ، كما أخرج يده السمراء من جيبه فإذا هي بيضاء ناصعة البياض من غير سوء ولا برص ، فكان موقف فرعون وقومه من هاتين المعجزتين الإنكار الشديد ، وانتهام موسى ﷺ بالسحر ، والسخرية منه ، وعدم الإيمان بما جاء به .

وقد وردت قصة موسى ﷺ مع فرعون في مواضع كثيرة ماثورة في الكتاب الكريم مطوّلة ومختصرة (١) ، ووردت أساليب السخرية في هذه السور في ستة عشر شاهدا (٢) .

وأول هذه الشواهد قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلٰك فِرْعَوٰنَ وَمَلَٰٓئِئِهِ

فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوٰنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوٰنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴿١٨﴾

وَاتَّبَعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَسَّسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٩﴾ [هود : ٩٦ - ٩٩] .

وهذه الآيات وردت في شأن إرسال موسى ﷺ إلى فرعون وملئه، حيث أرسله الله ﷻ بالمعجزات القاهرة الباهرة الدالة على صدق رسالته فكفروا به وبمعجزاته ، واتبعوا أمر فرعون ، ولذا سخر الله ﷻ منهم في موضعين :

(١) وردت قصة موسى مع فرعون في الأعراف ١٠٣-١٣٦ ، ويونس ٧٥-٩٥ ، وهود ٩٦-٩٩ ، والإسراء ١٠١-١٠٤ ، وطه ٤٢-٧٩ ، والمؤمنون ٤٥-٤٩ ، والشعراء ١٠-٦٨ ، والنمل ٧-١٤ ، والقصص ٣-٤٨ ، والعنكبوت ٣٩-٤٠ ، وغافر ٢٣-٣٧ ، والزخرف ٤٦-٥٦ ، والدخان ١٧-٣٣ ، والذاريات ٣٨-٤٠ ، والقمر ٤١-٤٥ ، والنازعات ١٥-٢٦ .

(٢) في هود ٩٨-٩٩ ، والإسراء ١٠١ ، والمؤمنون ٤٧ ، والشعراء ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١ - والقصص ٨ ، وغافر ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٧ ، والزخرف ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، والذاريات ٣٩ .

- الأول في قوله تعالى عن فرعون : ﴿ يَفْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوَرْدَ الْمَرْوُدُ ﴾ .
 - والثاني في قوله تعالى عنهم جميعاً : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَسَّ الرَّقْدَ الْمَرْفُودُ ﴾ .

أما السخرية الأولى : (فأوردهم النار) فإنها تصور مشهداً عظيماً من مشاهد الانحطاط والذلة التي وصل إليها فرعون وقومه ، وتنعي على أتباعه تعطيل عقولهم وتنازلهم عن حرياتهم وأتباع فرعون دون تفكير أو تعقل ؛ لا لشيء إلا أنه استخفهم فأطاعوه .
 فهي تصور شناعة ما اقترفوه ، وبشاعة ما كانوا عليه من الغباء وتبذل المشاعر والأحاسيس حتى صاروا هم والبهائم سواء ، يقودها راعيها إلى حيث تشاء ، وهي لا تدري ما المصير وإلى أين المستقر ، ويتجلى ذلك في الصورة الساخرة المتهكمة التي رسمها الله ﷻ ؛ لأن الوارد أو الوراد هم الذين يردون الماء (١) طلباً للسقيا ، وتسكين العطش ، وتبريد الأكباد ، ومن ثم حصول الراحة والطمأنينة واستعادة القوة والعافية ، لكن الله ﷻ لم يقل : (أوردهم الماء) ، وإنما قال : (أوردهم النار) وهذا لا يتناسب ؛ إذ إن النار لا تُورد طلباً للسقيا ، لكن الله ﷻ لما أراد السخرية بهم شبه فرعون بمن يتقدم الواردة إلى الماء ، وشبه أتباعه بالواردين الماء ، ثم قال: بسئس الورد المورود الذي يردونه النار (٢) ، فاستعار لفظ الورد للنار وهي بضده ، فشبه الوارد إلى النار بالوارد إلى الماء بجامع السرور وسد الظمأ في الكل ، تحقيقاً في الماء وتخبيلاً في جهنم ؛ تنزيلاً للتضاد منزلة التناسب على سبيل الاستعارة التهكمية ، وهي صورة ضاحكة تكاد تنطق رسمها النظم القرآني لهؤلاء المقلدة علها تكون عبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر ويتعظ ، ويمكن أن تكون الاستعارة تمثيلية ، بتشبيه حال فرعون وهو يضل قومه وهم يتبعونه بحاله وهو يتقدمهم ويوردهم النار ، ومن خلال الصورة المركبة يكون هو الفارط الذي يتقدم الواردة ، ويكون قومه هم الواردة ، وتكون النار هي الماء الذي يردونه ، وعلى كل فالخسران ، وسوء المآل ، والتهكم والسخرية ، والترهيب من إحياءات الصورة ، ومغزى التعبير ويجوز أن تكون الاستعارة تبعية في الفعل (أوردهم) ؛ حيث شبه إهلاكهم بالإيراد بتنزيل التضاد منزلة التناسب ، ثم استعير الإيراد له ، ثم اشتق من الإيراد : (أوردهم) بمعنى (أهلكهم) على سبيل الاستعارة التبعية ؛ للإحياء بنقصان عقولهم ، وسخافة تفكيرهم حين انساقوا وراء فرعون ولم يتبصروا أمورهم ، وهي سخرية تحذر كل قوم ألا يتبعوا أي فرعون ؛ لأن نهاية الجميع ستكون حينئذ (بسئس الورد المورود) .

وسبب هذا التهكم اللاذع وضحه النظم القرآني في الجملة الخبرية السابقة : (فاتبعوا أمر فرعون) وهو مجاز عقلي لعلاقة المفعولية ؛ حيث وصف المفعول بوصف الفاعل ، والنقد : (وما أمر فرعون برأشد) ؛ مبالغة في اشتمال الأمر على ما يقتضي انتفاء الرشد ، فكان الأمر هو الموصوف بعدم الرشد ، والمقصود أن أمر فرعون سفيه ، ولكنه عدل عن وصف أمره بالسفيه إلى نفي الرشد ؛ مبالغة في نفي الرشد عن مصدره أصلاً ، وتجهيلاً للذين اتبعوا أمره ؛ لأن شأن العقلاء أن يقتدوا بمن فيه صلاح ورشد (٣) .

(١) مختار الصحاح (١ / ٢٩٨) وقال : المورد هو عين الماء ترده الإبل في المراعي ١ / ٢٨٤ باب (وَرَدَ) .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ٦ / ٣٩٤ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ١٥٦ .

ويلحظ أن النظم القرآني أظهر اسم فرعون مرتين دون ضميره ؛ للتشهير به والإعلان بذمه وهو انتفاء الرشد عن أمره (١) ، كما يلحظ - أيضا - أنه قال : (فَاتَّبِعُوا) بالفاء والتضعيف دون (تَبِعُوا) ؛ للمبالغة في المسارعة إلى اتباعه دون هُدْيٍ أو رُشْدٍ ، فهو اتباع مجرد عن التفكير والعقل ؛ وللدلالة على أن فرعون كان قدوة لهم في الضلال ، وكذلك هو مقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، فكما تقدمهم في الدنيا فأدخلهم البحر وأغرقهم فكذاك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم .

وهذا الاتباع هو سبب التهكم بهم والسخرية منهم في قوله : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) ، وهي صورة خبرية ساخرة خرجت عن الفائدة ولازمها إلى الوعيد والمصير السيء الذي سيلحق بفرعون وملئه يوم القيامة ، وقد جاءت في صورة الماضي (أوردهم) دون المضارع (يوردهم) كما كان السياق يقتضي ؛ للمبالغة في إثبات تحقق وقوع العذاب وثبوته في المستقبل بحيث لا يحتمل الخلاف .

وختمت الجملة الساخرة بالتذييل الجاري مجرى المثل : (وبئس الورد المورد) ؛ للإيحاء بسوء عاقبة فرعون وقومه ومن كان على شاكلتهم ؛ وللإمعان في التهكم والسخرية بتشبيه النار بالورد ، وسبقه بفعل الذم (بئس) ، وحذف المخصوص بالذم ، ليكون الذم متوجها مباشرة إلى الواردين فيها وهم فرعون وقومه ، وفي ذلك ترق في السخرية بهم .

وأما السخرية الثانية فجاءت في قوله تعالى : (وأتبعوا في هذه لعنة يوم القيامة بئس الرصد المرفود) ، وقد وُصِلت هذه السخرية بسابقتها بالواو ؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى ؛ لأن كليهما تتحدثان عن مصير فرعون وقومه وعقابهم بالنار ، في صورة ساخرة ، وتهكم لاذع وبيانها : أن الله عز وجل لعنهم في الدنيا ، ثم أتبعهم اللعنة يوم القيامة ؛ زيادة في تنكيلهم وتعذيبهم ، وعبر عن ذلك بصورة ساخرة مضحكة ؛ إذ سُمي اللعنة رِفْدًا ، مع أن الرصد يعني : المعونة والعطية ، والمرفد : ما يُجعل فيه الرصد من الطعام (٢) ، ورفده : أعطاه وأعانه ، والمرفود : المُعطى شيئاً (٣) ، فأئى عطاء هذا ؟ ، وأي معونة هذه ؟ ، واللعنة لا تحمل إلا التهديد والوعيد والبعد عن رحمة الله عز وجل ، لذا فالكلام ليس على حقيقته بل المراد منه السخرية والتهكم .

وقد جاءت هذه السخرية في صورة الاستعارة التصريحية ، حيث استعار لفظ الرصد وأراد به اللعنة على طريقة الاستعارة التهكمية (٤) ، إذ من شأن الأتباع أن يكونوا عوناً للمتبعين ، فجعلت اللعنة رِفداً وعطاءاً ومعيناً على طريق التهكم (٥) ، وسمى دخول النار رِفداً وعطاءً ومنة في مقابل ما وعد به فرعون قومه من المنة والعطاء والرصد المرفود ، وكأن القرآن يقول لفرعون : ها هو عطاؤك لمن اتبعك : النار وبئس الرصد المرفود .

(١) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) ينظر : (المفردات - رصد) .

(٣) ينظر : (مختار الصحاح - رصد) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٠ / ١٥٧ .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٣٩ ، وفتح القدير ٢ / ٥٢٣ .

وقد مهد النظم القرآني لهذه السخرية بالاستعارة التمثيلية : (**وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً**) ؛ بتشبيه اللعنة بشخص يتبع آخر ليدفعه في هوة سحيقة أمامه وهو غافل عنها (١) ؛ مبالغة في إظهار ضلال هؤلاء القوم ، وعدم رشدهم في اتباع أمر فرعون بلا تفكير ولا أعمال عقل ، مما جعلهم عرضة لسخرية القرآن ؛ لأنهم أضدوا منافذ الإدراك منهم .

واستهلها بالفعل المبني للمفعول (**أَتَّبَعُوا**) بحذف الفاعل ؛ للعلم به ، ولتحاشي ذكره مع هؤلاء الكفرة في سياق واحد ، كما أنه جاء مقابلاً للفعل (**أَتَّبَعُوا**) السابق ذكره ؛ حيث إنهم لما اتبعوا أمر فرعون على غير هدى ورشد أتبعهم الله عليه السلام بلعنة ممتدة متواصلة في الدنيا والآخرة جزاء وفاقاً .

وأسقط كلمة (الدنيا) واكتفى بالإشارة إليها بـ (هذه) اكتفاء بما مر في قصة عاد (٢) ، وزيادة في تحقيرها ، وأنها حياة خسيصة لا تذكر ولا قيمة لها ، وفيه تحقير لدنيا فرعون مع عظم حاله وكثرة جنوده وأمواله .

والسر في ذكرها في قصة هود عليه السلام وحذفها في قصة موسى عليه السلام : أن قصة هود عليه السلام أكثر استيفاء من قصة موسى عليه السلام بكثير ، فناسب الطول الطول والإيجاز الإيجاز ، كما أن قوله عليه السلام في قصة هود عليه السلام : (**وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**) واردة على الأصل من الجمع بين التابع ومتبوعه ، أما في قصة موسى : (**وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً**) فحذف الوصف للاكتفاء باسم الإشارة وكل في موضعه فصيح ، فذكر في الأصل أولاً ، ثم حذف من الثاني لدلالة الأول عليه (٣) .

وجاء بلفظ : (**لعنة**) نكرة ؛ لإفادة العموم والشمول ، فهي لعنة صادرة من المؤمنين وغيرهم من أهل الملل ، كما أن فيها زيادة التشنيع عليهم ، وإظهار حالهم المقيتة ، ووصلها بيوم القيامة فقال : (**وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**) ؛ للإشعار بأنها لعنة متواصلة ، وشاملة ، ومستمرة معهم في الدنيا ، وفي الآخرة حين يرون العذاب ، فضلاً عن الإيحاء بأن لعنة الله صادقة على من حسن حالهم وارتضى ضلالهم (٤) .

وحُتِمت الجملة بالسخرية الشديدة (**ويوم القيامة بنس الرغد المرفود**) ، بحذف المخصوص بالذم إيجازاً ؛ وليكون الذم متوجهاً لإحدى اللعنتين لا على التعيين ؛ لأن كليهما بنيس (٥) ؛ ولتكون السخرية مسها أوجع ، ووقعها أشد على هؤلاء الضالين .

(١) ينظر : حاشية القونوي ١٠ / ١٩٥ .

(٢) ينظر : غرائب القرآن و رغائب الفرقان ٤ / ٤٧ .

(٣) ينظر : ملاك التأويل ٢ / ٦٥٨ .

(٤) ينظر : نظم الدرر ٩ / ٣٧٠ .

(٥) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

وفي سورة الإسراء كانت السخرية في سياق قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ۗ ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ الْإِنشَاءِ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۗ ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۗ ﴿١٠٣﴾ وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۗ ﴿١٠٤﴾ [الإسراء : ١٠١-١٠٤] .

حيث جاءت هذه الآيات من سورة الإسراء ، وهي سورة مكية النزول باتفاق المفسرين إلا بعض آياتها فمدنية (١) ، وقد ارتبط نزولها بحدث خطير وكبير ، كان له صدها الواسع في المجتمع العربي آنذاك ، وهذا الحدث هو المعجزة الكبرى الثانية بعد القرآن الكريم ، وهو الإسراء والمعراج .

وسميت هذه السورة بسورة بني إسرائيل ؛ لأنها مرتبطة بأحد الموضوعات في هذه السورة ، وهو موضوع بني إسرائيل ، حيث تناولته بطريقة جديدة ومثيرة حينما تنبأت بمستقبلهم السياسي ، وإفسادهم ، وانتصارهم ، وهزيمتهم المحتمومة على أيدي الموحدين ، كما تتحدث عن آيات موسى ﷺ التسع ، وخطابه مع فرعون ، واستفزازه لهم ، وهلاكه وقومه جميعا ، وميراث بني إسرائيل من بعده .

وهذه الآيات تتحدث عن علامات نبوة موسى ﷺ وعددها تسع آيات هي : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، والسنين ، ونقص الثمرات (٢) . كما تتحدث عن موقف فرعون من موسى حين جاءه بالآيات ، حيث سخر منه ، وتهكم به ، وأراد أن يستخف موسى ومن آمن معه ، ويخرجهم من أرض مصر بالنفي والقتل ؛ للتمكن من استعباد الباقين ، فكان جزاؤه ومن معه الهلاك والغرق في البحر .

وموطن السخرية في قول فرعون لموسى ﷺ حين جاءه بالآيات الدالة على صدق نبوته :
(**إني لأظنك يا موسى مسحورا**) ، وهو كقول المشركين قبل ذلك في نفس السورة عن النبي ﷺ : (**إن تتبعون إلا رجلا مسحورا**) ، واتهام الأنبياء بالسحر متواتر بين أهل الكفر في كل زمان ومكان .

وقد صاغ فرعون جملة السخرية في صورة الخبر المؤكد بـإن ، واللام ، والجملة الاسمية لادعاء كمال صدقه ؛ لأنه خبر غريب منكر ، بل أشد نكرانا وغرابة ؛ للبون الشاسع بين حال موسى ﷺ وحال المسحور ، ولكنه قال ذلك مؤكداً للسخرية والتهكم بالنبي موسى ﷺ ؛ ولإبرازه في صورة مهينة أمام أتباعه .

معاني المفردات : مثبورا : ملعونا مهلكا (ثير - المعجم الجامع) .

يستفزه : يستخفهم ، ويخرجهم من الأرض ويبيدهم (لسان العرب - فرز) .

لفيفا : جماعات من قبائل شتى ذوي أديان ومذاهب مختلفة ، وذلك لأجل الحكم والجزاء والقضاء (لسان العرب - لف) .

(١) الآيات ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧ ، ومن ٧٣ إلى ٨٠ مدنية . (٢) ينظر : فتح القدير ٣ / ٣٦٤ .

وأثر الوصف (مسحورا) على غيره من الأوصاف ؛ لأن المسحور هو الذي قد سحر فاختلط عليه عقله ، وزال عن حد الاستواء (١) ، أو أنه أراد وصفه بالمخدوع على أساس أن السحر حيلة وخديعة ، فاستعار السحر للخديعة أو التخيل ، أو التوهم استعارة تصريحية تبعية قائمة على تشبيه الانخداع بالسحر ، بجامع تخيل الأمر غير المعهود في كل ، فكانت أشد مبالغة من الحقيقة ؛ لأنها تبين - على زعمه الفاسد - شدة انخداعه عليه السلام وما يعيش فيه من خيال بلغ تأثيره عليه حد السحر على المسحور فاختل عقله (حاشاه) .

أو أن المسحور معناه : أن له سَحْرًا أي رئة ، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب (٢) ، فتكون كناية عن كونه بشرا يتنفس ، ويأكل ، ويشرب ، وبالتالي لا يستحق أن يتبع أو يصدق ، وهي كناية بعيدة صرح بها في قوله في سورة المؤمنون : ﴿ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا

عَبِيدُونَ ﴾ (٣٧) المؤمنون : ٤٧ ، وأياً ما كان المعنى المراد فإن الوصف (مسحورا) هو من باب التهكم به والسخرية ؛ لأنه بشر مثله ، لا يمتاز عنه بشيء يقتضي اتباعه ، أو يقتضي أن يرسل معه بني إسرائيل على زعمه الفاسد .

كما أن إتيان (مسحورا) بصيغة اسم المفعول فيه مبالغة في أنه كالمجبر على هذا الفعل (٣) بسبب تأثير السحر عليه ، كناية عن جنونه الذي صرح به فرعون في سورة الشعراء في قوله

تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٧٧) [الشعراء : ٢٧] ، وسيأتي بيانها إن شاء الله

ولتأكيد تلك السخرية استعار الظن لليقين في الفعل (لأظنك) ، وصاغها بلفظ المضارع ؛ للدلالة على استمراره في هذا الظن ، وعدم تحوله واقتناعه مهما أوتي من آيات ، واستعمل أداة النداء (يا) التي تستعمل في نداء البعيد مع قرب موسى عليه السلام منه ؛ دلالة على البعد النفسي الكبير والبون الشاسع بين ما يدعو إليه موسى عليه السلام وما يقنع به فرعون في قرارة نفسه ، حيث إنه على يقين بأنه رب معبود والمعبود لا يكون عبداً . كما أن ذكر موسى عليه السلام صريحا بعد ذكر ضميره في (لأظنك) فيه دلالة على الجفاء والغلظة ، فضلا عن السخرية .

ولذا كان رد موسى عليه السلام أكثر غلظة وجفاء ، وأشد سخرية بفرعون بقوله : (..... وإني لأظنك يا فرعون مثبورا) ، ومنبع السخرية أت من الفعل (لأظنك) الدال على اليقين حتما ، ولكنه استعار الظن لليقين على سبيل المشاكلة والتهكم ، وأكد الجملة بنفس المؤكدات التي أكد بها فرعون جملته (إن واللام والجملة الاسمية) ؛ لِمَا كان مع فرعون من ينكر قوله ، ويظهر القطع بسعادة فرعون (٤) ، وذكر فرعون صريحا بعد ضميره ، ووصفه بالوصف (مثبورا) للترقي في السخرية ؛ ولرد السخرية بسخرية أشد وأوجع ؛ لأنه قال في وصف فرعون : (مثبورا) ، (والتبور : الهلاك ، والخسران ، وقيل : المثبور الملعون ، أو ناقص العقل

(١) ينظر : (المعجم الجامع - سحر) .

(٢) ينظر : (مقاييس اللغة - سحر) .

(٣) ينظر : نظم الدرر ١١ / ٥٢٦ .

(٤) ينظر : السابق : الصفحة نفسها .

أو الممنوع من الخير ، وقيل : هو المسحور (١) ، وهذا الوصف الجامع يُشعر بمدى السخرية من نقصان عقل فرعون ، كما يُشعر بالهلاك واللعن الذي سيقع عليه لا محالة . كما أن هذا اللفظ فيه رد على سخرية فرعون بزيادة ؛ لأن فرعون وصف موسى عليه السلام بأنه مسحور وحسب ، فرد موسى عليه السلام عليه بأنه (مثبور) ، وهي كلمة من ضمن معانيها : المسحور ، فكأن موسى عليه السلام أراد أن يرد الصاع لفرعون صاعين ، ويقارعه ويظهر له عدم خوفه منه ، فوصفه بأنه (مثبور) ؛ ليدل على أنه ليس مسحورا ، بل المسحور هو فرعون ، وليس هذا فقط ، بل إنه ناقص العقل ، وممنوع من الخير ، وهالكٌ ، وملعون .

وقبل هذا الوصف قال : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر) فأكد كلامه باللام ، وقد ، والفعل الماضي (علم) الدال على اليقين والثبوت ، وأسلوب القصر بالنفي والاستثناء ؛ ليدل على أن الآيات التي جاء بها ليست من السحر في شيء ؛ لأنها من عند رب السماوات والأرض ، وليدل على أن علم فرعون بها أمر قطعي الثبوت ، ولكنه جاحد ومستكبر ، وعلى قراءة الكسائي : (لقد علمت) بضم التاء (٢) تكون الجملة كناية عن أنه واثق من نفسه السلامة من السحر .

وقد فصلت هذه الجملة عن سابقتها : (وإني لأظنك يا موسى مسحورا) للاستئناف البياني ؛ حيث جاءت جملة : (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء ...) بمنزلة جواب عن سؤال مفاده : ماذا قال موسى عليه السلام ، فأجيب : (قال لقد علمت) ، والفرق بين ظن فرعون ، وظن موسى عليه السلام مع أن اللفظ واحد في الموضعين : أن ظن فرعون كذبٌ بحت ؛ لأنه مبني على العناد والمكابرة ومخالفة الواقع على الرغم من موافقته للاعتقاد ، أما ظن موسى فдал على اليقين ؛ لأنه مطابق للواقع والاعتقاد معا .

ويلحظ أن موسى عليه السلام - في رده كلام فرعون - قصر إنزال الآيات على رب السماوات والأرض قصر صفة على موصوف قصر حقيقيا تحقيقيا بالنفي والاستثناء ؛ للتأكيد على أن الآيات منزلة من عند الله وحده ، ومن ثم تنتفي صفة السحر عنه ، فهو أعقل أهل زمانه ، وليس كما ادعى فرعون ، كما ألمح فيه تعريضا بنفي الربوبية عن فرعون وإهانته أمام عابديه ، وإثبات الربوبية لله عز وجل وحده بأقوى الأساليب وأعلاها في مقامات الإنكار ومواجهة المنكرين ، وإثبات التوحيد وهو القصر بالنفي والاستثناء ، كما أنه أضاف وصفَ الربِّ للسماوات والأرض تذكيرا بأن الذي خلق السماوات والأرض هو القادر على أن يخلق مثل هذه الخوارق (٣) .

ولذا كان غضب فرعون شديدا ، فأراد نفي موسى وبني إسرائيل ، وإخراجهم من أرض مصر ولكن كان عقاب الله أسرع ؛ بإهلاكه وإغراقه ومن معه ، ونجاة موسى والذين آمنوا معه .

(١) فتح القدير ٣ / ٣٦٤ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : شرح طيبة النشر في القراءات العشر ٢ / ٤٢٧ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١٥ / ٢٢٧ .

وفي سورة الشعراء كان هناك جديد في مواقف فرعون وملئه من دعوة موسى عليه السلام ، تمثل في محاولة النيل من شخص موسى عليه السلام باتهامه ضمنا بالجنود ونكران الجميل ، وعدم الوفاء ، ثم التهديد بالقصاص بطريق غير مباشر ؛ ليصرف الأنظار والعقول عن دعوة موسى عليه السلام . أما الاتهام بالجنود فتمثل في من فرعون على موسى عليه السلام تربيته وتنشئته في قصره ، ومكثه فيهم مدة طويلة من غير أن يدعي هذه الدعوة التي تجعل للناس رباً غير فرعون الذي لا يعلم الناس إلها غيره .

وأما التهديد الضمني بالقصاص ، فيمثلته تذكيره موسى عليه السلام بجريمته الشنعاء التي لا يجد فرعون ما يعبر به عنها لشناعتها ، فاكتفى بتسميتها (فعلتك) ، وهي جنود أيضا من موسى عليه السلام حين قابل الإحسان بالإساءة بقتله القبطي مناصرا لأخيه الإسرائيلي ، ولا بد للعدالة أن تأخذ مجراها وتقتص للقبطي ، وقد ظن فرعون أن هذه قاصمة الظهر لموسى عليه السلام ، غير أن موسى عليه السلام دافع عن نفسه ، ورد على اتهامات فرعون ردا مفحما ، فما كان ليتربى في قصره لولا استعباده لبني إسرائيل ، وأين منة التربية من منة الاستعباد لبني إسرائيل ؟ وأما قتل القبطي فكان انتصارا لقومه المقهورين ، فلما خاف على نفسه من بطش فرعون فر منه ، فوهبه الله ﷻ الحكمة والنبوة ، وجعله في عداد المرسلين ، ولما رأى فرعون قوة حجته سأله متهمكا عن رب العالمين ، ثم تهكم به ووصفه بالجنون ، ولكن موسى عليه السلام أجمه وأفحمه وعندئذ لجأ فرعون إلى التهديد ، والبغي ، والعدوان ، واستعمال القوة ، شأنه في ذلك شأن الطغاة في كل عصر ومصر إذا أعيتهم الحيل ، وانقطعت عنهم الحجة ، فتوعد موسى عليه السلام بالسجن إذا اتخذ إلها غيره ، ولكن موسى عليه السلام يعيده إلى شيء من التعقل بالعرض عليه أن يأتيه بشيء واضح ، وبرهان صادق على صدق دعواه ، فيتهكم به ، ويطالبه بإتيانه وهو في قرارة نفسه أنه لن يأتي بشيء ، فيعرض عليه موسى عليه السلام معجزتي العصا واليد البيضاء ، فيتهمه بالسحر ، ومن هنا إلى نهاية المواجهة والمعارضة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون ، وانتصار موسى عليه السلام عليهم ، وإيمانهم بموسى عليه السلام في نهاية المطاف ، وتهديد فرعون لهم بالقتل والتكيل ونهاية فرعون وقومه ، ونجاة موسى ومن معه ، لا يضيف السياق جديدا ، اللهم إلا ما كان من استشارة فرعون للملأ بعد عرض موسى عليه السلام لمعجزاته ، واتهامه له بالسحر ، وقد كانت مطوية في سورتي الأعراف وطه ، ولم تذكر في سورتي الإسراء والمؤمنون ، فهي إضافة جديدة في القصة .

كما تمتاز هذه السورة بكثرة التفصيلات لنهاية فرعون وملئه ، والإضافة الجديدة في موضوع انفلاق البحر وهو وصفه بعد الانفلاق بفتح بين جبلين عظيمين .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُورُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ

عَبَدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَيْنَ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جَنَّتِكَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاتِّبِعْهُمْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَرَزَقَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَعْمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِلَيْكُمْ إِذَا لِمَنِ الْمَقَرُّونَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابَهُمْ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذِنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَى رِيبِنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَايُطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَى الْجَنانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَجْمَعْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ [الشعراء: ١٠-٦٨]

والسخرية الواردة في الآيات السابقة جاءت في أربعة مواضع :

- الأول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ [الآية : ٢٣] .

- والثاني في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ﴾ ؟ [الآية : ٢٥] .

- والثالث في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الآية : ٢٧] .

- والرابع في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ . [الآية : ٣٤ - ٣٥] .

أما السخرية الأولى : (قال فرعون وما رب العالمين) ، فجاءت مفصولة عن سابقتها للاستئناف البياني ؛ لأنها تحمل في ثناياها إجابة عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : وماذا كان رد فرعون على موسى عليه السلام ؟ فقيل : (قال فرعون وما رب العالمين) .

وجاءت هذه السخرية بعد ما ذكر موسى عليه السلام لفرعون أنه رسول رب العالمين ، وبعد أن طلب موسى عليه السلام منه أن يرسل معه بني إسرائيل ، فكان رد فرعون ساخرًا متهمًا في تجاهلٍ وسوء أدبٍ في حق الله العظيم : (وما رب العالمين) ؟ ومعناه : أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول إنك من عنده رسول ؟ (١) ، فجاءت السخرية في صورة الاستفهام الإنكاري المنكر للقول من أساسه ، المتهم على القول والقائل ، المستغرب للمسألة كلها ، حتى ليراها غير ممكنة التصور ، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث (٢) .

وإمعانا في تلك السخرية صدر السؤال بـ (ما) التي يُستفهم بها عن المجهول ، ويُطلب بها تعيين الجنس ، وماهية الشيء وحقيقته ؛ لتحقير المسئول عنه (٣) ؛ ولالإيحاء بأنه ليس هناك ربٌ للعالمين سواه بدليل قوله : (أنا ربكم الأعلى) ، و (ما علمت لكم من إله غيري) ؛ فسؤاله عن حقيقة المرسل وماهيته ليس مرادا ؛ " لأن الماهية لا تطلق على ذات الله تعالى ، إذ لا أجزاء لها ولا حدية ، ولا تقديرية ولا يصح أن يُسأل عنه بما هو ، ولا كيف هو ، ولا بأي شيء هو ، ولا بهل هو " (٤) ، وإنما الباعث الحقيقي على هذا السؤال هو التعجب ، والإنكار المشوب بالسخرية والاستهزاء على طريق الكناية (٥) .

ويلاحظ أنه سأل - هنا - بـ (ما) فقال : (وما رب العالمين) ، وفي سورة طه سأل بـ (مَنْ) ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ [آية ٤٩] ، والفرق بينهما : ان اللعين لما قال له بوابه : إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله : (وما رب العالمين) ، أما في سورة طه فكان سؤاله : (فمن ربكما يا موسى) ؛ ردا على ما خاطبه به موسى عليه السلام مشافهة ، والقصة واحدة ، والمجلس واحد .

ويجوز وقوع الأمر مرتين ، وأن فرعون سأل أولا بقوله : (فمن ربكما يا موسى) ، وسأل ثانيا بقوله : (وما رب العالمين) ، وقد قص الله عز وجل الأول فيما أنزل أولا في سورة طه ، والثاني فيما أنزله ثانيا في سورة الشعراء .

وقيل : إن فرعون سأل في المرة الأولى (من ربكما ؟) طلبا للوصف المشخص كما

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٢٥٩٢ .

(٢) السابق : الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : حاشية الشهاب ٣٠٩ / ٧ .

(٤) غرائب القرآن ٢٦٧ / ٥ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ١١٧ / ١٩ .

يقتضيه ظاهر الجواب ، كأنه قال : أبشّرْ هو أم مَلَكٌ أم جِنِّي ؟ ، وسأل في المرة الثانية : (ما رب العالمين) طلبا للماهية والحقيقة ؛ انتقالا إلى ما هو أصعب ؛ ليتوصل بذلك إلى بعض أغراضه الفاسدة (١) ، وأخصّها إنكار أن يكون هناك إله غيره مع ما تضمنه من سخرية وتهكم بموسى عليه السلام ومقالته .

وتمّ فرق آخر ؛ حيث إن النظم القرآني أظهر اسم فرعون بدلا من ضميره في سورة الشعراء ، مع أن طريقة حكايات المحاورات يُكْتَفَى فيها بضمير القائلين ، وذلك لإيضاح صاحب مقالة : (وما رب العالمين) ؛ للبعد ما بين قول فرعون هذا وقوله السابق : (ألم نربك فينا وليدا وفعلت فعلتك ...) ، والواو عاطفةٌ هذا الاستفهام على الاستفهام الأول الذي وقع كلام موسى عليه السلام فاصلا بينه وبين ما عطف عليه ، كأنه قال : أنت رسول ؟ وما رب العالمين ؟ ، وهذا يخدم الغرض الذي سيقت من أجله تلك الاستفهامات المتوالية وهو السخرية والاستهزاء بموسى عليه السلام والرب الكريم (جل وعلا) ، فضلا عن إنكاره (حاشاه) .

ولما سأله فرعون ، وكان السؤال بـ (ما) التي للماهية ، ولم يمكن الجواب بها أجاب موسى بالصفات التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها على طريقة الأسلوب الحكيم ، فقال : (رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) ، وهو ردٌ فيه تعريض باستصغار فرعون ، واستصغار ما يدّعيه مع بطلانه ، وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل ، والتفكير فيمن يكون ربه فهو رب العالمين (٢) .

أما السخرية الثانية فجاءت بعد جواب موسى عليه السلام مباشرة على لسان اللعين فرعون ، حيث (قال لمن حوله ألا تستمعون) ؟ ! ، وهي سخرية من جواب موسى عليه السلام متضمنة في الاستفهام الذي غرضه إلهاب وتهيج نفوس الأشراف من قومه ضد موسى عليه السلام ؛ كي لا تتمكن منهم حجته ، وهذا الاستفهام يوحي بخوف فرعون - عليه اللعنة - من تأثير كلام موسى عليه السلام في قلوب قومه ، وإذعانهم له ، ولذا سلط الاستفهام على نفي استماعهم ، ونزلهم منزلة من لم يستمع تعجبا من استماعهم وسكوتهم ، وتنبئها لهم على الإنكار والتعجب مما قال موسى ، كأنه يقول لهم : (أنستمعون ما يقوله موسى وتعجبون مثلي) (٣) ، فأراد أن يسخر من موسى ومما قال ، وأراد أن يشير إلى أن قوله هذا مما يثير في النفس الامتعاض ، ويتعجب منه كما يتعجب من كلام البله والسفهاء ، فضلا عما يوحيه هذا الاستفهام من عجز فرعون عن الرد على حجة موسى عليه السلام السابقة ، فلم يجد سوى التهكم والسخرية والتعجب والإنكار .

ويلحظ أنه أثر (تستمعون) بدلا من (تسمعون) ؛ للتقرير لاستماع قومه لما يقوله موسى عليه السلام مع وعيهم له ، والتأكد بأنه منكر ومردود حتى لا يتأثروا به ، وكأنه يقول لهم : أنستمعون هذا الكلام وأنتم صامتون ، وتتركون موسى يهذي بهذا الهذيان ولا يكون منكم

(١) ينظر: روح المعاني ١٩ / ٧١ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٢٥٩٢ .

(٣) فتح القدير ٤ / ١٣ بتصرف .

إنكار أو اعتراض ، أو حتى بطش به ؟! (١) .

ولما كان في كلام فرعون إعراضٌ عن مخاطبة موسى عليه السلام ؛ إذ تجاوزه إلى مخاطبة مَنْ حوله وجه عليه السلام موسى خطابه إلى جميعهم ، حيث (قال ربكم ورب آبائكم الأولين) ، فنزل بهم إلى الاستدلال بأنفسهم وبآبائهم ، إذ أوجدتهم الله عز وجل بعد العدم ، ثم أعدم آباءهم بعد الوجود ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام ، ومن ثم احتدّ فرعون لما ذكر موسى عليه السلام ما يشمل آباءه المقدسين بذكر يخرجهم من صفة الإلهية فكانت السخرية الثالثة الصادرة من نفس حارة متلمظة (قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) ، وقد فصلت عن سابقتها للاستئناف البياني أيضا وجاءت في صورة الخبر المؤكد بثلاث مؤكدات (إن واللام والجملة الاسمية) ؛ لأنه خبر منكر بل شديد النكران ؛ للبعد الشاسع بين حال موسى عليه السلام وحال المجنون ، ولذا أكد الخبر لدحض ما يتوقعه من إنكار ، وبيان أنه علم من حال موسى عليه السلام ما لا يعلمه السامعون .

ومنبع السخرية آت من استعارة وصف الرسول لموسى عليه السلام بقريئة رمية بالمجنون المحقق عنده فكيف يكون رسولا ، وهو في ذات الوقت مجنون ، فوصفه بالرسول ليس على حقيقته ، بل مراد به التهكم بموسى عليه السلام ، والاستهزاء به على سبيل الاستعارة التهكمية (٢) ،

ونظم الآية يفيد ترقى فرعون في السخرية من موسى عليه السلام ، وشدة تهكمه به حيث سماه (رسولا) بطريق الاستهزاء كما سلف ، وأردف بالموصول وصلته (الذي أرسل إليكم) ؛ ليفيد تأكيد التهكم أو زيادة التهكم ؛ (لإثارة غضب القوم ، واستدعاء إنكارهم لرسالته بعد سماع ذلك الخبر ؛ ترفعا لأنفسهم من أن يكونوا أهلا لأن يُرسل إليهم مجنون) (٣) ، فضلا عن تهيج السامعين كي لا يتأثروا أو يتأثر بعضهم بصدق موسى عليه السلام (٤) .

وأضاف الرسول إلى ضمير المخاطبين فقال : (رسولكم - إليكم) ترفعا من أن يكون مرسلا إليه وربنا من أن يكون مقصودا بالخطاب ، ليس هذا فحسب ، بل إنه أورد الوصف (مجنون) نكرة لتحقير موسى عليه السلام ، وجاء بفعل الإرسال مبنيا للمفعول (أرسل) ؛ لتجاهل المرسل وعدم الاعتراف به ، ولو ذكر الفاعل في الجملة فقال : (الذي أرسله رب موسى) لكان اعترافا ضمنيا بوجود إله غيره ، وإقرارا برسالة موسى عليه السلام وهو غير مراد أبدا ، بل المراد إبعاد القلوب عن تصديق موسى ورسالته بالطعن في عقله ، إشارة إلى أن الرسول ينبغي أن يكون أعقل الناس ، وهو - في زعمه - غير متوفر في موسى ، فلا يصح أن يكون رسولا .

ولذا أجابه موسى عليه السلام بما هو تكميل لجوابه الأول فقال : (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) ، حيث لا يئنهم أولا ، وخاطبهم بالرفق فقال : (إن كنتم موقنين) ، ثم لما رأى منهم شدة الشكيمة في العناد ، وقلة الإصغاء إلى عَرْض الحجج ، خاشن وعارض قوله : (.. إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) بقوله : (إن كنتم تعقلون) ، حيث خاطبهم بما يوهم أنهم مسلوبو العقل والتمييز ، وجعل قلة العقل في مقابل ما وصف به من جنون .

(١) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام ٣ / ٨٥ .

(٢) ينظر : حاشية القنوي ٤ / ٢١٦ .

(٣) روح المعاني ١٩ / ٧٢ بتصرف يسير .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٩ / ١٢٠ .

وبعد أن انتهى الحوار بين موسى عليه السلام وفرعون - عليه اللعنة - وأرى موسى عليه السلام فرعون آيتين عظيمتين أجراهما الله على يديه عليه السلام :

- الأولى : انقلاب العصا حية أو ثعبانا يتحرك حركات مذهلة .

- والثانية : إخراج يده بيضاء ناصعة ، وكانت قبل الإدخال سوداء .

شاهد فرعون ما لم يكن له على بال ، وبدل أن يؤمن بالحق امتطى الباطل ، وتهكم ، ووصف ما رآه على يد موسى بأنه سحر ، ووصف موسى عليه السلام بأنه ساحر ، وزاد في تهكمه بالسخرية الرابعة في قوله تعالى : (قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) ، وقد فصلت عن سابقتها للاستئناف البياني ؛ حيث إنها جواب عن سؤال مقدر نشأ عن الجملة الأولى كما تقدم في المواضع السابقة .

ومنبع السخرية آتٍ من اسم الإشارة (هذا) المشار به إلى موسى عليه السلام للتحقير ، ووصفه بأنه (ساحر) و (عليم) ، ووصف الرسالة بأنها (سحر) .

وقد أراد فرعون - عليه اللعنة - من ذلك الاستخفاف والاستهانة بالرسول ، وتهوين شأن الرسالة حتى لا يتسرب صدق الحق إلى قلوب أحدٍ من قومه ، وأكد الجملة : (إن هذا لساحر عليم) بثلاث مؤكدات : (إن واللام والجملة الاسمية) ؛ لدفع الإنكار المتوقع ، فضلا عن تأكيد كلامه لإقناع قومه بما يقول ، ووصفه بأنه (ساحر عليم) ؛ للمبالغة في بلوغ موسى عليه السلام في السحر مبلغا عظيما ، وأتى بالفعل المضارع (يريد) ، والمصدر المؤول (أن يخرجكم) ؛ لتشويه الرسالة السامية التي جاءهم بها موسى عليه السلام ، وأن مراده خطة وضعها هو ليعمل على تحقيقها في المستقبل ، وقصدُه من هذا تأليب قومه على موسى عليه السلام ، والتصدي له قبل أن يستفحل أمره وينفذ خطته .

وقال : (من أرضكم) ؛ لينقل الخصومة التي بينه وبين موسى عليه السلام إلى خصومة عامة تشمل أهل مصر جميعا ، وقد استخدم بدهائه الماكر وسائل تعبيرية مؤثرة في قلوب سامعيها ، فأوقع الإخراج عليهم ؛ ليصور لهم أنهم هم - لا هو - المستهدفون لموسى عليه السلام ، ثم أضاف أرض مصر إليهم (أرضكم) ، فلم يقل لهم : (أراد تكذبي في ادعاء الألوهية) ؛ لإلهاب وتهيج العامة ضد موسى عليه السلام ، وختم بالسؤال (فماذا تأمرون ؟) ؛ للتودد إليهم ، وتليين قلوبهم ؛ ليضمن التفاهم حوله في مواجهة موسى عليه السلام ؛ وليحتموا عرشه الشيطاني من السقوط كما يفعل الطغاة في كل زمان ومكان .

وفي سورة القصص كان تفصيل ما أجمل في سورة الشعراء من قول فرعون لموسى عليه السلام (ألم نربك فينا وليدا) إلى قوله : (وأنت من الكافرين) ، ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى عليه السلام في آل فرعون ، وبينت سبب زوال ملك فرعون .

كما أن فيها تفصيل ما أجمل في سورة النمل من قوله : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سآتئكم منهنَّ بجبرٍ أو آياتكم بشهابٍ قسٍ لكم تصطوبون ﴾ الآية ٧ ، حيث فصلت كيف سار موسى عليه السلام وأهله وأين أنس النار ، ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي ، إلى أن ذكرت دعوة موسى عليه السلام

فرعون ، واستهزاء فرعون به ، فكانت هذه السورة أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ، ثم أجملت ما بعد ذلك ؛ لأن تفصيله كان في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء (١) .

وقد جاءت السخرية في هذه السورة في شاهد واحد في قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَطَهُمُ آءَالَ فِرْعَوْنَ

لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴾ [القصص : ٨] .

وقد جاء هذا الشاهد بعد أن بين النظم الكريم أن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعا متفرقة ، واستضعف بني إسرائيل ؛ فاستحيا نساءهم ، وذبح أبناءهم ؛ حذرا من أن يولد منهم من يضيع ملكه ، ولكن قوة فرعون وحذره ويقظته لم تمنع من تنفيذ إرادة الله ، فلم تغن عنه شيئا ، ولم تمكنه من موسى الطفل الصغير ، المجرد من كل مظاهر القوة والمنعة ؛ لأنه في حراسة الله ﷻ القوى الجبار التي أعمت عنه العيون ، وتحدث به فرعون فدفعته إلى حجره ، بل اقتحمت عليه قلب زوجته ، فاتفق معها على تربيته ، والأدهى من ذلك أن أم موسى عليها السلام أتت لترعاه في قصر فرعون ، بل وتتقاضى منه أجرا على إرضاعها موسى عليه السلام (٢) ، وهو ما كان سببا في سخرية القرآن من فرعون ، حيث اختلف أهل التفسير في معنى اللام في قوله : (ليكون) على قولين :

- الأول : إنها للصيرورة أو العاقبة ، والمعنى : ليكون في عاقبة أمره عدوا وحزنا كما أراد الله به ، ولكن امرأة فرعون قالت : قررة عين لي ولك ، فكان قوله تعالى : (ليكون لهم عدوا وحزنا) لما هو كائن في عاقبة أمره (٣) ، وعلى هذا الوجه كثير من المفسرين كالنحاس (٤) ، والواحدي (٥) ، والبغوي (٦) ، وابن الجوزي (٧) ، والقرطبي (٨) ، والسيوطي (٩) وأبو السعود (١٠) .

والقول الثاني : إنها للتعليل ، فتكون على سبيل المجاز ؛ وذلك لأن مقصود الشيء وغرضه يؤول إليه أمره ، فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشيء على سبيل التشبيه ، كإطلاق لفظ الأسد على الشجاع ، والبليد على الحمار (١٢) ؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكن المحبة والتبني ، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء كقولك : (جنئك لتكرمني) (١٣) .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٦٢ / ٢٠ .

(٢) ينظر : مصاعد النظر ٢ / ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) ينظر : جامع البيان للطبري ٣٢ / ٢٠ .

(٤) ينظر : معاني القرآن ٥ / ١٥٨ - ت : محمد علي الصابوني - الطبعة الأولى - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٠٩ هـ .

(٥) ينظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢ / ٨١٣ .

(٦) ينظر : معالم التنزيل ٣ / ٤٣٦ .

(٧) ينظر : زاد المسير في علم التفسير ٦ / ٣٠٣ - الطبعة الثالثة - المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان - ١٤٠٤ هـ .

(٨) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٢٥٢ .

(٩) ينظر : الإتيان في علوم القرآن ١ / ٤٩٨ .

(١٠) ينظر : إرشاد العقل السليم ٧ / ٤ .

(١١) ينظر : مفاتيح الغيب ٨ / ٥٨٠ .

(١٢) ينظر : الكشاف ٤ / ٤٨٤ .

وسواء أريد باللام الصيرورة أم التعليل ، فإن ظاهر النظم يدل دون أدنى شك على أن فرعون وقومه التقطوا هذا الغلام حتى يكون مصدرا للحزن والعداوة لهم ، وفرعون - بدهاءة - لم يكن يقصد هذا ، وإنما قصد أن يكون هذا الطفل مصدرا للسعادة والاطمئنان كما قالت زوجته : (**قرة عين لي ولك**) ، فلا مناسبة بين ما قصده فرعون وقومه إلا أن الله عز وجل أراد التهكم بمقصدهم هذا (١) .

وقد يعترض على هذا بأن فرعون إنما التقطه ليقنته ابتداء لولا تدخل زوجته ، ولم يلتقطه لتقر به عينه حتى يقال : إن في ذلك تهكما به ؟ والجواب : أنه عندما التقطه ليقنته أراد بقتله أن تقر به عينه حتى يأمن خطره ، فالمراد توفير الأمن والسرور ابتداء ، وفي ذلك كمال السخرية والاستهزاء به ؛ لأن العاقل ولا سيما المتحذلق لا ينبغي له أن يُقدم على شيء حتى يعلم عاقبته ، فكيف إذا كان يدعي أنه إله ، و (ولذا عبر سبحانه - بلام العاقبة التي معناها التعليل تهكما بفرعون ، فهذه اللام التي للعلة استعيرت لما أنتجته العلة التي قصدوها وهي التبني وقرة العين ، من الهلاك كما استعير الأسد للشجاع ، والمعنى على طريق التهكم : أنهم ما أخذوه إلا لهذا الغرض) (٢) ، ففيها استعارة تبعية في اللام حيث شُبّهت العداوة والحزن المترتبان على الالتقاط الواقع بالعلة الحقيقية التي هي المحبة والسرور بجامع مطلق ترتب شيء على شيء ، وتبعاً لهذا التشبيه استعيرت اللام من معناها الحقيقي وهو ترتب العلة الحقيقية على الالتقاط لترتب غير العلة الحقيقية عليه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة هو دخول اللام على العداوة والحزن (٣) ، وهي استعارة بليغة توحى بترتب عداوته لهم على الالتقاط ، وأنهم ضروا أنفسهم حيث يريدون لها النفع ، وجلبوا لها العداوة حيث لم يتبعوه ، وقد أرسل إليهم بشريعة الله ، ولو آمنوا به لتحقق لهم السعادة التي أرادوها .

وقد أسند النظم القرآني (**الحزن**) إلى ضمير موسى على سبيل المجاز العقلي الذي علاقته السببية ؛ لأنه سبب الحزن وليس هو الحزن (٤) ، وإنما وصف موسى عليه السلام بالمصدر (**الحزن**) ؛ لما في هذه الصفة من المبالغة في الحزن الكبير الذي سيقع لآل فرعون ، والذي سيكون موسى عليه السلام سببه .

وأكدت الاستعارة الساخرة بالتذييل الجاري مجرى المثل : (**إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين**) (٥) ، وهي جملة خبرية مؤكدة بأن والاسمية ، جاءت معترضة بين المتعاطفين في موضع العلة لجملة : (ليكون لهم عدوا وحزنا) ؛ لتأكيد وقوع فرعون وآله في خطأ عظيم يدل على جهلهم وضلالهم عن المقاصد ، وأثر النظم الكريم الوصف (**خاطئين**) بدلا من (**مخطئين**) ؛ للدلالة على الخطيئة العظمى التي وقعوا فيها عمدا بتربية من يُذبحون الأبناء من أجله ، مع أن القرائن الظاهرة تدل على أنه من بني إسرائيل ، وهذا يناسب مقام السخرية .

(١) ينظر : التصوير الساخر ١٢٩ .

(٢) نظم الدرر ١٤ / ٢٤٥ بتصرف يسير .

(٣) ينظر : البلاغة التطبيقية - د : أحمد موسى ص ١٣٨ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ٧٦ / ٢٠ .

(٥) المخطئ : من أراد الصواب فصار إلى غيره ، والخاطئ : من تعمد ما لا ينبغي ، وقيل : أخطأ وخطأ لغتان بمعنى واحد ، يقال : خطأ في دينه وأخطأ : إذا سلك سبيل الخطأ عمدا أو غير عامد . (ينظر : نظم الدرر ١٤ / ٢٤٦) .

وفي سورة غافر كان موقف فرعون وملئه في غاية التكذيب والتجبر والكيد ، حيث اتهموا موسى عليه السلام بالسحر والكذب صراحة ، وقتلوا ذكور أبناء قومه المؤمنين تقيلاً لهم ، واستحيوا نساءهم ؛ كيذا لموسى عليه السلام حتى يتشاءم به قومه ، ثم محاولة قتله بحجة تبديله الدين ، وإفشاء الفساد في الأرض ، ولكن موسى عليه السلام لاذ بحمى ربه ، والتجأ إليه مستعيذاً به من كل متكبر جبار .

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْعَانَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ [غافر: ٢٣-٢٧] .

ويقول أيضاً : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُنْ أَبْنِي لِي صَرْمًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴿٣٧﴾ وَكَذٰلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] .

والآيات السابقة من سورة غافر ، وهي من السور المكية التي تعنى بالعقيدة كشأن سائر السور المكية ، وموضوعها البارز هو المعركة بين الحق والباطل ، حيث تحدثت عن مصارع الطغاة ، وهلاك العصاة ، كما دعت إلى التوحيد وعدم الاغترار بما قد يكون عليه الكافرون من سلطان ، ودعتهم إلى أن يذكروا مال الأمم قبلهم ، كما تحدثت السورة في أكثر من موضع عن آيات الله عز وجل وقدرته ، ودلائل وحدانيته ، وعن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها .

وحديث السورة الكريمة عن قضية الحق والباطل والإيمان والطغيان جاءت ممثلة في مواقف من قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية الجبار (٣) ، والتي تبين مدى كبرياء فرعون ، وجبروته ، وتعنته ، وطغيانه ، وسخريته من موسى عليه السلام ورب العزة سبحانه ، وقد ظهرت شواهد تلك السخرية في ثلاثة مواضع :

- الأول في قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْعَانَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ .

- الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴿٢٥﴾ .

- الثالث في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُنْ أَبْنِي لِي صَرْمًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ

إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴿٣٧﴾ .

(٣) ينظر : مساعد النظر ٤٣٥-٤٣٦ ، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٨٢٩ ، تأليف لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في القاهرة ، دار الثقافة - الدوحة - الطبعة السابعة .

أما الشاهد الأول للسخرية: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ**

وَهَمَّ نَنْ وَفَرُّونَ فَقَالُوا سَحْرٌ كَذَابٌ ﴿٣٢﴾ فجاء في سياق إرسال موسى عليه السلام بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات الدالة على صدق نبوته ورسالته إلى فرعون وهامان وقارون ، حيث إنهم كذبوه وسخروا منه بقولهم عنه : (ساحر كذاب) ، وهي جملة خبرية ساخرة جاءت معترضة بين قوله تعالى : (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ...**) ، وقوله تعالى : (**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ...**) ؛ للمسارعة إلى بيان ما قاله هؤلاء الكفرة في حق موسى عليه السلام ، وسخريتهم منه ؛ حيث إنهم لم يعطوا لأنفسهم فرصة للتفكير والتدبر فيما يقوله موسى عليه السلام ، بل سارعوا إلى اتهامه بالسحر والكذب ، بدليل استعمال الفاء في (**فَقَالُوا ...**) .

وهذه السخرية مهد لها النظم القرآني بما يفيد سببها ؛ حيث إنها جاءت بعد قوله : (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**) ، وصيغت بما يفيد عجزهم التام عن معارضة الآيات التي جاء بها ، فقد عطف النظم القرآني (**سُلْطَانٍ مُّبِينٍ**) على (**الآيات**) ؛ لتغاير الوصفين ، فجمع بين كونها علامات على صدقه في دعوى الرسالة وبين كونها حجة قاهرة للخصم ، أو لإفراد بعض المعجزات التي لها شأن كالعصا ؛ للتفخيم والاهتمام بها ، من باب عطف بعض العام على العام كعطف جبريل وميكال - عليهما السلام - على الملائكة (١) .
وقدم الآيات والسلطان المبين على آية السخرية للاهتمام بها ، وبيان أنها عظيمة وواضحة في الدلالة على صدق رسالة موسى عليه السلام ؛ لأنها مرسله من عنده تعالى ، بدليل إسناد الإرسال إلى ضمير العظمة (**نا**) في (**أَرْسَلْنَا**) ، مما يشعر بعظمة المرسل ، وتشريف المرسل بهذه الرسالة

وخصص النظم الكريم الإرسال إلى فرعون وهامان وقارون ؛ للإفادة بأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم ، ففرعون الملك ، وهامان الوزير ، وقارون صاحب المال ، فجمعه الله ﷻ معهما ؛ لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما (٢) .
وعلى الرغم من أن قارون لم يقل عن موسى عليه السلام إلا في زمن التيه ، إلا أنه لم يتب منه ، فلم يزل قائما به ، فأدخل في جملة القائلين من فرعون وقومه ؛ ليبين أنه مطبوع على الكفر مثلهم ، فأدخله في زمرة من باب التغليب (٣) .

وعلى الرغم من عظمة الآيات ووضوحها إلا أن فرعون وهامان وقارون سخروا من موسى عليه السلام ، وقالوا عنه : (**ساحر كذاب**) ، والتقدير : هذا ساحر كذاب ، فأوجزوا بحذف المبتدأ ؛ مسارعة إلى التهمك والسخرية بوصفه بالسحر والكذب ؛ للتأثير في أذن السامع وقلبه ؛ " وللإشارة إلى استخفافهم وقلة اعتدادهم بموسى عليه السلام " (٤) ، حيث إنهم لم يشيروا إليه صراحة أو ضمنا ، وحذفوه تجاهلا ؛ (لينصرف القول بالسحر والكذب إليه مباشرة ، زعما منهم

(١) ينظر : حاشية الفونوي ١٧ / ٤٤ ، وإرشاد العقل السليم ٢٤ / ٦١ .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٣٠٤ .

(٣) ينظر : فتح البيان في مقاصد القرآن ١٢ / ١٧٨ - أبو الطيب صديق بن حسن البخاري - ت : عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - المكتبة العصرية - بيروت - لبنان - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

(٤) خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ص ١٧٥ ، د : محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الرابعة - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

أن هاتين الصفتين غالبتان عليه (١) ، ليس هذا فحسب ، بل إنهم نكروا لفظة (ساحر) و (كذاب) لتحقير الموصوف بهما ، وجاءوا بصيغة المبالغة (كذاب) ؛ للإشعار بحرفته في الكذب ، وبلوغه فيه مبلغا بعيدا حتى لا يصدقه الناس ويتأثروا به ومن ثم يؤمنوا بدعوته . وقالوا عنه : (ساحر) دون (سَحَّار) كما في قولهم : (كذاب) ؛ لئلا يتوهم أحد أنهم يمدحونه بالبراعة في علم السحر ، فتتحرك الهمم للإقبال عليه والاستفادة منه (٢) .

وهذه السخرية توحى بعجزهم التام عن مجادلة موسى عليه السلام الذي جاءهم بالحق وألقم أفواههم الحجر، وهذا العجز تجلى أكثر في الآية التالية : (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه الآية) ، حيث إنهم أدركوا أن اتهمه بالسحر والكذب لا يجدي فأمروا بقتل أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشأوا على دين موسى عليه السلام فيقوى بهم .

وأما الشاهد الثاني للسخرية فجاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ، وهو معطوف على جملة : (قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) ؛

للدلالة على سنة القتل التي سنها اللعين فرعون وقومه في بني إسرائيل لما جاءهم موسى عليه السلام بالبينات وعجزوا عن مواجهته بالحجة . حيث إن الحق - تبارك وتعالى - لما أخبر بمشورة حاشية فرعون بشأن من آمن مع موسى عليه السلام أخبر بما يراه فرعون ويقترحه للتخلص من موسى نفسه .

وقد جاءت السخرية في قول فرعون : (ذروني أقتل موسى وليدع ربه) ، وقد بدئت بقول فرعون لملئه : (ذروني أقتل موسى) ، وهي كناية عن اضطراب معتقدات أصحابه في أمر موسى عليه السلام ، خاصة بعد ظهور المعجزات على يديه بقرينة دلالة الحال ، حيث إن (هذا القول ليس من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم) (٣) . ولذا عطف : (وليدع ربه) عليه ؛ ليكون شاهداً صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه (٤) . وبلاغة هذه الكناية تكمن في تصوير هواجس فرعون وما يدور في نفسه من إرادته قتل موسى عليه السلام ليسترىح منه ، ولكنه كان خائفاً أن تظهر معجزات قاهرة تمنعه من قتله فيفتضح أمره ، إلا أنه لوقاحته قال ذلك ؛ ليُعلم أنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوبهم ، والغرض الحقيقي إخفاء خوفه (٥) .

وفي نسبة فرعون - عليه اللعنة - القتل لنفسه مجاز عقلي علاقته السببية لغرض المبالغة ، حيث أسند الفعل (أقتل) إلى الضمير العائد على فرعون وهو ليس الفاعل حقيقة ، بل الفاعل الحقيقي جنوده وأعدائه ، ولكن لما كان فرعون هو الأمر بالقتل وسببه القوي المؤثر أسند إليه الفعل ؛ مبالغة في الدلالة على كبره وجبروته ، وأن كل شيء في الدولة بأمره ، فالعلاقة السببية

(١) السابق ، الصفحة نفسها - بتصريف يسير .

(٢) ينظر : نظم الدرر ١٧ / ٤٩ .

(٣) البحر المحيط ٧ / ٤٤٠ - بتصريف يسير .

(٤) ينظر : الكشاف ٥ / ٣٤١ .

(٥) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٧ / ٤٨ .

والقرينة معنوية ؛ وهي استحالة أن يقوم الحاكم بهذا الفعل عادة ، بل يقوم به جنوده ، وإن كان العقل لا يمنع ذلك .

ثم كانت السخرية بالأمر في قوله : (وليدع ربه) لغرض الاستهانة وعدم الاكتراث بدعاء موسى عليه السلام ربه ، فهذا القول يُظهر فيه فرعونُ الاستهانة بموسى في دعائه ربه عليه السلام ، كمن يقول لأحدٍ مستهينا به : أدعُ ناصرك فإني منتقم منك ، والحق إن ظاهر فرعون التهكم والاستهزاء ، وباطنه يرعد من دعاء موسى ربه ؛ لأن موسى خوّفهم من عذاب الله وتحذاهم بالآيات التسع ، ولهذا تكلم به أول ما تكلم، وأظهر أنه لا يبالي بدعاء ربه ، وكأنه قال : ذروني أقتل موسى ، وليقل لربه حتى يخلصه مني .

وللإمعان في السخرية عبر بالفعل (يدع) دون (ينادي) ونحوه ؛ لما في الدعاء من دلالة على الاستغاثة ، والاستعانة ، والالتجاء ، وافتقار الداعي إلى المدعو ، وهذه المعاني ناسبت مقام السخرية من موسى عليه السلام خصوصا وأن فرعون يعتقد أن لا رب لموسى حقيقة ، وأنه - عليه اللعنة - هو الرب الأعلى .

وختم جملة السخرية ببيان السبب الموجب لقتله بقوله : (إني أخاف أن يبذل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) ، فأوردها خبرية مؤكدة بـإن ؛ للدلالة على أن الأمر جد خطير يستدعي تأكيد التحذير من موسى عليه السلام خصوصا وأن من قومه (من كان يظهر عدم اكترائه بموسى عليه السلام تقربا إلى فرعون ، وإظهارا للثبات على متابعته ، فناسب التأكيد مقتضى حالهم) (١) ، وأكدت الجملة بـإن اقتضاء للمقام الطلبي ، وفصلت عن سابقتها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ؛ حيث إن الأولى (ذروني أقتل موسى) أثارت سؤالا عن سبب القتل ، كأنه قيل : لماذا تريد قتل موسى فأجيب : (إني أخاف أن يبذل دينكم ...) ، وهذه الجملة التعليلية جمع فيها فرعون بين خوفه من أن يفسد موسى عليه السلام على قومه دينهم الذي هم عليه من عبادتهم إياه وعبادة الأصنام بالتبديل ، وبين خوفه من أن يفسد عليهم أمر دنياهم بالتعطيل ؛ بسبب نشوب الخلاف والنزاع ؛ لأنهما أمران كلاهما مرّ ، والدين والدنيا هما شغل البشرية الشاغل ، ولا شيء سواهما يشغل الإنسان ، فإذا فسد فلا هناء له .

ولذا ألهب فرعون حماس قومه ، وهيج مشاعرهم ضد موسى عليه السلام بتعبيرات وصور قوية واضحة الدلالة على ما يريد :

- فقدم خوفه من تغيير دينهم على إفساد دنياهم ؛ لأن حبهم لأديانهم فوق حبهم لأموالهم (٢) ؛ (ولأن القوم كانوا يعتقدون أن الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه ، وإذا كان موسى ساعيا في إفساده ، كان في اعتقادهم أنه ساع في إفساد الدين الحق) (٣) .

- وأتى بالمسند (أخاف) فعلا مضارعا ؛ للإشعار بتجدد واستمرار هذا الخوف لدى فرعون ، مما يصور رهبته وفزعه من أمر موسى عليه السلام ، خاصة بعدما رأى من الآيات البيّنات

(١) نظم الدرر ١٧ / ٤٩ . بتصريف يسير .

(٢) ينظر : السابق ٦ / ٥٠٦ .

(٣) مفاتيح الغيب ٢٧ / ٥٦ . بتصريف .

وعلى الرغم من أن الخوف صفةٌ بشريةٌ تتنافى مع ما يدّعيه من ربوبية ، لكنه كان في عناد ومكابرة ، فأظهر الخوف للإلهاب والتهيج .

- وعبر بـ (**تبديل الدين**) ؛ لمزيد من الاستنارة والإلهاب ضد موسى عليه السلام ، ببيان أن ما يدعو إليه موسى فيه قلبٌ للموازن والمعتقدات التي نشأوا وتربوا عليها ، وتغييرٌ شاملٌ لأحوالهم وأوضاعهم ، بل إنه أضاف الدين إليهم فقال : (**دينكم**) ؛ للتعريض بأنهم أولى بالدّبّ عن هذا الدين ، وعلى الرغم من أنه دينه أيضا إلا أنه أظهر للقوم تجرده في مشاورتهم عن أن يكون فيه مراعاة لحظّ نفسه كما قالوا هم : ﴿ **أَنْذِرْ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْتَكُ** ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فففيه إلهاب وتحضيض .

ثم زاد في إلهابهم بجملة : (**أو أن يُظهر في الأرض الفساد**) ، وهي استعارة تصريحية تبعية في الفعل (**يُظهر**) ، حيث استعار ظهور الفساد في الأرض لانتشاره بجامع الشيوخ في كل ، ثم اشتق من الظهور بمعنى الانتشار (يظهر) بمعنى (ينشر) ؛ مبالغة في بيان خطر موسى عليه السلام على إفساد دنياهم مثلما سيفسد عليهم دينهم ؛ وذلك لاستنهاضهم وتحفيزهم ضمانا لمناصرتهم له ، وعرف (**الأرض**) بالعهدية ؛ للدلالة على أنها الأرض المعهودة عندهم وهي مملكة فرعون وفي التعبير بالأرض دون المملكة أو البلد مبالغة في التهويل من أمر موسى عليه السلام الذي يريد أن ييسط نفوذه على كل أرض مصر على حد زعمه ، وفيه تناسب مع كبر فرعون وجبروته ، وادعائه أنه الرب الأعلى الذي يستحق منهم العبادة والتكريم .

كما عرف المفعول به (**الفساد**) ؛ مبالغة ، وإيدانا بأن ما يحدثه موسى بينهم من تغيير الدين هو الفساد بعينه أو هو الفساد كله ، وهذا لشحن قومه وتحفيزهم ، وإثارة حميتهم ، واستنهاض همهم بجعل الصلاح الذي أتى به موسى عليه السلام فسادا ؛ ليتناسب ويتوافق مع رأي قومه الذين قالوا : (**أذّر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذركم وأهتك**) ؛ وذلك لإرضائهم وكسب ودهم ، وضمنا مناصرتهم له .

ومما ينبغي الإشارة إليه أنه قد ورد في قوله تعالى : (**أو أن يُظهر في الأرض الفساد**) عدة قراءات قرآنية ، ولكل قراءة وجهاتها البلاغية :

١- فقد قرأ أهل الكوفة ، ويعقوب ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : (**أو أن يُظهر في الأرض الفساد**) بـ (**أو**) ، وقرأ عامة قراء المدينة ، والشام ، والبصرة ، وابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : (**وأن يظهر** ..) بالواو العاطفة (١) .

والقراءة الأولى بـ (**أو**) تدل على ضرورة وقوع أحد الأمرين ، إن لم يبدل الدين يُوقِع الفساد في الأرض ، ففيه تردّد الخوف بين تبديل الدين وظهور الفساد .

أما القراءة الثانية فتفيد انتصاب الخوف على تبديل الدين وفساد الدنيا معا (٢) .

وقيل : إن كل قراءة تمثل موقفا لفرعون مع أعوانه ومستشاريه ؛ إذ بنى حجته في الأولى على الإيهام والتدرج ، وقدم خوفه من تبديل دينه لأنه كان الأهم عنده ، أما الأخرى فهي تمثل موقفا آخر تسلط فيه خوفه على التبديل والإفساد معا ، حتى يصل في حاجته المغلوطة إلى إقناع أعوانه بخطر موسى عليه السلام على دينهم ودنياهم معا ، وبذلك يتحقق للآية الكريمة معنى

(١) ينظر : طيبة النشر في القراءات العشر ٢ / ٥٤٢ .

(٢) ينظر : الكشاف ٤ / ١٦١ ، ومفاتيح الغيب ٢٧ / ٥٦ ، والبحر المحيط ٧ / ٤٤١ .

الإيجاز الذي تمثلته القراءتان (١) . وهو رأي له وجاهته ، والذي أميل إليه - والله أعلم - أن هاتين القراءتين تكمل كل منهما الأخرى في المعنى ، فالعطف على الخبر بـ (أو) يبين أن تبديل الدين عنده ظهور الفساد ، وظهور الفساد عنده في الوقت نفسه تبديل الدين .

٢- قرأ الجمهور : (يُظهِرَ) بضم الياء ، وكسر الهاء ، ونصب (الفساد) ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : (يَظْهَرُ) بفتح الياء والهاء ورفع (الفساد) (٢) . ووجه القراءة الأولى : أنه أسند الفعل إلى موسى عليه السلام في قوله : (يُبَدِّلُ) ، فكذا في (يُظهِرُ) ليكون الكلام على نسق واحد ، ووجه الثانية : أنه إذا بُدِّلَ الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل (٣) .

- وقرئ أيضا (يَظْهَرُ) بتشديد الظاء والهاء ورفع (الفساد) (٤) ، على أنه فاعل ؛ للدلالة على تكاثر الفساد ، وتفاقمه تفاقما عظيما بظهور أتباع موسى عليه السلام ، فتزول حرمة الدولة ، وفي ذلك دلالة أيضا على مبالغة فرعون في بيان خطر الأمر ، وسوء عواقبه على قومه في نظره لاستنهاضهم وتحفيزهم ، ولكن في النهاية باء كيده بالخسران ، وجعله الله ^ع عبرة لمن يعتبر .

وأما الشاهد الثالث للسخرية فجاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هِمَّتْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا كَيْدُكُمْ إِلَّا لِيُكْفِرُوا بِاللَّهِ الَّذِي فَطَرَكُمْ فَاتَّخِذُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَهْلًا لَكُمْ يُرِيدُونَ أَكْفُرُوا بِهِمْ بِطِغْنَاتِ الْيَهُودِ ﴾ (٣١) .

وقد جاءت السخرية فيه بعد أن أعيت الحيل فرعون ، ولم يستطع مقاومة موسى عليه السلام ، وبدا أن ما يدعو إليه موسى هو عبادة إله السماء ، فعمد فرعون إلى وزيره هامان أن يبين له صرحا عظيما محكما ؛ ليطلع من خلاله إلى هذا الإله الذي يدعو إليه موسى عليه السلام ، حتى يثبت كذبه ، ويكشف أمره أمام قومه فلا يكون له أدنى تأثير .

ومنبع السخرية آتٍ من الأمر ببناء الصرح ، حيث قال ذلك استهزاءً منه وسخرية ، وتظاهرا خادعا بأنه ينصفه بهذا المسعى إلى معرفة ربه ، وهي مراوغة ؛ لأنه يعلم أنه لا سبيل إلى ذلك مهما فعل ، وكأنها خطة للتراجع أمام مطارق الرجل المؤمن في حديثه (٥) . والذي يدل على أن مقالته هذه استهتار وسخرية قوله تعالى : (وما كيد فرعون إلا في تباب) ، والكيد : هو معالجة الشيء والمكر فيه (٦) ، وكذا قراءة حفص (فأطَّلِعَ) بالنصب (٧) ؛ لأن على هذه القراءة تكون (لعل) بمعنى (ليت) ، ويصير الرجاء تمنيا يفيد أن إحساس

(١) ينظر : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية - د / أحمد سعيد محمد - ص ١٩٧ - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

(٢) ينظر : إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للشيخ أحمد محمد البنا ٢ / ٤٣٦ - ت د / شعبان محمد إسماعيل - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

(٣) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٧ / ٥٦ .

(٤) ينظر : طيبة النشر ٢ / ٥٤٢ .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن ٥ / ٣٠٨٢ .

(٦) ينظر : (مقاييس اللغة - كيد) .

(٧) ينظر : طيبة النشر ٢ / ٥٤٢ .

فرعون باطلاعه على إله موسى أمر مستبعدٌ ، وهكذا يعتقد ؛ لأنه لا يؤمن بأن لموسى إلهًا ، ولذا فإنه لما أحس بأنه أقرّ بإله موسى استدرك ذلك استدراكا على سبيل الاحتراس بقوله : **(واني لأظنه كاذبا)** ، وأكد كلامه بأنّ واللام ؛ لينفي عنه تهمة أن دعوة موسى عليه السلام أو هنته ، أو جعلته يقترب من التصديق لا سيما بعد قوله : **(فأطلع إلى إله موسى)** .

والملاحظ أن فرعون استعمل أداة الترجي **(لعلّ)** - والتي تكون للأمر الممكن - مكان التمني - وهو الشيء المستبعد وقوعه لاستحالته - ؛ ليوهم القوم بأنه جادٌ في التعرف على حقيقة ما يدعو إليه موسى ، وهو بذلك يحاول إبطال ما قد استقر في الأذهان من أنّ لهذا الكون إلهًا غيره ، وتوحي مقالة فرعون هذه بما نفسه من ظمًا وأمالٍ حبيسة ، ورغائب لا سبيل إلى تحقيقها مما يزيد في نفسه تحرقًا واستعارًا (١) ، فالتعليل بالترجي - الذي لا يكون إلا في الممكن - دليلٌ على أنه كان يُلبسُ على قومه وهو يعرف الحق ، ولذا استأنف النظم القرآني على سبيل الوصل واستكمل أحوال فرعون وأقواله المنبعثة عن الضلال بجملة : **(وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب)** ، فبنى الفعل **(زين)** و**(صدّ)** للمفعول ؛ لتحاشي ذكر الفاعل الحقيقي وهو الله ﷻ مع هذا اللعين في سياقٍ واحد ، أو لتذهب النفس في تفسيره أي مذهب .

" وأقرن الفعل **(زين)** بـ **(سوء عمله)** ؛ ليحيل الجمالية المتوهمة بالمقياس الفرعوني إلى قبح واقعي بالمقياس القرآني " (٢) ، وعرف **(السبيل)** ؛ للدلالة على الكمال في النوع ، أي صد عن السبيل الكامل الصالح ، وهو سبيل الرشاد ، وقصر كيد فرعون على الخسران ، وأظهر فرعون في موضع الإضمار ؛ بقصد الإهانة والتحقير والاستخفاف بعقل فرعون وكلامه وأفعاله القبيحة .

وشبيهة بقوله تعالى : **(فأطلع إلى إله موسى واني لأظنه كاذبا)** قوله تعالى في سورة القصص : **(لعلي أطلع إلى إله موسى واني لأظنه من الكاذبين)** من آية ٣٨ . ، والفرق بينهما : أنّ في سورة غافر زيادة تتناسب وقوله : **(أو أن يظهر في الأرض الفساد)** ؛ لأنه زعم أنه إله الأرض فجاء في كل سورة بما اقتضاه ما قبله ، والاختلاف في **(كاذبا)** و**(من الكاذبين)** ؛ لأن التقدير في سورة القصص : **(واني لأظنه كاذبا من الكاذبين)** ؛ وذلك لمشكلة رؤوس الآيات ، وجاء في سورة غافر على الأصل إذ لا موجب للتغيير (٣) .

وفي سورة الزخرف تأتي قصة موسى عليه السلام مع فرعون بنظم مختلف عما في سورة غافر وحوارٍ جديدٍ يظهر فيه شدة استهزاء فرعون وقومه برسالة موسى عليه السلام وبه ، وتقلبهم بين الإيمان الزائف عند معاينة العذاب ، ثم العودة إلى إظهار الكفر ، ولجوء فرعون إلى حجج واهية أخرى يحاول بها استخفاف قومه وإثباتهم على الكفر، لتنتهي القصة بهلاكهم وجعلهم سلفًا ومثلاً للآخرين .

(١) ينظر : دلالات التراكيب ٢١٢ .

(٢) جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم ، د : حكمت صالح ص ٤٧ ، وزارة الاوقاف الكويتية ، ط١ ، ١٤٣١ - ٢٠١٠م

(٣) ينظر : أسرار التكرار في القرآن ١٦٠ .

وقد جاءت السخرية في سياق قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْكَاذِبُ بَدَعْنَاكَ لِمَأْوَئِكُمْ كَمَا لَهُ بَدْعٌ كَذِبًا عَظِيمًا ﴿٤٩﴾ فَمَا لَكُم مِّنْ عَذَابٍ إِذَا هُمْ يُنكَبُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِبِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِتْنَةً لِّقَوْمِهِمْ فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف : ٤٦ - ٥٦] .

حيث إن هذه الآيات جاءت تسليئة للرسول عليه السلام ؛ إذ اعترض المشركون من كبراء قومه على اختياره ، واعتزوا بالقيم الباطلة في الحياة الدنيا بقولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] .

كما اعتر فرعون أيضا بكل فخره وخيلائه بقوله : ﴿ ... أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، فتشابه موقف أهل الكفر بين الأمم ، وتشابهت حالة الرسل - عليهم السلام إزاء هؤلاء في تبليغ الدعوة .

وقد وردت السخرية في الآيات السابقة في موضعين :

- الأول في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ .

- والثاني في قوله - تعالى - على لسان فرعون : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ .

أما السخرية الأولى : فجاءت في صورة الخبر الابتدائي الخالي من التأكيد ؛ لأن قائلها هو الله عز وجل ؛ لتعرض موقف فرعون وقومه من رسالة موسى عليه السلام ، حيث إنهم فاجأوه بالضحك والسخرية ، وهذه المفاجأة ينبئ بها حرف المفاجأة (إذا) ، والذي يدل على أن ما بعده حصل من غير ترقب ، ولذا زاد النظم القرآني في تشنيع أمرهم ، وعمد إلى التعبير عنهم بالقصر بضمير الفصل (هم) ، وتقديم الجار والمجرور (منها) ؛ للدلالة على أن ضحكهم ما هو إلا استهزاء بموسى عليه السلام وبما جاء به .

كما عبر النظم القرآني بالفعل المضارع (يضحكون) ؛ للإشارة إلى ضحكهم المستمر والمتجدد عند إتيانهم بالآيات سخرية واستهزاء ، والجملة عموما كناية عن الاستخفاف بالآيات والتهكم بالمرسل وهو موسى عليه السلام ، وهذه سخرية لفظية صريحة منبعها الفعل (يضحكون) .

وأما السخرية الثانية فموطنها قول فرعون لقومه : (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين) ، وهذه الجملة من تنمة قول فرعون الذي أمر أعوانه أن ينادوا به في الناس ، والآية تحمل فكرتين :

- الأولى : اغترار فرعون وإعجابه بنفسه .

- الثانية : السخرية من موسى عليه السلام بتحقيره ، ورميه بالنقائص بألفاظ التحقير .

وقد صدرت الآية بالاستفهام التقريري : (أم أنا خير من هذا) ، و (أم) هنا مما اختلفت كلمة المفسرين فيها هل هي متصلة أم منقطعة بمعنى (بل) ؟ (١) ، وخلاصة هذا الاختلاف سواء أكانت متصلة أم منقطعة : أن جملة (أم أنا خير من هذا) استفهام مجازي مراد به التقرير والتثبيت ؛ أي التقرير بعظمة شأنه ، والتحقير من شأن موسى عليه السلام ، والراجح أن (أم) منقطعة بمعنى (بل) دون تقدير استفهام كما قال أستاذنا الدكتور المطعني (رحمه الله) (٢) ، وهو ما أميل إليه ؛ لأن فرعون يريد من قوله هذا أن يقرر الخيرية وينسبها لنفسه مقابل موسى عليه السلام ، فهو خبر أريد به التقرير والتثبيت ، مع ما يحتويه من السخرية والتهمك بموسى عليه السلام ، ولا شك أن التقرير بالخبر هنا أقوى من التقرير بالاستفهام .

والواضح أن فرعون اللعين في هذه الآية استعمل كل الألفاظ الدالة على تحقير موسى عليه السلام والتهوين من شأنه ؛ فأثر التعبير باسم الإشارة (هذا) دون اسم موسى عليه السلام ؛ لتصغير شأنه في نفوس القوم ، وتحقيره ، كما عبر عنه بالموصول وصلته ؛ لدمه بما في حيز الصلة من المهانة والحقارة (حاشاه) ، وعبر بضميره (هو) دون اسمه صراحة استصغارا واستهجانا ، وبألف في ذم موسى عليه السلام وتحقيره بصيغة المبالغة (مهين) ، وجعل صلة الموصول (هو مهين) كناية عن أن موسى عليه السلام ليس له صفة يُعترف بها إلا صفة المهانة في خياله المريض ، وختم بقوله : (ولا يكاد يبين) إما كناية عن وصف موسى عليه السلام بالبلادة والعجز عن إيراد الحجج المؤيدة لرسالته ، أو إلى ادعاء عيب في نطقه وهو منه براء .

والملاحظ أيضا أن فرعون في سخريته من موسى عليه السلام عمد إلى أسلوب الترقى

(١) ذهب الزمخشري إلى أن (أم) متصلة ، والمعنى : (أفلا تبصرون أم تبصرون) ؟ إلا أنه وضع قوله : (أنا خير) موضع (تبصرون) ؛ لأنهم إذا قالوا له : أنت خير فهم عنده بصراء ، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب . (ينظر : الكشاف ٤٩٢ / ٣) .

أما أبو السعود فقد حمل (أم) على الانقطاع على حملها على الاتصال عكس ما صنع الزمخشري ، والاستفهام على تقرير الانقطاع أو الاتصال استفهام تقرير ، وقوله : (أنا خير) من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب . (ينظر إرشاد العقل السليم ٥٠ / ٨) .

أما الألوسي فقد أطال في هذا الموضوع ، وأكثر في النقل عن السلف ، وحمل هذا الاستفهام مع ما قبله (أفلا تبصرون) على الاحتباك . (ينظر روح المعاني ٩٠ / ٢٥) .

ودار الإمام أبو حيان في المدار نفسه ، وقال باتصال (أم) (ينظر : البحر المحيط ٢٢ / ٨) .
وجزم ابن عاشور بانقطاع (أم) للإضراب الانتقالي ، والتقدير : بل أنا خير ، والاستفهام اللازم بعدها تقرير ، ومقصوده تصغير شأن موسى في نفوسهم بأشياء هي عوارض ليست مؤثرة ، حيث انتقل من تعظيم نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى . (ينظر : التحرير والتنوير ٢٥ / ٢٣٠) .

(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام ٦٣ / ٤ .

فبدأ بوصفه (مهين) ، ثم أردف بـ (لا يكاد يبين) ، ثم قال بعده : (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) ، في محاولة منه لإبطال وصفه بالرسالة ، وهو في كل ذلك يشير إلى أن موسى ﷺ (حاشاه) ليس ملكا ولا أميرا ، بل إنه من ذلك الشعب المُستعبد المهين ، فضلا عن حبسة لسانه وعيوب النطق عنده .

والخلاصة :

ومن مجموع ما سبق من مواقف فرعون وملئه من دعوة موسى وهارون - عليهما السلام - يظهر جليا شدة شكيمة فرعون وملئه في الكفر والعناد ، والبغي والفساد ، وشدة الإصرار على الكفر والظلام برغم وضوح محجة النور والإيمان ، وتتابع الآيات والبراهين الساطعة ، وتنوعها كما وكيفا ، فاستحقوا بهذا الإصرار وذلك العناد عذاب الله ﷻ ، فأهلكهم بالغرق ، ونجى موسى ﷺ والذين آمنوا معه من بني إسرائيل ، وأورثهم الأرض من بعد أهلها لينظر كيف يعملون .

الفصل الثاني

سخرية القرآن من المشركين وأسرارها البلاغية

وفيه ستة مباحث :

- المبحث الأول : معركة السخرية بين المشركين والقرآن .
- المبحث الثاني : السخرية من معتقدات المشركين الباطلة .
- المبحث الثالث : السخرية من قادة الكفر.
- المبحث الرابع : السخرية من عادات المشركين وأخلاقهم .
- المبحث الخامس : السخرية من المشركين في آيات الإنذار والتخويف
بالعذاب .
- المبحث السادس : السخرية المصورة لنتيجة الشرك يوم القيامة .

الفصل الثاني

سخرية القرآن من المشركين وأسرارها البلاغية

تمهيد :

إنَّ مَنْ يتتبع الخصومة بين الشرك والإسلام على مدار التاريخ يجد أنها كانت أعنف ما واجه الإسلام في عصره الأول ، وأكثر شراسة وضرارة ، فلقد تعرض المسلمون للخطر في أكثر من موقف وهم يصارعون الشرك العاتي المستميت ، سواء في حياة الرسول ﷺ أو بعد وفاته في موقف الردة ، ولولا أن الله قدر لهذا الدين أن يبقى وأن تلو رايته ، ما استطاع المسلمون أن يقاوموا الشرك وحملته الضارية عليه في مواطن كثيرة .

وعند التأمل تجد أن أعداء الإسلام من المشركين لم يكونوا من السذاجة التي يوحىها لفظ الجاهلية ؛ فهذا الوصف لا يقصد به إلا ناحية العقيدة ، أما فيما عداها فقد أثبت هؤلاء الجاهليون أنهم على درجة عالية من الذكاء والخبرة بالحياة ، ومن المعرفة بفنون الصراع والخصومة ، ومن حسن التقدير والتوقع للأمور من زوايتهم أعداء للإسلام ، ومن حيث حربهم للإسلام والمسلمين .

وعلى الجانب الآخر لم يدخر القرآن وسعا في مواجهة هذه الحرب النفسية للإسلام والمسلمين ، بل قابلها بسخرية أشد وقعا وإيلاما ، بعد أن عرض سخريتهم بالنبى - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ، والبعث ، والمسلمين المستضعفين ؛ لإشعارهم بأن سخريتهم غير ذات شأن ، فرد كل سهم أطلقوه إلى نحورهم ، وصد كل سخرية لهم بسخرية أشد وأنكى ، وقطع السنة السخرية والاستهزاء .

والذي يُعنى من هذه المقدمة عن الشرك والمشركين ؛ هو بيان موقف هؤلاء ضد الإسلام ورد القرآن عليهم ؛ للوصول بذلك إلى قيمة السخرية ، وأثرها سلاحا فعالا في الحرب المتبادلة بين الجبهتين .

وفي هذا الفصل سأتوقف - إن شاء الله تعالى - مع بعض النماذج القرآنية التي ضمت مشاهد من هذه السخرية ؛ لأعيشها معايشة هادئة متأملة ، ثم أحاول استجلاء بعض من أسرارها ، من خلال المباحث التي يحتوي عليها هذا الفصل ، وأستعين بالله - تعالى - على ما أرجو جلاءه وبيانه .

المبحث الأول

معركة السخرية بين المشركين والقرآن

المبحث الأول : معركة السخرية بين المشركين والقرآن

- أولاً : سخرية المشركين من النبي ﷺ والرد عليها :

تعرض النبي ﷺ في سبيل الدعوة إلى الله إلى ما لا يطيقه بشر ، وواجه شدائد ومحنا وابتلاءات قاسية ، كان على رأسها السخرية والاستهزاء به وبدعوته ، وقد ذكر القرآن الكريم هذه السخرية ، وعرضها ؛ للكشف عما تحمله نفوس هؤلاء الأعداء من تهوين قدره ، ومحاولة نفي صفة النبوة عنه ، واتهامه بالسحر ، والشعر ، والكهانة ، والجنون ، داحضا الشبه والأباطيل التي يستندون إليها ، واضعا إياهم في صور مزرية أحيانا ، وفي مواجهة مصير لا طاقة لهم به أحيانا أخرى ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٩٥ - ٩٦] .

وقد جاء هذا النوع من السخرية في ثلاثين موضعا (١) من القرآن الكريم ، ونظرا لكثرتها ، وتقارب أساليب البيان فيها مع اختلاف المواقف ، سأدرس بعضها بشيء من التفصيل ليكون دليلا في طريقة دراسته على ما لم يدرس ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخُذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي بِعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٤١ - ٤٤] .

هذه الآيات من سورة الفرقان ، وهي مكية النزول ، وجاءت في سياق الحديث عن المستكبرين الذين لا يرجون لقاء الله ، والذين تطاولوا عليه - سبحانه - بما لا يليق ، فضلا عن الاعتراضات والاعتراضات التي تدل على جهلهم ، وحمافتهم ، حيث اقترحوا نزول الملائكة أو رؤية الله ﷻ بقولهم : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَكِئِكَةَ أَوْ نَزَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان من / ٢١] ، فعاجلهم القرآن بعرض ما ينتظرهم من عذاب الآخرة ؛ عقابا لهم على ذلك التطاول ، في سلسلة متصلة من مشاهد يوم القيامة ، ثم اعترضوا على نزول القرآن منجما بقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان من / ٣٢] ، فعقب ببيان الحكمة من تنزيله متتابعا بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُنشِئَ بِهِ قَوْلًا وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان من / ٣٢] .

(١) ينظر الأعراف ١٨٤ ، التوبة ٦١ - ٦٤ - ٦٥ ، يونس ٢ ، الحجر ٦ - ١١ - ٩٥ ، الإسراء ٤٧ ، الكهف ٥٦ ، الأنبياء ٥ - ٣٦ - ٣٨ - ٤١ ، المؤمنون ٧٠ ، الفرقان ٨ - ٤١ ، سبأ ٧ - ٨ - ٤٣ ، يس ٣٠ ، الصافات ١٢ - ٣١ - ١٥٨ ، ص ٤ - ٨ ، الزخرف ٧ - ٢١ ، الدخان ١٤ ، الجاثية ٨ - ٩ ، الطور ٣٠ ، القلم ٥١ ، التكويد ٢٢ ، الكوثر ٣ .

ثم طمأن رسول الله - ﷺ على عون الله له كلما تحدوه في جدل بقوله : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

جِئْتَكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٣] ، ثم عرض عليه وعليهم مصارع القوم الذين كذبوا بآيات الله ، ووجه نظرهم إلى ما حدث لقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرس ، وقرونا بين ذلك ، كما وجه نظرهم إلى مصرع قوم لوط وهم يمرون على قريتهم المدمرة ، مستنكرا ألا يحرك قلوبهم منظرها ، وكل ذلك كان مقدمة لعرض استهزائهم بشخصه ﷺ ، وتناولهم على مقامه ﷺ ، فلم يلق الحق - تبارك وتعالى - البيان إليه بغتة ، بل مهد ببعض مواقف من سبقه ؛ ليتسع له صدره ، ولا يضيق بما يقولون ، كما قال سبحانه وتعالى في موقف آخر : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] ، ولذا أراد الحق - سبحانه - تثبيت قلب رسوله الكريم ﷺ على هذه الصور الساخرة منه ، المستهزئة به ، وبكل ما من شأنه تهوين قدره في نظر أتباعه ، وتحطيم جلال شخصه في أعين الناس ، وأنه لا يستحق منزلة النبوة .

وأول هذه الصور : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ، حيث جاءت في

صورة خبرية مشحونة بأساليب بلاغية متنوعة أعانت على كشف ما في قلوبهم تجاه رسول الله ﷺ ؛ حيث افتتحت بأداة الشرط ﴿ إِذَا ﴾ (١) ، والفعل الماضي ﴿ رَأَوْكَ ﴾ الدال على اليقين ؛ للدلالة على أن سخريتهم مشروط فيها الرؤية ، فكانوا كلما وقعت أعينهم عليه سخروا منه ، واشتركوا في ذلك ، ودار فيه الحديث بينهم جميعا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَتَّخِذُونَكَ ﴾ ، فكأنهم يقلبون النظر فيه باستمرار ، ويسخرون من كل شيء يتعلق به ؛ في حركاته وسكناته ، وما يتصل بذلك ، لذا أسند الفعل إلى ضمير الجمع وكاف الخطاب الدالة على انصباب جملة أقوالهم عليه ، ويؤازر ذلك ويعضده التعبير بالوصف ﴿ هُزُوًا ﴾ ؛ للمبالغة في استهزائهم به حتى كأنه نفس الهزء ، فضلا عن التأكيد الدال على العموم ، ثم تأكيد هذا القول بأؤكد الأساليب وأقواها ؛ وهو القصر الذي طريقه النفي والاستثناء ؛ حيث قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزوا ؛ للتشجيع عليهم بأن استهزاءهم به ملازم لهم في مجالسهم ومنتدياتهم ، ثم يأتي أبرز ما يخصص ذلك ويفسره وهو قولهم : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ حيث جاءت هذه الصورة بصيغة

الاستفهام الساخر بيانا لجملة ﴿ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ الخبرية ، وهي محكي بعد قول مضمرة تقديره : (يقولون أهذا الذي بعث) فبينهما شبه كمال اتصال ؛ لأن الجملة الثانية بمنزلة المتصلة بالأولى ؛ لكونها جوابا عن سؤال اقتضته الأولى ، فكأنه قيل : ماذا يقولون ؟

(١) (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان فيه معنى الشرط ، وجوابها : (إن يتخذونك إلا هزوا) ، وقيل الجواب محذوف تقديره : (قالوا : أهذا الذي بعث) ، وعلى هذا تكون جملة (إن يتخذونك إلا هزوا) معترضة ، والأول أولى ، وتكون جملة (أهذا الذي بعث الله رسولا) في محل نصب على الحال ، أي قائلين : (أهذا) ينظر : فتح القدير ٩٦ / ٩٧ .

فأجيب : يقولون أهذا الذي بعث الله رسولا ؟ ! " فكان بيانه بما هو من أقوالهم ومجادبتهم الأحاديث بينهم " (١) .

والغاية التي رمى إليها الكفار بهذه الجملة تحقير الرسول - ﷺ - والتهوين من شأنه ، فهو في منظورهم ليس أهلا للرسالة ، وفي مكة أو الطائف من هو أولى بها منه ، وذلك ما حكاه القرآن عنهم بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ، وقد استخدموا في التعبير عن هذه الغاية ألوانا من التراكيب والصور تتضافر لتحقيقها ؛ فقد جاءوا في صدر هذه الجملة بالاستفهام الإنكاري الذي ينم عن الاحتقار ، وأوردوا المسند إليه (اسم الإشارة للقريب) تنزيلا لقرب المكانة منزلة قرب المكان فقالوا : ﴿ أَهَذَا ﴾ ، وقد علق الدكتور أحمد بدوي على ذلك بقوله : " وكأن في اسم الإشارة للقريب ما يشير إلى أن هذا الشخص - القريب منا والذي نعلم من أموره - لا تقبل منه دعوى الرسالة ، ولا يليق به أن يذكر ألهتنا بسوء " (٢) . فالإشارة بقولهم : (أهذا) وما بعده تتضمن قمة التحقير ، وغاية الاستهزاء كأنهم لا ينكرون الله ، ولا ينكرون إرساله للرسول ، ولكنهم ينكرون صلاحية هذا الرسول لحمل رسالة الله إليهم ، وكأنه لا مانع لديهم من قبول هذه الرسالة والإيمان بها لو كان من يحملها ممن يروونه أهلا لها كما سبق .

ولذا أوردوا المسند اسما موصولا بدلا من اسمه الخاص به - ﷺ - للدلالة على معرفتهم به ولكون الصلة هي مناط الإنكار ، ولو عبروا باسمه فقالوا : (أهذا محمد) مثلا ؛ لما كان في ذلك ما ينم عن التهوين بشأنه إلا على وجه بعيد جدا لا يتراءى لمن يسمع كلامهم لأول وهلة وهم يريدون أن يتسابق اللفظ وما يراد به إلى أذن السامع وقلبه .

على أنهم لو استخدموا اسمه الخاص به لكان عليهم وفق مقتضى اللغة أن يأتوا بالصفة التي هي مناط الإنكار معرفة ، بأن يقولوا : (أهذا محمد الرسول) وفي التعريف على هذا النسق من التعبير إقرار ضمني برسالته ، وذلك أمر عكس ما يريدون ، ويحرصون على الفرار منه ، فالتنكير عون على التحقير .

وإمعانا في الاستهزاء به ﷺ أسقط العامل في الجملة الاستفهامية بأسرها ، كما أسقط العائد على الموصول في جملة الصلة ، والقرآن يحكي واقعهم ، إذ الأصل - كما هو ظاهر - أن يقال : (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا يقولون أهذا الذي بعثه الله رسولا) ، وكان ذلك مسارعة منهم إلى اللفظ المعبر عن السخرية ؛ لينطلق بقوة إلى الأذن نافذا منها إلى القلب ؛ فيتمكن منه أيما تمكن .

وقد استخدموا كل الوسائل التعبيرية المعينة على السخرية في تقديرهم ، وقد خاب مسعاهم لأن اسم الإشارة في أصل وضعه إنما يكون للمحسوس ، ويستخدم في الأمور المعنوية إذا كان من الوضوح والظهور على درجة تكاد تكون من الأمور المحسوسة ، وإنما كانت الخيبة ؛ لأنهم إن كانوا قد " استحقروا صورته فإنه أحسنهم خلقا ، وأعدلهم مزاجا ، وإن استهزأوا بالمعنى فإنه قد وقع التحدي بظهور المعجز عليه وقامت الحجة عليهم ، حين أصروا على

(١) التحرير والتنوير ٣٢ / ١٩ .

(٢) من بلاغة القرآن للدكتور : أحمد محمد بدوي - ص ١٣٥ - نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع - ٢٠٠٥ م .

الباطل بعد وضوح البرهان على الحق " (١) .

وفي التعبير بالفعل ﴿ بعث ﴾ دون الفعل الدال على صريح مرادهم كأن يقال : (زعم أو ادعى) سخرية واستهزاء به ؛ (لإخراج الكلام في معرض التسليم والإقرار ، وهم على غاية الجحود والإنكار ، ولو لم يستهزئوا لقالوا : أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا) (٢) .

وشبيه بهذه الصورة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] ، والفرق بين الصورتين أن كليهما تتشابهان في نفس الغرض ؛ وهو السخرية والاستهزاء بالرسول ﷺ وتحقيره ، وكلام المشركين في الحالتين مسوق مساق الغيظ والغضب من النبي ﷺ ، غير أن النص القرآني أظهر المسند إليه في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ، وأضمره في سورة الفرقان في قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَآكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ؛ لأنه ليس في آية الأنبياء ذكر للكفار قبل هذه الآية فصرح باسمهم ، أما في الفرقان فقد سبق ذكر الكفار ، فخص الإظهار بسورة الأنبياء ، والإضمار بالفرقان ، وهذا أغلب قول المفسرين (٣) ، وهو حق ، إضافة إلى ذلك فقد أظهر المسند إليه (الذين كفروا) وعرفه بالموصلية ؛ للتسجيل عليهم ، ودمهم بما في حيز الصلة .

كما أنهم سخرُوا من النبي ﷺ في سورة الأنبياء بقولهم : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ وفي سورة الفرقان قالوا : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ والسبب : " أنه لما تقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١] وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء من / ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾ [الأنبياء من / ٢٤] ، فتكرر ذكر مرتكبهم في اتخاذهم معبودات لا تغني عنهم ؛ فناسب قولهم : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أما آية الفرقان فقد تقدمها قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥ / ٢٣٩ .

(٢) ينظر : الكشاف للزمخشري بتصريف يسير ٩٣ / ٣ .

(٣) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ٢ / ٩٠١ ت : محمد مصطفى - الطبعة الأولى - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

وينظر : أسرار التكرار في القرآن لمحمود بن حمزة الكرمانى ١٧٨ - ت عبد القادر أحمد عطا وآخر - دار الفضيلة - القاهرة بدون تاريخ .

وينظر أيضا : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ١ / ٣٢٠ - ت محمد علي النجار - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ١٣٨٣ هـ .

هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴿ [الفرقان : ٧] ، فأنكروا كون الرسول من البشر ، فجرى مع ذلك ، وناسبه قولهم : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ تعجبا واستبعادا أن يكون الرسول من البشر " (١) .

وكما أسقط العامل في الجملة الاستفهامية في سورة الفرقان ، وكذا العائد على الموصول في جملة الصلة إمعانا في الاستهزاء به كما تقدم ، أسقط - لذات الغرض - متعلق المفعول به في سورة الأنبياء في قولهم : ﴿ يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ ﴾ ، والتقدير : (يذكر ءالتهكم بسوء) بقرينة المقام ، فحذفوا المتعلق عمدا ؛ لأنهم يعلمون ما يذكر به آلهتهم مما يسوءهم (٢) فلم يصرحوا بمتعلق الذكر - هنا - وجعلوه مخفيا قصدا إلى التعمية على المخاطب ، حتى لا يتصور أن آلهتهم مما يمكن أن تذكر بسوء ، ولذا أعقبه الله - تعالى - بجملة الحال الساخرة منهم ، الفاضحة لهم ولآلهتهم بقوله : ﴿ وَهُمْ يَذُكَّرُ الرَّحْمَنُ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ، فالغرض من هذه الجملة ليس الإخبار بأنهم كافرون بذكر الرحمن ، فذلك أمر واضح ، بل الغرض التعريض بغباوتهم ، وقلة عقولهم التي دعتهم إلى السخرية من النبي ﷺ وهو يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم ، وتأكدت هذه الفكرة في سورة الفرقان في مقام الرد عليهم ، في صورتين متتابعتين للسخرية منهم ؛ لتحطيمهم ونبذهم من محيط العقلاء ، ومحيط الأدميين :

- الأولى في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ وهي تمثل سخرية واستهزاء بهم بطريق التلويح ؛ فظاهر القول تنبيهاً إلى مجاوزة حد الصواب في ظنه ﷺ أنهم يعون ما يسمعون ويعقلونه ، ولكن باطنه نفي الوعي والإدراك ؛ ذلك أن ﴿ أم ﴾ متضمنة همزة الاستفهام الإنكاري الذي ينضح بالنفي والإضراب الانتقالي ؛ أعنى الانتقال من نفي كون هدايتهم والحفاظ عليهم موكولتين إليه إلى نفي السمع والعقل عن أكثرهم ، وفي ذلك من السخرية والاستهزاء ما فيه .

ولا يغيب عن عاقل أن المراد بنفي السمع والعقل نفي أثرهما ، وهو الانتفاع بما شأنه أن يسمع ويعقل ، وتبادرنا الدقة في القول في نفي السمع والعقل عن أكثرهم ، ذلك أن بعضهم كان يسمع ويعقل ، وينتفع بما يسمع ويعقل ، ناهيك عن استعمال الأفعال المضارعة ﴿ يسمعون - يعقلون ﴾ ؛ للدلالة على استمرار تغيب أسماعهم وعقولهم مع سلامة حواس السمع منهم .

(١) ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه متشابه اللفظ من أي التنزيل - للعلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ٢ / ٨٣٤ وما بعدها - ت سعيد الفلاح - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٢) التحرير والتنوير بتصرف يسير ١٧ / ٦٥ - ٦٦ .

والثانية : تصريح بالسخرية بعد التلويح بها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ**

أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وهي صورة ساخرة جاءت في نسق تعبيرى غاية في القوة ؛ ليدرك المتلقي في كل زمان ومكان أن هؤلاء المعنيين بالقول جديرون بالسخرية ؛ بل هم أكثر جدارة بها ، ولما كان هذا المقام من المقامات التي تتطلب الحزم والشدة ، وردع المخالفين ، وإزالة أو هام المعاندين ؛ استخدم أسلوب القصر الذي طريقه النفي والاستثناء ، وبناء على التشبيه ؛ ليكون أقوى في الدلالة ، وأخصب في الفكرة ، وأوجع لهؤلاء المشركين المستهزئين ، حيث قصر صفة مشابهة الأنعام على الذين كفروا إذا رأوا النبي ﷺ يتخذونه هزوا ، مما شأنه أن يقابل بالشك والإنكار ، ومن ثم كان تأكيدا لنفي السمع والعقل عنهم ، فكان جديرا بالقبول والتسليم ؛ ليكون بمنزلة الدليل على جدارتهم بالسخرية والاستهزاء .
وهكذا كان مزج التشبيه بأسلوب القصر مؤديا تلك الدرجة القصوى مما هم جديرون به .
على أنه لم يقف النص القرآني عند هذه الدرجة من القوة في السخرية ، بل جاوزها إلى

الإضراب الانتقالي بقوله : ﴿ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾ فأخرجهم من صفة الأدمية ووضعهم في موازنة بينهم وبين الأنعام والماشية ، بل إنه فضل الأنعام عليهم ؛ لأن الأنعام تؤدي الغرض الذي وجدت من أجله ، وتسلك السبيل التي أريدت عليها ، أما هم فينحرفون عنها .
وهكذا ترى الجمل تترادف سالكة مسلك الترقى في السخرية ؛ حيث جاءت جملة ﴿ **إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ** ﴾ تأكيدا لجملة ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ** ﴾ ثم جاءت جملة ﴿ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾ تذييلا غير جار مجرى المثل ؛ ليزيد مضمون الجملة تأكيدا .
يقول الزمخشري : " **فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الأنعام ؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تلطفها وتتعهد بها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها ، وتجتنب ما يضرها ، وتهدي لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي " (١) .**

ولذا استخدم أفعال التفضيل ﴿ **أضل** ﴾ ليبين أن جهل الأنعام بسيط غير مضر ، وجهل هؤلاء مركب مضر ، فحين تعاب الأنعام بهذه الصفة فهم أشد عيبا ، وأكبر ضلالا ، ولذلك فإن الأنعام خير منهم ، كما أنه عبر بالضمير ﴿ **هم** ﴾ بدلا من الاسم الظاهر (الكفار) ؛ استهجانا للتصريح بأسمائهم ، وتحقيرا لشأنهم ، وذلك عون على السخرية وتأكيد لها .

وهكذا تجد أن الله - عز وجل - في قرآنه واجه سخرية المشركين برسول الله - ﷺ - بسخريات أشد وأقوى ، وأفرغ عليها قوالب بلاغية متنوعة ، أعانت على إيصال الفكرة ، ما بين ألفاظ معبرة ، وتعبيرات مصورة ، وصور شاخصة ، وكان الاستفهام الإنكاري في طبيعة هذه الوسائل مما أدكى نار المواجهة ، كما كان للتشبيه وأساليب القصر المتنوعة وبخاصة أسلوب النفي والاستثناء - الذي هو أقوى في مقامات الإنكار والردع وإزالة أو هام المخالفين المستهزئين - دوره الكبير في هذه المواجهة .

ومن الآيات التي ورد فيها سخرية المشركين من النبي ﷺ - أيضا - قوله تعالى :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَىٰ غَيْبِ مَنَاصِرٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجْعَلُ الْأَلِهَةَ إِيَّاهَا وَجِدًا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَأَنْطَلِقُ الْأَمْثِلُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَلَمِ الْأُخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخِلِقُ ۝٧ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ ﴾ [ص : ١ - ٨]

وسبب نزول هذه الآيات : " أن أبا طالب لما مرض جاءته قريش ، وجاءه النبي ﷺ ، فشكوه إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك ؟ قال : أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم العجم الجزية كلمة واحدة ، قال ما هي ؟ قال : لا إله إلا الله ، فقالوا : إلهنا واحدا ؟! إن هذا لشيء عجاب ! فنزل فيهم : (ص والقرآن ذي الذكر ٠٠٠٠) " (١) .

وقد جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن قضية التوحيد ، وقضية الوحي إلى النبي ﷺ حيث تمثل مدى الدهشة ، والاستغراب ، والمفاجأة التي تلقى بها كبار المشركين في مكة دعوة الرسول ﷺ إلى توحيد الله ، وإخبارهم بقصة الوحي ، واختياره رسولا من عند الله عز وجل فتقولوا عليه ، وأسأوا له ، واتهموه بإتيان ما ليس له سند ، وتقولوا أيضا على القرآن ، ووصفوه بأنه اختلاق وكذب ، واستكبروا وأعرضوا عما بلغ به ، ولم يتعظوا بما حدث للقرون السابقة ، بل تعجبوا كيف يأتيهم نذير منهم ، واتهموه بالسحر والكذب ، وأنكروا أن يكون الإله واحدا ، ولكن الله طمأن رسوله الكريم ﷺ بأنهم مهزومون في نهاية المطاف ، وأن الشك والإنكار الذي يسيطر عليهم سيزول عندما يذوقوا العذاب يوم القيامة .

وبالتأمل في الآيات السابقة يتضح أن المشركين قد شنوا هجوما عنيفا على الرسول ﷺ حين دعاهم إلى عبادة الله وحده ، واستخدموا في هجومهم كافة الأسلحة المادية والمعنوية التي تحطم كيانه ، وتشوه صورته ؛ ليصرفوا الناس عن اتباعه ، ومن ذلك سلاح السخرية والاستهزاء ، الذي ورد في صيغ مختلفة ؛ أولها قوله - تعالى - واصفا حالهم : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ ، فعبر عن سخريتهم منه بطريق الإيحاء ، وإنكارهم أن يأتيهم رسول من جنسهم بل أدون منهم في الرياسة الدنيوية والمال بالمجاز المرسل الذي علاقه اللزوم في قوله : ﴿ وعجبوا ﴾ ؛ حيث أطلق العجب وأراد لازمه وهو الإنكار على معنى : (أنكروا أن جاءهم منذر منهم) على اعتبار أن الإنكار يستلزم التحقير ، والتحقير يستلزم السخرية ، وكما يقول أبو السعود : " عدوا ذلك أمرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع ، وأنكروه أشد الإنكار ، لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه " (٢) .

معاني المفردات : مناص : فرار (لسان العرب - نوص) ، اختلاق : كذب - (المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن - خلق) .

(١) لباب النقول في أسباب النزول - جلال الدين السيوطي ١ / ١٨٤ - دار إحياء العلوم - بيروت - لبنان - بدون تاريخ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ٧ / ٢١٤ .

والقرآن الكريم حين أورد هذه السخرية ، فإنما أوردتها تهويها من شأنها ، واستخفافا بها ، سواء في نظر هؤلاء الأعداء ، أو في نظر المسلمين أنفسهم ، والدليل على ذلك أنه جاء بفعل السخرية ﴿عجبوا﴾ ماضيا وأسنده لضميرهم ؛ لإثبات جرمهم ، وحكمهم الباطل ، وأنه قد وقع منهم بالفعل ، وذكر ضميرهم بدلا من الاسم الظاهر (الذين كفروا) ؛ استهجانا للتصريح بهم وأتى باسم الفاعل ﴿منذر﴾ بدلا من ﴿نذير﴾ " لإثبات أن تعجبهم من مطلق نذارته لا مبالغته فيها " (١) فهم ينكرون - في الأصل - أن يكون محمد نذيرا ، وصاغه في صورة الكناية عن الرسول ﷺ لإثبات رسالته وتقريرها في نفوس المنكرين المستهزئين .

ولم يكتف القرآن بذلك بل وصف الرسول ﷺ بـ ﴿منذر﴾ وأنه ﴿منهم﴾ ؛ للإشارة إلى سوء نظرهم من عجبهم " لأن شأن النذير أن يكون من القوم ممن ينصح لهم ، فكونه منهم أولى من أن يكون من غيرهم " (٢) . كما أنه جاء بلفظ ﴿منذر﴾ نكرة لتعظيم شأن الرسول ﷺ ، وإثبات رسالته ؛ ليقابل إنكارهم وتحقيرهم له ﷺ بمنتهى القوة ، وليرد كل سهم أطلقوه نحو الرسول ﷺ إلى نحورهم .

وفي قوله تعالى : ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ سخرية أخرى صريحة تكشف النقاب عن وجه العجب من بعثته ﷺ ، يحاول بها المشركون تهوين قدر النبي ﷺ ، وإبعاد صفة النبوة عنه بحجج وأباطيل هي - في حقيقة الأمر - واهية ، فقد أشاروا إلى الرسول ﷺ باسم الإشارة ﴿هذا﴾ سخرية ، واستهزاء ، وتحقيرا ، واستعملوا اسم الإشارة للقريب ؛ تنزيلا لقرب المكانة منزلة قرب المكان ، ودلالة على قرب عهدهم بحضور رسول الله ﷺ ؛ لأنه كان حاضرا معهم في مجلس أبي طالب ، فكأنه كان حاضرا حين الإشارة إليه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل زادوا في السخرية منه ﷺ بأقصى ما تحمله الألفاظ من تهوين وتحقير بقولهم : ﴿هذا ساحر كذاب﴾ ؛ حيث وصفوه بالسحر ، وبصيغة المبالغة ﴿كذاب﴾ ؛ للدلالة على كثرة كذبه - في اعتقادهم - وادعائه الرسالة عن الله كذبا ، حيث عدوه مباهتا لهم بقلب الحقائق ، والإخبار بخلاف الواقع ، وأتوا بالخبر خاليا من أي مؤكدات ليبيّنوا أن ما قالوه حقيقة مجردة لاشك فيها ، ولا يحتاج المتلقي معها لمؤكدات ، وقد خاب مسعاهم ؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن ما قالوه عن النبي ﷺ إنما هو محض افتراء منهم ؛ لتيقنهم أن الرسول ﷺ ليس بساحر ولا كذاب ، لذا أورد القرآن هذه السخرية بصيغة الخبر الخالي من التأكيد - كما قالوها - للدلالة على أنها غير ذات شأن ، ولا قيمة لها ، بل وصفهم بأنهم ﴿الكافرون﴾ ليقابل ما وصفوا به النبي ﷺ من أنه ساحر وكذاب ، حيث إن وصفهم بالكفر أشد ؛ لأنه جماع فساد الأعمال ، وفساد التفكير كما أنه صاغها معرفة ؛ ليحيل الأنظار إلى فئة معينة من الكافرين ؛ وهم الحاضرون في مجلس أبي طالب ، وأتى بالوصف على صيغة اسم الفاعل للدلالة على بلوغهم في الكفر

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٩ / ١١٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٠٩ .

مبلغا بعيدا ، ناهيك عن وضع الاسم الظاهر **«الكافرون»** موضع الضمير ، وكان مقتضى الكلام أن يقال : **«وقالوا»** بالعطف على **«وعجبوا»** ؛ وذلك إظهارا للغضب عليهم ، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر ، المنهمكون في الغي (١) ، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد بدوي : " إن القرآن أظهر الذين كفروا بدلا من الإتيان بضمير يعود عليهم ؛ لما في ذلك من إبرازهم متعنتين جاحدين ، لا يراعون ما يجب أن يكون للحق من حسن القبول والرضا به ، والاطمئنان إليه ، وفي ذلك تشنيع عليهم وتصوير لمدى ضلالهم ومكابرتهم " (٢) .

وفي قوله تعالى على لسان الكافرين : **«أجعل الآلهة إلها واحدا»** سخرية ثالثة من النبي ﷺ معلقة لقولهم في الآية السابقة : **«هذا ساحر كذاب»** ، وقد حُشد فيها - مع إيجازها - ألوان من التعابير والأساليب البلاغية التي جعلها بالغة أقصى القوة في التعبير عن مكنون أنفسهم الخبيثة الرافضة للتوحيد ، حيث بدأت بالاستفهام الإنكاري التعجبي من نهيهِ ﷺ عن اتخاذ الشركاء والأنداد ، وأمره بإخلاص العبادة لله وحده ، وجاءت هذه الجملة بيانا لجملة **«هذا ساحر كذاب»** ، وفصل بينهما لشبه كمال الاتصال ، حيث جاءت الجملة الثانية بمنزلة المتصلة بالأولى ؛ لكونها جوابا لسؤال اقتضته الأولى ، فنزلت جملة **«هذا ساحر كذاب»** منزلة السؤال كأنه قيل : لم قلت عنه ذلك ؟ وجاءت الثانية جوابا في صيغة استفهام ساخرة يفوح منها الإنكار والتعجب .

وقد تضافر مع هذه الجملة الاستفهامية أساليب ، وتعبيرات فنية أخرى كشفت عن تلك المعاني الموحية ، والمؤثرة ، والتي تزيد الأسلوب الساخر ثراء وقدرة على التأثير في نفوس المتلقين :

- **أولها** : حذف فاعل **«أجعل»** حذفاً متعمداً ، وكان عليهم وفق مقتضى اللغة أن يقولوا : (أجعل محمد أو الرسول الآلهة إلها واحداً) فحذفوه قصداً إلى تحقيره ﷺ ، وإظهاراً عدم الاعتراف به وبرسالته ؛ لأنه ساحر وكذاب على حد زعمهم .

- **ثانياً** : إيراد الآلهة التي يعبدونها جمعا ومعرفة ؛ لتعظيمها ، ولأنها معروفة عندهم على الرغم من كثرتها ، واختلاف أشكالها وأسمائها ، وفي المقابل ذكر الإله الذي يدعو إليه سيدنا محمد ﷺ مفردا ونكرة ؛ لعدم اعترافهم به .

- **ثالثاً** : مجيء جملة **«إن هذا لشيء عجاب»** اسمية خبرية مؤكدة بإن واللام ؛ لتأكيد الإنكار والتعجب ، والسخرية من وحدة الإله .

- **رابعاً** : العدول عن صيغة (عجيب) إلى (عجاب) - وهي أشد عجا من عجيب ؛ للمبالغة في ذلك الإنكار والتعجب ، وتصوير مدى دهشتهم من حقيقة التوحيد على الرغم من أنها حقيقة فطرية قريية .

- **خامساً** : الإشارة لدعوة النبي ﷺ إلى التوحيد باسم الإشارة **«هذا»** ، ووصفه بأنه **«شيء»** نكرة ؛ لمزيد من الإنكار الشديد والتحقير ، والسخرية .

- **سادساً** : تأكيد فكرة مجاوزة الحد في العجب عن طريق جناس الاشتقاق بين **«عجبوا وعجاب»** .

(١) ينظر : الكشاف - ٧٤/٤ .

(٢) من بلاغة القرآن ص ١٠٦ .

وعلى الرغم من بذلهم غاية الجهد في إنكارهم وتحقيرهم لما جاء به النبي ﷺ وسخريتهم من دعوته إلى عبادة الله وحده ، وتنويعهم الأساليب بين الخبر والإنشاء ؛ لجذب انتباه السامع ، وتحريك ذهنه وفكره ، ومحاولة إقناعه بفكرتهم الداعية إلى عدم التفريط في آلهتهم ، فقد خابوا وخسروا ؛ لأن القرآن حين نقل عنهم تعجبهم في لفظة (عجاب) وسخريتهم في قولهم بعد ذلك (ما سمعنا بهذا) وقولهم (أنزل عليه الذكر من بيننا) ، فإنه أوحى من طرف خفي بالاستخفاف بعقولهم ، وسخر من تعجبهم من حق واضح لا تنازع فيه العقول السليمة .

ثم إن تأكيدهم للجملة الخبرية ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ بثلاثة مؤكدات إنما جاء ؛ لتثبيت ضعفائهم بأنهم على غاية الثقة والاعتقاد فيما يقولون ، والحق أن مناط إنكار المخاطب - وكل منصف عاقل - إنما هو موجه - في الأصل - لقول الكافرين عن التوحيد (إن هذا لشيء عجاب) فالعجب كل العجب ممن يقبل عقله أن يكون الإله أكثر من واحد ، فالجملة فيها سخرية وتهكم منهم بطريق الإيحاء .

وفي قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ أنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ صورة رابعة من صور السخرية ؛ حيث استنكروا وسخروا أن يخص الله رسوله بمزية النبوة ، وبإنزال القرآن الكريم عليه دونهم ، بأسلوب إنشائي استفهامي هو غاية في السخرية والتحقير ؛ لأنهم قالوا : " النبوة أشرف المراتب فوجب ألا تحصل إلا لأشرف الناس ، ومحمد ليس أشرف الناس ، فوجب أن لا تحصل له النبوة " (١) ، والحقبة أن مناط الإنكار والاستهزاء هو الطرف ﴿ من بيننا ﴾ (٢) ؛ لأنه هو المحكي في قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] أي من مكة أو الطائف .

وإمعانا في السخرية والاستنكار لم يكتفوا بالاستفهام مجردا ؛ بل صاغوه في عبارة دقيقة معبرة عن مكنون نفوسهم المليئة بالحقد والحسد ؛ فقد استعملوا الضمير في ﴿ عليه ﴾ دون التصريح باسمه ﷺ استهجانا ، واستصغارا ، واستهزاء ، وقدموا الجار والمجرور ﴿ عليه ﴾ على ﴿ الذكر ﴾ ؛ لأن متعلقه هو مناط الإنكار ، وأيضا لإظهار شدة غيظهم وحنقهم من اختصاصه بالرسالة دونهم ، وهذا بلا شك عون على السخرية . ثم إنهم كنوا عن القرآن الكريم بـ ﴿ الذكر ﴾ ليوحي بمرادهم من عدم إنكار كونه منزلا من عند الله تعالى ، وهذا دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد ، وقصر النظر على الحطام الدنيوي (٣) ، وقولهم هذا امتداد لقول قوم صالح له : ﴿ أَمْ لَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴾ [القمر : ٢٥] .

ولذا رد الله - سبحانه وتعالى - هذه السخرية بتعبير في ظاهره الهدوء ، وفي باطنه خيرٌ

(١) مفاتيح الغيب ص ١٥٧ .

(٢) ينظر : روح المعاني ٢٣ / ١٦٨ .

(٣) ينظر : روح المعاني ٢٣ / ١٦٨ .

يدوي في كل سمع ، ويقفز في كل قلب بقوله : ﴿ **بل هم في شك من ذكرى** ﴾ (١) بالإضراب عن الكلام السابق ، وتحويله من الحديث عن حسد الكفار للرسول ﷺ واستهزائهم به إلى الحديث عن شكهم في الذكر ، وهي سخرية موحية بأن سخريتهم السابقة لا قيمة لها ، بل إنها أتفه من أن يُرد عليها ؛ لأنها مبنية - في الأصل - على الحقد والحسد ، ثم ختام الآية بسخرية أخرى من هؤلاء المشركين بقوله تعالى : ﴿ **بل لما يذوقوا عذاب** ﴾ حيث جاءت في نسق تعبيرى أكثر قوة من سابقتها ، وتتمثل هذه القوة في الإضراب بـ (بل) والذي يبين " أن الذي جراًهم على هذا الشقاق ؛ أنهم لما تأخر حلول العذاب بهم ظنوا وعيده كاذبا ، فأخذوا في البذاءة والاستهزاء ، ولو ذاقوا العذاب لألقت أفواههم الحجر " (٢) ولذلك عبر بـ ﴿ **لما** ﴾ والفعل المضارع ﴿ **يذوقوا** ﴾ ؛ للدلالة على أن ذوقهم العذاب على مشارف الوقوع ، ثم تشبيه هذا العذاب بطعام أو شراب مر المذاق على سبيل الاستعارة المكنية ؛ للإيحاء بشدته وهوله وأنهم لا يطبقونه ، ناهيك عن المبالغة في التشبيه ، والإيجاز المتأتى من تركيز العبارة في ألفاظ قليلة ؛ والذوق المستعار للإهانة والسخرية ، وفيه رد على السخرية من رسول الله ﷺ ، وتسليية له ضد هؤلاء الكافرين المستهزئين .

ومن سخرية المشركين - أيضا - من رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون (٥١) وما هو إلا ذكر للعالمين (٥٢)** ﴾ [القلم : ٥١ - ٥٢] .

وسبب نزول الآية الأولى : " أن الكفار عندما أرادوا أن يعينوا رسول الله ﷺ فيصيبوه بالعين ، نظر إليه قوم من قريش فقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حجه ، وكانت العين في بني أسد ، حتى إذا كانت الناقة السمينه ، والبقرة السمينه تمر بأحدهم فيعاينها ، ثم يقول يا جارية خذي الممثل والدرهم فأئتينا بلحم من لحم هذه ، فما تبرح حتى تقع بالموت . وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به النعم فيقول ما رُعي اليوم إبل ولا غنم أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قريبا حتى يسقط منها طائفة هالكة ، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك ، فعصم الله - تعالى - نبيه - وأنزل هذه الآية : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم..... الآية) " (٣) .

(١) هذه الجملة يجوز أن تكون جوابا عن قوله : ﴿ **أنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ أي : ليس قصدهم الطعن في اختصاصك بالرسالة ، ولكنهم شاكون في أصل إنزاله . وعلى الكلام السابق تكون ﴿ **بل** ﴾ للإضراب الإبطالي التكميلي ، ويكون معنى ﴿ **في شك من ذكرى** ﴾ : أي شكاً من وقوع ذكرى . وحينئذ يكون في ﴿ **شك** ﴾ مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد ؛ حيث أطلق الشك على اليقين مجازاً ، والمعنى ﴿ **في يقين** ﴾ فيكون من باب قوله تعالى : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ . الأنعام : ٣٣ .

ويجوز أن يكون انتقالاً من خبر عنهم إلى خبر آخر فيكون استثناء ، وتكون ﴿ **بل** ﴾ للإضراب الانتقالي ، ويكون المعنى (وهم في شك من ذكرى) ، أي في شك من كنه القرآن فمرة يقولون افتراه ، ومرة يقولون شعر ، ومرة سحر ، ومرة أساطير الأولين الخ فيكون ﴿ **الشك** ﴾ هنا على حقيقته ، مراداً به التردد في العلم . (ينظر : التحرير والتنوير ٢٣ / ٢١٤) .

(٢) السابق ، الصفحة نفسها .

يزلقونك بأبصارهم : من حدة نظرهم حسدا يكادون ينحونك عن مكانك (مقابيس اللغة - زلق) .

(٣) أسباب النزول - أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري - تدقيق عصام عبد المحسن الحميدان - ٤٤٣ - الطبعة الثانية - دار الإصلاح - الدمام - ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م .

وهاتان الآيتان ترسمان مشهدا للكافرين ، وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم ﷺ في غيظ عنيف ، وحسد عميق ، ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة ، يوجهونها إليه ، مع مصاحبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح ، والشتم البذيء ، والسخرية المستهجنة .

ولما كان الحسد والبغض من أهم أسباب ودواعي السخرية ؛ حيث إن الحاسد يريد أن يرى المحسود أقل درجة ، وأسوأ حالا ، فيسخر منه ، ويستهزئ به ؛ ليهينه ، وينقص من قدره ، جاءت هاتان الآيتان من سورة القلم شاهدا ودليلا على ذلك ، فقد أدى حسد المشركين لرسول الله ﷺ ، إلى السخرية منه بقولهم : **﴿ إنه لمجنون ﴾** ، وقد جاءت هذه الجملة - على قصرها - كاشفة عن البغض والحسد الذي يملأ قلوب هؤلاء الكافرين تجاه رسول الله ﷺ ، وبالتأمل فيها تجد أنهم صاغوها في ألفاظ قليلة ؛ قصدا إلى الوصول إلى أذن السامع وقلبه ، فضلا عن التأثير عليه من أقصر الطرق وأسرعها ، حيث أكدوا جملة السخرية بثلاثة مؤكدات : الاسمى وإن واللام ؛ وقد فعلوا ذلك ؛ لعله يرتدع عن الاستمرار في دعوى النبوة عن طريق اغتيال معنوي بوصفه بالجنون ، أو لأنهم موقنون في أنفسهم أن وصفهم لرسول الله ﷺ بالجنون ، ونسبته إلى الجن خبر منكر ، بل شديد النكران ، وأنه - ﷺ - في غاية البعد عما يشينه ، فأكدوها للسامع قصدا إلى إقناعه بما يقولون . ثم وضعهم الضمير في **﴿ إنه ﴾** موضع الاسم الظاهر ؛ فلم يقولوا : (إن الرسول لمجنون) أو (إن محمدا لمجنون) استهجانا للتصريح باسمه ﷺ ، واستصغارا ، واستهزاء به ، وهو نتيجة حتمية للاحتقار المتأني من إيراد الوصف (مجنون) نكرة .

ليس هذا فحسب ؛ بل إنهم أعادوا الضمير في **﴿ إنه ﴾** على الرسول ﷺ دون **﴿ الذكر ﴾** لأن الرسول ﷺ هو مرمى الغرض ، وهو المقصود بالسخرية ، حيث إنهم لم يجدوا في الذكر الذي يسمعون مدخلا للطعن فيه ، فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه ﷺ بقولهم : **﴿ إنه لمجنون ﴾** وهذه السخرية - في حقيقة الأمر - مرتبطة بما قبلها ونتيجة لها ، بدايتها الحسد الذي يؤدي إلى الإزلاق ، ونهايتها هذا القول (إنه لمجنون) ، وسماعهم للذكر - الذي هو كناية عن القرآن الكريم - وهو أشرف أنواع الكلام - هو الذي حفزهم لذلك ، بدليل مجيء الفعل الماضي **﴿ سمعوا ﴾** مقترنا بـ **﴿ لما ﴾** ؛ " للإشارة إلى أنه قد حصل منهم ذلك بالفعل ، وليس مجرد فرض " (١) ، فسماع الذكر كان سببا للحسد المخبر عنه بقوله تعالى : **﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾** وقد جاء بصيغة خبرية ؛ ليوضح للنبي ﷺ ما في صدورهم من الغل والحقد والحسد نحوه ؛ ليحذر منهم ، وقد ورد هذا الخبر بالصيغة التي تخدم الغرض الذي سبق من أجله ؛ وهو التأكيد على الحسد الصادر منهم ، والذي هو - في الوقت ذاته - السبب الرئيس في السخرية ؛ حيث بُدئ **﴿ إن ﴾** المخففة من الثقيلة (٢) ؛ للتأكيد على شدة عداوتهم وحسدهم ، وأُتبع بالفعل المضارع **﴿ يكاد ﴾** والمسند إليه **﴿ الذين كفروا ﴾** بإظهار الاسم بدل الضمير ، فلم يقل : (يكادوا) ؛ للتسجيل عليهم ، وفضح أمرهم أمام الرسول ﷺ ؛ لياخذ الحيطة والحذر منهم ومن عداوتهم ، فضلا عن أن التعبير بـ **﴿ يكاد ﴾** فيه دلالة على التجسيد ، بمعنى أن أبصارهم اقتربت أن تكون سهاما حادة من شدة حرصهم على إيدائه ، فهم ينظرون إليه شذرا ، بحيث يكادون يسقطونه ويصرعونه ، ثم يكون بعد ذلك أضحوكة أمامهم ، يتفكحون بها ، ويسخرون منها .

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ١٠٨ .

(٢) (إن) في الآية مخففة من الثقيلة بدليل دخول اللام الفارقة على خبر (يكاد) بعدها ، لأن اللام الفارقة لا تدخل بعد (إن) النافية .

ثم حُتِمَ بهذا التصوير الفائق المتمثل في الاستعارة المكنية ﴿ لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ ، والتي تصرح بأن الحقد والحسد عند هؤلاء الكافرين قد بلغ المدى ؛ حيث شبه الأبصار بالسهام الحادة ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الفعل (يزلقونك) ؛ للدلالة على أن شدة تحديقهم ، ونظرهم إلى النبي ﷺ شذرا بعيون العداوة والبغضاء يكاد يزل قدمه ويسقطه ، فلا يستقر على الأرض ، وحينئذ يكون عرضة للسخرية منه ، فيثبتون قولهم عنه (إنه لمجنون) ، وهو مثل قولهم في موطن آخر : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦]

والسخرية في الموضوعين آتية من اعترافهم بنزول القرآن الكريم على رسوله ﷺ ، ثم وصفه بالجنون ، مع أنهم قد علموا عنه ﷺ كمال القول والفعل . وإنما وصفوه بالجنون " لتوهمهم أن ادعاء نزول الوحي عليه لا يصدر من عاقل ؛ لأن ذلك عندهم مخالف للواقع ، توهما منهم بأن ما لا تقبله عقولهم التي عليها غشاوة ليس من شأنه أن يقبله العقلاء ، فالداعي به غير عاقل " (١) .

والفرق بين الصورتين ؛ أن السخرية في سورة القلم ﴿ إنه لمجنون ﴾ جاءت بضمير الغائب للإعلام بأن السخرية منه ﷺ كانت ملازمة لهم في مجالسهم ومنتدياتهم ؛ بل مسيطرة عليهم ، نتيجة الحقد والحسد ؛ وما زالت تعلق حذتها في نفوسهم وتعلو حتى انتقلت من مجالسهم إلى المواجهة الصريحة له ، والخطاب المباشر بقولهم في غيظ وحنق ، وبكل سخرية واستهزاء ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، مستعملين نفس الصيغة السابقة في سورة القلم بكل مؤكداتها ، مع تحويلها من الغيبة إلى الخطاب المباشر له ؛ وهذا إنما يدل على أن الغيظ من النبي ﷺ قد جاوز المدى ، ولذلك أوردوا هذه السخرية بصيغة الخطاب ، فضلا عن أنهم جاءوا في صدر هذه الجملة بالنداء ﴿ يَا أَيُّهَا ﴾ ؛ للتشهير بالوصف المنادى به ، وعبروا عنه باسم الموصول ﴿ الَّذِي ﴾ ؛ لزمه بما في حيز الصلة من المعنى الذي جعلوه سببا للتهكم ؛ وهو الجنون ، وبما أن سورة القلم سبقت سورة الحجر في النزول (٢) ، فإن ذلك ربما يفسر السبب في حدة السخرية الصادرة منهم في الثانية عن الأولى .

ولكن بُعداً لهم وسحقاً ، والله مؤيِّدُهُ وناصرُهُ ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ

مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة من ٦٧ /] ؛ فقد رد حكمهم الباطل وسخريتهم منه ، ببيان علو شأنه ، وسطوع برهانه بقوله في سورة القلم : ﴿ وَمَا هُوَ (٣) إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ مبطلاً ما قالوه من اتهام ساذج بدائي ، لا حُبْكة فيه ولا براعة ، بأساليب بلاغية بارعة ؛ مركزة في جملة قصيرة ، تمثل في فحواها سخرية من هؤلاء الكافرين ، سخرية هادئة واثقة لكنها موجعة ، حيث وصل هذه الجملة بالجملة السابقة ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ للتوسط بين الكمالين ؛ حيث اتفقت الجملتان في المعنى الخبري ، ووجدت المناسبة بينهما فصح الوصل ؛ للتأكيد على بطلان زعمهم بأن الرسول ﷺ مجنون ، إذ كيف يوصف الرسول ﷺ بالجنون ، وقد ثبت أنهم لا ينكرون الذكر بدليل

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ١٦ .

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي - ١٩٣ - ت : محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة دار التراث - القاهرة - بدون تاريخ .

(٣) الضمير إما أن يعود إلى (الرسول) ﷺ فيكون المعنى : أنه مُذَكَّرٌ وشرف للعالمين لا ريب . وإما أن يعود إلى (الذكر) فيكون المعنى : إن القرآن ذكر للعالمين ؛ أي تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، وقيل معناه : شرف وفضل ؛ لقوله تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) وعموم العالمين (ينظر : التحرير والتنوير ٢٩ / ١٠٩) .

آية الحجر السابقة ، فإذا ثبت أن القرآن ذكر بطل أن يكون مبلغه مجنون ، وهذا من قبيل الاحتباك إذ التقدير : ويقولون إنه لمجنون ، وإن القرآن كلام مجنون ، وما القرآن إلا ذكر ، وما أنت إلا مذكر (١) ثم تأكيد ذلك الاستدلال العقلي عن طريق قصر القلب ؛ لإثبات عكس ما يقول المشركون من أن الرسول ﷺ مجنون ؛ فقد قصر القرآن أو الرسول علي الذكر - أي الموعظة والشرف - قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقياً تحقيقياً ، لبيان أن ما قاله المشركون عن الرسول ﷺ إنما هو افتراء وكذب منبعه الحقد والحسد . ثم إثبات أنه مبعوث ومذكر ﴿ للعالمين ﴾ ليشمل الجن والإنس معاً ، رداً علي المشركين الذين نسبوا الرسول ﷺ إلى الجن في قولهم : ﴿ مجنون ﴾ ، إذ كيف ينسبونه إلى الجن مع أنه مبعوث للجن والإنس معاً ، ودعوته عالمية كما هي طبيعتها وحقيقتها ، منذ بدايتها في مكة ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!!

ومن الشواهد المتعلقة بالرد على السخرية من رسول الله ﷺ أيضاً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا

أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۗ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۗ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۗ ﴾ [الكوثر ١-٣] (*).

وعلاقة هذه السورة بما قبلها أنه لما ذكر الله - عز وجل - في سورة الماعون وصف المنافق بالبخل ، وترك الصلاة ، والرياء ومنع الزكاة قابل في هذه السورة بالبخل بـ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، والسهو عن الصلاة بقوله : ﴿ فصل ﴾ ، والرياء بقوله : ﴿ لربك ﴾ ، ومنع الزكاة بقوله : ﴿ وانحر ﴾ ؛ أراد به التصدق بلحم الأضاحي ، فقابل أربعا بأربع (٢).

وسبب نزولها عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم ، ألا ترى إلى هذا المتصبر المنتبر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، وأهل السداية ، قال : أنتم خير منه فنزلت (إن شانئك هو الأبتر) وعن عكرمة قال : لما أوحى إلى النبي ﷺ قالت قريش : بتر محمد منا فنزلت (إن شانئك هو الأبتر) وعن أبي حاتم قال : كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل بتر فلان ، فلما مات ولد النبي ﷺ قال العاص بن وائل بتر محمد فنزلت ، وعن ابن عطية قال : كان عقبة بن أبي معيط يقول : إنه لا يبقى للنبي ﷺ ولد ، وهو أبتر فأنزل الله فيه : (إن شانئك هو الأبتر) (٣).

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢٩ / ١٠٩ .

(*). الكوثر : " فوعل من الكثرة ، وصف به للمبالغة في الكثرة ٠٠٠٠٠ والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثرًا ٠٠٠ والمعنى على هذا : إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية ، وذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدي إلى أن الكوثر نهر في الجنة ، وقيل : هو حوض النبي - صلى الله عليه وسلم - في الموقف قاله عطاء وقال عكرمة : الكوثر : النبوة ، وقال الحسن : هو القرآن ، وقال الحسن بن الفضل : هو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع ، وقال أبو بكر بن عياش : هو كثرة الأصحاب والأمة ، وقال ابن كيسان : هو الإيثار ، وقيل : هو الإسلام ، وقيل : هو رفعة الذكر ، وقيل : نور القلب وقيل : الشفاعة ، وقيل : المعجزات ، وقيل : إجابة الدعوة ، وقيل : لا إله إلا الله ، وقيل : الفقه في الدين ، وقيل : الصلوات الخمس . والراجح أنه نهر في الجنة كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم . (لسان العرب - كثر).

والشأن المبعوض ، من الشئان ، وهو العداوة والبغض . (مقاييس اللغة - باب الشين والنون وما يتلثهما).

الأبتر : يقال للرجل الذي لا عقب له ، وكل من انقطع من الخير أثره فهو أبتر (مقاييس اللغة - باب الباء والتاء وما يتلثهما) والأبتر المقطوع الذنب من أي موضع كان من جميع الدواب (لسان العرب - بتر).

(٢) تناسق الدرر في تناسب السور - للحافظ جلال الدين السيوطي - دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا - ص ١٤٤-١٤٥ - بتصرف - الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤٠٦ - ١٩٨٦ م .

(٣) ينظر : لباب النقول في أسباب النزول ٣٠٨ - ٣٠٩ .

وقد جاءت هذه السورة رداً على الكافرين الذين وسموا النبي ﷺ بأنه أبتّر لا ولد له ، فبشره الله - عز وجل - بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، حيث أعطاه الله الكوثر ، وهو نهر في الجنة ، وأمره بأن يشكره على ذلك بالإقبال على عبادته ؛ لأن ذلك هو الكمال الحق ، لا ما يتناول به المشركون على المؤمنين بالثروة والنعمة ، وهم مغضوبٌ عليهم من الله - تعالى - لأنهم أبغضوا رسوله ﷺ ، وغضبُ الله بئراً لهم ، إذ كانوا بمحل السخط منه سبحانه وأن انقطاع الولد الذكّر ليس بئراً كما يدعي هؤلاء المشركون ؛ لأن ذلك لا أثر له في كمال الرسول ﷺ وفضله .

ولما كان العاص بن وائل ، يعيّر النبي ﷺ - بأنه لا ولد له يعقبه ، وأنه بموته ينقطع ذكره وتنقضي سيرته ، ويقول : إنه أبتّر ، فعمدت سخرية القرآن في قوله تعالى : ﴿ **إن شانئك هو الأبتّر** ﴾ إلى الرد بمنتهى القوة على هذا العدو البذيء ، عن طريق تشبيهه بهذا الوصف البالغ النكر ، ثم أخذ هذا الوصف وإقرانه بوصف آخر شنيع يشبّه به وهو الحمار الأبتّر ؛ أي المقطوع الذنب (١) ، حيث شبه القرآن شاني النبي (العاص بن وائل) بالحمار المقطوع ذنبه ، تشبيهاً بليغاً مؤكداً مجملاً ، وهو تشبيه منسب على بيان غياب هذا الرجل ، وتفاهة تفكيره كالحمار الأبتّر ، وهذا التشبيه من المبالغة بمكان ؛ لأنه مبني على دعوى الاتحاد والقرب بين الطرفين في وجه الشبه ، حتى كأنهما صاراً شيئاً واحداً ؛ لأنه مؤكّد بحذف الأداة ، ومجمل بحذف الوجه ، ليعاد بين الذهن وقصد التشبيه ، وليومئ بأن المشبه هو عين المشبه به دون فارق بينهما ، وبرغم أن هذا التشبيه مفرد ، إلا أنه حسن بمقدار ما فيه من حسن ، وما أضمره من معنى ساخر - بل شديد السخرية - من شاني النبي ﷺ ؛ لأنه جاء عقب نعمة من أعظم نعم الله - تعالى - على رسوله الكريم ﷺ ، وهي الكوثر ؛ فكما أن الكوثر خصوصية له ﷺ ، ورفعة له في الدنيا والآخرة ، فالأبتّر سمة لهذا الشاني ، وتجليّة منزلته ومكانته في الدنيا والآخرة ، وفضح شأنه ، وكيفي وسمه بوصف معروف للحمار المقطوع الذنب ، ويجوز أن يكون الكلام ليس على سبيل التشبيه ، وهو الأقرب ؛ لأن الأبتّر هو المقطوع عن الخيرات كلها ، وهذا ما قاله جل المفسرين ، وهذا هو المتبادر .

" وإن كان الحمار في أذهان العرب من النكر والقبح بهذه الدرجة ، والتشبيه به يبلغ أقصى ما يراد به من إهانة وتحقير ، فإن الحمار إذا كان ذا عاهة يكون أشد قبحاً ، وأكثر تنفيراً والتشبيه به وهو معيب الجسم أكثر إهانة وأبلغ تقبيحاً " (٢) وسخرية القرآن من شاني النبي ﷺ لم تأت على صورة التشبيه البليغ المؤكّد فقط ، بل تعانقت معه صور وتعبيرات بلاغية أخرى أعانت على رسم هذه الصورة القبيحة لهذا الشاني الكافر :

أولها : القصر والاختصاص في قوله ﴿ **هو الأبتّر** ﴾ بضمير الفصل ؛ حيث قصر صفة الأبتّر على الموصوف وهو شاني النبي - صلي الله عليه وسلم - قصر المسند على المسند إليه وهو قصر قلب : أي هو الأبتّر لا أنت يا محمد ، والغرض من هذا القصر : إثبات صفة الأبتّر لشاني النبي ونفيها عنه صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : تأكيد جملة ﴿ **إن شانئك هو الأبتّر** ﴾ بأن وضمير الفصل ؛ للاعتناء بشأن مضمونها ، وتأكيد الدفاع عن النبي ﷺ ، ونفي هذه الصفة عنه ، وإثباتها لشانئه .

(١) ينظر تفسير الكشاف ٤ / ٨١٣ .

(٢) أسلوب السخرية في القرآن الكريم - د : عبد الحليم محمد حفني - ١٤٨ .

ثالثاً : التعبير بـ **« الأبتَر »** دون **« المبتور »** : للمبالغة في ذم هذا الشائئ بكل المعاني التي تنطوي عليها هذه الصفة في أصل اللغة فلا عقب له ، ولا خير فيه ، وأنه كالحمار المقطوع الذنب ، وأنه خاسر في الدنيا والآخرة .

رابعاً : لما كان قوله **« إن شانئك هو الأبتَر »** إبطالا لقول العاص بن وائل (محمد أبتَر) ، فكان هذا الإبطال ضربا من الأسلوب الحكيم (١) .

خامساً : الفصل بين جملة **« إن شانئك هو الأبتَر »** والتي قبلها **« فصل لربك وانحر »** لكمال الانقطاع بلا إيهام ؛ حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاء ، لفظا ومعنى ، لبيان البون الشاسع بين الرسول ﷺ وشانئه ، فرقٌ بين حقيقة الهدى والخير والإيمان ، وحقيقة الضلال والشر والكفر فالرسول ﷺ سيبقى له في الدنيا الذكر الجميل ، وفي الآخرة الثواب الجزيل ، أما المنافق الذي سب النبي ﷺ سيموت ، ولا يبقى له بعد موته أثر ولا خبر .

خلاصة القول :

إن الشواهد السابقة لسخرية المشركين من رسول الله ﷺ تنوعت في صياغتها وأهدافها ، والقرآن الكريم حين عرض هذه السخريات ، إنما عرضها من باب الاستهانة بها ، والاستخفاف بشأنها ؛ لأنها كانت موجهة في المقام الأول لتهوين قدر الرسول ﷺ والتحقير من شأنه في نظر أتباعه ، ومحاولة إبعاد صفة النبوة عنه ، عن طريق اتهامه بالسحر ، والشعر ، والكهانة ، والجنون والكذب ، وغير ذلك من الصفات المنكرة ، ولكن كان رد القرآن على هذه السخريات أقوى وأشد ؛ حيث دحض هذه الحجج ، وتلك الأباطيل ، قبل أن يسخر منهم ويظهرهم في صورة مزرية مهينة فأحيانا يشبههم بالأنعام ، بل وينزل بهم إلى درجة أقل من الأنعام في قوله : **« إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »** وفي موضع آخر يشبه شائئ النبي بأنه كالحمار الأبتَر ، وهذه صورة قبيحة تثبت تفاهة تفكيره وقلة عقله ، إلى غير ذلك من أساليب السخرية القوية المضادة ، والذي زادها قوة اشتمالها على صور بلاغية بديعية ، وأساليب تعبيرية موحية ، تقنع العقل ، وتمتع العاطفة ، مع جمال العرض وحسن الصياغة ، كما كان للوسائل البلاغية أثرها الفعال في إذكاء نار المواجهة مع المشركين ، وتعددت هذه الوسائل وتنوعت ما بين ألفاظ معبرة ، واستفهامات ساخرة والتفاتات مؤنبة ، وصور شاخصة ، قامت بأداء المعنى أفضل أداء .

(١) الأسلوب الحكيم : هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله ، أو المهم له .
وأكثر العلماء يذكرونه في علم البديع من المحسنات المعنوية ، على أن الخطيب يذكره في علم البديع تحت مسمى : القول بالموجب ، ويقسمه إلى قسمين ، والقسم الثاني هو الأسلوب الحكيم بعينه .
ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع - الخطيب القزويني ٢٨٦ / ٢٨٧ - الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ٢٠٠٣ - ١٤٢٤ هـ .

- ثانيا : سخرية المشركين من البعث والرد عليها :

كان البعث بعد الموت من الموضوعات التي شغلت تفكير المشركين منذ بدء الدعوة الإسلامية ، حيث أنكروه إنكارا شديدا ، واستهزأوا بالنبي ﷺ حين حذرهم منه ، ومن الحساب والجزاء يوم القيامة .

وقد ورد الحديث عن البعث والنشور عموماً في القرآن الكريم في مواطن كثيرة ، وليس هذا مقام حصر لها ، بل بيان وحصر للمواضع التي سخر المشركون فيها من البعث والنشور ، ومن النبي ﷺ الذي أخبر بذلك ، وباستقراء المواطن التي تحدثت عن ذلك وجد أنها أحد عشر موضعاً في القرآن الكريم متمثلاً في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ﴿ قُلْ كُونُوا

حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٨ - ٩٩] ، وقوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ آءِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦١﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٧] ،

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وءِآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا آءِذَا كُنَّا تُرَابًا وءِآبَاؤُنَا آءِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وءِآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النمل: ٦٧ - ٦٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ آءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ

كٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ﴿ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة: ١٠ - ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّمَزِقٍ لَّيْسَ لَكُم لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾

أَفْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ: ٧ - ٨] .

وقوله تعالى : ﴿ آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١١﴾ أَوْ آءِآؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ

وٰحِدَةٌ إِذًا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَتُوبَلْنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الصافات: ١٦ - ٢١] .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ آءِنَّا لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴿٥٢﴾ آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا آءِنَّا لَمَدِيثُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الصافات: ٥٢ - ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَلِّدِيهِ أَفِي لَكُمْ آءَتِدَانِي أَن أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهِيَآ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهُ

وَيْلَكَ ءَايِنَ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَبِقَوْلِ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آءِآؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّا

الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٧ - ٥٠] .

ومن الملحوظ في الآيات السابقة تكرار الاستفهام الإنكاري التعجبي : (**أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ نَا لَمَبْعُوثُونَ**) ، و (**أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْ نَا لَمَبْعُوثُونَ**) ، و (**أَيُّدَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَوْ نَا لَفِي خَلْقِ جَدِيدٍ**) والمعنى واحد ؛ هو إنكار البعث والنشور ، والسخرية منهما ، ونظرا لتقارب الشواهد في هذا المقام ، وتكرارها غالبا ؛ سأقوم بتحليل بعضها بلاغيا ، مع المقارنة بين ما تشابه منها وما تناظر ، مع استجلاء بعض الأسرار البلاغية لهذا التكرار .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمْعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** ٤٧ ﴾ **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا** ٤٨ ﴾ **وَقَالُوا أَيُّدَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَيْ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** ٤٩ ﴾ **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا** ٥٠ ﴾ **أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا** ٥١ ﴾ **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا** ٥٢ ﴾ [الإسراء : ٤٧ - ٥٢] .

فقد جاءت هذه الآيات تالية لآيات أخرى توضح أن كبراء قريش كانوا يستمعون إلى القرآن الكريم ، ولكنهم كانوا يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به ، فجعل الله بينهم وبين الرسول ﷺ حجابا خفيا ، وجعل على قلوبهم أكنة أن تفقه القرآن ، وجعل في آذانهم وقرا ؛ فلا تعي ما فيه من توجيه وإرشاد حيث قال جل شأنه : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا** ٥٤ ﴾ **وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ٥٥ ﴾ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا** ٥٦ ﴾ [الإسراء : ٤٥ - ٤٦] .

ثم إن المشركين لم يكتفوا بذلك ، بل كانوا يحيطون بالنبي ﷺ في المسجد الحرام حين يقرأ القرآن ؛ فيستمعون لما يقول ؛ ليلتقطوا مما ينكرونه من توحيد الله ، وإثبات البعث بعد الموت ، وبالتالي إطلاق عبارات السخرية والإنكار في كل مكان .

وفي هذه الآيات من سورة الإسراء شواهد لهذه السخرية ؛ بدايتها السخرية من شخص النبي ﷺ ، ثم سخريتهم من البعث والنشور ، وآخرها السخرية الصادرة من المولى ﷺ للرد على سخريتهم .

أما السخرية من النبي ﷺ فتتمثل في قوله تعالى : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** ٤٧ ﴾ وهو من تناجي الظالمين فيما بينهم ، وذكره في الآية لفضح أمر هؤلاء المشركين أمام الرسول وقد فصلت عن جملة (**وَإِذْ هُمْ نَجْوَى**) لكمال الاتصال بينهما ؛ حيث جاءت جملة (**إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ**) بدل بعض من كل من جملة (**وَإِذْ هُمْ نَجْوَى**) ؛ لأن نجواهم غير منحصر في هذا القول ، وإنما خص هذا القول بالذكر ؛ لأنه أشد غرابة من بقية أقوالهم ؛ للبون

النجوى : النجوى والنجي : السر ، والنجو : السر بين اثنين (لسان العرب - نجا) .
عظما : العظم الذي عليه اللحم من قصب الحيوان ، والجمع أعظم وعظام (لسان العرب - عظم) .
رفاتا : فئاتنا أو ما تتأثر وبلي من كل شيء (المعجم الجامع لمفردات غريب القرآن - رفت) .
فسينغضون : الإنغاض : تحريك الإنسان رأسه نحو صاحبه كالمتعجب منه (مقاييس اللغة ، نغض) .

الشاسع والواضح بين حال النبي ﷺ وحال المسحور ، ولكنهم قالوا هذه الجملة للسخرية والاستهزاء من النبي ﷺ ، وأوردوها في قالب بلاغي قوي دعما لهذه السخرية ، وإبرازاً للنبي ﷺ في صورة مهينة ؛ حيث صاغوا جملة السخرية بأسلوب القصر الذي طريقه النفي والاستثناء - وهو أوكذ أنواع الأساليب التي تستعمل في مقامات الإنكار - وقصروا الاتباع بالهزاء والسخرية على هذا الرجل المسحور الذي هو النبي ﷺ قصر صفة على موصوف قصر ا ادعائيا ؛ على اعتبار أن كلامهم هذا مخالف للحقيقة والواقع ، ثم كنوا عن النبي ﷺ بـ (رجل) ووصفوه بأنه (مسحور) ؛ للتهكم به والسخرية منه ، وأكدوا ذلك بمجيء (رجلا) نكرة ، وكذا صفته (مسحورا) نكرة أيضا ؛ لتحقيره ، وإهانته ﷺ .

ثم إنهم آثروا الوصف (مسحورا) على غيره من الأوصاف هنا ؛ لأن المسحور هو الذي قد سحر فاختلف عليه عقله وزال عن حد الاستواء (١) ، أو أنهم أرادوا وصفه بالمخدوع على أساس أن السحر حيلة وخديعة ، فاستعاروا السحر للخديعة ، أو التخيل ، أو التوهم ، استعارة تصريحية تبعية ، قائمة على تشبيه الانخداع بالسحر ، بجامع تخيل الأمر غير المعهود في كل ، فكانت أشد مبالغة من الحقيقة ؛ لأنها تبين - على زعمهم الفاسد - شدة انخداعه وما يعيش فيه من خيال بلغ تأثيره عليه حد تأثير السحر على المسحور .

أو أن المسحور معناه : أن له سحرا أي : رئة ، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب (٢) فتكون كناية عن كونه بشرا يتنفس ويأكل ويشرب ، وبالتالي لا يستحق الاتباع ، وهي كناية بعيدة . وأيا ما كان المعنى المراد ، فإن الوصف (مسحورا) هو من باب التهكم به والسخرية منه حتى لا يتبعه أحد ؛ لأنه بشر مثلهم لا يمتاز عنهم بشيء يقتضي اتباعه على زعمهم الفاسد .

ولذا رد عليهم القرآن بقوله : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨] باستفهام إنكاري تعجبي من تشبيههم للنبي ﷺ بالمسحور ونحوه مع علمهم بخلافه ، وفيه أيضا تعجب من ضربهم الأمثال بعد أن نهاهم الله عن ذلك بقوله : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٤] ، وقبل ذلك وصفهم بأنهم (الظالمون) في الآية السابقة بصيغة اسم الفاعل ؛ للدلالة على ترصدهم في وصف النبي ﷺ ظلما وعدوانا بأنه ساحر وكاهن ومجنون ، ناهيك عن تلبسهم بصفة الظلم ، وعدم انفكاكها عنهم ؛ لأنها جزء من طبيعتهم الخبيثة الجاحدة ، وليبان أنهم قد امتطوا ذروة الظلم والافتراء حين وصفوا النبي ﷺ بأنه مسحور .

أما سخريتهم من البعث والنشور فظاهرة في قولهم : ﴿ أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٣) بالعطف على (ضَرَبُوا) أو على جملة : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ والتي مضمونها مظروف النجوى ، فيكون هذا القول مما تناجوا به بينهم ، ثم جهروا بإعلانه

(١) ينظر (المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن - سحر) . و(لسان العرب - سحر) .

(٢) ينظر (مقاييس اللغة - سحر) .

(٣) روي أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه ، لم أعثر عليه في كتب أسباب النزول ، ولكن ذكر ذلك أبو حيان

الأندلسي في تفسيره البحر المحيط ٤١ / ٦ .

وعُدَّوه حجتهم على التكذيب .

وهو قول ينضح بالسخرية والاستهزاء من هذا الأمر الذي عدوه غريبا وعجيبا من وجهة نظرهم ، ولذا صاغوه بأسلوب استفهامي ساخر ، مبني على مفرداتٍ دقيقة ومختارة بعناية ؛ للتعبير عن غايتهم التي رموا إليها ؛ وهي الاستنكار ، والاستبعاد .

فقد جاءوا في صدر هذه الجملة بالاستفهام الإنكاري الذي ينبئ بالاستبعاد والسخرية ، وقدموا الظرف (إذا) الذي هو دليل الاستحالة في ظنهم ؛ للعناية بمضمونه ؛ وكان عليهم وفق مقتضى اللغة أن يقولوا : أننا لمبعوثون إذا كنا عظاما ورفاتا ؟ ! ولكنهم قدموا ما يستندون عليه في إنكارهم البعث ، وهو كونهم عظاما ورفاتا .

وكما يرى الطاهر بن عاشور " أن الإنكار متسلط على جملة : **﴿ أننا لمبعوثون ﴾** ، وقوة الإنكار مقيدة بحالة كونهم عظاما ورفاتا ، وليس المقصود من الظرف التقييد ؛ لأن الكون عظاما ورفاتا ثابت لكل من يموت فيبعث " (١) .

ثم إنهم عبروا بالفعل الماضي **﴿ كنا ﴾** للدلالة على تيقنهم من الموت ، فليس الإنكار موجها إليه ، وإنما موجه للبعث خاصة بعد كونهم عظاما ورفاتا ، والحقيقة أن إنكارهم للبعث بعد إقرارهم بالموت فيه دلالة على غلوهم في الكفر ، وتماديهم في الضلال .

ولذا كرروا الاستفهام **﴿ أننا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾** وأكدوه بـ **﴿ اللام ﴾** لتأكيد هذا الإنكار وتقريره ، ثم ختموه بقولهم (خلقا جديدا) وهو حال من ضمير (مبعوثون) ؛ لتصوير استحالة البعث بعد الفناء .

وعند التدقيق في جملة السخرية : **﴿ أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾** تجد أنها

أعيدت في آخر السورة بعينها من غير زيادة ولا نقصان في قوله تعالى : **﴿ ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِبَابِنَا وَقَالُوا أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾** [الإسراء : ٩٨] ، والسر في ذلك كما يقول الكرمانلي (رحمه الله) : " أن الأول من كلامهم في الدنيا حين جادلهم الرسول ﷺ وأنكروا البعث ، والثاني من كلام الله تعالى حين جازاهم على كفرهم ، وإنكارهم البعث " (٢) .

وعند عقد مقارنة بين قوله تعالى : **﴿ أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنَا ﴾** في سورة الإسراء وبين

قوله تعالى : **﴿ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا ﴾** في سورة (المؤمنون) (٣) والصفات (٤) والواقعة (٥) ، يتضح أن التراب والعظام أدلّ على البلى من العظام والرفات ؛ ذلك أن (الرفات) هو الفتات والحطام من كل شيء فإذا بلى الرفات أصبح ترابا ، فبعث التراب والعظام أبعد في عقول المنكرين وأغرب من بعث العظام والرفات ، وهو أدعى للعجب والإنكار ، وهذا يتضح من السياق الذي يرد فيه كل من التعبيرين ، ففي سياق آية الإسراء **﴿ أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا ﴾**

(١) التحرير والتنوير ١٥ / ١٢٣ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن الكريم - ١٦٥ .

(٣) آية ٨٢ .

(٤) آية ١٦ ، ٥٣ .

(٥) آية ٤٧ .

جَدِيدًا ﴿ لم يذكر من قولهم غير هذه الآيات في الإنكار ، فلم يقولوا بعدها ولا قبلها شيئا يتعلق بإنكار البعث أو العجب منه ، وأما إذا ذكر التراب والعظام فإنه يذكر من إنكارهم واستبعادهم للبعث ما لم يذكره في العظام والرفات ، من ذلك مثلا ما جاء في سورة المؤمنون : ﴿ أَيْدِيكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاةُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ [المؤمنون : ٣٥ - ٣٨]

فندرى من العجب والاستبعاد ما هو ظاهر ولذا قال في السورة نفسها : ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لِمَبْعُوثِينَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٨٣﴾ [المؤمنون : ٨٢ - ٨٣]

ونحوه ما جاء في سورة الصافات : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لِمَدْيُونٍ ﴿٥٣﴾ [الصافات : ٥١ - ٥٣] .

ونحوه ما جاء في سورة الواقعة : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُوتُ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأُولُونَ ﴿٤٨﴾ [الواقعة : ٤٧ - ٤٨] ، فيضيفون إلى عجبهم وإنكارهم أن يبعثوا مع آبائهم الأولين ، فكيف يبعث آباؤهم الأولون معهم وقد أصابهم من البلى ما أصابهم ؟ ! وهذا شأن كل ما ذكر فيه التراب والعظام ، ويدلك على هذا أيضا ؛ أنه حيث ذكر التراب والعظام أضافوا إلى ذلك ذكر الموت فيقولون : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ﴾ ؛ وذلك للزيادة في العجب والاستبعاد ؛ فالميت لا يحيا وإن كان حديث الموت ، فكيف إذا أصبح ترابا وعظاما ؟ ! ولم يذكر مثل ذلك مع العظام والرفات .

والخلاصة : إن ذكر الموت مع التراب والعظام فيه جانبان : جانب الزيادة في العجب والاستبعاد ، وجانب الإفاضة والتوسع في دواعي الاستبعاد والإنكار ، بخلاف ذكر العظام والرفات وعدم ذكر الموت فإنه أوجز في الكلام ، وأوجز في ذكر العجب والاستبعاد ؛ ولذلك رد المولى - عز وجل - عليهم بقوله : ﴿ قل كونوا... ﴾ بعد قولهم : ﴿ أئذا كنا... ﴾ من باب المشاكلة التحقيقية والمقابلة بالجنس .

وفي قولهم ﴿ مَنْ يُعِيدُنَا ﴾ بعد قول الرسول ﷺ لهم : ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ سخرية من الخالق عز وجل ، جاءت على صورة الاستفهام الذي يوحى بالتسليم الجدلي بحدوث البعث بعد الموت ، حيث انتقلوا من إنكار الإعادة أصلا - على فرض أنها ممكنة - إلى السؤال عن المعيد ، على أساس أن المعيد مستحيل أن يكون موجودا في زعمهم ، وانتفاء المعيد دليل دامغ على انتفاء الإعادة ، ولذلك فقد استفهموا بقولهم : ﴿ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ ! ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء ، والتقدير : (من يعيدنا إن كنا عظاما أو رفاتا أو حجارة أو حديدا أو أشد خلقا من ذلك ؟) (١) .

ولا شك أن التسليم الجدلي أبلغ في المعارضة من المنع مطلقا ، ولكن هيهات للمشركين ، وقد أمر الرسول ﷺ بأن يجيبهم جواب تعيين لمن يعيدهم ؛ إبطالا للاحكام تهكمهم وهو الاستحالة في نظرهم بقوله تعالى : ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم على طريقة الأسلوب الحكيم ، كما في محاجة موسى - عليه السلام - لفرعون حين قال لمن حوله : ﴿ أَلَأَسْمِعُونَ ﴾ [الشعراء من / ٢٥] ، فأجاب :

﴿ ... رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ [الشعراء من / ٢٦] .

و مجيء ﴿ قُلِ ﴾ مباشرة بعد سؤالهم ﴿ من يعيدنا ؟ ﴾ فيه دلالة على قوة الجواب ، وجاهزيته لتحقيق الحق ، وإبطال الباطل ، وإزاحة الاستبعاد . كما أن الكناية عن الله - عز وجل - بقوله : ﴿ ... الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بدلا من التصريح به ؛ إنما هي دعوة للتفكير بالعقول في الذي خلقهم أول مرة ، لعلهم يصلون - إن كانوا يفكرون - إلى أن الذي قدر على خلقهم في المرة الأولى قادر أيضا على أن يخلقهم في المرة الثانية مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] .

وعلى الرغم من هذا الرد الذي يؤذن بالتفكير والتدبر والانقياد ، إلا إنهم لا يراعون ، بل يزدادون عنادا سخرية واستهزاء في قوله تعالى : ﴿ فَسَيَنْغَضُونَ إِلَيْكَ زُجُورَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ ، وموطن السخرية واضح في الفعل المضارع ﴿ فسينغضون ﴾ ، والجملة الاستفهامية ﴿ متى هو ﴾ .

أما المضارع ، فقد سبق بالفاء ؛ للدلالة على سرعة رد فعلهم تجاه جواب النبي ﷺ عن سؤالهم السابق : ﴿ من يعيدنا ؟ ﴾ ، كما سبق بالسين ؛ لتأكيد مضمون الجملة ، وللدلالة على تحقق الوقوع في المستقبل القريب ؛ لأن الله - تعالى - يعلم ما يخفون وما يعلنون ، وأسند إلى ضمير الجمع من باب التغليب ؛ على أساس أن تحريك الرأس الذي هو لازم التهكم لا يصدر من جميعهم ، بل من زعمائهم ، أو أكثرهم ؛ بدليل أن فيهم المرضى والعجزة ، وكبار السن .

وأما جملة الاستفهام ﴿ متى هو ﴾ ، فهو استفهام عن وقت الإعادة غرضه التهكم والسخرية أيضا ، ولذا أمر الرسول ﷺ بأن يجيبهم بقوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ ؛ وهو جواب مبطل لللاحكام تهكمهم الذي هو استحالة البعث ، على طريقة الأسلوب الحكيم كما تقدم في نظيره أنفا .

ومن الواضح أن القرآن الكريم حينما أخبر بهذه السخرية ، فإنما صاغها بطريقة تنبئ عن سخريته هو منهم ؛ بدليل أنه أثر الفعل (ينغضون) للدلالة على التحريك دون صريح اللفظ (يحركون) ؛ من باب الاستعارة التصريحية التبعية ، القائمة على تشبيه التحريك بالانغض ارتفاعا وانخفاضا ، وهي أشد مبالغة من الحقيقة ، وفيها رد على سخرية المشركين الفعلية بسخرية لفظية .

كما أن تقديم الجار والمجرور ﴿إليك﴾ على المفعول به ﴿رؤوسهم﴾ لإفادة الاختصاص والحصر، على أساس أنهم يستهزئون بالرسول ﷺ لا غيره ، وهي حجة قوية عليهم ، وفضحٌ لأمرهم الذي يحاولون إخفاءه ؛ وهو إنكارهم البعث بالكلية ، ناهيك عن ختام الآيات بقوله : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَنْظُرُونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٥٢] .

واستعارة الظن لليقين في قوله : ﴿وتظنون﴾ استعارة تصريحية تبعية بدليل آية الروم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [من / ٥٥] ، ولا شك أن القسم على الشيء يدل على التيقن من معانيته ، والتعبير عن اليقين بالظن - هنا - فيه سخرية وتهكم واضحين ، وتعجب من حال المشركين ، وظنهم الخاطيء ، وجهلهم بحقائق الأمور ؛ لأنهم عندما يرون أهوال يوم القيامة يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا ، وتتحاقر الدنيا في أنفسهم حين يعاينون الآخرة .

ومن شواهد السخرية من البعث - أيضا - قوله تعالى في سورة الصافات : ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (١١) ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ (١٣) ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ﴾ (١٤) ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) ﴿أَوَإِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُوثُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوْلُونَ﴾ (١٧) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ (١٨) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩) ﴿وَقَالُوا يَا بَوِّابُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢١) [الآيات (١١ - ٢١)] (١) .

فبعد أن ذكر الله ﷻ الملائكة في أول السورة ، وذكر السماوات والأرض وما بينهما ، وذكر الكواكب التي تزين السماء الدنيا ، وذكر الشياطين المردة والقذائف التي تلاحقها ، وبعد أن بين الوحداية ودلائلها في أول السورة ، أراد أن يثبت البعث والنشور فقال : ﴿فأستفتيهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا﴾ بأمر موجه إلى النبي ﷺ من باب التكليف أن يسألهم : أهم أشد خلقا أم هذه الخلائق ، وإذا كانت تلك الخلائق أشد وأقوى ؛ فلم الدهشة من أمر البعث وإنكاره ؟ ولم السخرية منه ، واستبعاد وقوعه ؟!

وعلى الرغم من علمهم قطعا أنهم ليسوا أشد خلقا ، وأن بعثهم ليس ممتنعا ، إلا إنهم أصروا على إنكارهم ، وسخريتهم ، ولذا تعجب النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿بل عجب﴾ من شيئين :
- الأول : قدرة الله - تعالى - على خلق هذه الخلائق العظيمة ، وهو تعجب انبهار .
- الثاني : جراءة المشركين في إنكار البعث على الرغم من وضوح الدلائل عليه ، وهو تعجب إنكار وفيما بين أيدينا من آيات ، صور لسخرية المشركين من البعث ، بعضها لفظية مصوغة من مادة (سخر) ، وبعضها معنوية مفهومة من سياق الكلام .

(١) لازب أي : لاصق قاله ابن عباس ، وقال قتادة وابن زيد معنى لازب : لاقق ، وقال عكرمة لازب : لزج ، وقال سعيد ابن جبير : لازب : حر جيد يلصق باليد ، ومجاهد لازب : بمعنى لازم ، وقال السدي والكلبي : هو الخالص وعن الضحاك : اللازب هو المنتن - ينظر (المفردات في غريب القرآن - لزب) و (لسان العرب - لزب) .

أما اللفظية ففي قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴾ ، وموطن السخرية في الآيتين محدد في الفعلين ﴿ يسخرون ﴾ و ﴿ يستسخرون ﴾ فكلا الفعلين مضارعان ، مصوغان من مادة (سخر) ، دالان على صريح السخرية من البعث والنشور ، ولكن ثمت فروقا بينهما من الناحية اللغوية والبلاغية ؛ تتضح في أن الفعل ﴿ يسخرون ﴾ جاء بعد إسناد التعجب إلى النبي ﷺ من الكفار ، مسبوqa بواو الحال أو الاستئناف للدلالة على تجدد سخريتهم ، وبيان أنهم لا يراعون عنها ، فحالهم أنهم يسخرون من النبي ﷺ ، ومن تعجبه ، ومما يقول ، وهي سخرية من المسموع ، أما السخرية في الفعل ﴿ يستسخرون ﴾ فهي سخرية من المرئي الذي هو المعجزات والآيات الدالة على صدق إخباره ﷺ بالبعث ، " فقد كان النبي ﷺ يتحدث لهم عن البعث والنشور ، فكانوا ينكرون ويسخرون من قوله ، وقد اكتفوا بالسخرية دون مبالغة فيها ، لذا ناسب ذلك قوله تعالى : ﴿ بل عجبنا ويسخرون ﴾ وليس ﴿ يستسخرون ﴾ ، فلما جاءهم النبي ﷺ بآيةٍ للتحدي في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ اهتزت قناعتهم بصحة موقفهم القائم على أن الإنسان لا يبعث بعد الموت ، فلما حدث ذلك ؛ لجأوا إلى المبالغة في السخرية ليثبتوا على عنادهم وتكذيبهم " (١) ، فاستعملوا السين والتاء في الفعل ﴿ يستسخرون ﴾ ؛ للدلالة على الترقى والزيادة في السخرية ، من باب أن زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى ؛ وللدلالة على تحريض بعضهم بعضا عليها ، فلم يكتفوا بالسخرية بأنفسهم فقط كما في الفعل ﴿ يسخرون ﴾ .

ناهيك عن أن السخرية المذكورة في قوله: ﴿ ويسخرون ﴾ سخرية من محاجة النبي ﷺ للكفار بالأدلة ، والسخرية المذكورة في الفعل: ﴿ يستسخرون ﴾ إنما هي سخرية من ظهور الآيات والمعجزات حيث (لم تنفع معهم البراهين الضرورية ولا المقدمات الوعظية ، ولا المعجزات الدالة على صدق إخبار الرسول ﷺ بالبعث) (٢) .

وأما السخرية المعنوية ففي قوله تعالى مخبرا عنهم ، لما عجزوا عن مقابلة المعجزات

بشيء مقنع : ﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَإِذَا مَنَّنا وَكُنَّا نُرَبِّا وَعِظَمًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَإِذَا بَدَأْنَا الْآلُونَ ﴾

حيث أشاروا إلى الآيات والمعجزات ، أو إلى ما قاله الرسول ﷺ في صفة البعث والنشور بـ ﴿ هذا ﴾ دون التصريح به ؛ لتحقيره ومن ثم التهكم به ، وقصروا ما سمعوه من كلام الرسول ﷺ عن البعث ، أو ما رأوه من الآيات والمعجزات الخارقة على كونه سحرا مبينا ، بطريق النفي والاستثناء ، وهو بلا شك أقوى طرق القصر في بيان إنكارهم ، والإنكار سبب في السخرية ، ليس هذا فحسب ، بل إنهم أكدوا قولهم بإيراد ﴿ إن ﴾ النافية دون ﴿ ما ﴾ ؛ لأنها أقوى في التأكيد ، والمقام يستدعيها ، إلى جانب وصف الـ ﴿ سحر ﴾ بأنه ﴿ مبين ﴾ ؛ لذات الغرض وجاءوا به نكرة ومفردا ؛ لتحقير المشار إليه بقولهم : ﴿ هذا ﴾ والتقليل من شأنه ؛ ومن ثم يكون جديرا بالسخرية .

(١) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية - د : أحمد مصطفى متولي - ص ٧١٦ - الطبعة الأولى -

دار ابن الجوزي للنشر - القاهرة - ٢٠٠٥ م .

(٢) غرائب القرآن وورائب الفرقان ٥ / ٥٥٧ - بتصرف يسير .

ثم أعقبوا جملة القصر بجملة الاستفهام : ﴿ **أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً** ﴾ من باب ذكر الخاص بعد العام ؛ على أساس أن قولهم : ﴿ **إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ إنكار لكل ما سمعوه من النبي ﷺ عن البعث ، أو ما رأوه من المعجزات أو خوارق العادات ، أما قولهم : ﴿ **أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً** ﴾ فهو موجه لإنكار البعث خاصة ، والأصل أن يقولوا : (أنبعث إذا متنا وكنا تراباً ٥٠٠٠) ولكنهم (بدلوا الفعلية بالاسمية ، وقدموا الظرف ، وكرروا الهمزة للمبالغة في الإنكار ، والإشعار بأن البعث مستنكر في نفسه) (١) ، وزادوا عن آية الإسراء السابقة بقولهم ﴿ **أو آباؤنا الأولون** ﴾ ؛ لمزيد من الإنكار والاستبعاد والسخرية ، على أساس أن آباءهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل .

وقد يسأل سائل : لم قالوا هنا ﴿ **أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون** ﴾ (١٦) ، وبعده في نفس السورة قالوا : ﴿ **أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمديون** ﴾ (٥٣) ، ولماذا اختلفا في المكانين مع أن المراد واحد ؛ وهو إنكار البعث بعد الموت ؟
والجواب : " أن الأول حكاية كلام الكافرين وهم ينكرون البعث في الدنيا ، أما الثاني فقول أحد الفريقين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء ، ودخول النار " (٢) ، كما أن " المبعوث هو الذي يبعث من قبره ، ويحيا بعد موته ، والمدين هو المجازى بما كان من كسبه " (٣) ، ولا شك أن البعث يكون قبل الجزاء ، ولذا تقدم ﴿ **أئذا لمبعوثون** ﴾ على قوله : ﴿ **أئذا لمديون** ﴾ .

والخلاصة : أنهم لما بالغوا كل هذه المبالغات في إنكار البعث بعد قيام البراهين على وجوبه أمر الله - سبحانه وتعالى - رسوله الكريم أن يجيبهم بما يقابل استفهاماتهم بقوله : ﴿ **قل نعم وأنتم داخرون الخ الآيات** ﴾ ؛ على طريقة الأسلوب الحكيم وذلك " بصرف قصدهم من الاستفهام إلى ظاهر الاستفهام فجعلوا كالسائلين أيبعثون ؟ فقل لهم : نعم ؛ تقريراً للبعث المستفهم عنه ، أي : نعم تبعثون " (٤) وأنتم مكرهون ، صاغرون ، ذليلون .

ثم ختمت الآيات بسخرية هادئة لكنها موجهة ؛ حيث يقال لهم - بعد معاينة ما كانوا ينكرون على سبيل التقرير والتوبيخ : ﴿ **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾ (٦١) .

وهكذا يتبين لنا أن القرآن الكريم افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وحدانية الله ﷻ مثل خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغرب ، فلما أحكم الكلام في هذا الباب ، انتقل إلى إثبات القول بالبعث والنشر ، وإثبات يوم القيامة ، رداً على منكري البعث واستهزائهم بالآيات والمعجزات .

(١) تفسير البيضاوي للقاظمي البيضاوي ٥ / ٨ بتصرف يسير - دار الفكر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ .

(٢) ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ٢ / ١٠٨٩ .

(٣) أسرار التكرار في القرآن الكريم للكرماني ص ٢١٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٣ / ٩٩ .

وقد سلك القرآن في إثباته هذا طريقين ، اتضح من خلال نظم الآيات التي سبق تحليلها :

- الطريق الأول : إثبات البعث عن طريق الجواز العقلي بقوله : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً ﴾ طالبا من النبي ﷺ أن يحاجج هؤلاء المشركين المنكرين عن طريق سؤالهم : أهم أشد خلقاً من السماوات والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغارب ، وخلق الشياطين ؟ ولا شك أنهم يعترفون بذلك ، فثبت أن الله قادر على إعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها .

- والطريق الثاني : هو إثبات الوقوع المراد من قوله تعالى : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ والمعنى : أن هذه الأجسام قابلة للحياة ؛ لأنها لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الأولى ، والإله قادر على خلق هذه الحياة في الأجسام ، ولولا كونه - تعالى - قادراً على ذلك لما حصلت الحياة في المرة الأولى ، ولا شك أن قابلية تلك الأجسام للحياة باقية ، وقدرة الله - تعالى - باقية ، فامتنع زوالها ، وثبت أن القول بالبعث والقيامة أمر ممكن .

وقد بين الله ﷻ إمكان البعث والحساب رداً على المنكرين المستهزئين بأساليب بلاغية متنوعة ، تنوعت بين الأساليب الإنشائية ، وأساليب القصر ، والمجاز المرسل ، والكنائية والتعريض ، والإيجاز ، والألفاظ الموحية ، وغير ذلك من الأساليب البديعة ، والصور الجميلة ، التي لعبت دوراً كبيراً في الإقناع والإمتاع .

- ثالثاً : سخرية المشركين من القرآن والرد عليها :

لم تقتصر سخرية المشركين على الرسول ﷺ وحده ، أو البعث والحساب وأهوال يوم القيامة فقط ، بل امتدت لتشمل كل ركن من أركان الدين الجديد ، ولا شك أن القرآن الكريم كان - ولا يزال - معجزة الإسلام الخالدة ، ولسانه المبين ، وقد أحس المشركون خطره على شركهم من أول آية نزلت ؛ حيث رأوا فيه طرازاً عجيباً ، أخذوا من الكلام ، فمع أنه عربي لا يختلف في ألفاظه عن شيء من ألفاظهم ونظمهم ، إلا أن فيه جاذبية تملك القلوب ، وتأسر النفوس ، وفيه إحساس يملأ نفس سامعيه بأن هذا الكلام أت من مصدر غير المصادر المألوفة ، وقد كان سادة قريش أول من أدرك خطر القرآن وأثره من أول وهلة ، وقبل أن يصبح المسلمون قوة تخيف ويحسب لها ألف حساب اتجهوا بذكائهم النافذ إلى هذا المصدر ، الذي أصبح من وجهة نظرهم هو الخطر الحقيقي على آلهتهم وعلى سيادتهم ، ولذا ثاروا ثورة عنيفة عارمة ، ووجهوا سخرياتهم إليه ؛ يريدون أن يقضوا عليه في مهده ، وروايات التاريخ تؤكد أن القرآن كان أهم ما يثير سادة قريش ويملئهم غضباً على الرسول ﷺ والمسلمين ، والقرآن الكريم نفسه يؤكد ذلك ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُرُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِّنْ ذَٰلِكُمْ أَتَارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٢] .

وحين تتأمل مضمون الآية السابقة على ضوء علم النفس ، تجد أن إحساس قريش بخطر القرآن على دينهم ودنياهم كان قوياً ، وأن إدراكهم لقوة تأثير القرآن وتوقعهم انتشاره ، وسيطرته وانتصاره ، كان واضحاً في نفوسهم ، ومتمكناً منهم ، ولذا حاربوه بكل سلاح ، ولاسيما السلاح المعنوي المسمى بسلاح السخرية ؛ فقالوا عنه سحر مبين ، وإفك مفترى ، وأساطير الأولين ، وغير ذلك ؛ وقد وقع ذلك في ثمانية وثلاثين شاهداً من القرآن الكريم (١) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَّكَّنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ لَكَرًا وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الْبَيْنُ أَلَيْنَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنعام : ٤ - ٧] .

فهذه آيات من سورة الأنعام ، وهي إحدى السور المكية الطويلة ، التي تناولت قضايا أصول العقيدة والإيمان ؛ مثل الألوهية ، والقرآن ، والرسالة ، والبعث باستفاضة كبيرة ، وكان سلاحها في ذلك الحجة الدامغة ، والبرهان القاطع ، في طريق الإلزام والإقناع (٢) . وهي تبين أن المشركين لم يتركوا دليلاً من الأدلة ، أو معجزة من المعجزات على صدق

(١) ينظر البقرة ٢٣١ - النساء ١٤٠ - الأنعام ٧ ، ٢٥ - ٩٣ - الأنفال ٣١ - التوبة ٦٥ - يونس ١٥ - الحجر ٩١ - النحل ٢٤ - الكهف ٥٦ ، ١٠٦ - الفرقان ٥ ، ٢٥ ، ٣٢ - الشعراء ١٦ - النمل ٨٤ - الروم ١٠ - سبأ ٤٣ - الزمر ٤٨ - ٥٩ - غافر ٧٠ - فصلت ٢٦ - ٤٠ - ٤١ - الزخرف ٣٠ - الجاثية ٩ ، ٣٠ ، ٣١ - الأحقاف ٧ ، ١١ ، - الطور ٣٣ - ٣٤ - القمر ٢ - القلم ١٥ - المدثر ٢٤ - ٢٥ - المطففين ١٣ .
(٢) ينظر : الكشاف ٣ / ١٠٤ .

الرسول ﷺ ، أو آية من آيات القرآن الكريم إلا كانوا عنها معرضين ؛ فلم ينظروا فيها ، ولم يلتفتوا إليها ، حيث كذبوا بالقرآن الذي جاءهم من عند الله ، فتوعدهم الله بالعقاب والعذاب على استهزائهم ، كما حضهم على الاعتبار بمن سبقهم من الأمم ، والذين كذبوا الأنبياء ، حيث منحهم الله أسباب السعة ، والعيش ، والتمكين في الأرض ما لم يعطه لأهل مكة ، وأنزل عليهم المطر غزيرا متتابعاً ، وجعل الأنهار تجري من تحتهم ، حتى عاشوا في خصب ونباء ، ولكنهم كفروا وعصوا ، فأهلكهم الله بذنوبهم .

وبعد أن ذكر حال الأمم السابقة في التكذيب ، وما حدث لهم بسبب ذلك ، انتقل إلى إخبار النبي ﷺ بأن المشركين في غاية الجحود والإنكار ؛ لأن الله لو أنزل كتابا مكتوبا على ورق كما اقترحوا ، فعابوه ، ولمسوه بأيديهم ، لقالوا عنه تعنتا وعنادا وسخرية : ما هذا إلا سحر واضح .

وسبب نزول هذه الآيات : أن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، والله لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله ، وأنتك رسوله ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

وهذه الآية تالية لآية سابقة تدل على تكذيب المشركين للحق لما جاءهم ، واستهزائهم بالقرآن ، فجاءت لبيان سخريتهم بالقرآن الكريم ، حيث ذكر الله - عز وجل - مخاطبا النبي ﷺ وساخرا من المشركين ، أنه لو أنزل كتابا مكتوبا في صحيفة بحيث يكون مرئيا لهم ، ولملوسا بأيديهم كما اقترحوا ، لقالوا عنه مستهزئين : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، وهو قول ساخر مبني على الجحود ، والنكران ، والمكابرة ، مصوغ بأسلوب القصر الذي طريقه النفي والاستثناء ؛ فُصِرَ فيه الكتاب المنزل حال كونه في قرطاس على كونه سحرا مبينا ، قصر موصوف على صفة ؛ لبيان أنهم يغالطون أنفسهم ، ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم ؛ ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم ؛ بوصف القرآن بأنه سحر ، على الرغم من علمهم علم اليقين أنه بعيد كل البعد عما يقولون ، كما أن فيه تعريضا بأنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل . ولتأكيد ذلك القول ؛ بُنِيَ القصر على التشبيه البليغ المحذوف الوجه والأداة ؛ ليكون أكد في الإنكار ، وأشير إلى الكتاب بـ ﴿ هَذَا ﴾ بدلا من التصريح به ؛ للتهوين من شأنه ، ووُصِفَ السحر بأنه مبين ؛ للزيادة في ذلك الإنكار ؛ بادعاء كونه مبينا في نفسه ، أو كونه مظهرا لغيره .

والحق أن هذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلق بالمعاذير الكاذبة ، ولذا سخر منهم القرآن سخرية واضحة في بداية الآية بقوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَّذِينَ كَفَرُوا ... الآية ﴾ وقد وردت جملة السخرية هذه بألفاظ وتراكيب بلاغية دقيقة مختارة ؛ لتحقيق الغرض الذي سيقى من أجله ؛ وهو السخرية من المشركين بسبب استهزائهم بالقرآن الكريم والدليل على ذلك أنه عبر بالفعل الماضي ﴿ نزلنا ﴾ الدال على تحقق الوقوع ؛ لتأكيد القدرة على إنزال الكتاب الذي يطلبون نزوله ، ومن ثم فلا تكون لهم حجة .

(١) أسباب النزول للواحدى ٢١٤ .

وقال ﴿ نزلنا ﴾ بالتشديد ، ولم يقل ﴿ أنزلنا ﴾ ؛ لتأكيد أن القرآن نزل منجما على فترات مختلفة ، ولم ينزل جملة واحدة ؛ " بدليل قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ آل عمران : ٣ ، فقد خص القرآن بالتنزيل ؛ لنزوله منجما ، والكتابين بالإنزال ؛ لنزولهما دفعة واحدة " (١) ، كما نكر ﴿ كتابا ﴾ و ﴿ قرطاس ﴾ ؛ لتعظيمهما ، وإعلاء شأنهما ؛ لأنهما من عند الله عز وجل ، وقيد الكتاب بأنه ﴿ في قرطاس ﴾ ؛ على سبيل الظرفية المجازية ، والاستعارة التبعية في الحرف ؛ ليكون مرثيا لهم ، ولموسا بأيديهم ، وحينئذ لا يجدون أدنى شبهة أو حجة لإنكاره ، وقيد اللمس بأنه ﴿ بأيديهم ﴾ مع أنه معلوم بدهاء أن اللمس يكون باليد خاصة ؛ ليؤكد معنى اللمس ، حتى لا يتوهم أنه أراد المجاز في التأمل ، وفي هذا تأكيد على معاندتهم ومكابرتهم ووقاحتهم في الإنكار والتكذيب ، كما أن ذكر اللمس بالأيدي للكتاب دون الاقتصار على رؤيته فقط ؛ لئلا يقولون سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا مِثْلَمَا قَالُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنَّا قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ - ١٥] ، فذكر الأيدي هنا ، وإسناد ضمير الجمع إليها ؛ فيه مبالغة في تأكيد اللمس منهم لهذا الكتاب ؛ لأن اليد هي حاسة اللمس المعتمدة ، ناهيك عن مجيء (الأيدي) جمعا للتعميم .

ثم مجيء الجواب ﴿ لقال الذين كفروا ﴾ باللام والفعل الماضي ؛ لتأكيد تحقق الإنكار منهم والتكذيب ، والسخرية بالكتاب المفترض بمجرد نزوله ؛ بدليل استعمال الفاء الدالة على السرعة في الفعل ﴿ فلمسوه ﴾ .
والتصريح بالمسند إليه ﴿ الذين كفروا ﴾ دون ضميره : ﴿ لقالوا ﴾ كما قال : ﴿ فلمسوه ﴾ ؛ بالإظهار في مقام الإضمار ؛ للتسجيل عليهم أن دافعهم إلى هذا التعنت والعناد هو الكفر لا غيره ولاشك أن صياغة الآية على هذا النحو انتصار للقرآن الكريم ، وسخرية من المشركين واضحة بسبب هذا الجحود والنكران .

واستكمالاً لسخرية بعض المشركين من القرآن الكريم ، والرد عليها ، يقول الله ﷻ في السورة نفسها عن هؤلاء المستكبرين المكذابين : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَبُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣]
حيث وصف من افترى على الله الكذب ، ومن قال تلقيت وحيا من الله دون أن يتلقى ، ومن قال سأتي بكلام مثل ما أنزل الله ، بأن لا أحد أكثر منه ظلما ، وبين حال هؤلاء الظالمين وهم في شدائد الموت ، والملائكة ينزعون أرواحهم في قسوة وعنف ، ويقولون لهم على سبيل السخرية والتبكيت والتعجيز : (أخرجوا أنفسكم ، الآن تبدأ مجازاتكم بالعذاب المذل المهين ؛ جزاء قولكم على الله غير الحق ، واستكباركم عن التدبر في آياته الكونية والقرآنية) (٢) .

(١) معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٤٤ .

معاني المفردات : غمرات الموت : شدائده وسكراته (لسان العرب - غمر) .

- عذاب الهون : أي العذاب المتضمن للشدة والإهانة (لسان العرب - هون) ، و نظم الدرر ٢ / ٦٧٥ .

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ٢٢٣ - بتصريف يسير .

وسبب نزول هذه الآية " كما أخرج ابن جرير عن عكرمة أن قوله : (ومن أظلم ممن افتري على الله كذبا ، أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء) نزلت في مسيلمة ، ومن قال (سأنزل مثل ما أنزل الله) نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، كان يكتب للنبي ﷺ فيملي عليه ، عزيز حكيم ، فيكتب غفور رحيم ، ثم يقرأ عليه فيقول : نعم سواء ، فرجع عن الإسلام ، ولحق بقريش " (١) .

وهذه الآية التي نحن بصدها تذكر بعضا من افتراءات الظالمين في الوحي والقرآن، وترسم مشهد خزيهم أثناء احتضارهم ، وتظهر تمام عجزهم ، وسوء مصيرهم بسبب ظلمهم وافتراءهم ، حيث افتتحت هذه الآية باستفهام غرضه النفي في قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ ليبين أنه لا أحد أظلم ممن افتري على الله كذبا ، وبخاصة هؤلاء الذين ذكرتهم الآية ، ومن البلاغة المعجزة في القرآن ، أن الله سبحانه وتعالى بدأ الآية بذكر العام في الجملة السابقة ثم ذكر الخاص بقوله : ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيَّ شَيْءٌ ﴾ ، وسر بلاغة ذكر الخاص بعد العام هنا - إلى جانب هذا التمكن للمعنى في النفس - بيان أن ادعاء النبوة ، وادعاء القدرة على إنزال كتاب مثل كتاب الله ، بعد ذكر افتراء الكذب على الله عامة ، فيه جرمٌ فظيع ، وأن صاحبه أظغى الطاغين ، وأعتى العاتين ، وأظلم المفترين ، فهذا التخصيص تشنيع به ، وبيان لفضاعة جرمه وبخاصة الذي سخر من القرآن الكريم وقال : ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ، وهو قول ساخر مبني على الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل (سأنزل) ، ومعناها : " سأنظم كلاما يماثل ما ادعيتم أن الله أنزله " (٢) ؛ حيث شبه نظم الكلام بالإنزال في مطلق الإيجاد ، وفيها تصويرٌ لحال هذا المفترى على الله الكذب ، وبيانٌ لما يدور في داخله من معتقدات وأفكار ، فهو إذا ادّعى أنه قادر على نظم كلامٍ مثل كلام الله دون وحي ، كان لا يؤمن بأن هذا القرآن من عند الله إذ كيف يتساوى كلام الخالق بكلام المخلوق؟! وحينئذ يتعين أن يكون قوله : ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ تهكما وسخرية ، والمعنى على هذا : إن كنت يا محمد تدّعي أن هذا الكلام من عند الله ، فأنا أقدر على نظم مثل هذا ، ولذا توعدهم الله بشدة العذاب جزاء هذا الظلم والافتراء ، بقوله : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ حَرِّ عَذَابِ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣)

وكما سخر المشركون من القرآن الكريم ، وأنكروه ، وعدوه سحرا مبينا ، وادعوا إمكانية نظم مثله ، سخروا منه أيضا ، ووصفوه بأنه أساطير الأولين في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنزِلُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾ (٤) وَإِذْ نُثِّلْنَا عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ (٥) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابٍ آتِينَا ﴾ (٦) وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ١ / ١٠٣ .

(٢) البحر المحيط ٤ / ١٨٤ .

كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ [الأنفال : ٣٠ - ٣٣] (*) .

حيث جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن موقف المشركين وهم يبيتون لرسول الله ﷺ قبل الهجرة ، ويتآمرون عليه ، ويمكرون به ؛ ليحبسوه حتى يموت ، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه ، أو ليخرجوه من مكة منفيًا مطرودًا ، ولكن الله من ورائهم محيط ؛ يمكر بهم ، ويبطل كيدهم من حيث لا يشعرون .

كما أنهم ليلبغ بهم الادعاء أن يزعموا أن في مقدورهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن لو يشاءون مع وصفه بأنه أساطير الأولين ، وهم بذلك يعاندون ، ويبلغ بهم العناد أن يستعجلوا العذاب إن كان هذا هو الحق من عند الله ، بدلا من أن يفيئوا إليه ويهتدوا به (١) .

وسبب نزول هذه الآيات " أن النضر بن الحارث خرج إلى الحيرة تاجرا ، واشترى أحاديث كليلة ودمنة ، وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين - وهو منهم - فيقرأ عليهم أساطير الأولين " (٢) ثم " يقول بالله أينما أحسن قصصا أنا أو محمد " (٣) ، وذكر الواحدي " أن أهل التفسير قالوا : إنها نزلت في النضر بن الحارث ، وهو الذي قال : إن كان ما يقوله محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء " (٤) .

وقد بين القرآن مكرهم بالرسول ﷺ وتكذيبهم واستهزاءهم به ، وبالآيات ؛ حيث ذكر مكرهم بالرسول ﷺ في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠ ، ثم انقل إلى مكرهم واستهزائهم بما أرسل به وهو القرآن ، فأخبر عنهم بما قالوه في حقه بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ وموطن السخرية واضح في اسم الإشارة العائد على كلام الله - عز وجل - وهو القرآن ؛ فقد سخروا منه ، وهونوا من شأنه ، وأشاروا إليه بـ ﴿ هَذَا ﴾ دون التصريح باسمه ؛ لأنه - على حد زعمهم - ليس قول الله كما يزعم محمد ﷺ ، بل من جنس كلامهم ، ولذا قالوا على سبيل البهت والمصادمة : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ بأداة الشرط (لو) وفعل المشيئة (نشاء) ؛ للإيحاء بقدرتهم على الإتيان بمثله ، وأن ذلك شيء يسير عليهم ، ولكنهم مترفعون عن ذلك .

والحقيقة أن ذلك غاية المكابرة ؛ لأنه ليس في استطاعتهم ، فقولهم هذا كناية عن الوهم الذي عاشوا فيه ؛ لأنهم عجزوا عن الإتيان بأقصر سورة منه ، فكيف يأتون بمثله .

(*) أساطير : أباطيل ، جمع أسطورة وإسطار ؛ وهي أشياء كتبت من الباطل ، أو أحاديث تشبه الباطل ، والأكثر أن يراد بها القصص المخترعة التي لم تقع . ينظر (لسان العرب - سطر) و (معجم مقاييس اللغة - باب السين والطاء وما يثلثهما) ، والتحرير والتنوير ٣٠ / ١٩٨ .

(١) في ظلال القرآن ١٥٠٠ ، ١٥٠١ بتصرف .

(٢) مفاتيح الغيب ٨ / ١٢٦ .

(٣) في ظلال القرآن ١٥٠٢ .

(٤) أسباب النزول ٢٣٥ - ٢٣٦ .

كما أنهم قالوا قبل ذلك حين تليت عليهم الآيات : ﴿ قَدْ سَمِعْنَا ﴾ بقدر الفعل الماضي ؛ للتأكيد على سماعهم الآيات ، وفهم ما فيها ، والواضح أنهم لم يسمعوا شيئاً ، ولم يفهموا ما تحتوي عليه لأن إخبار القرآن الكريم عنهم بجملة ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ﴾ يوحي من طرف خفي بتهكم القرآن بعقول هؤلاء ؛ إذ كيف يقولون ذلك؟! وهم لم يفهموا ما في القرآن من الحقائق والآداب ، واهتموا بالقصص فقط ، ولم يتبينوا مغزاها ، ولذا قال عنهم : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ وقال أيضاً : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

ولذلك صرحوا بالسخرية بعد التلويح بها ؛ فقالوا عن القرآن - على سبيل التمرد والعناد - :

﴿ إِنَّا هَذَا آلَ آسَاطِيرِ الْأُولِينَ ﴾ فشبهوا (قصص القرآن الكريم بقصص رستم واسفنديار من قصص الرهبان ، حيث قالوا : إن القصص والأنباء الواردة في هذا القرآن إنما هي أساطير وخرافات كأساطير الأولين) (١) .

ولتأكيد فكرتهم وكلامهم ، ولأن المقام مقام سخرية وإنكار ؛ كرروا اسم الإشارة ﴿ هَذَا ﴾ الذي يشير إلى القرآن ، والبدال على التهوين ، وصاغوا شاهد السخرية بأسلوب القصر ، وطريقه النفي والاستثناء دون غيره ، وبنوا هذا القصر على التشبيه البليغ ؛ ليكون أبلغ في الدلالة وأوضح للفكرة التي أرادوها ، وحذفوا الوجه والأداة ؛ للمبالغة في الإنكار ؛ وللدلالة على أن المشبه هو عين المشبه به ، فلا فرق عندهم بين هذا القرآن الذي يتلى وبين أساطير الأولين التي سمعوها ، أو قرأوها .

كما جاءوا بالاستعارة ﴿ الأولين ﴾ ؛ وهي استعارة تصريحية أصلية للسابقين ؛ لحشد كل مقومات الإنكار ، وتأكيده في جملة واحدة ، ثم قالوا بعد كل ذلك : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِمَّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال من ٣٢ /] ؛ لتشكيك الأتباع في الدين الجديد وإيهام بأن كلامهم هو الحق ، وكلام النبي ﷺ باطل ، على الرغم من تيقنهم من صدق دعوته ﷺ .

وهذه الآية تبين مدى تكذيبهم لما جاء به النبي ﷺ وإنكارهم إياه ، حيث إنهم - وهم في غاية الجحود والإنكار للقرآن الكريم ولنبوته النبي ﷺ - يتحدثون ، وكأنهم يقدمون اعتذاراً على جرم عظيم اقترفوه ، وأنهم يريدون من الله - عز وجل - أن يطهرهم من هذا الذنب بإيقاع العقوبة المتمثلة بإنزال الحجارة من السماء ، كما فعل مع أصحاب الفيل ، أو أي عقاب آخر يستحقونه على سوء فعلهم ، وكأنهم يعترفون بوجود الله تعالى ، لا شريك له ، إلا أن خطأهم أنهم أنكروا أن يكون القرآن منزلاً من عند الله تعالى ، وفي الحقيقة هم ليسوا على شيء من ذلك ؛ فلا هم يؤمنون بوحداية الله ، ولا تنزله القرآن على النبي ﷺ ، لكنهم أخرجوا الكلام

(١) التحرير والتنوير ٩ / ٣٢٩ - بتصرف .

على هذه الصورة لتأكيد جحودهم ، وإنكارهم على وجه السخرية بالنبي ﷺ والمؤمنين .
يقول أبو السعود - رحمه الله - : " والمعنى : إن كان حقا منزلا من عندك ، فأمطر علينا
الحجارة ؛ عقوبة على إنكارنا ، أو انتنا بعذاب أليم سواء ، والمراد منه التهكم ، وإظهار اليقين
والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه " (١) .
وهذا أسلوب من الجحود بليغ ؛ لأنهم جعلوا حقيقة القرآن محالا ، لذا علقوا عليه طلب
العذاب الذي لا يطلبه عاقل (٢) .

والحق أن هذا من عجيب بهتانهم ؛ لأن الرسول ﷺ حين تحداهم بمعارضة سور من
القرآن عجزوا عن ذلك ، وأفحموا ، ثم اعتذروا بأن ما في القرآن أساطير الأولين ، وأنهم
قادرون على الإتيان بمثله إن شاءوا ، ثم دعوا على أنفسهم بالهلاك إن كان هذا هو الحق من
عند الله بدلا من أن يفيتوا إليه ، ويهتدوا به ، وهذه وقاحة منهم ، وجحود لا يوصف .

وباستقراء المواطن التي سخر فيها المشركون من القرآن الكريم ، لوحظ أن بعضها جاء
مصوغا بأسلوب القصر الذي طريقه النفي والاستثناء خاصة ، بأداة النفي (إن) ، وحرف
الاستثناء (إلا) حصرا ، فقالوا عنه : ﴿ **إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الأنعام من / ٧] ، [سبأ : ٤٣] ، ﴿ **وَإِنَّ**

﴿ **هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ [الأنعام من / ٢٥] ، [الأنفال ٣١] ، ﴿ **وَإِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ** ﴾ [الفرقان من ٤] ،

و ﴿ **وَإِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [المدثر : ٢٤-٢٥] ، ولعل السر في ذلك أن هذا الطريق
أصل الباب - كما يقولون - وأقوى الطرق ، ولا يكون غالبا إلا في المقامات العنيفة ، جهيرة
النبرة ، قوية الوقع ، حين تتشابك مواقف التأثير الوجداني مع الإقناع العقلي ، وهذا إنما يكون
في مقامات الإنكار ، وليس الإنكار هنا موقفا عقليا فحسب ، بل إنه رفض ، تتعانق فيه الطاقات
الإنسانية (٣) ، ولا شك أن الكفار منكرون القرآن الكريم إنكارا شديدا ؛ لخطرته العظيم عليهم
وعلى مكانتهم ؛ ولذلك صاغوا أسلوبهم الساخر منه بطريق القصر ، واختاروا بعناية حرف
النفي (إن) دون (ما) ؛ لأن (إن) بجرسها الخاطف ، ومقطعها المغلق أكثر توكيدا من
(ما) ؛ لشبهها بـ (إن) المخففة من الثقيلة ، والتي تأتي في المقامات التي هي أكثر توترا ،
وأعلى حرارة ، تلك التي تستدعي مزيدا من الوثاقة والتركيز (٤) ، وليس هناك إنكار أشد
حرارة ، وأكثر توترا من ذلك الموقف الذي يعيشه هؤلاء المنكرون الجاحدون .

كما أن إدخال (إن) على الجملة الاسمية في الأساليب السابقة إنما جاء للإيحاء بالثبات
والجزم ، وبأن مدخولها محقق وقوعه ، وأن الصفات التي يصفون بها القرآن حقيقة لا ادعاء .

(١) إرشاد العقل السليم ١٩ / ٤ .

(٢) ينظر محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي ٤ / ٣٢ بتصرف يسير - ت محمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الأولى
١٣٧٦ هـ ، ١٩٥٧ م .

(٣) ينظر : أساليب القصر في القرآن وأسرارها البلاغية ص ١٦٦ - د : صباح عبيد دراز - الطبعة الأولى - مطبعة الأمانة -
القاهرة - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

(٤) ينظر : السابق ص ١٤٧ .

ليس هذا فحسب ، بل إنهم أوردوا قصرين متواليين على لسان زعيمهم الوليد بن المغيرة في سورة المدثر ، وجاء الثاني منهما مؤكدا لمضمون الأول ، في قوله عن القرآن الكريم : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ** ﴾ [٢٤ - ٢٥] ، وفي هذا التوالي ما يسمى بتصعيد المعاني ، والتي يطلق عليه علماءنا (الترقى في الترتيب) (١) ، وهو التدرج في التأكيد ؛ ليصل إلى الغاية المطلوبة ؛ وهي السخرية والاستهزاء بالقرآن الكريم .

وفي سورة سبأ صاغوا الأساليب متنوعة متتالية لذات الغرض ؛ حيث قالوا بعد أن تليت عليهم الآيات البيّنات : ﴿ **... مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَتْ يَبْغُدُّ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرٍ** ﴾ [من الآية ٤٣] ؛ حيث تدرج انفعالهم اللاهث من سخرية وتهكم بالداعي عليه الصلاة والسلام إلى تأكيد افتراء المتلو ؛ وهو القرآن الكريم - حاشاه ثم جاوز غضبهم الحد ، فرموا بمقولتهم حارة ، دافقة ، متلمظة قائلين : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ .

والملاحظ أنهم في كل أساليب القصر السابقة ، نعتوا المقصور عليه بأوصاف تؤكد إنكارهم ، ونوعوا فيها بين الاسمية والفعلية ؛ ليشمل كل ما يمكن أن تنبئ عنه تلك الصياغات من الثبوت والدوام ، والتجدد والاستمرار ، وتحقق الوقوع ؛ حيث وصفوا الـ (سحر) الذي نعتوا به القرآن بأنه (مبين) ، و (يؤثر) ، ووصفوا الـ (إفك) بأنه (مفترى) و (افتراء) ، و (قديم) ، ووصفوا (الأساطير) بأنها (أساطير الأولين) ، وهذا ترقق بالقصر تأكيدا ونعتا .

كما أنهم بنوا بعض أساليب القصر على التشبيه البليغ ؛ ليكون أغنى في الدلالة ، وأخصب في الفكرة ، وأبعد في الإنكار والمبالغة ، بادعاء أن المشبه هو عين المشبه به ، فلا فرق عندهم بين القرآن الذي ينل وبين أساطير الأولين ، كما لا فرق بينه وبين السحر المبين . ناهيك عن استخدام اسم الإشارة (هذا) للقريب دون (ذلك) ؛ ليكون ذريعة ، وعونا على التحقير ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

ولأن المشركين سخروا من القرآن الكريم ، وأنكروه ، وعدوه إفكا مفترى ، وسحرا مبينا ، وأساطير الأولين ، فقد قام القرآن ببرد كل سهم أطلقه المشركون نحوه إلى نحورهم ، وردهم خائبين خاسئين ؛ بسخريات أشد وأنكى ، أثبتت عجزهم التام ، وعدم قدرتهم على الوقوف في وجهه ، وذلك واضح وضوح الشمس في آيات التحدي ؛ حيث تحداهم بالإتيان بكتاب مثله ففعلوا ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ففعلوا ، ثم نزل بهم التحدي إلى الإتيان بسورة من مثله ففعلوا ، ولاشك أن التعجيز الناتج عن التحدي يكون مدعاة للسخرية من العاجز ، وهو ما ثبت في هذه الآيات مع هؤلاء المشركين الذين قالوا : ﴿ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا** ﴾ [الأنفال : ٣١] .

(١) ينظر الانتصاف على الكشاف ١ / ٤٢ .

وهذه الآيات هي :

- قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨] .

- وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] .

- وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

- وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص : ٤٩]

- وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٣ - ٣٤]

والأمر في (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) ، (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) ، (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ) ، (فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ) ، (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ) ، وأيضا الفعل في : (وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) ، (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) ؛ للتحدي ، والتعجيز ، ومن ثم السخرية والاستهزاء من عجزهم ، وبيان ذلك في قوله : (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ) أن الشهداء : جمع شهيد : فعيل بمعنى فاعل ، من شهد إذا حضر ، وأصله الحاضر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ [البقرة من / ٢٨٢] ، " ثم استعمل هذا اللفظ فيما يلزمه الحضور مجازا أو كناية لا بأصل وضع اللفظ " (١) ، " والشهادة إنما تسمى شهادة إذا كانت صادرة عن علم حصل بالمشاهدة بصيرة أو بصر " (٢) .

والمقصود بالشهداء في هذه الآية : إما الهتهم من الأصنام ، أو كل من شهد وحضر من شهيد أو نصير (٣) ، وعلى الوجه الأول ، فإن أمرهم بأن يستظهروا في معارضة القرآن الكريم بالجماد فيه من التهكم ما لا يوصف (٤) ، فهؤلاء الكفرة من عاداتهم أن يهرعوا إلى الهتهم المزعومة في كل ملمة أو كرب يحل بهم ، ولا كرب أشد عليهم من معارضة القرآن الكريم ، فالله تعالى يأمرهم أن يستصرخوا هذه الآلهة في هذه الضائقة العظيمة التي حلت بهم ، لعلها تقدم لهم العون والمساعدة ، كأنه يقول : هؤلاء أعوانكم وملائكم ، مع أنه - سبحانه يعلم أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر ، ولا تقدر على مثل ذلك ، لكنه - سبحانه - جعلهم في حكم من يرجع

(١) التحرير والتنوير ١ / ٣٣٩ .

(٢) المفردات في غريب القرآن - مادة شهد - ص ٢٦٨ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ١ / ٢٠٢ - ومفاتيح الغيب ١ / ٣٥٠ .

(٤) ينظر إرشاد العقل السليم ١ / ٦٦ ، وأما على الوجه الثاني فلا تهكم في الآية .

إليه ويستغاث به في النوائب ؛ لإثارة السخرية والاستهزاء بهذه العقيدة الفاسدة التي يعتقدونها، وللتأكيد على عدم أحقية هذه الأصنام بالعبادة ؛ إذ إنها تتخلى عن معبوديها وهم في أمس الحاجة إليها ، وما أقبح صورة إنسان أكرمه الله بالعقل ، وهو يستنطق جمادا يطلب منه العون ، فيما لا تستطيع أساطين المناطق أن تأتي به .

والخلاصة : إن نزول القرآن الكريم ، وتحديه للمشركين جاء في وقت بلغوا فيه المنزلة الرفيعة في الفصاحة والبلاغة ، فحالة هؤلاء القوم البيانية من أكبر الدلائل على إعجاز القرآن ، وذلك أنه تحدى أرباب اللسان ، وفرسان الكلام ، ومع ذلك عجزوا ، ولم يبدوا جوابا ، وما نطقوا وما اجترأوا على الإقدام على المعارضة والتحدي ، وما أتوا بمثل القرآن ، وفي ذلك دلالة على هذا المستوى البياني المعجز الرفيع الذي تميز به القرآن ، مما جعل أرباب الفصاحة والبيان يقفون مكتوفي الأيدي أمامه عاجزين ، شاخصة أبصارهم نحوه ، مشدوهين بفصاحته وبلاغته ، بعد أن قالوا عنه : إفك مفترى ، وسحر مبين ، وأساطير الأولين ، فسبحان الله الذي أنزله وجعله معجزا ، وجعله آية للناس إلى يوم القيامة .

رابعاً : سخرية المشركين من المسلمين المستضعفين والرد عليها :

وكما سخر المشركون من القرآن الكريم سخروا - أيضاً - من عامة المسلمين ، وركزوا سخريتهم واستهزاءهم عليهم ؛ " لأنهم كانوا يريدون أن يثيروا في نفوسهم نفورا من دينهم الجديد ، وأن يزعزعوا ثقتهم بإيمانهم ودينهم ، والقرآن يصور أن زعماء المشركين - من الذين نيطت بهم السخرية من الإسلام والمسلمين - كانوا يتخذون من أشخاص المسلمين مادة للسخرية في مجالسهم ، ومحافلهم ، وحتى مع أهلهم ، ولكن القرآن يعزي المسلمين الذين تنال منهم هذه السخرية ؛ بأن يسخر من المشركين ، ويحقر من شأنهم ؛ فهم غير حفظة ولا حكام ، وليس من شأنهم أو حقهم الحكم بضلال المسلمين أو رشدهم ، ثم يقلب لهم الوضع ؛ فيبين للمسلمين أنهم الذين سيسخرون يوماً ما من أعدائهم ، حين يتبين كل من الفريقين حقيقة موقفه من الدين الجديد " (١) .

والآيات الدالة على سخرية المشركين من عامة المسلمين ماثلة في القرآن الكريم ، وقد وردت في سبع عشرة آية منه تقريباً (٢) ، وسأكتفي في هذا المقام بتحليل شاهد واحد مشتمل على خمس صور منها ؛ لأبين من خلاله مدى سخرية هؤلاء القوم بالمسلمين المستضعفين ، ورد القرآن عليهم بسخريات أشد وأمضى ؛ للتأثير في نفوسهم وهزيمتهم النفسية ، إلى جانب تقوية الجانب المعنوي للمسلمين ، وتوطيد أركان هذا الدين الذي كتب له الخلود ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٥﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٦﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٧﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المطففين : ٢٩ - ٣٦] (*) .

وسبب نزول هذه الآيات : ما روي أن علياً وجمعاً من المؤمنين أمثال عمار بن ياسر ، وصهيب الرومي ، وخبّاب بن الأرت ، وبلال بن رباح وغيرهم ، مروا بجمع من كفار قريش أمثال : أبي جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبي معيط ، والأسود ابن عبد يغوث ، والنضر بن الحارث ، فضحكوا منهم ، واستخفوا بهم عبثاً ، وقبل أن يصل المؤمنون إلى الرسول ﷺ نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٣١﴾ الخ الآيات (٣) .

وقد نزلت هذه الآيات ؛ لتبين الطريقة التي كان يسخر بها المشركون من المؤمنين ، وبخاصة من فقراء المسلمين وضعفائهم ؛ حيث إن المشركين كانوا يتخذون من شأن هؤلاء المسلمين الفقراء الضعاف تسلية لمجالسهم ، وترفيها عن أنفسهم ، فيتناولون الحديث عنهم بالضحك والاستهزاء والتندر ، ويترقبون مرور أحدهم فينظر بعضهم إلى بعض مطبقين عليه ما كانوا يتندرون به ، وهذا السرور الذي غمر نفوسهم من هذا التندر لا ينتهي بانقضاء

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ٢٠٦ .

(٢) ينظر : البقرة ١٣-١٤ والنساء ٥١ والتوبة ٧٩ ومريم ٧٣ والمؤمنون ١١١ والعنكبوت ١٢ والروم ٥٨ ويس ٤٧ وص ٦٢-٦٣ والأحقاف ١١ والمطففين ٢٩-٣٢ .

(*) **فكهيين :** متلذذين فرحين ، ناعمين معجبين بما هم فيه ، وتقول العرب للرجل إذا كان يتفكه بالطعام أو بالفاكهة ، أو بأعراض الناس : إن فلانا لفكّه بكذا (المعجم الجامع لمفردات غريب القرآن - فكه) (لسان العرب - فكه) والأرائك : الأسرة العالية المزينة التي من حسناتها صالحة لأن يقيم المتكئ عليها (لسان العرب - أرك) .

(٣) ينظر : الكشاف ٤ / ٧٢٤ - والبحر المحيط ٨ / ٤٣٥ .

مجالسهم ، بل ينقلونه معهم إلى بيوتهم ؛ ليكملوا المتعة به عند أهلهم ، مستعدين حينئذ أحاديث سخرياتهم بهؤلاء المسلمين ، ومن وراء هذه السخریات يريدون أن يقولوا لعامة الناس وسوادهم من المشركين : إن هؤلاء المسلمين ضالون ، ولكن النص الكريم يرد على سخريتهم بالمسلمين ببيان أن المشركين لم يرسلوا حافظين على المؤمنين؛ يحفظون أعمالهم ، أو يشهدون برشدهم وضلالهم ، ويوم القيامة يضحك منهم المسلمون وهم في الجنة ينعمون كما ضحك الكفار منهم في الدنيا جزاء وفاقا .

وقد رسم القرآن الكريم في هذه الآيات صورا لسخرية الذين أجمروا من الذين آمنوا ، وسوء أدبهم معهم ، وتناولهم عليهم ، في أربعة شواهد جاءت كلها بصيغة الخبر :
- الشاهد الأول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .

وموطن السخرية واضح في الفعل ﴿ يضحكون ﴾ الصادر من المشركين ، حيث جاء بصيغة المضارع ؛ للدلالة على تكرار الضحك منهم كلما مر عليهم المؤمنون ، فغرضه إثبات السخرية الواردة منهم تجاه الذين آمنوا كلما رأوهم .

وهذه السخرية جاءت في أسلوب خبري ، مؤكد بيان والجملة الاسمية ؛ لإفادة الاهتمام بمضمونه ، وتوجيه السامعين إلى ضرورة استماعه ؛ للإشعار بأنه خبر مهم ؛ وكذا لأن ذوي المروءات ، والهمم العالية ، والطبع السليم ، لا يصدّق مثل هذا لأنه عيب ، ولا يجوز أن يحدث " فأكد الخبر للإشارة إلى أن من حقه ألا يكون " (١) ، وللتهوين من قيمة تلك السخرية وأنها غير ذات شأن ، ووصف هؤلاء المشركين المستهزئين بـ ﴿ الذين أجمروا ﴾ ؛ لتحقيرهم ودمهم بما في حيز الصلة ؛ وللإشارة إلى أن استهزاءهم بالمسلمين المستضعفين ، إنما هو جريمة نكراء في حق المؤمنين ، وأن ما فعلوه من السخرية والضحك إنما ينبئ عن طبع مجرم خسيس ، وعبر بالفعل الماضي : ﴿ أجمروا ﴾ و ﴿ كانوا ﴾ ؛ للتنبيه على أن صفة الإجمام - التي هي من طبعهم - ملازمة لهم لا تنفك عنهم ، كما قدم الجار والمجرور ﴿ من الذين آمنوا ﴾ على الفعل ﴿ يضحكون ﴾ " لإفادة القصر؛ إشعارا بغاية شناعة ما فعلوا ، أولمراعاة الفواصل " (٢).

والحقيقة أن وصف المشركين بـ ﴿ الذين أجمروا ﴾ هنا ؛ امتداد لصفته الملازمة لهم

السابق ورودها في سورة الأنعام ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أُولِي بُرْهَانٍ ﴾ [الأنعام : ٥٥] واستبانة سبيل المجرمين إنما هي ضرورة لاستبانة سبيل المؤمنين ، وآية المطففين التي معنا هي نوع من استبانة سبيل المجرمين ؛ فالكفر ، والحقد ، والحسد ، واحتقار المسلمين هو سبيلهم للقضاء على هذا الدين ، وعندما يصرح القرآن بأنه جعل لكل نبيّ عدواً من المجرمين في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان من / ٣١] ، فذلك ليستقر في نفس النبي ﷺ ونفوس المؤمنين ، أن الذين يعادونهم إنما هم مجرمون ؛ حتى تهدأ نفسياتهم ، ولا ينزعجون من هذه السخرية التي تهدم جبلاً ويثبتون على الدين ، وعلى عقيدتهم الراسخة .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٠ / ٥٤٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩ / ١٢٩ .

والشاهد الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ :

وموطن السخرية في الفعل ﴿ يتغامزون ﴾ ؛ حيث جاء بصيغة المضارع ؛ للدلالة على التكرار ؛ أي تكرار سخرية المشركين كلما تكرر مرور المسلمين عليهم ، فالسخرية غير مرهونة بوقت محدد .

والحقيقة أن إيثار الفعل ﴿ يتغامزون ﴾ بدلا من ﴿ يغمزون ﴾ أصاب المحز وطبق المفصل لما فيه من التفاعل والدلالة على تحريض بعضهم بعضا على السخرية والغمز ، كما أن المدّ بالألف فيه معنى التطاول اللفظي والتكلف ، والتعسف ضد المسلمين ، وليس ذلك في سهولة ﴿ يغمزون ﴾ وليونتها ، والقصد أن السخرية ثابتة ، ومكررة ، سواء أكانت حركية أو مقالية (١) .

وإيثار النظم القرآني استعمال أداة الشرط ﴿ إذا ﴾ دون ﴿ إن ﴾ مع دخولها على الفعل الماضي ﴿ مروا ﴾ ؛ للدلالة على تحقق وقوع ذلك منهم ، وأنه مما لا شك في حدوثه ؛ وللايدان بأن السخرية مشروط فيها المرور ، سواء مر المسلمون عليهم ، أو مروا هم على المسلمين (٢) . وقد وصلت جملة ﴿ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ بجملة ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ السابقة ؛ للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاقهما خبرا ، لفظا ومعنى ، مع وجود الجامع بينهما ؛ وهو الاستهزاء بالمسلمين المستضعفين ، وسره : استكمال ما بدأه من استبانة سبيل هؤلاء المجرمين الساخرين .

أما الشاهد الثالث ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ .

وهو خبر يفيد مدى تأثير سخرية المشركين على نفسياتهم الحارة المغتظة من المسلمين ، ويشير إلى تحولهم " وتعدادهم ذاك الصنيع من أحسن ما اكتسبوه في غيبتهم عن أهلهم ، أو إلى أن له وقعا في قلوبهم " (٣) .

وقد صاغ النظم القرآني هذا الخبر بألفاظ دقيقة ، وصور بلاغية ؛ لتوضيح ذلك الغرض ، وإماطة اللثام عن الحالة النفسية التي يعيشها هؤلاء المجرمون عندما يرجعون إلى أهلهم بعدما سخروا من المؤمنين ، وخاضوا في أعراضهم .
- تأمل الفعل ﴿ انقلبوا ﴾ وما فيه من استعارة الانقلاب للانصراف بجامع التحول في كل ، استعارة تصريحية تبعية ؛ للدلالة على تحول حالهم من الغيظ والحقد والحسد ، وغيره ، مما يؤثر في نفوسهم عند رؤية المؤمنين إلى حالة الفرح والتلذذ والإعجاب بهذه السخرية ، وبما هم عليه من الكفر عند عودتهم إلى بيوتهم ، ولا شك أن الاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة في الكشف عن حالهم ، والمبالغة فيها .

(١) التغامز : الغمز : الإشارة بالعين والحاجب والجفن ، وقيل معناه " يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم " وعلى هذا الرأي تكون السخرية حركية لا مقالية ، وعلى الرأي القائل بأن التغامز معناه : العيب ، ويتغامزون معناها : يعيبون ويعيرون المسلمين بالإسلام ، فتكون السخرية مقالية لا حركية - ينظر : (الكشاف / ٤ / ٧٢٤) ، و (لسان العرب - غمز) .

(٢) الضمير في (مروا) " يجوز أن يعود إلى (الذين أجرموا) ، فيكون ضمير (بهم) عائدا إلى (الذين آمنوا) ، ويجوز العكس والمعنى : وإذا مر الذين أجرموا بالذين آمنوا - وهم في عملهم وفي عسر حالهم - يتغامز المجرمون حين مرورهم ، أو إذا مر المؤمنون بالذين أجرموا - وهم في مجالسهم - يتغامز المجرمون حين مرور المؤمنين " وهو الأظهر .
(التحرير والتنوير / ٣٠ / ٢١١) .

(٣) روح المعاني / ٣٠ / ٧٧ .

وتأمل تكرار الفعل ﴿ انقلبوا ﴾ ؛ لزيادة تقرير معناه في الذهن ؛ حيث إنه مما ينبغي الاعتناء به ؛ لكونه مستنكرا ، ولا يجب أن يكون ، ثم إثثار التعبير بالحال ﴿ فكهين ﴾ دون (فرحين) أو (مسرورين) مثلا ؛ للدلالة على شدة الفرحة التي تسيطر على هؤلاء ؛ بسبب الخوض في المسلمين ، والاستهزاء بهم ، كفرحهم وتلذذهم بصنوف الأطعمة والفواكه .
ناهيك عن حذف متعلق ﴿ فكهين ﴾ وتقديره : " فكهين بالتحدث عن المؤمنين " (١) ؛ لتذهب النفس في تقديره أي مذهب .

وجاء الشاهد الرابع للسخرية في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴾ ، ختاماً لمشهد سخرية المشركين من المؤمنين في الدنيا ، حيث بدئ بـ ﴿ إذا ﴾ الشرطية ، والتي تكررت ثلاث مرات في ثلاث آيات متتابعات ؛ للتصعيد في شدة إنكار هذه التصرفات الصادرة منهم تجاه المؤمنين ؛ والدلالة على تحقق وقوع الجواب لتحقيق الشرط ، بدليل التعبير بالفعل ﴿ رأوهم ﴾ والفعل ﴿ قالوا ﴾ ، واختصاص حصول القول بحصول فعل الرؤية الدال على اليقين

أما قول المشركين ﴿ إن هؤلاء لضالون ﴾ عند رؤيتهم للمؤمنين ؛ فهو موطن السخرية ، وموضع الشاهد ، حيث جاءوا به مؤكداً بيانً واللام والجملة الاسمية ؛ لأنهم يستشعرون أن ذوي العقول والإنصاف يكذبونهم فيما يقولون بشأن المؤمنين ، وينكرون عليهم ذلك .
لذا سعدوا في شدة السخرية بالإشارة إلى المسلمين بـ ﴿ هؤلاء ﴾ تحقيراً لهم ، وسخرية منهم ، واستهزاء ، إلى جانب العناية بوصف المؤمنين مطلقاً ، لا خصوص المرئيين منهم . ليس هذا فحسب ، بل إنهم أوردوا الوصف ﴿ لضالون ﴾ (٢) باللام ؛ للتأكيد على ضلال المسلمين على حد زعمهم الكاذب الفاسد ، وزيادة في التأكيد أوردوا الوصف بصيغة اسم الفاعل دون غيره ؛ فلم يقولوا : (يضلون) مثلاً ؛ للإيحاء بتوغل المسلمين - حاشاهم - في الضلال ، وفساد الرأي وبلوغهم فيه مبلغاً بعيداً ؛ بسبب اتباعهم الإسلام .

كما أن قول المشركين : ﴿ إن هؤلاء لضالون ﴾ بعد الفعل (يضحكون) و(يتغامزون) والاسم (فكهين) ؛ فيه إشعار بالتصعيد في حدة السخرية والغضب ، من مجرد الضحك والتغامز فيما بينهم ، إلى المواجهة بالسخرية الصريحة ، ولذا رد المولى - عز وجل - عليهم مباشرة بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ ؛ لإنكار ذلك عليهم ؛ لأنهم نسبوا المسلمين إلى الضلال ، وليسوا موكلين بهم ، ولا حافظين عليهم أحوالهم ، كما أسند الفعل لما لم يسم فاعله فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ لزيادة احتقار هؤلاء المشركين ، وتهكما بهم ، ولتنزيه الله - سبحانه وتعالى - أن يُذكر في هذا السياق ، أو أن يقرن اسمه المقدس مع هؤلاء المجرمين .
بل إن النظم القرآني قدم الجار والمجرور ﴿ عليهم ﴾ على متعلقه ﴿ حافظين ﴾ ؛ للعناية والاهتمام بمدخول حرف الاستعلاء ؛ وهم المسلمون ، إلى جانب مراعاة الفاصلة ؛ كما أن هذا التقديم يفيد أنهم لم يرسلوا حافظين عليهم ولا على غيرهم ، فمهمتهم التبليغ ؛ لأنه لو

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢١٣

(٢) المراد بـ (الضلال) هنا : فساد الرأي ؛ لأن المشركين لا يعرفون الضلال الشرعي ، أي : هؤلاء سيئوا الرأي إذا اتبعوا الإسلام ، وانسلخوا عن قومهم ، وفرطوا في نعيم الحياة طمعا في نعيم بعد الموت . (ينظر السابق ، الصفحة نفسها) .

قال : (حافظين عليهم) لكان المعنى أنهم أرسلوا حافظين على غيرهم لا عليهم ، وليس هذا بمراد الآية ، ولا الموقف محتمل له البتة ، وعلى هذا فالآية " فيها تهكم وسخرية بالكفار ، كأنه يقول : أنا ما أرسلتهم رقباء ، ولا وكلتهم بحفظ أعمال عبادي المؤمنين ، حتى يرشدوهم إلى مصالحتهم فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيههم " (١) ، كما أن الحفظ - هنا - معناه : الرقابة (٢) ، وكان المقضى أن يعدى إليه ب (إلى) فيقال : ﴿ وما أرسلوا إليهم ﴾ ، ولكنه عدى ب (على) الدال على الاستعلاء المجازي ؛ ليتسلط النفي على مدخول الحرف ؛ وهو الإرسال والحفظ ، فتمتكن فكرة عدم إرسالهم وحفظهم للمؤمنين في النفس غاية التمكن .

واستكمالا لسخرية القرآن من المشركين ، ولما كانت الآيات المتقدمة قد نيطت بيوم القيامة وأن الويل يومئذ للمكذابين ، ساغ أن يقول : ﴿ قَالِيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ وهي جملة خبرية تدل على سخرية الذين آمنوا من الكفار يوم القيامة ، ومجئها بعد جملة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ من باب المشاكلة التحقيقية كما في قوله : ﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة - من / ١٩٤] ، وقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا ﴾ [الشورى من / ٤٠] ، فكما ضحك الكفار من الذين آمنوا في الدنيا سخرية واستهزاء ، يضحك المؤمنون من عذاب الكفار وبلائهم يوم القيامة ؛ سخرية واستهزاء أيضا ، فكان الجزاء من جنس العمل ، والمشاكلة - هنا - بين الجمل ، وهي لون بلاغي جديد ينبغي أن يكون له نصيب من الدراسة في علم البلاغة . وقد تعانقت في هذه الجملة الخبرية الصور والأساليب البلاغية ، والألفاظ الموحية ؛ لتكشف عن دورها في إبراز السخرية وقوتها :

حيث بدئت بالتعبير عن يوم القيامة ب ﴿ اليوم ﴾ ؛ للإيحاء بقوة الخطاب ، وشدة الغضب في الرد على هؤلاء الكافرين المستهزئين ، واقترن بفاء السببية ؛ للدلالة على أن استهزاءهم بالمؤمنين في الدنيا كان سببا في جزائهم بما هو من نوعه في الآخرة ، إذ جعل الله الذين آمنوا يضحكون من المشركين ، فكان جزاء وفاقا ، إضافة إلى الإيحاء بسرعة التحول في المشهد الساخر ؛ من سخرية الكافرين من المؤمنين في الدنيا ، إلى سخرية المؤمنين منهم في الآخرة ، كأن الدنيا قد انقضت على عجل ، وجاء يوم القيامة ؛ ليأخذ المؤمنون حقهم كاملا من هؤلاء المجرمين الذين سخروا منهم ، وصياغة (اليوم) معرفا بأل العهدية ، ومفردا ؛ للدلالة على يوم معين ، معهود ، ومعروف لمن آمن به ، ومن لم يؤمن ، ولتعظيمه ؛ على الرغم من عدم حدوثه بعد ، فيكون ﴿ اليوم ﴾ مجازا مرسلا باعتبار ما سيكون ، والقرينة دلالة الحال ؛ لأن سخرية المسلمين من المشركين ، ودخول المشركين النار ، وتنعيم المؤمنين على الأرائك ، إنما هو حاصل يوم القيامة لا وقت زمن التكلم ، وإنما عبر به - هنا - ؛ للدلالة على تأكيد وقوعه في المستقبل ، فكأنه حاصل فعلا .

كما أن القصر الإضافي بتقديم المسند إليه ﴿ الذين آمنوا ﴾ على المسند الفعلي ﴿ يضحكون ﴾

(١) صفة التفاسير ١٥٩٠ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٣٠ / ٢١٤ .

إنما صيغ ؛ للدلالة على زوال استهزاء المشركين بالمؤمنين ، وحصول العكس ؛ وهو الضحك سخريه واستهزاء من المشركين ؛ بدليل التعبير بالفعل الماضي (كانوا) في قوله تعالى سابقا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .

وتقديم الجار والمجرور ﴿ من الكفار ﴾ على متعلقه ﴿ يضحكون ﴾ ؛ للاهتمام بالضحك منهم - وهم الكفار- تعجيلا لإساءتهم عند سماع هذا التقرير (١) ، كما أن إظهار ﴿ الكفار ﴾ في مقام الإضمار ؛ فلم يقل ﴿ منهم يضحكون ﴾ ؛ لدم هؤلاء الكفار بوصفهم بالكفر ، ونعتهم به ، وتعليل لضحك وسخرية المؤمنين منهم ، وهو كفرهم المؤدي بهم إلى الدخول في النار . وفي المقابل التعبير بالموصول وصلته عن المؤمنين ﴿ الذين ءامنوا ﴾ ؛ للمدح والثناء عليهم ، والإيماء إلى تحقيق الخبر ، فالفوز في الآخرة ، والضحك على الكفار في ذلك اليوم العصيب سبب عن إيمانهم ، ويمكن أن يكون السر في التعبير عنهم بالموصول وصلته : اشتهاهم بمضمون الصلة ، بحيث إذا أطلقت انصرفت إليهم ، وفي ذلك تعظيم لهم وإعلاء لشأنهم ، ولا شك أن الطباق بين ﴿ الذين ءامنوا ﴾ و ﴿ الكفار ﴾ وضح ذلك المعنى ، وأكده أيما تأكيد .

أما قوله تعالى : ﴿ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؛ فجاء ختاماً للسخرية من المشركين بالاستفهام التقريري التهكمي ، الموجه إلى كل كافر يسمع إلى يوم القيامة ، والسخرية في الآية واضحة في الفعل المبني للمجهول : ﴿ تُؤِيبُ ﴾ ؛ على أساس أن الثواب كما يذكر الطاهر ابن عاشور : ما يجازى به من الخير على فعل محمود (٢) ، واستعماله في عقاب الشر- هنا - من باب الاستعارة التهكمية ، والقرينة هنا (الكفار) ، والغرض من استعارة الثواب للجزاء والعقاب : هو التهكم بهم ، والسخرية منهم ؛ بسبب ما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من الاستهزاء والضحك منهم في الدنيا ، كما أنّ في هذا القول مزيد غيظ وتوبيخ للكافرين ، ونوع سرور وتنفيس للمؤمنين ، ومجيئه مبنيًا للمجهول ؛ للدلالة على أن المتلذذ به هو مطلق مجازاتهم وعقابهم (٣) .

ولا شك أن الختام بالكناية عن سخريتهم بالمؤمنين ، واستهزائهم بهم بجملة : ﴿ ما كانوا يفعلون ﴾ وهي كناية عن صفة ؛ فيه دلالة على أن ما فعله المشركون أقبح من أن يذكر صريحا إضافة إلى إخفائه ؛ لتذهب النفس في تفسيره أي مذهب ، فيضاف إلى سخريتهم : كفرهم بآيات الله ، وحقدهم ، وحسداهم للمؤمنين وغير ذلك من الصفات الذميمة التي يمكن دخولها في زمرة ما كانوا يفعلون .

والخلاصة :

إن مجرد نقل القرآن الكريم هذه السخرية عن المشركين ، يعتبر في ذاته استهانة بهم وبسخريتهم ، واستخفافا بأثرها ؛ وسخرية منهم أيضا من ناحيتين : من سلوكهم في الدنيا نحو المؤمنين ، ومن وضعهم في الآخرة وهم يعذبون ، وهذا رد على سخريتهم من المسلمين ، والهدف من ذلك كله هو : تقوية الجانب المعنوي للمسلمين ، والتهوين من قدر المشركين ، بل ودعوتهم من وراء حجاب إلى أن يفيقوا من غفلتهم قبل فوات الأوان .

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠ / ٢١٥ .

(٢) ينظر : السابق ٣٠ / ٢١٦ . و(لسان العرب - ثوب) .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠ / ٢١٦ .

المبحث الثاني

السخرية من معتقدات المشركين الباطلة

المبحث الثاني

السخرية من معتقدات المشركين الباطلة

لما كانت العقيدة هي نقطة الصراع بين الإسلام والمشركين ، فقد كان تركيز سخرية القرآن الكريم على ما يتصل بهذه النقطة واضحا ، بحيث تجعل الشعور بالجهل والسفاهة ينحدر على المشركين من كل وجه ، ويأخذ عليهم أقطار تفكيرهم ومشاعرهم ، ولا يبقى لهم بصيص أمل يتعلقون به لموقفهم من الشرك ، فمن العجب العجائب أن ترى هؤلاء أنكروا وحدانية الله ، وعبدوا أصناما صنعوها بأيديهم من حجارة صماء ، ليس من طبيعة تكوينها إجابة من يدعوها فهي لا تسمع دعاءً ، ولا تجيب نداءً ، وهذه سذاجة وسخافة لا يقبلها عقل بشري .
ومن هنا فالقرآن الكريم - بنظمه الفريد - قد واجههم بسخافة عقولهم ، وزيف أفكارهم ، فلاحقهم بالحجة تلو الحجة ، حتى هدم صرح الوثنية الواهن فوق رؤوسهم .
وقد ركزت سخرية القرآن من معتقدات المشركين الباطلة على نقطتين رئيسيتين لا تنفك إحداها عن الأخرى :

- الأولى : السخرية من إشراك غير الله في العبادة .

- والثانية : السخرية المصورة لحقيقة الألوهة المزعومة التي يعبدونها .

وقد ورد هذا النوع من السخرية في القرآن الكريم في ثلاث وخمسين آية تقريبا (١)

منها قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ الأنعام ٢٢ - ٢٤ .

فهذه الآيات تجعل من كلام المشركين مادة للإهانة والسخرية بهم ؛ حيث يسألهم الله ﷻ عن شركائهم الذين كانوا يعبدونهم ، ويبدو أنهم استبشعوا حينئذ مجرد تصور أنهم كانوا يشركون بالله معبودا آخر ، ورأوا فيه أمرا منكرا ، فأسرعوا ينكرونه ، وينفون أنهم كانوا يشركون بالله في الدنيا قائلين : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، ويبين القرآن إصرارهم على الكذب وهم في هذا الموقف الصعب ، فلا يكذبون حينئذ على الله ﷻ ، وإنما يكذبون على أنفسهم قائلا : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ ، ولا شك أن في إنكارهم الشرك ، وحلفهم على ذلك ثم وصفهم بأنهم يكذبون على أنفسهم ، ثم ضلال آلهتهم واختفائها عن أعينهم كل ذلك تفرغ لهم وتهكم بهم .

ومنها - أيضا - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَوْتُوا

غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ النحل : ٢٠ ، ٢١ ، والتهكم في الآيتين في قوله : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ على أساس أن المقصود بالكلام الأصنام التي اتخذوها آلهة من دون الله تعالى ، فهذه الأصنام المزعومة لا تشعر أيان يبعث عبدتها من الكفار ، وكأن هذه الأصنام مما

(١) ينظر النساء ١١٦ - الأنعام ٢٢ ، ٥٦ ، ٩٤ - الأعراف ١٧٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، يونس ١٨ ، ٦٦ - هود ١٠١ - الرعد ١٤ ، ١٦ ، ٢٣ - النحل ٢٠ ، ٢١ ، ٨٦ ، ٧٣ - الإسراء ٥٦ - الكهف ٥٢ - الأنبياء ٩٨ ، ٩٩ - الحج ٣١ ، ٧١ ، ٧٣ - الفرقان ١٤ ، ١٧ ، ٥٥ - النمل ٢٧ ، ٥٩ - القصص ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٤ - العنكبوت ٤١ - سبأ ٢٧ ، ٤٠ - فاطر ١٣ ، ١٤ ، ٤٠ - الصافات ٢٥ ، ٢٦ - الزمر ٣٨ - غافر ٢٠ ، ٧٣ ، ٧٤ - فصلت ٤٧ ، ٤٨ - الشورى ٤٦ - الأحقاف ٤ - القلم ٤١ .

يتصور حصول ذلك منها ، لكن المراد من الكلام التهكم بهم ؛ لأن شعور الجمادات بالأمور الظاهرة بدهي ؛ لاستحالاته عند كل أحد ، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير (١) ، فإذا تقرر أن الجماد لا يشعر بما هو مشاهد ، فلا حاجة إلى نفي علمهم بما هو أعظم من ذلك ، لا سيما أمر البعث الذي لا يعلمه إلا الله وحده ، لكن في ذلك كمال السخرية بهم ، والازدراء عليهم كيف نصبوا هذه الأصنام آلهة من دون الله تعالى ، إلى جانب ما يحمله هذا الخطاب من تجهيلهم ، وبيان قلة بصيرتهم ، حيث إنهم لا يفهمون إلا بالتصريح .

وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ [الكهف : ٥٢] .

فإن توجيه الأمر للمشركين أن ينادوا آلهتهم التي عبدوها من دون الله تعالى ؛ لتستجيب لهم وترد عليهم ، لهو غاية التهكم بهم ؛ لأنه لا يخفى على كل عاقل أن استجاباتهم مستحيلة ، ولكن الله - تعالى - جعلها في حكم من يرجى منه السماع والاستجابة ، يقول أبو السعود (رحمه الله) " معلوم ان الشركاء لا يستجيبون ؛ إذ لا إمكان لذلك ، وفي إيرادهم مع ظهوره تهكم بهم ، وإيدان بأنهم في حماقة ، بحيث لا يفهمون إلا بالتصريح به " (٢) .

ومنها - أيضا - قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ [القصص : ٦٢ - ٦٦] .

حيث تضمنت الآيات بعض مواضع السخرية من المشركين ، منها قوله تعالى : ﴿ أين شركائي ﴾ ، فمن البدهي أنه ليس لله شركاء ، وكون الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يسألهم عن شركائه الذين لا وجود لهم سخريه واضحة بالمشركين ، وكما يقول الزمخشري : " مبني على زعمهم ، وفيه تهكم " (٣) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ماذا أجبتهم المرسلين ﴾ ، فالله - سبحانه وتعالى - يعلم إجاباتهم للمرسلين ، وهم يعلمون بماذا أجابوا ، فكون الله يسألهم مع علمه ، وكون المرسلين أعرف الناس بإجابة السؤال ؛ لأنهم هم الذين أجابوا ، لهو قمة السخرية بهم ، وبيان أنهم في موقف مخجل ؛ لأنهم لن يستطيعوا الإجابة على سؤال الله - سبحانه - بدليل قوله تعالى : ﴿ فعमित عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ .

وفيما يلي من صفحات سأعرض شواهد أخرى لتلك السخرية ، وأتناولها بالتحليل البلاغي المفصل ؛ لإثبات سفاهة هؤلاء المشركين ، وضلالهم في عبادة الأصنام والأوثان ، إلى جانب كشف النقاب عن حقيقة هذه الآلهة المزعومة ، وبيان عجزها أمام معبوديها .

(١) ينظر إرشاد العقل السليم ١٠٦ / ٥ - وفتح القدير للشوكاني ١٠٦ / ٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٢٩ / ٥ .

(٣) تفسير الكشاف ٤٣٠ / ٣ .

يقول الله - تعالى - في بيان جهل المشركين ، وسفاهة عقولهم ، في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ، وليس لها شعور : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١١٤) أَلْهَمْ أَرْجُلَ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ [الأعراف : ١٩٤ - ١٩٦] .

" ففي هذه الآيات يوجه الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين : إن الذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - خاضعون لله ، من حيث كونهم مسخرين لأمره مثلكم ، فإن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على شيء فاطلبوه منهم ، فلن يحققوه لكم ، بل إن هذه الأصنام أقل منكم في الخلق والتكوين ، ثم يسألهم : ألهم أرجل يمشون بها لنصرتكم ؟ أو أيد يدفعون بها الضر عنكم وعنهم ، أو أعين يبصرون بها ؟ أو آذان يسمعون بها ما تطلبون فيحققونه لكم ؟ وإذا كنتم تتوهمون أنها تنزل الضرب بي ، أو بأحد فنادوها ، ودبروا لي معها ما تشاءون من غير إهمال ، فإني لا أبالي بها ولا بكم ؛ لاعتمادي على الله - جل وعلا - فهو سبحانه الذي له ولايتي وهو الذي أنزل عليّ القرآن ، وهو - وحده - الذي ينصر الصالحين من عباده " (١) .

وقد جاءت هذه الآيات في ختام سورة الأعراف - وهي سورة مكية طويلة تثبت خبر التوحيد - ؛ إثر ما ذكره الله - عز وجل - من تبكيت المشركين الذين ادعوا أنهم أعقل الناس ، وأبعدهم عن النقائص ، وهم يشركون به - سبحانه - مالا ينفع ولا يضر ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً في قوله : ﴿ أَسْئِرُكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُظَنُّونَ ﴾ (١١٦) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٧﴾ [الأعراف : ١٩١ - ١٩٢] ، فأكمل الله - عز وجل - تبكيتهم وتوبيخهم في هذه الآيات بأسلوب آخر أوضح وأقذع في تبيين النقائص ، والتنبيه على المعاييب ؛ وهو أسلوب السخرية والتهكم ، فسخر من هذه الأحجار التي اتخذها المشركون آلهة ، وبيّن جهل المشركين ، وسفاهة عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ، ولا تبصر ، وليس لها شعور ، ولا إدراك ؛ لأنها فقدت الحواس ، والأعضاء ، " بل إن الإنسان - مع ضعفه - لهو أكمل منها ؛ لتمتعه بالعقل والحواس ، فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن ينشغل بعبادة الأدون " (٢) .

وأول شواهد هذه السخرية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ،
ومنبع السخرية أت من تشبيه تلك الأصنام بالكفار لا من كل الوجوه ، بل من جهة كون الأصنام مخلوقة ، ومملوكة ومسخرة لله - تعالى - بالإضافة إلى أنها تشبههم في العجز ، وتشبيه الأصنام بعبادتها مع أنها أشد عجزاً منهم يرجع إلى أنهم يعتقدون أنها قادرة ، وهم عاجزون ، لذا ساوى بينهم في العجز ، وجمع بين العابد والمعبود في مثال واحد قائم على التشبيه ؛ للدلالة على حقارة الطرفين ، والتحقير - لا شك - من معاني السخرية .

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٢٨٢ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : قيس من نور القرآن - د / محمد علي الصابوني ٣ / ١٠٣ - ط ١ - ١٤٠٧ - ١٩٨٧ - دار القلم - دمشق .

والسر البلاغي في اختيار النظم القرآني كلمة (عباد) هنا ؛ هو التهكم والسخرية لاريب ؛ لأن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء ، فإن ثبت ذلك فالمعنى - والكلام موجه للكافرين - أنهم عباد أمثالكم ، لا تفاضل بينكم ، فلم جعلتم أنفسكم عبيدا ، وجعلتم الأصنام أربابا لكم؟! (١) وفي ذلك تفرغ لهم بالغ ، وتوبيخ لهم عظيم .

أما السر في تسمية الأصنام بالعباد ؛ فللاستدراج لهم بالنزول على معتقدتهم فيها أنها تنفع وتضر ، فافتضى ذلك أن تكون عاقلة ، فجاء التعبير على وفق معتقدتهم ؛ ليبلغ بهم النظم القرآني نور الحق المبين الذين يغفلون عنه ، أو أن ذلك من باب التغليب ؛ لأن من بين ما يعبدون : الملائكة ، والجن ، وبعض الصالحين من ذرية آدم - عليه السلام - فغلب العقلاء على غيرهم ؛ أو لأن هذه الأصنام إنما هي صورٌ لأشخاص كانوا أحياء ، فلما ماتوا جسدا صورهم ، ثم نظروا إليها ، وكأنهم ما زالوا أحياء . (٢) .

" والازدواج في عقائد مشركي العرب بين الأصنام الظاهرة والرموز الباطنة هو - فيما نحسب - السبب في مخاطبتهم هكذا ، مرة بضمير العاقل ملحوظا فيه ما وراء الأصنام من الرموز ، ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها ، وأنها فاقدة للحياة والحركة ، وهي في مجموعها ظاهرة البطلان في منطق العقل البشري ذاته ، الذي يوقظه القرآن ، ويرفعه عن هذه الغفلة المزرية " (٣) .

وهذا رأي له وجهاته ، لكني أرى في مجيء التعبير عن الأصنام بـ (العباد) سرا بلاغيا آخر هو : أن كلمة (العبد) تطلق في اللغة على المخلوق المملوك (٤) ، وهذه الأصنام مخلوقة مملوكة لله - عز وجل - كسائر المخلوقات ، مسخرة لعبادته سبحانه ، فيكون المراد - والله أعلم بمراده - أن هذه الأحجار التي تعبدونها أيها المشركون مخلوقة مسخرة لربها ، مسبحة له كسائر المخلوقات ، فكيف يعبد العبد العبد؟ وإذا كانت هذه الأحجار الصماء تسبح بحمد ربها ، خالقها وبارئها ، وهي دونكم في الخلق ، فكيف تتأون أنتم أرباب العقول والقلوب والأسماع والأبصار عن عبادة ربكم؟! أليق بكم هذا؟! .

وفي ذلك منتهى التوبيخ والتفريع والتبكييت لهم ، ولهذا الذي رأيت - والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده - جاء التعبير بـ (العباد) دون (العبيد) ، فكما قال ابن جني رحمه الله : " أكثر اللغة أن تستعمل (العبيد) للناس ، و(العباد) لله " (٥) ، وجرى استعمال القرآن لفظ (العباد) في مضمرة الترفيع والدلالة على الطاعة (٦) ، ولكنه هنا استعمل لفظ (العباد) في مقام التوبيخ والسخرية والتهكم ؛ حتى يستيقظ المشركون من نومتهم ، ويفيقوا من غفلتهم ، فإذا كانوا أذلوا أنفسهم ، وأهانوها بعبادتهم هذه الأحجار العابدة لله ، فحريُّ بهم أن يترفعوا إلى عبادة خالقهم .

(١) ينظر الكشف ٢ / ٢٢٨ وما بعدها ، ومفاتيح الغيب ١٥ / ٩٦ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب ١٥ / ٧٥ - والجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٤٢ - والبحر المحيط ٤ / ٤٣٩ - والبيضاوي ٣ / ٨٤ .

(٣) الظلال ٣ / ١٤١٥ .

(٤) ينظر: (لسان العرب - عبد) .

(٥) المحتسب لأبي الفتح عثمان بن جني ٢ / ١٥٤ - جمع الإمام محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري - ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - لأبي محمد عبد الحق بن عطية ٢ / ٤٨١ - ت أحمد صادق الملاح - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

وبمعاودة النظر في أسلوب السخرية هنا ، نجد أنه اتكأ على أساليب وصور بلاغية تكشف عن قيمته وأثره ، فقد جاء الأسلوب الساخر في جملة خبرية مؤكدة بأن الجملة الاسمية ؛ تناسبا مع مقتضى حال المخاطبين ؛ حيث إن الخطاب للمشركين ، وهم ينكرون مساواة الأصنام إياهم في العبودية ، ويرفعونها إلى مقام الألوهية ، فناسب التأكيد مقتضى حالهم .

كما عرف النظم القرآني الأصنام التي لا تعقل ، باسم الموصول ﴿ الذين ﴾ الذي من شأنه أن يستعمل للعقلاء ، وفي هذا خروج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر ؛ وذلك لغرض بلاغي جليل ؛ هو مجارة المشركين في اعتقادهم أن هذه الأصنام ، تنفع وتضر ، فاقترض ذلك أن تكون عاقلة ، وفي هذا استدراج لهم للبلوغ بهم إلى معرفة حقيقة أصنامهم الزائفة ، فضلا عن التعفف عن ذكر الأصنام بأسمائها ؛ تحقيرا لها ، وازدراء لشأنها وصونا للسان عن النطق بها . واستعار الدعاء للعبادة في قوله : ﴿ تدعون ﴾ بمعنى تعبدون ، استعارة تصريحية تبعية في الفعل ، بجامع الاستعانة والتذلل والخضوع في كل ؛ لتجسيد المعنى وتصويره ، والمبالغة في تعلق المشركين بهذه الأصنام ، وجعلها آلهة ، كما أن في إطلاق الدعاء على العبادة إشارة إلى انه لا تصح عبادة من ليس أهلا للدعاء ، وكأن لفظ العبادة لغير الله لا يصح أن يذكر ولو في سياق البطلان والسخرية ، فهي دعوة يدعونها وليست عبادة حقيقية .

كما أن إيرادها بصيغة المضارع خاصة ؛ للدلالة على استمرارهم في الدعاء والتوسل دون تردد أو تراجع ، وهم أناس لهم عقل وفكر ، ومع ذلك يدعون ، ويتوسلون ، ويتضرعون لأحجار لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغني عنهم شيئا ، وهذا تشنيع بهم ، وتهكم بعقولهم بطريق التلويح ، وتقيد المسند ﴿ تدعون ﴾ بالجار والمجرور ﴿ من دون الله ﴾ ؛ للتنبيه على انحطاط رتبته عن رتبة الإلهية ، وبالتالي عدم استحقاقهم لأن توجه إليها العبادة ، وبالتالي تسفل وانحطاط عابديها لأنهم تركوا عبادة القادر الذي له صفات الكمال والعظمة والجلال ، وعبدوا شيئا دونيا لا قيمة له ولا يساوي شيئا ، وهذا تهكم بهم وبآلهتهم لا تنازع فيه العقول .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ مواطن ثان من مواطن السخرية بهم وبآلهتهم ، حيث لاحقهم النظم القرآني بما يحطم أحلامهم ، ويسفه أفكارهم بالأمر ﴿ فادعوهم ﴾ بفاء السببية ؛ لأنهم لما لم يسلموا أنهم أمثالهم ، تسبب عن ذلك أمرهم بدعائهم ؛ لبيان دعوى المثلية ، بل والدونية (١) ، وهو أسلوب في السخرية منهم ومن آلهتهم بليغ ، قائم على النزول على معتقدتهم باعتبارهم آلهة تجيب الدعاء ، وتنفع ، وتضر ، ثم إصدار الأمر لهم بالدعاء على سبيل التعجيز والتحدي ؛ ثم تصعيد السخرية منهم بالانتقال من تعجيز المشركين إلى تسفيه الأصنام بقوله : ﴿ فليستجيبوا لكم ﴾ ، والمتضمن إجابة الأصنام إياهم ؛ لأن نفس الدعاء ممكن ولكن استجابته ليست ممكنة ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ ﴾

﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ [فاطرمن / ١٤] ، فإذا دعوهم فلم يستجيبوا لهم ، تبين عجز الآلهة عن الاستجابة لهم ، وعجز المشركين عن تحصيلها ، مع حرصهم على تحصيلها ؛ لإنهاض

حجتهم ، فيؤول ظهور عجز الأصنام عن الاستجابة لعبادها إلى إثبات عجز المشركين عن

نهوض حجتهم لتلازم العجزين (١) .

كما أن الربط بالفاء الدالة على السرعة فيه دلالة بليغة على السخرية ؛ لأنها تدل على عجز هذه الآلهة عن الاستجابة ، حيث إن الإله الحق يجيب وليه عند التحدي من غير تخلف ، وهذا غير ممكن البتة ، ناهيك عن استخدام السين ، والتاء ؛ لتعجيزهم عن الإجابة ، فضلا عن الاستعداد لها ، ومن ثم خرج الأمر بالاستجابة عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي ، هو التعجيز والتبكيث ، والمعنى : أروني أي إجابة تكون منهم أيها السفهاء ، وأي نصره ، وأي نجدة ، وأنتم في أشد الحاجة إليها ، وفي ذلك منتهى التبكيث والتخجيل لهم .

ثم إن التذييل بالشرط **﴿ إن كنتم صادقين ﴾** ؛ لمزيد من التوبيخ والتهكم ؛ لأنهم لو كانوا صادقين لدعوا أصنامهم ، ولأجابتهم أصنامهم ، ولكن أئى لهم ذلك ، فالتعبير بأداة الشرط **﴿ إن ﴾** التي تفيد الشك مع تحقق عدم صدقهم ، إنما يفيد التهكم والاستهزاء بهم . كما أن حذف جواب الشرط - لدلالة المذكور عليه ، والتقدير : إن كنتم صادقين في إلهيتهم فادعوهم ، فليستجيبوا لكم - بتكرار الإسناد ؛ لتأكيد المعنى وتقريره ، فالجملة مقررلة لمضمون ما قبلها مؤكدة له ، إلى جانب زيادة التقرير والتوبيخ والتهكم .

وفي قوله تعالى : **﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها ﴾** تصعيد في حدة السخرية ، وتبكيث لهم إثر تبكيث ، وتوبيخ إثر توبيخ ، حيث اشتد وقع النظم عليهم بأربعة استفهات متتالية متلاحقة ؛ توبيخا لهم ، وسخرية منهم ، واقتلاعا لجذور وثنييتهم في أسلوب هو الغاية في إثبات عجزهم ، وهو أسلوب لاذع يؤكد أمر التعجيز ، وإثبات العجز ببيان أن ألهم المُدعاة أقل منهم رتبة ، فكيف يليق - بحكم العقل - أن يعُبد الأفضل من هو أقل منه رتبة؟! وقد فصل بين هذا الكلام والكلام السابق ؛ لكمال الاتصال بينهما ؛ لأن هذا الكلام مؤكد لما سبق.

وصياغة السخرية بهذه الألفاظ الدقيقة ، وتلك الأساليب البلاغية البارعة ، من البلاغة في الصميم لبيان حال هذه الأصنام :

- فالاستفهات المتوالية المتلاحقة في قوله : **﴿ ألهم أرجل يمشون بها ... ﴾** أفادت الإنكار والتعجيب ، إلى جانب دلالتها على التهكم والتوبيخ والتبكيث الذي يقتضيه حالهم ، فهم يعبدون أصناما لا تستطيع إجابتهم ؛ لأنها عاجزة ، ومن مظاهر عجزها : افتقادها للحواس التي بها تجيب فكأنه قيل - كما يذكر الإمام أبو السعود : " ألهم هذه الآلات التي بها تتحقق الاستجابة حتى يمكن استجابتهم ؟ فهو تبكيث إثر تبكيث ، مؤكّد لما يفيد الأمر التعجيزي من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية " (٢) .

فالإنكار فيها موجه إلى كل واحدة من هذه الجوارح الأربع على حدة ؛ تكريرا للتبكيث ، وثنائية للتقرير ، وإشعارا بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف في الدلالة على استحالة الإجابة .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٩ / ٢٢١ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٣ / ٣٠٦ .

كما أن الإنكار إما أن يتوجه إلى انتفاء هذه الأعضاء ، وانتفاء منافعها فيتسلط على المجموع ؛ لأنها ليست أعضاء حقيقية ، وإما أن يتوجه إلى انتفاء منافعها ، فيتسلط على الوصف ؛ لأنها وإن كانت مصورة فقد انتفت عنها المنفعة .
وأرى أن الإنكار موجه إلى الوصف ؛ لأنه مدار الإنكار ، وينتج عنه السخرية والتهكم ؛ فالناظر يرى لها أعضاء ، ولكن لا يرى لها حركة البتة .

وفي إتياع الأعضاء بهذه الأوصاف ﴿ **يمشون بها - يبطنون بها - يبصرون بها** - **يسمعون بها** ﴾ سر بلاغي هو الاحتراس عن توهم أن هذه الأعضاء نافعة ، فجيء بهذه الأوصاف لدفع هذا التوهم ، وللإشارة إلى أن هذه الأعضاء لا تحقق المطلوب منها ؛ لأنها جمادات ليس فيها حياة ، فهي ليست بأرجل على الحقيقة وكذا الكلام في باقي الجوارح ، ومجيء ﴿ **أرجل** ﴾ و ﴿ **أيدي** ﴾ و ﴿ **أعين** ﴾ و ﴿ **آذان** ﴾ بصيغة النكرة يشير إلى حقارتها ؛ لأنها مجرد أعضاء جامدة لا حركة لها ، ولا منفعة منها ، كما أن صياغتها بصورة جمع القلة فيه تناسب مع مقام نفيها عن هذه المعبودات .

ومن الملحوظ أن النظم القرآني بدأ بالأرجل ، ثم الأيدي ، ثم الأعين ، ثم الآذان ، فما السر البلاغي لهذا الترتيب ؟ يقولون : إن الغرض من ذلك هو الترقى من الأدون إلى الأعلى ؛ لأن اليد أشرف من الرجل ، والعين أشرف من اليد ، والسمع أشرف من البصر (١) .
وهو رأي له وجاهته ، خصوصاً وأن القرآن الكريم استعمل أعضاء بعينها لشرفها على غيرها كقوله تعالى : ﴿ **قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ [البقرة : ١٤٤] ،
والتولية لا تكون بالوجه فقط ، وقوله أيضاً : ﴿ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ** ﴾ [النساء : ٩٢] ، والعنق لا يكون للرقبة فقط أيضاً ، وهذا الاستدلال يندرج تحت باب (**نفي الشيء بإيجابه**) (٢) . فظاهر هذا الكلام يقتضي نفي هذه الجوارح ، وباطنه يقتضي نفي الألوهية جملة عن يسمع ويبصر من الآلهة المتخذة من دون الله ، فكيف بمن لا يسمع ولا يبصر منها (٣) .

ولذا أمر الله ﷺ رسوله الكريم - بعد هذا البيان الشافي لحال هذه الأصنام ، وتعاور وجوه النقص والعجز لها من كل باب - بأن يناصبهم المحاجة والتحدي ، ويكرر عليهم التبكيت وإلزام الحجر ، بأسلوب الأمر الساخر متبوعاً بأسلوب النهي الساخر : ﴿ **قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون** ﴾ **والسخرية** فيهما آتية من التعجيز الصارخ ، والاستهانة الواضحة بالخصم ، في الأمر بدعاء الشركاء بناء على زعمهم الواهم على أساس أنها مما ينبغي أن تُدعى ، ثم بعد إثبات عجزهم وسفاهة آلهتهم ، ملاحقتهم بالنهي الساخر ﴿ **فلا تنظرون** ﴾ لتأكيد الغرض السابق وهو التعجيز المؤدي إلى السخرية .

(١) ينظر الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ٣ / ٣٨ ، وأسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن للدكتور محمود شبخون / ٩٤ .
(٢) وهو أن يثبت المتكلم شيئاً في ظاهر كلامه ، ثم ينفي ما هو من سببه مجازاً ، والمنفي حقيقةً في باطن الكلام هو الذي أثبتته لا الذي نفيه ، يراجع : بديع القرآن لابن أبي الإصبع / ١٥٢ - تحقيق د : حفني شرف - ط٢ - دار نهضة مصر .
(٣) ينظر : السابق : الصفحة نفسها .

وبناء الأسلوب الساخر على الأساليب الإنشائية المتلاحقة ، وحروف العطف المخصوصة جعله بالغاً أقصى القوة في التحدي والتعجيز والسخرية : وبيان ذلك ما يأتي :

١- أن النظم القرآني وجه الأمر إلى النبي ﷺ بالفعل ﴿ قل ﴾ الذي يحمل بين طياته رسالة موجهة لهؤلاء المشركين ؛ لتعجيزهم ، وفضح أمرهم وهو - في الوقت نفسه - تلقينٌ له بالحجة ؛ ليقذف بها في وجه الخصم ، بحيث تأخذ عليه سمعه وتملك عليه قلبه ، فلا يستطيع التخلص منها.

٢- ثم أتبع الأمر السابق بالأمر التعجيزي : ﴿ ادعوا ﴾ ؛ لإظهار الاستهانة الواضحة بهم ، فعليهم أن يستعينوا بما شاءوا من شركائهم إن استطاعوا ذلك ، ولا شك أن التعبير بمادة (الدعاء) في أمرهم بالاستعانة بالشركاء ، فيه دلالة على افتقار الداعي إلى المدعو، وبالتالي افتقارهم في موقف التحدي والتعجيز إلى النجدة والنصرة ، وهو أسلوب في التهكم منهم بليغ .

٣- سمى آلهتهم ﴿ شركاء ﴾ بناءً على زعمهم الواهم في شركتهم لله - تعالى - في الإلهية ، وصاغها جمعا ؛ للإشارة إلى تفرقهم ، واختلاف مذاهبهم ، بما ينافي أمر الإلهية .

٤- وبعد أن أمرهم هذا الأمر التعجيزي التهكمي ، أعطى لهم المهلة ، ليجمعوا ما يستطيعون جمعه من شركاء ، دون استعجال لهم ، وهذا ما دل عليه العطف بثم ، وبعد أن افترض أنهم جمعوه ، لاحقهم بهذا الأمر الأكثر تعجيزاً ﴿ كيدون ﴾ وهذا هو قمة السخرية والإهانة لهؤلاء السفهاء ، وهذه الآلهة المدعاة ، وكان يكفي أن يقال: ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ لإثبات عجزهم ، ولكنه أتبعه بالأمر ﴿ كيدون ﴾ لعله ؛ هي أنهم كانوا قد خوفوه بآلهتهم ، فأمر أن يخاطبهم بهذا الأمر (١) .

٥ - ثم أتبع النظم القرآني هذا الأمر بأسلوب نهى يؤكد ما فيه من تعجيز وتحذُّ بقوله : ﴿ فلا تنظرون ﴾ ، ومن الملاحظ أنه عطف النهي بالفاء بينما عطف الأمر السابق بثم ؛ وذلك لمناسبة كل حرف لفعله الداخل عليه ، فعطف الكيد على دعوة الشركاء بثم ؛ لإعطاء الفرصة لاستجماع ما يمكن من الشركاء ، والاستظهار بهم ، حتى لا يتحججوا بالعجلة لو استعجلهم ، أما وقد أعطى لهم الفرصة فعليهم - إن جمعوا - شركاءهم - أن يسارعوا بكيده دون إمهال ، وهذا غاية في الاستهانة ، والسخرية ، وإعلان التحدي ، وفي الوقت نفسه فلا يقول هذا إلا الوثائق بعصمة الله - تعالى - كما يذكر الزمخشري وغيره (٢) .

وهكذا يتضح أن النظم القرآني في هذا الشاهد ، استخدم أقوى الحجج في مواجهة خصوم الدعوة ، فقد استدرجهم ، مسلماً لهم ببعض معتقداتهم ، ثم ترك لهم المجال ليثبتوا صحة دعواهم ولكنهم أبوا إلا أن يُثبتوا عجزهم ، وعجز آلهتهم المزعومة . وكان سلاح السخرية والتهكم من أقوى الأسلحة التي استخدمها القرآن في هذه المواجهة ، وكان لها دور كبير في قضم ظهر الباطل ، وترك الخصم صريعاً أمام نور الحق .

(١) ينظر: الكشف ٢ / ٢٢٩ ، ومفاتيح الغيب ١٥ / ٩٨ ، والبحر المحيط ٥ / ٢٥٢ ، وتفسير النسفي ٢ / ٥٢ .

(٢) ينظر: الكشف ٢ / ٢٢٩ ، وحاشية الشيخ زادة ٤ / ٣٤٨ .

ومن شواهد السخرية من الآلهة - أيضا - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَئِمُّوا لَهٗٓ
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ
ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ [الحج : ٧٣ - ٧٤] (*) .

في هاتين الآيتين يخاطب الله ﷻ الناس بقوله : " يا أيها الناس إنا نبرز أمامكم حقيقة عجيبة في شأنها ، فاستمعوا لها ، وتدبروها ، إن هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله ، لن تستطع أبدا خلق شيء مهما يكن تافها حقيرا كالذباب ، وإن تضافروا جميعا على خلقه ، بل إن هذا المخلوق التافه لو سلب من معبوداتكم شيئا من القرابين التي تقدم إليها ، فإنها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تسترده منه ، وما أضعف الذي يهزم أمام الذباب عن استرداد ما سلبه منه وما أضعف الذباب نفسه " (١) ، ومن يجعل هذه الآلهة مع القوي العزيز لم يقدر الله حق قدره ، ولا عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق عظمتة .

وهاتان الآيتان جاءتا من سورة الحج " وهي سورة مدنية ، إلا أنها يغلب عليها جو السور المكية ، فموضوع الإيمان والتوحيد ، والإنذار والتخويف ، والبعث والجزاء ، ومشاهد القيامة وأهوالها هو البارز في السور المكية ، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية " (٢) ، وبين آيات السورة أدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته ، وإبطال إشراك غير الله في العبادة ؛ ببيان حقيقة الآلهة ، وضعفها ، وهوانها ، في صورة مزرية مهينة ، وهاتان الآيتان خير شاهد على ذلك .

وقد جاءت هاتان الآيتان إثر قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ نَفْسُهُمْ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُرُونَ بِأَيْدِيهِمْ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾ [الحج : ٧١ - ٧٢ ، لوصف حال تلك المعبودات وعابديها ولإبطال قولهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع .

ووجه الاستدلال على السخرية في هذا السياق : أن النظم القرآني في هذا المثل يبرز صورتين مفترضتين شديديتي السخرية من الآلهة ، ومن عجزها :
- الصورة الأولى تتضمن كأن الآلهة جميعا اجتمعوا ليحاولوا عمل شيء يدل على أنهم آلهة وهو الخلق ، فعمدوا إلى أهون المخلوقات المعروفة في حياة الناس وأحقرها وهي الذبابة ، وبرغم تعاونهم جميعا ، وتأزرهم على خلقها إلا أنهم لم يستطيعوا .
- الصورة الثانية : أن الذبابة لما اختطفت شيئا من الآلهة مجتمعين ، حاولوا أن يستعيدوا من الذبابة ما أخذته منهم فلم يستطيعوا ، وعلى الرغم من أن الذبابة ضعيفة ، إلا أن آلهتهم أضعف منها ، فغلبتهم الذبابة على أمرهم ، سواء في خلقها ، وفي مسلكها .

(*) معاني المفردات : ضُربَ مَثَلٌ : مُثَّلَ وبين (لسان العرب - ضرب) (مختار الصحاح - مثل) .

- يسلبهم : السلب : الأخذ على سبيل القهر والغلبة (لسان العرب - سلب) .

- لا يستنقذوه منه : لا يستردوه منه - ينظر : المنتخب في تفسير القرآن ص ٥٧٩ .

(١) المنتخب في تفسير القرآن ٥٧٩ . (٢) صفة التفاسير للصابوني ٢٧٩ / ٢ .

والسخرية واضحة في صورتين ، فإن محض اقتران الآلهة بالذباب والموازنة بينهما سواء في القوة ، أو في أي شيء آخر ، هو سخرية بالغة بالآلهة ، ثم عجز الآلهة ، وليس إلهما واحدا عن خلق أهون شيء وأحقه في أعين الناس وهو الذبابة ، هو سخرية أخرى بالآلهة ، ثم منظر الآلهة مع منزلتهم عند عابديهم ، وهم مجتمعون ؛ ليطاردوا ذبابا ويسابقوه ، ليحاولوا استنقاذ شيء قد سلبه منهم ، هو أيضا صورة بالغة السخرية بالآلهة ، وبعقول من يعبدون هذه الآلهة .

وصياغة القرآن توحى فوق ذلك بكثير من الدقة والعمق والتوجيه ، فقد بنيت السخرية فيه على مثلٍ ضربه الله ﷻ للمشركين خاصة ؛ بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...** ﴾ ، وقد صدر هذا المثل الساخر بالتمهيد له بأسلوب النداء ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ** ﴾ لينتبه المخاطبون إلى ما سيأتي ذكره ، لكونه أمرا خطيرا يجب الالتفات إليه ، وتدبر ما جاء فيه (كما أن فيه توجيها للأنظار ، وإيقاظا للاهتمام ؛ لضمان الإصغاء إلى هذا الأمر ، وهذا شأن النداء لا يكون إلا فيما عظم من الأمور) (١) .

وبعد أسلوب النداء جاء أسلوب الأمر ﴿ **فَاسْتَمِعُوا لَهُ** ﴾ معطوفا بالفاء على أسلوب النداء ؛ للحث على الاستماع مع التدبر فيما يلقي عليهم ، وزيادة المبنى في الفعل بالفاء ؛ للمبالغة في الإنصات والتدبر ، مما يشير إلى أهمية الأمر الذي سيلقى عليهم ، حتى يتأكد في الأفهام ، ويثبت في الأذهان ، ومدلول تعبير ﴿ **فَاسْتَمِعُوا لَهُ** ﴾ يمثل هدفا جوهريا في الإسلام ، وهو استخدام العقول ، فالمراد بالاستماع التأمل والتدبر ، وأي استماع بدون فهم أو وعي لا قيمة له (٢) ، ناهيك عن التعبير بالفعل الماضي المبني للمجهول ﴿ **ضَرْبٌ** ﴾ الذي يفيد أن الضرب ليس له إلا مصدر واحد فقط ، وهو الله ﷻ ، وهذا يؤكد تحققه وثبوته مع إفادة التعظيم .

وهذه البداية القوية مهدت للأسلوب الساخر : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ** ﴾ ؛ وهو أسلوب خبري جاء إثر أسلوبين إنشائيين (النداء ، والأمر) ؛ لتنبية العقل ، وتحريك الذهن ، وأكد بـ (**إِنَّ**) ، والاسمية ؛ خروجا بالكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، بتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين ، حيث إنهم لا ينكرون أن الله - تعالى - هو الخالق

بدليل اعترافهم بذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [الزخرف : ٨٧] لكنهم لما جعلوا هذه الأصنام آلهة ، اقتضى ذلك أن يثبتوا الخلق لها ، فنزلهم القرآن منزلة المنكرين ، وأكد لهم خبر عجز آلهتهم في أسلوب هو الغاية في المهانة والسخرية ؛ توبيخا لهم ، وتبكيًا على سوء صنيعهم .

والسخرية في هذا المثل جاءت بالغة أقصى القوة ؛ لأنها بنيت على صور وتراكيب وبلاغية غاية في الروعة ، فقد بدئت بالكناية عن الآلهة بقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾ (٣) ، وأردفت بأسلوب النفي ﴿ **لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ** ﴾ والذي يؤكد

(١) الكشاف ٣ / ٢٣٧ . بتصريف يسير .

(٢) ينظر : الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ، أ.د / صباح عبيد دراز - ٢٧٦ - ط١ - ١٤٠٦ / ١٩٨٦ - مطبعة الأمانة - مصر .

(٣) تجنبًا للتكرار ينظر التحليل البلاغي المفصل لهذه الجملة ص ١٧٥ من البحث .

عجزهم التام عن خلق الذباب ، واستحالة ذلك منهم ؛ لمنافاته لأحوالهم ، وهو غاية في التحقير والتهكم ؛ لأن الذباب ضعيف وقدر ، فإذا لم تستطع خلق أحقر المخلوقات قدرا ، فما بالك بما هو أكبر من ذلك؟! ، يقول صاحب الضلال : " وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل ؛ لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز ، سر الحياة ، فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل ، ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير ؛ لأن العجز عن خلقه يُلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقى العجز عن خلق الجمل والفيل ، دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير ، وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب " (١)

ومن الملحوظ - هنا- أن الجملة المنفية صدرت بحرف النفي (لن) خاصة ، والذي يفيد تأكيد النفي في المستقبل على التأييد كما يرى الزمخشري (٢) ؛ وذلك للدلالة على أنهم لا قدرة لهم على ذلك الآن ، ولا يتجدد لهم هذا الوصف أصلا في شيء من الأزمان ، على حال من الأحوال (٣) ، وللايماء إلى استمرار هذا الحكم في عصور العلم والتكنولوجيا التي ستأتي بعد عصر النبي ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . يقول الزمخشري : " و(لن) أخت (لا) في نفي المستقبل ، إلا أن (لن) تنفيه نفيا مؤكدا . وتأكيده - ههنا - للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم ، كأنه قال : محال أن يخلقوا " (٤) ، حيث أورد ﴿ ذبابا ﴾ نكرة في سياق النفي لإفادة العموم ، أي : لن يخلقوا أي ذباب ، هذا إلى جانب الدلالة على التحقير ، وفي ذلك مبالغة في التحدي والتعجيز .

كما أنه أعقب أسلوب النفي بأسلوب الشرط : ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ للإمعان في التعجيز والتهكم ؛ وتقييد المسند ﴿ اجتمعوا ﴾ بأداة الشرط ﴿ لو ﴾ ؛ للمبالغة في نفي الخلق ، وتأکید العجز ، فهم يعجزون عن الخلق في حال اجتماعهم وتكاتفهم ، فما بالك إذا لم يجتمعوا؟! بل كيف لمن هذه حاله أن يُعبد؟! وفي التعبير بلفظ (الاجتماع) في هذا المقام دون التعاضد أو التكتاف سر بلاغي ، هو دلالة الاجتماع على بلوغ الغاية في التجمع والتعاون ثم حدوث العجز المفضي إلى التهكم والسخرية .

والحقيقة أن هذه العبارة مبنية على الإيجاز المتمثل في حذف جواب ﴿ لو ﴾ ؛ لدلالة ما قبله عليه بالإضافة إلى أنها معطوفة على شرطية أخرى قد حذفت ؛ لدلالة هذه عليها ، والتقدير - كما يذكر أبو السعود : " لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ، ولو اجتمعوا له لن يخلقوه " (٥) كأنه قيل : لن يخلقوا شيئا من جنس الذباب ولو ذبابة ، وفيه شدة تركيز ، وتأثير على المتلقي ، وتهكم بالغ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ﴾ ترق في السخرية والازدراء ، حيث يقول ابن عباس عن هذه الآية : " كانوا يطلون أصنامهم بالزعران فتجف ، فيأتي الذباب فيختلسه ، وقال السدي : كانوا يجعلون للأصنام طعاما ، فيقع عليه الذباب فيأكله " (٦) ، والسخرية تتجلى في أن الأمر لم ينته عند العجز عن خلق الذباب فقط ، بل بلغ بهم الضعف درجة مزرية لا يستطيعون فيها القدرة على استرداد ما سلب هذا الذباب الضعيف منهم وفي هذا غاية التهكم ، والازدراء ، والتحقير .

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٤٤ .

(٢) ينظر : الكشف ٣ / ٢٣٧ .

(٣) ينظر نظم الدرر للبقاعي ٥ / ١٧٦ .

(٤) الكشف ٣ / ٢٣٨ .

(٥) تفسير القرطبي ١٢ / ٩٧ .

(٦) تفسير أبي السعود ٦ / ١٢٠ .

وهذا الأسلوب جاءت فيه السخرية قائمة على النفي المندمج في الشرط ، وجاء فيه فعلا الشرط مضارعين ؛ للدلالة على استمرار عجزهم عن استرداد ما أخذ الذباب ، كما أن إيثار التعبير بالفعل : **﴿ يسلبهم ﴾** دون **﴿ يأخذ منهم ﴾** ؛ لأن السلب نزع الشيء من الغير على سبيل القهر (١) وهذا غاية الامتهان ، والذل والخزي ؛ لأن السلب مسندٌ إلى أتفه المخلوقات وهو الذباب .

والنظم القرآني - بذلك - يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري ، فلو قال : وإن تسلبهم السباع شيئا ؛ لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف ، ولما ظهر عجز الهتهم ، فالسباع لا تسلب شيئا أعظم مما يسلبه الذباب ! ولكنه الأسلوب القرآني المعجز (٢) ، كما أن التعبير بالانكسار **﴿ شيئا ﴾** أفاد التعميم والتنويع ، وصعد المعنى ؛ فهم لا يستطيعون رد ما سلب منهم الذباب ولو كان قليلا حقيرا ، وهي مناسبة للتعبير بالذباب الذي لا يسلب شيئا يذكر ، ليس هذا فحسب بل إن التعبير بصيغة الاستفعال **﴿ لا يستنقذوه منه ﴾** ؛ جاء للمبالغة في نفي الاستنقاذ ، فهم لا يستطيعون ذلك ، فضلا عن أن يتهيأوا له ، كما أن الفعلين **﴿ يسلبهم ﴾** ، **﴿ لا يستنقذوه منه ﴾** وردا بصيغة المضارع ؛ للدلالة على تجدد واستمرار هذا الضعف المزري ، وتقييد الأول بالشرط ؛ للتنبية على أنه إن فرض أن سلبهم الذباب شيئا في أي وقت من الأوقات ، فإنهم لا يقدرّون على استرداده مطلقا ، حيث يلزمهم هذا الضعف المزري في كل الأوقات ، ونفي القدرة على الاسترداد في الحاضر والمستقبل يستلزم نفيها في الماضي بالبينّة والبرهان .

وجاء ختام الصورة الساخرة بالتذييل الجاري مجرى المثل : **﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾** لتأكيد وتقرير ما ألقاه المثل ، فهو تذييل إخبار أو تعجب ، وفيه تحقيق التسوية بين الأصنام والذباب في الضعف ، بل إن الطالب - وهو الأصنام - أضعف من المطلوب ، وهو الذباب ، وصياغة التذييل بالماضي أفادت تحقق الضعف بالحجة القاطعة ، كما أن التعبير بصيغة الطلب دون غيره هنا ؛ أفاد الاحتياج والضعف ، ناهيك عن التعبير بصيغة اسم الفاعل (الطالب) عن الأصنام ؛ للدلالة على ثبوت ودوام ضعفهم واحتياجهم .

والملاحظ في هذا التذييل أنه جاء على خلاف مقتضى الظاهر ، حيث عدل التعبير القرآني عن الجمع إلى الأفراد فلم يقل الحق - جل وعلا - (ضعف الطالبون والمطلوبون) بالجمع على هيئة الأسلوب السابق : **﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ﴾** بل قال : **﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾** بصيغة الأفراد ؛ للإيحاء بقلبتهم وهوانهم على الله ، وهو - لا شك - أبر بمقام العجز والتحقير والتهمك .

وختام القول :

إن النظر إلى التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة ، يبين أن الحق - سبحانه - أجرى هذه الآلهة المدعاة مجرى العقلاء ، وجعل أفعالهم كأفعال آدميين (٣) حيث قال - عز وجل - في شأنهم : **﴿ لن يخلقوا ذبابا ﴾** ، **﴿ ولو اجتمعوا له ﴾** ، **﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ﴾** بصياغة الضمائر الخاصة بهذه الأصنام لجماعة العقلاء ؛ وفقا لاعتقاد المشركين الذين

(١) ينظر : المفردات للراغب ٢٤٣ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٤٤ .

(٣) ينظر : روح المعاني ١٧ / ٢٠٢ .

كانوا يعظمونها ، ويذبحون لها ، ويخاطبونها ، فاقتضى ذلك أن تكون عاقلة ، أو لأنها رموز لأناس صالحين كانوا في الزمن السابق ، فسأيرهم الله - عز وجل - وجارهم في اعتقادهم تهكما بهم ، وبيانا لجهلهم ، فشَبَّهت هيئة الأصنام المتعددة في عجزها بهيئة عظماء - أي عند أهلها - تعذر عليهم خلق أضعف المخلوقات وهو الذباب ، حتى لو فرض أن الذباب سلبهم شيئاً لن يستطيعوا أخذه منه ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله سبحانه : ﴿ **ولو اجتمعوا له** ﴾ ، وقوله : ﴿ **لا يستنقذوه منه** ﴾ على سبيل الاستعارة التمثيلية التصريحية .

وجمال هذه الاستعارة الساخرة في مسايرتها لمزاعم هؤلاء المشركين في الأصنام ، والتدرج معهم في التوجيه والإقناع ، وقطع الطريق عليهم بالبينة والبرهان ، والحجة القاطعة ، حيث صورت مشهداً رائعاً مثيراً للسخرية ، يرسم الضعف المزري لهذه الآلهة المدعاة ، ويبين عظم جهل عابديها ، وسوء تقديرهم ، بمعركة مضحكة هازئة بين هذه الآلهة المدعاة وبين أقل وأحق وأذل شيء في الكون ، وهو الذباب ، ينتصر فيها هذا الأقل الأصغر الأذل ، وتبقى هذه الآلهة المدعاة صورة ، ومثالا للعجز والخزي والعار لعابديها .

وهذه الصورة قال عنها بعض العلماء : إنها تشبيهه ؛ " حيث شبه الله معبوداتهم في العجز والحقارة والخسة بالذين يعبدونها... والذي يدل على هذا التشبيه قوله تعالى : ﴿ **ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ ، والطالب هو العابد لهذه الأصنام " (١) .

وأرى أن التشبيه - هنا - غير واضح ، بل لا فائدة من تشبيه الأصنام بعابديها . بل الغرض إثبات عجز الأصنام إلى درجة متناهية أمام عابديها ، والاستدلال بأن الطالب هو عابد الأصنام فيه نظر ؛ لأن الطالب - في الأغلب وعلى ما أرجح - هو الأصنام نفسها ؛ لأن التهكم فيه أوضح وأبين ، وأنسب لمقام التحقير ، وإثبات العجز ، لذا يقول الزمخشري " ﴿ **الطالب والمطلوب** ﴾ كالتسوية بينهم في الضعف ، ولو حققت لوجدت الطالب أضعف وأضعف ، لأن الذباب حيوان ، وهو جماد ، وهو غالب ، وذلك مغلوب " (٢) .

وفي الآية الأخيرة تقريب شديد العمق في صورة عتاب للمشركين على أنهم لم يقدرُوا الله حق قدره ، حين أشركوا به غيره ، فما أحقرها من عقول تستحق - بالفعل - سخرية الله تعالى !!

(١) الأمثال القرآنية ، دراسة تحليلية ، د محمد بكر إسماعيل ، ص ٢٠٠ ، دار المنار ، ٢٠٠٠ م .

(٢) الكشف ٣ / ٢٣٨ .

المبحث الثالث

السخرية من قادة الكفر

المبحث الثالث

السخرية من قادة الكفر

كان زعماء الكفر وقادته من أهم العقبات الصلبة أمام انتشار الإسلام في بدايته ؛ حيث كانوا حاجزا منيعا بين نور الإسلام وعامة الناس ، " ولئن كان الإسلام قد حاربهم بعنف ، ورد كيدهم بكيد أشد وأولاهم من اهتمامه في حربهم جانبا كبيرا ، فليس ذلك لمجرد حرص الإسلام على تجنب عداوتهم ، أو لمجرد حرصه على ضمهم إلى صفوف المسلمين ، وإنما الذي يبدو بوضوح من أخبار الإسلام ، والذي يؤيده القرآن ، أن أهم ما يستهدفه الإسلام من حرب القادة والزعماء هو تحطيم سيطرتهم على الأتباع ، ونزع هؤلاء الأتباع من برائن القادة ، ومخالب الزعماء ؛ حتى يتاح لهم أن يسمعوا كلام الله " (١) .

وقد حارب الإسلام قادة الكفر بوسائل مختلفة ، منها حملة القرآن الكريم عليهم ، ومن أبرز جوانب هذه الحملة : أسلوب السخرية الذي صبّه عليهم ؛ ليحطم به كيانهم ، بصفتهم عقبة كئودا أمام انتشار الإسلام ، حيث كشفت سخرية القرآن للأتباع حقيقة هؤلاء القادة (٢) الذين كانوا يملأون عيونهم هيبة ورهبة ، ويستحذون على كل أمورهم ، حتى على تفكيرهم ، كما بينت أن هذه الهالات التي يرونها أمامهم كبيرة مهيبة ، ليست في حقيقتها إلا تصورات نسجها الوهم ، وجسدها الخيال ، وهي - في الواقع - مجردة عما تستحق من أجله الطاعة والانقياد لها .

وقد وردت سخرية القرآن الكريم من قادة الكفر في تسع وثلاثين آية تقريبا (٣) ، تنوعت في أساليبها وصياغاتها ، ومن أنواعها : **السخرية من أحد القادة** ، يمشي ثانياً عطفه من الخيلاء والكبر ، متعاليا على الناس دون أن يسأل نفسه أو يسأله أحد : علام العجب والخيلاء ؟ أعلى الجهل ؟ أم على الضلال عن الحق ؟! أهو التميز في التكوين الجسدي ؟ أم الارتقاء العلمي ؟ أم ما سوى ذلك كله ؟ وهو في حقيقة الأمر لا امتياز له ، ولا ارتقاء ؛ لأنه وضع نفسه موضعا لا يستحقه ؛ لجهله ، وضلاله عن الحق ، فاستحق بذلك سخرية القرآن في قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ** ﴾ (٨) **ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ (٩) [الحج : ٧ - ٨] ، والمراد في هذه الآية بمن يجادل في الله بغير علم : النضر بن الحرث أو أبي جهل (٤) .

ونوع آخر تصوره سخرية القرآن بأنه تاجر ، يشتري لهو الحديث ؛ ليضل الناس ، ويصرفهم عن الحق والهدى ، وقد حكم الله عليه بالعذاب المهين ، مبينا موقف هذا الشخص

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ص ٢٠٠ وما بعدها .
 (٢) من أمثال : أبي جهل ، والوليد بن المغيرة ، وأبي لهب ، والنضر بن الحرث ، والعاص بن وائل ، والأخنس بن شريق ، وأمّية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وغيرهم ممن ذكروا في القرآن الكريم ، وكتب التاريخ والسير .
 (٣) ينظر : الأعراف ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ ، والتوبة ١٢ ، ومريم ٧٧ ، والحج (٣ - ٤) و(٨ - ٩) ، والفرقان ٤٣ ، ولقمان ٦-٧ ، والدخان ٤٧ - ٤٩ ، والجاثية ٧ ، ٨ ، ٢٣ ، والقلم ١٠ - ١٦ ، والمدثر ١١ - ١٩ ، والعلق ١٥ - ١٨ ، والكوثر ٣ ، والمسد .
 (٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٧ / ٢٠٨ .

من الدين ، وهو أنه لا يحاول أن يتأمل ، أو يتدبر ، أو يفكر ، وإنما يسمع وكأنه أصم ؛ لكونه لا يستخدم تفكيره ، وفي وصفه يقول القرآن : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان : ٦ - ٧] ، وقيل : إنها نزلت في النضر بن الحرث (١) .

ونوع ثالث تصوره سخرية القرآن بإبرازه في منظر مهين ، حيث يُرى هذا الزعيم الصِّلف ، الذي لا يرى سلطانا لغير قوته وجبروته - في صورة مهينة يوم القيامة ، حين يأمر الله - عز وجل - بأن يُجرَّ ، ويُسحب سحباً ، ثم يُلقى في جهنم كأبي شيء تافه حقير ، ثم يُصبُّ فوق رأسه من عذاب الحميم ، وهو مستكينٌ ذليلٌ ، لا يملك دفاعاً ، ولا يجد ناصرًا ، ثم يُصبُّ عليه العذاب الجسدي والنفسي ، فيقال له في سخرية واستهزاء : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وتبدو روعة التصوير في الموازنة بين مجد هذا الزعيم وجبروته في الدنيا ، وبين حاله الذليلة المهينة عند الله - عز وجل - يقول القرآن مصورا ذلك المشهد الساخر : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٧ - ٤٩]

ونوع رابع يختلف في سلوكه ومنهجه في الحياة ، يمضي بغير قانون يضبطه ، أو مبدأ ينظمه ؛ لأنه لا يدين بدين ، ولا يعتقد عقيدة ، ولا يسعى إلى شيء إلا شيئاً واحداً ؛ هو هواه وأطماعه ، كأنما خلقت له - وحده - الدنيا ، ولذا يسخر منه القرآن سخرية شديدة بقوله : ﴿ أقرءيتَ مَن أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَشَّىٰ عَيْنَيْهِ غَشْيَةً قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَفَلَأَبْرَأُ مِنَ اللَّهِ ذِي الْأَعْيُنِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن : ٢٣] ، وحين نتصور شخصا مختوما على قلبه ، وسمعه ، ومغشياً على بصره لا يرى موضع قدميه ، ومع ذلك فهو جاد في عبادة هواه ، ماضٍ في تخبطه ، هذا الشخص - لا شك - جدير بكل تهكم وسخرية .

وهناك قادة نص القرآن على إمامتهم في الكفر ، وقادة تجلت إمامتهم من السياق القرآني الذي ورد ذكرهم فيه ، هؤلاء المغرورون المتكبرون ، الداعون إلى الضلال بعلم وبغير علم ، وقد ورد الحديث عنهم في مواقف تثبت علوهم في الكفر ، لذا سأحدث عنهم في هذا المبحث وتتنوع آيات السخرية في الحديث عن القادة الكافرين ، حتى تشمل مختلف الزعماء الذين كانوا بارزين في المجتمع ، وفي الصفحات التالية عرضٌ لشواهد أخرى من تلك السخرية ؛ لبيان موقفهم من الإسلام باعتباره ديناً جديداً ، وتصوير حقيقتهم المزرية المهينة أمام الأتباع ، وتحطيم جلالهم وهيبتهم ؛ لإشعارهم بأنه مهما تكن قوة هؤلاء القادة ، ومهما يكن سلطانهم فإن هناك قوة أعظم من قوتهم ، وسلطاناً أكبر من سلطانهم ، هي قوة الخالق الجبار ﷻ التي تُبدي هؤلاء الزعماء على حقيقتهم في تفاهة الشأن ووهن الكيان .

ومن قادة الكفر الذين سخر منهم : الوليد بن المغيرة ؛ وهو أحد سادة الكفر ، وقادتها البارزين ، الذين كانوا عقبة في سبيل الإسلام ، وواحدٌ من الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ، فأظهر القرآن خطورته ، وحذر من الانقياد له ، وأبرز من صفاته ما لا يعلمه العامة الذين كانوا ينظرون إليه على أنه قوة مخيفة ، وهالة طاغية ، تبعث الرهبة أحيانا ، وتثير الإعجاب أحيانا أخرى ، فسخر منه سخرية شديدة ؛ وهدم كيانه ، وحطم جلال شخصه في أعين أتباعه ، وعنه يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ (١٠) هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾ [القلم : ١٠ - ١٦] (*) .

في هذه الآيات يشن القرآن حملة عنيفة على الوليد بن المغيرة ، بدمه بعشر صفات منتالية ، حيث نهى النبي ﷺ نهيا عاما عن طاعته ؛ بسبب هذه الصفات المذمومة ؛ فهو حلاف كثير الحلف بالحق والباطل ، مهين فاجر حقير ، مغتابٌ يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب ، ويمشي بين الناس بالنميمة ، كما أنه بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله ، معتدٌ ظالمٌ متجاوز في الظلم والعدوان ، كثير الأثام والإجرام ، وعتل ، غليظ جاف ، قاسي القلب ، عديم الفهم ، زنيم ، أي : ابن زنا ، لصيق ، دعي ، ليس له نسب صحيح ، وهذه أشد معايبه وأقبحها ؛ كما أنه قال عن آيات القرآن الكريم ساخرا مستهزئا : إنها خرافات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ، ونسبها إلى الله ، ولأنه كان ذا مال وبنين كفر بالله ، وقال في القرآن ما قال ، وزعم أنه أساطير الأولين ، وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب ، ولذا توعدده الله بالعذاب المهين ؛ بأن يجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه ، يعرف بها إلى موته (١) .

وقال جمع من المفسرين : " المراد بالحلاف المهين : الوليد بن المغيرة ، وقال بعضهم : الأخنس بن شريق ، وقال آخرون : الأسود بن عبد يغوث ، ومن المفسرين من قال : إنه

(*) معاني المفردات :

- حلاف : صيغة مبالغة معناها : كثير الحلف في الحق والباطل (لسان العرب - حلف) .
- مهين : صفة مشبهة على وزن فعيل من المهانة : أي الحقارة والذلة ، ومهين : حقير ، ضعيف الرأي والعقل ، والمهين من الرجال : الضعيف والفاجر (لسان العرب - هون) .
- هماز : صيغة مبالغة معناها : العياب الطعان المغتاب للناس (المعجم الجامع - همز) ، وأصل الهمز : الطعن بعود أو يد ، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على سبيل الاستعارة ، وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة . (ينظر : التحرير والتنوير ٢٩ / ٧٢)
- مشاء بنميم : يقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم (ينظر : تفسير أبي السعود ٩ / ١٣) .
- عتل : غليظ جاف في حُلُقِهِ وحُلُقِهِ ، ثقيل مر ، كانه قطعة جبل ، لا ينقاد إلى خير إلا بعسر ، وصعوبة ، وعنف . (لسان العرب - عتل) .
- زنيم : دعيٌ ملصق بالقوم ، وليس منهم ، مأخوذ من الزنمة المتدلنية في حلق الشاة أو الماعز (المعجم الجامع - زنم) .
- سنسمه : الوسم : الكي ، والموسوم الذي وسم بسمة يعرف بها ، كقطع في الأذن ، أو الأنف ، أو غير ذلك ، والمعنى : سنجعل له سمة (لسان العرب - وسم) .
- الخرطوم : هو في لغة العرب الأنف ، ولكن يغلب في العرف إطلاقه على هذا العضو من الفيل ، فالخرطوم لفيل مكان الأنف من الحيوان (لسان العرب - خرطم) .
- (١) تفسير الصابوني ١٤٩٣ - ١٤٩٤ بتصرف .

أبو جهل ، وإنما عني التعريض بواحد من هؤلاء ، وإلا فإن لفظ (كل) المفيد للعموم لا يسمح بأن يراد النهي عن واحد معين ، أما هؤلاء فعلاً أربعتهم اشتركوا في معظم هذه الأوصاف ، فهم ممن أريد بالنهي عن إطاعتهم ، ومن كان على شاكلتهم من أمثالهم " (١) .

والراجح : أنه الوليد بن المغيرة ؛ بدليل أن الصفة الكبيرة من الصفات التي معنا - وهي التكذيب بالقرآن ، والتي ختم بها قوله : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ صادقة عليه ؛ لأنه هو الذي قال في القرآن : (إنه أساطير الأولين) ، حيث اختلق هذا البهتان في قصة معلومة ، فلما تلقّف الآخرون هذا البهتان وأعجبوا به أخذوا يقولونه ، فكان جميعهم ممن يقولونه ، ولذلك أسند الله ﷻ إليهم هذا القول في آية ﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ الفرقان : ٥ " (٢) . وعلى هذا التفسير تكون في جملة ﴿ حلاف مهين ﴾ تعريض بالوليد بن المغيرة ، ومن على شاكلته ، والذي يتيه على الناس بضخامته ، ويصدهم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وقد توجهت إليه سخرية القرآن في هذا السياق ؛ لتصويره بصورة مزرية مهينة ، تثير الضحك ، والتهمك ، وتبين أنه لا يستحق أن يكون زعيماً ينفذ الناس لرأيه ، ويأتمرون بأمره ، بل هو أحمق شائن ، وأقل من أن يكون متبوعاً لا تابعاً ، والسخرية المقصودة مذكورة في قوله تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ ، والسخرية فيه ناشئة من تخيل صورة هذا الزعيم القوي الذي يعيث بين الناس بغياً ، وإفساداً ، وعتواً ، وتجبراً ، يُكوى على أنفه ، ليس لعلاج مرض ، وإنما ليكون الكي علامة إذلال ظاهر لا يستطيع إخفاءها ؛ لأنها في موضع لا يخفى ، وهو الأنف ، ومن يخفيها لابد أن يخفي وجهه فلا يعرفه أحد ، فيصبح كأنه غير موجود ، وموضع الطرافة والسخرية في الصورة أن نتصور هذا السيد الذي كان يبغى ويعتدي ، ولا يستطيع أحد أن يردّه يمشي بين الناس مستكينا ذليلاً ، مشوه الوجه ، مكويًا على أنفه - وهو موضع العزة والأنفة والكبرياء .

هذا من ناحية السياق ، أما من ناحية التوجيه البلاغي ، فشاهد السخرية أصاب المحرز وطبق المفصل ؛ لأنه بني على الاستعارة التمثيلية المقترنة بالكناية عن إذلال المتهكم به ، والتمكن منه حيث جمع الله ﷻ له بين التشويه والإهانة ؛ فجعل تشويبه في مكان كبريائه وغروره ؛ لأن الوسم يقتضي التمكن ، وكونه في الوجه إذلالاً وإهانة ، وكونه على الأنف أشد إذلالاً .

كما أن التعبير بالفعل المضارع ﴿ سنسمه ﴾ ، واتصاله بحرف السين الدال على المستقبل القريب ، دل على قرب تحقق ذلك في المستقبل ، وأنه حاصل لا محالة ، فضلاً عن أن التعبير بالضمير بدلاً من الاسم الظاهر فيه دلالة على استهجان التصريح به ، وتعميم لكل من كان على شاكلته ، بإدخاله في هذا الوعيد الشديد من الله ﷻ للوليد بن المغيرة وغيره من الكافرين بالذلل والهزيمة ، والخزي في الدنيا والآخرة ؛ لأنهم بالغوا في عداوة الرسول ﷺ ، وطعنوا في دينه ؛ بسبب الأنفة والكبرياء .

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ٧١ ، وينظر : لباب النقول في أسباب النزول ٢٧٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٩ / ٧١ .

وفي إطلاق **« الخرطوم »** على أنف الوليد بن المغيرة رأيان :

- **الأول** : أنه مجاز مرسل لعلاقة التقييد والإطلاق ؛ حيث استعمل المقيد ؛ وهو الخرطوم المقيد بكونه أنف الفيل والخنزير في المطلق وهو أنف الإنسان (١) ، وقيل إنه مجاز مرسل لعلاقة الجزئية ، وهو رأي البهاء السبكي (٢) .
- **والثاني** : أنه استعارة تهكمية ؛ حيث استعار الخرطوم للأنف ، كاستعارة المشفر - وهو شفة البعير - لشفة الإنسان (٣) ، وهذا هو الراجح ؛ لأنها أفادت التهكم والسخرية ، وقد أصل الإمام عبد القاهر لذلك في حديثه عن الاستعارة غير المفيدة ومتى تتحول إلى مفيدة ، حيث ذكر أن الاستعارة غير المفيدة تتحول إلى مفيدة إذا أريد بالتشبيه معنى كالسخرية هنا (٤) ؛ فضلا عن أن المراد منها تقبيح صورته ، وصورة أنفه ، بتشبيهه بخرطوم الخنزير أو الفيل ، مبالغة في طوله أو ضخامته (٥) .

والواضح أن لفظ **« الخرطوم »** يتضمن دقة في التعبير من وجهين :

- **الأول** : أن تخصيص الوسم على الأنف بالذات هو غاية الإذلال ؛ لأن الأنف عند العرب رمز العزة ، ومن الكنايات المعروفة عندهم حينما يصفون قوما بالعزة قولهم : (شمّ الأنوف) ، وكذلك حينما يعبرون عن إذلال شخص يقولون : (رغم أنفه) ، فعزة الأنف رمز لعزة الشخص والعكس صحيح ، وإذلال هذا الزعيم بكَيْه على أنفه هو قمة الإهانة والسخرية منه وهذا هو أبرز أهداف السخرية من هذا السيد ، أن يكون هذا التصوير تنفييرا من أتباعه والانقياد له .
- **الثاني** : من الواضح أن المراد بالخرطوم : الأنف ، ولكن لماذا عدل عن لفظ الأنف إلى لفظ الخرطوم ؟ والجواب أن اللفظين - وإن كانت دلالتهما في اللغة واحدة - إلا أن العرف يجعل دلالة الخرطوم تتجه في الذهن إلى الفيل ، وفي هذا إيحاء بضخامة هذا السيد الذي تصب عليه سخرية القرآن ، ولا يلزم أن تكون الضخامة حسية ، بل قد تكون معنوية ، بمعنى أنكم إذا كنتم تتصورون أن هذا السيد شيء كبير ، وذو منزلة ضخمة فيكم ، فلا يغرنكم هذا ؛ لأن الله ﷻ سيُرغم أنفه ويجعله ذليلا مهينا ، ويجعل هذا الهوان ظاهرا واضحا للجميع ، وتخيل هذا الشخص وهو له أنف ضخمة مشوه بسبب كيه بالنار ، لاشك يثير الضحك والسخرية من هذا القائد المتكبر ، كما أن التعبير عن الأنف بالخرطوم هنا إخراج له من صفة الأدمية .

- ولا شك أن براعة القرآن تتمثل - أيضا - في الحرف (على) ، حيث كان يمكن القول : (سنسمه في الخرطوم) ، فتكون كل الدلالة الموضوعية أن الكي سيكون في الأنف ، ولكن لفظ (على) بما يفيد من معاني العلو يجعل للعلامة في موضعها وضعا خاصا ؛ أي أنها ستكون في أبرز وأظهر موضع من هذا الشخص ، فإن الشيء كلما كان أعلى كان أوضح للعيان ، وما

(١) حاشية الشهاب ٢٢٩ / ٨ .

(٢) ينظر : عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٤ / ٤٣ ، وينظر الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام - ص ٤٦ - دار الحديث - القاهرة .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ٢٩ / ٧٧ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٤٠٤ ، ت : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة وجدة ، بدون تاريخ .

(٥) ينظر : البيان عند الشهاب الخفاجي ، د : فريد النكلاوي ، القسم الثاني ، المجاز المرسل ، ص ١٥٥ ، الطبعة الأولى ،

يفيده لفظ (على) من العلو والارتفاع يدعم المعنى في زيادة التشهير بتشويه هذا الشخص ، وإبراز موضع السخرية منه لكل ناظر .

ولكن لماذا استحق هذا الشخص سخرية القرآن بهذه الصورة المهينة له ؟ الجواب تجده في سياق الآيات السابقة لقوله تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ وهي الواردة في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَاتُنَّ عَلَىٰ عَائِنُنَا قَالَ كَسِطَ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ ﴾ [القلم : ١٠ - ١٥] .

فالسبب إذاً أنه شخص سيء الخلق ، ليس في جانب واحد من خلقه ، وإنما في جوانب عديدة ، فصلها القرآن تفصيلاً في صور متتابعة ؛ لتدعم تلك السخرية ، وتمهد لها ، ومن هذه الصفات أنه حلاف ، ومهين ، وهماز ، ومشاء بنميم ، ومَنَّاع للخير ، ومعتد أثيم ، وعتل ، وزنيم ، ومغتر بماله وأولاده ، ومكذب بالقرآن ، ومن كانت هذه صفاته لاشك أنه جدير بكل سخرية .

وهذه الصفات مما ينبغي الوقوف عندها بالتوجيه البلاغي ؛ لأنها تمثل في مجملها حملة متميزة في طابعها ، لم توجه في القرآن لشخص آخر بمثل هذه القوة ، وأول هذه الصفات أنه ﴿ حلاف ﴾ وهي صيغة مبالغة تدل على كثرة حلفه ، وهي كناية عن عدم المبالاة بالكذب ، وبالأيمان الفاجرة ، وتعتمد الحنث (١) ؛ لأن كثرة الحلف دليل على مظنة الكذب ، ولعل السر البلاغي في تقديم هذا الوصف على غيره - كما ذكر الإمام أبو السعود - " لكونه أدخل في الزجر " (٢) .

وثاني هذه الصفات : ﴿ مهين ﴾ : وهي صفة مشبهة على وزن فعيل من المهانة : أي الحقارة والذلة ، وجاءت قيلاً لـ ﴿ حلاف ﴾ ؛ لأن من أكثر الحلف بالله ، ولم يعرف قدر المعبود أدله الله (٣) ، ولاشك أن وصف الوليد بن المغيرة ومن على شاكلته بهذه الصفة ، لهو غاية في السخرية والحقارة ، وبيان أنه شخص لا ينبغي أن يثق الناس في كلامه ؛ لأنه كثير الحلف ، مهين ، حقير ، ضعيف الرأي والتمييز ، كما أنه ﴿ همَّاز ﴾ وهي صيغة مبالغة على وزن (فعال) ؛ للمبالغة في همزه ولمزه ، وبيان قوة هذه الصفة المتأصلة فيه .

ولمَّا كانت النميمة - وهي نقل الحديث على سبيل الإفساد بين الناس - أشد الهمز ، أفاد أنه يفعلها ، ولا يقتصر على مجرد النقل ، بل يسعى به إلى غيره وإن بُعد ، حيث قال : ﴿ مشَّاءٍ بنميم ﴾ ، وهي خصلة رابعة ذميمة جاءت بصيغة المبالغة ؛ للدلالة على كثرة مشيه ، وسعيه في الإفساد بين الناس والوقيعه بينهم ، فيغمز هذا ، ويهمز ذلك ؛ ليرتفع على أنقاض صلاتهم ، وتؤول الزعامة والسلطان إليه ، وفي المشي - هنا - استعارة ؛ حيث صور المعاناة والمشقة التي

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩ / ٧٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢٩ / ٧٢ .

يتحملها هذا المنام من أجل النميمة بصورة من يمشي مشيا كثيرا في كل مكان بجامع الإرهاق والتعب في كل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في صيغة المبالغة **﴿ مشاء ﴾** ، وسرها تشويه حال المنام ، وتقبيح صورته بصفة محسوسة ؛ وهي المشي ، وهي أشد وقعا في تصور السامع من المعقولات ، فلم يقل : (نقالا للكلام) ، ولكنه قال : (مشاء) ؛ ليبين مدى الجهد الذي يبذله في الوقعة بين الناس ، وهي صورة ساخرة .

وإلى جانب كثرة حلفه الكاذب ، وهمزه ، وسعيه بالإفساد بين الناس فهو - أيضا - **﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾** وهي ثلاث خصال أخرى تضاف إلى خصاله الذميمة السابقة . و**﴿ مناع للخير ﴾** تقيد المبالغة في بخله وشحه ، والملحوظ في مجيء الصفات (حلاف - هماز - مشاء - مناع) بصيغة المبالغة دلالة على مناسبة الألفاظ لمعانيها ، وهذا ما يسمى بمراعاة النظير ، وهو من المحسنات البديعية المعنوية ، والمبالغة في هذه الصفات إما باعتبار قوة الوصف وشدته ، وإما باعتبار تكراره ، وفصل بينهما لكمال الاتصال ، ومجيئها نكرات في سياق الذم ؛ لتحقير الموصوف بها ، والحط من شأنه ، والسخرية منه .

كما أنه **﴿ معتد ﴾** ، وهي صفة واردة بصيغة اسم الفاعل ؛ للدلالة على مجاوزته الحد في الظلم والعدوان ، والتعبير بصيغة الاسم (معتد) بدلا من الفعل (يعتدي) ؛ للدلالة على ثبوت هذه الصفة ، ودوام حصولها منه ؛ لأنها من طبعه اللئيم .

ليس هذا فحسب ، بل إنه **﴿ أثيم ﴾** ، وهي صيغة مبالغة من الفعل (أثم) ؛ للدلالة على كثرة آثامه وذنوبه ، وتركه الطيبات ، وأخذة الخبائث ، وللدلالة على رغبته في المعاصي وتطلبها ، وتركه الطاعات والزهد فيها ، ثم إن مجيئها نكرة ؛ لتعظيم قبح هذه الصفة وشناعتها وتقبيح الموصوف بها وتحقيره ، وذلك من تمام التهكم به ، كما أن اقتران هاتين الصفتين **﴿ معتد أثيم ﴾** ؛ لما بينهما من مناسبة العموم والخصوص (١) .

ولذلك ارتقى النظم القرآني في درجات التوصيف المذكور ، وصعد في شدة السخرية منه ، والتهكم به ببيان خصلتين ذميتين أخريين من خصاله بقوله : **﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾** وال**﴿ عتل ﴾** هو " الغليظ الجاف في حلقه وحلقه ، ثقيل مر ، كأنه قطعة جبل ، لا ينقاد إلى خير إلا بعسر ، وصعوبة ، وعنف ، وحين سئل رسول الله ﷺ عن العتل قال : هو الشديد الخلق ، الرحيب الجوف ، الأكل ، الشروب ، الظلوم " (٢) ، ولا شك أن هذا اللفظ على قصره عبر عن تلك المعاني السابقة في إيجاز بليغ ، حيث لم يطل النظم القرآني في وصفه ؛ إشعارا بقبح هذه الأوصاف المندرجة تحت هذا المسمى والتي هي أقبح من أن تذكر . كما أنها جاءت نكرة ؛ لتذهب النفس في تفسيرها أي مذهب ، وللدلالة على أنها بلغت الغاية في القباحة والسوء ، فضلا عن أن هذه الكلمة فيها كناية عن يُبس طبعه ، وعدم طواعيته ، وعدم انقياده إلى الخير ، وغلظته الشديدة ، وظلمه ، وهي كناية عن صفة .

(١) ينظر : البحر المحيط ٨ / ٣٠٩ .

(٢) نظم الدرر ١٠ / ٤٠٧ .

ثم إنه قال : **﴿ بعد ذلك ﴾** بالظرف واسم الإشارة للبعيد ؛ للدلالة على أن ما بعده من الصفات أعظم في القباحة ، وأبعد في الرتبة ، ولفظة **﴿ زنيم ﴾** بعد قوله : **﴿ بعد ذلك ﴾** توحى بالتوغل في السخرية ، والمبالغة في التهكم ، وهي صفة مشبهة على زنة (فعيل) بمعنى (فاعل) ، والزنيم هو الدعيّ الملقق بالقوم وليس منهم ، مأخوذ من الزنمة المتدلّية في حلق الشاة أو الماعز (١) ، وهذه الصفة كناية عن أنه دعيّ ، مجهول النسب ، وهذه من أسوأ ما يكون في حق الموصوف بها ، وقمة في السخرية والمهانة ، وقد جعل الزمخشري هاتين الصفتين (عتل وزنيم) من أشد معاييه ؛ لأنه إذا جفا قسا قلبه ، واجترأ على كل معصية ؛ ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها " (٢) .

وأغلب المفسرين : أن المقصود بهذا الوصف المهين هو الوليد بن المغيرة ؛ كان دعيّاً في قریش وليس منهم ، ادعاه المغيرة بعد ثماني عشرة من مولده ، وقيل : هو الأخنس بن شريق ، أصله من ثقيف ، فحالف قريشا ، وحل بينهم (٣) ، والراجح : أنه الوليد بن المغيرة .

ولذا يبدي القرآن شيئاً من السخرية في أنه لا ينبغي أن يطاع شخص فيه كل هذه النقائص والرذائل ، لمجرد أنه يملك مالا أياً كان هذا المال ، أو لأن له بنين ، مهما يكن شأنهم فيقول : **﴿ أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾** وهو متعلق بقوله : **﴿ فلا تطع ﴾** أي : فلا تطع من هذه مثالبه ؛ لأنه كان متمولاً متقوياً بالبنين (٤) .

ولاشك أن في تكثير **﴿ مال ﴾** و **﴿ بنين ﴾** ؛ للدلالة على كثرتهما ، وقرئ : **﴿ أن كان ذا مال وبنين ؟ ﴾** (٥) على الاستفهام ، لغرض التقرّيع والإنكار على وجه العتاب لهذا الحلاف المهين ، والمعنى : لأن كان هذا الحلاف المهين ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، وكفر بالله ورسوله !؟ (٦) ، وكان الوليد بن المغيرة ذا سعة في المال ، كثير الأبناء ، وهذه الآية تعريض بمن يحسب الغنى وكثرة الأبناء مكرمة ومدعاةً للفخر ؛ وهذا وهم واضح ؛ لأن الفخر الحقيقي بالدين والأخلاق الحميدة لا بالمال والولد .

وقرئ : **﴿ إن كان ذا مال وبنين ﴾** (٧) بأن الشرطية ، والمعنى : إن كان ذا مال وبنين أتطيعه ؟ أي : لا تطيعه ؛ لأن إطاعة الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه في الطاعة (٨) وهذا غير مطلوب .

وقوله : **﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾** جاء ختاماً للأوصاف العشرة الذميمة التي وصف بها الوليد بن المغيرة ، وهي صفة (التكذيب بالقرآن) ؛ حيث قال عنه : أساطير الأولين ، والآية كناية عن موصوف ؛ هو الوليد بن المغيرة ؛ لأنه أول من قال ذلك ، ووصفه

(١) ينظر : فتح القدير ١٥١٦ .

(٢) الكشاف ٤ / ٥٩٢ .

(٣) ينظر إرشاد العقل السليم ٩ / ١٣ ، والكشاف ٤ / ٥٩٢ ، ونظم الدرر ١٠ / ٤٠٨ .

(٤) ينظر : روح المعاني ٢٩ / ٢٨ .

(٥) ينظر : اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢ / ٥٥٤ للشيخ أحمد محمد البنا ، ت . د / شعبان محمد إسماعيل ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

(٦) ينظر : جامع البيان ٢٩ / ١٨ .

(٧) ينظر : اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢ / ٥٥٤ .

(٨) ينظر إرشاد العقل السليم ٩ / ١٤ ، والكشاف ٤ / ٥٩٣ .

بالتكذيب - هنا - ليرجع إلى صفة التكذيب التي انتقل الأسلوب منها من قوله : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ ، وهذه الآية مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي بعدم الإطاعة ، وفصل بينهما لشبه كمال الاتصال ؛ لأنه لما قال : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ كأن سائلا سأل - والله أعلم - : ماذا فعل هذا المكذب - وهو من جملة المكذبين - حتى لا يطاع ؟ فأجيب : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ أي : كذب بها ، وقال عنها ذلك ، فلا يستحق الطاعة .

وقرئ ﴿ أنذا ﴾ (١) على الاستفهام ، والمراد به : تفرغ وتوبيخ هذا المكذب على قوله : القرآن أساطير الأولين ، ولما كان هذا المذكور قد أغرق في الشر ، ونعت بصفات ذميمة مهينة توقع السامع جزاءه فبين الله ﷻ بأنه سيجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة ، فكانت السخرية المدوية في قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ .

ومن شواهد السخرية من السادة أيضا ؛ سورة المسد ؛ وهي تمثل سخرية من اثنين من أشد أعداء النبي ﷺ ، وأكثرهم إيذاءً وكراهيةً له ، وهما : عبد العزى بن عبد المطلب ، عم النبي ﷺ وزوجته أم جميل بنت حرب شقيقة أبي سفيان بن حرب ، حيث قال الله ﷻ في حقهما : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ

حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [سورة المسد] (*) .

وسبب نزول هذه الآيات - كما أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس - أن النبي ﷺ صعد ذات يوم على الصفا ، فنادى يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : بلى ، قال فأني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبولهب : تبأ لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله ﴿ تبَّتْ يدا أبي لهب وتب ﴾ (٢) .

" وروي عن ابن مسعود أن أبا لهب قال : إن كان ما يقول ابن أخي حقا ، فأنا أفندي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي ، فأنزل الله تعالى (ما أغنى عنه ماله وما كسب) " (٣) .

ومقصد هذه السورة هو البت والقطع بخسران الكافر ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين (٤) ، فأبو لهب برغم أنه عم الرسول ﷺ وأقرب الناس إليه ، إلا أنه كان من أشد طغاة مكة في إيذاء النبي ﷺ والمسلمين ، وصد الناس عن الإسلام ، وكانت خطورته تتمثل في أنه عم الرسول ﷺ ، والمفروض أنه بهذه الصفة يكون مصدق القول والرأي لدى الكثير من العامة .

(١) ينظر : إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٥٥٤ .

(*) معاني المفردات :

- تبَّتْ : التبت هو الخسران ، وتبت يدها بمعنى : خسر في كل ما يعتمد عليه من مال أو كسب أو قوة . (لسان العرب - تب) .

- الجيد : العنق (لسان العرب - جيد) .

- مسد : الليف ، والحبال التي تقتل منه تكون صلبة وقوية (لسان العرب - مسد) .

(٢) ينظر : لباب النقول ١ / ٢٣٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٤ .

(٤) ينظر : نظم الدرر ٢٢ / ٣٢٧ .

وامراته كانت تحتل في قريش مكانة رفيعة ؛ فهي أخت أبي سفيان بن حرب ، ومع ذلك كانت تنزل في عدائها للرسول ﷺ إلى درجة من الإسفاف لا تليق بامرأة شريفة ذات مكانة ، ومن ذلك أنها كانت تلقي بالأشواك في طريق النبي ﷺ بالليل ليمشي عليه ، وكانت تمشي بالنميمة (١) فقد كانت إذن هي وزوجها من أخطر أعداء الإسلام ، ومن أشد العقبات التي تحول دون انتشاره وهو ما يزال في مهده .

فما كان أحوج الإسلام إلى أن تتنحى من طريقه هذه العقبات الصلبة التي تصد الناس ، وتحوّل بينهم وبين بلوغهم إياه ، وقد تكلفت سخرية القرآن بهذه المهمة ، فعمدت إلى الطاغية الكبرى عبد العزى ، ووصمته بكنية بشعة أصبحت اسما له بعد اسمه الحقيقي ، وهي (أبو لهب) ، وأصبح هذا الوصف ملازما له ، مقترنا به في ذهن كل من يذكره أو يراه ، وأصبح الناس - بدل أن يستعيدوا في أذهانهم ما يقوله عبد العزى ضد ابن أخيه ، ودينه ، وأتباعه - يستذكرون هذا الوصف الذي لم يعهد له العرب مثيلا ، وبدلا من أن يرهب الناس عبد العزى حين يرونه ، ويترددون في الإقبال على الإسلام خوفا منه ، أصبحوا حين يرونه يبتسمون فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بين بعضهم بعضا ؛ لأنهم لا يرون أمامهم طاغية عتيا ولا جبارا عنيدا ، وإنما يرون شخصا يحمل اسما طريفا لم يسمعوا بمثله من قبل ، اسما يكسوه لهبٌ ونار ، ويؤكد القرآن هذا المعنى في أذهان العامة - أعنى إسقاط الجلالة والمهابة عن عبد العزى - فيؤكد لهم أنه هو وما يكتسب من مال بيديه تافهان ، وماله العريض هذا لا ينبغي أن يغرّ أحدا ، أو يخدعه عن الحقيقة الواقعة ؛ وهي أن ماله كله لن يغني عنه شيئا ، فلينظروا إليه على حقيقته ، وهو أنه مجرد أبو لهب ، وليقبلوا على الخير في كنف الإسلام .

وأما زوج أبي لهب ؛ فإن سخرية القرآن تنزلها في أعين نساء قريش والعرب من قمة مجدها وشرفها إلى حضيضٍ تتمنى المرأة - باعتبارها أنثى وخاصة إذا كانت في منزلة أم جميل - أن يطويها الثرى قبل أن يتمثلها الناس في هذه المنزلة الحقيرة ؛ فقد جعلها القرآن مجرد حمالةٍ للحطب ، ورسم لها منظرا مضحكا ؛ وهو منظر امرأة مربوطة بحبل في جيدها كما تُربط أي دابة ، ويشير القرآن بحملها الحطب إلى خلقٍ نميمٍ فيها ؛ وهو النميمة ، وكل ما وصفت به إشارة إلى جهودها الآثمة التي تعارض بها الإسلام وتحاربه (٢) .

وعند تناول هذه الآيات والسخرية الواردة فيها من الوجهة البلاغية - وهو الغرض من هذه الدراسة - يتضح أنها تنقسم قسمين :

- ١- السخرية من عبد العزى في قوله : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب سيصلى نارا ذات لهب ﴾
- ٢- السخرية من أم جميل في قوله : ﴿ وامراته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد ﴾ . أما السخرية من عبد العزى فتتمثل في ذكر كنية جديدة له وهي (أبو لهب) ، بدلا من اسمه ، فلم يذكر اسمه صريحا - هنا - لأسرار بلاغية جليلة هي :

(١) ينظر : تفسير الكشاف ٤ / ٦٥١ .

(٢) ينظر : نظرات حديثة في التفسير - محمد عبد الرحمن الجديلي ٥٣ - ٥٤ - منشورات المكتب التجاري - ١٩٦٣ .

- ١- إن اسمه كان عبد العزّي ، فسماه القرآن بكنيته دون اسمه ؛ لأن في اسمه عبادة العزّي .
- ٢- أو لأن الاسم أشرف من الكنية في بعض أوجهها ؛ بدليل أن الله - سبحانه وتعالى - يُسمّى ولا يُكْنَى ، فحطه الله ﷺ عن الأشرف إلى الأنقص ؛ للسخرية منه ، والتهكم به ، ووضع منزلته في أسفل سافلين .
- ٣- أو لأنه كان من أهل النار ، ومآله إلى النار ذات اللهب ، فوافقت حاله كنيته ، فكان جديرا بأن يُذكر بها .

وعلى كل الأحوال ، فوصفه بهذه الكنية هو تهكم به ، وسخرية منه ، وحط من شأنه في نظر أتباعه ، كما أن التعبير بصيغة اللهب يشير إلى إهانته وتحقيره ، وأنه من أهل جهنم ، ومن أصحاب السعير .

وعند التدقيق في الألفاظ التي أحاطت بالسخرية يتضح أنها بلغت الغاية في الدقة والبلاغة وقامت بدورها في التمهيد لها وتأكيدها خير قيام ، ومن هذه الألفاظ :

- ١- الفعل **«تبت»** ؛ حيث أفاد معنى التوبيخ ، والهلاك ، والوعيد الشديد لأبي لهب ، وهذا من براعة الاستهلال الذي مهد لهذه السخرية أفضل تمهيد .
- كما أن إسناد التّب إلى يدي أبي لهب ؛ لما روي أن أبا لهب لما قال للنبي ﷺ تَبّاً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ ! أخذ حجرا ورمى به النبي ﷺ حتى أدمى قدميه ، فوقع الدعاء على يديه ؛ لأنهما كانا سببا في إيذاء النبي ﷺ (١) .

وإيثار اليد بالذكر دون غيرها من الأعضاء هنا ؛ لنكتة بلاغية ؛ وهي أنها موضع الكسب والربح ، وكانت العرب تقول لمن عمل شيئا يوبّخ به : ذلك بما قدمت يداك ، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئا ؛ لأنه يقال لكل من عمل عملا : كسبت يداه ؛ لأن اليدين الأصل في التصرف والبطش ، والتعبير بها مجاز مرسل لعلاقة الجزئية ؛ حيث أطلق الجزء وهو (اليد) وأراد الكل وهو (نفس أبي لهب) ، والمراد : هلاك جملته لا يديه فقط ، ففيه مبالغة في المعنى وإيجاز في العبارة ، وتقرير لشمولية الهلاك لهذا الشخص وتأكيده في النفس أيما تأكيد .

وإذا كانت اليد هي آلة العمل والبطش ، فإذا هلكت وانقطعت كان الشخص كأنه معدوم هالك ، عدّ العرب خسرتها كناية عن خسران الشخص نفسه ، وهلاكها كناية عن هلاكه ، فإذا دُعِيَ عليه بخسران يديه فقد دُعِيَ عليه بخسرانه ، ولذلك قال بعد الجملة الدعائية **«وتب»** أي : هلك وخسر (٢) ؛ لتأكيد هذه الكناية ، والدعاء عليه بالهلاك ؛ بسبب ما اقترفت يداه في حق النبي ﷺ وحق الإسلام .

٢- وبعد السخرية بالكنية (أبي لهب) قال جل شأنه : **« سيصلى نارا ذات لهب »** ، فعبر بالفعل المضارع **« سيصلى »** ؛ ليفيد تجدد العذاب واستمراره ، وسبقه بحرف التنفيس ؛ لتأكيد الوعيد ، وتشديده بأن دخوله النار كائن لا شك فيه ، وسيحدث عما قريب .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٢ .

(٢) ينظر : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٥ / ٥٣٢ - ت : د / محمد عمارة - دار الشروق - ط ١ - ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

والحق أن التعبير بالفعل **« يصلى »** بدلا من **« يدخل »** ؛ للمبالغة في أنه يُشوى بها ويُحسُّ بإحراقها ، وفيه إهانة شديدة لهذا المتجبر ، وسخرية من حاله وهو يشوى في نار جهنم ، جزاء ما قدمت يداه ، كما أن تنكير **« نارا »** جاء للتهويل من شأنها ، وتعظيم لهيبها وأثر إحراقها ؛ فهي نارٌ عظيمة ذات اشتعال ، ولا يعلم حقيقتها إلا الله ﷻ وحده ، وسيُعذب فيها أبو لهب جزاء ما اقترفت يداه من آثام جسيمة ، كما يوحي تنكير هذه النار - أيضا - بأنها نار مخصوصة أعدت له ، وليست النار المعهودة المعروفة للجميع ، وفي ذلك قمة الإهانة والسخرية من هذا الرجل ، كما أن وصف النار بأنها **« ذات لهب »** ؛ لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه الجديد - المثير للسخرية - وبين جزاء كفره ؛ إذ هو أبو لهب ، والنار ذات لهب ، وهذا الوصف يشير إلى شدة حرارتها ، والذي ساعد على إبراز هذا المعنى وتقويته الجنس التام بين **« لهب »** الأولى و**« لهب »** الثانية ، ولا شك أن المعنى يقتضي هذا الجنس ، والمقام يستدعيه ، والجمع بينهما في سياق واحد يدل على التهكم والسخرية بهذا العدو المتغطرس .

وأما السخرية من امرأة أبي لهب فجاءت في قوله تعالى : **« وامراته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد »** بالعطف على الضمير المستتر في **« سيصلى »** أي : وتصلى امرأته نارا ذات لهب مثل زوجها ، وهي صورة شديدة السخرية من هذه المرأة ، مستمدة من البيئة الجاهلية التي كان يُرى فيها الدواب وعليها أحمال من حطب ، وفي أعناقها حبال تقاد بها ، فعمدت سخرية القرآن الكريم إلى تشبيهها بصورة دابة من هذه الدواب ، تحمل الحطب ، وفي عنقها حبل تقاد به ، وكل ما في هذه الصورة من ألفاظ إنما هو تأكيد لإلباس أم جميل صورة الدابة الحقيقية التي تحمل الحطب ، وتقاد بحبل من ليف .

والتحليل البلاغي لهذه الصورة الساخرة يكشف كثيرا من الأسرار والدلائل ؛ فقد وصل جملة **« وامراته حمالة الحطب »** بجملة **« سيصلى نارا ذات لهب »** ؛ للتوسط بين الكمالين ؛ حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى ، ووجد الجامع بينهما ؛ وهو سوء المصير لكل من أبي لهب وزوجته ، وذلك أنه لما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته ، جعل لامراته وعيد مقتبس من فعلها ، وهو حمل الحطب في الدنيا فصح الوصل ، وكنى عن أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بلفظ **« وامراته »** ؛ فلم يصرح باسمها استهجانا ، وتحقيرا وإشارة إلى أنها أخط من أن تذكر ؛ لأنها بالغت في عداوة النبي ﷺ وإيذائه ، حيث كانت تحمل الشوك فتضعه في طريقه ﷺ ، وقد توعداها الله ﷻ بالعذاب في الآخرة ؛ جزاء لأفعالها الشنيعة ضد النبي ﷺ والمسلمين (١) .

وصورة القرآن الساخرة من أم جميل فيها إشارة إلى أن الحديث عن آدمية ؛ لأن الآدمي لا يتزوج إلا آدمية وليس دابة عجماء ، وكلما زاد تأكيد صفة الدابة العجماء لها - هنا - كان الكلام أبلغ ، ووقعه أشد ، والتأكيدات على صفة الدابة لأم جميل من الوضوح بمكان ؛ حيث وصفها النظم الكريم بأنها **« حمالة الحطب »** ومعناها : النمامة الواشية التي توجب النار بين

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩ / ٢١١ - والأعمال الكاملة ٥ / ٥٣٢ .

الناس بنميتها ، كأنها تحمل الحطب لتحرق ما بينهم من الصلات (١) ، وجاءت منصوبة بفعل محذوف قصد به التخصيص بالذم والشتم ، أو بالنصب على الحال .
 " وقرأ الجمهور ﴿ حمالة ﴾ بالرفع على أنها صفة لـ ﴿ امرأته ﴾ ، فيحتمل أنها صفتها في جهنم ويحتمل أنها صفتها التي كانت تعملها في الدنيا ؛ بجلب حطب العضاة في طريق النبي ﷺ على طريقة التوجيه ، والإيماء إلى تعليل تعذيبها بذلك " (٢) .

وعلى كل ، فإن لفظ ﴿ حمالة ﴾ بتشديد الميم يفيد أن وظيفتها أو عاداتها حمل الحطب بخلاف ما لو كان التعبير حاملة الحطب ، أو تحمله ، فإن هذا لا يدل على تكرار الفعل كما تدل عليه صيغة المبالغة والتضعيف ، فضلا عن مجيئها نكرة للتحقير ، ويرى الدكتور : حفني محمد شرف " أن في الجملة تنبيها بالكناية على مصير زوجة أبي لهب ؛ فهي نامامة ، ومصيرها إلى أن تكون حطبا لجهنم " (٣) ، وهو رأي وجيه ؛ فكما كانت تحمل الحطب في الدنيا ، فسوف تكون يوم القيامة هي وقود النار وحطبها .

و﴿ الحطب ﴾ مستعار للنميمة ، أو الذنوب ؛ وهي استعارة لطيفة مشهورة (٤) ؛ حيث شبه النميمة بالحطب ، أو الذنوب به ، ثم استعار الحطب للنميمة أو الذنوب على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ؛ للإيماء بأن النميمة هي وقود الخلافات والضغائن ، فإذا اشتعلت الفتنة أكلت كل شيء ، ودمرت الظالم والمظلوم ، وأن الذنوب وقود المذنب في نار جهنم ، وتوحي الاستعارة - أيضا - بأن الأشراف لا يباشرون هذا العمل الخسيس ، ولذلك كان وقع هذه الإيحاءات على أبي لهب وامرأته عظيما ، وكان خزيهما شديدا ؛ لأنها سخرية مهينة والاستعارة - هنا - في غاية الروعة ؛ لأن الحطب من جنس ، والنميمة من جنس آخر بعيد وتشبيه أحدهما بالآخر أمر طريف عجيب غريب ، أضف إلى ذلك أن لفظ (الحطب) يؤكد صورة الدابة ، والتي سخرها الله للحمل وظيفتها لها ، وتخصيص الحمل بالحطب حتى لا يتجه ذهن السامع إلى تأويله بشيء يناسب الأدميين كحمل متاع مثلا ؛ لأن هدف السخرية من أم جميل تأكيد صفة الدابة لها .

ولزيادة التبشيع في تصويرها قال : ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ ، وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب ، وفي عنقها حبل من الليف ، وهي صورة ساخرة جدا من هذه المرأة ، وقد يكون وصفها بالحبل في جيدها ؛ إشارة إلى أنها لا تعدو في تفكيرها وسلوكها نحو الدين أن تكون دابة - كأبي دابة - تقاد بحبل في جيدها ، فليس تفكيرها هو الذي يقودها ، وإنما هي مشدودة إلى عادات وتقاليد جاهلية ، ومقودة - أيضا - بهذه العادات السيئة .

وتعبير (في جيدها حبل) تأكيد آخر لصفة الدابة العجماء في أم جميل ، فإن الذي يقاد بالحبل في عنقه إنما هي الدواب والماشية العجماء ، حتى لا يتجه ذهن السامع إلى أن المراد

(١) ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩ / ٢١١ - والأعمال الكاملة ٥ / ٥٣٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٠٦ / ٣٠ .

(٣) إجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق - ص ٣٥٠ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - اللجنة العامة للقرآن والسنة - الكتاب الرابع ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م .

(٤) حاشية الشهاب ٨ / ٤١٠ .

بحامل الحطب امرأة آدمية ، بينما الهدف من السخرية تأكيد صورة الدابة العجماء ، ولذا قدم الخبر **« في جيدها »** على المبتدأ النكرة **« حبل »** ؛ للاهتمام بوصف تلك الحالة الفظيعة التي عُوِّضت فيها هذه المرأة بحبل في جيدها ، بدلا من العقد الذي كانت تحلّي به جيدها في الدنيا ؛ لأنها كانت - هي وزوجها - من أهل الثراء وسادة البطحاء (١) .

و**« المسد »** ما يفتل من ليف اليمين الشديد ، والحبال التي تفتل منه تكون قوية وصلبة (٢) . وتقييد الـ **« الحبل »** بأنه **« من مسد »** يوحي بشدة الحبل الملفوف حول عنقها وقوته ، فلا تستطيع الفكك منه ، كما لا تستطيع الفكك من عذاب النار يوم القيامة ، فالآية - لا شك - تخبر عن الصورة التي تعاقب بها في الآخرة .

كما أن الحديث عن امرأة معروفة بأنها من ذروة القوم وعليتهم ، وربما يُتخيّل أن الحبل الذي في جيدها ليس كسائر الحبال ، بل هو حبل من حرير ، أو شيء لين على الأقل ، ولكن لفظ (مسد) يرده إلى صورة الدابة المقودة بحبل من ليف ، وتفسير المسد بأنه الفتل القوي ، فيه إضافة ساخرة تتضمن أنها دابة جامحة تحتاج حبالا قويا ، وتصويرها بصورة بعض الحطّابات وحملها حزمة من الشوك ، وربطها في جيدها ، صورة مزرية مهينة لهذه المرأة الناشئة في بيت العز والشرف ؛ لتسقطها من الرفعة والعلو إلى أسفل سافلين .

والحق أن استعارة القرآن صفة الدابة العجماء لامرأة آدمية لا غرابة فيه لا لغويا ولا دينيا **فمن حيث اللغة** ، تجد أن التصوير بالحيوانات أسلوب مجاز شائع في كل أساليب العربية البليغة وأكثر ما يكون شيوعا في القرآن ، والتصوير القرآن أم جميل بصورة الدابة يؤكد ذلك . **ومن حيث الدين** يتضح أن التصوير السابق هو منهج للقرآن في وصف المشركين ، حيث تكرر تصويرهم بأنهم كالبهائم ، ليس في أجسادهم ، أو أشكالهم ، أو حياتهم المعيشية ، وإنما في جانب معين منهم هو العقيدة ، فهم والأنعام فيها سواء ، من حيث إن البهائم لا عقول لها ، وهم أيضا لا يستخدمون عقولهم في العقيدة ، بل يعطلونها فكأنهم بدون عقول ، وقد سبق وصف القرآن لهم بأنهم كالأنعام في قوله تعالى : **﴿ إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾** [الإسراء : ٤٤] .

وختاماً : فإن هذه السورة جاءت موضحة للعقاب الذي حل بهذا الكافر وامرأته ؛ عقابا لهما على كفرهما بالله ورسوله ، وعداوتهما للمسلمين ، وفيها تعريض بالسامعين بأن هذا الجزاء واقع - لا محالة - على أمثالهما ممن بالغوا في عداوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين .

وهكذا : تنوعت سخرية القرآن من هؤلاء القادة والزعماء الكافرين ، وبيّنت موقفهم من الإسلام ، وصددهم الناس عن سبيل الله ، وقد ظهر واضحا أنهم بعيدون عن الحق ، ظالمون في خصومتهم للدين ، ولذا جاءت سخرية القرآن منهم لتقصم ظهورهم ، وتردهم خائبين خاسرين وتبين أن الإسلام هو الحق ، وأن الله - سبحانه وتعالى - سوف يظهر دينه ولو كره الكافرون .

(١) ينظر التحرير والتنوير ٦٠٧ / ٣٠ .

(٢) السابق : الصفحة نفسها ، بتصريف يسير .

المبحث الرابع

السخرية من بعض عادات المشركين وأخلاقهم السيئة

المبحث الرابع

السخرية من بعض عادات المشركين وأخلاقهم السيئة

ذكر القرآن الكريم للمشركين عادات وأخلاقا سيئة تتنافى وقيم الإسلام ، واختلف حديث القرآن عن هذه العادات بما يتناسب مع كل سياق ، ومع مقصد كل سورة ورد فيها ذلك ، فمن هذه العادات والأخلاق مثلا : اتباعهم الآباء وهم على ضلال ، دون نظر في هذا المنهج ، وكرههم للبنات ، ومع ذلك يجعلون الملائكة بنات الله ... ونحو ذلك ، وستقف الدراسة مع بيان السمات البلاغية لهذه المواقف ، وإبراز أهم الفروق بينها ، ومن أهم العادات التي وجه القرآن سلاح السخرية إليها وحاربها ما يأتي :

أولا : السخرية من اتباع الآباء :

وكان هذا الجانب وثيق الصلة بالعادات ؛ حيث كان التمسك باتباع الآباء نزعة متأصلة في نفوس الكافرين ، فقد سيطرت على أفكارهم ، ووجهت عقولهم وعقيدتهم ، وكانت هذه النزعة من أشد العقبات التي وقفت في طريق انتشار الإسلام ؛ لأنهم كانوا يقصدون آباءهم وأجدادهم ، وخاصة البارزين منهم ، وكان آباءهم آلهة لا يجوز الخروج عن طاعتهم ! ، وحين دُعوا إلى الإسلام ، لم يحلّ دون الاستجابة له سوى أنهم وجدوا آباءهم على أمة ، وهم على آثارهم مقتدون ، ومن هنا نعى عليهم القرآن نعيًا شديدا مكررا انقيادهم بهذه الصورة ؛ لما في ذلك من إلغاء عقولهم وتفكيرهم إلغاء كاملا ، وسخر منهم سخرية شديدة في تسعة مواضع تقريبا (١) .

وفيما يلي تحليل بلاغي لنماذج من هذا النوع من السخرية ؛ للدلالة على أنهم بلا حجة أو دليل في كفرهم وإتيانهم المحرمات سوى تقليدهم الأعمى للآباء والأجداد .

يقول الله عز وجل : ﴿ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ لَكُلُّهُمْ فِي الْأَرْضِ حَلَّالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٠﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَاتِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٢﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٨ - ١٧١] (*) .

(جاءت هذه الآيات من سورة البقرة ؛ لتخاطب جميع البشر بأن يأكلوا مما أحله الله لهم من الطيبات التي لا تضر الأبدان أو العقول ، وينهاهم عن اتباع الشيطان ، والاقتراء بآثار هذا العدو

(١) ينظر : البقرة ١٧٠ - ١٧١ والمائدة ١٠٤ والأعراف ٢٨ والصفات ٦٩ - ٧٠ والزخرف ٢٢ .

(*) معاني المفردات : ألفينا : وجدنا (المعجم الجامع - لفي) - ينعق : يصيح بالغنم (المعجم الجامع - نعق) .

- دعاء ونداء : قيل : إن الدعاء للقريب ، والنداء للبعيد ، وقيل الدعاء : طلب الفعل ، والنداء إجابة الصوت ، وقيل : الدعاء ما يُسمع ، والنداء قد يُسمع ، وقد لا يُسمع ، والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات التي تفهمها الغنم ؛ فالدعاء ما يخاطب به الغنم من الأصوات الدالة على الزجر ، والنداء رفع الصوت عليها ؛ لتجتمع إلى رعاتها (ينظر : التحرير والتنوير ٢١٣/٢ والبحر المحيط ١ / ٦٥٩ وروح المعاني ٢ / ٤١) .

- السوء : الإساءة (المعجم الجامع - سوا) .

- الفحشاء : كل مستفحش من قول أو فعل (المعجم الجامع - فحش) .

الظاهر فيما يزين لهم من المعاصي والفواحش ، والافتراء على الله بتحريم ما أحله لهم ، وتحليل ما حرمه عليهم .

ثم يوجه المولى ﷺ حديثه إلى المشركين ، فيبين أنهم كانوا إذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن ، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل يقولون : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، والحقيقة أن آباءهم أغبياء سفهاء ، ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ، ولا بصيرة تنير لهم الطريق ، ومثل هؤلاء المقلدين لآبائهم - في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة - كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها ، فهي تسمع الصوت والنداء ، ولا تفهم الكلام الموجة إليها ومقصوده ، فهؤلاء كالدواب السارحة ، صم عن الحق ، بكم عن النطق به ، عمي عن رؤيته ، فلا يعقلون ، ولا يفهمون (١) .

والمقصود بالخطاب في الضمير « لهم » المشركون ؛ لأنهم هم الذين ائتمروا لأمره بالسوء والفحشاء (٢) ، وقيل الضمير عائد على كفار العرب ؛ لأن هذا كان وصفهم ؛ وهو الاقتداء بآبائهم ، وقال ابن عباس : نزلت في اليهود ، وعلى هذا الاختلاف يكون الضمير عائداً على غير مذكور (٣) ، ويرى الطبري في تفسيره (٤) أن الضمير عائد إلى الناس ، والكفار منهم وهم المقصودون هنا ، وأياً ما كان مرجع الضمير ؛ فإن العطف مقصودٌ به زيادة التفتيح لحال أهل الشرك ، وتجهيل لهم ، وسخرية منهم في تقليدهم الآباء ، واتباعهم خطوات الشيطان .

فبعد أن دعاهم الحق - تبارك وتعالى - من باب النصح والإرشاد أن يتبعوا شريعته ، ويسلكوا طريق الهدى والنور ، ويطلبوا الاجتهاد في تكليف أنفسهم البعد عن هوى الشيطان الرجيم ، وهوى آبائهم الأولين في قوله : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله » أبوا إلا الإلف والتقليد ، وابتعدوا عن السمو ، والنظر السديد ، والفكر الرشيد ، على الرغم من وضوح الآيات الباهرة ، والحجج الظاهرة ، على وجود الله ووحدانيته ، وقالوا : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » ، فسخر القرآن منهم ، ومن آبائهم سخرية شديدة في موطنين من هذا الشاهد :

- الأول في قوله تعالى : « أولئك كانوا أبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

- والثاني في قوله تعالى : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عنى

فهم لا يعقلون » .

أما السخرية الأولى في قوله : « أو لو كان أبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » فقد جاءت بطريق الاستئناف المسوق من جهة الله - تعالى - ردّاً على مقالتهم الحمقاء « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » ، فأظهر بطلان آرائهم في التقليد ، وسخر من آبائهم بجملة إنشائية مكونة من ألفاظ قوية استدعاها المقام ؛ حيث بدئ الأسلوب الساخر بهزمة الاستفهام ؛ لغرض التوبيخ والإنكار ، والتعجب من حالهم ، " واستعملت الهزمة في الإنكار كناية ، وفي التعجب إيماءً ، والمراد بالإنكار : الرد والتخطئة ، لا الإنكار بمعنى النفي " (٥) .

(١) فتح القدير ١ / ١١٠ - بتصرف .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢ / ١٠٦ .

(٣) ينظر : البحر المحيط ١ / ٦٥٥ .

(٤) ينظر : جامع البيان ١ / ٨٤ .

(٥) التحرير والتنوير : ١٠٦ / ٢ .

وبعد الهزمة جاءت الواو للحال ، كما يقول الزمخشري ، والمعنى: أيتبعونهم؟ ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ، ولا يهتدون للصواب أيتبعونهم أيضا (١)؟ ! بحذف فعل الاستفهام وجواب الشرط ، وابن عطية يرى أن : الواو لعطف جملة كلام على جملة ؛ لأن غاية الفساد في الالتزام أن يقولوا : نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون (٢) .

وبعد الواو جاءت ﴿ لو ﴾ ؛ للتنبيه على أن ما بعدها لم يكن مناسباً لما قبلها ، لكنها جاءت لاستقصاء الأحوال التي يقع فيها الفعل ، ولتدل على أن المراد بذلك وجود الفعل منهم (وهو الاتباع) في كل حال (٣) حتى في هذه الحال التي لا تناسب الفعل ، فهم مقلدون آباءهم ، ومتبعون لهم في كل الأحوال ، ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .

ثم نفي عن آبائهم العقل والهداية بصيغة المضارع المنفي ، فقال : ﴿ لا يعقلون ﴾ و﴿ لا يهتدون ﴾ ؛ لاستحضار الصورة ، وتذكير هؤلاء الكافرين المقلدين آباءهم بحقيقتهم المزرية المهينة ، فهم بلا عقل ولا هداية فكيف يقلدونهم؟! وهي سخرية من الآباء ، وممن يقلدونهم .
وقدم نفي العقل على نفي الهداية ؛ لأن العقل تصدر عنه جميع التصرفات ، ونفي الهداية مترتبٌ على نفي العقل ؛ فالهداية ناشئة عن العقل ، ونفي العقل نفيٌ لها ، فكيف يتبع الهدى من لا عقل له ولا تمييز؟! ، كما أن نفي العقل نفيٌ لبصيرة القلب التي تبصر الأشياء المعقولة ، ونفي الهدى نفيٌ لإبصار العين التي تبصر الأشياء المحسوسة ، فهم بلا بصر ولا بصيرة ، ومقلدوهم مثلهم .

كما أن ﴿ شيئا ﴾ جاءت نكرة ومفردة ؛ للدلالة على عدم إدراكهم البتة شيئا من المدركات الحقيقية ، وهي بليغة في إلزام مقلديهم بالخطأ في اتباعهم من غير تبصر ولا تأمل .
ولا شك أن التعجب من اتباعهم لأبائهم الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؛ فيه سخرية منهم وتهكم بهم بطريق التلويح ، وتعريض لهم - أيضا - بأنهم لا يعقلون ولا يهتدون .

وأما السخرية الثانية في هذا الشاهد ففي قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ ، حيث إنهم لما كانوا لا يعقلون ولا يهتدون مثل آبائهم ، مثلهم الله بصورة مزرية مهينة ، وهجاهم بأوجع هجاء في القرآن الكريم في الجملة السابقة ، وهي جملة خبرية ابتدائية جاءت لتقرير ما قبلها بطريق التصوير وفيها إيجاز بحذف المضاف في قوله : ﴿ ومثل الذين كفروا ٠٠٠ ﴾ (والتقدير : ومثلٌ داعي الذين كفروا ، أو ومثلٌ وعظ الذين كفروا ، بحذف المضاف ، ولا بد من هذا التقدير ؛ ليكون الداعي بمنزلة الراعي ، وهذا من أفصح الكلام إيجازا واختصارا كما قال سيبويه) (٤) .

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري ١ / ٢٣٩ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٦٥٥ بتصرف .

(٣) ينظر : السابق ، نفس الصفحة .

(٤) الحذف البلاغي في القرآن الكريم - مصطفى عبد السلام أبو شادي - ص ٧١ بتصرف يسير - مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة .

وعند تناول ما تضمنته السخرية من الناحية البلاغية ، يتضح أنها من البلاغة بمكان ؛ حيث جاءت في صورة إخبار مبني على تشبيه فريد في القرآن كله ، فلم يرد (الذي ينعق) إلا هنا ، وهذه الصورة الخبرية جاءت مشحونة بأساليب وصور بلاغية شتى أعانت على كشف قيمتها وأثرها الموجه ؛ فقد وضع الاسم الموصول **« الذين »** موضع الضمير ، فلم يقل : (ومثلهم) ؛ لدمهم بما في حيز الصلة ؛ وللإشعار بعلّة ما أثبت لهم من الحكم عليهم بالضلالة ؛ لانهماكهم في تقليد آبائهم وأجدادهم ، وقد جاء الموصول في الآية مضافا إليه في قوله تعالى : **« ومثل الذين كفروا ٠٠٠ »** ، والمراد بالذين كفروا المضروب لهم المثل هنا هو عين المراد من الناس في قوله تعالى : **« ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا »** (١) وعين المراد من الذين ظلموا في قوله **« ولو يرى الذين ظلموا »** (٢) ، وعين المراد من ضمير الغائب في قوله : **« وإذا قيل لهم »** (٣) ، فالمراد هؤلاء المتصفون بهذه الصفات ، وهم مشركو العرب ، وإنما عبر عنهم بالموصول وصلته ؛ للذم والتحقير بمضمون الصلة ، وليضيف إليهم وصفا آخر يوجب الذم والتحقير والسخرية منهم ، بضرب المثل لهم بسبب انهماكهم في الغي والضللال والتقليد الأعمى ، ولذا شبههم بتشبيه تمثيلي هو آية في الفصاحة والبلاغة ، وغاية في التهكم بهم والسخرية منهم ؛ " حيث شبه حالهم عند سماع دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الإسلام بحال الأنعام عند سماع دعوة من ينعق بها في أنهم لا يفهمون " (٤) ، وهذا من أبداع التمثيل وأروعه ، وقد أوجزته الآية إجازا بديعا .

وقد يقال : إن هذا التشبيه المركب يمكن فيه فك أجزاءه ، فيجوز أن يشبه داعي الكفار بالناعق ، ويشبه الكفار بالأنعام ، أو يشبه الداعي والكافر بالناعق والمنعوق به ٠٠٠ الخ ، ولكن هذا غير مراد من التشبيه ، ويفوّت الغرض منه ؛ لأن قوله : **« ومثل الذين كفروا »** صريح في أنه تشبيه هيئة بهيئة ، كما في قوله تعالى : **« مثلهم كمثل الذي استوقد نارا »** [البقرة : ١٧] فهو- إذن - تمثيل ، والتمثيل كما يذكر الإمام عبد القاهر : " إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشدّب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ٠٠٠ فإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر " (٥) .

والسر البلاغي لهذا المثل : بيان أن مثل الذين كفروا في اتباعهم وتقليدهم لأبائهم كمثل البهائم التي تسمع ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته ، فكذلك هؤلاء يتبعون آباءهم على ظاهر حالهم ، ولا يفقهون أهم على حق أم على باطل ، أو أن مثلهم كبهائم الذي ينعق ، أو أن مثلهم ومثل داعيهم إلى الإيمان - وهم لا يسمعون من دعائه إلا الصوت من غير إلقاء ذهن ولا استبصار - كمثل الناعق بالبهائم التي تسمع دعاء الناعق ونداءه ، ولا تفقه شيئا آخر (٦) ، وهو تمثيل بلغ الغاية في السخرية والإهانة لهؤلاء الكافرين .

(١) ، (٢) البقرة من آية ١٦٥ .

(٣) البقرة من آية ١٧٠ .

(٤) التحرير والتنوير ٢ / ١١١ .

(٥) أسرار البلاغة - ص ١١٥ .

(٦) ينظر: الكشاف ١ / ٢٣٩ وما بعدها .

وقيل المراد من هذا المثل تشبيه الكفار في دعائهم للأصنام بالراعي إذا نعى بغنمه ، وهو لا يدري أين هي ولا تجيبه ، ولكن المفسرين استبعدوا هذا التخريج ؛ وعللوا لذلك بأن قوله تعالى : ﴿ لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ يرجح ذلك ؛ على أساس أن الأصنام لا تسمع شيئا ، وهذا حق ، ولذا فإن الراجح والمناسب لمقام السخرية والتهكم بالمشركين في هذا المثل هو تصوير الرسول ﷺ وكل داع يدعوهم إلى الهدى كأنه راع يرعى غنما في أحد المراعي ، فهو يحرص حرصا شديدا على أن يقود هذا القطيع من الماشية إلى خير مرعى ، وأن يجمع شمله حتى لا يند من القطيع شيء ، أو يتشرد ، ووسيلته في ذلك هو صوته الذي ينعق به على غنمه ، ولا شك أن وضع المشركين في صورة الغنم القاصية أو الشاردة عن المرعى أو القطيع ، والراعي ينعق عليها بصوته ؛ يدعوها إلى الرجوع ، ولكنها لا تعقل من كلامه إلا مجرد الصوت دون فهم مضمونه أو فحواه هو قمة التهكم بهم ؛ لأنهم شاردون عن الهدى الواضح ، والخير البيّن ؛ لأن داعي الهدى يدعوهم ، ولكنهم يسمعون ، ولا يفهمون ، ولا يعقلون ما يقوله هذا داعي . وهذه الآية من الاحتباك ؛ لأنه حذف من الأول مثل داعي لدلالة الناعق عليه ، وحذف من الثاني المنعوق به لدلالة المدعويين عليه ، وهو من البلاغة والإيجاز بمكان .

وتصعبا في حدة السخرية جاءت جملة : ﴿ لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ ؛ كناية عن عدم الفهم والاستجابة ، وهي بيانية ، تفسيرية لما أبهم في المثل ، ومن تكملة أوصاف المشبه به ، وقد صيغت بطريق القصر بالنفي والاستثناء ؛ حيث قصر سماعهم على الدعاء والنداء فقط دون شيء آخر ؛ وذلك للتأكيد على سماع صوت داعي للهدى دون فهم فحواه ؛ لأن عقولهم مغيبة وهذا القصر اقترن بالتشبيه التمثيلي فزاده قوة وبلاغة ، وجعله أغنى في الدلالة ، وأخصب في الفكرة .

ولما كانوا لا يسمعون إلا دعاء ونداء وصفهم الله ﷻ بأنهم ﴿ صم بكم عمي ﴾ ، وهذه الأوصاف أخبارٌ لمبتدآتٍ محذوفة تقديرها : (هم صم - هم بكم - هم عمي) ، وهذه الأوصاف إن رجعت للأصنام فهي حقيقة ؛ أريد بها إثبات انعدام الإحساس منها ، وعبر عنها بهذه الأوصاف تهكما بالمشركين ؛ لأنهم فرضوها آلهة عقلاء فليل : (صم بكم عمي) . وإن رجعت للمشركين فهي تشبيهات بليغة ، وهو الظاهر والراجح ، وحذف الوجه والأداة ؛ للمبالغة في دعوى اتحاد الطرفين ، حتى صارا كأنهما شيء واحد ، فهم صم لا يسمعون ، وبكم لا ينطقون ، وعمي لا يبصرون .

وهذه الجملة - عموما - توضح لنا أن الموازنة بين المشركين وبين الأنعام الشاردة ؛ تبرز لنا أن المشركين كانوا أكثر ضلالا منها ؛ لأنهم يزيدون عنها بأنهم صم ، وعمي ، وهذا تصعيد في شدة الذم والسخرية ، ومن الملحوظ أن النظم القرآني أورد هذه الصفات نكرة ؛ لتحقيرها في ذاتها ، وذم المتصفين بها وهم المشركون .

وفصل بينها وبين قوله : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ لشبه كمال الاتصال ؛ حيث اتفقت الجملتان في الخبرية ، وجاءت الجملة الثانية جوابا لسؤال أثارته الجملة الأولى ؛ فكأنه قيل : لماذا مثل الكفار بالأنعام التي لا تسمع إلا دعاء ونداء ؟ فأجيب : لأنهم ﴿ صم بكم عمي ﴾ .

ولما تقرر فقدهم للسمع ، والنطق ، والبصر ، كان من نتيجة ذلك أنهم ﴿ لا يعقلون ﴾ ، وهو تفريع وتهكم كمجيء النتيجة بعد البرهان ، والمعنى : إن تأملتم وجدتموهم لا يعقلون مثل آبائهم ؛ لأنهم كالأنعام ، والصم ، والبكم ، والعمي ، وإذا كانوا كذلك فقد انسد عليهم أبواب العقل وطرق الفهم بالكلية .

ونفى عنهم العقل بلا النافية ، وصيغة المضارع الدالة على الدوام والاستمرار ، وفقدان عقولهم ؛ لفقدان حواسهم الثلاثة ، والمراد بالعقل المنفي في الآية : هو العقل الاكتسابي ؛ لأن العقل المطبوع كان حاصلًا لهم ، وهذه سخرية منهم أشد وأنكى .

ومن شواهد السخرية من تقليد الآباء - أيضا - قوله تعالى : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ

بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴿٢٢﴾ [الزخرف: ٢١-٢٢] (*) .

حيث جاءت هاتان الآيتان من سورة الزخرف ، وهي مكية النزول ، مقصودها الأصلي تصحيح الانحرافات العقائدية ، ورد النفوس إلى الفطرة الأولى ، حيث إن المشركين كانوا يعبدون الأصنام والأحجار ، ويقولون : إن الملائكة بنات الله (١) ، ولما قيل لهم : إنكم تعبدون أصناما وأحجارا كان منطقتهم أنهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك ، فبينت هاتان الآيتان أنهم لم يجدوا سندا من جهة العقل أو النقل على تمسكهم باتباع وتقليد الآباء ، ولذا وبخهم القرآن وأنكر عليهم ذلك بتوجيه سؤال مفاده : هل أنزلنا كتابا قبل القرآن فيه توجيه لذلك التقليد الأعمى الباطل ، حتى يتمسكوا به؟! ويقولون إنا وجدنا آباءنا على طريقة ودين ، وإنا ماضون على طريقتهم ، مهتدون بآثارهم .

ولما لم يثبت دليل عقلي ، أو دليل نقلي على اتباعهم الآباء ، وجب أن يكون قولهم باطلا ، حيث ضاقت بهم السبل ، ولم يجدوا ملجأ يفرون إليه أمام حجج القرآن المتلاحقة ؛ إذ ليس لهم دليل ، أو رؤية بصرية يعولون عليها ، ولما بلغوا هذا الحد من الضعف ، والازدراء ؛ غلبت عليهم شقوتهم ، فلم يجدوا أمامهم إلا أن يعلنوا تقليدهم الأعمى لآبائهم الأولين في قوله تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴾ ، وفي ذلك دلالة واضحة على ضعف

موقفهم ، وعجزهم عن الاتيان بحجة تكون سندا لهم فيما يسلكون ، وإعلان صريح عن انهزامهم أمام جلال القرآن ، يقول الفخر الرازي : " لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت في إبطال القول بالتقليد ، وذلك لأنه - تعالى - بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه ، لا بطريق عقلي ، ولا بدليل نقلي ، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه لمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر - تعالى - هذه المعاني في معرض الذم ، والتهجين ، والسخرية " (٢) .

(*) معاني المفردات : - أمة : دين أو ملة أو طريقة (المعجم الجامع - أمة) .

(١) ينظر : مساعد النظر : ٤٦٦ / ٢ .

(٢) مفاتيح الغيب : ٢٧ / ٢٠٧ .

وموطن السخرية في قوله تعالى : ﴿ **وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ حيث إن النظم القرآني عبر باسم الفاعل (مهتدون) تماشياً مع زعمهم الباطل في أن متابعتهم لأبائهم اهتداءً لا ضلال فسايرهم القرآن في ذلك من باب التهكم بهم ، والسخرية منهم ، فضلاً عن ثباتهم ودوامهم على التقليد الأعمى ، حتى ولو كان في الضلال ، ثم ادعائهم أن هذا الضلال هدى يسيرون عليه ، ولو لم يسخر القرآن منهم لقال حكاية عنهم : (**وإنا على آثارهم متبعون أو سائرون**) ، فعبر عن ضلالهم بالهدى سخرية منهم ، واستهزاء بعقولهم .

ولبيان تلك السخرية استعان القرآن بالصور والتعابير البلاغية التي جعلتها بالغة أقصى القوة في ذم هؤلاء المقلدين ، حيث جاءت السخرية في صورة الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى : ﴿ **وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ ، شبه فيها هيئة من يفعل فعل غيره ليصل إلى المنشود بهيئة من يتتبع آثار غيره ليلحق به ، ثم استعيرت الهيئة المشبهة بها للهيئة المشبهة ؛ لإبراز حال هؤلاء المقلدين لأبائهم في صورة حسية مبصرة ؛ بيانا لما هم عليه من الغفلة المانعة من التفكير فهم يقلدون ما يرون من أفعال دون تأمل أو تدبر ، كما قدم الجار والمجرور ﴿ **على آثارهم** ﴾ على الخبر ﴿ **مهتدون** ﴾ لإفادة الاختصاص ، والدلالة على شدة كفرهم ، وتمسكهم بالباطل الذي سار عليه أبائهم ؛ ولاشك أن إيثار التعبير بـ (**آثارهم**) بدلاً من (**طريقتهم**) يفيد شدة تمسكهم بكل ما فعله الآباء ، مع الدقة المتناهية في التقليد دون تعقل أو تدبر ، وذلك عون على السخرية ، ليس هذا فحسب ، بل إنه عبر باسم الفاعل ﴿ **مهتدون** ﴾ تماشياً مع زعمهم الباطل في أن متابعتهم لأبائهم اهتداءً ، للتهكم بهم ؛ والسخرية منهم ، والتأكيد على دوام ثباتهم على هذا النهج الزائف كما سبق . وقبل ذلك بدئت جملة السخرية بحرف العطف ﴿ **بل** ﴾ التي تقيد الإضراب الإبطلائي ؛ لبيان أنهم ليس لهم حجة إلا تقليد الآباء ، وهي حجة باطلة ؛ إذ لم تنبثق عن عقل سليم يدرك الحقائق من خلال النظر في المقدمات والنتائج ، ولا عن نقل سليم . ثم إن التأكيد المكثف المتأني من (**إن**) والجملة الاسمية في قولهم : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ يوحي بإصرارهم على التقليد على الرغم من انعدام الحجة على صواب موقفهم ، بل إن المتأمل يلحظ أن هذا التأكيد المكثف يبدو في خبر مسلم به ، ولا شك فيه ، وليس موضع نقاش ولا جدال ، وقد يسأل سائل لم كان كذلك ؟ والجواب : إن هذا التأكيد يشع بما يسيطر على دخيلتهم ، ويحملهم على الإصرار ، وهو أنهم فيما يفعلون يقفون على أرض ثابتة ، تمنحهم الثقة في صواب ما هم عليه ، ومن ثم ينطلق التأكيد المكثف التالي ﴿ **وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ ؛ لتأسيس محاورهم من محاولة صرفهم عن تقليد الآباء إلى اتباع ما أنزل الله ، ولا شك أن إيراد الجملة كما قالوها باللفظ دون زيادة أو نقصان ، هو غاية السخرية منهم والتهكم بهم بطريق التلويح ، والغرض زيادة التفضيح لحال أهل الشرك ، وتجهيل لهم على اتباعهم الآباء ، واتباعهم خطوات الشيطان ، وزعمهم أنهم في هذا الاتباع على هدى ، وغيرهم في ضلالة .

ثانياً : السخرية من نظرتهم إلى البنات

كانت سخرية القرآن الكريم من اتباع الآباء على الصورة السابقة سخرية من العادات بصفة عامة ، ولكن كانت هناك عادات أخرى شائعة في المجتمع المشرك ، وجه القرآن الكريم سخريته إليها ، وحاربها بشدة ؛ للقضاء عليها قضاء تاماً ، وكان من أهم هذه العادات : نظرة المجتمع آنذاك إلى البنات ؛ حيث كان المشركون يؤثرون البنين على البنات ، ويرون البنات في

ظل صراعاتهم الدائمة وحروبهم المستمرة عبئاً ثقيلاً يفرون منه ، ويضيقون به أشد الضيق ، أما البنون فهم السواعد القوية ، والعون على هذه الحياة بما فيها ، ولذا كان من تقاليدهم المشهورة أن القبيلة لا تنهأ إلا بأحداث ثلاثة : ولد يُولد ، أو فرس تنتج ، أو شاعر ينبغ ، أما البنات فولدتهن كابوس مزعج ثقيل ، تضيق به الصدور ، وتغبرُّ له الوجوه ، ولكن الله ﷻ خالق البنين والبنات كليهما ؛ لحكمة وضرورة يحيا بها الناس ، لا يريد لعباده أن يفرقوا بين خلقه هذه التفرقة الظالمة ، ولا أن ينظروا إلى نوع منهم - وهو البنات - هذه النظرة الهوجاء ، فلا يعظهم بذلك وعظا ، ولا يناقشهم فيه مناقشة مجردة ؛ لأن المناقشة في العادات والتقاليد غير مجدية ، وإنما يسوق ذلك في تصويرٍ ساخرٍ ، يبين لهم سوء هذه النظرة إلى البنات ، ويشير إلى ظلم البنات في هذا الوضع كجزء من الظلم الذي يعبر به القرآن عن الكفر .

وقد ورد هذا النوع من السخرية في شاهدين فقط من القرآن الكريم :

— الأول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ ﴾ يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنَ

سُوِّءَ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكَنُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩ ﴾ [النحل : ٥٨ - ٥٩] .

— والثاني في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف : ١٧] .

وكلا الشاهدين يصوران حالَ هذا الذي بُشِّرَ بولادة الأنثى ، حيث يصوره القرآن لا مجرد حزين أو مغتم ، أو خائب أمل ، وإنما يصوره وقد انقلب إلى صورة غير صورته ، مسودَّ الوجه يغالب ثورة من الحزن ، والحنق والضيق ، ويشعر بخزي وهوان ؛ يجعلانه لا يستطيع مواجهة الناس ، وفي ذات الوقت يعيش في صراع داخلي مع نفسه ، ويتردد بين أن يمسك هذه المولودة ويبقيها عنده ، متحملاً ما يشعر به من هوان ، وذل ، وصغار بين الناس ، أو أن يئدها ويتخلص من عبئها ، وعارها ، وهمها ، وهي حال عجيبة ، تنطوي على تناقض غريب ، وسفاهة أغرب ؛ لأنهم ينسبون ما يكرهون إلى الله - تعالى - وما يحبون إلى أنفسهم ؛ ولذا ختم الله ﷻ الآيات ببيان سوء فعلهم ، وحكمهم الباطل بقوله تعالى : ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

والسخرية في الآيات السابقة جاءت في موضعين :

- الأول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ ، والمعنى واحد في الموضعين ، فقوله : (بما ضرب للرحمن مثلاً) كناية عن الأنثى التي ذكرت صريحة في سورة النحل ، وهي كناية عن موصوف .

- والثاني في قوله تعالى : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ .

(* هون معناها : الخزي والمهانة والذل . (لسان العرب - هون) .

وكظيم : حزين قد كظم فلا يشكو ما به (المعجم الجامع - كظم) .

والإمساك : هو الحبس ، والدس : إخفاء الشيء وإدخاله في الشيء بقهر وقوة ، ودستت الشيء في التراب : أخفيته فيه ، ودسّه : دفنه ، والمعنى : أجبسه على ذل ومهانة ، أم يخفيه في التراب ؟ ! ينظر : (لسان العرب - مسك ودس) .

أما السخرية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُم بِالْأُنْثَىٰ** ﴾ فواضحة في الفعل (بُشِّرَ) ؛ حيث إن البشارة ، في أصل وضعها اللغوي مأخوذة من الطلاقة والفرح ، وتكون بالخير حين تكون مطلقة ، وبالشر إذا كانت مقيدة ، والتبشير يكون بالخير والشر (١) والمفسرون على أن المراد بها - هنا - مطلق الإخبار ، أو تغيير البشارة ، سواء كان الخبر ساراً ، أم غير سار ، فمعلوم أن السرور كما يوجب تغيير البشارة ، فكذلك الحزن (٢) واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (٣) .

والبشارة - هنا - مستعملة فيما اشتهرت فيه من الأخبار السارة ؛ لمزيد من التهكم بالمشركين والسخرية منهم ؛ لأنهم يَفْلِبُونَ الحقائق ، ويُغَيِّرُونَ الأوضاع ، ففي الوقت الذي يجب أن يستبشروا فيه بولادة الأنثى ، يقابلوا البشارة بالحزن والكآبة ، وعلى ذلك ففي الفعل ﴿ **بُشِّرَ** ﴾ استعارة تهكمية نزل التضاد فيها منزلة التناسب ، وهي أشد مبالغة من الحقيقة ؛ لأنها تصح لهم الأوضاع ، فُتَبَيَّنَ أن الإخبار بولادة الأنثى بشارة ؛ وعليهم أن يقابلوا هذه البشارة بالفرح لا بالحزن .

وأما قوله تعالى : ﴿ **ظَلَّ وَجْهَهُ مَسْوُودًا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ** ﴾ فهي الصورة الساخرة الثانية من منظر هذا الشخص حين يبشر بولادة الأنثى ، حيث تنتابه حسرة عظيمة ، وألم نفسي رهيب يحول إشراق وجهه إلى سواد ، فضلاً عن حيرته ، وتردده ، وجزئيات هذه السخرية - عند التأمل فيها - تجدها مشحونة بخصائص النظم التي تعانقت لإظهار هذا الشخص في صورة تدعو للتفكك والتندر ، فقوله ﴿ **ظَلَّ وَجْهَهُ مَسْوُودًا وَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ كناية عن العبوس ، والغم ، والتكره ، والنفرة التي تلحق هذا الشخص بسبب ولادة الأنثى وهي صورة ساخرة ، دقيقة ؛ لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره ، وانبسط روح قلبه من داخله ووصل إلى الأطراف ، ولا سيما إلى الوجه ؛ لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد ، فتري الوجه مشرقاً متألئناً ، وإذا قوي غمُّه ؛ انحصر الروح إلى باطن القلب ، ولم يبق له أثرٌ في ظاهر الوجه ، فيصفر وجهه ويسود (٤) ، فسبب سواد الوجه إذاً هو الحسرة العظيمة التي تعترى هذا الشخص بسبب ولادة هذه الأنثى .

والتعبير بالفعل ﴿ **ظَلَّ** ﴾ وهو بمعنى : صار ، أو أقام نهارة ، يفيد التحول الذي يعترى وجه هذا الرجل من الفرح والسرور انتظاراً للبشارة بولادة الذكر إلى السواد الحاصل بولادة الأنثى ، وفيه دلالة على شهرة هذا الوصف شهرة ما يشاهد نهارة (٥) .

واختيار ﴿ **وَجْهَهُ** ﴾ دون غيره من الأعضاء ؛ لأنه العضو الوحيد الذي يظهر عليه كل ما ينتاب الإنسان من حزن أو فرح ؛ فهو المعبر عمّا بداخله ، ولا شك أن تحول وجهه من الإشراق إلى السواد يدعو إلى السخرية من ذلك التحول .

ومع الكناية تتعاقب الاستعارة التصريحية في كلمة ﴿ **مَسْوُودًا** ﴾ ؛ لتصور ما يظهر على وجه

(١) ينظر : (لسان العرب - بشر) .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٠ / ٥٦ والبحر المحيط ٦ / ٥٤٨ وحاشية الشهاب ٥ / ٣٤١ .

(٣) آل عمران ٢١ ، والتوبة ٣٤ ، والانشقاق ٢٤ .

(٤) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٠ / ٥٦ - والبحر المحيط ٦ / ٥٤٨ - ونظم الدرر ٤ / ٢٨٠ .

(٥) ينظر : الكشاف ٢ / ٥٨٧ والبحر المحيط ٦ / ٥٤٨ ونظم الدرر ٤ / ٢٨٠ .

الإنسان المبشر بالأنثى من الكآبة ، والحزن ، والغم بالسواد ؛ بجامع تحول الشيء عن أصله في كل ، وهي صورة واصفة ؛ تدل على مدى تأثير الغم والحزن على ذلك الشخص ، ومدى ظلمه ، وتجبره ، وهذه الصيغة تبين أن الوجه المشرق قد تحول إلى قطعة من السواد وإتباعها بصيغة المبالغة **﴿ كظيم ﴾** ؛ لدقتها في تصوير حال هذا البائس ، وما فيه من الحزن العميق .

والقرآن الكريم كعادته يختار أدق الكلمات المعبرة ، والمصورة للمعنى أكمل تصوير ؛ ليُشعر به أتم شعور وأقواه ، فيكمل جزئيات الصورة الساخرة ، ويصعد في حدة التهكم بقوله عن صاحب الوجه المسود الكظيم : **﴿ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾** و الفعل **﴿ يتوارى ﴾** بمعنى : يختفي ويتغيب ، يدل على رغبة هذا الشخص في الاختفاء ، والتغيب ، وكأنه لا يريد أن تراه نفسه ، فضلا عن أن يراه الناس ! وهذه سخرية واضحة من هذا الشخص .

وقوله تعالى : **﴿ من سوء ما بشر به ﴾** يرجع إلى اعتقاد هذا الشخص ، ويدل على شدة جهله وتناقضه الغريب ؛ ولذا فإنه لا يدري **﴿ أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾** وهو كناية عن الحيرة القاتلة التي تتملكه ، وهذا التردد الذي يسيطر عليه تماما ، والاستفهام إنكاري تعجبي والتعبير بالفعل : **﴿ يدس ﴾** للمبالغة في الإخفاء ؛ لأنهم يغيّبون الموءودة في الأرض على غير هيئة الدفن (١) ، وهذا ظلم وجبروت منهم يستحقون عليه السخرية والتعجب ؛ لأنهم إذا كانوا يكرهون البنات إلى هذا الحد الذي يبيح لهم دفنهن أحياء ؛ فكيف يلبقُ بهم أن ينسبوا ما يكرهون إلى الإله الأعظم سبحانه؟! .

ثالثا : السخرية من إيثارهم البنين وجعلهم الملائكة بنات الله :

وهذا العنوان مرتبط بسابقه ، شديد الصلة به ؛ ووردت فيه السخرية في خمسة مواطن في القرآن (٢) ، منها قوله تعالى : **﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴾** (١٤٩) **﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾** (١٥٠) **﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾** (١٥١) **﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾** (١٥٢) **﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾** (١٥٣) **﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾** (١٥٤) **﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾** (١٥٥) **﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴾** (١٥٦) **﴿ فَأَتُوا بِكِنِيكُمُ إِن كُنتُمْ صٰدِقِينَ ﴾** (١٥٧) **﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾** (١٥٨) **﴿ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾** [الصافات : ١٤٩ - ١٥٩] (*) .

في هذه الآيات يطلب المولى ﷻ من رسوله الكريم أن يحتج على كفار قريش في قولهم : إن الملائكة بنات الله ، ويسألهم سؤال توبيخ : (هل جعلتم البنات لله وجعلتم لأنفسكم ما تشتهون من البنين ؟ ! ، وعندما قالوا عن الملائكة أنهم بنات الله هل كانوا حاضرين خلقها ؟ ! إنهم في

(١) ينظر : نظم الدرر ٤ / ٢٨٠ .

(٢) في الإسراء ٤٠ ، والصافات ١٤٩ - ١٥٠ ، والزخرف ١٥ - ١٦ - ١٩ .

(*) فاستفتهم : استخبرهم ، والفتيا والفتوى : الجواب عما أشكل من الأحكام (المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن - فتي) .

- إفكهم : الإفك : أسوا الكذب والبهتان . (المعجم الجامع - إفك) .

- سلطان مبين : حجة واضحة وبرهان ظاهر (لسان العرب - سلطان - بان) .

- الجنة : الجن (المعجم الجامع - جنن) .

الحقيقة أفأكون كاذبون في قولهم هذا ، وقولهم أيضا : إن الله ولدا ، وهو الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يصطف البنات على البنين ، ثم يوبخهم الله ﷻ على إيثارهم البنين وجعلهم الملائكة بنات الله بقوله : مالكم ؟ أين عقولكم ؟ كيف تحكمون أن يكون لله ولد ؟ أفلا تتذكرون ؟ هل لكم حجة وبرهان على هذا القول ؟ لو كان لكم برهان فأتوا به إن كنتم صادقين في قولكم .
ثم ينكر الله ﷻ قولهم : إن الله صاهر سروات الجن ، والملائكة بناته منهن ، وينزله نفسه عن كل نقص لا يليق بذاته - تعالى - المقدسة بقوله : (سبحان الله عما يصفون) (١) .

والآيات تشير إلى أنهم ارتكبوا بذلك ثلاثة أنواع من الكفر :

- الأول : التجسيم ؛ لأنّ الولادة مختصة بالأجسام .
- الثاني : تفضيل أنفسهم على ربهم ؛ فقد اختاروا أرفع الجنسين ؛ وهم الذكور ، ونسبوا البنات إلى الله تعالى ؛ وهن أقل الجنسين .
- الثالث : هو استهانتهم بما هو مكرم عند الله تعالى ؛ وهم الملائكة ، فجعلوهم إناثا (٢) وهذا في حد ذاته سخرية من الملائكة .

وقد ردّ القرآن الكريم عليهم ردا حاسما ؛ فبين لهم من خلال هذه الآيات أن طريق العلم إما الحس ، وإما الخبر الصادق ، وإما نظر العقل ، وكل ذلك مفقود لديهم ، أمّا الحس ، فإنهم لم يشاهدوا كيف خلق الله - تعالى - الملائكة ، وأمّا الخبر الصادق ، فإنهم كذابون ، لم يدل على صدقهم دليل ، وأمّا نظر العقل ، فكان لا بد لهم من دليل لكي يثبتوا صدق مذهبهم (٣) ، فلم يقدموا هذا الدليل عندما طلب منهم ، فبطل بذلك مذهبهم ، وثبت افتراؤهم ، وحققت عليهم سخرية ربك ومواطن السخرية واضحة في :

- ١- قوله تعالى : (فاستفتهم أربك البنات ولهم البنون) .
- ٢- وقوله تعالى : (أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون) .
- ٣- وقوله تعالى : (مالكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون) .
- ٤- وقوله تعالى : (فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) .

أما السخرية الأولى : ﴿ فاستفتهم أربك البنات ولهم البنون ﴾ فآتية من توجيه الأمر ﴿ فاستفتهم ﴾ إلى النبي ﷺ ؛ ليستخبرهم عن وجه هذه القسمة الضيزى ، التي يجعلون فيها البنات لله تعالى ، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ؛ حيث إن ظاهر النظم يدل على أن الله - تعالى - يطلب من نبيه ﷺ أن يستخبر مشركي مكة في هذه القضية المهمة ، والاستخبار إنما يكون ممن يجهل حقيقة الخبر ، فيطلبه ممن حضره وشهده وعلمه ، والله - سبحانه وتعالى - يعلم أن كفار قريش لا علم لهم البتة بالمسئول عنه ، ولا يخفى ذلك على نبيه ﷺ ، وليس خافيا عليه سبحانه علم المسئول عنه ، وإنما جاء الأمر على هذا النسق للسخرية من الكفار ، وتوبيخهم ، وتقريعهم على زعمهم أن الملائكة بنات الله (٤) ، لذا كان الاستفهام الإنكاري

(١) ينظر : تفسير القرطبي ١٥ / ١٣٥ وما بعدها بتصريف .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ٣ / ٦٩٦ . ومفاتيح الغيب ٢٧ / ٢٠٣ . والبحر المحيط ٩ / ١٢٦ .

(٣) ينظر : الكشاف ٣ / ٦٩٦ وما بعدها . وحاشية الشيخ زادة ٧ / ١٦٢ .

(٤) ينظر : معاني القرآن لأبي جعفر النحاس ٦ / ٦٤ - ت : الشيخ محمد علي الصابوني - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - مركز إحياء التراث الإسلامي - ١٤٠٩ هـ ، وأيضا : الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٤ / ٢٧ - ت : الشيخ علي محمد معوض وآخرون - دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - لبنان .

المصاحب للتبكييت، والتهكم **﴿ أَلربك البنات ﴾** ؛ لإنكار ذلك عليهم وتوبيخهم ؛ لأنهم فضلوا أنفسهم على ربهم جل وعلا .

كما أضاف **﴿ رب ﴾** إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - دون ضميرهم ؛ فلم يقل (أَلربكم) تشريفاً للنبي ﷺ ، وإعراضاً عنهم ، وعدم الاعتناء بهم بسبب مزاعمهم الباطلة ، وقدم **﴿ أَلربك البنات ﴾** على **﴿ ولهم البنون ﴾** ؛ لأن الأول الإنكار فيه أدخل من الثاني ؛ فنسبة البنات إليه - تعالى - تشتمل على جرمين : الأول: نسبة الولد له سبحانه ، والثاني : نسبة البنات له أيضاً ، أما نسبة الولد فتشتمل على جرم واحد ؛ وهو نسبة الولدية ، وكلاهما باطل .

وفي التركيبين قصر طريقه تقديم شبه الجملة ؛ فقدم **﴿ أَلربك ﴾** على **﴿ البنات ﴾** وقدم **﴿ لهم ﴾** على **﴿ البنون ﴾** والمعنى : أيخصون ربك بالبنات ، ويخصون أنفسهم بالبنين؟! والتأكيد المستفاد من القصرين إنما هو ميني على زعمهم الواهم ؛ لذا كان الإنكار والسخرية . وقابل النظم القرآني بين **﴿ أَلربك ﴾** و **﴿ لهم ﴾** وبين **﴿ البنات ﴾** و **﴿ البنون ﴾** ؛ ليوضح للسامعين جرمهم ، ويؤكد سخافتهم .

وفي قوله تعالى : **﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ﴾** سخرية ثانية من هؤلاء المشركين ، ومنبع السخرية أت من التذليل : **﴿ وهم شاهدون ﴾** ؛ حيث أخرجهم النظم القرآني في صورة ممن تصح مشاهدته لمثل هذا الخلق ، وهو أمر مستحيل عند جميع العقلاء ، ولا هم يدعون ذلك ، فمن أين جاءوا بهذا الكلام ؟ فإن الإخبار عن مثل ذلك لا يكون إلا بالمشاهدة ، وهم لم يشهدوا ، ولا دل دليل على قولهم من سماع ، ولا مما هو يدرك بالعقل ؛ حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم (١) ، ولم يضطرهم الله تعالى إلى علم ذلك ، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم فأخبروا عن هذه المشاهدة (٢) وفي ذلك ما فيه من تجهيلهم والتهكم بهم (٣) إذ كان يمكن أن يكتفي القرآن بتكذيبهم وبيان جهلهم ، ولكن لما قصد التهكم بهم صور مشاهدتهم لخلق الملائكة ، أن شهادتهم سنكتب وكأنها حقيقة (٤) . يقول الإمام الزمخشري : " فإن قلت : لم قال : **﴿ وهم شاهدون ﴾** فخص علم المشاهدة ؟ قلت : ما هو إلا استهزاء بهم ، وتجهيل كقوله : **﴿ أشهدوا خلقهم ﴾** [الزخرف ١٩] وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر ، ويجوز أن يكون المعنى : أنهم يقولون ذلك كالقائل قولاً عن ثلج صدر ، وطمأنينة نفس ؛ لإفراط جهلهم " (٥) . وفي التعبير بالجملة الاسمية **﴿ وهم شاهدون ﴾** فضح لأمرهم ، فكأنه يقول : أشهادتهم ثابتة لهم فيشاهدوا خلق الملائكة إناثا كلما تجدد خلقهم ؟ وهذه سخرية واضحة منهم ، وهي امتداد لقوله تعالى في سورة الزخرف : **﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا**

خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ [آية : ١٩] .

والمراد من هذه الآية إيضاح كذبهم ، وبيان جهلهم في نسبة الأولاد إلى الله ، وقولهم :

(١) ينظر : فتح القدير للشوكاني ٤ / ٤١٣ .

(٢) ينظر : الكشاف للزمخشري ٥ / ٤٣٤ .

(٣) ينظر : روح المعاني ٢٥ / ٧٢ .

(٤) ينظر : التصوير الساخر في القرآن الكريم ، عبد الحليم حفني ٤٠٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٢ .

(٥) الكشاف ٣ / ٦٩٦ .

(الملائكة بنات الله) ، وهو قول باطل بدليلين :
الأول : في قوله تعالى قبل ذلك : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن ﴾ ، فالوصف بالعبودية - هنا - ينافي قولهم السابق ؛ إذ كيف يكون عبد الرحمن ولدا للرحمن؟! كما أن التعبير عن الملائكة بالاسم الموصول ﴿ الذين ﴾ وهو لجمع المذكر العاقل ، ثم إضافتهم إلى اسم الله - تعالى : ﴿ الرحمن ﴾ فيه تشريفٌ لهم ، ورفعٌ من شأنهم ، وتنبيةٌ للمشركين على خطئهم الذي ارتكبه في حقهم ، فهم ليسوا بناتٍ لله ، ولكنهم عباد له ، وقد أكد عبوديتهم بالقصر الثنائي ، المستفاد من ضمير الفصل ﴿ هم ﴾ وتعريف الطرفين ؛ رداً على المشركين الذين يظنون فيهم هذا الظن الباطل .

الثاني : وهو في قوله تعالى ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ يعني : لم يشهدوا خلقهم ، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بالدلائل العقلية ، وأما الدلائل النقلية فكلها مفرّعة على إثبات النبوة ، وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة ، فلا سبيل إلى إثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية ، فثبت أنهم ذكروا هذه الدعوى الباطلة من غير أن يعرفوه ، لا بضرورة ، ولا بدليل (١) .
وقد أفرغ هذا الاستدلال في صورة استفهام إنكاري تكذيبي يفوح منه التهكم ؛ لأنهم لم يشاهدوا خلق الله - تعالى - للملائكة حتى يحكموا بأنوثتهم ، ولذا أقام عليهم الحجة ، ثم أتبعها بالتهديد الشديد ، بقوله : ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ ، والتهديد مؤكد بالسین الداخلة على الفعل المضارع ﴿ ستكتب ﴾ ؛ للدلالة على تحقق الوقوع .
كما جعل لهم شهادة على سبيل التهكم والسخرية ؛ لأنهم لا يملكون هذه الشهادة ، وهذا - كما يقول الفخر الرازي - يدل على أن القول بغير دليل منكر ، وأن التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد (٢) .

ولما كان ما يدعونونه منافياً للعقل أنكر المولى - عز وجل - حكمهم الباطل وعدم تذكرهم بقوله : ﴿ مالكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون ﴾ ، وهي السخرية الثالثة في هذا الشاهد ، وجاءت في ثلاث جمل للاستفهام متتابعة ؛ لمزيد من التوبيخ والتهكم ، حيث تصاعد الإنكار داخل السياق بتوالي الجمل والاستفهامات ، فقوله تعالى : ﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ اشتمل على استفهامين :

- **الأول** : في قوله تعالى : ﴿ مالكم ﴾ وهو استفهام إنكاري ، والمعنى : أي شيء حصل لكم حتى حكمتم هذا الحكم الجائر ؟ وفيه سخرية من تعييب عقولهم ؛ كأنه يقول لهم أين عقولكم؟! إنكم بلا عقل حين تحكموا بهذا الحكم الباطل .

- **والثاني** : في قوله تعالى : ﴿ كيف تحكمون ﴾ وهو إنكار - أيضا - وتعجب من حالهم عندما حكموا هذا الحكم ؛ إذ كيف يحكمون الله - تعالى - بالبنات وهم يكرهونهن ، ويحكمون لأنفسهم بالبنين ، وهم يحبونهم؟! وعندما يكون الإنكار بكيف ، فإن ذلك يدل على المبالغة فيه ، مع التعجب من هذه الأفعال ، وتوبيخ فاعليها (٣) .

(١) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٧ / ٢٠٣ .

(٢) السابق : الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : أساليب الاستفهام في القرآن ، عبد العليم فودة ١٤٨ .

ولا شك أن التعبير بالفعل المضارع ﴿ **تحكمون** ﴾ يفيد ترداد هذه الدعاوى الكاذبة كثيرا ؛ حتى أصبحت عاداتهم المفضلة التي لا ينفكون عنها .
 كما أن الالتفات من الغيبة في الآيات السابقة إلى الخطاب في قوله : ﴿ **مالكم كيف تحكمون** ﴾ فيه مزيد من التوبيخ ، والتحقير ؛ بالإقبال عليهم ، ومواجهتهم بحكمهم الجائر ؛ فضلا عن أن الاستفهام الثالث ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ يؤكد هذا التوبيخ والتهكم ؛ لعدم تذكرهم مع امتلاكهم أداة التذكر ، وهي العقل الذي وهبهم الله - تعالى - إياه .

أما السخرية الرابعة ففي قوله تعالى : ﴿ **فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** ﴾ ؛ حيث قوي الأسلوب ، وعلت النبرة ، واشتد الإيقاع ؛ بهذا الأمر التعجيزي المدعوم بالشرط ، حيث جعلهم أمام أمرين لا ثالث لهما : إمّا أن يأتوا بدليل نقليّ مكتوب يثبت صدق دعواهم ، وهو أمر مستحيل وإمّا أن يعترفوا بالهزيمة ، وهي محتمة ولا مفر منها ، ولا شك أن طلب الله ﷻ منهم بأن يأتوا بكتاب يثبت صدق دعواهم - مع علمه بأنهم لن يأتوا به - هو تهكم بهم ، وسخرية منهم واضحة ؛ فالآية مصدرة بفاء الفصيحة ، وفيها معنى السرعة ، والمعنى : فإن كان لكم سلطان فأسرعوا ، ولا تترددوا في الإتيان به وفي ذلك استهانة بهم ؛ لأنه يكلفهم بما ليس في مقدورهم .
 وقد بُنيت الآية على الإيجاز المتمثل في حذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه ، وهي قمة الإثارة والتأثير في المتلقي ، فالأسلوب يهزه هزاً ويستثيره ؛ ليستظهر بما شاء من أدلة يثبت بها صدق دعواه ، ولكن أتى له ذلك وهو العاجز؟! والتعقيب بالأمر والشرط يؤكد معنى التهكم ويقويه ، وإضافة ضمير الخطاب - الدالّ عليهم - إلى الكتاب في قوله تعالى : ﴿ **كتابكم** ﴾ لمزيد من التهكم ، إذ ليس لهم كتاب حتى يأتوا به .

والخلاصة : فإن هذه الآيات " صادرة عن سخط عظيم ، وإنكار فظيع ، واستبعاد لأقوالهم شديد ، وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقةً بتسفيه أحلام قريش ، وتجهيل نفوسها واستركاك عقولها ، مع استهزاء ، وتهكم ، وتعجيب من أن يخطر ما يقولونه على بال " (١) .

المبحث الخامس

السخرية من المشركين في آيات الإنذار والتخويف

المبحث الخامس

السخرية من المشركين في آيات الإنذار والتخويف

كان القرآن الكريم - ولا يزال - أقوى من الجهود التي بذلها المشركون ضد الإسلام ؛ لتحطيمه ، بل محوه من الوجود ، ففضلا عن تحطيمه لقيادات الشرك ، وفصم الصلة بينهم وبين الأتباع من الناحية النفسية ، فإن القرآن الكريم قد عمد إلى عامة المشركين الذين يمثلون بأكثرهم سواد الناس ، وأخذ ينير لهم حياة الظلام التي كانوا يتخبطون فيها ، ويأخذ بأيديهم إلى حياة النور والسكينة ، وإلى حياة العز والاستقلال في شخصهم ، وفي نظرتهم إلى حياتهم ومستقبلهم .

وبينما كان القادة المشركون يبذلون كل جهودهم ليقنعوا عامة الناس من المشركين بهوان أمر الإسلام ، وأمر محمد ﷺ وأصحابه ، ويقنعوهم بأن الأمر في يد السادة والقادة ، وأنه سيظل في أيديهم ، تجد القرآن ينسف كل هذه المحاولات التي يبذلها القادة نسفا ؛ فيؤكد لهم بوسائل وأساليب مختلفة أن دعوى قادتهم باطلة ، وأن الإسلام هو دين الحق ، وأن المستقبل للإسلام ، وليس للقادة والزعماء ، وهذا المعنى ذو أهمية كبيرة في الصراع بين الشرك والإسلام ولو من الناحية العامية ، فإن الأمل في المستقبل أو عدمه هو المحور الأساسي الذي يرجح كفة أحد الحزبين في أي صراع ، بمعنى أن الناس بطبعهم يميلون إلى جانب المنتصر ، أو الذي يتوقع انتصاره ، وقد كان بين الشرك والإسلام حرب عاتية وصراع عنيف ، وفي هذا الصراع نجد عامة الناس ينحازون دائما إلى الجانب الذي يتوقعون له المستقبل ؛ بدليل أن القرآن الكريم قرن اندفاع الناس وعامتهم إلى الإسلام بظهور انتصاره وعلوه على حزب الشرك في قوله :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ [النصر : ١-٣] .

فلم يقرن - سبحانه وتعالى - دخول الناس في دين الله أفواجا بظهور الحق لهم ، أو بدخول الإيمان في قلوبهم ، وإنما قرنه بانتصار المسلمين ، وفتحهم مكة معقل الشرك ، وحصن الأعداء ، إذن فالأمل في المستقبل هو محور أساسي في تحديد اتجاه سواد الناس إلى أحد طرفي الصراع وحيث كان الأمل في المستقبل بهذه الدرجة من الأهمية ، فإن القرآن الكريم يغلق باب الأمل في المستقبل أمام المشركين سواء في الدنيا أو الآخرة إغلاقا كاملا ، بينما يفتحه أمام المسلمين على مصراعيه ؛ ليدفع المشركين إلى اليأس والقنوط ، ويزيد المسلمين ثباتا وصدورا .

تأمل قول الله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِي

الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء ١٠٥] ، وقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكُمْ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة من / ٢١] تجد

أن القرآن يجعل أعداءه يفقدون كل أمل في الاستقرار والطمأنينة طالما أن المسلمين يتعقبونهم ، ويكتمل اليأس حينما يتأكدون - أيضا - أنهم مع خسرانهم في الدنيا خاسرون للآخرة وإذا كانت

غلظة المسلمين تبرق أمامهم في الدنيا فإن جهنم تتوهج أمامهم في الآخرة ، فلا أمل في الدنيا ولا أمل في الآخرة .

ولا يقف القرآن بالمشركين عند إظلام المستقبل أمامهم من جانب أو مصدر واحد ، بل يشعّب لهم مصادر الخطر ، فيبين لهم أنه من الواجب أن يضعوا في أذهانهم مصدرا كبيرا للخطر عليهم إذا هم أصرّوا على الشرك ، وهو عذاب السماء في الدنيا قبل الآخرة ، وذلك واضح في آيات كثيرة تنذرهم وتنوّدهم بعذاب بنيس ، ومما زاد من خطورتها ووقعها النفسي الأليم على هؤلاء المشركين أنها مغلفة بسخرية شديدة منهم ؛ ليكتمل التحطيم النفسي لهؤلاء من كل جانب ، والقرآن الكريم حين يعرض لمشاهد العقاب الذي يصطلبه أعداء الله لا يكتفي بعرض العقاب الحسي فقط ، بل يبرز أيضا جانب العقاب النفسي ؛ المتمثل في السخرية والإهانة ؛ ليكون العقاب كاملا جسديا ونفسيا ، وليكون الزجر به والتخويف منه أبلغ في النفوس والقرآن حافل بهذه الصور الساخرة من أعداء الله في الآخرة ، حيث وردت في سبع وثمانين آية تقريبا (١) ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَعِيرَ حَقِّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ

يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ [آل عمران : ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ بَشِّرِ

الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ [النساء : ١٣٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ ﴿ [التوبة من / ٣] .

ففي هذه الآيات ضرب من التهكم وهو : استخدام لفظ البشارة في موضع الإنذار والوعيد ، وهذا على خلاف المعهود ، إذ إن البشارة تعني : الإخبار بما يسر ، قال الراغب : " أبشرت الرجل وبشرته : أخبرته بساراً بسط بشرة وجهه " (٢) ، وهذا اللفظ إذا أطلق فعرفه في الخير ، ويكون للشر إذا قيد (٣) . فأبي فرح وأي سرور تدخله هذه البشارة على الكفار والمنافقين وهي تتضمن العذاب الأليم؟! فهذه اللفظة استخدمت في غير موضعها ؛ لأن موضعها هو الخير والسرور ، كما قال الله تعالى

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..... ﴾ [البقرة من / ٢٥] ، لكن

الله ﷻ أراد السخرية بالكفرة والمنافقين ، فأنذرهم بما أعد لهم من العقوبة على غير الطريقة المألوفة ؛ ليكون أدعى إلى توبيخهم والإنكار عليهم بما اقترفوه من المعاصي العظيمة ، وليكشف عما انطوت عليه نفوسهم من النفاق والرياء ، والتلبيس على المؤمنين ، فهؤلاء لما أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر استحقوا أن يجازيهم الله - تعالى - من جنس عملهم ، فجاء لهم

(١) يراجع : البقرة ٢٤ ، ٢٥ ، آل عمران ١٢ ، ٢١ ، ١٠٦ ، والنساء ٥٦ ، ١٦٩ ، ١٦٨ ، والأنعام ٥ ، ٣٠ ، ٩٣ ، والأعراف ٤٠ ، ٤١ ، ١٨٢ ، والأنفال ٣٥ ، ٥٠ ، والتوبة ٣٤ ، ٣٥ ، ويونس ٥٢ ، ٥٣ ، وإبراهيم ١٦ ، ١٧ ، والحجر ٣ والنحل ١ ، والكهف ٢٩ ، ١٠٢ ، والأنبياء ١٢ ، ١٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ، والحج ٢٢ ، والفرقان ١٤ ، ١٥ ، والشعراء ٦ ، ٢٢٧ ، والنمل ٩٠ ، والعنكبوت ٥٥ ، والسجدة ١٤ ، ٢٠ ، والأحزاب ٦٦ ، وسبأ ٤٢ ، وفاطر ٣٦ ، ٣٧ ، والصفات ٢٣ ، ٢٥ ، والزمر ٨ ، ٢٤ ، وغافر آية ٤٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، فصلت ٤٥ ، والدخان ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، والأحقاف ٣٤ ، ومحمد ١٢ ، ٢٧ ، والطور ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، والقمر ٤٨ ، والرحمن ٤٣ ، والواقعة ٥٦ ، ٩٣ ، والملك ٨ ، ٩ ، والقلم ١٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، والمدثر ٤٢ ، والمرسلات ٤٦ ، والنبأ ٣٠ ، والانشقاق ٢٤ ، والغاشية ٢ ، والعلق ١٥ ، ١٧ ، والمسد ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٤٨ .

(٣) ينظر : (لسان العرب - بشر) .

بلفظ ظاهره رحمة ، وباطنه عذاب وثبور ، فاستعار لفظ البشارة - وهي الإخبار بما يسر- للإنذار ؛ وهو الإخبار بما يسيء ، فنزل التضاد منزلة التناسب ، وشبه الإنذار بالتبشير بجامع السرور في كل تحقيقا في التبشير ، وتنزيلا في الإنذار ، ثم اشتق من التبشير : بشر بمعنى : أندر استعارة تبعية تهكمية ، وفي هذا استخفاف بعقولهم ، وتعريض بقلة بصيرتهم وسفه رأيهم (١) ، حيث إنه لما قال : فبشر تهيأت نفوسهم ، وامتلأت فرحا وسرورا ؛ تفأؤلا بمقتضى البشارة ، وتوهموا أن الراحة والطمأنينة ستكون لهم ، ولكن سرعان ما تتلاشى هذه الأحلام ، ويتبدد الوهم ، فإذا بالبشارة تأتي لهم بالعذاب الأليم الذي يحرق أبشارهم ويغير صورتها .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿١٣٩﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٤٠﴾ [النساء : ١٦٨ ، ١٦٩] ، سخرية في استخدام لفظ (الهداية) وهو من ألفاظ البشارة والوعد بالخير في الدلالة على جهنم ، حيث إن هذا الاستخدام على خلاف مقتضى الحال ؛ لأنه استعمل في سياق إدخال الكافرين النار ، وهؤلاء الكفار والظلمة يعتقدون بأنهم الأصح منهاجاً ومعتقداً ، والأسلم مسلكاً ، وبالتالي فإن العقاب ستكون لهم فأراد الله - تعالى - أن يبين لهم فساد ما اعتقدوه ، وشناعة ما سلكوه من تنكب طريق الهداية والصالح التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ ، والتجبر على خلق الله في الأرض ، فعبر عن ذلك بصورة رائعة ، وذلك أن من شأن الأعمال الصالحة أن تهدي أصحابها إلى حسن العقاب والمآل وتدلمهم على حسن المستقر والمقام ، لكن هؤلاء الكفار قد هدتهم أعمالهم إلى عكس ما يرجون ويأملون ، هدتهم إلى حتفهم ونهايتهم ، بل وإلى خلودهم في العذاب السموم ، فأى هداية هذه؟! إن مثل هذا لا يسمى هداية ، بل ضلالاً وغواية ، لذا فإن استخدام لفظ الهداية - هنا - هو من باب الاستعارة ، حيث استعار لفظ الهداية للدلالة على طريق جهنم ، " فقد شبه سوقهم إلى طريق جهنم بالهداية ، بجامع السرور تحقيقاً في الهداية ، وتنزيلاً في حشرهم إلى جهنم ، تنزيلاً للتضاد منزلة التناسب على طريقة الاستعارة التهكمية " (٢) .

ومن صور السخرية في آيات الإنذار والتخويف بالعذاب - أيضاً - قوله تعالى : ﴿ ذَرَّهُمْ

يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٢﴾ [الحجر: ٣] ، والعقاب هنا غير محدد ، هل هو في الدنيا ، أو في الآخرة ، وإذا كان في الدنيا فما نوعه ؟ وإذا كان في الآخرة فما صورته ؟ وحرف التسوييف (سوف) يؤكد حدوث هذا العقاب لا محالة ، والسخرية في هذه الآية في موضعين :

- أحدهما في لفظ (ذرهم) فليس المقصود به حقيقته ؛ وهو الأمر بتركهم ، بل المراد التهكم بهم .

- والآخر في لفظي : (يأكلوا ويتمتعوا) ؛ فقد جعلهم القرآن بذلك مجرد حيوانات لا همَّ لهم إلا الأكل والمتعة الجسدية دون أن يشغلها تفكير ، أو عمل ، أو سعي لهدف يستهدفه العاقل من حياته .

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن - عبد الفتاح لاشين - ص ١٧٩ - ١٨٠ بتصرف - الطبعة الثانية - دار المعارف - ١٩٨٥ .

(٢) السابق : ١٨٠ .

وفي قوله تعالى : ﴿.....إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

يَشْوِي آلُوجُهُ^٤ يَسْكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا^٥﴾ [الكهف من / ٢٩] ، ضرب من السخرية ، وموطنها في الفعل (يغاثوا) ؛ حيث إن الاستغاثة في حقيقتها تعني : طلب الغوث ، والغوث يقال في النصر (١) ، وهؤلاء الكفار يستغيثون من حر جهنم ، فيطلبون ماءً يصبونه على أنفسهم للتبريد (٢) ، وتخفيف حدة الألم ، فيغيثهم الله ﷻ لكن بأي شيء ؟! إنه لا يغيثهم بالماء البارد الذي طلبوه وإنما بماء المهل المتناهي في الحرارة ، فيشربونه ، فتسقط فروة وجوههم من حره فأبي غوث هذا ؟! إن مثل هذا لا يسمى غوثا ، فالكلام على غير حقيقته ، إذ لا وجه للمناسبة بين لفظ الغوث وما يحمله من النجدة والنصرة ، وبين المهل الذي يحرق الأكباد والأجساد ، وإنما ذلك من باب الاستعارة التهكمية ؛ فقد استعار لفظ الغوث بالماء البارد الذي يرجى منه تخفيف الألم والحر للماء الحار المتناهي في الحرارة ، تنزيلا للتضاد منزلة التناسب لإرادة التهكم والسخرية من هؤلاء الكفرة ؛ لأن الله ﷻ لما قال : (يغاثوا) استبشروا وابتهجوا بأن الله استجاب استغاثتهم ، فإذا بالغوث يأتي لهم بالويل والثبور ، فازدادوا عذابا على عذابهم ، وأضافوا إلى حرق أجسادهم حرق نفوسهم ومشاعرهم ، وأحاسيسهم ، فأصبحت لا يراعى لها قدر ، ولا يؤخذ لها اعتبار ، وهذا من روعة القرآن وقدرته على التأثير في النفوس والتغلغل في أعماقها .

ومن أساليب السخرية التي صورت وعيدهم وتخويفهم بالعذاب في الآخرة - أيضا -

قوله تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا^٦﴾ [١١] إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا

وَرَفِيرًا^٧﴾ [١٢] وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا^٨﴾ [١٣] لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَبِحَدٍّ وَأَدْعُوا ثُبُورًا

كَبِيرًا^٩﴾ [الفرقان : ١١ - ١٤] ، والثبور : الهلاك ؛ حيث يتمنون الهلاك ويدعون له ، ولكن يقال لهم : لا تكتفوا بدعاء هلاك واحد ولكن ادعوا هلاكا كثيرا ؛ كما يقول الجلال مثلا لشخص يتأوه من الضرب : تأوه كثيرا ؛ يعني : أنك ستنتال ضربا أكثر ، فليس لهذا التعبير في القرآن الكريم هدف إلا السخرية منهم ؛ لأن دعوتهم ثبورا واحدا ، أو ثبورا كثيرا لن تنفعهم في شيء ، ولن تُغني عنهم من شدة العذاب شيئا .

وسأقف مع شاهدين من شواهد هذا النوع من السخرية بالتدقيق البلاغي ، وأولهما قوله

تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ

الْحَيَاظِ^{١٠} وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ^{١١}﴾ [٤٠] هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ^{١٢} وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الظَّالِمِينَ^{١٣}﴾ [الأعراف : ٤٠ - ٤١] .

(١) ينظر : (المعجم الجامع - غوث) .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ٧ / ٤٦٠ .

معاني المفردات : يلج : يدخل (لسان العرب - ولج) / سم الخياط : ثقب الإبرة (المعجم الجامع - سم) .

مهاد : فراش ، ولفظ المهاد وما يشق من مادته يدل في لغة العرب على اليسر والراحة والنعمة (لسان العرب - مهذ) .

غواش : جمع غاشية ، والغاشية في سرج الدابة كأنها غطاء له ، ومنه غشاوة البصر : أي ذهابه كأنه وضع عليه غطاء (لسان العرب - غشي) .

في هاتين الآيتين يبين الله ﷻ جزاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها ، حيث لا تُفْتَح لأعمالهم في الحياة ولا لأرواحهم عند الممات أبواب السماء ، ولا يمكن أن يدخلوا الجنة إلا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا مستحيل ، كما أن هؤلاء الكفار مخلدون في النار ، ولهم من جهنم فراش من تحتهم ، ومن فوقهم أغطية من النار تغشاهم ، وبمثل هذا العقاب الشديد يعاقب الله - تعالى - الظالمين ، وفي الوقت ذاته تهديد ووعيد بالعذاب الشديد لكل من سار على نهجهم ، واتبع طريقته (١) .

وقد مهد النظم الكريم للسخرية من هؤلاء المكذبين بقوله : **﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾** وهي جملة مؤكدة بياناً والجملة الاسمية ؛ للناية والاهتمام بمضمونها ، وبيان سبب العقاب الذي سيحل بالكافرين المذكورين فيها ؛ وهو التكذيب بالآيات ، والاستكبار عنها ، وعدم العمل بمقتضاها ؛ ولتأيسهم من دخول الجنة . كما أنه عبر عنهم بالاسم الموصول ؛ لدمهم بما في حيز الصلة من الأفعال القبيحة التي جاءوا بها ؛ وللإشارة إلى أنهم عُرِفوا بهذه الأفعال ، واشتهروا بها ، حتى أصبحت صفات ثابتة لهم . ووصفهم بأنهم : **﴿ كذبوا بآياتنا ﴾** بباء الإلصاق دون : **﴿ كذبوا آياتنا ﴾** ؛ للإشارة إلى أنهم كانوا يلصقون الكذب بهذه الآيات إصاقاً ؛ وفي ذلك دلالة على بذلهم غاية الجهد للتكذيب والاستكبار .

كما أن قوله : **﴿ استكبروا عنها ﴾** دون **﴿ استكبروا عليها ﴾** ؛ للدلالة على أنهم تجنبوها وانحرفوا عنها ، وعن الإيمان بها ، والعمل بمقتضاها ، وبذلوا في ذلك جهداً عظيماً ، واشتغلوا في تكذيب الآيات بنوع من الاستكبار ، ولذا كان العقاب الوارد في قوله : **﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾** كناية رائعة عن إغلاق أبواب الاستجابة ، فلا يقبل لهم دعاء ، ولا يرفع لهم عملٌ صالحٌ إن وجد ، فضلاً عن حرمان أرواحهم بعد الموت من مشاهدة مناظر الجنة ، ومقاعد المؤمنين فيها (٢) .

وصياغة الفعل **﴿ تُفْتَح ﴾** بتشديد التاء ، دون **﴿ تُفْتَح ﴾** بفتح التاء من غير تشديد ؛ للمبالغة في نفي الفتح لهم ، وزيادة في نكايتهم ، وهذا - أيضاً - واضح في مجيء الـ **﴿ أبواب ﴾** جمعاً ؛ للدلالة على إغلاق كل أبواب الرحمة ، والخير ، والصلاح في وجوههم ، وقطع الطريق عليهم في دخول الجنة ، وإصابتهم باليأس والإحباط .

والسخرية في هذا الشاهد جاءت في موضعين ؛ الأول في قوله : **﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾** ، والثاني في قوله : **﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾** .

- أما الموضع الأول للسخرية : **﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾** فهي جملة مستأنفة استئنافية ابتدائية مسوقاً لتحقيق الخلود في النار الواقع في قوله : **﴿ والذين كذبوا**

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، للثعالبي المالكي بتصرف - ٣ / ٣١ - تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرون - الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٨ / ١٢٦ .

بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿ ، وقد أكد ذلك عن طريق تأكيد الشيء بما يشبه ضده وهو المشهور عند أهل البلاغة بتأكيد الذم بما يشبه المدح في قوله تعالى : ﴿ حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فقد جعل لانقفاء دخولهم الجنة امتدادا مستمرا ؛ إذ جعل غايته شيئا مستحيلا ؛ وهو أن يلج الجمل في سم الخياط ، ففي التعبير كناية عن استحالة دخولهم الجنة ، والجمل : البعير المعروف للعرب ، ضرب به المثل ؛ لأنه أشهر الأجسام في الضخامة في عرف العرب وهو المناسب هنا ، وقيل الجمل : الحبل الغليظ (١) . وسم الخياط : ثقب ضيق في الإبرة يدخل فيه خيط الخائط ، ويضرب به المثل في ضيق المسلك ، فكما أن ولوج الجمل - وهو الذي يضرب به المثل في الضخامة - في سم الخياط - وهو الذي يضرب به المثل في الضيق - مستحيلا إلى الأبد ؛ فكذا دخول هؤلاء المكذبين المستكبرين الجنة مستحيلا إلى أبد الأبدين .

ودخول الجمل في سم الخياط صورة متخيلة تدبُّ بالحركة المستمرة لمحاولات الجمل اليائسة المتكررة دخول ثقب الإبرة ، فالحقيقة أنها صورة جامعة لكل معاني الحرمان من الخيرات الإلهية المحضة ، واستحالة دخولهم الجنة بعدها ، وهي صورة تفوح منها سخرية شديدة ، وتهكم عظيم من هؤلاء الذين هذه صفاتهم ، ولعل السر في مجيء الجمل - هنا - دون غيره من أنواع الحيوانات فيه تعريض بقلة عقولهم حينما كذبوا بالآيات ، وأعرضوا عنها ، فأجسامهم ضخمة كالجمال ، وأحلامهم كأحلام العصافير .

والسر في استخدام الفعل ﴿ يلج ﴾ دون ﴿ يدخل ﴾ هنا ؛ لأن الدخول قد يكون بسعة وراحة أما اللوج إلى المكان ففيه شيء من التضيق ، وهذا مما يناسب المقام ، فضلا عن ختام الصورة الساخرة بقوله : ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ وهو تذييل غير جار مجرى المثل ؛ للإيدان بأن الإجراء هو الذي أوقعهم في هذا الجزاء ، وهم قد دخلوا في عموم المجرمين الذين تغلق أبواب السماء في وجوههم ، ولا يدخلون الجنة أبدا .

وأما الصورة الساخرة الثانية ففي قوله : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ ، ومنع السخرية آتٍ من لفظي (مهاد - غواش) فكلاهما مستعمل في غير ما وضع له في أصل اللغة ، فمعاني كلا اللفظين غير متحققة في جهنم ، وإنما سماها الله - تعالى - مهادا وغواشي تهكما ؛ لأن العصاة يُلقون فيها فتصادف جنوبهم وظهورهم (٢) ، فحين يسمع العربي هذا التعبير لأول وهلة ، لا يشك أن هذا الشيء المهيا هو فراش ناعم وثير ، قد أعد لتوافر فيه الراحة والطمأنينة ، ولكن الحديث عن عذاب جهنم وعن الكافرين ، وبالتالي سيدرك أن المقصود غير الحقيقة ، وإنما هي السخرية والتهكم بهؤلاء الكفرة ، وإثارة الحسرة والندم في نفوسهم ، (حيث تَفْتَحُ لهم الصورة الساخرة بريقا من أمل خاطف زائل هو تصور فراش وثير ، ومناخ بارد ، ثم نوم عميق ، ولكن سرعان ما يتبدد هذا الأمل في نار جهنم) (٣) التي تحيط بهم من كل جانب حتى صارت لهم فراشا وغطاء .

وقد اجتمعت في هذه الصورة الساخرة عدة ألوان بلاغية ، يكمن إيجازها على النحو الآتي :
أولا : الاستعارة في لفظي : ﴿ مهاد ﴾ و ﴿ غواش ﴾ حيث استعار المهاد - وهو فراش الطفل -

(١) ينظر : (لسان العرب - جمل) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢ / ٢٧٣ .

(٣) التصوير الساخر ٢٣٠ بتصرف .

والغواش - وهي الغطاء الذي يغطي الإنسان - لما هو تحت هؤلاء المجرمين من النار، وما فوقهم من النار أيضا ؛ مبالغة في إحاطة النار بهم من كل جانب ، فلا يستطيعون الفكاك منها ، فلهم منها غطاء ، ووطاء ، وفراش ، ولحاف .

ثانياً : الكناية عن انتفاء الراحة لهم في جهنم ؛ لأن المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اضطجاعه للراحة ، فإذا كان مهادهم وغاشيتهم النار فقد انتفت راحتهم ، وهذا ذكر لعذاب السوء بعد ذكر حرمانهم من الخير .

ثالثاً : الاحتباك ؛ وهو فن من فنون البلاغة ؛ حيث حذف (جهنم) مع (غواش) لدلالة ما قبلها عليها في قوله : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ وحذف (من تحتهم) لدلالة قوله : ﴿ من فوقهم ﴾ عليه ؛ " فذكر (جهنم) أولاً دليل على إرادتها ثانياً ، وذكر الفوق ثانياً دليل على إرادة التحت أولاً " (١) وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة : (لهم من جهنم مهاد من تحتهم ، ومن فوقهم غواش تغطيهم من جهنم) ، وتكمن بلاغة هذا الاحتباك في هذا الإيجاز ؛ الذي دفع التكرار في الآية ، إلى جانب صياغة العبارة الكثيرة المعاني بأقل الألفاظ .

رابعاً : فصلت هذه الآية عما قبلها وهي قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ ؛ لشبه كمال الاتصال ؛ حيث اتفقت الجملتان خبراً وإنشاءً ، وجاءت هذه الآية بمنزلة إجابة عن سؤال أثارته الجملة الأولى ، فكأنه قيل : وما جزاء المجرمين ؟ فأجيب : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ ، وهذا الجواب أطفأ أشواق النفس ، وروى ظمأها في معرفة مصير هؤلاء المجرمين ، الذين لن يدخلوا الجنة أبداً ، فتأكد المعنى في النفس أتم تأكيد .

خامساً : تقديم الجار والمجرور ﴿ لهم ﴾ ؛ للدلالة على أن هذا العذاب في جهنم إنما هو خاص بهؤلاء المجرمين .

سادساً : من وحي الألفاظ في سخرية القرآن الكريم ما يوحيه لفظ ﴿ مهاد ﴾ من مفارقة ساخرة مضحكة من البون الشاسع ، بل التناقض بين واقع الكافرين في جهنم وما يفيد ظاهر لفظ الـ ﴿ مهاد ﴾ ؛ فلفظ الـ ﴿ مهاد ﴾ يستعمله العرب للفراش ، أو الأرض المنخفضة التي يسهل المشي عليها ، واشتقاقات المادة كلها تدور حول اللين واليسر (٢) ، وأقرب ما يتبادر إلى الذهن منها : الفراش اللين الموطأ ، وهذا الاستعمال هو المراد في سخرية القرآن ؛ ليكون التقابل البعيد بين مدلوله وواقع الكافرين في جهنم مثيراً للسخرية منهم ، حين يتوارد على نفس السامع صورتان شديدتا التباعد والتنافر :

إحداهما : فراش لين وثير ، يبعث في النفس الراحة والاستقرار ، والشعور بالسعادة .
والأخرى : نارٌ شديدة التلطي والتوهج ، تملأ النفس ألمًا وشعورًا بالشقاء ، ثم تنسب الصورة الأولى إلى الكافرين ، في حين أنهم في الحقيقة في صلب الثانية .

ولا يخفى ما في هذه الآية من التهكم والسخرية بأولئك الذين اتخذوا فراشا وثيرا في الدنيا ، فأبدلوا هذا الفراش بفراش آخر ولكنه في نار جهنم .

- سابعاً وأخيراً : دُيِّلت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي الظالمين ﴾ ؛ للدلالة على أن سبب ذلك الجزاء هو الظلم لا غيره ، ولما كان جزاء الظالمين قد شُبّه بجزاء الذين كذبوا بالآيات واستكبروا عنها ، علّم أن هؤلاء المكذبين من جملة الظالمين ، وهم أول المقصودين من هذا التشبيه ، بحيث صاروا مثلاً لعموم الظالمين .

(١) نظم الدرر ٧ / ٤٠٠ .

(٢) ينظر : أساس البلاغة للزمخشري - مادة (مهاد) .

ومن شواهد هذا النوع من السخرية أيضا قوله تعالى : ﴿ وَأَطْوِرْ ۝١ وَكُنْتُمْ مَسْطُورِينَ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۝١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور : ١-١٦] (*) .

بعد أن أقسم المولى ﷺ بطور سينا ، والقرآن أو اللوح المحفوظ ، والبيت المعمور في السماء ، أو الكعبة ، والسماء ، والبحر الموقد بالنار ، ذكر جواب القسم ؛ وهو وقوع العذاب لا محالة لمن يستحقه من الكفرة والعصاة ، وذلك يوم القيامة ، ولا يقدر على دفعه عنهم دافع . وبعد أن ذكر وقوع العذاب عموما لكافة الكفرة والعصاة ، انتقل إلى اختصاص المكذبين بالعذاب بواحد في جهنم يسمى (ويل) ، وهو خاص بهم ؛ لأنهم كانوا يخوضون في أمر سيدنا محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء ، أو يخوضون في أسباب الدنيا ، ويعرضون عن الآخرة .

ثم ذكر الله ﷻ حال هؤلاء المكذبين وهم في النار ، يُدفعون إليها دفعا عنيفا شديدا على وجوههم بعد أن تُعَلَّ أيديهم إلى أعناقهم ، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، حيث يقول لهم خزنة جهنم حينئذ على سبيل السخرية والتهكم : هذه النار التي تشاهدونها هي التي كنتم تكذبون بها في الدنيا ، (ثم يوبخهم المولى - عز وجل - أو يأمر الملائكة بتوبيخهم قائلين لهم : أفسح هذا الذي ترون وتشاهدون كما كنتم تقولون للرسل ؟ أم أنتم عمي عن هذا كما كنتم عميا عن الحق في الدنيا؟! وإذا لم يمكنكم إنكارها ، وتحققتم أن ذلك ليس بسحر ، ولم يكن في أبصاركم خلل فادخلوها ، وقاسوا شدتها ، واصبروا على العذاب أولا تصبروا ، فالأمران في عدم النفع سواء فإنما تجزون ما كنتم تعملون ، والجزاء من جنس العمل) (١) .

ومن يتدبر الآيات السابقة يجد أنها بمنزلة وعيد شديد ، وإنذار شديد اللهجة لمن سخروا من دين الله وآياته في الدنيا على الرغم من تصويرها لعذاب المشركين في جهنم ، حيث تضمنت الآيات الأولى إنذارا للمكذبين في قوله : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمئذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، ثم بينت الآية التالية هؤلاء المكذبين بأنهم الذين في خوض يلعبون ، ثم جاء هذا الإنذار والبيان في صور بليغة حاملة معنى السخرية بهم في أساليب متنوعة بين الخير والاستفهام والأمر .

(*) الطور : الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو جبل طور سينا (فتح القدير ٥ / ١٢٤) .
 - كتاب مسطور : المسطور : المكتوب ، والكتاب : القرآن ، وقيل اللوح المحفوظ ، وقيل : جميع الكتب المنزلة ، وقيل ألواح موسى ، وقيل ما تكتبه الحفظة (ينظر فتح القدير ٥ / ١٢٥) ولسان العرب (مادة سطر) .
 - الرق : مارق من الجلد ليكتب فيه ، ومنشور : مبسوط (لسان العرب - رق ونشر) .
 - البيت المعمور : البيت المعمور في السماء ، أو الكعبة (ينظر : فتح القدير ٥ / ١٢٥) ، (ولسان العرب - عمر) .
 - السقف المرفوع : السماء سقف للأرض (ينظر : فتح القدير ٥ / ١٢٥) .
 - المسجور : الموقد ، من السجر ، وهو إيقاد النار في التتور ، (المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن - سجر) .
 - تمور : المور : الاضطراب والحركة ، ويطلق المور على الموج ، (لسان العرب - مور) .
 - يدعون : الدع : الدفع بعنف وجفوة (لسان العرب - دع) .
 (١) فتح القدير ٥ / ١٢٤ وما بعدها ، بتصرف .

وأول هذه الصور الساخرة قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ ، وموطن السخرية في الفعل (يُدْعُونَ) ؛ لأن الدع هو الدفع الشديد بعنف وجفوة ، والمعنى : أنهم يدفعون إلى النار دفعا عنيفا شديدا ، والسياق يصور هؤلاء المكذبين حين يساقون إلى العذاب وقد فزعوا وتراجعوا عند رؤيتهم نار جهنم، ولكن زبانية جهنم يدفعونهم إليها دفعا ، وهم لا يستطيعون أن يقاوموا دفع الزبانية حتى يستقروا في جهنم ، " قال مقاتل : تغلُّ أيديهم إلى أعناقهم ونواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعون إلى جهنم دفعا على وجوههم " (١) ، وهي صورة مهينة وساخرة جدا من منظرهم وهم يعذبون ، ولك أن تتأمل الفعل : ﴿ يُدْعُونَ ﴾ وما له من دور بارز في الدلالة على هذا المنظر الساخر ، ففي صوت العين من المشقة الصوتية ، والجرس المرير ما لا يخفى ، فضلا عن الإيماء بالتدافع والتجمع في توالي تكرار صوت الضم مع التشديد ، إلى جانب تأكيد ﴿ يُدْعُونَ ﴾ بالمصدر ﴿ دَعَاً ﴾ ؛ للتوصل إلى إفادة تعظيمه ، وشدته على هؤلاء العصاة المكذبين ، وفي ذلك من الإهانة لهم ، والغلظة عليهم ما لا يخفى .

كما أن بناء الفعل ﴿ يُدْعُونَ ﴾ للمجهول ؛ فيه إيجاز واختصار ؛ لأن الفاعل معروف ، وهم خزنة جهنم ، فضلا عن الإيحاء بضيق المقام عن الإطالة في الكلام ؛ لأن الموقف عصيب على هؤلاء المكذبين ، ومجيئه بصيغة المضارع ؛ لاستحضار هذه الصورة الفظيعة ؛ بغرض الإنذار والتخويف بعذاب جهنم لعلمهم يوَعظون .

وثاني الصور الساخرة قوله تعالى : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ حيث تذكرهم الملائكة بموقفهم من الإسلام في حياتهم الدنيا ، حين كانوا يكذبون بالبعث والعقاب ، ويسخرون من القرآن ، ويصفونه بأنه سحرٌ قائلين لهم ، ساخرين منهم : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ ، وهي سخرية واضحة بهم ، سخرية تملأ نفوسهم حسرة وندما ، وشعورا بالخزي ، والجور عن الصواب ؛ لأن المقصود ليس إخبارهم عن النار ؛ فإنهم مشاهدون لها ، وإنما المقصود من ذلك كله : التقريع والتهكم ؛ لأنهم أنكروها ، وسخروا من وجودها ، فردت عليهم الآية بسخرية أشد وأنكى .

" جملة (هذه النار) مقول لقول محذوف دلَّ عليه السياق ، والتقدير : يُقال لهم هذه النار . . . ، والقائل : هم الملائكة الموكلون بإيصالهم إلى جهنم " (٢) ، والتعبير باسم الإشارة ﴿ هذه ﴾ الذي هو للقريب المؤنث ؛ للدلالة على أنهم بلغوها ، وهم على شفاها ، ورأوا رؤيا العين ، ثم جاء بـ ﴿ النار ﴾ معرفة ؛ للدلالة على أنها النار المعروفة لديهم ، والتي سمعوا عنها .
والموصول وصلته في قوله : ﴿ التي كنتم بها تكذبون ﴾ ؛ لتنبية هؤلاء المكذبين إلى فساد رأيهم وضلالهم ؛ إذ كذبوا بالحشر ، والعقاب ، والنار ، فرأوا ذلك عيانا .

والسخرية تتركز في هذا المشهد الذي يسخر فيه الزبانية من هؤلاء المكذبين ، حين يرون جهنم بأعينهم وقد كانوا يكذبون بها في الدنيا ، وهم مدفوعون إليها ، وموقنون كل اليقين أنهم داخلوها ، فيوجه إليهم زبانية جهنم استفهامين متتابعين بالغين أقصى القوة في السخرية

(١) روح المعاني ٢٧ / ٣٠ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٧ / ٤٣ .

الأول قولهم : ﴿ أفسح هذا ﴾ ؟ للتنبيه على خطئهم ، والتهكم بهم بما كانوا يقولونه في الدنيا ، حيث كانوا يقولون حين يسمعون الإنذار بيوم البعث والجزاء : (هذا سحر) ، وإذا قرئ عليهم القرآن كانوا يقولون : ﴿ ... قُلُوبُنَا فِي أَكْتَوْ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ

إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ [فصلت من / ٥] .

والثاني قولهم : ﴿ أم أنتم لا تبصرون ؟ ﴾ و ﴿ أم ﴾ منقطعة ، والاستفهام بعدها مستعمل في التوبيخ والتهكم ، والتقدير (بل أنتم لا تبصرون) ، ومجيء المسند إليه ﴿ أنتم ﴾ مخبرا عنه بخبر فعلي ﴿ لا تبصرون ﴾ ؛ لإفادة تقوية الحكم وتوكيده ، وبالتالي تأكيد التهكم والسخرية ، فأدنى تصور للموقف الذي يوجه فيه السؤالان يبرز مدى ما بهما من تهكم شنيع ، فالمفروض أنهم يُسألون وهم في جهنم حقيقة ، يصطلون مما فيها من شديد العذاب ، ويتألمون بما لا يوصف من الألم ، ولا يتصور قط أن يخطر ببال أحد منهم أن هذا العذاب - الذي يعانونه فعلا - سحر ، ولا يتصور قط أن يتوهم أحد منهم أنه لا يبصر هذا العذاب ، ولو أنهم سئلوا هذا قبل دخولهم جهنم فعلا - حتى ولو كانوا مبصرين لها بأعينهم - لكان يمكن أن تكون السخرية أخف ؛ لاحتمال أن يقولوا أو يظنوا أنه سحر ؛ كما قالوا في حياتهم عن الحق الواضح : إنه سحر ، ولكن الله سألهم بعد إدخالهم جهنم ؛ حتى لا تكون لهم حجة ، ولتكون السخرية بهم أشد وأنكى . إذن فتخييرهم بين أن يحددوا أهي سحر أم عدم إبطار ليس المراد به حقيقته ، وإنما هو سخرية شديدة تتضمن تذكيرهم بما صدر منهم من كفر وتكذيب لرسول الله الذي أرسله إليهم في الدنيا ، وهذا التذكير إيلاء نفسي شديد لهم ؛ لأنهم سيمتلئون حينئذ ندما وحسرة على أنهم لم يتبعوا داعي الإيمان في حياتهم الدنيا .

وفي قول الملائكة لهم : ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ تهكم آخر بهم ؛ يخيرهم بين الصبر على هذا العذاب ، وعدم الصبر ، " وهي جملة مستأنفة بمنزلة النتيجة المترتبة من التوبيخ والتغليظ السابقين ، أي : ادخلوها فاصطلوا بنارها " (١) . والسخرية - هنا - جاءت بصيغة الأمر ﴿ اصلوها ﴾ كناية عن دخولهم في النار ؛ لأن الدخول فيها يستلزم الاحتراق بنارها ، ثم الأمر ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ لإفادة التسوية بين صبرهم على حرها ، وعدم الصبر لأن كليهما لا يخفان عنهم شيئا من العذاب بدليل قولهم : ﴿ ...سَوَاءٌ

عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٦﴾ [إبراهيم من / ٢١] ؛ لأن جرمهم عظيم لا مطمع في تخفيف جزائه .

وجاء التذييل : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ في نهاية الأسلوب الساخر ؛ لتقرير ما ذكر في الآيات السابقة ، وتعليل لجملة ﴿ اصلوها ﴾ ، وفيها قصر قلب مستفاد من كلمة ﴿ إنما ﴾ ؛ حيث نزل المخاطبين منزلة من يعتقد أن ما لاقوه من العذاب ظلم لا يستوجب مثل ذلك ، من شدة ما ظهر عليهم من الفرع ، ولذا عدى الفعل ﴿ تجزون ﴾ إلى ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ بدون الباء للدلالة على أنهم يُجزون مثل عملهم لا أكثر منه ، فينتفي وقوع الظلم عليهم ، وأنهم إنما يتلقون جزاء ما قدمت أيديهم ، ولا يظلم ربك أحدا .

المبحث السادس

السخرية المصورة لنتيجة الشرك يوم القيامة

المبحث السادس

السخرية المصورة لنتيجة الشرك يوم القيامة

وهذا المبحث هو امتداد لسابقه ؛ حيث يمكن القول بأن ما كان يبديه المشركون من إنكارٍ للأخرة وللبعث ليس دليلاً على عدم اعتقادهم في الآخرة ، بل على العكس يعتبر دليلاً على إحساسهم بها ، وفرعهم من توعدهم القرآن لهم بالعذاب فيها ، لذلك آثروا محاولة تكذيب الآخرة ؛ ليحاولوا أن يغلقوا دون أنفسهم باباً يأتيهم من شعور بالخوف والفرع ، وبخاصة من هذه الصور الرهيبة التي يصور القرآن بها عذابهم في الآخرة .

والقرآن الكريم يصور عذاب المشركين في الآخرة بصور مختلفة ، وألوان متعددة ، وأساليب متنوعة ، ولا شك أن أسلوب السخرية المصور لنتيجة الشرك يوم القيامة ، هو أحد أهم هذه الأساليب وأوضحها في أي الذكر الحكيم ، والشواهد على ذلك كثيرة مبثوثة في القرآن الكريم ، يذكر منها قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ [الكهف : ١٠٢] ، ففي هذه الآية ضرب من السخرية ، وهو استخدام ألفاظ الوعد في مكان الوعيد ، حيث وصف الله - تعالى - جهنم وما فيها من العذاب بأنه نُزْلٌ ، والنزل غير متحقق في جهنم ، إذ إنه يعني في أصل الاستعمال : ما يهياً للنزول والضيء إذا نزل عليه ، ويقال : إن فلانا لَحَسُنُ النزل أي : الضيافة (١) ، وبالتالي فإن الكلام ليس مقصوداً على حقيقته ، وإنما هو من باب الاستعارة ؛ إذ إن الإخبار بأن الله يُعِدُّ للكافرين حُسْنَ الضيافة أمر تنكره النفس ، ولا يقبله العقل ، يقول ابن عاشور : " إطلاق النزل على العذاب استعارة تهكمية " (٢) . فكأنه - سبحانه - يُعِدُّ للكافرين بشيء أعده لهم ؛ ليتمتعوا به عند ورودهم النار ، وفي ذلك تخنئة لهم في حسابانهم ، وتهكم بهم ، ومثل ذلك قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ

سَجْرَةَ الزَّقِيمِ ﴾ [الصافات : ٦٢] ، حيث قال : (وأصل النزل : الفضل الواسع في الطعام ، يقال : طعام كثير النزل ، فاستعير للحاصل من الشيء إذا عرفت هذا فنقول : حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور ، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم ، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخيرية ، ولكن جاء هذا الكلام إما على سبيل السخرية ، أو لأجل أن المؤمنين اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم ، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم ، فقيل لهم ذلك توبيخاً على سوء اختيارهم) (٣) .

فقد لحظ المفسرون - رحمهم الله - أن الكلام جارٍ على طريق الاستعارة التهكمية ، حيث نزل التضاد بين الحاصل من الجنة ، وهو اللذة والسرور ، والحاصل من النار وهو الألم منزلة التناسب ، مع أنه لا تناسب بينهما البتة إلا التهكم بالكافرين .

فقد لحظ المفسرون - رحمهم الله - أن الكلام جارٍ على طريق الاستعارة التهكمية ، حيث نزل التضاد بين الحاصل من الجنة ، وهو اللذة والسرور ، والحاصل من النار وهو الألم منزلة التناسب ، مع أنه لا تناسب بينهما البتة إلا التهكم بالكافرين .

(١) (لسان العرب - نزل) و(مختار الصحاح ١ / ٢٧٣) .

(٢) التحرير والتنوير ١٦ / ٤٥ .

(٣) الكشاف ٥ / ٢١٣ بتصرف يسير ، ونقل ذلك عنه الرازي في مفاتيح الغيب ٩ / ٣٣٦ .

ويزداد التهكم في قوله تعالى : ﴿ قُرْآنٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ ﴾ الواقعة : ٩٣ ، فإذا كان أول ما يقدم لهم الحميم وهم لم يستقروا في النار بعد ، فكيف سيكون حالهم بعدما يستقر لهم القرار ، وتطمئن لهم الدار في النار (١) . ففي ذلك كمال الاستخفاف بعقولهم ، إذ إنه لما ذكر النزل ، أو مهمهم أن سيكون لهم بيتا للضيافة والإكرام ، ولكن سرعان ما يتلاشى ذلك الوهم ، وتخبب الظنون ، فإذا بالنزل هذه المرة يختلف عما ألفوه في الدنيا ، إنه اليوم نزل من الحميم والزقوم . وهكذا تأتي الصورة المتهكمة ؛ لتؤدي غرضها في الدعوة إلى الله - تعالى - ونبذ الإشراك به من خلال التنبيه على مصير من أشرك مع الله تعالى ، واعتصم بغيره ، كل ذلك في عبارة موجزة مهذبة بليغة .

ومن أمثلة هذا النوع من السخرية - أيضا - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْنُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝٣٦ ﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعلم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين

من نصير ﴿ [فاطر: ٣٦ - ٣٧] ﴾ ، ففي هاتين الآيتين صورة عجيبة من عذاب المشركين في الآخرة حيث تصور ان شدة العذاب وأثره في نفوس هؤلاء المشركين ، الذين يتمنون أحد أمرين : إما أن يُقضى عليهم فيهلكوا ويستريحوا ، وإما أن يخفف الله عنهم وطأة هذا العذاب الشنيع ، ولكن شيئا من الأمنيتين لا يتحقق ، ثم يسخر القرآن منهم سخرية شديدة ، مصورا صراخهم وصياحهم الشديد بقوله : (وهم يصطرخون فيها) ، وهذه سخرية من حالتهم التي يعيشون فيها ويستمر في السخرية والتقريع مذكرا إياهم بأنه كانت لديهم فرصة كافية للتعقل والتذكر ، ولكنهم تماردوا في كفرهم وعنادهم ، فيقال لهم حينئذ (أولم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير؟) ، وهو استفهام غرضه التوبيخ والتبكيت والسخرية . ثم يصب عليهم أقصى السخرية حين يقال لهم وهم في جوف جهنم : (فذوقوا) ، وهو أمر غرضه التهكم والسخرية الشديدة أيضا ، وهذا اللفظ كما يقول الرازي فيه ذكر بالمشافهة ، وهذا يدل على كمال الغضب (٢) . إلى جانب انه عدّد وجوه العقاب ، ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم ، حيث حدد فظائعهم ثم قال لهم : (فذوقوا) وهذا يدل على المبالغة في التكذيب والتكليل والسخرية .

ومن الشواهد المصورة التي تسخر منهم وهم يعذبون يوم القيامة أيضا ، صورة تبين المشرك وهو يتلقى جزاء إعراضه وعناده للحق ، فتمثله في منظر عجيب ، وهو يصطلي نار جهنم ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه بيديه ؛ لأنها مغلولتان ، فلا يملك إلا وجهه يزود به عن نفسه يمينا وشمالا ، يقول تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٢٤ ﴾ [الزمر : ٢٤] ، فمنظره وهو يدافع عن نفسه بوجهه يثير في النفس السخرية

(١) ينظر : روح المعاني ٢٧ / ١٤٦ .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٠ / ٣١ .

ناهيك عن قول الله - تعالى - لهم وهم في هذه الحالة الشنيعة (ذوقوا ما كنتم تكسبون) .

ومن شواهد السخرية أيضا قوله - تعالى - للمشركين وهم يصطلون بنار جهنم : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرحمن : ٤٣] ؛ زيادة في النكايه بهم ، والإهانة لهم ، والسخرية منهم ؛ لأن المجرمين هم أنفسهم يعذبون فيها ، فأخبارهم بأن هذه نار جهنم هو قمة الإهانة والسخرية والاستهزاء بهم ؛ لأنهم يعاينون هذه النار على الحقيقة ويحرقون فيها ، ولا يحتاجون لمثل هذا الخبر المؤلم ، ولم يطلبوه .

ومن ذلك - أيضا - قوله تعالى : ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴾ [الغاشية : ٢] ؛ فهذه الآية الكريمة تمثل صورة عظيمة من التحسر والتندم وخيبة الأمل التي تلحق الكافرين يوم القيامة ، إلى جانب الإذعان والتسليم المطلق لله تعالى ، وذلك بعدما عاينوا من آيات الله العظيمة التي أخبرهم بها المصطفى ﷺ في الدنيا ، وكانوا في غاية التكذيب والإنكار لها ، فهم اليوم في غاية الذل والهوان ، ولكن الله - تعالى - يبين أنهم خاشعون في هذا اليوم ، مع أنه لات حين خشوع ؛ فقد انتقلوا من دار العمل إلى دار الجزاء والحساب ، فلا فائدة من هذا الخشوع يومئذ ، لكن الله - تعالى - أراد التهكم بهم ، وتوبيخهم على تفريطهم وعصيانهم ، وبيان أنهم لم يكونوا من أهل الخشية والخشوع لله - تعالى - في الحياة الدنيا ، يقول الألوسي : " وخاشعة أي : ذليلة ، ولم توصف بالذل ابتداء ؛ لما في وصفها من الخشوع من الإشارة إلى التهكم ، وأنها لم تخشع في وقت ينفع فيه الخشوع " (١) .

فالخشوع - هنا - مستعار للذلة ؛ لإرادة التهكم ، ولا يخفى ما في هذه الآية من الحث على المسارعة في التوبة والإنابة إلى الله من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه عمل .
وهناك صور أخرى كثيرة تسخر من نتيجة الشرك يوم القيامة ، لا يتسع المقام لذكرها ، وسأكتفي بالشاهد التالي لتحليله من الناحية البلاغية ، وبيان ما فيه من أسرار ، حيث يقول الله - عز وجل - مصورا عذاب أحد قادة الشرك في جهنم : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقْوِمِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ حُدُودُهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِن عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان : ٤٣ - ٥٠]

(١) روح المعاني : ١١٢ / ٣٠ .

معاني المفردات : شجرة الزقوم : " مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكرهتها وننتها . قال المفسرون : وهي في الباب السادس ، وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء ، فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها ، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل ، واختلف فيها ، هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا على قولين : أحدهما أنها معروفة من شجر الدنيا ، ومن قال بهذا اختلفوا فيها : فقال قطرب : إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر ، وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل ، القول الثاني : إنها لا تعرف في شجر الدنيا . " (الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ١٥٠ وما بعدها) .
- الأثيم : الفاجر كثير الإثم (الكشاف ٥ / ٤٧٦) .
- المهل : دردي الزيت ، أو ما أذيب من النحاس أو الرصاص (المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن - مهل) .
- الحميم : الماء الحار (المعجم الجامع - حمم) .
- اعتلوه : ادفعوه وردوه بالعنف واغلظوا عليه (المعجم الجامع - عتل) .
- سواء الجحيم : وسط الجحيم ، وسواء كل شيء : وسطه (المعجم الجامع - سوي) .

وسبب نزول قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فقال له : إن الله أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ، فنزع أبو جهل ثوبه من يده ثم قال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، لقد علمت أنني أمنع أهل البطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر ، وأذله ، وعيره بكلمته وأنزل فيه : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (١)

وروى عن ابن الزبير أن أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر : التزقم ، فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال : تزقموا ؛ فإن هذا هو الذي يخوفكم به محمد فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ سَجَرَةٌ مِنَ الزَّقُونِ ﴾ (٢) ، فبين الله ﷻ في هذه الآيات طعام هذا الفاجر في جهنم بأنه شجرة الزقوم ، وشبه هذا الطعام بـدُرْدِيّ الزيت في سواده وبتن رائحته ، أو بذائب الفضة والنحاس الذي يغلي كالماء الحار الذي انتهى غليانه ، ويقال لزبانية جهنم : خذوا هذا الأثيم وغلوه ، وقودوه بعنف وغلظة إلى وسط الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ثم تسخر منه الزبانية قائلين له : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) ، إن هذا العذاب الذي تذوقه هو ما كنت به تكذب وتشك فيه في الدنيا أنت وسائر الكافرين (٣) .

وهذه الآيات تمثل صورة للعذاب المهين في جهنم لأحد قادة الشرك وزعمائهم ؛ وهو أبو جهل ؛ نتيجة كفره بآيات الله ، ووقوفه في وجه الإسلام والمسلمين ، وتكذيبه للرسول ﷺ ، حيث ترسم للأتباع صورة مهينة لهذا القائد ، وهو يُجرُّ إلى جهنم جرًّا ، ويُسحب على وجهه سحبا ، ثم يلقى به في النار كأبي شيء تافه حقير ، ويصب من فوق رأسه العذاب صبا ، وهو مستكين ذليل ، لا يملك عن نفسه دفاعا ولا صدًّا .

والذي زاد من وقع هذه الإهانة اقترانها بأسلوب السخرية في قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ وهو خطاب موجه لرأس الكفر والطغيان ، وسياق الآيات التي قبلها كله يتحدث عن العذاب ، حيث يقول تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ (٤) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ، والسامع يفهم منه أن ما سيأتي بعده لابد وأن يكون عذابًا وإذلالاً لهذا الزعيم قياسا على ما سبق ، ولكنه يفاجأ بأن الأسلوب يأخذ مجرى النقيض ، حيث يقال له : (ذق) ، ثم يقال له : (إنك أنت العزيز الكريم) ، وهو أمر لافت للنظر ، ويدعو إلى التوقف والتأمل ، إذ كيف يصفه الله - تعالى - بالعزة والكرامة وهو في وسط الجحيم ، يصب على رأسه من عذاب الحميم ، فهو في أقصى درجات الذلة والهوان ، ولا يستقيم هذا الذل مع وصفه بالعزة والكرامة إذ إنهما متناقضان ، فدل ذلك على أن الكلام ليس مرادا به حقيقته ، وإنما هو ضرب من السخرية الموجهة ، استخدمت فيها ألفاظ الإجلال في موضع التحقير والإهانة ؛ لتوبيخ

(١) ينظر : أسباب النزول للواحي ٣٧٧ .

(٢) ينظر : الكشاف ٥ / ٤٧٦ - .

(٣) السابق ٥ / ٤٧٦-٤٧٧ بتصرف يسير .

هذا الطاغية ، وتقريعه على ما كان يدعيه في الدنيا من العزة والكرامة على قومه (١) هذا فضلا عما يحمله لفظ (الذوق) من التهديد والوعيد ، إذ إن الذوق من مقدمات الأكل ، وفي ذلك إحياء بما وراء ذلك من العذاب الذي لا يوصف .

هذا من ناحية صياغة السخرية ، أما من ناحية التناول البلاغي لها ؛ فالذوق مستعار للإحساس والإدراك ؛ للدلالة على شدة مقاساته للعذاب ، حتى كأنه يزوقه بلسانه كما يزوق أي طعام ؛ مبالغة في السخرية والإهانة لهذا الأثيم ، والتحقير من شأنه ، وهو الغرض من فعل الأمر : ﴿ ذُق ﴾ .

وقوله : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدية ، وجاء مؤكدا بـ (إن) ، وضمير الفصل (أنت) ؛ للتأكيد على إهانته وإذلاله ، كما جاء معرفاً بـ (ال) في (العزيز الكريم) ؛ لإفادة القصر والاختصاص ، وتأكيد المعنى التهكمي المقصود بصد الصفات السابقة ؛ وهو الذل والهوان ، فهو ذليل مهان ، بل إنه أذل وأهون ، وهو من قصر الصفة على الموصوف ، وتوسط ضمير الفصل ؛ لأنه محل توكيد دفعا لمن يتشكك في الإسناد أو يتوهم التشريك ، " والجملة كناية عن مخاطبته بالخسة مع إقامة الدليل على ذلك بما هو فيه من المهالك " (٢) .

وتبدو روعة التصوير في الموازنة بين مجد هذا الزعيم وجبروته في الدنيا وبين حاله الذليلة المهينة في الآخرة ، وليس من المستطاع التعبير عن مدى ما تحمله السخرية التي توجه إليه وهو في هذا الهوان الشديد بهذا القول البالغ التهكم ، حيث تؤكد لهذا الشخص عزته وكرامته بمؤكدات كثيرة : (إن) و (أنت) و (ال) في العزيز الكريم ، مع أنه في هوان ترسمه صورته في جهنم .

وفي قوله تعالى : ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ سخرية ثانية ، حيث إنه مقول لقول محذوف تقديره : (يقال للآثمين جميعا : إن هذا الآية) . وهو تذييل غير جار مجرى المثل لأنه متوقف في فهم معناه على سابقه ، كما أنه لا يستغنى عنه ، وفيه التفات من المفرد في الآيات السابقة إلى الجمع في هذه الآية ؛ للدلالة على أن هذا العذاب ليس خاصا بالأثيم وحده ، بل إنه مستحق للآثمين جميعا ؛ لأنهم كذبوا به في الدنيا ، وكانوا فيه يمترون فرأوا ذلك عيانا .

وتعريف المسند إليه (العذاب) بالإشارة (هذا) وهو للقريب المذكر ؛ للدلالة على أنهم عاينوه بأنفسهم ، وإشارة إلى الحالة الحاضرة لديهم ، والموصول وصلته (ما كنتم به تمترون) لتنبئهم هؤلاء الممترين الشاكين في وقوع العذاب على فساد رأيهم وضلالهم .

والجملة عموما تفوح منها سخرية واضحة ؛ لأن إخبارهم عن عذاب الحميم ليس مقصودا لأنه مشاهدون له ، واقعون فيه ، وإنما المقصود من ذلك كله : التوبيخ والتهكم . والله أعلم .

(١) ينظر السابق ٥ / ٤٧٧ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٠ / ٧٧ .

الفصل الثالث

السخرية من اليهود وأسرارها البلاغية

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : سخرية القرآن من عقيدة اليهود .
- المبحث الثاني : سخرية القرآن من ردائل اليهود ومزاعمهم الباطلة .

الفصل الثالث

السخرية من اليهود وأسرارها البلاغية

تمهيد :

شغل بنو إسرائيل في القرآن الكريم حيزا كبيرا منه في السور المكية والمدنية على حد سواء ، حيث فصل القرآن الحديث عنهم تفصيلا وافيا ، ووصف أحوالهم وأخلاقهم ومواقفهم من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وصفا صادقا مستفيضا .

ففي الآيات والسور المكية تحدث القرآن عن قصصهم ، وعن تعذيب فرعون لهم ، وعن أحوالهم المختلفة في العهود التي سبقت بعثة النبي ﷺ .

أما في الآيات والسور المدنية فقد تحدث عن موقفهم من الدعوة الإسلامية ، و عما أسبغ الله ﷺ عليهم من نعم ، وما أنزل بهم من نقم جزاء فسقهم عن أمر ربهم ، كما تحدث بالتفصيل عن أخلاقهم وذنابلهم ودعاواهم الباطلة ، وعن مسالكهم المتنوعة في الكيد للإسلام والمسلمين .

والقرآن الكريم في حديثه عن بني إسرائيل أهل الكتاب يربط ربطا محكما بين طباع وأخلاق المعاصرين منهم للنبي ﷺ ، وطباع وأخلاق آبائهم الأولين الذين عاصروا موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء - عليهم السلام - وذلك ليبين أن ما عليه الأبناء من فسوق وعصيان ومحاربة لدعوة الإسلام إنما هو ميراث من الخلق السيء توارثه الخلف عن السلف ، وأخذة الأبناء عن الآباء .

فقد كان موقفهم من الرسالة الخاتمة موقفا لا يقل عداً عن موقف المشركين ، فقد استقبل اليهود الرسول ﷺ ودينه في المدينة شرّاً ما يستقبل أهل دين سماوي رسولا يعلمون صدقه وصدق كتابه ، ويعرفون أوصافه ، وكذا كان حال الفريق الآخر من أهل الكتاب (النصارى) .

ومع أن الإسلام عامل أهل الكتاب بكل سماحة وود ، ورغبهم في الدخول في تلك الدعوة بكل طريق ، إلا أنهم اتبعوا كثيرا من المسالك الخبيثة في الكيد للإسلام والمسلمين ، ولست في هذا البحث بصدد تناول البلاغي لحديث القرآن عن أهل الكتاب عموما ، فهذا مما يحتاج إلى دراسة مستقلة ، ولكن طبيعة الدراسة تقتضي أن أتناول جانبا واحدا فقط متصلا بهم من الناحية البلاغية ، وهو جانب السخرية الموثقة في القرآن الكريم ، موضحا دور السخرية العظيم في الإبانة عن نفاق اليهود وفساد عقيدة النصارى المعتقدين بألوهية عيسى - عليه السلام ، وكذا تعداد ذنابل اليهود وأخلاقهم السيئة التي توارثوها جيلا بعد جيل .

وفي هذا الفصل سيكون التحليل البلاغي المركّز لأكثر الشواهد القرآنية التي ضمت مشاهد من هذه السخرية من خلال المباحث التي ينطوي عليها ، وأسأل الله ﷻ التوفيق والسداد .

المبحث الأول

سخرية القرآن من عقيدة اليهود

المبحث الأول : سخرية القرآن من عقيدة اليهود

إن مَنْ يتتبع تاريخ اليهود على مر العصور يدرك - وبصدق - فقدانهم مبدأ الاعتقاد الديني والذي يؤيد هذه المقولة كثرة الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ، فمن المعروف أن جميع مَنْ أرسل إلى البشر من الرسل - باستثناء بضعة منهم - كانوا من بني إسرائيل ، ولا شك أن تكرار إرسال رسل في شعب واحد معناه أن أحداً من هؤلاء الرسل لم ينجح في أن يغرس في هذا الشعب الاعتقاد والإيمان ، ليس هذا فحسب ، بل إنهم - إلى جانب عدم الإيمان - اتخذوا موقفاً من الرسل لم يعرف في تاريخ البشرية عن عنصر آخر غيرهم ، حيث قتلوا الأنبياء والرسل ، وجعلوا ذلك الفعل الشنيع هو الوسيلة الوحيدة للرد على دعوتهم للإيمان ، بما يعني أن التقارب والتجاوب بين بني إسرائيل وبين الرسل - ولو نفسياً - كان مثل السراب .

وقد أكد القرآن الكريم في كثير من مواضعه هذا المعنى ، حيث قرر أن نزعة الكفر وفقدان مبدأ الاعتقاد الديني عند اليهود صفة أصيلة متوارثة فيهم عبر القرون والأجيال ، أي مُدَّ وُجِدوا على الأرض ، فليس في طبيعتهم الاستعداد للإيمان الروحي والأخلاقي ، ولكن الدين بالنسبة لهم مجرد وسيلة للكسب المادي البحت ، ولذا كانوا ينظرون إليه من هذه الزاوية ، (والمعجزات التي جاء بها أنبياؤهم يغلب عليها طابع الحس والمادة ، فهي معجزات مادية حسية) (١) بسبب عدم إيمانهم بالروحانيات والغيبيات ، واقتصرهم على الماديات المحسوسة ، ومن الشواهد التي تدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ

عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۗ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

﴿ [البقرة : ٩١ - ٩٢] ﴾

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۗ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ۗ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سَاطِنًا ۗ مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ [النساء : ١٥٣] ، وكثير من الآيات لا يتسع المقام لذكرها .

ولذا سخر منهم القرآن الكريم في غير موضع ، وصوّر في سخريته طبيعتهم الدينية وخلوهم من الإيمان في كل أحوالهم ، واستعدادهم للنفاق والتمثيل ، وقرن السخرية بأغراض أخرى كالتحقير ، والتعجب ، والتبكيك ، والتوبيخ ، وأول شواهد هذه السخرية قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ [البقرة : ٤٤] .

وقد جاءت هذه الآية إثر ما ذكره الله ﷻ من الإنعامات الخاصة على أسلاف اليهود ؛ كسرّاً لعنادهم ؛ واستمالَةً لقلوبهم ؛ وتبئياً على ما يدل على نبوة سيدنا محمد ﷺ ، فَذَكَرَ

(١) ينظر : الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ٢ / ١١٦ بتصرف يسير - ت / مركز الدراسات القرآنية - مجمع الملك فهد المملكة العربية السعودية - بدون تاريخ .

هذه النعم إجمالاً بقوله : ﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٠] وفرع على تذكرها بضرورة الإيمان بالنبي ﷺ بقوله : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ يُكْفَرُونَ ﴾ [البقرة : ٤١] ، ثم عقبها بالنهي عن تلبيس الحق بالباطل ، وكتمان الحق الذي يعرفونه وهو صدق نبوته ﷺ بقوله : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٢] ، ثم أردف بالأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ، وذيل بقوله : ﴿ وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ ﴾ [البقرة : ٤٣] .

ثم جاءت هذه الآية - موطن الشاهد - معترضة بين قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ و قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] ووجه المناسبة في ذلك أنه - عز وجل - لما أمرهم بفعل شعائر الإسلام من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، كان ذلك إشارة إلى أن صلاتهم التي يفعلونها أصبحت لا تعني عنهم شيئاً ؛ لأنها ليست كصلاة المسلمين ، فناسب ذلك أن يزداد بالجملة المعترضة : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ للدلالة على أن ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائمين به على ما ينبغي ؛ وليبيان سوء حالهم الذي صاروا إليه من كونهم يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصنعه والتاجر بتجارته وفاءً بوظائفهم الدينية من أجل استحقاق الرواتب والمراتب ، على حين أنهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه الأوامر التي يأمر بها الناس ولا يفعلونها (١) .

وقال ابن عباس في رواية الكلبي عن أبي صالح أن هذه الآية نزلت في يهود أهل المدينة حيث كان الرجل يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينهم وبينه رضاع من المسلمين : أثبت على الدين الذي أنت عليه ، وما يأمرك به هذا الرجل يعنون محمداً ﷺ فإن أمره حق ، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه ، فنزلت ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ الآية (٢) .

ويرى الطاهر بن عاشور أن المخاطب بهذه الآية جميع بني إسرائيل الذين خوطبوا من قبل في قوله تعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ، فيقتضي أن هذه الحالة ثابتة لجميعهم ، وعلى هذا الوجه يكون المراد بالناس إما المشركون أو من عدا الأمر ، ويجوز أن يكون المقصود بهذا الخطاب فريقاً منهم ، وهم أحبارهم وعلمائهم ، وعلى هذا الوجه يكون المراد بالناس العامة من أمة اليهود ، والمعنى : كيف تأمرون أتباعكم وعامتكم بالبر وتنسون أنفسكم ؟ فيكون في هذا الاستفهام تنديد بحال أحبارهم ، أو تعريض بأنهم يعلمون أن ما جاء به رسول الإسلام هو الحق ، فهم يأمرون أتباعهم بالمواعظ ولا يطلبون النجاة لأنفسهم (٣) .

(١) ينظر : مفاتيح الغيب ٣ / ٣٠ ، والتحرير والتنوير ١ / ٤٧٤ .

(٢) ينظر : أسباب النزول للواحد ص ٢٤ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٤٧٤ .

هذا عن السياق الذي وردت فيه الآية ، وفيمن نزلت ، أما الغرض البلاغي لها فهو التنديد بنفاق اليهود الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويأمرون الناس بالخير ولا يأتون به ، مع السخرية منهم ، والتوبيخ ، والتقريع ، والإنكار ، وقد استعان النظم القرآني في الكشف عن ذلك بأسلوبين من أساليب الاستفهام ، الأول في صدر الآية : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، والثاني في فاصلة الآية : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، ولا خلاف في أن الاستفهام الأول استفهام توبيخ وتقريع ، وكذا الثاني في قول الزمخشري ، حيث ذكر أن الهمزة في (تأمرون) للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم ، وجملة (أفلا تعقلون) توبيخ عظيم بمعنى : " أفلا تظنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول " (١) ، فالاستفهام الأول عنده استفهام مجازي لا حقيقي قطعا ؛ لأنه وارد في القرآن من قول الله الخالص غير المحكي ، وكل استفهام في الكتاب العزيز وارد في كلام الله الخالص فهو استفهام مجازي ، ومحال أن يكون حقيقيا ؛ لأن الاستفهام الحقيقي لا يصدر إلا ممن يجهل الأمر المستفهم عنه ، والله بكل شيء عليم .

وتابع أبو السعود الزمخشري في الاستفهام الأول ، ورأى أن همزة الاستفهام في (تأمرون) للتقرير مع التوبيخ والتعجيب ، أما الثاني (أفلا تعقلون) فهو عنده للإنكار (٢) والإنكار إما أن يكون مسلطا على شيء واحد وهو عدم التعقل ، وإما أن يكون مسلطا على أمرين هما : ترك التأمل أصلا ، ثم ترك التعقل . وقد تقدم أن الزمخشري قصره على التوبيخ العظيم ، وغرض التوبيخ يكون أحيانا مصاحبا للتقرير ، وأخرى يكون مصاحبا للإنكار ، وكل من الإمامين اكتفى بأحد الأمرين ، حيث اكتفى الزمخشري بالتوبيخ ولم يذكر الإنكار ، واكتفى أبو السعود بالإنكار ولم يذكر التوبيخ .

أما الإمام الألوسي فقد اقتفى أثر الإمامين الزمخشري وأبي السعود في المعنى المجازي المراد من الاستفهام الأول ، حيث ذكر أنه للتقرير مع التوبيخ والتعجيب ، أما الاستفهام الثاني (أفلا تعقلون) فلإنكار والتوبيخ (٣) ، وهذا ما قاله الإمام فخر الدين الرازي في الاستفهام الأول في الآية ، أما الثاني فغرضه تعجيب العقلاء من أفعالهم (٤) ، وللشيخ رشيد رضا كلام وجيز يفهم منه أن كلا الاستفهامين مراد به التوبيخ (٥) .

وأخيرا يذكر الطاهر بن عاشور أن الاستفهام الأول للتوبيخ ؛ لعدم استقامة الحمل على الاستفهام الحقيقي ، فاستعمل في التوبيخ مجازا بقريضة المقام ، وهو مجاز مرسل ؛ لأن التوبيخ يلزم الاستفهام ، حيث إن مَنْ يأتي بشيء يستحق التوبيخ عليه من شأنه أن يتساءل الناس عن ثبوت الفعل له ، ويتوجهون إليه بالسؤال ، فينتقل من السؤال إلى التوبيخ ، ويتولد منه معنى

(١) الكشف ١ / ٢٧٦ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ١ / ٩٧ .

(٣) ينظر : روح المعاني ١ / ٢٤٨ .

(٤) ينظر : مفاتيح الغيب ٣ / ٤٥ .

(٥) ينظر : تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار - محمد رشيد رضا - ١ / ٢٤٦ - الطبعة الثانية - دار المنار - القاهرة

التعجيب من حال الموبّخ ، أما الاستفهام الثاني : (أفلا تعقلون) فهو للتوبيخ والإنكار ؛ لتنزيل المخاطبين منزلة مَنْ لا يعقل (١) .

هذا ما قاله المفسرون في المراد من الاستفهامين في الآية ، وقد أثبتته لأهميته ، ويزاد على ما قالوه في الاستفهام الثاني (أفلا تعقلون) ملحوظة ، حيث إنهم أجمعوا على أنه للتوبيخ وإن ضم إليه بعضهم الإنكار ، لكن يبقى شيء مهم لم يشيروا إليه فيه ، وهو إن مثل هذه التراكيب فيها حث وحض على تحقيق ما وقع في حيز الاستفهام ، وهو - هنا - التعقل والتأمل ، وقد يسمى هذا الحث والحض بـ (التهيج والإلهاب) : أي إثارة المخاطب وترغيبه في تحقيق ما أُخرج مخرج المنفي عنه ، فضلا عما يفوح من هذا الاستفهام من سخرية وتهكم بالغين .

وفي جميع الأحوال فإن الاستفهامين في الآية يفوح منهما السخرية والتهكم بهؤلاء اليهود الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، والنظم يؤكد ذلك ويؤيده ، حيث إن هذه الآية تبين أن اليهود مع كل ما فيهم من النقائص ، بل مع تجردهم من كل خير ، يظهرون للناس في ثياب الواعظين المرشدين ، ويدعون أنهم هداة مهتدين ، على حين أنهم يجمعون في دواخلهم وأفعالهم كل صفات الكفر والرذيلة ، ولذا فضحهم القرآن بهذه الآية ، وسخر منهم ، وجعلهم مضرب المثل لكل مَنْ تُخالف أقواله أفعاله ، ويُظهر للناس من الخير خلاف ما يُبطن من الشر والرذيلة .

والذي جعل أسلوب السخرية في هذه الآية لاذعا روعة التصوير، ودقة الألفاظ التي أوجت بكثير من المعاني ؛ فقد وُضِع العام في الاستفهام : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ﴾ الذي يشمل جميع بني إسرائيل موضع الخاص وهم علماء بني إسرائيل ؛ لبيان أن الفعل وإن كان صادرا من بعضهم ، إلا أنه منسوب إلى جمعهم ؛ لسكوت ذلك الجمع عن لوم علمائهم على أمرهم بالبر ثم تركهم العمل به ، وكفى بقوله : ﴿ وَتَسْوَنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، عن صفة الترك المتقدم ذكرها ، وهي أبلغ مما لو قيل : (ولا تعملون به) ؛ لأن مَنْ نسي نفسه صار كالمعدوم الذي لا وجود له ، والمعدوم لا يصدر عنه عمل ، فصار هؤلاء بنسيان أنفسهم في حكم المعدومين ، وهذا أبلغ في السخرية ، ويجوز أن تكون هذه الجملة استعارة ، شُبّه فيها الترك عن عمد أو تهاون بالنسيان بجامع انعدام النفع في كل ، ثم اشتق من النسيان بمعنى الترك (تنسون) بمعنى (تتركون) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ؛ مبالغة في ذم هؤلاء اليهود ببيان قلة مبالاتهم وفرط غفلتهم ، حيث إنهم لما طال عليهم الأمد في التهاون بالتخلق بأمور الدين ، والاجترار على تأويل الوحي بما يمليه عليهم الهوى بغير هدى صاروا ينسون أنهم متلبسون بمثل ما ينهون عنه ، فكأن البر لا يخالج نفوسهم ولا يدور لهم في خلد .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٤٧٧ .

وزيادة في السخرية من هؤلاء جيء بجملة الحال : ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ ، فصُدِّرت بذكر المسند إليه (وأنتم) ؛ للتسجيل عليهم ، وللمبالغة في تبكيتهم وتقريعهم والتهكم بهم ، حيث وضحت أنهم يقرأون التوراة ، ويدرسونها ، ويعلمون ما فيها من الحث على أفعال البر ، والإعراض عن أفعال الإثم ، ومع ذلك يخالفون ما يتلونه وما يأمرون الناس به ، والفعل المضارع (تتلون) له دور كبير في هذا التهكم ؛ لأنه يدل على تجدد واستمرار تلاوة التوراة وفهم ما فيها بما يجعل القارئ لها بمنأى عن النسيان ، وبرغم ذلك فهم يأمرون الناس بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه ، ومن ثم كانوا عرضة لسخرية القرآن اللاذعة .

ثم كانت فاصلة الآية (أفلا تعقلون) تصعيدا في حدة السخرية ؛ وإشارة إلى أن أمرهم بالمعروف مع تركهم فعله ، ونهيبهم عن المنكر مع ممارسة فعله مما يُدرك قبْحُه بالعقل والنقل معا ، كما يُشعرُ بكمال غفلتهم واضطراب حالهم ، مما يُعَدُّ ذلك أمرا قبيحا فظيحا من أحوالهم لا يَشْكُ فيه عاقل ، (وفيه أيضا دلالة على أنهم بفعلهم هذا أصبحوا مثل المجانين الذين لا عقل لهم وأنهم بمنزلة البهائم ؛ إذ لو كان فيهم خيرٌ ما فعلوا ذلك) (١) ، وفي ذلك منتهى التقريع والتبكيت والسخرية .

ومن شواهد السخرية من نزعة الكفر عند اليهود - أيضا - قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۗ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٩١] .

وهذه الآية من سورة البقرة يواصل القرآن الكريم فيها الحديث عن مواقف بني إسرائيل من الدعوة والدعاة ، ومخازيهم التي دأبوا عليها في كل العصور ، وهذا واحد من مواقفهم المؤسفة كلما دعاهم داع إلى الله ﷻ ، فبعد تاريخهم المخزي مع رسلهم ، واجهوا داعيهم إلى الإسلام بالحيل الشيطانية كما تسجل هذه الآية ؛ حيث رفضوا الإسلام ، وبرروا هذا الرفض بأن القرآن لم ينزل عليهم ، وإنما آمنوا بما نُزِّلَ عليهم وهو التوراة ، ولذا رد عليهم القرآن بالمنطق ، وأمر رسوله الكريم أن يواجههم بما يبكتهم ويلقم أفواههم الحجر بأن يقول لهم : إن كنتم مؤمنين حقا بالتوراة ، فما الذي دعاكم إلى قتل الأنبياء المبعوثين إليكم؟! إن قضية الإيمان تمنع من قتل كل نفس حرَّم الله قتلها إلا بالحق ، وأنتم تجاوزتم قتل عادي الناس إلى قتل الأنبياء ، وقتل الأنبياء محالٌ أن يكونوا مؤمنين .

فهذه الآية جاءت لتمثل برهانا عقليا ساطعا على فقدان اليهود مبدأ الاعتقاد الديني ، وأن هذه الصفة أصيلة متوارثة فيهم عبر القرون والأجيال ، ولذا سخر منهم القرآن بالاستفهام اللاذع الذي يفوح بالتبكيت والتقريع : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذا الاستفهام الساخر حمله أبو السعود على التبكيت ، وكذا الألوسي (٢) .

(١) حاشية القونوي ٣ / ٢٥٥ بتصرف .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ١ / ١٢٩ ، وروح المعاني ١ / ٣٢٤ .

وحمل الشيخ رشيد رضا معناه على التقرّيع والتشنيع (١) ، ولم يكثرث بقية الأئمة ببيان الغرض الأساسي من هذا الاستفهام ، وقد يكون الداعي إلى هذا وضوح المعنى المراد ، غير أن هذا الاستفهام - في رأيي - لا يقف عند هذا الحد الذي وقف عنده الأئمة من أن المراد به التبيكيت أو التقرّيع أو التشنيع ؛ لأنّ مَنْ يتأمل المراد منه بمعونة السياق يظهر له معنى آخر هو السخرية والتهكم من ادعائهم الإيمان بالتوراة وهي تحرم قتل النفس عدوانا وظلما ، ثم مخالفتهم لما آمنوا به ، وقتلهم الأنبياء حماة الوحي الإلهي الأمين ، فحري أن تكون هذه المعاني تابعة للسخرية والتهكم .

وبمعاودة النظر في جملة السخرية وتناولها من الناحية البلاغية يتضح أنه قد مُهّد لها بجملة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۗ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ ﴾ ، فحذف الفاعل وبُني الفعل للمفعول في جملة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ ؛ لأن الغرض هو إثبات القول لهم في نفسه ، كما أن حذف الفاعل أفسح المجال ليشمل الدعاة في كل عصر ومصر ، وكذا اتساع نطاق المقول لهم من اليهود في كل زمان ومكان ، ولو قيل : (وإذا قال لهم الرسول) مثلا ؛ لانحصر الفاعل فيه وحده ، وانحصر المقول لهم فيمن كانوا في حياته ، واتساع نطاق الفاعل والمقول له - كما هو مستفاد من الحذف هنا - هو المراد في التسجيل على جنس اليهود نزعة الكفر والتكذيب بالحق .

وذكر العام في قوله : ﴿ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ وأريد به الخاص ، وهو القرآن ؛ لنكات بلاغية منها : اندراج الخاص في العام ، وإخراج الأمر بالإيمان مخرج العموم لإقامة الحجة عليهم ، (كما أن فيه إعداما لما يسبب الحساسيات لدى المطالبين بالإيمان ؛ إذ لو ذكر اسم المنزل عليه وهو محمد ﷺ ، واسم تابعيه وهم المسلمون ، واسم المنزل المطلوب الإيمان به وهو القرآن فقال : (آمنوا بما أنزل الله على محمد من القرآن) لأحس اليهود بالكرهية والنفور ، ولفروا من الإيمان فرار الحُرّ المستنفرة من الأسد) (٢) .

فايراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق مع إيراد الجواب مقيدا بقيد ﴿ تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا ﴾ يشعر بقوة حجة الدعوة ووهن ما بني عليه الجواب من الشبهة ؛ حيث إن جوابهم فيه تعريض من القرآن بغنائهم ، وتلويح بكفرهم ؛ لأن الداعي لهم إلى الإيمان يطلب منهم أن يؤمنوا بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية ، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض ما أنزل الله عليهم ، فلم يكن إيمانهم مطابقا لما أمر الله به وهو التصديق بجميع الكتب السماوية ، ولا شك أن من آمن ببعض الكتب السماوية وكفر ببعضها يكون كافرا بجميعها .
والتعبير بالفعل المضارع (نؤمن) يشعر بالاستمرار فيما هم فيه من ضلال ودوام إيمانهم ظاهريا بالتوراة دون غيرها من الكتب المنزلة ولا سيما القرآن .

ولذا صرح النظم الكريم بكفرهم بالقرآن بعد التلويح بذلك فقال : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۗ ﴾ وهذه الجملة خبرية تشعر بالتعجب والغرابة من قولهم السابق ، وقد صدرت بالفعل المضارع

(١) ينظر : تفسير المنار ١ / ٢١٧ .

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ١ / ٨٧ بتصرف يسير .

(يكفرون) ؛ للإشارة إلى أن كفرهم لا يختص به زمن دون زمن ، فهو صورة حاضرة متجددة بتجدد دواعيه ، كما أن فيه محاكاة لتعبيرهم السابق (نؤمن) بصيغة المضارع ، وهذه المحاكاة تشعر باستمرار هؤلاء على الكفر طالما أنهم مستمرين في الإيمان بالتوراة دون بقية الكتب السماوية المنزلة ولاسيما القرآن الكريم ، والطباق اللفظي بين (نؤمن) و (يكفرون) له دور بارز في توضيح هذا المعنى وتأكيداه .

وجاءت الكناية في قوله : ﴿ بِمَا وَرَاءَهُمْ ﴾ (١) عن القرآن الكريم خصوصا ، أو عما رفضوا الإيمان به عموما ؛ لتبين جهلهم به ، حيث نبذوه وراء ظهورهم وغيبوه عن أبصارهم ، وما كان مغيبا عن الإنسان يلزم الجهل به ، والجهل بالشيء يستلزم عدم الإيمان به ، فالكناية بليغة في موقعها ؛ لأن فيها دعوى الشيء بالبينة والبرهان .

ويجوز أن تكون استعارة ، شُبَّهَ فيها ما أهملوا الإيمان به بالشيء الذي خفي عنهم ولم يروه (٢) أو أنه استعار الوراثة لـ (غير) و (سوى) استعارة تصريحية أصلية ، والتقدير : (ويكفرون بغيره أو بما سواه) ، ولا شك أن الاستعارة أبلغ من التصريح ، فلم يقل : (ويكفرون بالقرآن) ليكون كفرهم شاملا كل ما سوى التوراة ، وهذا أبلغ في الذم والتوبيخ ، ويؤيده قوله تعالى

بعده : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ ؛ وهي جملة حالية صيغت للرد على مقاتلهم السابقة : (نؤمن بما أنزل علينا) ؛ وأيضا للدلالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ ؛ لأن القرآن - وهو الحق الثابت - جاء مصدقا ومؤيدا للتوراة التي بشرت بالنبى ﷺ ، وذكرت نعوتها لا تنطبق إلا عليه ، وبذلك يكون اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم كاذبين في دعواهم ؛ لأنهم لم يؤمنوا بالنبى ﷺ الذي بشرت به توراتهم وأمرتهم بالإيمان به (٣) .

ولذا كان ختام الآية بالسخرية البالغة من نفاقهم في الدين وكذبهم بقوله : ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن

قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذا الاستفهام جاء بعد ادعائهم الإيمان بالتوراة وما فيها حين دُعوا إلى الإيمان بما أنزل الله على رسوله من القرآن ، حيث تعللوا بأنهم لا يؤمنون بكتاب لم ينزل عليهم أصلا ، وإنما يؤمنون بما نزل عليهم فقط وهو التوراة ، ومن هنا كان هذا الاستفهام الساخر ، فما داموا قد آمنوا بالتوراة على حد زعمهم فما السبب في قتلهم للأنبياء المبعوثين إليهم ؟ ! هل في التوراة نصوص تبيح لهم ذلك ؟ ! ، إن المنطق والواقع يؤكد أنهم كاذبون في دعواهم ، وأنهم لم يؤمنوا بأنبيائهم ، ولو كانوا آمنوا بهم ما قتلوهم ، ولآمنوا - أيضا - بالنبى محمد ﷺ ، ولذا فإن الاستفهام في الآية ليس على حقيقته ؛ بل مراد به السخرية والتهمك من ادعائهم الإيمان ثم قتلهم الأنبياء ، فضلا عما يوحيه من التبكيت والتفريع والتشنيع .

(١) (بما وراءه) : أي بما سواه من الكتب قاله الفراء ، وبما بعده يعني الإنجيل والقرآن قاله أبو عبيدة ، وقال الجوهري : وراء بمعنى خلف ، وقد يكون بمعنى قدام وأمام ، فهو من الأضداد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّاءٌ ﴾ الكهف : ٧٩ ، أي أمامهم ، وفي الموازنة للأمدى : (وراء) ليس من الأضداد ، إنما هو من المواراة والاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء خلفاً كان أو قداما إذا لم تره ولم تشاهده . (ينظر : فتح البيان في مقاصد القرآن ١ / ٢٢٣) .

(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام ١ / ٨٨ .

(٣) ينظر : بنو إسرائيل في القرآن والسنة لفضيلة الإمام الأكبر د : محمد سيد طنطاوي ٥٤٧ - دار الشروق - الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

وصياغة جملة الاستفهام وألفاظها توحى بكثير من المعاني والأسرار البلاغية ؛ فالتعبير بالمضارع (**تقتلون**) - مع أن القتل للأنبياء وقع من أسلافهم بقريظة قوله تعالى : (**من قبل**) - يُقصد به استحضار تلك الجناية الشنيعة وكأن الدماء تسيل أمامهم الآن ؛ كما يُنبّه على أن ارتكابهم لتلك الجريمة البشعة مستمر ، ومتجدد ، ويقع منهم المرة تلو الأخرى ؛ وأيضا للإشعار بأن الخلف يمشون على عمية السلف في التعدي والعصيان ، فقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوي قتل الرسول ﷺ ، ولكن الله ﷻ عصمه منهم ونجاه من مكرهم . وإضافة (**أنبياء**) إلى (**الله**) ؛ للتنبية على شرفهم العظيم ، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوه بالتصديق والتوقير والطاعة .

وإسناد الكفر والقتل لليهود في عصر النبوة الخاتمة مع أن القاتل هم أسلافهم ؛ لأنهم راضون بجرائم أسلافهم فصاروا شركاء لهم في قتل الأنبياء من باب المجاز العقلي كما شاركوهم في الكفر حقيقة .

وللتصعيد في حدة السخرية والاستهزاء بهؤلاء خُتم الاستفهام بالشرط التبكيّتي والناسخ : (**إن كنتم مؤمنين**) ؛ للتشكيك في دينهم ، وللقح في صحة دعواهم الإيمان بالتوراة (١) ، حيث إنَّ التعبير بـ (**إن**) التي للشك تدل على عدم الجزم بوقوع الشرط مع تحقق عدم إيمانهم ، وهذا بلا شك أبلغ في إفادة الاستهزاء ، والسخرية ، والتهكم بهؤلاء اليهود ، إلى جانب التوبيخ والتبكيّت كما أن تقييد المسند (**تقتلون**) بالناسخ (**كنتم**) فيه حكاية لحالهم الماضية ، وبيان لمبالغتهم في زعمهم الإيمان ، وحرصهم على عدم الإيمان بغير التوراة ، ولذا جاء بالمسند (**مؤمنين**) في هذا الشرط اسما بصيغة اسم الفاعل ؛ للدلالة على زعم اليهود بأن إيمانهم ثابت وفي ذلك استهزاء بهم ، وإيماءً إلى ما يحرصون على إظهاره للناس دائما بأنهم مؤمنون مصدقون بالتوراة ، ثابتون على ذلك ، وهم عن ذلك بألف معزل بدليل قتلهم الأنبياء بغير حق . ويلحظ في هذا الشرط أن جوابه محذوف تقديره : **إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم** (٢) ، أو **إن كنتم مؤمنين بما أنزل إليكم** (٣) ، وفي هذا الحذف بُعد عن التكرار الممل الذي يبعد بالكلام عن البلاغة ، فضلا عن دعوتهم إلى أعمال عقولهم ، وشحذ همهم للإيمان بما أنزل الله ، والسعي لإرضاء الله ورسوله بدلا من الكذب وامتطاء صهوة الكفر والضلال .

وكما سخر القرآن من جملة اليهود ، ونعى عليهم نفاقهم في الدين ، ونزعة الكفر المسيطرة عليهم ، سخر أيضا من أحد علمائهم بمثل ضربه الله ﷻ له ، وبرغم أن هذا المثل لواحد منهم إلا أنه منطبق تمام الانطباق على حال اليهود جميعا ، حيث إن هذا الرجل أتاه الله ﷻ من علمه وحكمته ما يشاء ، وكان من الممكن أن يتخذ هذا الرجل من عظيم ما أتاه الله نورا يهتدي ويهّدي به ، ويتخذ من ذلك لنفسه رفعة في الدنيا والآخرة ، ولكنه بدل أن يهتدي أمعن في الضلال ، وبدل أن يتجه إلى الله اندفع إلى الشيطان ، وبدل أن يسلك سبيل الله أثر

(١) ينظر : الكشاف ١ / ٢٩٧ .

(٢) ينظر : روح المعاني ١ / ٣٢٥ .

(٣) ينظر : تفسير الشعراوي ١ / ٤٦٣ .

الهوى وشهوة النفس ، وبدل أن يرتفع إلى صفوف الأخيار الأطهار انحط إلى أدنى مرحلة وإلى أسفل سافلين ، حتى انسلخ من الخلق الإنساني ليصبح أشبه بالكلب في دناءته وخسته ، وتُمعِنُ سخرية القرآن في تصوير مآل هذا الشخص ، والحالة التي ألجأ إليها نفسه ، فلا تكتفي بتشبيهه بالكلب ، وإنما تختار حالة معينة يتميز بها الكلب عن غيره من الحيوانات ، وهي أنه يلهث دائماً سواء تحمل جهداً أم لم يتحمل ، وهو منظر قبيح في الكلب يستدعي التندر والسخرية حين تتخيل صورة هذا الرجل وهو يلهث مثله ، ومصدر قبحه أنه لا تعليل له سوى أنه جبلة وطبيعة فيه ، كذلك هذا اليهودي ، في كل أحواله وقبحها لا تعليل لكل ما يصدر عنه سوى أنه طبع فيه .

يقول تعالى : ﴿ وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف ١٧٥ - ١٧٧] (*) .

في هذه الآيات من سورة الأعراف يأمر الله ﷻ سيدنا محمداً ﷺ أن يتلو على اليهود والكافرين خبر وقصة ذلك العالم اليهودي واسمه (بلعم بن باعوراء) الذي علمه الله بعض كتبه ، فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها ، حيث كفر بها ، وأعرض عنها ، ولحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغواية ، كما أخبر ﷻ أنه لو شاء لرفعه إلى منازل العلماء الأبرار ، ولكنه مال إلى الدنيا ، وسكن إليها ، وأثر لذاتها وشهواتها على الآخرة واتبع ما تهواه نفسه فانحط في أسفل سافلين ، فمثله كمثل الكلب في الخسة والدناءة ، إن طردته وزجرته يلهث أو تركته يلهث ، وهذا المثل السيء هو مثل لكل من كذب بآيات الله (١) ، ويرى أغلب المفسرين وعلى رأسهم الزمخشري أن المقصود بهذا المثل هو عالم من علماء بني إسرائيل ، وقيل من الكنعانيين اسمه بلعم بن باعوراء ، أوتي بعض كتب الله فانسلخ منها ، أي من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره (٢) .

وقد جاءت هذه الآيات لتبين الخطأ العظيم الذي وقع فيه هذا المنسلخ من آيات الله ، بعد أن أوتيتها ، فاستحق سخرية القرآن منه بصورة هي الغاية في إثبات الخسة والمهانة ، بتشبيهه بالكلب اللاهث في قوله : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثْ ﴾ وهو تشبيه تمثيلي ساخر ، أصاب مفصل البلاغة ومحرزها ؛ لأنه شبه حالة أو هيئة هذا الضال الذي انسلخ من الآيات بعد أن أوتيتها بحالة الكلب الموصوف باللهث في جميع

(*) معاني المفردات :

- انسلخ منها : خرج منها (لسان العرب - سلخ) ، " والانسلخ حقيقته : خروج جسد الحيوان من جلده ، والسلخ : إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده " (المفردات - سلخ) ، وانسلخ هذا الرجل من الآيات معناه : أنه كفر بها ، ونبذها وراء ظهره ، ولم يعمل بما توحى هذه الآيات .
- الضالين الجاهلين (المعجم الجامع - غوى) .
- أخلد : قعد وتقاوس ، وركن إلى الدنيا ، وسكن إليها ، واطمأن (المعجم الجامع - خلد) .
- يلهث : يخرج لسانه من حر أو عطش (المعجم الجامع - لهث) .
- (١) ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣ / ٤٧٦ وما بعدها بتصرف .
- (٢) لم أعر عليه في كتب أسباب النزول ، ولكنه مذكور في الكشاف ٢ / ١٣٠ ، والبحر المحيط ٤ / ٤٢١ ، وإرشاد العقل السليم ٣ / ٢٩٢ ، وفتح القدير ٢ / ٣٧٨ ، والجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٢٠ و التحرير والتنوير ٩ / ١٧٤ .

أحواله وهيبته ، وبلاغة هذا التشبيه تكمن في قوة المشبه به في الصفة المشتركة بينه وبين المشبه ، وهذه القوة تمثل برهانا قاطعا على انحطاط هذا الرجل وارتداده إلى أسفل سافلين ، كما أن هذا التشبيه التمثيلي جاء في أعقاب المعاني ؛ لتقبيح ذلك المشبه ، وذمه ، وتقريب أحواله بحال هذا الكلب اللاهث ، في الوضاعة والخسة ، ولا شك أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني وبخاصة في حالة الذم ، يكون مسه أوجع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ، كما يرى شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني (١) .

ثم إن إيثار التشبيه بالكلب دون غيره من الحيوانات كالسباع ؛ لأن " الكلب ميت الفؤاد ، وإنما لهاته لموت فؤاده ، وسائر السباع ليست كذلك " (٢) والتعبير يشير إلى زلته الدائمة كزلة الكلب في الحقارة والدناءة ، وتشبيهه بالكلب اللاهث ؛ لأنه أخس الأمثال على أخس الحالات وأبشعها ، وقد أشار ابن قتيبة إلى أن كل لاهث إنما يلهث من إعياء وعطش ، إلا الكلب فإنه يلهث في حال راحته ، وحال حركته ، فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته (٣) .

(وهذا التصوير الساخر طبق المفصل ؛ لأنه جعل هذا الضال نموذجا للذل والضعفة) (٤) وفي تصويره بالكلب اللاهث في أخس أحواله وأذلها ودوام لهته - كما يقول سيد قطب - تحقير وتعذير يحقق الغرض الديني ، ومن الوجهة الفنية صورة شاخصة فيها الحركة الدائبة ، (٥) ، وهذا التمثيل كما يرى الطاهر بن عاشور من مبتكرات القرآن الكريم (٦) .

والذي زاد من قوة السخرية هنا ، بناؤها على ألفاظ وعبارات ذات إيحاءات خاصة في الصورة الساخرة ، فقوله : ﴿ **إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ ؛ جاء ليوضح المثل ، وينبئ عن وجه الشبه ، ويفسر ما أبهم في المثل ، ويفصل ما أجمل فيه ، كما جاء - أيضا - للكنائية عن ملازمة المهانة للكلب ، وللمشبه به ، وهذا أبلغ في الذم ، وأوغل في السخرية ؛ لأن أخس الحيوانات هو الكلب ، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث ، " ومن آتاه الله العلم والدين ، فمال إلى الدنيا وأخذ إلى الأرض ، كان مشبها بأخس الحيوانات وهو الكلب اللاهث " (٧) . وكذا " الكافر إن زجرته لم ينزجر ، وإن تركته لم يهتد ، فالحالتان عنده سواء كحالتني هذا الكلب " (٨) ، وبذلك يخرج الشرط في الجملة إلى معنى التسوية كما في قوله جل شأنه :

﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة : من الآية ٦] ، كما أن مجيء الخطاب في فعل الشرط مبهما ؛ ليشمل كل مخاطب ينطبق عليه هذا المثل في كل زمان ومكان ، وتكرار الفعل ﴿ **يلهث** ﴾ من باب التأكيد باتصافه بهذه الصفة ، وأنها من طباعه ، ومجيئه مضارعا ؛ للدلالة على استمرار اللهث منه في جميع أحواله ، ومن هنا تبرز الصورة الساخرة ، في صورة حسية موجعة لذلك الضال .

(١) ينظر : أسرار البلاغة ، ص ١١٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٢٣ .

(٣) ينظر زاد المسير ٣ / ٢٩٠ .

(٤) ينظر : محاضرات في علم البيان ، د : الشحات محمد أبو سنيت ، ص ٣٩١ بتصرف - دار اللوتس للطباعة - بدون تاريخ .

(٥) ينظر : التصوير الفني ص ٤١ .

(٦) ينظر التحرير والتنوير ٩ / ١٧٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٢ / ٤٧٨ .

(٨) إرشاد العقل السليم ٣ / ٢٩٣ .

وبمعاودة النظر في الجمل التي مهدت للسخرية ، يتضح أن لها دورًا كبيرًا في إبراز تلك الصورة ، وبلوغها في التقريع والتهمك مبلغًا بعيدا ، حيث إنها أكملت الإطار العام لمستحق السخرية ، بإبراز صفات ذلك المنسلخ ، ومما يمكن التركيز عليه بلاغيا ، وله علاقة وطيدة بالصورة ما يأتي :

١- براعة الاستهلال في قوله : **﴿ وائل عليهم ﴾** ، وفي استهلال الآية ما يدعو للفت الأنظار ، واستدعاء الإنصات ؛ لأن في التعبير بفعل التلاوة ، ومجيء النظم على طريقة الأمر من باب الوعظ بصاحب القصة ، بقرينة قوله : **﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾** ، والضمير في **(عليهم)** عائد على كل من كان حاضرا من كفار اليهود وغيرهم .
والتلاوة - هنا - كناية عن القصّ ؛ أي : اقصص عليهم . والأمر بتلاوة هذا الخبر على اليهود لما فيه من التذكير لهم ، وأخذ العبرة والعظة من صاحب هذه القصة ؛ لعلهم يتعظون ، ويعتبرون مما حدث له ، كما أن إثارة فعل التلاوة في إخبارهم ؛ لأنهم كانوا قوما تغلب عليهم الأمية ، فأراد الله أن يُبلِّغ الرسول ﷺ إليهم من التعليم ما يساوون به حال أهل الكتاب السابقين في التلاوة.

٢- التعبير عن القصة بالـ **﴿ نبأ ﴾** دون الخبر ، أو القص ؛ (لأن النبأ كما يقول أبو هلال العسكري : لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر أو السائل أو المتلقي ، فضلا عن دلالاته على التهويل والتعظيم ، والخبر يكون بما يُعلم وبما لا يُعلم ، ولذا يقال : تخبرني عن نفسي ، ولا يقال : تنبئني عن نفسي) (١) ، وفي التعبير بالنبأ - هنا - ومجيئه نكرة يشعر بأن هذا الخبر له شأن عظيم وخطر جسيم ، ؛ لأنه ذكر للعظة والعبرة .

٣- الكناية عن صاحب النبأ بالموصول وصلته : **﴿ الذي آتيناه آياتنا ﴾** ؛ للدلالة على أن صاحب الصلة معروف لديهم ، وأن مضمون الصلة حال من أحواله التي عُرف بها " فصاحب هذا النبأ ممن للعرب إمام بمجمل خبره " (٢) ، وفي التعبير عنه بالموصول صونٌ للسان عن التلفظ به مع الذم والتحقير بمضمون الصلة فيه ، كما أن فيه تنبيهًا للمخاطبين أنه كان على خطأ عظيم حينما أوتي الآيات ، وانسلخ منها واتبع هواه .

٤- الاستعارة في الفعل : **﴿ انسلخ ﴾** ؛ لأن الانسلاخ حقيقته : خروج جسد الحيوان من جلده ، والسلخ : إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده (٣) ، وانسلاخ هذا الرجل من الآيات معناه : أنه كفر بها ، ونبذها وراء ظهره ، ولم يعمل بما توحىه هذه الآيات ، وعلى هذا " فالانسلاخ مستعار للانفصال المعنوي ؛ وهو ترك التلبس بالشيء ، أو العمل به " (٤) والعلاقة بينهما : الانفصال في كل ؛ حيث انسلخ من تلك الآيات كانسلاخ الجلد من الشاة . وهذه الاستعارة توحى بأن العلم الذي أوتيه هذا الرجل ، إنما هو علم على لسانه ، وليس علما في قلبه ، كما أن فيه ربطا خفيا بين هذا الضالّ وما لا يعقل ، وفي هذا منتهى الذم والتحقير ، والتهمك ، فضلا عن أن الانسلاخ من الآيات فيه مزيد مبالغة في التبرّي منها ، والبعد عنها

(١) الفروق اللغوية ص ٤١ بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ٩ / ١٧٤ .

(٣) ينظر: (المفردات - سلخ) .

(٤) التحرير والتنوير ٩ / ١٧٦ .

والإقلاع عن العمل بما تقتضيه ؛ حيث إن هذه الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية ، ولكن العلم الذي أوتيته كان حجة عليه ، لذا جاءت الفاء في قوله : ﴿ فأنسلخ ﴾ ؛ لتدل على أن انسلاخه من آيات الله كان سريعا ؛ لأنه لم يتعظ بها ، ولم يعمل بما في محتواها ، فاستحق سخرية القرآن .

٥- تصوير الشيطان وهو يتبعه عند انسلاخه من الآيات في قوله تعالى : ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ ، فيه مزيد تهكم به ؛ لأنه يوحي بتخيل صورة طريفة ناجمة من اتباع الشيطان هذا الضال ، ثم إدراكه ، والسيطرة عليه ، حتى صار قرينا له ، وهذا التعبير فيه مبالغة في اللحوق ؛ إذ جعل كأنه إمام للشيطان ، والشيطان يتبعه ، وهو من الذم بمكان (١) . وفيه تعريض بأنه أشد غواية من الشيطان .

وقرى ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ بتعدية الفعل لمفعولين ، والتقدير : فأتبعه الشيطان خطواته (٢) في الغواية ، فصار في زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين . وفي رأيي : أن الأول أبلغ في الذم والتهكم ؛ لأنه يجعل الشيطان - وهو القدوة والمثل في الغواية لهذا الضال الغاوي - تابعا لا متبوعا ، والتصريح بلفظ الشيطان هنا ؛ لزيادة التنفير منه ، واستبشاع وسوسته ؛ من حيث إن اسمه مستبشع ، وذكره مستفقع .

٦- الفعل ﴿ كان ﴾ في قوله جل شأنه : ﴿ فكان من الغاوين ﴾ يحتمل أن يكون باقيا على معناه في الدلالة على وقوع مضمون الجملة في الزمن الماضي ، ويحتمل أن يكون بمعنى (صار) ، أي : صار من الضالين الكافرين (٣) ، وهو أثر من آثار اتباع الشيطان ، والأول أوجه ، وأبلغ في الذم ؛ لأنه يفيد أن صفة الغواية متأصلة فيه . كما أن إيثار التعبير بـ ﴿ الغاوين ﴾ جمعا بدلا من قوله (غاويا) ، بالخروج بالكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وتعريف ﴿ الغاوين ﴾ ، والإتيان به على صيغة اسم الفاعل ؛ للمبالغة في وصفه بالغواية والضلال ، وأيضا لإفادة العموم والشمول ، فهم غاؤون عن كل حق وهداية ونفع وهو منهم كذلك .

٧- من الملحوظ أن ترتيب الأفعال في الآية جاء وفق ترتيبها في الحصول ؛ حيث جاء الانسلاخ أولاً ، ثم الاتباع ثانياً ، ثم كونه من الغاوين ثالثاً ، وهو ترتيب منطقي ؛ " لأنه لما عاند ولم يعمل بما هداه الله إليه ، حصلت في نفسه ظلمة شيطانية مكنت الشيطان من استخدامه وإدامة إضلاله " (٤) .

ولذا فإنه قد انسلخ من الآيات بسبب وسوسة الشيطان له ، ثم إنه لما أطاع الوسوسة ، تمكن الشيطان من مقاده فسخره ، وأدام إضلاله ، وهو المعبر عنه بـ ﴿ أتبعه ﴾ ، فصار بذلك في زمرة الغواة المتمكنين من الغواية .

كما يلحظ أن الآية صيغت بأساليب خبرية متتابعة بدون مؤكدات ؛ حيث قال : (آتيناها آياتنا - فأنسلخ منها - فأتبعه الشيطان - فكان من الغاوين) ؛ لأنها أخبار ابتدائية سيقنت للموعظة والعبرة ، فلا تحتاج إلى مؤكدات ؛ وللإشارة إلى تحقيق وقوعها ، وأنها من المسلمات

(١) ينظر : روح المعاني ٩ / ١١١ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٤ / ٤٢٢ .

(٣) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) التحرير والتنوير ٩ / ١٧٦ .

التي ينبغي عدم توجه الإنكار إليها ؛ لأنَّ من تتحدث عنه الآيات معروف عندهم .
كما يُلاحظ تكرار العطف بالفاء بين الجمل ؛ للدلالة على سرعة تغييره من حال إلى حال ،
وعدم ثباته على حال واحدة ، فهو سريع الانقياد ، سهل التحول ، غير ثابت على مبدأ ، وهذا
العطف يسمى عند البلاغيين مزوجة بين المتعاطفين ؛ وهي من المحسنات البديعية المعنوية ،
وعدها الإمام عبد القاهر من النظم الذي يتحد فيه الوضع ويدق فيه الصنع (١) ، حيث زواج
بين إتيان الآيات (وهو من جملة المعطوف عليه) واتباع الشيطان (وهو من جملة
المعطوف) في ترتيب شيء واحد عليهما وهو الغواية ، مع ملاحظة أن الانسلاخ المترتب على
المعطوف عليه هو في ذاته غواية (٢) .

٨- جملة : ﴿ **أخلد إلى الأرض** ﴾ متصلة بما قبلها ، ومبينة للسبب الذي من أجله لم يُرفع ولم
يُشرف .

" وأصل الإخلاق اللزوم ، يقال أخلد فلان بالمكان ؛ إذا أقام به ولزمه " (٣) . والمعنى : أنه مال
إلى الدنيا ، ورجب فيها ، وأثرها على الآخرة ، والجملة فيها استعارة تمثيلية ؛ شبه فيها حال
هذا المتلبس بالنقائص ، والكفر بعد الإيمان بحال من كان مرتفعا عن الأرض ، فنزل من أعلى
إلى أسفل ، وبذكر الأرض عُلم أن الإخلاق - هنا - ركوز إلى الأسفل ، وحبُّ للدنيا ، واطمئنان
إلى ملذاتها .

وإيثار التعبير بـ (**الأرض**) بدلا من (**الدنيا**) ؛ لأنها جامعة لملاذها وما يطلب منها ؛ أو لأن
الدنيا هي الأرض بمن عليها ، فمتاع الدنيا على وجه الأرض ، كما أن الأرض توحى بالضعة
والسفالة كحال الدنيا ، والمعنى : أنه أثر الدنيا الدنية على المنازل السنية ، كما أثر الضعة
والسفالة على الرفعة والجلالة ، واتباع هواه مُعرضا عن تلك الآيات الجليلة ، فانحط أبغ
انحطاط وارتد إلى أسفل سافلين ، كما أن إيثار التعبير بالفعل الماضي ﴿ **أخلد** ﴾ ؛ للدلالة على
تحقق وقوع الإخلاق منه ، والميل إلى الأرض والانجذاب إليها : كناية عن الرضا بملذات الحياة
وحدها

٩ - اتباع الهوى في قوله : ﴿ **واتبع هواه** ﴾ سخرية مصوغة في صورة الاستعارة التمثيلية ؛
حيث شبه هيئة الهوى بصورة هادٍ يدعو إلى سوء المصير ؛ فكأنَّ هواه قائده كما في قوله
تعالى : ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾ [الفرقان من ٤٣ /] ، ويجوز أن يكون (**الاتباع**) مستعارا
للاختيار والميل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، والاستعارة - لاشك - أبلغ من
الحقيقة ، في نفي العزيمة والإرادة عند من ينسلخ من آيات الله فلا يؤمن بها ، ولذا فإنه ليس
أهلا لمشية الله - تعالى - كما أن في اتباع الهوى دليلا على عدم السيطرة عليه ، وإضافة
(**الهوى**) إلى ضميره ؛ فيه زيادة في الذم والمهانة ، والتهمك .

١٠ - ومما ينبغي الإشارة إليه ، أن الصورة الساخرة ختمت بقوله تعالى : ﴿ **ذلك مثل القوم
الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ ، وهو تذييل مؤكد لمضمون الكلام السابق ، والجملة كناية عن

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص ٩٣ .

(٢) ينظر : فن البديع - د : عبد القادر حسين ٥٨ ، ٥٩ - ومباحث في وجوه تحسين الكلام ١٠٠ ، ١٠١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٢٢ .

اليهود الذين أوتوا التوراة ، وقرأوا نَعَتَ رسول الله ﷺ فيها ، وبشروا الناس بقرب مبعثه ، وكانوا يستفتحون به ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكمها (١) . ويجوز أن تكون كناية عن كل من اتصف بهذه الصفات ، وهو الذي أرجحه ، والكناية عنهم لتحقيرهم ، واستهجان التصريح بهم ؛ لأن حالهم مشابهة تماما لحال صاحب القصة ، فصفتهم كصفة صاحب الكلب لاهثا في الحاليتين ، فكما شَبَّهَ الْمُؤْتَى لِلآيَاتِ الْمَنْسَلُخُ مِنْهَا بِالْكَلْبِ فِي أَحْسَ حَالَاتِهِ ، كذلك شَبَّهَ بِهِ الْمَكْذِبُونَ بِالآيَاتِ حِينَ أوتوها وجاءتهم واضحة تقتضي التصديق بها ، فقابلوها بالتكذيب وانسلخوا منها (٢) ، وعلى ذلك فالمراد بالموصول اليهود ، وإنما عبر عنهم بالموصول وصلته ؛ لإثبات ما في حيز الصلة لهم من الذم والتقبيح لفعالهم . والتعبير باسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ الموضوع للبعيد ؛ للدلالة على بُعدهم عن الحق ، وتنزيلا لبُعد المكانة منزلة بُعد المكان ، كما أن فيه إشارة إلى أن ما ذكر من الحالة الخسيسة المنسوبة إلى الكلب ، أو إلى هذا المنسلخ ، إنما هي مثل القوم من اليهود والمشركين ، ومن على شاكلتهم ، وفيه من التهكم بهم ، والسخرية ما لا يخفى .

كما أن قوله : ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ في نهاية الآيات ؛ بيانٌ لسبب تلاوة هذه القصص عليهم وهو التفكير لأخذ العظة والعبرة ، وتعريضُ بأنهم لا يفكرون ؛ لأنهم لو كانوا يفكرون فيما حولهم من دلائل قدرة الله ووحدانيته ما احتاجوا إلى ضرب ذلك المثل ولا غيره من الأمثال ، ولكنهم لا يفكرون ، ولا يعقلون ؛ بدليل أنه قال : ﴿ يتفكرون ﴾ ، ولم يقل ﴿ يفكرون ﴾ ، ومعناه : أنهم لا يُعْمَلُونَ أفكارهم ، أو عقولهم ، وإذا فعلوا ذلك فإنهم يُجْهَدُونَ أنفسهم في التفكير ؛ لأنهم غير معتادين عليه ، وهذه الجملة فيها سخرية من طرف خفي بهؤلاء اليهود ، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

وقد جاء الموصول في قوله : (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) معادا مرة أخرى ؛ للذم بمضمون الصلة ، ولتحقيرهم بما وقع في حيزها ، ولذا قال الإمام أبو السعود : " وإعادة القوم موصوفا بالموصول مع كفاية الضمير بأن يقال : ساء مثلا مثلهم ؛ للإيدان بأن مدار السوء ما في حيز الصلة ، ولربط قوله تعالى : (وأنفسهم كانوا يظلمون) به ، فإنه معطوف على (كذبوا) داخلٌ في حيز الصلة ، بمعنى جمعوا بين التكذيب بالآيات وبين ظلمهم لأنفسهم " (٣) وهذا كله يوجب الذم والتحقير .

وكما سخر القرآن من أحد علماء اليهود بتشبيهه بالكلب اللاهث ، سخر - أيضا - من اليهود بتشبيههم بحيوان آخر من حيوانات البيئة ؛ وهو الحمار في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥] ، وهذه الآية من سورة الجمعة ، وهي سورة مدنية بالإجماع ، وسميت بذلك

(١) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣ / ٣٤٨ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٤ / ٤٢٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٣ / ٢٩٤ .

لذكر صلاة الجمعة وبعض الأحكام المتعلقة بها كالوجوب ، والتأكيد على التذكير إليها .

والمحور الرئيس الذي تدور حوله السورة الكريمة هو بيان صفات اليهود وما وقعوا فيه من الرذائل ، والتحذير من حقدهم على الإسلام والمسلمين ، وتفرغ من هذا الموضوع عدة موضوعات ، من أهمها تنزيه الله ﷻ وتقديسه عن النفاص ، وتشريف العرب بانتقال الرسالة إليهم ، والتحذير من عدم العمل بالعلم الذي يحمله الإنسان (وهو موضوع الشاهد) ، وكذا الأمر بالإسراع إلى أداء صلاة الجمعة حال النداء وعدم التأخر ، والتحذير من إضاعة أوامر الله ﷻ ، والترغيب في امتثال أمره ؛ فإنه سبب لجلب الخير والبركة (١) .

ووجه ارتباط الآية بما قبلها أنه - تعالى - لما أثبت في الآيات السابقة التوحيد والنبوة ، وبيّن أنه أرسل إلى العرب رسولا منهم في قوله ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُوْلًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ، أخذ اليهود من ذلك ذريعة لإنكار سعة رسالة النبي ﷺ ، وزعموا أنه - عليه الصلاة والسلام - بُعث إلى العرب خاصة ، ولم يبعث إليهم ، بالرغم من أن المشهور عنهم أنهم كانوا ينتظرون مبعث ذلك الرسول ليجمعهم بعد فرقة ، وينصرهم بعد هزيمة ، ويعزهم بعد ذل ، ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] ، أي : يطلبون الفتح بذلك النبي المنتظر، ويقولون : اللهم انصرنا

عليهم بالنبي المبعوث ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٩] ، وهكذا اقتضت حكمة الله ﷻ أن يكون ذلك النبي المنتظر من العرب ، لا من اليهود ، فقد علم الله ﷻ أن اليهود قد فرغ عنصرهم من مؤهلات القيادة ، وأنهم لم يعودوا صالحين لحمل هذه الأمانة ؛ لأنهم زاغوا وضلوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة والهداية ، فأزاغ الله قلوبهم وسخر منهم بتشبيه تمثيلي هو الغاية في الجزالة والفضامة ؛ حيث شبه اليهود الذين علموا التوراة وكلفوا العمل بها فقرأوها ثم لم يعملوا بما في تضاعيفها من الآيات ولم ينتفعوا بها بالعمار الذي يحمل كتبا ضخمة هي كنوز المعرفة ، وثمار العقول ، ولا ينال منها إلا التعب والمشقة ، ووجه الشبه الغباء وعدم الانتفاع بأبلغ نافع مع استصحابه والعناء بسببه .

وقد جعله الرماني من تشبيه ما لا يُعلم بالبدئية إلى ما يُعلم بالبدئية (٢) ، وجعله عبد القاهر والزمخشري ومن بعدهم من التشبه العقلي (٣) ، بيد أن من شراح التلخيص من لاحظ أن جهل الحمار بقيمة ما يحمل وهمي اعتباري ؛ لأن هذه الصفات حقيقية في الإنسان ، متوهمة في الحيوان ، وهذا التمثيل عجيب في مقامه ، يكشف عن صورة ساخرة ، متحركة ، جميلة ، وبخاصة حين تقرن الأسفار في جلالها بالحمار الصبور في غبائه ونهيقه الثائر ، فأى تناقض مثير في هؤلاء العلماء الجهلاء الذين يشبهون الحمار في الحمل وفي الغباء وعدم الإدراك ، ورحم الله الرماني ؛ حين لمح من الصورة جديدا مفيدا ؛ فجعلها عامة في كل عالم اتكل على الرواية دون الدراية ، وحفظ دون أن يستفيد ويفيد ، ذما ومثلا قائما إلى يوم الدين (٤) .

(١) ينظر : مصاعد النظر ٣ / ٨٣ ، والتحرير والتنوير ٢٨ / ٢٠٦ .

(٢) ينظر : النكت ٨٥ .

(٣) ينظر : أسرار البلاغة ٧٤ ، والكشاف ٤ / ٤٢٤ . (٤) ينظر : النكت ٨٥ .

وبمعاودة النظر في ألفاظ الصورة الساخرة تجد أنها من العمق بحيث توحى فوق ما أوحته بكثير :

فقد عبر عن علماء اليهود بالموصول وصلته ﴿ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ﴾ ؛ للذم بمضمون الصلة ؛ حيث عهد إليهم بالتوراة ، وكُفِّوا بما فيها فلم يفوا بما كُفِّوا به ، ولذا كانوا عرضة لسخرية القرآن ، حيث شبههم بالحمار الذي يحمل كتب العلم النافعة ولم ينتفع بها ، ولم يحظ منها بغير العناء والتعب ، وهذا التمثيل المقصود به التشنيع بحالهم والسخرية منهم بلا شك .

واستعار (الحمل) للتكليف بالعمل بما في التوراة ؛ تجسيدا للمعقول في صورة المحسوس وتمثيلا للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي ؛ مبالغة في بيان أن هذا التكليف كان عهدا مؤكدا عليهم حتى لكأنهم تحملوه كما يتحمل الإنسان شيئا ثقيلا وضع فوق ظهره أو كتفيه ، ولكنهم نبذوا هذا العهد ، وألقوا بما فوق أكتافهم من أحمال ، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم انقياد الأعمى لقائده ، وهو من لطائف القرآن كما يقول ابن عاشور (١) .
وفي بناء الفعل (حُمِلُوا) للمفعول - للعلم بالفاعل - إشعارٌ بعظم شأن التوراة التي كان ينبغي عليهم العمل بها ، كما أن التعبير بحرف العطف (ثم) دون غيره في قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ يوحي بأن عدم وفائهم بما عهد إليهم أعجب من تحملهم لهذه العهود .

وإمعانا في السخرية من هؤلاء الجهلاء أوتر تشبيهم بالحمار دون غيره من الحيوانات كالإبل ونحوها مما هو مخلوق للحمل والامتطاء ؛ وذلك لوجوه ذكرها الفخر الرازي أهمها أن الحمار عَلمٌ في الجهل والبله والغباء ، والتشبيه به من النكر والقبح ما لا يخفى ، فضلا عن التشنيع بحالهم ، وتعبيرهم بالذل والحقارة والبلادة ، كما أن حمل الأسفار على الحمار أتم وأعم وأسهل ؛ لكونه ذلولا سلس الانقياد ، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير كلفة ولا مشقة ، ناهيك عن المناسبة اللفظية بين (الأسفار والحمار) والتي أضفت على الصورة جرسا لفظيا معبرا(٢).

وقيد المشبه به (الحمار) بكونه (يحمل أسفارا) ؛ وهي الكتب الكبار الجامعة للعلوم النافعة (٣) ؛ للدلالة على أنه يتعب بحملها ولا ينتفع بها ، فكذا اليهود فاتهم الانتفاع بأبلغ نافع مع تكلفهم مشقة حمل التوراة وما فيها من القيم العظيمة والأخلاق الكريمة .

ولذا ذيلت الصورة الساخرة بزم حالهم في قوله : ﴿ بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ، فجاء الموصول مرة ثانية نعنا لفاعل (بئس) ؛ لإفادة الذم والتحقير لهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله ، كما أفاد الإيماء إلى علة الحكم ؛ فذمُّهم وتقريعهم إنما هو لما اتصفوا به من الكفر والتكذيب بالآيات .

وجاء قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ تذييلا آخر للإفادة ؛ بأن سوء حالهم مستمر

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٨ / ٢١٤ .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ٦ / ٣٠ .

(٣) (سفر - المعجم الجامع) .

لا يرجى منه انفكاك (١) .

وخلاصة القول : إن هذه الآية من قبيل التشبيه التمثيلي المركب ؛ حيث شبهت صورة مركبة من عدة أجزاء بصورة أخرى مثلها ، ووجه الشبه مركب - أيضا - من مجموع كون المحمول كتبا نافعة ، وكون الحامل لها حمارا لا علاقة له بها ، وفي هذا التشبيه الساخر إشارة إلى أن من موجبات نقل النبوة عن بني إسرائيل كلية أنهم وصلوا إلى حد الإيأس من انتفاعهم بأمانة التبليغ والعمل بها ، فنقلها الله - تعالى - إلى قوم أحق بها وأجدر وهم العرب .

المبحث الثاني

سخرية القرآن من رذائل اليهود ومزاعمهم الباطلة

المبحث الثاني : سخرية القرآن من ردائل اليهود ومزاعمهم الباطلة

إن القارئ للقرآن الكريم يرى بوضوح أنه قد سجل على بني إسرائيل كثيرا من الأخلاق السيئة ، والطباع القبيحة ، والمسالك الخبيثة ، والدعاوى الباطلة ؛ فقد وصفهم بالكفر ، والجحود والأنانية ، والغرور ، والجبن ، والكذب ، والمخادعة ، والعصيان والتعدي ، وقسوة القلب ، وانحراف الطبع ، والمسارة في الإثم والعدوان ، وأكل أموال الناس بالباطل ، إلى غير ذلك من الردائل التي سجلها عليهم ، واستحقوا بسببها الطرد من رحمة الله ﷻ ، وضرب الذلة والمسكنة عليهم .

ومن الأساليب البلاغية التي استخدمها القرآن الكريم في الكشف عن بعض هذه الردائل : أسلوب السخرية اللاذعة ، وبرغم ندرتها إلا أنها جاءت بليغة في مواضعها ، ومن أهمها ما يأتي :

أولا : السخرية من ردائل اليهود :

١. السخرية من جرأتهم وسوء أدبهم مع الله ﷻ :

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ ﴿١٨٢﴾ [آل عمران : ١٨١ - ١٨٢] .

جاءت هاتان الآيتان من سورة آل عمران ، وهي سورة مدنية اشتملت على ركنين مهمين من أركان الدين ، الأول : ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله ﷻ ، والثاني : ركن التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله ، وقد جاء الحديث فيها عن الغزوات بالإطنا ب كغزوة بدر وغزوة أحد ، والدروس التي تلقاها المؤمنون من هذه الغزوات (١) .

كما تناولت ردائل اليهود وصفاتهم القبيحة ، وأخلاقهم السيئة ، حيث وضحت هاتان الآيتان أنهم كانوا يتكلمون على القرآن الكريم عندما كان يدعو إلى البذل والإنفاق ، ويستتهزون بتعاليم الدين الحنيف التي تحض على الجود والسخاء ، ويصفون الله ﷻ بما هو منزه عنه .

وسبب نزول الآية الأولى : ما روي عن عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - دخل ذات يوم بيت مدارس اليهود ، فوجد ناسا من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص بن عازوراء ، وكان من علماء اليهود ، فقال أبو بكر لفنحاص : اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة ، فأمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة ، ويضاعف لك الثواب ، فقال فنحاص : يا أبا بكر ، تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا ، وما يستقرض إلا الفقير من الغني ، فإن كان ما تقول حقا فإن الله إذا لفقير ونحن أغنياء ، ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا ، فغضب أبو بكر (رضي الله عنه) ، وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، انظر إلى ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : ما الذي حملك على ما صنعت ؟ ، فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيما

(١) ينظر : مساعد النظر ٢ / ٦٨ .

زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فغضبتُ الله ، وضربتُ وجهه ، فجدد ذلك فنحاص ، فأنزل الله ﷻ رداً على فنحاص ، وتصديقاً لأبي بكر : لقد سمع الله قول الذين قالوا الآية (١) .
 " وأخرج ابن المنذر عن قتادة أنه قال : دُكِرَ لنا أنها نزلت في حيي بن أخطب لما أنزل الله تعالى قوله : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) قال : يستقرضنا ربنا؟! إنما يستقرض الفقيرُ الغنيَّ ، وأخرج الضياء وغيره من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهودُ رسولَ الله ﷺ حين أنزل الله تعالى : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) فقالوا : يا محمد ، فقير ربك يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية " (٢) .

وهي تحوي في طياتها شاهدين للسخرية :

- الأول قول اليهود : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ .

- والثاني في الرد عليهم بقوله تعالى : ﴿ وَنَقُولُ ذُرُوفُوا عَدَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

أما الشاهد الأول للسخرية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ فهو دليل على تمرد هؤلاء في الكفر والمبالغة فيه ؛ لأنهم نسبوا إلى الله ﷻ الفقر وأكدوه باناً ، ثم نسبوا إلى أنفسهم الغنى دون تأكيد للإيحاء بأن هذا الغنى وصفٌ لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد ، ولذا جاء به النظم القرآني مسبقاً بالجملة الخبرية المؤكدة باللام و(قد) : (لقد سمع الله قول الذين قالوا ..) ؛ لكون اليهود أنكروا القول بذلك على لسان فنحاص بن عازوراء ، فجاء بالجملة مؤكدة ؛ لكون إنكارهم القول بمنزلة إنكار السمع (٣) ، فضلاً عن التشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد (٤) ، كما أن التأكيد جاء في مقابل تأكيد اليهود لمقولتهم السابقة باناً والجملة الاسمية و الطباق بين (فقير) و(أغنياء) على سبيل المبالغة .

وخصص هذا القول بالسمع مع أنه - تعالى - سميع لجميع المسموعات ؛ للكناية التلويحية عن الوعيد ؛ لأن السماع لازم العلم بالمسموع ، وهو لازم الوعيد في هذا المقام ، فهو سماع ظهور وتهديد ، لا سماع قبول ورضا كما في (سمع الله لمن حمده) ، وإنما عبر بالسمع للإيذان بأنه من الشناعة بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع لفحشه وجراءته العظيمة .
 وزيادة في الرد على قولهم الساخر عبر عنهم بالموصول وصلته (الذين قالوا) ؛ لإثبات ما في حيز الصلة لهم من هذا القول الشنيع ، وفي ذلك ذم لهم ، وتحقير لشأنهم ، وفيه تهديد لهم ووعيد على مقاتلتهم الفاحشة ، كما أنه عبر عن فنحاص بصيغة (الذين) ؛ ليشمله هو وغيره من اليهود في كل عصر ومصر ، وليدلّ على أن المقصود به ليس فرداً أو جماعة معينة ، بل بياناً لطبيعة اليهود عامة .

وإمعاناً في التهديد والوعيد لهؤلاء اليهود الساخرين المجترئين على الله ، جاء بجملة (سنكتب ما قالوا) مفصولة عن سابقتها للاستئناف البياني ؛ وللإشعار بالتهديد الشديد لهم على ما ارتكبوه من خطيئات ، تمثلت في التهكم على الله ﷻ ، والاستهزاء بالنبي والقرآن ، ونظم

(١) ينظر : أسباب النزول للواحي ١٣٣ .

(٢) روح المعاني ٤ / ١٤١ .

(٣) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود ٢ / ١٢١ .

الجملة يوحي بذلك ، فقد جاء بالفعل (سنكتب) بلفظ المستقبل مسبوqa بالسین الموضوعه للتأكيد دون لفظ الماضي (كتبنا) برغم أن السياق يقتضيه ؛ لأنه تضمن المجازاة على ما قالوه ، وفيه من تأكيد التهديد والوعيد ما لا يخفى (١) ، (فقد ذكر وجود السماع أولا مؤكدا بالقسم ، ثم قال (سنكتب) مؤكدا بالسین على جهة الوعيد بمعنى : لن يفوتنا أبدا إثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء) (٢) .

والكتابة المذكورة قد تكون بمعنى : (سنكتب في صحائف الكتبة) فتكون الكتابة حقيقية والإسناد مجازي ، أو تكون بمعنى (سنحفظه في علمنا ولا نهمله) فتكون الكتابة من باب المجاز المرسل الذي علاقته السببية ؛ حيث ذكر السبب وهو الكتابة وأراد المسبب وهو الحفظ وعدم النسيان ، ويجوز أن تكون استعارة تمثيلية ؛ شبه فيها حالة حصول ذلك المسموع في علمه - تعالى - وثبوتها فيه دائما بحالة كون الشيء مكتوبا في صحيفة ليدوم ذكره ولا ينسى (٣) ، ويرى الطاهر بن عاشور أن المراد بالكتابة - هنا - عدم الصفح وعدم العفو عن قولهم السابق ، فتكون الكتابة حينئذ كناية عن المحاسبة ، والغرض البلاغي منها : التهديد (٤) .

وللزيادة في الذم عطف قوله : (وقتلهم الأنبياء بغير حق) على قوله : (سنكتب ما قالوا) ؛ لغرض بلاغي جليل هو تعداد مساوئ هؤلاء اليهود قولاً وفعلاً في كل زمان ومكان ؛ إذ القول في هذه الآية أشنع الأقوال في الله تعالى ، والقتل أشنع الأفعال التي فعلوها مع أنبياء الله ﷺ ، فجمع العطف بين أسوأ أقوالهم وأسوأ أفعالهم ؛ إيذانا بأن قتل الأنبياء وافتراءهم على الله في العظم أخوان ، وبأن هذا ليس بأول ما ركبوه من العظائم ، وأنهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق ، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول (٥) .

ونسبة القتل إلى المعاصرين للعهد النبوي مع أنه حدث من أسلافهم ؛ لأنهم رضوا به ولم ينكروه ، فكأنهم مشاركون فيه ، وللنصر الرازي رأي وجيه في إضافة قتل الأنبياء إليهم ، حيث يرى أن فيه وجهين :

الأول : أن الله ﷻ سيكتب ما قال هؤلاء وما فعله أسلافهم ، فيجازي الفريقين بما هو أهله .
والثاني : أنه سيكتب على هؤلاء ما قالوه بأنفسهم ، ويكتب عليهم رضاهم بقتل الأنبياء ، فيجازيهم على ذلك (٦) .

ويلحظ أن النظم القرآني وصف قتلهم للأنبياء بأنه (بغير حق) مع أن هذا الإجماع لا يكون بحق أبدا ؛ وذلك للإشارة إلى أنهم لانطماس بصيرتهم وعتوهم في الشر قد صاروا أعداء للحق ، معتدين عليه ؛ وللتسجيل عليهم أن هذا القتل للأنبياء كان بدون وجه حق في شريعتهم ، فإنها قد نهتهم عن القتل ، فهذا القيد من باب الاحتجاج عليهم بما نهت عنه شريعتهم ؛ لتخليد مذمتهم في كل زمان ومكان (٧) ، ومجيء (حق) نكرة لعموم النفي ، بحيث يتناول الحق الثابت ، والحق المزعوم ، والحق الموهوم ؛ للدلالة على أنهم لم يكونوا معذورين بأي نوع من أنواع العذر في هذا الاعتداء ، فلم يعتقدوا أنه الحق ، ولم يزعموه ، ولم يتوهموه ، بل فعلوا ما فعلوا وهم يعلمون أنهم على الباطل ، فكان فعلهم إجراما في باعته ، وإجراما في حقيقته ، وأبلغ إجرام في موضوعه (٨) .

- (١) ينظر : البحر المحيط ٣ / ١٣٦ .
(٢) ينظر : حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ٦ / ٤٣٠ .
(٣) ينظر : الكشاف ١ / ٦٦٧ .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير ٤ / ١٨٤ .
(٥) ينظر : الكشاف ١ / ٦٦٧ .
(٦) ينظر : مفاتيح الغيب ٩ / ١٢٢ .
(٧) ينظر : بنو إسرائيل في القرآن الكريم ٤٢٥ .
(٨) ينظر : تفسير الآيات الكريمة للشيخ محمد أبي زهرة - مجلة لواء الإسلام - العدد الثاني - ١٩٦٣ م .

ويلحظ - أيضا - أن النظم القرآني جاء بلفظ (الأنبياء) جمعا ؛ ولفظ المضارع (يقتلون) للدلالة على كثرة القتل وشيوعه فيهم مع استمرار هذا الفعل الشنيع منهم ، وهذا من أبلغ الذم وأوجعه .

ولما كان الصادر منهم قولاً وفعلاً ناسب أن يكون الجزاء قولاً وفعلاً أيضا ، فتضمن القول والفعل قوله تعالى : (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) ، وهذا هو الشاهد الثاني للسخرية في الآية ؛ حيث إن هذه الجملة جمعت بين الانتقام بالقول : (ذوقوا) ، والانتقام بالفعل : (عذاب الحريق) ، وموطن السخرية في هذه الجملة نابع من فعل الأمر (ذوقوا) ، وهو أمر غرضه الإهانة والتحقير والتهكم بهم ؛ لأن الذوق في حقيقته : إدراك المطعوم والمشروب والتلذذ به ، واستعماله في ذوق العذاب استعارة تبعية تهكمية (١) ؛ حيث نزل التضاد بين الحاصل من ذوق المطعومات والمشروبات - وهو اللذة والسرور - والحاصل من عذاب الحريق - وهو الألم - منزلة التناسب ، مع أنه لا تناسب بينهما البتة إلا المبالغة في التهكم بهؤلاء اليهود .

ويجوز أن يكون الذوق مجازا مرسلا في الإحساس بالعذاب لعلاقة الإطلاق والتقييد (٢) ، ويحتمل أيضا أن تكون الجملة كناية عن الوعيد وإن لم يكن هناك قول (٣) ، وأيا ما كان الأمر فإن الجملة فيها من المبالغات في التهديد والوعيد ما لا يخفى على الرغم من قصرها ؛ حيث ذكر فيها العذاب ، ووصف بالحريق ، وهي صيغة مبالغة بمعنى (محرق) كألیم بمعنى مؤلم ، أو أن الحريق : طبقة من طباق جهنم ، أو أن الحريق الملتهب من النار ، والغرض من وصف العذاب بالحريق المبالغة في إظهار شدة لهيبه وإحراقه .

وفي قوله ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ إشارة إلى العذاب المشاهد يومئذ ، وبيان للسبب الذي من أجله يقال لهم ذلك بدليل دخول باء السببية على (ما) الموصولة للتنبية على أن هذا العذاب لعظم هولاه مما يتساءل عن سببه ، واستعمال اسم الإشارة (ذلك) الموضوع للبعيد مكان اسم الإشارة للقريب (هذا) ؛ للدلالة على عظم شأنه ، وبعده منزلته في الهول والفظاعة ، والتعبير بـ (الأيدي) من باب المجاز المرسل لعلاقة الجزئية ، حيث ذكر الجزء وهو (الأيدي) وأراد الكل وهو (الأنفس) ؛ لأن أكثر الأعمال تزاوُل بهن فجعل كلَّ عملٍ كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب (٤) ، وختمت الآية بالتذييل : (وأن الله ليس بظلام للعبيد) ، وجيء به معطوفا على مجرور الباء ؛ للدلالة على أن هذا العذاب له سببان : ما قدمته أيديهم ، وعدل الله تعالى ، فما قدمته أيديهم أوجب العذاب ، وعدل الله أوجب كون هذا العذاب في مقداره المشاهد من الشدة ، حتى لا يظنوا أن في شدته إفراطا عليهم في العذاب (٥) .

والخلاصة : إن الآية : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

وَقَتْلَهُمُ الْآنبيَاءَ بِعَمْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ تضمنت سخريتين ، الأولى : سخرية

(١) ينظر : حاشية القونوي ٦ / ٤٣٢ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٤ / ١٨٤ .

(٣) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢ / ٣٢٠ .

(٤) ينظر : الكشاف ١ / ٦٦٨ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ٤ / ١٨٥ .

اليهود من الله ﷻ ، ثم سخرية الله ﷻ منهم ، مع عدة مبالغات في التهديد والوعيد ، وهذه المبالغات تتمثل في الآتي :

- التعبير عن الوعيد بلفظ (لقد سمع) على طريق الكناية التي هي أبلغ من الحقيقة ؛ لما فيها من إثبات الشيء بالبينة والبرهان .

- اختلاف الفاعلين الدالين على ثبوت ما قالوا في جميع الأزمنة (قالوا) ، (سنكتب) .

- التعبير عن إثبات قولهم بلفظ الكتابة للدلالة على أن قولهم ذلك محفوظ لا يغيب عن علم الله ﷻ إلى وقت الانتقام .

- ضم قتلهم الأنبياء إلى ما قالوا إشعاراً بأن قولهم وفعلهم جرائم عظيمة توجب الذم والتقيح .

- التعبير عن الانتقام بقوله : (ذوقوا عذاب الحريق) على طريق الكناية ، أو المجاز المرسل ، أو الاستعارة لغرض التهكم والسخرية من هؤلاء ، مع المبالغة في التهديد والوعيد ، ولا يظلم ربك أحداً .

٢. السخرية من قتلهم الأنبياء :

ومن ردائل اليهود وجرائمهم العظيمة التي كانت سببا في غضب الله ﷻ عليهم ، جريمة قتل الأنبياء والمرسلين ، وهي أعظم جريمة في الوجود ، حيث توعدهم الله ﷻ بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، وغلف هذا الوعيد بالسخرية اللاذعة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٢١ - ٢٢] .

وروي في سبب نزول هذه الآية ما رواه العباس المبرد أن ناساً من بني إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله ﷻ فقتلوه ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمرهم بالإسلام فقتلوه ، ففيهم نزلت هذه الآية ، وكذلك قال معقل بن أبي سكين : كانت الأنبياء - عليهم السلام تجيء إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم ، فيقوم قوم ممن اتبعوا الأنبياء ، فيأمرون بالقسط أي بالعدل فيقتلون ، وروى عن أبي عبيدة بن الجراح أن النبي ﷺ قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عبادة بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية (١) .

والآيتان السابقتان جاءتا استئنافاً لبيان بعض أحوال اليهود المنافية للخير والرشاد ؛ حيث اشتملت الآية الأولى على جملة من الردائل التي عرفوا بها على مر العصور ، فقد كفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين بغير حق ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ولذا جاءت السخرية منهم لاذعة مؤلمة في قوله تعالى : (فبشرهم بعذاب أليم) ، والسخرية في هذا القول آتية من فعل الأمر : (بشر) ؛ حيث استخدم لفظ البشارة في موضع الإنذار والوعيد وهو على خلاف المعهود ؛ إذ إن البشارة تعني : الإخبار بما يسر ، والتبشير هنا بالعذاب ، فأى فرح وأي سرور تدخله هذه البشارة على اليهود وهي تتضمن العذاب الأليم ، فهذا الفعل استخدم في غير موضعه

(١) ينظر : تفسير أبي السعود ٢ / ١٩ ، والجامع لأحكام القرآن ١٢٨٨ طبعة الشَّعب .

لكن الله ﷻ لما أراد السخرية بهم ، أنذرهم بما أعد لهم من العقوبة على غير الطريقة المألوفة ؛ ليكون أدعى إلى توبيخهم والإنكار عليهم بما اقترفوه من الكفر والجرائم العظيمة ، فهؤلاء لما كفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء والصالحين ، استحقوا أن يجازيهم الله ﷻ من جنس عملهم ، فجاء بلفظ ظاهره الرحمة وباطنه العذاب والثبور ، فاستعار لفظ البشارة - وهي الإخبار بما يسرّ للإنذار ، وهي الإخبار بما يسوء ، فنزل التضاد منزلة التناسب ، وشبه الإنذار بالتبشير بجامع السرور في كل ؛ تحقيقاً في التبشير وتنزيلاً في الإنذار ، ثم اشتق من التبشير (بشر) بمعنى (أنذر) على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية ، وقد يكون الفعل (بشر) بمعنى (أخبر) ، فيكون حينئذ مجازاً مرسلًا تهكمياً ، والغرض منه سواء كان استعارة تبعية تهكمية ، أو مجازاً مرسلًا تهكمياً هو الاستخفاف بعقولهم والتعريض بقلة بصيرتهم ، وفي وقوع الفاء في الخبر (فبشرهم) ما يفيد أن الجزاء مسبب عما فعلوه واتصفوا به .

فالجمل - على قصرها - حملت لليهود سخرية لاذعة ، وردت عليهم بجنس عملهم ، ولا شك أن وصف العذاب بالأليم بمعنى (المؤلم) ؛ للمبالغة في شدة الألم من باب المجاز العقلي ، كما أن تنكير (العذاب) وإفراجه من باب التهويل والتعظيم ، وفي ذلك كله تهديد لهم ووعد على سوء فعلهم .

ومما لا شك فيه أن بداية الآية - التي منها هذه السخرية - مما ينبغي التوجه إليها بالتحليل البلاغي ؛ لصلتها الوثيقة بنهايتها الساخرة ، حيث إنها بمنزلة تمهيدٍ وسببٍ للسخرية اللاذعة ، فقد بدئت بقوله تعالى : (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ..) ، وهي بداية غاضبة قوية جاءت مؤكدة بأن ؛ لتؤكد غضب الله على هذا الصنف من الناس الذين ارتكبوا الجرائم العظيمة بقتل الأنبياء والصالحين ، وفي التعبير عنهم بالموصول وصلته ذمٌ لهم بما في حيز الصلة ، وإيماءً إلى وجه بناء الخبر مع الذم والتحقير ، ولو حذف الموصول وصلته ووضع مكانه الاسم الظاهر فقال : (إن اليهود لهم عذاب أليم) لما كان له من الدلالة مثل ما جاء به الموصول ، حيث إن جملة الصلة أثبتت لهؤلاء اليهود أفعالا عرفوا بها واشتهروا بإتيانها ، وأصبحت مذمة ومنقصة في حقهم يذمون بذكرها وعند سماعها إلى يوم الدين .

ويلحظ أن النظم القرآني أتى بصلات الموصول أفعالا مضارعة : (يكفرون) ، (يقتلون) ؛ للدلالة على الاستمرار والتجدد باعتبار أن هذا السلوك الإجرامي طبيعة في اليهود ؛ فهم قتلوا الكثير من أنبياء الله ﷻ ، ولم يكتفوا بذلك ، بل حاولوا قتل الرسول ﷺ في المدينة ، كما أن فيه دلالة على استحضر تلك الصورة العجيبة والحالة الفظيعة التي كانوا عليها ؛ ولتشمل في المستقبل كل من يصنع ذلك الصنيع (١) .

وأبرز النظم الكريم اسم الله الأعظم (الله) بدلا من ضميره سبحانه ؛ للإشارة إلى عظيم كفرهم بما أضيف إليه من الآيات .

كما كرر الفعل (يقتلون) مرتين ؛ للإشعار بما بين القتلين من التفاوت ، فقتل الأنبياء أعظم من قتل غيرهم من الأولياء والصالحين وإن كان الجميع عند الله عظيما ، وربما يكون ذلك لاختلافهما في الوقت ، أو لتأكيد قبح ذلك الفعل منهم وزيادة في لومهم (٢) .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٣ / ٢٠٦ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٣ / ٧٩ ، والدر المصون ٢ / ٥١ ، ونظم الدرر ٤ / ٢٩٩ - ٢٠٠ .

وجاء لفظ (النبيين) معرفة في قوله : (ويقتلون النبيين) برغم أنهم لم يقتلوا جميع الأنبياء ؛ للدلالة على استهانتهم بمقام النبوة ومقام الدعوة إلى الحق ، فاعتدوا ذلك الاعتداء الشنيع على بعض الأنبياء ، فكان ذلك بمثابة اعتداء على الجميع وكأنهم قتلوا جميع الأنبياء مصداقا لقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

ونص - سبحانه - على أن قتلهم للأنبياء كان بغير حق مع أنه لا يكون بحق أبدا ؛ لأنه لما كان قتلهم إياهم بدون شبهة أصلا ، بل لمحض الكفر والعدا ، كان التعبير بهذا القيد فيه إحياء ببيان عظم ذنبهم وزيادة تشويه فعلهم ، من حيث إنهم إنما باشرُوا قتل هؤلاء القدوات ميلا منهم إلى الظلم المحض ، لا لأجل حق ثابت في نفس الأمر ولا في زعمهم الباطل ما يدعوهم إلى القتل (١) .

وجدير بالذكر ومما يجدر الإشارة إليه أن النظم الكريم قال في سورة آل عمران ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران : ٢١] ، وقال بعدها في السورة نفسها : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران : ١١٢] ، وفي سورة البقرة قال : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وبالنظر في هذه السياقات يتضح اختلافا وتباينا ؛ ففي الآية المتحدث عنها هنا نكرت لفظة (حق) ، وكذلك في الآية الأخرى من السورة نفسها ، بينما في سورة البقرة عرّفت كلمة (الحق) ، كما اختصت الآية الثانية في آل عمران بجمع التكسير (الأنبياء) ، بينما أتت في سورة البقرة والآية الأولى من سورة آل عمران جمع مذكر سالما (النبيين) ، والسر في ذلك كما يقول الكرمانى : أن تعريف (الحق) في سورة البقرة ؛ لأن المقصود به الإشارة إلى الحق الذي أذن الله أن تقتل النفس به وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الإسراء : ٣٣] ، فكان الأولى أن يذكر معرفّا ؛ لأنه من الله تعالى ، وما في سورة آل عمران نكرة : أي بغير حق في معتقدهم ودينهم فكان التوكيد أولى .

وجمع (النبيين) جمع مذكر سالما في (البقرة) لموافقة ما بعده من جمع السلامة (الصابنين) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٢] ، وكذلك لموافقة جمع السلامة (ناصرين) في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٢٢] ، بخلاف جمع التكسير في سورة آل عمران (٢) .

وبالرجوع إلى التحليل البلاغي السابق يتضح أنّ الله ﷻ بعد أن دمجهم بجريمة قتل الأنبياء - وهي أعظم جريمة في الوجود - عقبها بجريمة ثالثة من جرائمهم في قوله تعالى : (ويقتلون

(١) ينظر : الكشاف ١ / ٢١٥ ، والتفسير الكبير ٧ / ٢١٥ ، والتحرير والتنوير ٣ / ٢٠٦ .

(٢) ينظر : أسرار التكرار في القرآن الكريم ٣٠ - ٣١ .

الذين يأمرون بالقسط من الناس) ، حيث وصف - سبحانه - الذين يأمرون بالقسط بأنهم من الناس مع أنهم منهم حتما ؛ للإشارة إلى أنهم ليسوا بأنبياء ولا مرسلين ، بل هم من الناس غير المبعوثين ، وفي قرنهاً بالأنبياء تنبيه على علو منزلتهم وصدق جهادهم (١) .
ثم إن التعبير عنهم بالموصول وصلته للمدح والثناء عليهم بهذه الصفة ، فضلا عن إضافة وصف جديد إليهم يستحقون عليه الثناء والتكريم في مقابل الذم واللعن والعذاب الأليم لقتلة الأنبياء والمرسلين .

وبعد أن سخر من اليهود قتل الأنبياء بقوله : (فبشرهم بعذاب أليم) زاد في تبيينه لهم ببيان أنهم لو صدر منهم عمل صالح فيما يرى الناس فهو مردود عليهم بسبب ما هم مقيمون عليه من تلك القبائح والجرائم العظيمة ، حيث قال : (أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين) .

فأشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) ؛ للدلالة على بُعد منزلتهم في الشر ، وسوء حالهم ، وبلوغهم في الكفر والإجرام مبلغا بعيدا ، والإشارة إليهم لتمييزهم عن عداهم أكمل تمييز بحيث يصيرون كأنهم حُضراً مشاهدون على ما هم عليه وما هم فيه من معنى البُعد الحسي والعقائدي .

واتبع اسم الإشارة بالموصول وصلته (الذين حبطت أعمالهم) ؛ لزمهم بما في حيز الصلة وتحقير شأنهم ، والتحقير من معاني السخرية ، ولو حذف الموصول ووضع مكانه أي لفظ آخر ما أدى المعنى الذي أداه الموصول من التحقير والسخرية فضلا عن التهديد والوعيد ، وقد جاء الموصول مسندا ليفيد قصر المسند على المسند إليه ، على اعتبار أنه بمعنى المعرف بلام الجنس ، فيكون القصر ناشئا من طريق تعريف الطرفين ، أي هم الذين حبطت أعمالهم دون غيرهم ، وهو قصر ادعائي يفيد المبالغة في انعدام أي فائدة لأعمال هؤلاء اليهود في الدنيا والآخرة ، وأنه لا قيمة لها البتة ، ولن تغني عنهم من عذاب الله من شيء .

وجاء بجملته الصلة فعلها ماض (حبطت) للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة ، و أثر التعبير بالفعل (حبطت) دون (بطلت) ونحوه ؛ ليفيد إزالة آثار الأفعال النافعة من ثواب ونعيم في الآخرة ، و حياة طيبة في الدنيا ، فضلا عن التلويح بالسخرية من هؤلاء ؛ لأن الفعل (حبط) مأخوذ من الحبط ، وهو مرض يصيب الإبل بالانتفاخ في بطنها ثم يكون سببا في موتها برغم أنها أكلت ما أكلت للتلذذ به (٢) ، وإطلاق الحبط على إبطال الأعمال استعارة تمثيلية ، حيث شبه حال اليهود الذين عملوا الصالحات لتتفهم في الآخرة فلم يجدوا لها أثرا بالماشية التي تأكل الحبط وتستأذ بأكله حتى يصيبها الانتفاخ المميت ، بجامع التلذذ بعمل مبهج مع الجهل بعواقبه الوخيمة في كل ، وهو تمثيل ساخر رائع أصاب المحز وطبق المفصل ؛ لأنه أفاد أن لهؤلاء القوم أعمالا حسنة ، ولكنها مجرد صور لا معاني لها ؛ لفقدتها الأساس الذي تقوم عليه .

ويلحظ أن النظم الكريم لم يقيد (الأعمال) بقيد ؛ وذلك لإفادة العموم والشمول ، فتشمل كل الأعمال الدينية والدنيوية ، كما أسقطت كلمة (الحياة) ؛ للإشارة إلى أنه لا حياة لهم في واحدة من الدارين الدنيا والآخرة (٣) ، والطباق بين (الدنيا والآخرة) وضح ذلك المعنى وأكدته .

(١) ينظر : بنو إسرائيل في القرآن الكريم ٤٢٧ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٣ / ٢٠٧ .

(٣) ينظر : نظم الدرر ٣ / ٣٠١ .

وجاء ختام الآية بالتذليل (ومالهم من ناصرين) ؛ لإفادة التهديد والوعيد ، ولبيان أن عذاب الله واقع بهم لا محالة ، وليس هناك من يدفعه عنهم ، أو يمنعه منهم .
وجاء بـ (ناصرين) جمعا ؛ لأنه وقع مقابل ما للمؤمنين من شفاع كالملائكة والنبیین والشهداء والصالحين ، فليس لهؤلاء اليهود ناصرون مثل المؤمنين ، أو (أن هؤلاء الكفرة لما وصفوا بأنهم يقتلون الذين يأمرون بالقسط وهم ناصروا الحق ، ولا يوجد فيهم ناصر يحول بينهم وبين قتل أولئك الكرام ، فقولوا لذلك بعذاب لا ناصر لهم منه ولا معين لهم فيه) (١) .

٣. السخرية من البخل واكتناز المال :

وإذا كان البخل صفة غير غريبة على الناس ، بل موجودة في كل عصر ومصر ، فإن بخل اليهود يتميز عن البخل العادي من ناحيتين : أنه ليس مجرد حرص عادي على ما في اليد وإنما سيطرة متغلغلة في النفس لأقصى ما يتصور من حرص وشح نابعين من سيطرة حب الذات ، والناحية الثانية : أن البخل في الناس صفة فردية ، أما عند اليهود فإنه خلق جماعي يسيطر عليهم جميعا كعنصر وسلالة (٢) ، واستحكام هذه الطبيعة في اليهود نتيجة مباشرة للانانية المتطرفة فيهم ، والتي تتمثل في سيطرة حب الذات ، وجموح الرغبة في تملك كل شيء والحرص عليه ، ولذا كانت سخرية القرآن منهم في هذا الجانب قاسية ، حيث قال تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا

عَالِ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ [النساء : ٥٣ - ٥٤] ، والسخرية من بخل اليهود في هذا الشاهد بلغت أقصى ما يتصور من تصوير لبخل البخيل ، حيث تجعلهم في وضعين متباينين متباعدين ، أحدهما أن السخرية تفترض أنهم لو كانوا يملكون جانباً من ملك عظيم ، فإنهم مع ملكهم الكبير حينئذ ، وبرغم أن الملوك يتميزون بالسخاء والبسطة في العطاء ، إلا أن هؤلاء اليهود لو قدر لهم أن يكونوا ملوكاً لن يعطوا أحداً نقيراً لو طلب منهم ، والنقير : النقرة في ظهر النواة (٣) ، وفي هذه المبالغة غاية السخرية بهم والتهكم ، وتنكير (نقيراً) يوحي بالقلّة والحقارة ، وليس المراد من الكلام حقيقته ، وإنما المراد به التعبير عن أقصى ما يتصوره العقل من الشح لوصف هؤلاء اليهود به ، والإشارة إلى أنهم في حرصهم وبخلهم الشديد لا ينظرون إلى قيمة ما قد يعطونه ، فسواء في بخلهم الشيء الكبير والشيء الصغير ، والتمين والتافه ، وإنما المانع لهم من البذل هو شعور نفسي مسيطر بالحرص على كل شيء والضن به ، سواء كان ذا قيمة أو لم يكن .

والشاهد الرئيس للسخرية في هذا الجانب واضح في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها في سبيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارٍ

(١) روح المعاني ٣ / ١١٠ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ص ٢٦٠ .

(٣) ينظر : الكشاف للزمخشري ١ / ٤٠٢ .

جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۗ هَٰذَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة : ٣٤ - ٣٥] .

والأخبار علماء اليهود ، والرهبان مجتهدوا النصرى في العبادة ، وهؤلاء كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وقروضا باسم الكنائس والبيع وغير ذلك مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله ﷻ ، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال ويكنزونها لأنفسهم (١) . والآيتان الكريمتان من سورة التوبة استئناف ابتدائي قصد منه الشروع في بيان حال الأخبار والرهبان في إغوائهم لأرذلهم ، إثر بيان حال الأتباع في اتخاذهم أربابا يطيعونهم في الأوامر والنواهي ، واتباعهم لهم فيما يأتون ويذرون (٢) ، كما جاءت الآيتان إثر ما ذكره الله للناس من قول اليهود : إن عزيرا (٣) ابن الله وقول النصرى : المسيح ابن الله ، تشنيعا على قائل ذلك من أهل الكتاب بأنهم بلغوا الغاية في الكفر حتى تساوا مع المشركين من العرب واليونانيين وغيرهم في ذلك الفعل الشنيع .

وفي هاتين الآيتين يبين الله ﷻ للذين آمنوا مصير الذين يأكلون أموال الناس بالباطل من الأخبار والرهبان ومن على شاكلتهم من المسلمين بأن لهم عذابا أليما تُكوى فيه جباههم وجنوبهم وظهورهم بنار محرقة شديدة الإحراق ، وقد صور القرآن ذلك المشهد بأسلوب شديد السخرية من هؤلاء الكانزين الأكلين أموال الناس بالباطل . وظهرت هذه السخرية في موضعين :

الأول في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

والثاني في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۗ هَٰذَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، والسخرية في الموضعين لا تنهى عن اكتناز المال بصريح اللفظ المألوف ، وإنما تأمر النبي ﷺ أن يذف إلى الكانزين بشرى ، ولما كان المال حبيبا إلى النفوس ، ويقترن جمعه واكتنازه بالسرور في نفوس المولعين به ، فإنهم حين يسمعون أنه ستزف إليهم بشرى تتعلق بالمال تنتشر صدورهم ، وتسعد نفوسهم ، ولكن هذه البشرى سرعان ما تتحول إلى تعاسة ، وحسرة عظيمة ، وحزن عميق حين يفاجأون بما لا يخطر لهم على بال ، حيث إن هذه البشرى التي كانوا ينتظرونها هي البشرى بالعذاب الأليم ، ويزداد الحزن والحسرة حين يعلمون أن مالهم الذي قضوا حياتهم في جمعه واكتنازه سيكون أداة لهذا العذاب الأليم ، حيث سيتحول ذهبهم وفضتهم إلى مكاو يحمى عليها في نار جهنم ، ثم تنهال عليهم في كل موضع من أجسامهم يكوى فيه عادة ، كما يرون الإبل مثلا وهي تكوى

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٩٦١ .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود ٦٢ / ٤ .

(٣) عزير : اسم حبر كبير من أخبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي ، واسمه في العبرانية (عزرا) بن سرايا من سبط اللاويين ، كان حافظا للتوراة ، وقد تفضل عليه كورش ملك فارس فأطلقه من الأسر ، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل ، وأذن لهم بالرجوع إلى أورشليم وبناء هيكلهم فيه ، وذلك في سنة ٤٥١ قبل ميلاد المسيح ، فكان عزرا زعيم أخبار اليهود الذين رجعوا بقومهم إلى أورشليم ، وجددوا الهيكل وأعادوا شريعة التوراة من حفظه ، فكان اليهود يعظمون عزرا إلى حد ادعاء عامتهم أنه ابن الله ، غلوا منهم في تقديسه ، والذين وصفوه بذلك جماعة من أخبار اليهود في المدينة ، وتبعهم كثير من عامتهم . ينظر : الكشف ٣ / ٣٣ ، والتحرير والتنوير ١٠ / ١٦٧ - ١٦٨ .

ولكنهم يزداد لهم موضعٌ يُكوونَ فيه لا يُؤلف فيه الكيِّ حتى في البهائم ، وهو الجباه ، ثم تزداد حدة السخرية وتبلغ الغاية بقول ملائكة العذاب لهم : (هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

هذا عن بيان السخرية في الآيتين ، أما عن بلاغتها فقد مهّد لها النظم الكريم بالنداء (يا أيها الذين آمنوا) ، حيث جاء الموصول تابعا للمنادى (أيها) ؛ لاسترعاء الانتباه ، وللاهتمام بما سيقال لهم ، ووصفهم بالإيمان المعبر عنه بالفعل الماضي الذي يدل على تحقق الوقوع واستقرار الإيمان في نفوسهم ؛ ليتقبلوا ما سيلقى عليهم ، وليحذروا من متابعة أو مخالطة هؤلاء الأخبار والرهبان لما اتصفوا به من صفات ذميمة ، وفي نعتهم بالإيمان وندائهم من قبل الرحمن إشارة إلى تحقق هذا الوصف فيهم ، وفي ذلك تشریف لهم وتعظيم لشأنهم ، ومدحٌ وثناءٌ عليهم ، وفي ابتداء الجملة بالنداء واقترانه بحرف التأكيد للاهتمام بمضمونها ، ورفع احتمال المبالغة فيه لغرابته .

وبعد النداء أردف بقوله : (إن كثيرا من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) والأكل - هنا - مستعار للأخذ استعارة تصريحية تبعية ، و(الأموال) مجاز مرسل بعلاقة السببية ؛ حيث ذكر السبب وهو الأموال وأراد المسبب وهو الأكل ، والقريظة استحالة أكل الأموال ؛ والغرض البلاغي للاستعارة أو المجاز المرسل المبالغة في بيان أنه أخذ بالباطل ، فضلا عن تحقير الأخبار والرهبان بفعل ما ينافي مقامهم الذي أقاموا أنفسهم فيه ، وكذا تقبيح حالهم وتنفير السامعين منهم لأنهم سمحوا لأنفسهم - وهم يدعون العزة والكرامة - أن يأخذوا الرشى ونحوها فيكنزونها ولا ينفقونها في سبيل الله .

وقيد الأموال المأكولة بأنها (بالباطل) ؛ للزيادة في المبالغة ؛ وللدلالة على أنها أموال مكنوزة بطريق غير شرعي من طريق تخفيف الأحكام ، والمسامحة في الشرائع ، وتغييرها لموافقة أهواء الناس ، أو خداعهم بأنه لا سبيل لأحد منهم إلى الفوز بمرضاة الله ﷻ إلا بخدمتهم وطاعتهم ، وبذل الأموال في طلب مرضاتهم (١) .

وبعد الإخبار عن إقبالهم على الدنيا أتبع ذلك بالإخبار عن إعراضهم عن الآخرة بقوله : (ويصدون عن سبيل الله) فاستعار سبيل الله للدين الموصل إليه سبحانه ، أو للمسلك المقرر في التوراة والإنجيل (٢) ، استعارة تصريحية أصلية ؛ ثم عطف بعدها بالواو قوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) ، ووصل بين الجملتين بالواو للتوسط بين الكمالين ؛ حيث اتحدت الجملتان في الخبرية ، واتحدتا - أيضا - في أن كليهما تنبيهٌ على مساوئ أقوام يضعهم الناس في مقامات الرفعة والسؤدد وليسوا أهلا لذلك ، فمضمون الجملة الأولى : بيان مساوئ أقوام رفع الناس أقدارهم لعلمهم ودينهم وكانوا منطوين على خبائث خفية ، ومضمون الجملة الثانية : بيان مساوئ أقوام رفعهم الناس لأجل أموالهم ، فبين الله ﷻ أن تلك الأموال إن لم تنفق في سبيل الله لا تغني عنهم شيئا من العذاب (٣) .

(١) ينظر : مفاتيح الغيب ١٦ / ٤٣ - ٤٤ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٠ / ١٧٦ .

(٣) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

والمراد بالموصول : إما الأخبار والرهبان ؛ لأن الكلام في ذمهم ، ويكون ذلك مبالغة فيه حيث وصفهم بالحرص الشديد بعد وصفهم بما سبق ، وإما المسلمون ؛ لجري ذكرهم أيضا ، فيكون نظمهم في قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظا ؛ ودلالة على كونهم أسوة لهم في استحقاق البشارة بالعذاب (١) .

واختار البعض أن يكون المراد بالموصول العموم ، ويدخل فيه الأخبار والرهبان دخولا أوليا ، وعلى كل الاحتمالات فإن الموصول يؤول إلى وجه بناء الخبر وهو قوله تعالى : (فبشرهم بعذاب أليم) ، مع الذم والتحقير لكل من اتصف بمضمون الصلة ، وفي التعبير عنهم بالموصول وصلته دون غيره من الألفاظ ؛ لما في جملة الصلة من ألفاظ معبرة ومصورة لشدة حرص هؤلاء على جمع المال .

كما أن النظم القرآني أثر الفعل (يكنزون) دون (يجمعون) أو (يدخرون) ونحوه ؛ لأن هذا اللفظ يدل على وضع المال بعضه فوق بعض ، وحفظه حتى يرتفع ويتضخم ، وأصله من كنزت التمر في الوعاء أي : جمعته ، ومنه قوله : ناقة كِناز مكتنزة اللحم (٢) ، فهذا اللفظ يوحي بالحرص الشديد على جمع أكبر قدر ممكن من الأموال مع البخل بها ، وعدم إنفاقها في مصارفها الشرعية ، مما يوحي بالذم الشديد لهؤلاء ، ويزداد هذا الذم بالعطف على جملة الصلة بقوله : (ولا ينفقونها في سبيل الله) ، حيث إن هذا العطف يفيد ذم هذا الكنز والكانزين ؛ لأن هؤلاء يكنزون ولا ينفقون في سبيل الله ، ولا يعرفون حق الله ﷻ في هذا المال .

ويلحظ أن النظم القرآني قال : (ولا ينفقونها) بضمير الجمع لغير العاقل برغم أن المذكور شيئان هما الذهب والفضة ، وكان مقتضى الظاهر أن يقول : (ولا ينفقونهما) بالتثنية ؛ والسبب كما يقول الفخر الرازي : أن الضمير إما عائد إلى المعنى من وجوه ، أحدهما : أن كل واحد منهما جملة وأنية دنانير ودرهم ، فهو كقوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وثانيهما : أن يكون التقدير : ولا ينفقون الكنوز ، وثالثهما : أن التقدير : ولا ينفقون تلك الأموال . وإما أن يكون الضمير عائدا إلى اللفظ فيكون التقدير : ولا ينفقون الفضة ، وحذف الذهب لأنه داخل في الفضة من حيث إنها يشتركان معا في ثمن الأشياء ، وفي كونهما جوهرين شريفيين ، وفي كونهما مقصودين بالكنز ، فلما كانا متشاركين في أكثر الصفات كان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر ، أو أن التقدير : ولا ينفقونها والذهب كذلك (٣) .

وخص الذهب والفضة من بين سائر الأموال بالذكر ؛ لأنهما الأصل الغالب المعتبر في الأموال (٤) ، وهما اللذان يقصدان بالكنز ، وإنما اكتفي بهما ؛ لأنهما أكثر ، والناس إليها أحوج .

ولما كان استمرارهم في كنز الذهب والفضة وعدم إنفاقها في سبيل الله كان جزاؤهم البشارة بالعذاب الأليم في قوله تعالى : (فبشرهم بعذاب أليم) ، وهي استعارة تهكمية ساخرة ، وقد سبق تحليل نظيرها (٥) ، والسخرية - هنا - من سرورهم بهذا الكنز ، والفاء في الخبر ؛ لتضمن الموصول معنى الشرط ، فكل من تحقق فيه جملة الصلة كان جزاؤه العذاب الأليم ، وفي تنكير (عذاب) دلالة على شدته وعظمته ، ووصفه بالأليم للترهيب والتخويف .

(١) ينظر : روح المعاني ١٠ / ٨٧ .

(٢) ينظر : المفردات للراغب - كنز ص ٤٤٢ .

(٣) ينظر : مفاتيح الغيب ١٦ / ٤٨ - ٤٩ .

(٤) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها ، وروح المعاني ١٠ / ٨٨ .

(٥) ينظر : ص ٢٥٥ - ٢٥٦ من البحث .

وإمعانا في التهكم والسخرية من هؤلاء الكانزين من الأبحار والرهبان وغيرهم ، وصف عذابهم الأليم الذي بُشِّروا به ووصف حالهم فيه بصورة هي الغاية في الدقة وروعة التصوير حيث قال : (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

(يوم) منصوب بعذاب أليم ، أو بضمير يدل عليه ذلك ، أي : يعذبون يوم ، أو بـ (اذكر) ، وقيل التقدير : عذاب يوم ، والمقدر بدل من المذكور ، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه (١) ؛ للإيجاز ، ولالإسراع إلى تسليط الضوء على ما يحدث في هذا اليوم من الهول العظيم والعذاب الأليم لكل مَنْ يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله .

وقال : (يحمى عليها في نار جهنم) ، وأصله : تُحمى كنوزهم وأموالهم بالنار ، فجُعل الإحماء للنار مبالغة ؛ لأن النار في نفسها ذات حَمِي ، فإذا وصفت بأنها تُحمى دل ذلك على شدة توقدها ، ثم حذف النار ، وحول الإسناد إلى الجار والمجرور ؛ تنبيها على المقصود بآتم وجه (٢) .

وقال : (عليها) والمذكور شيئان ؛ لأنه ليس المراد بهما مقدارا معيننا منهما ، ولا الجنس الصادق بالقليل والكثير ، بل المراد الكثير ، بل المراد الكثير من الدنانير والدرهم ، فأتى بضمير الجمع لغير العاقل للدلالة على الكثرة ، ولو أتى بضمير التثنية لاحتمل خلافه ، وقيل الضمير لكنوز الأموال المفهومة من الكلام فيكون الحكم عاما ، ولذا عدل عن الظاهر (٣) .

وعدى الفعل (يُحمى) بـ (على) الدالة على الاستعلاء المجازي ؛ لإفادة أن الحَمِي تمكن من الأموال بحيث اكتسبت حرارة النار كلها ، ثم أكد معنى هذا التمكن بالحرف (في) المفيد للطرفية ، فصارت الأموال محمية عليها النار ، وموضوعة في النار (٤) .
وأضاف النار إلى جهنم ؛ ليفيد أن المحمي هو نار جهنم التي هي أشد نار في الحرارة ، فجاء التركيب بديعا مع المبالغة والإيجاز .

ثم سلك في التعبير عن التعميم مسلك الإطناب بتعداد مواطن الكيِّ فقال : (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) ؛ لاستحضار الحالة الفظيعة لهذا العقاب الأليم ؛ تهويلا لشأنه ، ولذلك لم يقل : فتكوى بها أجسادهم .

وخص الجباه والجنوب والظهور بالكيِّ دون غيرها لأسباب عديدة ذكرها العلماء (٥) ، ولوجاهتها يمكن إيجازها في النقاط التالية :

أولا : أن المقصود من كسب الأموال حصول فرح في القلب يظهر أثره في الوجوه ، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان ، وليس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم ، فلما طلبوا تزيين هذه الأعضاء الثلاثة كان الكيِّ عليها جزاءً وفاقا .

ثانيا : أن هذه الأعضاء الثلاثة مجوفة قد حصل في داخلها آلات ضعيفة يعظم تألمها بسبب وصول أدنى أثر إليها بخلاف سائر الأعضاء .

(١) ينظر : روح المعاني ١٠ / ٨٨ .

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ١٦ / ٤٩ .

(٣) ينظر : روح المعاني ١٠ / ٨٨ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٠ / ١٧٨ .

(٥) ينظر : الكشاف ٣ / ٤١ ، ومفاتيح الغيب ١٦ / ٥٠ ، وروح المعاني ١٠ / ٨٨ ، والتحرير والتنوير ١٠ / ١٧٩ .

ثالثا : أن صاحب المال إذا رأى الفقير بجنبه تباعد عنه وولى ظهره .
رابعا : الدلالة على كَيْهَم على الجهات الأربع ، من المقدمة على الجبهة ، ومن الخلف على الظهر ، ومن اليمين واليسار على الجنبين .
خامسا : أن أطف أعضاء الإنسان جبينه ، والعضو المتوسط في اللطافة والصلابة جنبه ، والعضو الذي هو أصلب الأعضاء ظهره ، فبين الله - تعالى - أن هذه الأقسام الثلاثة من أعضائه تصوير مغمورة بالكي ، فيكون التعبير بالكي لهذه الأعضاء خصوصا كناية عن كي جميع البدن .
سادسا : أن كمال حال بدن الإنسان في جماله وقوته ، أما الجمال فمحلله الوجه ، وأعز الأعضاء في الوجه الجبهة ، فإذا وقع الكي في الجبهة فقد زال الجمال بالكلية ، وأما القوة فمحلها الظهر والجنبان ، فإذا حصل الكي عليهما فقد زالت القوة عن البدن ، فالحاصل أن حصول الكي في هذه الأعضاء الثلاثة يوجب زوال الجمال وزوال القوة .

واستكمالا لجزئيات الصورة الساخرة يقال لهم بعد كي جباههم وجنوبهم وظهورهم : (هذا ما كنزتم لأنفسكم) وهي جملة خبرية تحوي في طياتها سخرية لاذعة شديدة الوقع على أنفس هؤلاء ، حيث تذكرهم بما كنزوه في حياتهم الدنيا ، وهي مقول لقول محذوف دل عليه السياق ، والتقدير : يقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، والقائل : هم الملائكة الموكلون بعذابهم ، والغرض منه تعظيم الوعيد مع التوبيخ الشديد ، والتعبير باسم الإشارة للقريب (هذا) ؛ للدلالة على أنهم بلغوا النار وهم على شفاها ، ورأوا ما كنزوا قد اشتعل بنار جهنم ، فتكون حسرات في القلوب ، والموصول وصلته (ما كنزتم) ؛ لتنبية هؤلاء الكانزين إلى فساد عملهم وكنزهم للمال بطريق غير مشروع .

والسخرية تتركز في هذا المشهد الذي يسخر فيه الزبانية من هؤلاء الكانزين حين يرون جهودهم في كنز الكنوز كان أصبح هباء منثورا .
والذي زاد من وقع السخرية عليهم قوله : (لأنفسكم) ، حيث تشير هذه اللفظة إلى أن الكانزين جمعوا الكنوز لمنفعة أنفسهم ، فكانت عين مضرتها وسبب تعذيبها ، فتحولت كنوزهم إلى أدوات وآلات كي تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

ويزداد المشهد الساخر حدة بقول الملائكة لهم : (فذوقوا ما كنتم تكسبون) ، وهو أمر غرضه التهكم والسخرية الشديدة أيضا ، وهذا اللفظ كما يقول الرازي فيه ذكر بالمشافهة ويدل على كمال الغضب (١) ، إلى جانب أنه عدد وجوه العقاب ، ثم حكم بأنه جزاءً موافق لأعمالهم ، حيث حدد فظائعهم في كنز الكنوز ، وعدم الإنفاق في سبيل الله والصد عن دينه ، ثم قال لهم : (فذوقوا) ، وهذا يدل على المبالغة في التكيل والسخرية والتوبيخ ، والذوق - هنا - مستعار للإحساس والإدراك استعارة مكنية أو تبعية ؛ للدلالة على شدة مقاساتهم للعذاب حتى كأنهم يذوقونه بألسنتهم كما يذوقون أي طعام مبالغة في السخرية والإهانة ، والتعبير بالموصولية في قوله : (ما كنتم تكنزون) ؛ للتنبية على غلطهم فيما كنزوا لقصد التنديم (٢) ، كما جاء الفعل (كنتم) ؛ للدلالة على استحضر الصورة الماضية أمام الأذهان حتى تزداد حسرتهم حين يتذكرون أن ما كان سببا في سرورهم في الدنيا أصبح عذابا حميما يصلونه في نار جهنم .

(١) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٠ / ٣١ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٠ / ١٨٠ .

ثانيا : السخرية من مزاعم اليهود الباطلة :**١. السخرية من زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم :**

ومن المزاعم الباطلة التي حكاها القرآن الكريم عن أهل الكتاب وسخر منها سخرية شديدة أيضا - زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَكَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة : ٩٤ - ٩٥] .

وسبب نزول الآية الأولى ما روي عن قتادة وأبي العالية أن اليهود قالت : (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) ، وقالوا : (نحن أبناء الله وأحباؤه) ، فقال الله تعالى : (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) فلم يفعلوا (١).

ومناسبة الآيتين السابقتين لما قبلهما : (أن الله ﷻ لما أبطل دعوى اليهود أنهم مؤمنون بالتوراة متمسكون بها ؛ ببيان قتلهم الأنبياء ، وشركهم بالله ، وعبادتهم العجل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ. وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أُنبيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ ﴾ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة : ٩١ - ٩٣] ، أعقب ذلك بإبطال ما في عقائدهم من أنهم أهل الانفراد برحمة الله - تعالى - ودخول جنته (٢) ، فجاءت الآيتان المقصودتان بالتحليل البلاغي للرد على ادعاءات اليهود واقتراعاتهم ؛ ولبيان ضلالهم وفساد عقيدتهم الزاعمة أن الجنة في الآخرة مقصورة عليهم وحدهم ، وأنه لا ينبغي أن يدخلها أحد سواهم ، فسخر القرآن من زعمهم هذا ، وفند ادعاءهم باختبار يسير يبيِّن صدقهم من كذبهم ، وهو أن الشأن في المؤمنين الذين ينتظرون الجنة أن يستهينوا بالموت ، بل يجدوا فيه تحقيقا لآمال حلوة في نفوسهم ؛ فإن كانوا صادقين في دعواهم أن الجنة لهم وحدهم ، وإن كان هذا في عقيدتهم حقا فليتمنوا الموت ؛ ليتحقق لهم هذا الشرف العظيم الذي يدعونه ، ولكن القرآن سرعان ما يكشف عن موقف هؤلاء اليهود المدَّعين فيؤكد أنهم لن يتمنوه أبدا ، بل هم أحرص الناس على الحياة ، وعلى التشبث بها في أي صورة ، وأن الواحد منهم لا تكفيه الحياة العادية ، أو حتى أضعافها ، وإنما يبلغ من نهمه في الحرص على الحياة أن يتمنى لو عاش ألف سنة .

ومنبع السخرية في الآيتين أت من الأمر التعجيزي ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾ ، والشرط التبكيثي :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، ثم نفي تمني الموت على التأبيد بجملة : ﴿ وَكَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ ، ولا شك

(١) ينظر : تفسير الطبري ١ / ٤٢٥ ، وتفسير الواحدي ١ / ١١٩ ، ت : صفوان عدنان داوودي ، الطبعة الأولى ، دار العلم ، والدار الشامية ، دمشق ، ١٤١٥ هـ ، وينظر : العجائب في بيان الأسباب لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ٢٨٥ / ٢٨٦ ، ت : عبد الحكيم محمد الأنيس - الطبعة الأولى ، دار ابن الجوزي ، ١٩٩٧ .
(٢) التحرير والتنوير ١ / ٦١٣ ببعض تصرف .

أن السخرية متلازمة - غالباً - مع التعجيز والتحدي والتبكييت ؛ حيث يسخر المتحدّي من عجز المسخور منه حين لا ينفذ الأمر المطلوب أو لم يكن في استطاعته ، والتناول البلاغي لهاتين الآيتين يوحى بكثير من الأسرار والدلائل :

فقد مهد النظم القرآني للسخرية بقوله : (قل إن كانت لكم الآخرة عند الله خالصة من دون الناس) فصدر الجملة بالأمر (قل) للنبي ﷺ ، ولمن يرغب في إقامة الحجة على هؤلاء اليهود ؛ لغرض بلاغي هو الإبلاغ ، وفي توجيهه للنبي ﷺ تسلية له ، وتقوية لعزيمته في مواجهة هؤلاء اليهود بالحجة المفحمة .

كما أن خطاب المفرد - هنا - فيه دلالة على قوة الحق في مواجهة الباطل ؛ حيث يوحى بأن المؤمن بمفرده يستطيع أن يواجه الجمع الغفير من أعداء الله ، ويقدم الحجة والبرهان على كذبهم وضلالهم بما معه من الحق المبين .

وتكرار الأمر (قل) بعد قوله في الآية السابقة عليه : ﴿ قُلْ يَسْمَأُيَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة من / ٩٣] ؛ للزيادة في تبكييت هؤلاء اليهود ، وإظهار كذبهم ، وقرع أسماعهم بالحجة والبرهان .

وقيد المسند (لكم) بالشرط (إن) ؛ لتوبيخ اليهود وتعجيزهم ، وفضحهم ببيان كذبهم وافترائهم ، ولذا جاء التعبير بالشرط (إن) التي للشك ؛ إيماء إلى بُعد ما يظنون ، وكذب ما يقولون ، وبطلان ما يزعمون .

كما قيد المسند (لكم) بالناسخ (كانت) ؛ لاستدراج اليهود ومجاراتهم في زعمهم ، ثم إجماعهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع ، وهذا هو قمة السخرية منهم ؛ فمجيء الفعل الناسخ بصيغة الماضي مع أن الأولى في الظاهر أن يكون بصيغة المضارع باعتبار أن الآخرة أمر مستقبلي لمجارات الخصم ، وبيان زعم هؤلاء اليهود وفساد معتقدتهم في أن الجنة لهم حق ثابت لا نزاع فيه ، والماضي أدل على الثبوت والتحقيق ، فأراد الله ﷻ أن يجاريهم في معتقدتهم ، حتى إذا جاءتهم الحجة أجمتهم ، وفضحت أمرهم ، وأظهرت مدى طغيانهم .

وجاء التعبير القرآني (الدار الآخرة) دون الجنة ؛ لأن الدار الآخرة أعم وأشمل من الجنة ؛ فأخرة الإنسان تبدأ بموته ، ثم البرزخ ، والبعث ، والحشر ، والميزان ، والصراف ، ثم إلى الجنة أو النار ، فأراد الله ﷻ أن يبين مدى مبالغة هؤلاء اليهود في زعمهم ، وشدة طغيانهم بأن تكون الدار الآخرة لهم وحدهم في نعيمها ، وهو قول ينضح بالسخرية والاستهزاء بعقول هؤلاء وما قالوه ، وفي تقديم المسند (لكم) على المسند إليه (الدار الآخرة) إشعار بالاختصاص والحصر بناء على زعم اليهود واعتقادهم ، ففيه بيان لغرورهم وعتوهم ، ومدى طغيانهم في ادعائهم بأن الدار الآخرة لهم وحدهم من دون الناس (١) .

ولا شك أن زيادة القيود في هذه الجملة تشير إلى زيادة الإيضاح والتخصيص ؛ ليكون المعنى أتم وأكمل فيكون أوقع في النفس ؛ حيث قيد المسند (لكم) بالظرف (عند الله) ؛

للإشارة إلى ما في نفوس اليهود من إرادة تأكيد فريتهم بأنها شيء مقرر في حكم الله تعالى ، لبث الريبة والزعزعة في قلوب المسلمين .
 كما قيد المسند (لكم) بالحال (خالصة) لبيان مرادهم ، وتعجيب الناس من حالهم ، حيث تخالف أقوالهم وأفعالهم كل الحقائق والثوابت في شرع الله .
 كما قيد - أيضا - المسند (لكم) بالجار والمجرور (من دون الناس) ؛ لدفع توهم أن يكون المراد من الخلوص في الآية الصفاء من أي مشارك معهم في درجاتهم مع كونه له حظ من النعيم مثلهم (١) .

ويلحظ أن النظم القرآني استعمل كلمة (دون) ؛ لتتناسب مع سياق الآية في مقام ذكر جرم اليهود وتفضيلهم لأنفسهم على الناس جميعا ، فمن معاني (دون) : الشيء الحقير ، ولا شك أن في زعم اليهود أن الجنة خالصة لهم من دون الناس فيه تفضيل لأنفسهم ، وفي الوقت ذاته ازدراء واستهانة بغيرهم ، والذي أكد هذا الازدراء كلمة (الناس) ؛ لأنها توحى بالعموم والشمول ، فتشمل كل من عداهم ، فطالما أن الناس ليسوا يهودا مثلهم فلا حظ لهم في الآخرة ولا نصيب .

ولذا كان الرد عليهم بجواب الشرط الذي يحمل في طياته سخرية لاذعة (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) ، فبدأ بالأمر (فتمنوا) ؛ لتحديهم وتعجيزهم وإظهار كذبهم في دعواهم وأردف بالشرط التبكيئي (إن كنتم صادقين) تصعيدا في حدة السخرية ، وهو تذييل القصد منه الاستهزاء بهم ، وتبكيئتهم ، وتوبيخهم ، والمبالغة في تحديهم ، والتعبير بحرف الشرط (إن) الدال على الشك فيه دلالة على كذبهم وعدم صدقهم ، وفساد معتقدتهم .
 والذي زاد من بلاغة جملة السخرية : (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) الاحتباك الموجود في الآية ، وهو فن بديعي له قيمته البلاغية ؛ لأنه ينأى بالأسلوب عن التكرار الممل ، كما أن فيه إعمالا للفكر ، وتحريكا للذهن ، وإيجازا في اللفظ ، وهذا الإيجاز متأثرا من الحذف في كلتا الجملتين ، حيث حذف فعل الشرط في قوله : (فتمنوا الموت) تعويلا على قوله : (إن كنتم صادقين) بعده ، وحذف الجواب في قوله : (إن كنتم صادقين) لدلالة (فتمنوا الموت) قبله عليه ، والتقدير : إن كنتم صادقين في زعمكم هذا فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فتمنوا الموت ، فتكرر الشرط التبكيئي مرتين ، والأمر التعجيزي مرتين في إيجاز بليغ ، وتنوع بين الذكر والحذف في تلاؤم وتناسق ؛ زيادة في التبكيئ والتفريع لهؤلاء .

وإمعانا في التحدي والسخرية أعقب الشرط التبكيئي السابق بقوله : (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) ، فجاء بالمسند (ولن يتمنوه) فعلا مضارعا منفيا ؛ للدلالة على استمرارية عدم تمني الموت من هؤلاء اليهود حتى نهاية الدنيا ، ونفى - سبحانه - عنهم عدم تمني الموت بأقوى أدوات النفي وأبلغها وأكدها (لن) بيانا لقوة الحجة ، وإمعانا في التحدي ، وتكديبا لهؤلاء ، ومع أن (لن) تفيد النفي على التأبيد إلا أن النظم القرآني قال (أبدا) زيادة في التوكيد لهذا التأبيد (٢) .

وبالمجمل فإن الجملة السابقة جاءت خبرية لإظهار ما يكون من الإحجام عما دعوا إليه تحقيقا

(١) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) ينظر : البحر المحيط ١ / ٤٧٩ .

لكذبهم ، وإعلاما للحبيب ﷺ وللمؤمنين بحال هؤلاء ؛ ليزدادوا يقينا على يقينهم ، كما أن فيه تخجيلا وتبكيئا لهؤلاء اليهود ، وسخرية من عدم قدرتهم على امتثال الأمر بتمني الموت (١) .

ثم ذكرَ سبب عدم تمنيههم للموت بقوله : (بما قدمت أيديهم) ، وتقدير الكلام : بما قدمته أيديهم ، فحذف مفعول (قدمت) (٢) إشارة إلى كثرة معاصيهم وجرائمهم وقبائحهم ، مما لا يتسع المقام لذكره ؛ لتذهب النفس في تقديره أي مذهب ، ولتتصور من السيئات والمعاصي ما تتصور في جانب هؤلاء اليهود ، من جرأة على الله ، وقتل للأنبياء ، وتحريف لكتاب الله وغير ذلك .

وفي إسناد التقديم لليد في القول الكريم مجاز عقلي لعلاقة الآلية (٣) ، حيث إن اليد يمارس بها الإنسان العمل ، وفي التعبير بها عنهم مبالغة في ذمهم ؛ وإشارة إلى تذكيرهم بأحداث وملايسات جنائيتهم ؛ وإشعارًا بالتأنيب والتبكييت والتخجيل .

ويرى الطاهر بن عاشور أن الله ﷻ خص اليد بالذكر دون باقي الجوارح ؛ لأن أغلب جنایات الناس بها ، وهي كناية عن جميع الأعمال ، ولعل التكني بها دون غيرها في جانب اليهود ؛ لأن أجمع معاصيها وأفظعها كان باليد ، فالأجمع هو تحريف التوراة ، والأفظع هو قتل الأنبياء (٤) . وقيل إن اليد - هنا - مجاز عن النفس ؛ حيث عبر النظم القرآني عن النفس باليد على طريق المجاز المرسل لعلاقة الجزئية كما في قوله تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (٥) . والتخريج على المجاز العقلي أبلغ للمعنى ؛ لكثرة إحياءاته ودلالاته كما سبق .

ثم كان ختام الآية بقوله : (والله عليم بالظالمين) ، وهو تذييل جار مجرى المثل ، مقررٌ لمضمون ما قبله من أن الله ﷻ عليم بهؤلاء الظالمين ، وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفضية إلى أفانين العذاب ، وبما سيكون منهم من عدم تمني الموت (٦) ، وفيه تهديد ووعيد لهؤلاء الظالمين ، فضلا عن التسجيل عليهم بالظلم ، والتنبيه للوصف الموجب للحكم (٧) .

وفيه خروج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر في صورتين : الأولى : الالتفات من التكلم إلى الغيبة ؛ حيث إن الظاهر أن يقال : (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت وأنا عليم بالظالمين) ، لكنه قال : (والله عليم بالظالمين) تربية للمهابة ، بقرع اسمه - سبحانه - لأسماع هؤلاء في مقام التحدي والتعجيز والتهديد والوعيد .

والثانية : وضع المظهر موضع المضمرة ، لأن تقدير الكلام : (والله عليم بهم) ، ولكنه أثر الإظهار على الإضمار ؛ لدمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون في جميع الأمور التي من جملتها ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم (٨) .

ولذلك جاء الوصف بصيغة اسم الفاعل ؛ للدلالة على تلبس الظلم بهم في شتى أحوالهم ، كما أن في هذا الإظهار تعريضا بكل من سلك مسلكهم وحذا حذوهم في كل وقت وحين .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٦١٥ .

(٢) هذا على أساس أن (ما) موصولة ، فإذا كانت مصدرية فلا يقدر حذف . ينظر : تفسير القرطبي ٢ / ٣٣ .

(٣) ينظر : البحر المحيط ١ / ٤٨٠ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٦١٦ .

(٥) ينظر : تفسير البيضاوي ١ / ٣٦٤ .

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم ١ / ١٣٢ .

(٧) ينظر : الكشاف ١ / ١٦٧ ، وتفسير الواحدي ١ / ١١٩ .

(٨) ينظر : روح المعاني ١ / ٣٢٩ .

وشبيهة بآيتي السخرية السابقتين قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٦ - ٧] .
وفيما يلي موازنة بين الشاهدين اتفاقا واختلافا :

أولا : مواطن الاتفاق :

اتفق القولان الكريمان فيما يأتي :

- البدء بالفعل (قل) .
- أداة الشرط (إن) .
- جملة التحدي والتعجيز (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) .
- الإخبار بالغيب بأنهم لن يتمنوا الموت أبدا بما قدمت أيديهم ، وأن الله عليم بالظالمين .

ثانيا : مواطن الاختلاف :

اختلف القولان الكريمان فيما يأتي :

- النداء للمخاطبين في آيتي الجمعة (يا أيها الذين هادوا) ، وعدم النداء في آيتي البقرة .
- الشيء المزعوم من اليهود في اختصاصهم به : في آيتي البقرة (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس) ، وفي آيتي الجمعة : (إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس) .
- صيغة الإخبار بالغيب في آيتي البقرة (ولن يتمنوه أبدا) النفي بـ (لن) التأبيدية ، وفي آيتي الجمعة (ولا يتمنونه أبدا) النفي بـ (لا) النافية .

وبعد الوقوف على مواطن الاتفاق والاختلاف ، أقف على الفروق البلاغية بين الآيتين :

أ - الأسرار البلاغية لمواطن الاتفاق :

أولا : افتتح القولان الكريمان بالفعل (قل) ، وهذا أمر من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ ، وفيه إشارة إلى أن هذا التحدي من عند الله تعالى ، وليس من النبي ﷺ ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - مأمور بإبلاغ هذا التحدي ، كما أن فيه إشارة إلى التسرية والتسلية للحبيب ﷺ بتلقيه الحجة من ربه سبحانه ، وتقوية عزيمته في مواجهة أعداء الإسلام بالحجة والبرهان .

ثانيا : جاء التعبير في القولين الكريمين بأداة الشرط (إن) التي للشك ؛ إيماء إلى بُعد ما يظنون ، وكذب ما يقولون ، وبطلان ما يزعمون .

ثالثا : اتفق القولان الكريمان في جملة التحدي والتعجيز ومن ثم السخرية والتهكم (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) ؛ لأن الموت هو السبيل الموصل للآخرة ، وكلا الزعمين (أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وأنهم أولياء لله من دون الناس) يفيد أن لهم مكانة ومنزلة مزعومة عند الله ، ولذا علق تمنى الموت على شرط مفقود وهو (إن كنتم صادقين) ؛ بيانا لكذبهم وبُعد الصدق عنهم ، ولتشديد الإلزام ، وزيادة التبكيث والتفريع والسخرية من هؤلاء المفترين على الله الكذب .

رابعا : اتفق القولان الكريمان في الإخبار بالغيب بأن هؤلاء لن يتمنوا الموت أبدا بسبب ما

قدمته أيديهم ، فأنه عليم بالظالمين ، كما أن في القولين منتهى التخجيل والتبكيث لهؤلاء اليهود إذ يسمعونهما ، ويودون مخالفتها لئلا تنهض الحجة عليهم ، لكنهم لا يفعلون خشية أن يستجيب الله لهم ، فيخسروا الدنيا بالموت الذي تمنوه ، والآخرة بالعمل الذي قدموه ، وفي ذلك تحقيقٌ لكذبهم ، وتأكيدهُ لافتراءاتهم ، وافتضاحُ لأمرهم .

وفي تكرار مواطن الاتفاق في القولين الكريمين زيادةً في التأكيد والتقريب للتحدي والتعجيز ، وبيانٌ لكذب هؤلاء اليهود في ادعاءاتهم ، وزيادة في التسلية والتسرية للنبي ﷺ وتقوية عزيمته في مواجهة أعداء الإسلام ، خصوصا وأن القولين الكريمين وردا في سورتين متباعدتين في النزول ، فسورة البقرة أول ما نزل بالمدينة ، وسورة الجمعة من أواخر ما نزل بالمدينة (١) ، فكان التحدي لهؤلاء اليهود أولاً وأخراً تأكيدا وتثبيتا .

ب - الأسرار البلاغية لمواطن الاختلاف :

أولا : النداء للمخاطبين في سورة الجمعة (يا أيها الذين هادوا) ، وعدم النداء في سورة البقرة ؛ لأن آيتي البقرة قد طال الحديث قبلهما في مخاطبة اليهود في آيات عديدة ، فلم يتطلب المقام نداءهم مرة أخرى .

أما سورة الجمعة فنزلت بعد أن استقر المؤمنون ، وثبت إيمانهم بالله وبقينهم من أمر اليهود والنصارى ، ومقصدها الرئيس بيان أن المسلمين هم المختارون لحمل أمانة العقيدة الإيمانية بعدما نكل بنو إسرائيل عن حملها ، فاقتضى المقام - هنا - النداء لليهود بقوله : (قل يا أيها الذين هادوا) تبكيثا لهم وتقريعا ، وتشنيعا بهم ، وافتضاحا لأمرهم .

ثانيا : زعم اليهود في سورة البقرة أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وزعموا في سورة الجمعة أنهم أولياء الله من دون الناس ، فما السر في هذا الاختلاف ؟

السر - والله أعلم - أن آيتي البقرة وردتا بعد عدة آيات تفند مزاعم اليهود التي كان منها ادعاؤهم أنهم مؤمنون بالتوراة متمسكون بها ، برغم أنهم قتلوا الأنبياء وعبدوا العجل ، فجاء ذكر هذا الزعم وهو الاختصاص بدخول الجنة تناسبا مع السياق ومقام الآيات ؛ هدمًا لمزاعمهم السابقة ، وإزهاقا لأباطيلهم ، ودحضا لضلالاتهم .

أما آيتا الجمعة فقد وردتا في سياق هادئ امتنَّ الله ﷻ فيه على العرب بأنه بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ، وهذا فضل يؤتاه من يشاء ، فحري بهم أن يحملوا كتاب الله ﷻ في صدورهم ، ويتخذوه منهجا لحياتهم ، ولا يكونوا كاليهود الذين حملوا التوراة كما يحمل الحمارُ الأسفارَ ، ويدعون أنهم أولياء الله ﷻ من دون الناس ، فما أبعد هذا الادعاء عن سلوكهم المنحرف وطريقهم الضال (٢) وهكذا ناسب ورود كل ادعاء المقام الذي يقتضيه .

ثالثا : في سورة البقرة جاء النفي بـ (لن) التأييدية في قوله : (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) ، وفي آيتي الجمعة جاء النفي بـ (لا) النافية في قوله : (ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) ؛ وهذا لأن دعوى اليهود في سورة البقرة بالغة قاطعة من أن الجنة لهم خالصة

(١) سورة البقرة الأولى في الترتيب المدني ، وسورة الجمعة الرابعة والعشرون ، ينظر في هذا : تنزيل القرآن لابن شهاب الزهري ص ٢٩ - ٣١ .

(٢) ينظر : أسرار التكرار في القرآن ١ / ٣٢ - ٣٣ .

فبالغ - سبحانه - في الرد عليهم بأقوى أدوات النفي (لن) التي تفيد تأبيد النفي ، فهي للقطع والبتات ، أما في سورة الجمعة فدعواهم فيها قاصرة مترددة ، وهي زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، فليس هذا الزعم هو المطلوب الذي لا مطلوب وراءه ، فلما كان هذا الشرط قاصرا عن الشرط الأول ، ولم تكن الدعوى غاية المطلوب ، لم يحتج في نفيه وإبطاله إلى ما هو غاية في بابه ، فاقصر على (لا) التي لا تأبيد فيها ولا تأكيد (١) ، إذ إن دعوى الولاية لله دون دعوى الاختصاص بالآخرة ، فالولاية لا يلزم منها الاختصاص بالنعمة (٢) .

هذا إلى جانب أن آية البقرة وردت بعد ذكر ما فعله اليهود من الكفر والعصيان وقتل الأنبياء ، فناسب حرف المبالغة (لن) ، في النفي لتمنيهم الموت ؛ لما يعلمون ما لهم بعده من العذاب ، وآية الجمعة لم يتقدما ذلك ، فجاءت (لا) الدالة على مطلق النفي من غير مبالغة (٣) ، وهكذا ناسبت كل أداة المقام الذي وردت فيه .

٢. السخرية من زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى :

ومن مزاعم اليهود الباطلة التي سخر منها القرآن الكريم : ادعواؤهم بأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، حيث قال جل شأنه : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١ - ١١٢] .

وهاتان الآيتان من سورة البقرة جاءتتا إثر ما ذكره الله ﷻ من مساوئ أهل الكتاب وقبائحهم من إضمار الحقد والحسد للمسلمين ، وتمني زوال نعمة الإيمان والإسلام عنهم في قوله سبحانه : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، حيث ذكر في هاتين الآيتين من أباطيل اليهود والنصارى ما يزعمه كل فريق منهما من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملته ، وأمر النبي ﷺ أن يتحداهم باتيان الحجة والبرهان على ذلك إن كانوا صادقين ، كما أخبر - سبحانه - أن هؤلاء لن يجدوا لمزعمهم برهانا ؛ لأن نعيم الجنة مدخر لمن أسلم وجهه له ، وأحسن ما يؤديه من أعمال وليس خاصا بهؤلاء اليهود والنصارى المدّعين .

وموطن السخرية في الآيتين في قوله تعالى : (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ومنبعها أت من إضافة البرهان إلى ضمير أهل الكتاب ، فإن هذه الإضافة مشعرة بأن لهم برهانا على صحة ما يدّعون من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان يهوديا أو نصرانيا ، مع أنه ﷻ يعلم أنه لا برهان لهم البتة ، ولكنه أراد التهكم بهم ، وإقامة الحجة عليهم ، فأخرج الكلام في صورة من يطلب الدليل ليعلم صدق الحديث من كذبه (٤) .

(١) ينظر : درة التنزيل وغرة التأويل ١٢ ، ١٣ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٥٩٧ / ٧ .

(٣) ينظر : كشف المعاني في متشابه المثاني لبدر الدين بن جماعة ٦٣ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ٦٢ / ٦ ، وروح المعاني ٣١ / ١٧ .

وقد بُدِّتِ السخرية بالاعتراض بين الدعوى وطلب الدليل عليها بقوله : (**تلك أمانيتهم**) ، وجيء بهذه الجملة المعترضة لبيان بطلان أمانيتهم وكذبها ، وفي هذه الجملة إشعارٌ بالتهكم والسخرية من أقوالهم وأحوالهم ، ودعوةٌ للسامع لأن يتأمل بهتان قولهم ، وسوء صنيعهم وضعف عقولهم ، وقد جيء بالمسند إليه اسم إشارة للبعيد (**تلك**) ؛ إشعاراً ببعده أمني هؤلاء القوم عنهم ، وبعده نوالها منهم ، وتحقير الشأن هذه المزاعم والادعاءات الباطلة التي لا يقرها عقل ، كما جاء التعبير بلفظ (**الأمانى**) بدلا من الرجاء ؛ لأن الأمانى منها ما هو جائز التحقيق ، ومنها ما هو ممتنع ، فجيء به لعدم تحقق أمانيتهم ، أما الرجاء فهو يتعلق بالجائز المأمول الوقوع (١) .

وجاء بـ (**الأمانى**) جمعا برغم أن سياق الآية يشير إلى أمنية واحدة ؛ وذلك لأنهم لشدة تمنيتهم لهذه الأمنية ، ومعاودتهم لها مرة بعد مرة ، وتأكدها في نفوسهم صارت كأنها أمانى وليست أمنية واحدة ، فالجمع - هنا - يفيد زيادة الأحاد ، فيستعمل لمطلق الزيادة ، وعليه يكون هذا الجمع مجازا مرسلا لعلاقة الإطلاق التقييد ؛ لتأكيد ثبوت الصفة وتمكينها في نفوسهم ، أو أن الجمع نقل إلى تأكيد الواحد وإبانة زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعا ؛ بأن استعيرت الزيادة في العدد المعبر عنها بالجمع للزيادة في معنى الواحد ؛ مبالغة في تردد الأمنية في نفوسهم ، وتكرارها فيها (٢) .

كما كشف التعبير بالجمع في موضع المفرد - أيضا - عن مدى تصارع الأمانى بين اليهود والنصارى ؛ فلو قال : (**تلك أمانيتهم**) لأوهم اتفاق الجنسين على دخولهما الجنة ، وامتناع غيرهم ، ولكن التعبير بالجمع أفاد أن لكل فريق أمانيته بالألا يدخل الجنة إلا من كان على ملته ، ولذا قال ﷺ بعد ذلك : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ** ﴾ [البقرة : ١١٣] .

وإمعانا في السخرية والتهكم من هؤلاء وأمانياتهم المزعومة ، طلب من نبيه ﷺ أن يجابهم بالتحدي ، ويطالبهم بالدليل على صحة ما يقولون بقوله : (**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**) ، فبدأ التحدي والتعجيز بالفعل (**هاتوا**) ؛ تبكيئا لهم وتخجيلا ، وسخرية منهم بإرخاء العنان لهم ليأتوا بالبرهان من أي مكان ، ومن أي مصدر ، وبأي وسيلة إن كان لديهم برهان .

كما عبر بـ (**البرهان**) دون الحجة أو الدليل ونحوهما تماشيا مع كلام العرب الذين يقولون للذي لا يبرهن على صحة كلامه : إنما أنت متمنٌ (٣) ، فضلا عن أن البرهان هو الحجة القاطعة الفاصلة ، والدليل الذي يوقع اليقين (٤) ، وطلبه - هنا - لأن زعمهم هذا يحتاج إلى دليل قاطع ، وحجة بينة ، ولا دليل عندهم ولا برهان فكان طلبه منهم مع تيقن عدم امتلاكهم له الغاية في التبكييت والسخرية .

(١) ينظر البحر المحيط ١ / ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٢) ينظر : الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، لابن المنير الإسكندراني ١ / ٣٠٤ ، طبعة مصطفى البابي الحلبي -

القاهرة - ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م .

(٣) ينظر : (برهن - لسان العرب) .

(٤) السابق : الصفحة نفسها .

ثم إن التذليل بالشرط ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ ؛ جاء لمزيد من التوبيخ والتهكم ؛ لأنهم لو كانوا صادقين لبرهنوا على صحة ما يقولون من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ذمتهم ، ولكن أتى لهم ذلك ، فالتعبير بأداة الشرط ﴿ **إِنْ** ﴾ التي تفيد الشك مع تحقق عدم صدقهم ، أفاد التهكم والاستهزاء بهم .

كما أن حذف جواب الشرط لدلالة المذكور عليه ، والتقدير : (**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ هَذِهِ فَهَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) بتكرار الإسناد ؛ جاء لتأكيد المعنى وتقريره ، إلى جانب زيادة التقرير والتوبيخ والتهكم . ولذا كان الرد القاطع على زعمهم بتقرير أن الجنة لن يدخلها إلا من أسلم وجهه لله وأحسن القول والعمل وليس كما يزعمون بقوله تعالى : ﴿ **بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ .

٣. السخرية من زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه :

ومن مزاعم اليهود الكاذبة التي ذكرها القرآن الكريم وسخر منها سخرية شديدة : زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ** ۖ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ [المائدة : ١٨] ، حيث أخرج ابن جرير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضا ، وبحري بن عمرو ، وشاس بن عدي ، فكلموه فكلمهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الله ، وحذرهم نفمته ، فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ؟ نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى ، فأنزل الله فيهم : (**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه .. الآية**) (١) .

وجاءت هذه الآية من سورة المائدة استطرادا من الحديث عن دعوى النصارى المتقدمة بجعلهم الله ﷻ هو المسيح ، والمسيح هو الله ، باختلاف التسمية واتحاد المسمى ، إلى الحديث عن اليهود والنصارى معا في دعوى ادعاها كل فريق لنفسه . اليهود قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، والنصارى قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقد تصدى القرآن لهذه الدعوى - جملة - فلم يفرّد اليهود برّد والنصارى برّد ، بل واجه الدعوى مواجهة واحدة فوأدها في رحم حاملها ، وإن كانت موعودة بطبعها ، فهي وهم لا وجود له إلا في تصور قائلها .

والدعوى لدى الطائفتين لها شقان :

الأول : ادعاء كل منهما أنهم أبناء الله ، والثاني : ادعاء كل منهما أنهم أحباء الله ، وكل منهما ادعت ما ادعت على انفراد ، وإن كان ظاهر النظم يفيد أنهم قالوها مجتمعين ، فهذا الظاهر غير مراد ؛ لأن اليهود لا يقولون إن النصارى أبناء الله وأحباؤه ، والنصارى لا يقولون إن اليهود أبناء الله وأحباؤه ، بل كل منهما يتهم الآخر بالكفر والضلال ، وهم جميعا لم يريدوا من بنوتهم

الله ﷻ المعنى المجازي للكلمة : وهو جماعة الله أو حزب الله ، بل أرادوا البنوة الحقيقية ، وإن كان المفسرون يقولون : إنهم أرادوا أنهم أشياع ابني الله عزير والمسيح (١) ، ولكن المتأمل في رد القرآن عليهم لا يتفق مع ما ذكره المفسرون ؛ وذلك لأن الله ﷻ قال في الرد عليهم مكذبا لهم ساخرا منهم : (قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق) ، والسخرية فيه ناشئة من الاستفهام عن العذاب الواقع عليهم بسبب ذنوبهم برغم ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فإن كانوا صادقين في هذا الادعاء فما سبب العذاب الذي حل ويحل بهم ، وبلا شك فإن عجزهم عن تعيين السبب يلزم منه تكذيبهم ثم توبيخهم على هذا التكذيب ومن ثم السخرية منهم ، وإلزامهم بالحجة القاطعة على بطلان هذه الدعوى .

وقد مهد النظم القرآني لهذه السخرية بالجملة الخبرية : (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) ، وفي هذه الجملة إنكارٌ عليهم وتبكييت لهم عن طريق الإيجاز بالحذف ؛ لأن التقدير : وقالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقالت النصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، فدمج النظم القرآني قول الطائفتين في قول واحد ، وأسندته إليهما إسنادا واحدا ؛ لاتحاد القولين في اللفظ والمعنى .

وقدم اليهود على النصارى ؛ لسبقهم في الوجود الزمني ، ولقولهم هذا القول قبل النصارى ، كما قدم دعوى البنوة على دعوى الأحيية الكاذبتين من باب تقديم السبب على المسبب ؛ لأن البنوة المزعومة سببٌ في الأحيية المكذوبة (٢) ، وعطف (وأحباؤه) على (أبناء الله) ؛ لبيان أنهم محبوبون ، إذ قد يكونُ الابنُ مغضوبا عليه .

ولما كان قولُ اليهود هذا يفيد أنهم يرون لأنفسهم فضلا على سائر البشر ، وأنهم لهم صلة بالله - تعالى - تزيد عن صلة غيرهم به ، وأنهم وحدهم هم أهل القرب منه ، كانت السخرية منهم تدوي في كل سمع ، وتقفز في كل قلب بأمره ﷻ للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم : (فلم يعذبكم بذنوبكم) ؟ ! بالاستفهام لغرض التبكييت والتوبيخ مع التهكم بهم والسخرية ، وعبر بالمضارع (يعذبكم) ؛ للدلالة على استمرار عذابهم في الدنيا والآخرة بما ينافي البنوة المزعومة والأحيية المكذوبة ؛ لأن الحبيب لا يعذب حبيبه ، والأب لا يعذب أبناءه وقد ثبت أن الله ﷻ عذبهم في الدنيا بسبب ذنوبهم بالقتل والأسر والمسح ، وسيعذبهم في الآخرة لا محالة ، وقد زعموا أن العذاب سيقع عليهم أياما معدودات (٣) ، وحكى القرآن عنهم ذلك بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة من / ٨٠] ، كما جاء بالذنوب جمعا ؛ للدلالة على كثرتها .

ثم انتقل من تقرير تكذيبهم وتوبيخهم إلى تقرير ما يناقض دعواهم ، وهو بشريتهم وخضوعهم لكل ما يخضع له البشر من مجريات الإرادة والقدرة الإلهية بقوله : (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) ، حيث جاءت الجملة خبرية لرد زعم اليهود

(١) ينظر : الكشاف ٦٠٢ / ١ ، وروح المعاني ١٠٠ / ٦ ، والتحرير والتنوير ١٥٦ / ٦ .

(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام ٢٤٨ / ١ .

(٣) ينظر : روح المعاني ١٠١ / ٦ ، والتحرير والتنوير ١٥٦ / ٦ ، وبنو إسرائيل في القرآن الكريم ٥٨٠ .

أن لهم منزلة ومكانة عند الله ﷻ ، ولبيان أنهم كسائر البشر من خلق الله إن آمنوا وأصلحوا نالوا الثواب ، وإن بقوا على كفرهم وجحودهم نالوا العقاب ، وجاء الطباق بين (يغفر) و (يعذب) لتوضيح ذلك المعنى وتوكيده .

ثم حَتَمَت الآية الكريمة ردها عليهم بقوله تعالى : (والله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير) ، وهو استئنافٌ مقرر لعظمة الله الواحد الأحد ، ومبينٌ أن الله ﷻ هو صاحب التصرف المطلق في كل شيء بمقتضى علمه وحكمته وعدله ، وجاء قوله (وإليه المصير) ؛ للتهديد والوعيد لهؤلاء اليهود الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه عن طريق القصر بتقديم ما حقه التأخير ؛ حيث قدم المسند (وإليه) على المسند إليه (المصير) ؛ قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا ، لدحض شبهة اليهود وزعمهم ، ولتأكيد أن مصير الخلق كلهم بيد الله وحده لا غيره ، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وأن الكل راجع إليه للحساب ، فيجازي بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا .

وخلاصة القول : إن السمة العامة لسخرية القرآن من اليهود يغلب عليها شيوع الاستفهام الساخر المنبثق من التبكيت والتفريع والتخجيل ، وكذا الأمر التعجيزي الدال على التفريع والتوبيخ المقترن بأسلوب الشرط التبكيئي ، مع كثرة الأفعال المضارعة الدالة على استمرارهم في الضلال وارتكاب الرذائل ، وعدم اهتدائهم إلى سواء السبيل ، ولذا كان مس السخرية أوجع ووقعها أشد على أعداء الدين .

الفصل الرابع

السخرية من المنافقين وأسرارها البلاغية

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : سخرية المنافقين من المسلمين والرد عليها .
- المبحث الثاني : سخرية القرآن من المنافقين وتشمل ثلاثة مطالب :
- المطلب الأول : السخرية من عقيدة المنافقين .
- المطلب الثاني : السخرية من سلوك المنافقين .
- المطلب الثالث : السخرية من حال المنافقين يوم القيامة .

الفصل الرابع

السخرية من المنافقين وأسرارها البلاغية

تمهيد :

كان المنافقون - ولا يزالون - من لدن الصدر الأول إلى يومنا هذا من أخطر وألد أعداء الإسلام إلى جانب اليهود ، بل إنهم أعظم خطراً على الإطلاق ؛ لعداوتهم الخفية ، حيث لاقى المسلمون منهم متاعب كثيرة ، وفتناً عظيمة ، كانت تصل في خطورتها إلى زلزلة كيان المسلمين في كثير من الأحيان .

وقد تركزت خطورة المنافقين في أنهم كانوا مندسين بين صفوف المسلمين على أنهم مؤمنون ، وعلى الرغم من أن النبي ﷺ وصفوه أصحابه كانوا يستطيعون بذكائهم وبرايتهم أن يدركوا نفاق هؤلاء وأن يستشفوا حقيقتهم ، إلا أن عامة المسلمين لم يكن من السهل عليهم أن يدركوا ذلك ، والعامة هم المجال الخصب للمنافقين لكي ينفثوا فيهم ما يشاءون من سموم الكيد ، وينشروا ما يستطيعون من الأراجيف .
ولذا تكفل القرآن الكريم بإبراز صفاتهم وملاحقة فلولهم ؛ حتى ينتبه المؤمنون لما يحيط بهم من أخطار ومؤامرات تكيد للدعوة ، وتحاول القضاء على الإسلام والمسلمين .

ولشدة خطر هؤلاء على الأمة تركزت العداوة في المنافقين أكثر من غيرهم ؛ لأنهم لا يضمرون في أنفسهم إلا الشر للمؤمنين ، ولا يتمنون للدعوة ظهوراً في الأرض ولا علواً ، ولذا كان لا بد من كشف ما في قلوبهم من مرض ؛ حتى لا يندفع فيهم مسلم ، ولا يهلك بسببهم مؤمن .

وقد اهتم القرآن بذكر سمات المنافقين ومناهج عملهم وطرائق تفكيرهم ، دون التركيز على ذكر أسمائهم وأشخاصهم ؛ ليبقى النظر في السمات ومدى تحققها في كل عصر وحين هو الضابط الصحيح في معرفة المنافقين .
ومن أهم السمات التي اهتم القرآن ببيانها :
- سمات أخلاقية كالكذب ، والسخرية والاستهزاء ، وإيذاء النبي ﷺ والمؤمنين ، والتجسس ، وقطيعة الرحم ، ونقض العهود والمواثيق .
- سمات عقائدية فكرية كادعاء الإيمان ، والتحاكم إلى الطاغوت ، وموالاتة اليهود والكفار ، وخلف الوعد ، والتكاسل عن الصلاة ، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف .
- سمات نفسية كالحسد ، والجبن ، والخوف ، والرياء ، والاستكبار ، والبخل ، والخداع ، وسوء الظن .

ومن أهم الوسائل والأساليب التي اعتمد عليها النظم القرآني في بيان تلك السمات أسلوب السخرية والتهكم ، وهو نفس سلاح المنافقين الذي اعتمدوا عليه في هدم أركان هذا الدين حيث أكد القرآن في كثير من مواضعه مبادلتهم سخريةً بسخرية ، وكانت سخريته أشد وقعا

وأكثر إيلاما ، حيث عرض سخريتهم من المسلمين ورد عليها ردا قويا ، ثم تهكم من عقيدتهم وأخلاقهم الوضيعة بأساليب بديعة ، وصور بلاغية قوية .

وفي هذا الفصل سأتناول بالتحليل البلاغي - إن شاء الله تعالى - أكثر الشواهد القرآنية التي ضمت مشاهد من هذه السخرية ؛ محاولا من خلال هذا التحليل إبراز خصائص التراكيب وإيحاءات الصورة ، وما تنطوي عليه من أسرار ، متكئا في ذلك على كلام العلماء ، وما يفتح الله تعالى به ، والله الموفق والمستعان .

المبحث الأول

سخرية المنافقين من المسلمين والرد عليها

المبحث الأول : سخرية المنافقين من المسلمين والرد عليها

كان المنافقون أخطر عدوٍّ للدين بما أُتيح لهم من مزاولة حرب الإسلام في خفية ، ومن أشد أسلحتهم التي استخدموها في هدم هذا الدين : سلاح التهكم والسخرية ، فتنفخوا في صوغها وتوجيهها نحو دين الإسلام ، وسخروا من كل شيء فيه لاسيما المسلمون ، ولولا أن الله ﷻ أراد لهذا الدين أن يبقى وأن تعلقوا رأيتُهُ ، لاستطاع هؤلاء المنافقون ومن شايعهم من أهل الكفر من اليهود والمشركين بما يبثون من سموم وحقد أن ينجحوا في القضاء على هذا الدين وأهله ، ولكن هيهات ، فقد رد القرآن الكريم كل سهم أطلقوه نحو الإسلام والمسلمين إلى نحورهم ، وبأدلهم سخرية بسخرية أشد وأوجع ، بل وأحصى صفاتهم السيئة ، وكشف عن وجوههم القبيحة أمام المسلمين حتى لا يتأثروا بكلامهم أو سخريتهم .

وقد وردت سخرية المنافقين من المسلمين في عشرة مواضع من القرآن الكريم (١) ، منها ما ورد صريحا بلفظ السخرية والاستهزاء ، ومنها ما هو معنوي يفهم من السياق .

وأول هذه الشواهد قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة ١٣-١٥] .

هذه الآيات من سورة البقرة ، وهي أول ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، والتي كان يسكنها - ضمن من يسكنها - اليهود ، والسورة الكريمة تضم موضوعات متعددة ؛ فهي سورة مترامية المعاني ، متعددة الجوانب ، ولكن يبدو أن الطابع الذي يغلب على أكثر مشاهدتها هو شرح تاريخ اليهود وإبراز موقفهم من الدعوة .

والمحور العام الذي يجمع بين موضوعات هذه السورة المتعددة محور مزدوج يترابط فيه الخطان الرئيسان ترابطا شديدا ؛ فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة ، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه من تلك العلاقة البالغة القوة بين اليهود والمنافقين من جهة ، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى ، ومن الناحية الأخرى تدور حول موقف جماعة المسلمين في أول نشأتها ، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض .

(١) وردت في البقرة آية ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧ .

والتوبة : الآيات ٦٤، ٦٥، ٧٩ .

والحديد : ١٣، ١٥ .

ومعلوم أن الإسلام بدأت تظهر قوته ، وصار له دولته في المدينة ، مما دفع بعضاً من أهل المدينة إلى الدخول فيه دون أن يثبت الإيمان في قلوبهم ، فناسب ذلك أن تعرض السورة الكريمة بعضاً من خصال هؤلاء المنافقين ومواقفهم المتعنتة تجاه الدعوة ، مع بيان العلاقة التي تربط بينهم وبين العدو الآخر للدعوة وهم اليهود ، وأن القاسم المشترك بين العدوين هو الحقد ، والخداع وكثرة الحيل والأقويل ضد الدعوة .

وقد بينت السورة الكريمة منذ مطلعها السمات العامة لثلاث طوائف من الناس ؛ فابتدأت بطائفة المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله ، وبشرت بما أعده الله ﷻ لهم من عظيم الجزاء ، ثم عرضت في إيجاز دقيق سمات الكافرين وإصرارهم على العناد والمكابرة ، ولذا ختم - سبحانه - على قلوبهم وسمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، وناسب ذلك أن يذكر الفريق الثالث وهم المنافقون ، فقد وافقوا في الظاهر الطائفة الأولى ، ووافقوا في الباطن الطائفة الثانية .

ومن البين أن النظم القرآني أطنب في ذكر صفات المنافقين وكشف عن هويتهم ، وهذا التفصيل والإيضاح من مطابقة الكلام لمقتضى حالهم ؛ وذلك لأن النفاق يقوم على الحيلة والخداع والتقول ببعض الأقويل ، كما أن صفات المنافقين قد تشبه على كثير من الناس ، ومن هنا أطنب النظم الكريم في الإبانة عنها .

ومن جملة الصفات التي كشفها النظم القرآني وأماط اللثام عنها هنا : ادعاء الإيمان باللسان دون القلب ، وخداع الله والمؤمنين ، والإفساد في الأرض ، والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين ، والأخيرة هي المعنية بالتحليل البلاغي ، وشواهدا واضحة في الآيات السابقة ، بدايتها سخرية المنافقين من الذين آمنوا ، ونهايتها السخرية الصادرة من الله ﷻ ردًا على سخريتهم ، وهي سخرية أوجع مسًا وأوقع إصابة .

أما سخريتهم من الذين آمنوا فتقع في شاهدين :

- الأول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد جاء هذا الشاهد بعد أن نهى القرآن هؤلاء المنافقين عن المنكر، والتخلي عن الإفساد في الأرض في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَّا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١١] ولما لم يستجيبوا وردُّوا بقولهم : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ، نصحهم باكتساب الفضائل وتحصيل الإيمان بقوله : ﴿ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ ﴾ لكنهم لم يستجيبوا أيضا ، واتسموا بالكبر والعنجهية ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وسخروا من أهل الإيمان بقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ، فحقروا من شأنهم ووصفوهم بالسفهاء .

وقد مُهِّدَ لجملة السخرية هذه بقوله تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس (١)) ، حيث صدرت بـ (إذا) الظرفية المتضمنة معنى الشرط ، وهي - هنا - بمعنى (لو) ؛ (للدلالة على تحقق إبطانهم الكفر وإخفائه ، وأنهم على حال من الكفر تقتضي أنهم لو قيل لهم كذا لقالوا كذا) (٢) .

كما جيء بالفعل (قيل) مبنياً للمفعول ؛ للإشارة إلى عموم القائلين ، مما يدل على أن موقفهم الراض للإيمان هو الموقف الدائم سواء دعاهم الرسول أو دعاهم غيره ، وسواء كانت الدعوة للإيمان في عصر النبوة أو بعدها إلى قيام الساعة (٣) ، وفيه أيضاً (إشعار بأن ضلالهم قد انكشف وأصبح بيّن الانكشاف والوضوح ، بحيث انطلق كل موجود في محيطهم يدعوهم إلى الاستقامة والانضمام في موكب الناس الذين صانوا إنسانيتهم عن هذا الانحراف السفيه الذي يعيش فيه المنافقون) (٤) .

وصدرت بفعل الأمر (آمنوا) ؛ لنصح وإرشاد هؤلاء المنافقين حتى يجرّدوا إيمانهم من الأهواء ويجعلوه خالصاً لله ﷻ .

والسر في مجيء التعبير (كما آمن الناس) دون (المؤمنين) ؛ لمزيد من التوبيخ لهؤلاء المنافقين ؛ لأن الإيمان أقرب شيء إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ومن شأن الناس أن يستجيبوا لدعوة الإيمان ، وأن من استجاب للرسول هم الناس ولا اعتبار لغيرهم (٥) ، فإن لم يستجيبوا لدعوة الإيمان خرجوا من جملة الناس العقلاء ودخلوا في زمرة البهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل ، وهذا القول فيه تلويح بالسخرية والتهكم من عقول هؤلاء المنافقين .

ولذا كان ردهم على دعوتهم للإيمان بالسخرية والاستهزاء بالمؤمنين بقولهم : (أنؤمن كما آمن السفهاء) ؛ بتشبيه إيمان المسلمين بإيمان السفهاء ، والسفه : الخفة والحركة والاضطراب ، وقيل زمام سفیه : كثير الاضطراب ، وثوب سفیه : رديء النسج ، وشاع ذلك في الجهل ونقص العقل والرأي (٦) .

وهو جواب للشرط المتقدم (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) ، يظهر استعلاءهم بالباطل على جماعة المسلمين ، حيث إنهم صدروه بهمة الاستفهام ؛ لإفادة الاستنكار والنفى على معنى : لا نؤمن ، وقصدوا به (التبرؤ من الإيمان على أكمل وجه ، وجعلوا الإيمان المتبرأ منه شبيهاً بإيمان السفهاء ؛ تشبيهاً له ، وتعريضاً بالمسلمين بأن الذي حملهم على الإيمان هو سفاهة عقولهم) (٧) ، فتهكموا بالمسلمين عن طريق نفى الإيمان الناشئ عن السفه وعدم التمييز ، وهذا التهكم (حيلة أرادوا بها إماتة دعوة الداعي الذي استمالهم إلى الإيمان الذي تسارع إليه غيرهم من الناس ، فالتشبيه في (كما آمن الناس) أرادوا به تحقير القدوة التي لفتهم إليها الداعي) (٨) .

(١) (ال) في (الناس) (قد تكون للعهد ، أي : آمنوا كما آمن الرسول وأصحابه ، وهم ناس معهودون ، وقد تكون للجنس والمراد : الناس الكاملون في الإنسانية ، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ، ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل) (ينظر : الكشاف ١ / ٦٢ بتصرف) .

(٢) روح المعاني ١ / ١٥٤ بتصرف .

(٣) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ١ / ٣٧ .

(٤) ينظر : التفسير القرآني للقرآن الكريم - د : عبدالكريم الخطيب ١ / ٣٤ بتصرف يسير - دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ .

(٥) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) ينظر : (لسان العرب - سفه) .

(٧) التحرير والتنوير ١ / ٢٨٧ بتصرف .

(٨) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ١ / ٣٧ بتصرف يسير .

ويحتمل أن يكون قولهم هذا من باب التعنت والتجلبد ؛ حذرا من الشماتة وهم عالمون بأن المؤمنين ليسوا بسفهاء ، ولكنهم وَسَمُوا مَنْ آمَنَ بالسفهاء وسخروا منهم بهذا الوصف ؛ لأنهم (لجهلهم وإخلالهم بالنظر والإنصاف اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق ، وأن ما عداه باطل ، وَمَنْ رَكِبَ مَثَنَ الباطل كان سفيها ؛ ولأنهم كانوا في رياسة وسطوة في قومهم ويسار ، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم مَوَالٍ كصهيب الرومي ، وبلال ، وخبَّاب ، فدعوهم سفهاء ؛ تحقيرا لشأنهم وسخرية بهم) (١) .

وقد يسأل سائل : إذا كان القائلُ المؤمنون - كما هو الظاهر - والمجيبُ المنافقون يلزم أن يكونوا مُظْهِرِينَ للكفر إذا لقوا المؤمنين ، فأين النفاق حينئذ وهو المفهوم من السياق ؟
والجواب : أن هذا الرد من المنافقين كان فيما بينهم وحكاه الله تعالى عنهم ، وردده عليهم ليفضحهم به ، وليس الجواب ما يقال مواجهة فقط (٢) .

ولذا كان رد القرآن على هذه السخرية عنيفا وحاسما ، حيث قال : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) ، فردَّ كل سهم أطلقه هؤلاء المنافقون نحو المسلمين إلى نحرهم ، وواجه سخريتهم بالمسلمين بسخرية أشد وأوجع ؛ حيث صاغها في أسلوب خبري مشحون بجملة من المؤكدات ، أهمها تصديرها بـ (أَلَا) الدالة على تحقق ما بعدها ، ثم التعبير بـ (إِنَّ) المؤكدة لمضمون الجملة ، وكذا التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام ، وأسلوب القصر من طريق تعريف الطرفين ؛ حيث قصرهم النظم الكريم على السفاهة دون المؤمنين قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيا فيه قلب ، على معنى (هم وحدهم السفهاء دون من عرضوا بهم) .

ثم زاد في السخرية والتهكم بنفي علمهم بالسفاهة مع أنهم غارقون فيها بقوله : (وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) ؛ للدلالة على غرور هؤلاء المنافقين وانخداعهم بأنفسهم ، حيث ظنوا أنهم فوق الناس وهم أحقر الخلق اعتقادا وسلوكا .

والشاهد الثاني للسخرية من المسلمين جاء في الآية التالية مباشرة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا

لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمْنَا وَإِذَا حَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، وهي سخرية لفظية صريحة جاءت لتبين النوع الرابع من قبائحهم ، فهم لم يقفوا عند حد الكذب ، والخداع ، والسفه والادعاء ، بل أضيف إليها الضعف واللؤم والتآمر ، وقد بلغ من تمردهم في النفاق أنهم كانوا يظهرون بوجهين ، ويتكلمون بلسانين ، فإذا صادفوا النبي ﷺ قالوا : آمنا ، وإذا انفردوا بأصحابهم قالوا : نحن نقول ذلك استهزاء واستخفافا بعقولهم ، ونحن معكم دونهم .

وسبب نزول هذه الآية : ما ذكره الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ

(١) روح المعاني ١ / ٥٥ بتصرف .

(٢) ينظر : لغة المنافقين في القرآن الكريم ص ٣٢ - د : عبد الفتاح لاشين - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .

فقال عبد الله بن أبيّ : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فذهب فأخذ بيد أبي بكر الصديق فقال : مرحبا بالصدّيق سيد بني تميم ، وشيخ الإسلام ، وثاني رسول الله في الغار ، الباذل نفسه وماله ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحبا بسيد بني عدي بن كعب ، الفاروق القوي في دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عليّ فقال : مرحبا بابن عم رسول الله وختنته سيد بني هاشم ما خلا رسول الله ، ثم افترقوا ، فقال عبد الله بن أبيّ لأصحابه : كيف رأيتموني فعلت ؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت ، فأثنوا عليه خيرا ، فرجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بذلك ، فأنزل الله ﷻ هذه الآية (١) .

والآية بيانٌ لأحوال المنافقين وتناقض أقوالهم في أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين المخاطبين ، فقد عبر النظم القرآني عن حالهم مع المؤمنين بالفعل (لُقُوا) ، وعبر عن حالهم مع إخوانهم من الشياطين بالفعل (خَلُوا) ؛ إيدانا بأن هؤلاء المنافقين لا أنس لهم بالمؤمنين ، ولا طمأنينة منهم إليهم ، فهم لا يجالسونهم ولا يسامرونهم ، بل إن ملاقاتهم معهم مجرد لقاء (عفوا أو من غير إرادة) ، أما شأنهم مع شياطينهم فهم إليهم يركنون ويتسامرون ، فلذلك هم بهم يخلون ، ولذلك لم يقل النظم القرآني : (وإذا خلوهم إلى شياطينهم) ؛ ليدل على مدى التلطف إلى الخلو بهم والتفرد معهم (٢) .

إضافة إلى ما سبق : فإن الفعل (لُقُوا) معناه : استقبال الشخص قريبا منه ، وهذا يتناسب مع طبيعة المنافقين في التظاهر بإيمانهم حيث يأخذون جانب العلانية ، أما الفعل (خَلُوا) ففيه إيحاء بالستر والخفاء ، وهذا يتفق مع ما يدعو إليه شياطينهم من الدس والكيد ، والمكر بالدعوة وأهلها .

ومن الفروق البلاغية الدقيقة في الآية - أيضا - أن المنافقين عندما لقوا الذين آمنوا قالوا : (آمنا) فجاءوا بالجملة (فعلية) خالية من التوكيد ، وحينما خاطبوا شياطينهم قالوا : (إنا معكم) فجاءوا بالجملة (اسمية) مؤكدة بأنّ . فما السر في ذلك ؟

الجواب : أنهم جاءوا بالجملة الفعلية (آمنا) غير مؤكدة ؛ لأن ما قالوه للمؤمنين مجرد قول باللسان لم يصدر من قلوبهم ؛ لأن الإيمان الذي ادعوه لم يسكنها ، ومن ثم لم تكن نفوسهم مقتنعة به ، وليس لهم من عقيدتهم باعث ومحرك للتوكيد ، فلم يؤكدوا قولهم ؛ ليوهموا المؤمنين أنهم في مرتبة لا ينبغي أن يترددوا في إيمانهم حتى يحتاجوا منهم إلى تأكيد .

أما خطابهم لشياطينهم من اليهود فهو صادر عن أريحية ورغبة وصدق ، ولذا صاغوه صياغة مؤكدة ، كما أن هذا التوكيد يتناسب مع رغبتهم في إثبات ما هم عليه من النفاق أمام إخوانهم ، وأنهم ما زالوا في صحبتهم ولم يفارقوهم ، فضلا عن إزالة ما قد يجري في خواطرهم من أنهم فارقوا دينهم ، وانقلبوا إلى دين الإسلام بقلوبهم .

ويلحظ أن النظم القرآني استعار اللفظ (شياطينهم) لأصحابهم من دعاة الفتنة ، وأنصار الباطل ، ومن كانوا يأمرونهم بالكذب من اليهود ؛ لسر بلاغي جليل وهو الدلالة على تمردهم وتحسينهم القبيح وتقبیحهم الحسن ، فهناك رابطة تجمع بينهم وبين هؤلاء الذين خلوا إليهم

(١) ينظر : أسباب النزول للواحد ص ١٤ ، والكشاف ١ / ١٨٤ .

(٢) ينظر : بلاغة تطبيقية ، دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص - د بسيوني فيود ص ٤١ - مطبعة الحسين الإسلامية القاهرة - ١٩٨١ م .

وهي التمرد ، والعتو ، والصد عن سبيل الله ، وأضيفت الشياطين إليهم ؛ للمشاركة في الكفر ، وللتأكيد على الاختلاط والامتزاج والحب المتبادل بينهم ، والبعد عن الخير والصلاح .

ولتأكيد أنهم مع هؤلاء الشياطين ، وأنهم مشاركون لهم في كل ما من شأنه أن يدمر الدين أتبعوا قولهم السابق : (إنا معكم) بجملة : (إنما نحن مستهزون) ، وهي موطن السخرية في هذه الآية ، وفصلت عن جملة (إنا معكم) ؛ لكمال الاتصال ؛ لأن الجملة الثانية مقررة ومؤكدة لمضمون الأولى ، أو أنها بدل اشتمال من سابقتها ؛ لأن الأولى معناها : الثبات على الكفر ، والثانية : رد للإسلام ، ومن رد الإسلام فقد ثبت على الكفر ، ويجوز أن يكون الفصل للاستئناف البياني ، كأنهم حين قالوا : (إنا معكم) اعترض اليهود عليهم فسألوهم : فما بالكم - إن كنتم معنا - توافقون أهل الإسلام وتظاهرونهم على دينهم ؟ فأجابوهم : (إنما نحن مستهزون) .

وهذه الجملة الساخرة جاءت خبرية مشحونة بالمؤكدات : (إن) ، واسمية الجملة ، والقصر بإنما ؛ حيث قصرُوا أنفسهم على الاستهزاء بالمؤمنين قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا فيه قلب ، والمعنى : ما نحن إلا مستهزون لا مؤمنون ؛ لتأكيد استهزائهم بالمؤمنين ، فضلًا عن التعبير باسم الفاعل (مستهزون) للدلالة على عراققتهم وتوغلهم في الكفر المؤدي بهم إلى الاستهزاء بالمسلمين ؛ لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له ، مصرٌّ على خلافه .

وتأكيد جملة السخرية بكل هذه المؤكدات جاء دفعا للإنكار المتوقع من شياطينهم حين يقولون لهم (إنا معكم) ، وهم في الوقت ذاته يعلنون إيمانهم للمؤمنين بقولهم : (أمانا) ، فهذا التذبذب في القول والاعتقاد هو الذي دفعهم إلى تأكيد كفرهم بالمؤكدات السابقة .

وما يكاد الله ﷻ يحكي مقالة المنافقين السابقة وسخريتهم بالمؤمنين حتى يصب عليهم غضبه بالتهديد الشديد ، ويرد عليهم سخريتهم بالمؤمنين بردًّا هو في غاية الجزالة والفخامة فيسخر من المنافقين في أربع آيات متتابعات في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّمْ وَيَسْتَهْزِئُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة : ١٥-١٨] .

أما الشاهد الأول للسخرية من المنافقين فجاء في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّمْ وَيَسْتَهْزِئُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وهي جملة مستأنفة استئنافية بيانية ، لذا جاءت مفصولة عن جملة (إنما نحن مستهزون) ؛ لأنها جواب عن سؤال تقديره : وبماذا يجازيهم الله تعالى على قولهم هذا ؟ فأجيب (الله يستهزئ بهم) ، وهذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر في حديثه عما يوجب

الاستئفاف وترك العطف ، إذ قال : " وههنا - أي في الآية الكريمة - أمر سوى ما مضى يوجب الاستئفاف وترك العطف ، وهو أن الحكاية عنهم بأنهم قالوا : كيت وكيت تحرك السامعين لأن يعلموا مصير أمرهم وما يُصنعُ بهم ، وأُنزلُ بهم النعمة عاجلاً أم لا تنزلُ ويُمهّلون ، وتُوقَعُ في أنفسهم التمني لأن يتبين لهم ذلك ، وإذا كان كذلك كان هذا الكلام الذي هو قوله : " الله يستهزئ بهم " في معنى ما صدر جواباً عن هذا المقدر وقوعه في أنفس السامعين ، وإذا كان كذلك كان حقه أن يؤتى به مبتدأ غير معطوف ؛ ليكون في صورته إذا قيل : فإن سألتهم قيل لكم : " الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون " (١) ، والإمام عبد القاهر يقصد بقوله في النص السابق : (أمر سوى ما مضى) أنه أبان من قبل عن سر آخر يوجب فصل الآية الكريمة عن سابقتها حيث ذكر " أن قوله تعالى : " إنما نحن مستهزئون " حكاية عنهم أنهم قالوا ، وليس بخبر من الله - تعالى - وقوله تعالى : (الله يستهزئ بهم) خبر من الله - تعالى - أنه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم ، وإذا كان كذلك كان العطف ممتنعاً ؛ لاستحالة أن يكون الذي هو خبر من الله - تعالى - معطوفاً على ما هو حكاية عنهم ؛ ولإيجاب ذلك أن يخرج من كونه خبراً من الله - تعالى - إلى كونه حكاية عنهم ، وإلى أن يكونوا قد شهدوا على أنفسهم بأنهم مؤاخذون ، وأن الله - تعالى - معاقبهم عليه " (٢) .

ويرى السعد أن النظم الكريم لو عطف " الله يستهزئ بهم " عليها ، أي على قولهم : " قالوا إنا معكم " للزم كونه مشاركا لها في كونه مفعول (قالوا) وهذا باطل ؛ لأنه ليس من مقول قول المنافقين (٣) ، وما ذكره الشيخ السعد يعني الفصل بين الآية الكريمة وقوله : (قالوا إنا معكم) لعدم الاشتراك في القيد ، وهو ما يعرف عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف ؛ وذلك لأن قولهم - أي المنافقين - مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم ، وأما استهزاء الله فدائم في كل وقت وليس مقيدا بهذا الوقت ، ولذا وجب الفصل لعدم الاشتراك في القيد .

وهي جملة خبرية صريحة في السخرية من المنافقين ، ولكن كيف يجوز وصف الله تعالى بأنه يستهزئ ، وقد عُلِمَ أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبيس وهو على الله تعالى محال ؟ ذكر الشيخ الرازي عدة وجوه لذلك ومن بينها - وهو ما أميل إليه - : أن استهزاء الله بهم يُحمَلُ على الانتقام والعقوبة والجزاء المقابل لاستهزائهم ، وسمى ذلك استهزاء على سبيل المشاكلة مثل قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّزُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] (٤) ، أو أنه مجاز مرسل بعلاقة السببية حيث ذكر السبب وهو (الاستهزاء) وأراد المسبب وهو (حصول الهوان والحقارة) الذي هو من آثار الاستهزاء .

وفي التعبير بلفظ الاستهزاء عن العقوبة والجزاء ما يدل على غيرة الله ﷻ على عباده المؤمنين وانتقامه من كل من يستهزئ بهم أو يؤذيهم ، وفيه إشارة إلى تحقيق الهزيمة النفسية

(١) دلائل الإعجاز ٢٣٥ .

(٢) السابق ٣٣٢ .

(٣) المطول ٢٤٨ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير ٧٧ / ٢ .

وما يصحبها من الشعور بالذل والاستصغار في نفس المستهزأ بهم ، كما أن فيه دلالة على عظم شأن المؤمنين وعلو منزلتهم ؛ حيث إن الله - تعالى - هو الذي يتولى الاستهزاء بالمنافقين بنفسه انتقاما للمؤمنين ، يقول الشيخ الزمخشري في إسناد الاستهزاء إلي الله ﷻ مصدرًا الجملة بذكره : (إن الله ﷻ هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزأؤهم إليه باستهزاء ولا يُؤبَهُ له في مقابلته ؛ لما يُنزل عليهم من النكال ، ويُجِلُّ بهم من الهوان والذل ، وفيه أن الله ﷻ هو الذي يتولى الاستهزاء بهم ؛ انتقاما للمؤمنين ، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله) (١) .

ويلحظ أن النظم القرآني عدل عن التعبير بالاسم (الله مستهزئ بهم) الذي يطابق قولهم : (إنما نحن مستهزئون) إلى التعبير بالمضارع (الله يستهزئ بهم) ؛ إيذانًا بأن احتقاره سبحانه لهم ومجازاتهم على استهزائهم متجدد ومستمر ، ولا شك أن التجدد الاستمراري الذي أفاده التعبير بالمضارع - هنا - أبلغ في هذا المقام من الاستمرار الثبوتي الذي يفيد التعبير بالاسم (مستهزئون) ؛ لأن البلاء إذا استمر قد يهون وتآلفه النفوس (٢) .

كما صرَّح بالمستهزئ به في قوله : (الله يستهزئ بهم) ؛ ليكون الاستهزاء نصًّا بهم ، وإنما تركه المنافقون فيما حكى عنهم (إنما نحن مستهزئون) ؛ خوفا من وصوله إلى المؤمنين فأبقوا اللفظ محتملا ؛ ليكون لهم مجال في الذَّبِّ عن أنفسهم بأنهم لم يستهزئوا بالمؤمنين إذا حُقِّقوا .

وفي تقديم المسند إليه (الله) على الخبر الفعلي (يستهزئ بهم) دلالة على القصر ؛ حيث قصر الاستهزاء بهم على الله ﷻ قصر صفة على موصوف قصرًا إضافيًا ؛ تعظيمًا لشأن المؤمنين ، وتأكيدًا على معاقبة الله ﷻ لأعدائهم ، وانتقامه لهم .

وفي قوله تعالى : (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) بعد قوله : (الله يستهزئ بهم) زيادة في السخرية بهم ، والتهديد والوعيد ، حيث وصلت بسابقتها للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ؛ حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى ، ومما حسن الوصل بينهما تناسبهما في كون المسند فيهما مضارعًا ، وكذا الاتحاد في المسند إليه .
والجملة الكريمة خبرية تكشف عن لون آخر من غضب الله عليهم ، حيث يمكنهم من المعاصي ليزدادوا إثما ، وفي هذا تحذير لهم بعدم الاعتزاز بأمهال الله لهم ، والتعبير بحرف الظرفية (في طغيانهم) يدل على انغماسهم في الطغيان والشر والفساد ، وإضافة (الطغيان) إلى ضميرهم فيه إشارة إلى تفضيع شأنه ، وغرابته في بابه ، وأنهم اختصوا به حتى صار يُعرَف بإضافته إليهم .

(١) الكشاف ٦٥ / ١ بتصريف يسير .

(٢) ينظر: روح المعاني ١٦٠ / ١ .

(٣) المد : الإهمال والمطاوله والزيادة ، من مد الجيش وأمده إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره ، ومدته الشيطان في الغي وأمده إذا وصله بالوساوس حتى يتلاحق غيُّه ويزداد انهماكا فيه ، ينظر : (لسان العرب - مد) ، والعمه : مثل العمى إلا أن العمى عام في البصر والرأي ، والعمه في الرأي خاصة وهو التحير والتردد ، ينظر : (المفردات للراغب - عمى وعمه) .

وإيثار التعبير بـ (العمه) دون (العمى) ؛ لأن العمه أخص في الاستعمال ومراد به في الآية عمى البصيرة ، والتردد في الرأي ، ومجاوزة الحد في الكفر والطغيان مع سلامة حاسة البصر منهم ، ولاشك أن وصفهم بالعمه أبلغ وأشد سخرية من وصفهم بالعمى ؛ لأن الفعل (يعمهون) مستعار لطمس القلوب وانعدام الإحساس ، وهذا أشد خطراً وأوخم عاقبة ، وأسوأ مصيراً من عمى البصر ، ولذا عبر به النظم القرآني سبع مرات (١) في سياق الحديث عن الكفر وأهله ، وذلك - والله أعلم - لأن في هذا الفعل تصويراً لانغماسهم في القلق ، وتماديهم في الباطل بلا هادٍ يهديهم ، ولا مغيبٍ يغيثهم ، ولا منقذٍ يخرجهم مما هم فيه (٢) .

أما الشاهد الثاني لسخرية الله ﷻ من المنافقين فجاءت في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ

أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَحِمَتْ جُنُوبَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (*) ، والسخرية فيه نابعة من تصوير هؤلاء بتجار خائبين خاسرين ، لم يتاجروا بسلع مادية ، وإنما بسلع روحية ومعنوية ؛ حيث أعطاهم الله ﷻ الهداية ، وقرَّب منهم النور ، وأدنى منهم الخير والحق ، ولكنهم أخذوا هذا الخير كله وهذا الهدى ، وذهبوا ليتاجروا به ، فدفعوه ثمناً لسلعةٍ أخرى ظنوها رابحة تأتي إليهم بالخير الوفير ، ولكنهم وجدوها سلعة خاسرة تافهة ، فأصابهم هم وحزنٌ عميق ، وخيبة أمل لا حدود لها حين اكتشفوا أنهم فقدوا كل شيء حتى أنفسهم ؛ بسبب إغفال عقولهم ، وإغلاق منافذ الإدراك منهم ، ولاشك في أن تصوير نظرة المنافقين إلى الهدى والضلال على أنهما من السلع التجارية ، ثم بيان عدم اهتدائهم إلى تمييز الجيد من الرديء في هذه السلع مع وضوحها ، ثم خسرانهم في هذه التجارة من حيث كانوا يلتمسون الكسب والنفع سخرية واضحة وتهكم بالغ بهؤلاء الجامعين لتلك الصفات الذميمة .

هذا عن وجه السخرية في الآية ، أما عن بلاغتها ؛ فواضح أنها فصلت عن سابقتها للاستئناف البياني ؛ إذ هي واقعة في جواب عن سؤال مقدر عن علة اتصافهم بالصفات الذميمة السابقة ، حيث أجيب بأن هؤلاء إنما جسروا على هذه الصفات لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، أو فصلت عن التي قبلها ؛ لتفيد تقرير معنى (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) ، فمضمونها بمنزلة التوكيد ، وذلك مما يقتضي الفصل (٣) ، ويلحظ أن النظم القرآني بدأها بالإشارة إلى المنافقين الذين تقدم ذكرهم ، الجامعين لتلك الأوصاف الذميمة باسم الإشارة للبعيد (أولئك) ؛ للدلالة على بُعد منزلتهم في الشر وسوء حالهم ، وبلوغهم في الكفر مبلغاً بعيداً ، والإشارة إليهم لتمييزهم عن عداهم أكمل تمييز بحيث يصيرون كأنهم حضارٌ مشاهدون على ما هم عليه وما هم فيه من معنى البعد الحسي والعقائدي .

(١) حيث ورد في البقرة : ١٥ ، والأنعام ١١٠ ، والأعراف ١٨٦ ، ويونس ١١ ، والحجر ٧٢ ، المؤمنون ٧٥ والنحل آية ٤ .

(٢) ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، للدكتور : عبد العظيم إبراهيم المطعني ص ٣٠٧ وما بعدها - الطبعة الأولى - مكتبة وهبة - القاهرة - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .

(*) (الاشترء كالشراء ، وهو استبدال السلعة بالثمن ، وقيل : إنه من الأضداد ؛ لأن المتبايعين تبايعا الثمن والمثمن ، فكل من العوضين مشتري من جانب مبيع من جانب ، والاشترء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر ، (ينظر : روح المعاني ١ / ١٦١) .

والضلالة : الجور عن القصد وفقد الاهتداء ، والهدى : التوجه إليه . (ينظر : المفردات للراغب - ضل وهدى) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٢٩٧ .

واتبع اسم الإشارة بالوصول وصلته (الذين اشترؤا الضلالة بالهدى) ؛ لدمهم بما في حيز الصلة وتحقير شأنهم ، والتحقير من معاني السخرية ، ولو حذف الوصول ووضع مكانه أي لفظ آخر ما أدى المعنى الذي أداه الوصول ، فلو قيل مثلا : (أولئك هم الخاسرون) ما أفاد أن هؤلاء المنافقين تكالبوا على الضلال كما يتكالب المشتري على السلعة التي يحتاج إليها لقصد الربح والزيادة .

(وقد جاء الموصول مسندا ليفيد قصر المسند على المسند إليه ، على اعتبار أنه بمعنى المعرف بلام الجنس ، فيكون القصر ناشئا من طريق تعريف الطرفين ، وهو قصر ادعائي باعتبار أنهم بلغوا الغاية في اشتراء الضلالة والحرص عليها ؛ إذ جمعوا الكفر ، والسفه والخداع ، والاستهزاء بالمؤمنين) (١) .

وإمعانا في ذم هؤلاء المنافقين ، وتحقيرهم ، والسخرية منهم ، استعار النظم الكريم الاشتراء للاستبدال والاختيار ، استعارة تصريحية تبعية في الفعل ، حيث إنهم لم يشتروا سلعة نافعة ، بل اشترؤوا ضلالة ، وكان ثمنها الهدى ، ولا شك أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة في تصوير ضلال هؤلاء وقلة عقولهم ؛ لأنها تحدد مقدار رغبتهم العارمة في الضلالة ، وزهدهم في الهداية ؛ فإن المشتري في العادة يكون شديد الرغبة فيما يشتريه ، شديد الزهد فيما يبذله من ثمن .

ويحتمل أن تكون الاستعارة مكنية بأن شُبِهت الضلالة بالمبيع والهدى بالثمن ، بجامع الاختيار في كل ، وقد قويت هذه الاستعارة حتى صارت كالحقيقة ، كأن هناك مبيعة حقيقية بذكر الربح والتجارة ، وهما من ملائمت المشبه به ، وهذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا في الجزالة والفخامة ؛ لأن هذه الاستعارة صورت حقيقتهم أبلغ تصوير . ويجوز أن يكون الاشتراء - هنا - مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم ؛ حيث أطلق الاشتراء على لازمه الثاني وهو الحرص على الشيء والزهد في ضده ، أي حرصوا على الضلالة وزهدوا في الهدى ، إذ ليس فيما وقع من المنافقين استبدال شيء بشيء ؛ لأنهم لم يكونوا من قبل مهتدين (٢)

ولما كانت الباء في اللغة تدخل على المتروك ، فيكون دخولها على (الهدى) فيه دلالة على أن هؤلاء تركوها واشترؤوا (الضلالة) ، فهل كانوا على هدًى حتى يتركوه ؟ ! . الإجابة : ربما ؛ ومقام السخرية يقتضي ذلك ؛ كأن يهتدي إنسان ثم يجد أن الهدى لا يحقق له النفع الدنيوي الذي يطلبه فيتركه ليشتري به الضلال ليحقق ما يريد ، فجعل تمكنهم من الهدى لقيام أدلته وتيسير أسبابه كأنه حاصلٌ فعلا وواضحٌ في أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوا بها (٣) بسبب قلة عقولهم ، وتفكيرهم المريض الذي زين لهم ذلك . وقد يُراد بالهدى : الهدى الجبلي ، وقد كان حاصلًا لهم على الحقيقة ؛ إذ كل مولود يُولد على الفطرة ، والدين القيم هو الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها (٤) ، وعلى هذا يكون

(١) التحرير والتنوير ١ / ٢٩٩ بتصرف .

(٢) ينظر : السابق ١ / ٢٩٨ .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم ١ / ٤٨ .

(٤) ينظر : الكشف ١ / ١٨٨ .

مقصد الجملة أن هؤلاء كان يمكنهم أن يختاروا الهدى ولكنهم خالفوا الفطرة واختاروا الضلالة ؛ وهذه سخرية منهم بطريق التلويح ، وتهكمٌ بعقولهم التي زينت لهم ترك الحسن وأخذ القبيح .

ولذا ختم النظم الكريم بجملة السخرية : (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) ، فصدّرها بالفاء ؛ لتفيد ترتيب عدم الربح وعدم الاهتداء على اشتراء الضلالة بالهدى ؛ لأن كليهما ناشئ عن الاشتراء المذكور في الوجود والظهور ، حيث إنهم لما اشتروا الضلالة بالهدى فقد اشتروا ما لا ينفع وبذلوا ما ينفع ، فلا جرم أن يكونوا خاسرين (١) . وهذه الخسارة عبر عنها النظم القرآني بالمجاز العقلي في قوله : (فما ربحت تجارتهم) ، حيث أسند عدم الربح (الخسارة) إلى التجارة وهو لأصحابها ؛ مبالغة في تخسيرهم ، وإشعارا بكثرة الخسارة وعمومها حتى سرت إلى ما يلبسهم ، والأصل : (وما ربحوا في تجارتهم) ، ففيه من المبالغة في إثبات خسارتهم والإيجاز البليغ الذي هو سمة القرآن ما لا يخفى ، (فحينما تسمع : (فما ربحت تجارتهم) تتحدر إلينا المعاني في هذا الأسلوب لتعطينا صور الخسران الكامل ، وتعود بهذا كله إلى صورة إيمانهم بالله سبحانه التي اتضحت تماما لأولى النهى ، وأنهم خسروا خسرانا مبينا) (٢) .

وهذا ما عبر عنه المولى عليه السلام بقوله : (وما كانوا مهتدين) ، فلم يقل : (وما اهتدوا) كما كان السياق يقتضي ؛ لأن (ما كانوا) أبلغ في النفي ؛ لإشعاره بأن انتفاء الاهتداء عنهم أمرٌ متأصل سابق قديم ؛ لأن (كان) تدل على اتصاف اسمها بخبرها منذ المضي ، فكان نفي الكون في الزمن الماضي أنسب (٣) .

وقد جعله غير واحد كناية عن إضاعة رأس المال ؛ " فإن من لم يهتد بطرق التجارة تكثر الآفات على أمواله " (٤) ، والسر في اختيار طريق الكناية المبالغة في تجهيلهم وتسفيهم والسخرية منهم .

وقد عطفت جملة (وما كانوا مهتدين) على جملة (فما ربحت تجارتهم) ؛ للقرب مع التناسب في المعنى ، وهو من باب التكميل أو التتميم ؛ لأن مضمون هذه الجملة معروف بما ذكر من قبل .

وفي الآيتين التاليتين يصعد القرآن الكريم في حدة السخرية من هؤلاء ، ويشن عليهم حملة عنيفة تسقطهم من عليانهم إلى أسفل سافلين بسخرية ثالثة أشد وقعا وأقوى إصابة ؛ حيث يقول جل شأنه : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا

يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ صُمُّ بِنُورِهِمْ عُمَى فَمَهُمْ لَا يَزْجُمُونَ ﴿٨﴾ ، حيث إن الله عليه السلام لما أنهى حقيقة صفات المنافقين

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٢٩٩ .

(٢) الكشاف ١ / ١٨٨ ، بتصرف .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٢٩٩ .

(٤) روح المعاني ١ / ١٦٢ .

أعقبها بضرب الأمثال والنظائر ؛ زيادة في الكشف ، وتتميماً للبيان ، ومما يجعل المثل في الآيتين غنياً في الدلالة وأخصب في الفكرة بناؤه على أسلوب السخرية من هؤلاء المنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ورجعوا إلى الكفر بعد الإيمان ، وإلى الظلمات بعد النور ، فقد مثلهم الله ﷻ بصورة مزرية ، وسخر منهم (بتشبيههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله من الأماكن ، وانتقع بها ، واستأنس ، وأبصر عن يمينه وشماله ، وبينما هو كذلك إذ انطفأت هذه النار ، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغي على الرشد ، ففيه دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذا ذهب الله بنورهم ، وتركهم يتخبطون في ظلمات الشك والكفر والنفاق ، لا يهتدون إلى سبيل الخير ، ولا يعرفون طريق النجاة) (١) ؛ لأن الله ﷻ جعلهم كالصم والبكم والعمى ، وما داموا لم ينتفعوا بهذه الحواس فكأنهم فقدوها ، فجعلوا كالأنعام التي لا تعقل ، والجمادات التي لا تتنطق ولا تتحرك ، وهذا هو موطن السخرية ﴿ وَرَكَعَتْهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

ووجه الشبه بين هؤلاء المنافقين وبين المشبه به (الذي استوقد ناراً) كثيرة ، ذكرها الفخر الرازي في مفاتيح الغيب (٢) وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط (٣) منها :
- أن الذي يستوقد النار إنما يستوقدها ليدفع بها الأذى عن نفسه ويحميها ، فإذا انطفأت عنه كان قد عرض نفسه للهلاك ، وكشف عنها ستار الأمن ، وهذه حال الناطق الذي يحقن دمه بالإسلام ويبيحه بالكفر .
- ومنها : أنه يهتدي بنور الإسلام ، فإذا ارتكس ونكص فقد زال عنه النور ، فضلّ وتاه ، وغشيته ظلمة كفره ونفاقه .
- ومنها : أن المستضيء بهذه النار إنما يستضيء بنورٍ خارجي لا ينبع من ذات نفسه وداخل قلبه ، أي : نورٌ مستعار ، فظلمة نفسه لا تزال كما هي برغم أن ما حوله مضاء متقد .
- ومنها : أن هذا الضوء خارجي لا يحوطه سياج يحميه ، ومن هنا كان عرضة للذهاب والهلاك فإذا انطفأ ضلّ صاحبه وهلك ، فهو مثال لمن أقرّ بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، فكان إيمانه كالمستعار .
- ومنها : أنه شبه إقبالهم على المسلمين بالإضاءة ، وإدبارهم وتوليهم إلى شياطينهم بضدها .

والحق أن سبب ضرب هذا المثل للمنافقين هو انهماكهم في الغي والضلال ، واستحبابهم العمى على الهدى ، ولذا شبههم الله ﷻ في هاتين الآيتين بتشبيه تمثيلي هو الغاية في الفصاحة والبلاغة ؛ لأنه مثل حالهم أبلغ تمثيل ، وسرح بالخيال بعيداً لنتصور منظر هؤلاء وهم يتخبطون في ظلمات الضلالة ، ولا شك أن تصوير هؤلاء بشخص يستوقد ناراً ، وبعد أن تضيء ما حوله من الأماكن ، وينشرح صدره ، ويستأنس بها ، ويأمن على نفسه ، إذ بالنار تنطفئ فجأة وبدون سابق إنذار ؛ فيتحول النور إلى ظلام ، والأمن إلى خوف ، ويقف الشخص في مكانه حائراً ، لا يدري أين يذهب ، ساكناً لا يتحرك ، ساكناً لا يتكلم ، لا يسمع ولا يبصر

(١) ينظر : مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد علي الصابوني ١ / ٣٦ بتصرف - طبعة دار القرآن - بيروت - لبنان .

(٢) ٨١ / ١ .

(٣) ٧٦ / ١ .

كل هذا فيه جدة وطرافة تدعو إلى التندر والسخرية .
والسخرية في هذا التشبيه التمثيلي جاءت بالغة أقصى القوة ؛ لأنها اتكأت على صور وتراكيب بلاغية دقيقة ؛ وصياغة القرآن توحى فوق ذلك بكثير من العمق والتوجيه ، فقد جاء بالمشبه به (الذي استوقد ناراً) مفرداً مع أن المشبه هو حال جماعة المنافقين - وهو ما يغلب على أسلوب القرآن الكريم في أمثاله - لما في ذلك من مزيد إيحاش وتنفير ، وكأنَّ صاحبها وحده وسط الأهوال والحيرة والشك يتخبط ويعاني ، وذلك أشد وقعا عليه ، وأنكى له ، وتلك حقيقة هذه الفئة التي لا جماعة لها في الواقع فهم كفرد واحد ، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ

شَتَّى ﴾ [الحشر : ١٤] .

وتأمل ما وراء الفعل (استوقد) من الكدّ ، والكدح ، والطلب ، والإلحاح في حصول ذلك والتأكيد والحرص عليه ، والاستدعاء له ، وهو ما يوحي بمدى الجهد الذي بذل من أجل إيقاد هذه النار ، كما أنه نكّر (ناراً) ؛ للإشعار بأنها نارٌ عظيمة ارتفع لهيبها ، وسطع ضوءها حتى أضاءت ما حولها (١) .

ويلحظ أن النظم القرآني قال عن النار : (أضاءت) ولم يقل : (أنارت) ؛ لأن الإضاءة فرط الإنارة ، وهو مناسب للنار ، ولهذا يقال : أضوء من الشمس وأنور من القمر ؛ لأن الشمس أكثر إضاءة من القمر .

وجمع الضمير في (بنورهم) خروجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، إذ كان مقتضى الظاهر أن يقول : (ذهب الله بنوره وتركه) ليعود الضمير على الذي استوقد ناراً ، ولكنه جمع الضمير مراعاةً للحالة المشبهة وهي حال المنافقين ، وهذا من بديع القرآن في الرجوع إلى الغرض الأصلي الذي هو انطماس نور الإيمان منهم ، فهو قريب من رد العجز على الصدر ، وأشبه بتجريد الاستعارة المفردة (٢) .

وقال : (بنورهم) ولم يقل : (بضوئهم) ؛ (لأن الضوء فيه دلالة على النور وزيادة ، ولو قال : (ذهب الله بضوئهم) لأوهم ذهاب الكمال وبقاء ما يسمى نورا ، والغرض إزالة النور بالكلية ، فذكر النور في الآية أبلغ في المعنى ؛ لأن الذي يشبه النور من الحالة المشبهة هو مظاهر الإسلام التي يظهرونها ، وقد شاع التعبير عن الإسلام بالنور في القرآن ، فصار اختيار لفظ النور - هنا - بمنزلة تجريد الاستعارة ؛ لأنه أنسب بالحال المشبهة (٣) .

كما قال : (ذهب الله بنورهم) ولم يقل : (ذهب الله بنارهم) ؛ (للتنبية على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة ؛ ليدل على أن الله ﷻ أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين ، فهذا إيجاز بديع ، كأنه قيل : فلما أضاءت ذهب الله بناره ، وكذلك ذهب الله بنورهم ، وهو أسلوب لا عهد للعرب بمثله ، فهو من أساليب الإعجاز (٤) ، كما أن النور هو أعظم منافع النار والمناسب للمقام (٥) ، أضف إلى ذلك أن النار فيها إشراق وإحراق ، فذهب بما فيها من الإشراق

(١) ينظر : الكشاف ١ / ١٣٠ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٣٠٨ .

(٣) لغة المنافقين في القرآن الكريم ٤٢ بتصرف يسير .

(٤) التحرير والتنوير ١ / ٣٠٩ بتصرف .

(٥) ينظر : روح المعاني ١ / ١٦٥ .

(وهو النور) ، وأبقى ما فيها من الإحراق وهو النارية (١) ، فالجملة تبين أن النور لم يبق منه شيء البتة .

وفي إسناد الذهاب إلى الله ﷻ إشعاراً بأن النور الذي سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم ؛ لأن الذي سلبه هو الله - تعالى - الغالب على أمره .

كما أنه عدى الفعل (ذهب) بالياء دون الهمزة فقال : (ذهب الله بنورهم) ؛ لأن الذهاب بالشيء أبلغ ، حيث إن معناه : أزاله وجعله ذاهباً بأمره ، فالياء - هنا - لها شأن عظيم في تصوير ما دخلت عليه من المعنويات ، حيث إنها أفادت تأكيد الإذهاب ، والمبالغة في نزع نور الإيمان من قلوبهم ، ثم تركهم في ظلمات الكفر والضلالة .

وقال : (وتركهم في ظلمات) ؛ ليدل بذلك على قطع الصلة بينهم وبين ربهم ، وأنهم متروكون غضبا عليهم ونكاية بهم ، كما أن الفعل (تركهم) يفيد الطرح والنبذ كأنهم كالشيء الذي لا يُعبأ به ولا يُنقَت إليه ، ولا يَخْطُرُ ببال (٢) ، فهذا الفعل يفيد تحقير هؤلاء ، والتحقير عون على التهكم والسخرية بهم ؛ ولأنهم لا قيمة لهم البتة تركهم يتخبطون في الظلمات ، كما أنه نكّر (ظلمات) للدلالة على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها أشباح ، ولذا أتبعها بجملة : (لا يبصرون) ؛ لزيادة التهكم والسخرية ، حيث نفى عنهم البصر والبصيرة ، مع حذف مفعول (يبصرون) إيذانا بالعموم والشمول ؛ فهم لا يبصرون مسلكا ، ولا يرون طريقا من طرق الهداية .

ويلحظ أن النظم القرآني أفرد (النور) وجمع (الظلمات) ؛ لأن نور الحق واضح وطريقه واحد ، هو صراطه المستقيم ودينه القويم ، وظلمات الباطل متعددة ومتشعبة ، ولهذا أفرد الله ﷻ سبيل الحق وجمع سبل الباطل .

وبالتدقيق في جملة السخرية : (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) يتضح أنها أفادت تقرير وتوكيد مضمون جملة : (ذهب الله بنورهم) ، كما تضيف إلى ذلك معنى التحقير والازدراء في الفعل (تركهم) ، وشدة الحيرة والتخبط في هذه الظلمات التي جُمعت ثم نُكِّرت ليزيد ذلك من هولها وشدتها وإطباقها ، ثم عمى البصر والبصيرة وسط هذه الظلمات .

وإمعانا في شدة السخرية والتهكم بهؤلاء أتبع تركهم في الظلمات بثلاث أوصاف متتابعة فقال عنهم : (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) ، وهي أخبار لمبتدأ محذوف تقديره (هم صم بكم عمي) ، وضمير المبتدأ مقصود به المنافقون لا شك ، وهذه الأوصاف مرادٌ بها عدم قبولهم للحق وإن كانوا يسمعون بأذانهم ، ويبصرون بأعينهم ، وينطقون بألسنتهم ، وهذا هو موطن السخرية ؛ حيث إنهم لمَّا لم يصغوا للحق ، واشتروا الضلالة بالهدى وُصِفوا بما وصفوا به من الصمم والبكم والعمى .

وفي تلاحق هذه الأوصاف مبالغة في ذمهم ، وبيان أنهم في الجهل والبلادة أسوأ من البهائم ، وأشبه حالا بالجمادات التي لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تبصر ، فمن عُدِم منافذ الإدراك الثلاث كان من الذم في الرتبة القصوى ، خصوصا وأن النظم القرآني أورد هذه الصفات نكرات ؛

(١) ينظر : لغة المنافقين في القرآن الكريم ٤٣ .

(٢) ينظر : الكشاف ١ / ٢٠٠ .

لتحقيرها في ذاتها وذم المتصفين بها وهم المنافقون .
والذي زاد من بلاغة هذه السخرية بناؤها على التشبيه البليغ ؛ لوجود الطرفين حكما ، والتشبيه البليغ من المبالغة بمكان ؛ لأن فيه دعوى الاتحاد بين الطرفين ؛ فحذف الوجه والأداة أوقع في روع القارئ والسامع أن المتحدث عنهم ليسوا مُشَبَّهين بالصم والبكم والعمي ، بل هم كذلك في الحقيقة والواقع (١) ، وهذه سخريّة منهم بالغة .

ولما تقرر فقدهم للسمع والنطق والبصر كان من نتيجة ذلك التعبير بقوله : (فهم لا يرجعون) - وهي جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام - للدلالة على فقدان أي أمل في إيمان هؤلاء أو اهتدائهم ، بدليل الاتيان بـ (لا) النافية والفعل المضارع (يرجعون) الدال على الاستمرار ، كما أن حذف مفعول (يرجعون) فيه إثراء للمعنى ، ودلالة على التعميم ، وإفادة أنهم لا يرجعون عن أحوال كثيرة فاسدة .
والآية الكريمة تنمة للمثل ؛ للدلالة على أن ما أصابهم ليس مجرد انطفاء نارهم وبقائهم في ظلمات كثيفة هائلة مع بقاء حاسة البصر بحالها ، بل اختلست مشاعرهم جميعا ، واتصفوا بتلك الصفات فبقوا جامدين في مكانهم لا يرجعون ، ولا يبدرون أيتقدمون أم يتأخرون ، وحالتهم هذه هي المنبع الحقيقي لسخرية القرآن منهم .

ومن شواهد سخريّة المنافقين من الذين آمنوا - أيضا - قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ

الْمُطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩] (*) .

هذه الآية من سورة التوبة ، وهي مدنيّة بالإجماع ، وقيل : هي آخر ما نزل من القرآن في المدينة المنورة ، وسُميت بأسماء عديدة بلغت عند المفسرين اثنا عشر اسما ، حيث سُميت براءة ، والتوبة ، والمقشقة ، والمبعثرة ، والمشرّدة ، والمخرية ، والفاضحة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمنكّلة ، والمدممة ، وسورة العذاب .

فسميت بالتوبة ؛ لتكرار لفظ التوبة فيها ، وسميت (براءة) ؛ لبدئها بقوله تعالى : (براءة من الله ورسوله) ، وسميت بالفاضحة ؛ لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم ، فقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : التوبة هي الفاضحة ، ما زالت تنزل : ومنهم ... ومنهم ... حتى ظنوا أنها لم تُبق أحداً منهم إلا ذُكر فيها ، كما سميت (المبعثرة) ؛ لأنها بعثرت أسرارهم وكشفت مخازيهم (٢) .

(١) ينظر : من طرائق البيان (التشبيه) - د : عبد الرازق فضل ص ٣٤ - ط ١ - مطبعة الأمانة - القاهرة - ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

(*) معاني المفردات : اللمز : العيب ، ومعناه في الآية : الطعن في صفة أدائها والنية فيها ، والمعنى : يلمزون المطوعين عيبا ولا يظهرون ذلك لكل أحد ، وإنما يتخافتون به فيما بينهم ، وهو يرجع إلى الهمز والسخرية . (لمز - المعجم الجامع) .

المطوعين : المتطوعين ، والتطوع : التنفل وهو الطاعة لله بما ليس بواجب . (طوع - المعجم الجامع) .

جهدهم : بالضم : الطاقة ، وبالفتح : المشقة . (جهد - المعجم الجامع) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٠ / ٩٥ - ٩٧ .

ويتضح من سمات هذه السورة أن لها هدفين أساسيين بجانب الأحكام الأخرى المبنوثة في ثناياها :

- الهدف الأول : تحديد العلاقة بين المسلمين وبين المشركين وأهل الكتاب .
- الهدف الثاني : إظهار ما كانت عليه النفوس حين استنفرهم الرسول ﷺ لغزو الروم ، حيث تحدثت السورة عن المتناقلين من المسلمين والمتخلفين منهم ، ثم كشفت اللثام عن فتن المنافقين وحيلهم باعتبارهم خطراً داهماً يهدد كيان المسلمين ، ففضحت ألوان نفاقهم وأساليب خداعهم ، ولم تترك لهم سِتراً إلا هتكته ، حتى أصبحوا بين المسلمين مكشوفين ، وقد استغرق ذلك معظم آيات السورة (١) .

وهي أكثر سورة في القرآن كشفت فضائح المنافقين ، حيث تحدثت عنهم وكشفت أسرارهم في ثمان وستين آية متتالية ، من قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَدَّدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةَ ﴾ [التوبة : ٤٢] إلى قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بَيِّنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رَبِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٠] .

وسبب نزولها ما روي عن قتادة وغيره أن رسول الله ﷺ خطب في غزوة تبوك ، وحث على الصدقات ، فجاء عبد الرحمن بن عوف ، بأربعة آلاف درهم ، وقال : لي ثمانية آلاف درهم فأمسكت لنفسي وعيالي أربعة ، وهذه الأربعة أقرضتها ربي ، فقال النبي ﷺ : بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت ، وجاء عاصم بن عدي الأنصاري بسبعين وسقا من تمر الصدقة ، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، وقال : أجرت الليلة الماضية نفسي فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي ، وأقرضت الأخرى ربي ، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في الصدقات ، فقال المنافقون - على وجه الطعن والسخرية - ما جاءوا بصدقاتهم إلا رياء وسمعة ، أما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر ، والله ورسوله غنيين عن صاع أبي عقيل ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (٢) ؛ ليبين أن هؤلاء المنافقين عابوا المكثرين في الصدقات بالرياء ، وعابوا المقلين فيها بالإقلال ، وسخروا منهم جميعاً فسخر الله ﷻ منهم .

وقد أخبر القرآن بذلك بقوله : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) وهي سخرية لفظية صريحة بالفعل (يسخرون) وقد بدئت بالتعبير عن المنافقين بالموصول وصلته (الذين يلمزون) ؛ لذمهم بما في حيز الصلة وللإيماء إلى وجه بناء الخبر ، مع الذم والتحقير للمتصفين بتلك الصفات ، ثم أتبعته بالمضارع (يلمزون) و (يسخرون) ؛ لاستحضار الصورة الماضية ؛ وللدلالة على تكرار ذلك منهم .

وعطف على الموصول الثاني (والذين لا يجدون إلا جهدهم) على (المطوعين من المؤمنين) ، لدخولهم معهم ضمن الفئة المتهم بها ، والتقدير : (ويلمزون الذين لا يجدون

(١) ينظر : مساعد النظر ٢ / ١٥٦ ، والظلال ٣ / ١٥٦٤ ، وصفوة التفسير ٤٩٩ وما بعدها .

(٢) ينظر : أسباب النزول للواحدى ٢٥٥ ، والكشاف ٢ / ٤٠٢ .

إلا جهدهم) ، وعلى الرغم من كونهم داخلين في زمرة المتهكّم بهم إلا أن ذكرهم بالعطف على (المطوعين من المؤمنين) فيه اهتمام بشأنهم ، وتعظيم وتشريف لهم ، وهو من باب عطف الخاص على العام .

وفي التعبير عن هؤلاء المطوعين بما جاء في الآية دون ذكر أسمائهم - مع أن أسماءهم معلومة معروفة - للمدح والثناء عليهم ؛ لأنهم متطوعون باذلون بمحض إرادتهم واختيارهم ، أما الفريق الثاني فعلى الرغم من احتياجهم الشديد إلا أنهم حاولوا البذل والعطاء على قدر استطاعتهم ؛ لنيل ما عند الله ﷻ من الثواب العظيم ، فجملة : (والذين لا يجدون إلا جهدهم) كناية عن فقرهم ، وفيها إحياء بالثناء على قوة أبدانهم وشرف أعمالهم وأنها تقوم مقام المال .

وعلى الرغم من شرف هؤلاء المنفقين وبذلهم المال في سبيل الله إلا أن المنافقين جعلوا ذلك مادة للتندر والتهكم والسخرية ، فعبرواهم بذلك ، وهو ما عبر عنه القرآن بقوله : (فيسخرون منهم) بالعطف على (يلمزون) ؛ للدلالة على أن هؤلاء المنافقين يسارعون بالاستهزاء بالمؤمنين بمجرد صدور أي عمل منهم ، والفعل المضارع يوحي بتجدد واستمرار تلك السخرية ، وصياغة الآية بصيغة الخبر توحى بأن الله ﷻ غير راض عن هذا التصرف المشين منهم ، ومنكرٌ له في الأصل ، ولذا صاغها في صورة خبرية ؛ ليبين أن سخريتهم بالمؤمنين لا قيمة لها ، ولا يؤوبه بها ، فوجّه الذمّ إلى المنافقين في هذا اللمز ؛ (لأن حكمهم بالرياء لمن يعطي الكثير كعبد الرحمن بن عوف وعاصم حُكّم على بواطن الأمور ، وذلك أمرٌ استأثر الله ورسوله به ، وحكمهم بلمز الفقير على جهد المقلّ سفةٌ ؛ لأنه لما لم يقدر إلا عليه فقد بذل كلّ مالِهِ ، فعلم منه غالباً أنه إن قدر على أكثر من ذلك لم يكن منه منَع) (١) ،

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما سبب سخرية المنافقين من المؤمنين المنفقين ؟ وما جزاء سخريتهم بهم ؟

الإجابة : إن سخرية المنافقين من المؤمنين - وبخاصة الفقراء - لها أسباب ثلاثة ، الأول : أنهم يرون أن المتصدقين فقراء محتاجين إلى المال فكيف يتصدقون به ؟ وهذا جهل ؛ لأن ما فعله المؤمنون من موجبات الفضيلة ، والثاني : ما يرونه من أن المتصدّق به قليلٌ لا أثر له ، وهو جهلٌ منهم أيضا ؛ لأن هذا القليل عظيم عند الله تعالى ، والثالث : قولهم عن الفقراء أنهم تصدقوا ليضموا أنفسهم إلى الأكابر من الناس ، وهذا أيضا جهل عظيم ؛ لأن سعي الإنسان في أن يضم نفسه إلى أهل الخير والدين خير له من أن يسعى في أن يضم نفسه إلى أهل الكسل والبطالة (٢) .

أما جزاء سخريتهم بالمؤمنين فقد أفصح عنه النظم القرآني في قوله : (سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) ، ولم تعطف هذه الجملة على جملة (فيسخرون منهم) ؛ " تنبيها على أن استهزاءهم لا يؤوبه به في مقابلة ما يفعل الله بهم " (٣) . وهذه الجملة خبرية أريد بها المجازاة على السخرية على سبيل المشاكلة ، لأن جزاء الشيء

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣ / ٥٠٩ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : تفسير الفخر الرازي ١٦ / ١٤٩ .

(٣) حاشية القونوي ٩ / ١٩٣ .

قد يسمى باسم الشيء ، وقد صُدِّرت بالفعل الماضي (سخر) ؛ للدلالة على أن سخرية المنافقين نتيجة سخرية الله بهم في الأزل (١) .

ويجوز أن تكون السخرية من الله ﷻ على سبيل المجاز المرسل بعلاقة السببية ، حيث أطلق السبب وهو (السخرية) ، وأراد المسبب وهو (الاحتقار واللعن) .

وإمعاناً في عقاب هؤلاء عطف على سخرية الله بهم قوله : (ولهم عذاب أليم) أي: في الآخرة فوصفَ العذاب بـ (الأليم) من باب التجوز في الإسناد على سبيل المجاز العقلي ، وهو من المبالغة بمكان ؛ لأن العذاب لا يكون أليماً ، وإنما الألم والوجع حقيقةً للشخص المعذب ، فوصفُ العذاب بأنه (أليم) بمعنى (مؤلم) فيه دلالة على أن هذا الألم قد بلغ الغاية القصوى حتى سرى من هؤلاء المعذبين إلى العذاب نفسه ، كما أن تنوين وتكثير هذا العذاب يوحي بشدته وهوله وتفخيمه .

ويلحظ أن التعبير في الجملتين اختلف ، فجاءت جملة (سخر الله منهم) فعلية ، وجاءت (ولهم عذاب أليم) اسمية ؛ لأن السخرية في الدنيا متحركة واقعة ، والعذاب في الآخرة ثابت دائم جزاء وفاقاً .

المبحث الثاني

سخرية القرآن من المنافقين

المبحث الثاني : سخرية القرآن من المنافقين

توطئة :

ظهر النفاق في المدينة وما حولها من الأعراب بأبشع الصور وأقبحها ، ولعل هذا هو السر في أن القرآن الكريم لم يتحدث عن النفاق والمنافقين إلا في السور المدنية في أكثر من مائتي آية تقريبا (١) ، ومن السور التي تحدثت بإسهاب عن المنافقين سورة البقرة ، حيث أماطت اللثام عن صفاتهم في ثلاث عشرة آية متوالية ؛ لشدة خطورتهم على الدين ، كما كانت سورة التوبة هي أكثر سور القرآن التي تحدثت عنهم حديثا مستقيضا ، وكشفت عن واقعهم ، وأفكارهم وشعورهم ، ونفسياتهم ، كما خصص القرآن لهم سورة كاملة سماها باسمهم وهي سورة (المنافقون) ، كشف فيها كثيرا من صفاتهم ، وعقيدتهم ، وسلوكهم ، بل تعدى ذلك إلى وصف هيتنهم وطريقة حديثهم .

ولأن القرآن في حديثه عن أي موضوع يعطيه من الأسلوب البلاغي على قدر أهميته وخطورته ، ونظرا لخطورة فئة المنافقين على الإسلام والمسلمين ، فقد اختار الأساليب البلاغية المثلى لمواجهتهم وكشف حقيقتهم للمسلمين ، وكان في طليعة تلك الأساليب : أسلوب السخرية والتهكم ؛ حيث أبان بهذا الأسلوب كثيرا من صفات المنافقين ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، كما أوضح أيضا حال هؤلاء المنافقين عندما يذوقون العذاب الأليم يوم القيامة بصورة ساخرة بل شديدة السخرية .

وفي هذا المبحث سأتناول سخرية القرآن الكريم من المنافقين من خلال ثلاثة مطالب :

- الأول : السخرية من عقيدة المنافقين .

- الثاني : السخرية من سلوك المنافقين .

- الثالث : السخرية من حال المنافقين يوم القيامة .

حيث سأتناول أكثر الشواهد التي تناولت الموضوعات السابقة بالنقد والتحليل البلاغي ، مبرزاً دور سخرية القرآن في إبراز هذه السمات والأحوال وتجليتها ، وما وراء الألفاظ والصور والتراكيب من دلائل وأسرار ، والله الموفق والمستعان .

(١) والآيات التي تحدثت عن المنافقين كانت في خمس عشرة سورة من القرآن الكريم ، وهي على الترتيب : البقرة : (٨ - ٢٠) ، (٢٠٤ - ٢٠٦) ، وآل عمران : (١١٨ - ١٢٠) ، (١٦٦ - ١٦٨) ، والنساء : (٦٠ - ٦٥) ، (١٠٥ - ١١٣) ، (١٣٧ - ١٤٦) ، والمائدة : (آية ٤١) ، (٥١ - ٥٣) ، (آية ٦١) ، والتوبة : (٤٢ - ١١٠) ، والحج : (١١ - ١٣) ، والنور : (١١ - ٢٦) ، والعنكبوت : (١٠ - ١١) ، والأحزاب : (٩ - ٢٧) ، ومحمد : (١٦ - ٣١) والفتح : (٦ - ٧) ، (١١ - ١٦) ، والحديد : (١٣ - ١٥) ، والمجادلة : (٨ - ١٠) ، (١٤ - ٢١) ، والحشر : (١١ - ١٧) وسورة المنافقون : (١ - ٨) .

المطلب الأول : سخرية القرآن من عقيدة المنافقين :

عند المقارنة بين عقيدة المنافقين وبين سائر الكافرين الذين يدينون بأي عقيدة مهما تكن خاطئة يتضح أن هناك بوناً شاسعاً بين العقيدتين ، فالكافر الذي يعبد صنماً مثلاً توجد في طبعه نزعة الاعتقاد ومبدأ الإيمان ، ولكنه حوّل إيمانه إلى وجهة خاطئة ، فبدّل أن يعبد الله ﷻ وحده عبداً شيئاً آخر ، أو أشرك مع الله معبوداً سواه ، ففي قلبه غريزة الإيمان ، ولديه الاستعداد لأن يتجه بإيمانه الوجهة الصحيحة إذا تهيأت له الوسيلة لذلك ، ولكن المنافق ليس لديه استعداد أصلاً لأي نوع من أنواع الاعتقاد ؛ لأنه فاقدٌ لغريزة الإيمان ، فلن يؤمن بأي دين ، ولن يعبد أي معبود وبناء على ذلك فليس صحيحاً أن يُعتقد أنّ المنافق يدين بدينٍ آخر غير دين الإسلام ، ولكنه يُظهر إسلامه انتقاءً لضرر أو جلباً لنفع ، وإنما الواقع الذي يؤيده القرآن الكريم أنهم لا يدينون قط بأي دين ، ولا يعتقدون أي عقيدة ، وليس في نفوسهم قط إلا طلب المنفعة المادية المباشرة ، فإذا رأوا نفعاً في صحبة الكافرين فهم كافرون ، وإذا رأوا نفعاً مع المسلمين فهم مسلمون ، ولكن عقيدتهم ليست مع أحد ؛ لأنهم فاقدون لها طبعاً وتكويناً ، ويصور القرآن الكريم ذلك بأسلوبه المعجز في مواضع كثيرة منه ، ويستند في إبراز هذا الجانب على أساليب بلاغية غاية في الفصاحة والبلاغة ، ومن أهم هذه الأساليب أسلوب السخرية والتهكم ، حيث ظهر في ثمانية شواهد منه (١) .

وأولها قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة : ٨ - ١٠] .

هذه الآيات من سورة البقرة ، وقد جاءت لتبين صفات صنف ثالث من الناس شرع القرآن في بيان صفاتهم منذ مطلع السورة ، فبعد أن ذكر الله ﷻ سمات المؤمنين المتقين الذين أخلصوا دينهم لله ، وبشّر بما أعده الله ﷻ لهم من عظيم الجزاء ، وبعد أن عرّض في إيجازٍ دقيقٍ سمات الكافرين ، وإصرارهم على العناد والمكابرة ، ذكر في هذه الآيات الصنف الثالث من الناس وهم المنافقون ، وأخّر الله ﷻ ذكرهم - وإن كانوا أسوأ حالاً من المشركين - لأنهم اتصفوا في الظاهر بصفات المؤمنين ، وفي الباطن بصفات الكافرين ، وهذه هي صورة النفس الملتوية المريضة .

وقد قدم الله تعالى ذكر المؤمنين في أربع آيات ، وثنى بذكر الكافرين في آيتين ، وثلث بذكر المنافقين ، وأمعن في ذكر مخازيهم ، فأنزل فيهم ثلاث عشرة آية ، تعريفاً بهم ، وتقبيحاً لأحوالهم ، وتنبيحاً على قبائح أعمالهم ، ولم يكتف القرآن بذلك ، بل أبرز أحوالهم في صورة الأمثال ، فكان ذلك أدعى إلى التنفير عما اجترحوا من قبيح الأقوال والأفعال ؛ حيث إنهم كانوا يضمنون إلى الكفر وجوهاً أخرى من المعاصي كالمخادعة والاستهزاء .

والآيات الثلاثة السابقة تكشف عن عقيدة المنافقين ، وتوضح فقدانهم لمبدأ الاعتقاد الديني واختفاء نزعة الإيمان من قلوبهم ، حيث ادّعوا الإيمان بألسنتهم فقط ، أما قلوبهم فخاوية منه

(١) في البقرة آية ٩ ، والنساء ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، والحج آية ١١ ، ومحمد آية ١٦ ، والمنافقون آية ٣ .

ولذا سخر القرآن من ذلك بقوله : ﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾^(١) وهذه الآية هي موطن السخرية ، وقد مهد لها النظم القرآني بقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) والمقصود بهؤلاء الناس هم المنافقون ، حيث نعي عليهم كذبهم في قولهم : (آمنة بالله وباليوم الآخر) ، ثم فضحهم ودفع دعواهم بقوله : (وما هم بمؤمنين) ، ثم صور مكرهم وسخر منهم بقوله : (وما يخدعون إلا أنفسهم) ، ثم استجملهم بقوله : (وما يشعرون) .

وقبل التحليل البلاغي لجملة السخرية ، لابد من التناول البلاغي للآية التي قبلها ؛ للعلاقة الوثيقة بين الآيتين ؛ حيث تمثل تمهيدا لتلك السخرية ، وقد بدأها النظم الكريم بقوله : (ومن الناس) وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وفي تقديمه تنبيهٌ للسامع على أمر سيذكر ، وفيه تشويقٌ لمعرفة ما يتم به الإخبار ، كما يؤذن بأن المتحدث عنهم ستساق في شأنهم قصة مذمومة وحالة شنيعة (١) .

و (ال) في (الناس) إما للعهد الذكري ، فيكون المراد بهم الذين كفروا ، وهم الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة كأنه قيل : ومن هؤلاء من يقول كذا ، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ومن كان على شاكلتهم من أهل النفاق المصيرين عليه ، وإما أن تكون لام الجنس التي تفيد الاستغراق والمعنى : ومن جنس الناس من يقول كذا ، وسواء كانت اللام للعهد أو للجنس فإن المراد ذم هؤلاء الكفار وتقبيحهم ، والتعجب من صنيعهم وإصرارهم على الكفر والعناد ، والتنبيه على أن الصفات المذكورة تنافي الإنسانية فيتعجب منها (٢) .

وقد أشار الشيخ البقاعي - رحمه الله - إلى لفظة بليغة حول سر التعبير بلفظ (الناس) خاصة فقال : (لأنه سبحانه لما ذكر طرفي الإيمان والكفر ، وأحوال المؤمنين ، وأحوال الذين كفروا ، ذكر المنافقين المترددين بين الاتصاف بالطرفين بلفظ (الناس) ؛ لظهور معنى (النوس) فيهم ؛ لاضطرابهم بين الحالين ؛ لأن النوس : هو حركة الشيء اللطيف المعلق في الهواء كالخيط المعلق الذي ليس في طرفه الأسفل ما يثقله ، فلا يزال مضطربا بين جهتين ، ولم يظهر هذا المعنى في الفريقين - أي المؤمنين والكافرين - لتمييزهم إلى جهة واحدة) (٣) .

وواضح أن الشيخ البقاعي يربط بين الاشتقاق اللغوي للكلمة ومدلولها البلاغي ، ويحتمل أن تكون مشتقة من (نسي) ، وقد نقل ذلك الشيخ أبو حيان في البحر المحيط (٤) ، كما ذكره الراغب في المفردات (٥) ، وإن أخذ بهذا الوجه ، فيكون السر في هذا التعبير - والله أعلم - ما فيه من الدلالة على النسيان ، وهذا هو شأن الكافر وكذا المنافق ؛ حيث تناسى كلُّ منهما العهد الذي أخذ الله عليهما وعلى جميع الخلق في عالم الذرّ ، وتناسوا فطرة الإيمان التي أودعها الله ﷻ فيهم .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) ينظر : روح المعاني ١ / ١٤٣ ، وينظر : بلاغة تطبيقية دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص ، ص ٢٧ .

(٣) نظم الدرر ١ / ٣٩ - ٤٠ بتصرف يسير .

(٤) ينظر : ١ / ٥٢ .

(٥) ص ٥١١ .

وعبر النظم القرآني بالفعل (يقول) ؛ للدلالة على أنه قول المنافقين : (آمنا بالله وباليوم الآخر) هو مجرد قول باللسان ، لا أثر له في القلوب ، وإنما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فهم يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء ، والتعبير به مضارعا ؛ للدلالة على تجدد واستمراره من هؤلاء المنافقين ، مما يكشف عن ملازمة الخداع والنفاق لهم في كل وقت .

ويلحظ أنه أفرد الفعل (يقول) مراعاة للفظ (مَنْ) ، وجمَعَ (آمنا) مراعاة لمعناها (١) ، ولعل السر في مراعاة المعنى ما في صيغة الجمع (آمنا) من الإشارة إلى أنهم يتحدثون بلسان واحد ، كما يحرص كل فرد منهم على أن يشيعَ هذا الوصف (الإيمان) وإن لم ينطق به الجميع .

أما قولهم : (آمنا بالله وباليوم الآخر) فقد صاغوه مؤكداً بما يتفق مع طبيعتهم في محاولة خداع الجميع بإظهار الإيمان وإبطان الكفر ، حيث عبروا بالفعل الماضي (آمنا) ؛ للدلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم ونفاذه ، وكرروا الباء في قولهم : (وباليوم الآخر) ؛ مبالغةً منهم في تأكيد دعوى الإيمان ، وزيادة في الخداع عبروا باسم الجلالة على لسانهم ، وكأنهم يُظهرون أنفسهم في صورة من يقدرُ الله حقَّ قدره ، كما أتوا بـ (اليوم) معرفاً بال التي للعهد الذهني ؛ إشارة إلى أن هذا اليوم لا يغيب عن خاطرهم ، كما وصفوا اليوم بـ (الآخر) ؛ حرصاً منهم على إظهار اعترافهم بالدار الآخرة .

وقد اقتصروا في دعواهم على إعلان إيمانهم بالله واليوم الآخر ؛ زيادةً في التمويه على المؤمنين بادعاء أنهم أحاطوا بطرفي الإيمان ؛ لأنَّ مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر فقد آمن بكل ما جاء به النبي ﷺ ، كما أن اختصاصهما بالذكر كشف عن أفراطهم في الخبث ، وتماديهم في الخداع ؛ لأنهم كانوا يشركون بالله وجاحدون باليوم الآخر .

ولذا رد الله ﷻ قولهم هذا بالبت القاطع ، ونفي عنهم الإيمان بالكلية فقال : (وما هم بمؤمنين) حيث أخرج ذواتهم وأنفسهم من أن يكونوا طائفة من طوائف المؤمنين ، بعدوله عن التعبير بالجملة الفعلية (الموافقة لقولهم) إلى الجملة الاسمية ؛ وذلك للمبالغة في الرد بانتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة لا في الماضي فقط كما تفيد الجملة الفعلية (٢) .

كما أن هذا العدول عن الفعلية أدى إلى تقديم المسند (هم) على خبره المشتق (بمؤمنين) ، وكذا دخول الباء على الخبر ، فحدث بذلك تأكيد ومبالغة في نفي الإيمان عنهم ، فضلا عن تناسق فواصل الآيات (وما هم بمؤمنين - يشعرون - يكذبون) .

يقول الدكتور محمد أبو موسى : " ليس المراد قصر نفي الإيمان عليهم ، وإنما المراد تأكيد نفي إيمانهم ، وبيان كذبهم فيما يزعمون " (٣) .

كما يُلاحظ أن طباق السلب بين (آمنوا) و (ما هم بمؤمنين) كان له أثره الواضح في التأكيد على المعنى المراد ، وإبراز خداع هؤلاء المنافقين من خلال عقيدتهم المتضاربة الكاذبة .

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ١ / ٤٨ .

(٢) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) دلالات التراكيب ١٨٢ ، ويراجع : مناقشته لمسألة تقديم المسند إليه المسبوق بالنفي على الخبر المشتق هل يفيد الاختصاص في كل مواقعه أم لا ؟

ويلحظ أيضا : أن النظم القرآني جاء بالإيمان مطلقا في الثاني فقال : (وما هم بمؤمنين) على الرغم من تقييده بالإيمان بالله واليوم الآخر **أَوَّلًا** ، والسر في ذلك : أنه يحتمل التقييد ، ولكنه تُرك لدلالة المذكور عليه ، أو أن المراد من ذلك بيان أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط لا من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولا من الإيمان بغيرهما (١) .

ولذا جاءت السخرية منهم عالية مدوية ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ !! ، وفصلت هذه الجملة عن سابقتها لشبهه كمال الاتصال ؛ حيث وقعت جوابا عن سؤال تضمنته الآية السابقة عليها ، كأنه قيل : ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين ؟ فأجيب : يخادعون الله ... الآية . وهذا الاستئناف البياني فيه إيحاء بأن أمرهم يدعو إلى التعجب ، ويقتضي البحث عن علة له ؛ لأنه منكر وغريب ، إذ من شأن النفس السوية أن تقر بما تعتقده وتؤمن به ، ولما كان هؤلاء بمعزل عن ذلك اقتضى الحال أن يُسأل عن شأنهم . ويجوز أن يكون الفصل لكمال الاتصال إذا اعتبرت الجملة الثانية بمنزلة توكيد معنوي للسابقة عليها كما يرى الإمام عبد القاهر (٢) ، أو أن الثانية بدل اشتمال من الأولى كما يرى الشيخ الطاهر بن عاشور (٣) .

وجملة السخرية بدئت بالفعل (**يخادعون**) ، الدال على معنى المفاعلة بين جانبيين كلاهما يريد أن يخدع الآخر ، وهذه المفاعلة بين الله ﷻ والمؤمنين من جانب وبين المنافقين من جانب آخر ، وحين تقرأ هذه الآية (يخادعون الله والذين آمنوا) يتبادر إلى الذهن سؤال مُلِحٌّ مفاده : كيف يَخْدَعُ المنافقون الله ﷻ وهو علام الغيوب ومحيطٌ بكل شيء ؟ وكيف يخادعونهم الله ﷻ وهم في قبضته ، ولو شاء لأهلكهم جميعا ؟ وكيف يخادع المؤمنون المنافقين وإيمانهم يربأ بهم عن ذلك ؟ والإجابة عن هذا الإشكال ذكرها الإمام الزمخشري في عدة أوجه منها :

الوجه الأول : أن صورة صنيعهم مع الله - حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون - صورة صنع الخادعين ، وصورة صنيع الله بهم - حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم من إعفائهم من المحاربة ، وإكرام المسلمين لهم ، وإعطائهم حظوظهم من الغنائم ، وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار - صورة صنع الخادع ، وصورة صنيع المؤمنين معهم ؛ حيث امتثلوا أمر الله - تعالى - فيهم فأجروا أحكامهم عليهم ، فهذا يشبه صورة المخادعة ويكون ذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل (يخادعون) ، أو يكون استعارة تمثيلية في الهيئة التي صُرِّح بها (٤) .

الوجه الثاني : أنه - تعالى - ذكر نفسه وأراد به رسوله على عادته في تفخيم وتعظيم شأنه ؛ إذ هو خليفته في أرضه ، والناطق عنه بأوامره ونواهيه من عباده ، يشهد على ذلك قوله تعالى :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ الفتح : ١٠ ، فالمنافقون لما خادعوا رسول الله قيل إنهم

(١) ينظر : الكشاف ١ / ٥٥ .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز ٢٢٨ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١ / ٢٧٤ .

(٤) ينظر : الكشاف ١ / ٥٦ .

خادعوا الله (١) وهذا الوجه السابق ذكره الراجب في (مفرداته) ؛ حيث قال : " (يخادعون الله) أي : يخادعون رسوله وأوليائه ، ونسب ذلك إلى الله - تعالى - من حيث إن معاملة الرسول كمعاملته فجعل ذلك خداعا ؛ تفضيحا لفعلهم ، وتنبيها على عظم الرسول وعظم أوليائه " (٢) وهذا الوجه يعني أن إسناد الخداع إلى الله ﷻ قائم على المجاز العقلي ؛ حيث نسب إليه - تعالى - ما حقه أن ينسب إلى الرسول ﷺ ؛ إبانة لمكانته عنده ، مع إفادة كمال الشناعة (٣).

وعطف النظم القرآني (والذين آمنوا) على لفظ الجلالة ؛ ليبين حقيقة الصلة بين الله ﷻ والمؤمنين ، (فهو يجعل أمرهم أمره ، وشأنهم شأنه ، يضمهم سبحانه إليه ، ويأخذهم في كنفه ، يجعل عدوهم عدوه ، وما يوجه إليهم من مكر موجه إليه ، وهذا التفضيل الكريم هو الذي يرفع مقام المؤمنين إلى المستوى السامق ، والذي يكسب في قلوبهم طمأنينة لا حد لها ، فماذا يكون بعد ذلك حجم كيد المنافقين وخداعهم ؟) (٤) .

وجملة (يخادعون الله والذين آمنوا) شبيهة بها قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّ

الْمُتَّفِقِينَ يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [من آية ١٤٢] ، والفرق بين الجملتين ، أن الأولى في سورة البقرة لم يُنصَّ فيها على المنافقين صراحة ، فقيل : (ومن الناس من يقول ...) ، أما في النساء فقد صرح بهم مع التأكيد بآن واسمية الجملة فقال : (إن المنافقين يخادعون ...) ؛ لتحقيق حالتهم العجيبة وتحقيق ما عقبها من قوله : (وهو خادعهم) ، كما أن آية البقرة كان خداع المنافقين لله ﷻ والذين آمنوا ، أما في النساء فإن الخداع كان لله ﷻ فقط ، والسر في ذلك - والله أعلم - أنه لما اعتُبر خداعهم للمؤمنين المتبعين أمر الله ورسوله بمثابة خداع الله ﷻ انتقلت المخادعة والمخاصمة بين الله ﷻ وبينهم خاصة ؛ فتولى الدفاع عن المؤمنين بنفسه ، وكفاهم شر هؤلاء المنافقين ، ولذا زاد في آية النساء جملة : (وهو خادعهم) ، أي : فاعلٌ بهم ما يفعلُ الغالب في الخداع ، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا ، وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة (٥) ، فعبر عن خداعهم لله ﷻ بالفعل المضارع (يخادعون) الدال على التجدد والاستمرار ، وعبر عن خداعه إياهم بالجملة الاسمية (وهو خادعهم) الدالة على الثبوت والدوام ؛ إشارة إلى أن خداع الله ﷻ لهؤلاء قديم منذ الأزل ، ولكنه يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، حيث أمهلهم في الدنيا حتى اطمأنوا وحسبوا أن حيلتهم وكيدهم راجعا إلى المسلمين ، (وأنذر المؤمنين بكيدهم حتى لا تنطلي عليهم حيلهم ، وسمي استدراجه إياهم خداعاً على سبيل الاستعارة التمثيلية وحسنها المشاكلة) (٦) .

وهذا الأسلوب الخبري ذاته تهديد رهيب للمخادعين والماكرين بالمؤمنين ، تهديدٌ لهم بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم ، وإنما مع الله ذي القوة المتين ، ولذا صعَّد في حدة

(١) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) ينظر : ١٤٩ - ١٥٠ .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم ١ / ٤٩ .

(٤) في ظلال القرآن ١ / ٤٣ بتصرف .

(٥) ينظر : البحر المحيط ٣ / ٣٩٣ .

(٦) التحرير والتنوير ٥ / ٢٣٩ بتصرف .

التهكم والسخرية من هؤلاء المخادعين ، ووبخهم بأنهم يخدعون أنفسهم عندما يعتقدون أنهم يخادعون المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر بقوله تعالى : (وما يخدعون إلا أنفسهم) وهي جملة حالية تحمل في طياتها سخرية منهم وتهكم بهم لاذع ، فجاءت السخرية في صورة القصر بطريق النفي والاستثناء ، قصر صفة على موصوف قصرًا إضافيًا ، مفاده أن ضرر خداعهم لا يلحق إلا أنفسهم ، ومكرهم لا يحق إلا بهم ، والذي زاد من بلاغة هذا القصر اقترانه بالمجاز المرسل الذي علاقته السببية في الفعل (يخدعون) ؛ حيث أطلق الخداع وأراد به ما يترتب عليه من الضرر ، وهو بلا شك أقوى وأكثر مبالغة من الحقيقة . وإنما أوتر طريق النفي والاستثناء دون غيره من طرق القصر لمراعاة حال هؤلاء المنافقين ؛ لأنهم ينكرون أن يكون ضرر خداعهم لاحقًا بهم ، راجعًا إليهم ، فاقترضوا حالهم التعبير بهذا الطريق ، إذ من شأنه أن يخاطب به المنكر الجاحد أو مَنْ ينزل تلك المنزلة .

وإمعانا في الذم والسخرية بهؤلاء ختمت الآية الكريمة بجملة : (وما يشعرون) ، والشعور : إدراك الشيء على وجه يدق ويخفى ، وهو مشتق من الشَّعْر لدقته ، وإذا قيل : فلان لا يشعر فذلك أبلغ في الذم من كونه لا يسمع ولا يبصر ، لأن حسّ اللمس أعمّ من حسّ السمع والبصر (١) ، ونفْيُ الشعور والإحساس عنهم مع سلامة جوارحهم وصحة حواسهم فيه دلالة عميقة على التهكم بهم ، وانحطاطهم وتدنيهم عن مرتبة البهائم ؛ لأنهم لم ينتفعوا بهذه النعمة ، ولم يستعملوها فيما خلقت له ، فكانوا كالفالقيدين لها ، فضلا عن نفي العلم بالطريق الأولى ، فالذي لا يشعر بالأمر الواضح لا يعلمه ، وهذه الجملة تصويرٌ دقيقٌ لحالهم المزرية المهينة ؛ فهُمْ من فرط ضلالهم ، وانعدام إيمانهم ، وفساد مداركهم لا يعتقدون أنهم يضررون أنفسهم بخداعهم للمؤمنين ، وفي هذا دلالة على شدة غفلتهم وسوء مسلكهم . كما أن التعبير بالمضارع المسبوق بالنفي يفيد أن عدم شعورهم متجدد ومستمر ، وهذا مما يضيف مزيدا من التهكم والسخرية بهم ، وحذف مفعول (يشعرون) يوحي بذلك أيضا ؛ لأن تقديره : وما يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم ، أو وما يشعرون أن الله يعلم سرهم ونجواهم ؛ أو وما يشعرون هلاك أنفسهم ، وحذفه يفيد أنهم لو شعروا أن خداعهم لله وللمؤمنين إنما هو خداع لأنفسهم ما فعلوا ذلك (٢) .

ومن شواهد سخرية القرآن من عقيدة المنافقين - أيضا - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ (١٣٧) ﴿ بَشِيرِ الْمُنْفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿ [النساء : ١٣٧ - ١٣٩] .

هذه الآيات من سورة النساء ، وهي سورة مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان ابن طلحة وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... ﴾ [النساء : ٥٨] ، وهي من

(١) ينظر : الكشاف ١ / ٥٨ ، و (لسان العرب - شعر) .

(٢) ينظر : البحر المحيط ١ / ٥٨ .

وأخر ما نزل من القرآن الكريم ، وأيضاً من السبع الطوال في هذا الكتاب العظيم ، وقد تحدثت عن أمور مهمة تتعلق بالمرأة ، والبيت ، والأسرة ، والدولة ، والمجتمع ، ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تتحدث عن موضوع النساء ، ولذا سميت سورة النساء . كما تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام ، وبخاصة اليتيمات في حجور الأولياء والأوصياء ، فقررت حقوقهن في الميراث ، والكسب ، والزواج ، وتعرضت لموضوع المرأة ، وصانت كرامتها ، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله - تعالى - كالمهر ، والميراث ، وإحسان العشرة . وتعرضت بالتفصيل - أيضاً - إلى أحكام المواريث على الوجه الدقيق العادل الذي يكفل العدالة وتحقيق المساواة ، وتحدثت عن المحرمات من النساء بالنسب ، والرضاع ، والمصاهرة وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وسبل إصلاحها .

ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة أمنها واستقرارها ، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء كفرّة كانوا أم منافقين ، ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية ، واستتبع الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين ، فهم نبتة السوء ، وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها ، وقد تحدثت السورة عن مكابدهم وخطرهم (١) .

والآيات - التي معنا - قيل : نزلت في المنافقين ؛ حيث إنهم تلاعبوا بالدين ، وأظهروا الإيمان ، فحيث لقوا المؤمنين قالوا آمنا ، وإذا لقوا أصحابهم قالوا : إنما نحن مستهزئون ، ولذا جاء بعده : (بشر المنافقين) ، فهم مترددون بين إظهار الإيمان والكفر باعتبار مَنْ يلقونه ، ثم ازدادوا كفرا بأن ماتوا على كفرهم (٢) . وجعلها ابن عباس - رضي الله عنهما - عامة لكل منافق في عهده ﷺ في البر والبحر (٣) . وقال قتادة : (هم اليهود آمنوا بموسى ﷺ ثم كفروا وعبدوا العجل ، ثم آمنوا عند عودته إليهم ثم كفروا بعبسى ﷺ والإنجيل ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ ، وقيل : هم قومٌ تكرر منهم الارتداد وأصروا على الكفر ، وازدادوا تمادياً في الغي) (٤) ، والراجح أنها نزلت في المنافقين ؛ بدليل قوله ﷺ بعد الآية الأولى : " بشر المنافقين " .

والمقصود من هذه الآيات ليس وصفهم بالإيمان أو الكفر ، وإنما المقصود أنهم لا يحملون أي عقيدة ، لا الإيمان ولا حتى الكفر الذي هو نوع من الاعتقاد برغم أنه خاطئ ، فهم يترددون بين الإيمان والكفر ، لا اعتقاداً فيهما ، ولا اعتناقاً لهما ، وإنما تخفياً فيهما عن أعين الناس وعقولهم كما يقول سبحانه : ﴿ مُدْبِرِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ [النساء : ١٤٣] ، فقلوبهم مطبوعٌ عليها ؛ لأنها شاذة في تكوينها ، فلن يصل إليها إيمان ولا اعتقاد .

(١) ينظر : مساعد النظر ٢ / ٨٦ وما بعدها ، وصفوة التفسير ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٣ / ٣٨٧ .

(٣) ينظر : روح المعاني ٥ / ١٧٠ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٢ / ٢٤٣ بتصرف يسير .

والآية الأولى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ توحى بتهكم المنافقين بالدين واستخفافهم به ؛ فليست لهم نية صحيحة ، ولا قصدٌ خالص حيث إنهم آمنوا مرتين ، ثم كفروا مرتين ، ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك بموتهم على الكفر ، ومَنْ تكرر منه الإيمان والكفر مرات كثيرة دلّ على أنه لا وقع للإيمان في قلبه ، ومَنْ كان كذلك لا يكون مؤمنا بالله إيمانا كاملا صحيحا ، وازديادهم الكفر هو استهزأؤهم وتلاعبهم بالإيمان (١) ، ولذا فإن صياغة الآية بمنزلة وعيدٍ وإنذارٍ شديدٍ لهم ، بأن الله حرمهم الهدى ، فلم يكن ليغفر لهم ؛ لأنَّه حَرَمَهُمْ سبب المغفرة .

والنفي في قوله : (لم يكن الله ليغفر لهم) أبلغ من قوله : (لا يغفر الله لهم) (٢) ، وهذه البلاغة جاءت من لام الجحود ؛ (لأن هناك فرقا بين (لم يكن زيد يقوم) و (لم يكن زيد ليقيم) ؛ فالأولى ليس فيها إلا انتفاء القيام ، والثانية فيها انتفاء إرادة القيام ، ويلزم من انتفاء إرادة القيام نفي القيام ، ونفي إرادة الفعل أبلغ من نفي الفعل ، كما أن هذا التعبير فيه مبالغة في نفي الفعل في الأزمنة كلها وامتناع وقوعه) (٣) .

وسواء كان الموصول مرادا به : المنافقين أو اليهود أو طائفة معينة من أهل مكة ، فقد أفاد التعبير عنهم بالموصول وصلته الذم والتحقير ، مع التهكم من عدم ثباتهم على عقيدة ، وتلونهم كل يوم وكل ساعة بلونٍ من ألوان الإيمان أو الكفر على السواء ، فضلا عن الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، وهو نفي المغفرة عنهم ، وعدم هدايتهم لأقوامٍ سبيل .

ولما كان التظاهر بالإيمان ثم تعقيبه بالكفر ضربا من التهكم بالإسلام وأهله ، جيء في جزاء عملهم بوعيدٍ مناسبٍ لتهكمهم بالمسلمين ، فجاء به على طريقة السخرية ؛ حيث قال :

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، ومنبع السخرية آتٍ من فعل الأمر (بَشِّرْ) ؛ حيث استخدم لفظ البشارة في موضع الإنذار والوعيد وهو على خلاف المعهود ؛ إذ إن البشارة تعني : الإخبار بما يسرّ ، والتبشير هنا بالعذاب ، فأبشّر فرح وأي سرورٍ تدخله هذه البشارة على المنافقين وهي تتضمن العذاب الأليم ، فهذا الفعل استخدم في غير موضعه ؛ لأن موضعه هو الخير والسرور كما قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الأنهار .. ﴾ [البقرة : ٢٥] .

لكن الله ﷻ أراد السخرية بهم ، فأنذرهم بما أعد لهم من العقوبة على غير الطريقة المألوفة ؛ ليكون أدعى إلى توبيخهم والإنكار عليهم بما اقترفوه من المعاصي العظيمة ؛ وليكشف عما انطوت عليه نفوسهم من النفاق والرياء والتلبيس على المؤمنين ، فهؤلاء لما أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر استحقوا أن يجازيهم الله ﷻ من جنس عملهم ، فجاء بلفظ ظاهره الرحمة وباطنه العذاب والنبور ، فاستعار لفظ البشارة ، وهي الإخبار بما يسرّ ، للإنذار ، وهي الإخبار بما يسوء فنزل التضاد منزلة التناسب ، وشبه الإنذار بالتبشير بجامع السرور في كل ؛ تحقيقا في التبشير وتنزيلا في الإنذار ، ثم اشتق من التبشير (بشر) بمعنى (أنذر) على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية ، وعلى الرأي القائل بأن (بشر) بمعنى (أخبر) ، فيكون الفعل مجازا مرسلا

(١) ينظر : فتح البيان في مقاصد القرآن ٢٦٦ / ٣ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢٣٢ / ٥ .

(٣) لغة المنافقين في القرآن الكريم ١٠١ بتصرف يسير .

تهكمياً ، والغرض منه سواء كان استعارة تبعية تهكمية ، أو مجازاً مرسلًا تهكمياً هو الاستخفاف بعقولهم والتعريض بقلة بصيرتهم وسفه رأيهم ؛ حيث إن النظم الكريم لما قال : (بشرُ المنافقين) تهيأت نفوسهم ، وامتألت فرحة وسرورا ؛ تفاؤلا بمقتضى البشارة ، وتوهّموا أنه ستكون لهم الراحة والطمأنينة على ما كانوا يضمرون من الكفر والنفاق ، ولكن سرعان ما انقضت الفرحة ، وتلاشت الأحلام ، وتبدد الوهم ؛ حيث جاءتهم البشارة بالعذاب الأليم . فالآية الكريمة - على قصرها - حملت للمنافقين سخرية لاذعة ، وردت عليهم بجنس عملهم ، والإعجاز المدهش فيها ذكرها قبل الآية التي صورت سخريتهم واستهزاءهم بالقرآن في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا ﴾ [النساء : ١٤٠] وكأنه سبحانه عجل لهم هذه البشارة الساخرة ليتصوروا خيبة الأمل والخزي عندما تكون البشارة بالعذاب الأليم ، ولا شك أن وصف العذاب بالأليم بمعنى (المؤلم) ؛ للمبالغة في شدة الألم من باب المجاز العقلي ، وكذا تنكير العذاب وإفراده .

وللتصعيد في حدة السخرية من المنافقين ذكر النظم الكريم في الآية التالية أن سبب العذاب الذي سيلحق بهم هو ولايتهم للكافرين ، واتخاذهم أنصارا ومعينين يوالونهم ضد الرسول ﷺ والمسلمين حيث قال : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [الموصول : (الذين) نعت للمنافقين يفيد تخصيصهم وتمييزهم بمضمون الصلة ، و (الكافرين) : هم اليهود ، وقوله تعالى : (أَيْبَتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ؟) (١) هو موطن السخرية ؛ حيث جاء في صورة الاستفهام الإنكاري التوبيخي لهؤلاء المنافقين الذين يطلبون العزة من غير الله برغم أنه ﷻ وحده المختص بالعزة والقوة والغلبة ، ولذا سخر النظم الكريم من المنافقين واليهود بهذا الاستفهام ، وجعل طلب المنافقين العزة من اليهود كالمستغيث من الرمضاء بالنار ، وعبر بالفعل (يبتعون) إيماءً إلى أن المنافقين لم تكن موالاتهم للمشركين لأجل المماثلة في الدين ، بل اتخذوهم ليعتزوا بهم على المؤمنين ، وإيماءً إلى أنهم شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز بهم ، وفي ذلك غاية الذم والتجهيل لهم ، كما أنه عبر بصيغة المضارع ؛ للدلالة على تجدد واستمرار طلب ذلك من اليهود ، وهذا الاستفهام يفيد - إلى جانب التهكم والتعجب - التحذير من مخالطة الكافرين بطريق الكناية (٢) .

ولما كان المنافقون يوادون اليهود اعتقاداً منهم أن أمر النبي ﷺ لا يتم ، وحينئذ يبتعون بؤدّهم أن يحصل لهم بهم قوة وغلبة ، فخيّب الله ﷻ أمالهم بقوله : (فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) ؛ فأورد الجملة خبرية مؤكدة بـ (إِنَّ) والجملة الاسمية ؛ دفعا لإنكارهم أن تكون له ﷻ وحده العزة والغلبة ، فبيّنت الجملة أن العزة والقوة مختصة به سبحانه ، يعطيها من يشاء من عباده وقد كتبها لأوليائه بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ [المنافقون من / ٨] ، كما جاءت

(١) العِزَّةُ في اللغة : الشدة ، ومنه قيل للأرض الصلبة : عزاز ، ويقال : قد استعز المرض على المريض إذا اشتد مرضه وكاد أن يهلك ، وعزَّ الهُمُّ : اشتد ، واعتز فلان بفلان إذا اشتد ظهره به .. والعزة : القوة (ينظر : تفسير الفخر الرازي ١١ / ٨١) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٥ / ٢٣٤ .

بمنزلة التعليل لما يفيد الاستفهام السابق (**أَيَّبَتُّونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ**) من بطلان رأيهم ، وخيبة رجائهم ، أو هي بيان لوجه التهكم والتعجب من هؤلاء المنافقين (١) .

ولما كانت نفوس المنافقين غير مستعدة للإيمان ؛ لأن قلوبهم مطبوع عليها ، عبر القرآن عن سبب ذلك بقوله ساخرا : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ [المنافقون: ٣] وهذا الشاهد من سورة (المنافقون) ، وهي سورة مدنية بالإجماع ، ونزلت في غزوة بني المصطلق ، والمحور الرئيس الذي تدور عليه هذه السورة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين ، حيث تناولت عقيدة المنافقين ، ووصفت أخلاقهم ، وبينت صفاتهم وأكاذيبهم ودسائسهم ، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب ، كما بينت أن الكذب هو أظهر صفات المنافقين ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم ، ويحلفون كذبا لإخفاء خداعهم .

فغرض السورة هو فضح هؤلاء المنافقين بإبراز دواخلهم ، وكشف مكنون ضمائرهم ، واضطراب عقيدتهم ، وسفالة نفوسهم مع حسن أجسامهم ، وإصرارهم على الإعراض عن الحق ، وصد غيرهم عنه (٢) .

وهذه الآية جاءت لتبين أن أساس النفاق هو فقدان المنافقين لمبدأ الاعتقاد الديني مما لا يرجى معه أي أمل في استضاءة قلوب طَبِعَ اللهُ عليها بالكفر ، فهم لا يدينون بدين حقيقي ، ولذا يستوي عندهم الإيمان والكفر ، ولا يرون بأسا بالتردد بينهما ، ولا يعلق بقلوبهم شيء منهما مهما طال تردهم ، وهذا ما أفصحت عنه الآية ، حيث سخرت من تردهم بين الإيمان والكفر ، وبينت سبب ذلك التردد وهو الطبع على القلوب ، ثم وسمتهم بأنهم لا يفقهون ولا يفهمون ، بصور بليغة ، وألفاظ دقيقة موجزة .

فقد بدئت السخرية باسم الإشارة للبعيد (**ذَلِكَ**) (إشارة إلى العمل السيء الذي جعلهم يصدون عن سبيل الله ، والمنصوص عليه في قوله تعالى : ﴿ **فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المنافقون: ٢] ،) فتلاعبه بدين الله ودخولهم فيه ، وخروجهم منه كان بسبب الطبع الذي طبع على قلوبهم ، والذي ترتب عليه وسمهم بأنهم (لا يفقهون) (٣) ، وعطف النظم القرآني بـ (**ثُمَّ**) ، وهو حرف يدل على تراخي المعطوف عن المعطوف عليه ، أي تراخي الثاني عن الأول (٤) ، والتراخي معناه : أن هناك مهلة بين المعطوف والمعطوف عليه (٥) ؛ للإيحاء بأنهم يعايشون ما يجعلهم لو تدبروا وفكروا لآمنوا كما آمن غيرهم ، ولكنهم مع ما تهيأ لهم من فرص

(١) ينظر : روح المعاني ٥ / ١٧٢ .

(٢) ينظر : مساعد النظر ٣ / ٨٦ - ٨٧ ، والتحرير والتنوير ٢٨ / ٢٣٣ .

(٣) الختم والطبع ودلالاتهما البلاغية في القرآن الكريم ، د : السيد محمد السيد سلام ص ١٦٠ بتصرف يسير - دار الأندلس للطباعة والنشر - شبين الكوم .

(٤) ينظر : الصحابي لأحمد فارس ص ٢١٥ - مطبعة دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .

(٥) ينظر : النحو المصفى ، د : محمد عيد ، ص ٦١١ - مكتبة الشباب - القاهرة - ١٩٨٧ م .

من رؤية الرسول ﷺ ، وسماع القرآن ، ومخالطة أصحاب رسول الله ﷺ في المساجد والأسواق والمنتديات كفيلاً ذلك كله بأن يلامس الإيمان شغاف قلوبهم ، ولكنهم لخبث طويتهم ، وفساد قلوبهم ، حجب عنهم الحق ، وأعمى بصائرهم ، حتى ملأ النفاق قلوبهم ، وصرفهم عن الإيمان إلى الكفر المحض الذي لا يخالطه إيمان ، فأعلنوا عداوتهم للمؤمنين ، وأظهروا معتقدتهم الخبيث فناسب أن يكون العطف بـ (ثم) .

وقد يكون العطف بـ (ثم) هنا للترتيب الرتبي ؛ فإن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم قبجا من الكفر الصريح (١) .

أو أن (ثم) تفيد الاستبعاد ما بين حالتي الإيمان والكفر (٢) ، وقوله : (آمنوا ثم كفروا) يفيد أنهم آمنوا بلسانهم فنطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل في الإسلام ثم ظهر كفرهم وتبين ، أو أنهم نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، أو أن الآية في أهل الردة منهم (٣) ، وطباق الإيجاب بين (آمنوا) و (كفروا) أكسب المعنى لظفاً ، والمغزى دقة ، وهذا المعنى اللطيف والمغزى الدقيق جاء من إتيان المنافقين لرسول الله ﷺ ، وشهادتهم بأنه رسول الله ، ثم شهادة الله ﷻ عليهم بأنهم كاذبون ، وكانت شهادة الله مقدمة على شهادتهم ، فتلبسوا بما زعموا من الإيمان ، وبأءوا بما شهد الله عليهم بأنهم كاذبون ، فاجتمع الضدان الكفر والإيمان ، وحصل مغزى الطباق في الآية .

ولذا صرح النظم الكريم ببيان السبب في هذا الكفر بعد الإيمان بقوله : (**فطبع على قلوبهم**) ، فاستعار الفعل (طبع) لصرف قلوبهم عن الطاعة استعارة تصريحية تبعية ؛ مبالغة في عدم نفاذ أي شيء من الإيمان إلى قلوبهم ، وإشعاراً بفساد سريرتهم وبُعدهم عن تقبل الحق ، وفي بنائه للمفعول ما يُشعر بأنهم لا يستحقون أن يذكر معهم فاعل لهوانهم على الله عز وجل ، أو تنزيهاً لله ﷻ - باعتباره فاعل الطبع - من أن يُذكر في سياق واحد مع هؤلاء المنافقين ؛ لأنهم بلغوا درجة من الفساد في العقيدة بحيث لا يدركون حقيقة الإيمان ولا يفقهونها بفعل الطبع المؤدي بهم إلى الكفر ، فالطبع سبب في عدم الفقه ، وعدم الفقه نتيجة للطبع ، ولذا قدم الطبع على عدم الفقه في الآية .

ولما طبع الله على قلوبهم كانت من نتيجة ذلك ووصفهم بأنهم (لا يفقهون) وهذا هو موطن السخرية ؛ والفقه : هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد (٤) ، وأبو هلال العسكري يرى أن الفقه هو العلم بمقتضى الكلام على تأمله (٥) ، ونفى الله ﷻ عنهم هذا العلم والإدراك المؤدي بهم إلى الإيمان ، ووصفهم بعدم الفقه فيه سخرية لاذعة وتهكم بالغ بهؤلاء ، والذي زاد من قوة السخرية تقديم المسند إليه (هم) على الخبر الفعلي (لا يفقهون) والذي أفاد تقوية الحكم السابق وتوكيده ، وكذا مجيء الفعل (يفقهون) بصيغة المضارع ؛ للدلالة على استمرارهم في عدم فهمهم للإيمان ؛ لأن الله ختم لهم بالكفر حتى الموت ، فضلاً عن حذف مفعول (يفقهون) ليفيد إطلاق عدم الفقه على العموم ، فهم لا يفهمون ولا يفقهون شيئاً قط فيما طبع الله ﷻ على قلوبهم .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٣٧ .

(٢) روح المعاني ٢٨ / ١١٠ بتصرف .

(٣) السابق، الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : (المفردات - فقه) .

(٥) ينظر الفروق اللغوية ص ١٠٢ .

المطلب الثاني : سخرية القرآن من سلوك المنافقين :

وكما سخر القرآن الكريم من عقيدة المنافقين ، سخر - أيضا - من سلوكهم ، فأبرزهم في صورة مهينة ، وأماط اللثام - ببلاغته المعجزة - عن كثير من الصفات السيئة التي تميزهم من غيرهم ، ومن أهم الصفات التي سلط القرآن الضوء عليها : الجبن الشديد ، وكثرة الحلف ، والكذب الدائم ، والتكلف في المظهر والكلام ، وغيرها من الصفات القبيحة .

وسخرية القرآن من سلوك المنافقين وصفاتهم - عموما - وردت في ستة عشر موضعا من القرآن الكريم (١) ، وكان أكثر تركيزها على صفة الجبن الشديد الذي يعتري هؤلاء المنافقين ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن جبن المنافقين يختلف عن جبن غيرهم من الناس من ثلاث نواح :

- **الأولى** : أن الجبن في الناس فردي ؛ بمعنى أنه يوصف به عادة الأفراد وليس الجماعات ، فهو يتمثل في حالات فردية ، أما في المنافقين فإنه صفة عامة فيهم ، وهو بالنسبة لهم صفة جماعية وليست فردية .

- **والثانية** : أن الجبن الذي يوصف به بعض الناس يتمثل في خوفٍ يعتري الشخص فيحمله على الهروب من موقف مخيف ، أو يعجزه عن مواجهة شيء فيه خطورة ، أما جبن المنافقين فليس وليد لحظة معينة أو موقف معين ، وإنما هو شعورٌ دائمٌ ملازم له بالخوف من كل شيء .

- **والثالثة** : أن الجبان العادي نفسه سليمة مطمئنة ؛ والجبن الذي يعتريه مصدره خارجي مؤقت حين يتعرض لموقف لا يستطيع مواجهته فيشعر بالخوف ، أما المنافق فخوفه نابع من داخله ، حيث يشعر بأنه يطوي في أعماق نفسه شيئا لا يرضاه الناس ، يشعر بأنه يحمل جريمة منكرة لو انكشفت للناس لعاقبوه عليها ، فهو يخاف بسبب النفاق الذي يحمله ، فضلا عن حبه للحياة وحرصه عليها ، وخوفه من الموت الذي يطارده في كل لحظة ، وهذا الرعب والفرع الشديد يزيد ويصل إلى قمته عندما يسمع آياتٍ تدعو إلى الجهاد أو القتال (٢) .

وبصور القرآن الكريم طبيعة الخوف الشديد الذي يميز المنافقين من غيرهم بصور متفرقة لم يتحدث بها عن أحد من الناس ، ولا عن أعداء الإسلام غير المنافقين ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثَ مَلَجًا أَوْ مَخْرَبًا أَوْ

مُدْخَلًا لَوْلَا إِلَهِهِمْ لَمَنَحُونَ ﴿٥٧﴾ [التوبة : ٥٦ - ٥٧] ، فيصفهم القرآن بأنهم قوم (يَفْرُقُونَ) ،

والفَرْقُ هو تفرُّق القلب من الخوف (٣) والمقصود : أنهم يخافون خوفا شديدا ، ويسيطر عليهم دائما الشعور بالهروب والاختفاء حتى وإن لم يتعرضوا لما يخيفهم ، والآية - هنا - ليس في سياقها ما يدل على سبب يدعو لهذا الخوف الشديد كالأمر بالحرب أو القتال أو نحوهما حتى يخافوا ، مما يؤكد أن الخوف والرعب والتماس المهرب طبيعة فيهم ، والذي وضح هذه السخرية وجلالها هو بحثهم الدائم عن ملجأ أو مغارة أو نفق يختبئون فيه ويحتمون به ، وحين يجدونه يسرعون إليه كالحصان الجموح ، فلفظ (يفرقون) يوحي بأن خوف المنافقين من

(١) ينظر : البقرة ١٢ ، وآل عمران ١٦٨ ، والتوبة ٤٢ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٥ ، والحج ١١ ، والأحزاب ١٩ ، والمنافقون ١ ، ٢ ، ٤ .

(٢) ينظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ٣١٦ وما بعدها .

(٣) ينظر : (المفردات للراغب - فرق) .

طراز خاص يختلف عن خوف سائر الناس ، ولفظ (يجمحون) يوحي برغبة عارمة في الهرب والاختباء ، رغبة تملك عليهم أقطار نفوسهم ، وتسيطر عليهم سيطرة تفقد لهم الاتزان وهذوء المسلك .

ومما زاد من بلاغة هذه السخرية التعبير بالفعل (ولأوا) الذي يدل على الفرار وسرعة الهروب فضلا عن التعبير بالمضارع (يفرقون) ، (يجدون) ، (يجمحون) ؛ للدلالة على استمرار هذا الخوف الشديد ؛ لأنه من طبعهم وجبلتهم .

وفي شاهد آخر يسخر القرآن من خذلان الأغنياء وأولي الطول من المنافقين وتقايسهم عن الجهاد ، فينعي عليهم هذا التقاعس والتخاذل ، ويفضح حالهم بسبب اعتذارهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ بسبب الرعب الشديد الذي تملكهم وخوفهم من الموت ، حيث يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذِلَّةَ الَّذِينَ الَّذِينَ لَمْ يَلْمِزُواكَ فِي شَيْءٍ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ٨٦ - ٨٧] ، حيث

﴿ ٨٦ ﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿ ٨٧ ﴾ [التوبة : ٨٦ - ٨٧] ، حيث

إن هؤلاء بدلا من أن يتقدموا الصفوف ، ويجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم - باعتبار ادعائهم الإسلام - جاءوا لرسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يسمح لهم بالعود مع النساء والصبيان

والعجزة ، فكانت السخرية منهم عالية مدوية بقوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ ،

وهذه السخرية لاذعة في مقامها ؛ لأنها تثبت جبن هؤلاء وخوفهم الشديد من جهة ، كما تبين

أنهم بطلبهم القعود عن الجهاد لم يستشعروا ما في هذا الصنيع من صغار وهوان وذلة من جهة

أخرى ، ولا شك أن التعبير بكلمة (الخوالف) فيه دقة وبراعة وإيجاز ؛ لأن (الخوالف) جمع

خالفة وهي من لا خير فيها ، والمراد بالخوالف : أخساء الناس وأخلافهم ، وقيل : المراد بها :

النساء اللاتي تخلفن في البيت فلا يبرحن (١) ، وإلحاق هؤلاء بالخوالف فيه مبالغة في الذم

والهزاء والسخرية ، والذي زاد من حدتها قوله - تعالى - بعدها : ﴿ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَفْقَهُونَ ﴾ ؛ وسبب الطبع على قلوبهم أنهم ارتضوا لأنفسهم أن يجلسوا مع النساء والصبيان ،

ولذا جاء بفعل الطبع مبينا للمفعول ؛ " لبيان أن عدم إدراك الحقائق وفقها أدى إلى أن تكون

القلوب مطبوعة على هذا الخزي المؤدي إلى الكفر ، ولا يستحقون أن يسند هذا الطبع إلى اسم

الجلالة ، فقابل طولهم بالتجاهل عنه ؛ خطأ لشأنه ، وبيان أنه لا قيمة له مع التهرب من أمر الله

ورسوله " (٢) .

وختم بجملة : ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ إمعانا في السخرية ، وتأكيذا لها ؛ لأنهم إن كانوا أصحاب

طول وسيادة ورياسة ، فطلبهم الجلوس مع النساء وأخساء الناس يثبت أنهم لا يفقهون ولا

يفهمون ، لأنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، بسبب جبنهم وضعفهم وتخاذلهم ، ومن

هنا كانت السخرية .

(١) ينظر : (لسان العرب - خلف) .

(٢) الختم والطبع ودلالاتهما البلاغية في القرآن الكريم ، أ. د : السيد محمد سلام ص ١٥٣ .

وفي شاهد ثالث يصور القرآن الكريم في سخريته أثر الخوف الشديد الذي يعترهم حينما يتعرضون لموقف مخيف ، ويلفت الأنظار إلى عضو معين فيهم تتمثل فيه كل مشاعرهم وانفعالاتهم وهو العين ، فيضرب مثلا من أمثلة الخوف عند المنافقين حين ينزل القرآن بأمر يدعو للقتال ، حينئذ تراهم أفزع الناس ، وترتسم في عيونهم كل مشاعر الرعب والفرع ، ويبحثون عن أي أمل يتعلقون به للنجاة أو للتخلص من هذا الموقف الذي يواجههم فلا يجدون أملا سوى في شخص الرسول ﷺ فتتعلق نظراتهم الفرعة الجازعة به - كأنها نظرات من يعالج سكرات الموت - ضارعة إلى الرسول ﷺ أن يغيثها من هذا الخطر الداهم الذي يواجهونه .

يقول تعالى مصورا ذلك المشهد: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ

فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ [محمد : ٢٠]

فالآية توضح مدى ضعف هؤلاء وانكشاف ستر الرياء عنهم ، وتصور هيبتهم بهيئة المحتضر الذي ظهرت عليه علامات الموت ، وهي صورة ساخرة جدا ، وتهكم لاذع بهم ، والذي قوى من هذه السخرية الفعل المضارع (ينظرون) ، حيث يدل على استحضار الصورة وكأنها معروضة للأنظار ، كما أن التعبير (فأولى لهم) فيه سخرية أيضا لأن معناه : الدعاء بالهلاك عليهم كأنه قيل : هلاكا أولى لهم ، بمعنى : أهلكهم الله هلاكا أقرب لهم من القتال الذي يفرون منه ، والذي زاد من حدة السخرية بيان أن كل هذا الرعب والفرع الذي اعترى هؤلاء المنافقين - والذي بدا في عيونهم ونظراتهم - ليس لأنهم أمروا بالقتال وإنما لمجرد أن السورة التي نزلت (ذُكر فيها القتال) .

ونظرا لكثرة شواهد السخرية في هذا الجانب ، وتقارب أساليب البيان فيها مع اختلاف المواقف سأدرس - إلى جانب الشواهد السابقة - بعضها بشيء من التفصيل البلاغي ، من ذلك

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّحِيٍّ الْجَمْعَانَ إِذِ احْتَمَرَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا

قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قَاتِلًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ

بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ

أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ [آل عمران : ١٦٦ - ١٦٨] .

هذه الآيات من سورة آل عمران ، وهي من السور المدنية الطويلة ، وقد اشتملت على ركنين مهمين من أركان الدين ، الأول : ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله ﷻ ، والثاني : ركن التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله ، وقد جاء الحديث فيها عن الغزوات بالإطباب كغزوة بدر وغزوة أحد ، والدروس التي تلقاها المؤمنون من هذه الغزوات (١) .

وتناولت الآيات السابقة موقفا من مواقف المنافقين في غزوة أحد ، حيث كشفت

(١) ينظر : مساعد النظر ٢ / ٦٨ ، وصفوة التفسير للصابوني ١ / ١٨٢ .

ضلالهم وانحراف عقيدتهم ، ومواقفهم المخزية في هذه الغزوة ، (فقد كانت أولى الغزوات التي فضحت المنافقين ، وكشفت نواياهم الخبيثة ، وكان ذلك لحكمة من الله - تعالى - حتى يميز الخبيث من الطيب ، فكانوا مختلطين بالمؤمنين اختلاطا شديدا في شتى القبائل ، وكانوا قبل يوم أُحد يظهرن فرادى ، أما في هذا اليوم فقد ظهرن بشكل جماعي قوامه ثلاثمائة رجل أو يزيدون انحازوا إلى عبد الله بن أبي) (١) .

وهذه الآيات تشير إلى موقف عبد الله بن أبي ومن معه ، وقد سمّاهم الله ﷺ في هذه الآيات (الذين نافقوا) ، حيث كشفهم وميزهم في هذا اليوم أكمل تمييز، وعبر عنهم بالموصول وصلته لدمهم وتحقيرهم بمضمون الصلة ؛ تبيكتنا لهم ، وتقليلنا من شأنهم .

وذكر ابن عباس ومجاهد أن آية : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ نزلت في عدو الله عبد الله بن أبي ومن معه (٢) ، وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد ورجعوا ، حيث مشى في إثرهم عبد الله بن عمرو بن حزام الأنصاري أبو جابر بن عبد الله فقال لهم : اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم ، وقاتلوا في سبيل الله وادفعوا ، فقال له ابن أبي : ما أرى أن يكون قتال ، ولو علمنا أن يكون قتالٌ لَكُنَّا معكم ، فلما ينس منهم عبد الله قال : اذهبوا أعداء الله ، فسيغني الله رسوله عنكم ، ومضى مع النبي ﷺ واستشهد رحمه الله (٣) .

ولذا وضح القرآن الكريم صنيعهم هذا ، بل وسخر منهم بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، وهذه الآية قول آخر للمنافقين قالوه بعد القتال ؛ فهم لم يكتفوا بالتخلف عن المعركة وما يحدثه هذا التخلف من زلزلة في الصفوف ، (بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة في قلوب أهل الشهداء وأصحابهم) (٤) ، فعبر عنهم بالموصول وصلته : (الذين قالوا) وهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هم) ، أو بدل من (الذين نافقوا) ، أو صفة له ؛ لتميزهم أكمل تمييز ، وللدلالة على أن أمرهم قد افتضح ، ومكونهم قد ظهر، حتى أصبح لا يخفى على أحد ، وفي ذلك ذمٌ وتحقيرٌ لهم ، وتسفيهٌ لأحلامهم وازدراءٌ لشأنهم ؛ ولأنهم اشتهروا عند السامعين بهذه المقولة (٥) .

ولما كان قولهم : (لو أطاعونا ما قتلوا) ابتداء به واحد منهم وهو عبد الله بن أبي ، وواقفه باقي الجماعة جاء بالاسم الموصول جمعا ؛ للإيهام وعدم تعيين من يُرغَب عن ذكره تحقيرا له حتى يظل نكرة في الوجود ؛ استهانة بشأنه (٦) ، وليبيان اشتراك جميع من واقفه في الإثم معه .

وجاء التعبير بـ (إخوانهم) خاصة ؛ للدلالة على الوحدة بينهم في الاتجاه والمشرب ، فهم إخوة في عداوة الرسول ﷺ ، أو النفاق ، أو إخوة في النسب وسكنى الدار لا في الدين .

(١) لغة المنافقين في القرآن الكريم ص ٧٧ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : تفسير الطبري ٤ / ١٧٠ ، وزاد المسير ١ / ٤٩٨ .

(٣) ينظر : تفسير القرطبي ٣ / ١٥٠٨ .

(٤) في ظلال القرآن ١ / ٥١٥ بتصرف .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ٤ / ١٦٤ .

(٦) ينظر : الكشاف ١ / ٤٣٨ ، وتفسير القرطبي ٤ / ٢٦٧ .

كما أن النظم الكريم جاء بالجملة الاعتراضية (وقعدوا) بين الفعل : (وقالوا) ومعموله : (لو أطاعونا ما قتلوا) ؛ لسر بلاغي جليل هو البرهان على كذب هؤلاء ونفاقهم ، فهم لم يقولوا ذلك من أجل إخوانهم حقيقة ، بل قالوه كذبا ورياء ، وإثارة للزلزلة والحسرة في قلوب الشهداء ، ولو كانوا صادقين في حرصهم على حياة إخوانهم ما قعدوا عن تعاونهم ونصرتهم وقت الشدة والعسرة .

فالاعتراض بالفعل (وقعدوا) يوحي بالسخرية البالغة الممزوجة بالتبكييت والتقرير لهؤلاء المنافقين ؛ لما فيه من دلالة على كذبهم ومخالفة أقوالهم أفعالهم .

وبمعاودة النظر في قول المنافقين : (لو أطاعونا ما قتلوا) يُلاحظ أن النظم القرآني حذف معمول الجملة الاعتراضية ، والتقدير : " قعدوا عن القتال " (١) ؛ لكونه معلوما لدى السامعين فهو حذفٌ بليغ لوجود القرينة الدالة عليه ، إلى جانب أن في هذا الحذف تسليطا للضوء على سوء صنيعهم وقبح أفعالهم من أمر تخاذلهم عن إخوانهم .

كما حُذِفَ متعلقُ فعلِ الشرط ، والتقدير : " لو أطاعونا فيما أمرناهم به من القعود لما قتلوا كما لم نقتل " (٢) ؛ " إيذانا بأنهم أمر وهم بالانخزال حين انخذلوا ، وأغورهم كما غَوُوا " (٣) ، فضلا عن إطلاق العقل والخيال ليتصور كل ما يمكن صدوره من أمثال هؤلاء في تثبيط الهمم وفتن العزائم .

كما يلحظ - أيضا - أن المنافقين عبروا بـ (القتل) خاصة دون الاستشهاد ؛ للدلالة على عقيدتهم الفاسدة ، وقلوبهم المريضة ، حيث لا يُعدُّون الاستشهاد في سبيل الله حياة خالدة في النعيم ، بل يعدُّونه قتلا وفناءً وضياعا بعد الوجود .

وقيدوا المسند (أطاعونا) بحرف الشرط (لو) التي يمتنع بها الشيء لامتناع غيره (٤) ؛ لإفادة أن حياة مَنْ قُتِلَ امتنعت لامتناعهم عن طاعتهم ، مما يشعر بأن هؤلاء المنافقين جعلوا من تخلفهم حكمة ومصالحة ، وجعلوا من طاعة الرسول ﷺ واتباعه مغرما ومضرة .

ولما كان هذا القول - الذي لم يجسر عليه إلا المنهمكون في الغي والضلال - يُفهم منه ادعاء هؤلاء المنافقين القدرة على دفع الموت ، كان الغضب منهم شديدا ، والسخرية منهم أشد في قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ حيث أعرض الله ﷻ عنهم بفعل الأمر (قل) ؛ وهو أمر للرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين هم في غيبة عن حضرته سبحانه : (فادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ) ، وهذه الجملة هي موطن السخرية صُدِّرت بالأمر (فادْرَأُوا) لغرض التبكييت والتعجيز مع السخرية من هؤلاء بالنزول على معتقدتهم في أنهم قادرون على دفع الموت ، أو أن قعودهم عن القتال هو الذي أنجاهم من الموت ، وهذه

(١) ينظر : الكشاف ١ / ٤٣٨ .

(٢) تفسير البيضاوي ٢ / ١١٣ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٢ / ١١١ .

(٤) ينظر : حروف المعاني لأبي القاسم الزجاج ص ٣ ، ت / د : على توفيق الحمد - الطبعة الأولى - نشر مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان - ١٩٨٤ م .

الجملة حجة واضحة ، وردَّ حاسم ؛ لأنها ترد كيد المنافقين وتبين كذبهم من جهة ، وتصحح المفاهيم المغلوطة من جهة أخرى ؛ حيث إن ما ادعوه من أن سبب نجاتهم القعود ليس بمستقيم ، فليس القعود هو الذي أنجاهم من الموت ، ولن يجدوا لدفعه سبيلا (ولو قعدوا) ، فالموت يصيب المجاهد ، والقاعد ، والشجاع ، والجبان ، ولا يرده حرص ولا حذر ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره .

ومما لاشك فيه أن إيثار التعبير بالفعل (ادراوا) فيه إشعارٌ بإرخاء العنان من المولى - سبحانه - لهؤلاء المنافقين ؛ مبالغة في التحدي والتعجيز وما يترتب عليهما من التهكم والسخرية ؛ لأن الفعل (درأ) يعني : الدفع بقوة ، كما يعني المخالفة ، ويعني أيضا التأخير (١) ، فإن كان هؤلاء المنافقون صادقين في أن تخلفهم عن القتال هو الذي أنجاهم من القتل فليدفعوا عن أنفسهم الموت بكل قوة وحيلة ودهاء ، أو يخالفوا السنة الكونية بألا يموتوا أصلا ، أو يؤخروه عن أنفسهم إن قدروا على ذلك ، فأنفسهم أعز عليهم من إخوانهم ، ولذا قيل لهم : (فَأَدْرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ) سخرية واستهزاء بمعتقدهم هذا وعبر بـ (الموت) دون (القتل) الذي ذكره في مقولتهم السابقة ؛ لأن الموت يشملها ، ويشمل جميع أسباب الفناء ، والقتل سبب للموت ، وإن اعتقدوا أو زعموا أنهم دفعوا عن أنفسهم سببا خاصا من أسباب الموت وهو القتل بقعودهم عن الجهاد ، فإنهم لن يقدرُوا عن دفع جميع أسبابه .

ولذا سخر منهم بالجملة السابقة ، وصعد في حدة السخرية بالشرط التبكيّتي : (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وهو تذييل القصد منه الاستهزاء بهم ، وتبكيّتهم ، وتوبيخهم ، والمبالغة في تحديهم ، والتعبير بحرف الشرط (إِنْ) - الدال على الشك - فيه دلالة على كذبهم وعدم صدقهم ، وفساد معتقدهم .

والذي زاد من بلاغة جملة السخرية : (فَأَدْرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) الاحتباك الموجود في الآية ، وهو فن بديعي له قيمته البلاغية ؛ لأنه ينأى بالأسلوب عن التكرار الممل ، كما أن فيه إعمالا للفكر ، وتحريكا للذهن ، وإيجازا في اللفظ ، وهذا الإيجاز متأث من الحذف في كلتا الجملتين ، حيث حذف فعل الشرط في قوله : (فَأَدْرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ) تعويلا على قوله : (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) بعده ، وحذف الجواب في قوله : (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) لدلالة (فَأَدْرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ) قبله عليه ، والتقدير : إن كنتم صادقين في زعمكم هذا فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين فادروا عن أنفسكم الموت (٢) ، فتكرر الشرط التبكيّتي مرتين ، والأمر التعجيزي مرتين في إيجاز بليغ ، وتنوع بين الذكر والحذف في تلاؤم وتناسق ؛ زيادة في التبكيّتي والتقريع لهؤلاء .

وبعد ، فهذا الذي تعرّض له المسلمون في غزوة أحد كان فيه ذكرى وعظة ، والذكرى

(١) ينظر : (لسان العرب - درأ) ، والمفردات للراغب ص ١٦٩ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢ / ١١١ ، وروح المعاني ٤ / ١٢٠ .

تنفع المؤمنين ، فلقد عرف المسلمون سنة الله في النصر والهزيمة ، وميزت هذه الغزوة المؤمنين من المنافقين ، و كان عبد الله بن أبي زعيم المنافقين في هذه المعركة قد ورم أنفه ؛ لأن الرسول ﷺ لم يأخذ برأيه ، وقد أحدث تصرفه هذا رجّة في الصف المسلم ، كما أحدثت أقاويله بعد ذلك عن القتلى حشرات في القلوب .

وكان من شأن ذلك أن تأتي أحداث هذا الرجل في بداية الغزوة التي شغلت ستين آية من سورة آل عمران من الآية رقم ١٢١ إلى ١٨٠ ، وترتيب هذه الآيات من ١٦٦ - ١٦٨ قبل النهاية بقليل ؛ وذلك لأن القرآن الكريم أراد أن يظهر الاستهانة به ، وبفعلته ، وبقوله (١) ، فلم يصدر أحداث هذه الغزوة بذلك الحدث ، وأخره إلى هذا الموضع من السياق مع وصف هذه الفئة بقوله : (الذين نافقوا) ، وكان التعبير عنه باسم الموصول الذي يدل على العموم ؛ ليظل هذا الرجل نكرة في خلال عصور التاريخ ، ولم يذكر اسمه صريحا ، ولم يبرزه ككبير قوم له مكانة وشخصية في عصره ، كل ذلك حتى يسدل الستار عن هذه الشخصية ، ويزيل من نفوس الناس هيئته ، وما له من قوة وسلطان .

وفي سورة التوبة كانت السخرية من عدم خروجهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك (٢) أشد وقعا ، وأعلى نبرة ، وأوقع إصابة ؛ لأنها جاءت لتصف قبحا آخر من قبائح هؤلاء المنافقين في هذه الغزوة ، حيث قعد بهم ضعفُ الهمة ، وفرحوا بالسلامة والراحة ، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والشدة ، وخالفوا رسول الله ﷺ ، وقالوا قوله المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال : (لا تنفروا في الحر) ، ولكن نار جهنم أشد حرا ، وأطول أمدا ، وسيكون جزاؤهم من جنس عملهم .
يقول - تعالى - واصفا هذا الموقف المخزي ، وساخرا من هؤلاء المنافقين :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٨١ - ٨٢] .

حيث جاءت هاتان الآيتان من سورة التوبة في سياق الحديث عن غزوة تبوك بعد أن بينت الآيات السابقة ما ظهر من استهزاء المنافقين بالمؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى هذه

الغزوة في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا

يُجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [التوبة : ٧٩] ، ولما بينت ما كان منهم من طلب الاستغفار من الرسول الكريم لهم ، كان من المناسب ذكر حال المنافقين الذين لم يخرجوا معه ﷺ وتخلفوا عن الجهاد ، وتعللوا بعلل وأعدار كاذبة حتى يأذن لهم الرسول ﷺ ، فجاءت هاتان الآيتان لتكتشفا عن أحوالهم وسوء فعالهم .
ومواطن السخرية في هاتين الآيتين في ثلاثة مواضع :

- الأول في قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ .

(١) ينظر : لغة المنافقين في القرآن الكريم ص ٨٢ .

(٢) وقعت هذه الغزوة في رجب في السنة التاسعة للهجرة ، ينظر تفاصيلها وأحداثها في كتاب الرحيق المختوم لفضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ص ٣٧٦ - ٣٨٤ ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - دولة قطر - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

- والثاني في قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ .

- والثالث في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

أما السخرية الأولى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ فمنبعها التعبير بالمسند إليه (المخلفون) ؛ الدال على المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، إذ إنها اسم مفعول من خَلَفَ فلانٌ فلاناً إذا تركه خلفه (١) ، والتعبير عنهم بهذا الوصف فيه ذمٌ بالغ ، وتحقير شديد لهم ؛ وسخرية منهم ؛ لأن هذا اللفظ يجعلهم كأنهم من سقط المتاع الذي يترك ويهمل ، وهو أبلغ في الذم والتحقير من (المتخلفون) ؛ إذ المُخَلَّف : ما يتركه الإنسان خلفه ، بينما (المتخلف) معناه : الذي تأخر بنفسه ، والمراد بالمخلفين - هنا - المنافقون الذين خلفهم النبي ﷺ بالمدينة عن الخروج إلى تبوك بعدما أذن لهم حين طلبوا الإذن ، ولذا سخر منهم القرآن سخرية شديدة فوصفهم بأنهم (المخلفون) بعدما سخر منهم قبل ذلك بقوله : (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) .

وبالنظر في جملة السخرية : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ يتضح أنها صيغت بألفاظ وعبارات دقيقة بليغة في موقعها ؛ لتعطي صورة واضحة لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الغزوة ، ولذا كانوا مقصداً لتهم القرآن وسخريته .
فقد عبر بالفعل (فرح) الذي يوحي بصيغته ومادته بتحقيق نفاقهم ؛ لما يفيد من ابتهاج نفوسهم بتخلفهم عن الرسول ﷺ ، وأن ذلك أمرٌ ارتاحت له أنفسهم وصادف هواها .
كما عبر عنهم بـ (المخلفين) دون ضميرهم كما كان السياق يقتضي ؛ لسبق الحديث عنهم ، فلم يقل : (وفرحوا) وإنما قال : (فرح المخلفون) ؛ للزيادة في الذم والتوبيخ لما رضوا به أنفسهم من أن يكونوا مع الخالفين .

وقال : (بمقعدهم) ، وهو مصدر ميمي معناه : قعودهم في المدينة ، أو : اسم مكان والمراد منه المدينة ، والأول أشهر (٢) ، والباء للسببية ؛ للإشعار بهبوط أنفسهم عن الارتفاع إلى معالي الأمور ، وإيثار الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقي .
وآثر النظم الكريم اختيار لفظ (خِلاف) (٣) دون (خَلَفَ) ؛ إشارة إلى أن قعودهم كان مخالفاً لإرادة الرسول ﷺ ؛ فضلاً عن بيان مدى تناقل أنفسهم عن الخروج معه ﷺ .

كما آثر النظم القرآني (خلاف رسول الله) دون (خلاف الرسول) ؛ للإيحاء بمزيد من الذم والتحقير لهم ؛ لأن مخالفة الرسول لم تكن لذاته ، بل هي مخالفة لأمر الله ﷻ ، وفي هذه الإضافة إيحاء ببعدهم عن رضا الله ﷻ ورضا رسوله ﷺ .

(١) ينظر : (لسان العرب - خلف) .

(٢) ينظر : روح المعاني ١٠ / ١٥١ .

(٣) خلاف : بمعنى خلفه ﷺ وبعد خروجه ، حيث خرج ولم يخرجوا ، وهو منصوب على الظرفية بمعنى : بعد وخلف ، والعامل في هذا الظرف (مقعد) ، ويجوز أن يكون (فرح) ، وقيل : (خلاف) بمعنى : المخالفة ، فيكون مصدر (خالف) كالقتال ، وهو - حينئذ - يصح أن يكون حالاً بمعنى : مخالفين لرسول الله ﷺ ، أو يكون مفعولاً له ، والعامل فيه : إما (فرح) أي فرحوا لأجل مخالفتهم ﷺ بالعودة ، وإما (بمقعدهم) ، أي : بعودهم لأجل المخالفة .

ينظر : (الدر المصون ٣ / ٤٨٧) ، و (روح المعاني ١٠ / ١٥١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بيانٌ للسبب الذي دعاهم إلى التخلف عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ؛ وهو كراهيتهم للجهاد ، وتخاذلهم ، وفساد أمرجتهم ، وسقوط همتهم ، وأوثر هذا التعبير دون (وكرهوا أن يخرجوا مع رسول الله) ؛ للدلالة على أن الجهاد في سبيله ﷺ على الرغم من كونه من أجل الرغائب التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون إلا أنهم كرهوه وفرحوا بالعود ، فكان هذا التعبير نصا في ذمهم وتوبيخهم والإنكار عليهم ، حيث فاتهم شرف عظيم ، فضلا عما في هذه الجملة من تعريض حسنٍ بالمسلمين وبتحملهم المشاق العظيمة ، وإيثارهم الجهاد على الدعة والخفض .

ولما قالوا مقولتهم الساقطة : ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ - وكانوا يقصدون من ورائها أن تصل إلى سمع المسلمين ؛ لبث الفزع والجبن في قلوبهم ؛ وليقعدوا عن الجهاد كما قعدوا - كان الرد عليهم بالسخرية اللاذعة والتهمك الشديد : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ ، وهذه هي السخرية الثانية ؛ حيث جاءت مستأنفة استئنافا بيانيا ؛ لتزيل بحسم وبقوة ما انطوت عليه أنفسهم الضعيفة من الراحة والدعة ، وأيضا لتزيل ما قد يعلق ببعض نفوس المسلمين السماعين لمقولتهم المدسوسة ، وجاءت هذه الجملة (خبرية مستعملة في التذكير بما هو معلوم ، حيث إن كون نار جهنم أشد حرا من حر القيظ أمر معلوم لا يحتاج إلى إخبار عنه ، ولكن جاء الخبر به للتعريض بجهلهم ؛ لأنهم حذروا من حرٍ قليل ، وأقحموا أنفسهم فيما يصير بهم إلى حرٍ أشد ، فكان هذا التذكير كناية عن كونهم واقعين في نار جهنم لأجل قعودهم عن الغزو في الحر ، وأيضا كناية عرضية عن كونهم صائرين إليها (١) ، وصياغة الجملة توحى باستجهاالهم ؛ لأن مَنْ تصوّر من مشقة ساعةٍ فوق وقع بسبب ذلك التصوّر في مشقة الأبد كان أجهل من كلِّ جاهل (٢) ولذا صيغت في ثوب مشحون بالتهديد والوعيد الممزوج بالتهكم والتحقير ، فافتتحت بالأمر (قل) ؛ لبيان إعراض الله ﷻ عنهم ، وإفادة حتمية مواجهتهم بهذا التهديد المرعب . وحذف متعلق أفعال التفضيل ، وتقديره : أشد حرا من هذا الحر الذي تخشونه ؛ للإيجاز البليغ ؛ وللإيحاء بأن الحر الذي يتعللون به أهون من أن يذكر في النظم إلى جانب حر نار جهنم . وكانت المقابلة المعنوية بين قولهم : (لا تنفروا في الحر) والرد عليهم (قل نار جهنم أشد حرا) ؛ حيث إن نهيمهم واقع في الدنيا ، والرد عليهم تهديد بنار جهنم وذلك كائن في الآخرة ؛ لدفعهم إلى التفكير والموازنة بين تعب عاجل قليل يدركون به العزة والكرامة وينالون به رضا الله ﷻ ، وبين فرح وراحة مؤقتة تعقبها أحقاب طويلة من العذاب الدائم بنار جهنم الأشد حرا .

وزيادة في حدة السخرية والمبالغة فيها ختمت الآية بأسلوب الشرط اللاذع : ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ حيث حذف جواب (لو) ومفعول (يفقهون) والتقدير : لو كانوا من أهل الفقه والتأمل ما قالوا هذا ، وما تخلفوا بأموالهم وأنفسهم ، أو لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما آثروا الراحة ، وهذا الشرط اعتراض تذييلي من جهته سبحانه غير داخل تحت القول بالمأمور

(١) التحرير والتنوير ١٠ / ٢٨١ بتصرف .

(٢) ينظر : الكشاف ٢ / ٣٢٠ .

به ، مؤكِّدٌ لمضمونه ، مرادُّ به التجهيل والتوبيخ لهم ، والتهكم بهم ؛ إذ لا يخفى عليهم أن نارَ جهنم أشدُّ حرًّا .

ولا شك أن ختام الآية بالفاصلة (**يفقهون**) فيه دلالة على أنهم ليسوا من أهل الفقه والتأمل والإدراك ؛ لأنهم لو فقهوا الأمر وأدركوه إدراكا نافذا وتأملوه لعرفوا أنهم أغبياء يستحقون السخرية ؛ حيث تخلفوا عن الخروج ، وآثروا الظل والراحة ، فأعطوا لأنفسهم متعة زمنها قصير ، تاركين وراءهم مشقة طويلة ، هي مشقة نار جهنم والخلود فيها .

وفي الآية التالية مباشرة كانت السخرية الثالثة ؛ حيث سعد - سبحانه - في حدة التهكم بهم وزادهم توبيخا وتقريبا بقوله تعالى : ﴿ **فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ ، ومنبع السخرية في الآية - بالإضافة إلى المقارنة بين الضحك والبكاء - أت من أنها لا تتحدث عن ضحكهم واستهزائهم بالمسلمين في صيغة الخبر كما هو المتوقع ، وإنما تخرجه في أسلوب الأمر (فليضحكوا) ، وليس المراد بدهاة أن الله ﷻ يأمرهم بالضحك ، وإنما هو لجوءٌ إلى الأسلوب المتداول في سخرية الناس بعضهم ببعض ؛ للدلالة على الاستهانة وعدم المبالاة من حيث إن ضحك المنافقين (في عدم جدواه وعدم التفكير في عاقبته) شيءٌ يثير السخرية والضحك منهم .

فالأمر إذن في قوله : (**فليضحكوا**) لم يُردَّ به حقيقته ، بل أريد به التهكم والتهديد ، وإنما جاء التعبير بأسلوب الأمر دون الأسلوب الخبري (فسيضحكون) ؛ للدلالة على تحتم وقوع المخبر به ، فإن أمر الأمر المُطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به (١) ؛ وذلك لأن صيغة الأمر للوجوب في الأصل ، أما الخبر فيحتمل الصدق والكذب ، ولذا عبر بالأمر - هنا - عن الخبر ؛ لإفادة لزومه ووجوبه كأنه مأمور به ، محتم الوقوع ؛ مبالغة في حصوله .

وزيادة في السخرية حذف النظم الكريم منعوت (**قليلًا**) و (**كثيرًا**) ، والتقدير : (ضحكا قليلا وبكاء كثيرا) ، فحذف المنعوت وأقيم النعت مقامه ؛ تركيزا على الصفة نفسها دون نظر إلى موصوف معين ، ويجوز أن يكونا نعتين لظرف محذوف تقديره : (زمانا قليلا وزمانا كثيرا) ؛ ليناسب التعبير بـ (**قليلًا**) عمرهم المحدود في الدنيا ، و (**كثيرًا**) خلودهم في النار .

وقابل بين (**فليضحكوا قليلا**) ، و (**ليبكوا كثيرا**) ؛ ليكشف في دقة بالغة عن حال هؤلاء المنافقين في الدنيا وما يعتر بهم من فرح قصير زائل ، ثم تحول هذا الفرح إلى حزن طويل في الآخرة عندما يكتونون بنار جهنم ؛ فضلا عما حققته هذه المقابلة من توازن وتناسب كان له حسنه وبهاؤه في النظم ، حيث جاءت الألفاظ متجانسة ، والجملة متوازنة ، وكان لها أثرها الصوتي الذي يكشف عن التهكم والسخرية المريرة بهم .

وجاء قوله : ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ ؛ عقب جملة السخرية ؛ ليبين عدل الله المطلق في

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢ / ٤٣٣ .

معاملة عباده ، وأثر التعبير بـ (ما) الموصولة ؛ للدلالة على العموم والشمول لكل أعمال المنافقين ، وعبر بالفعل المضارع (يكسبون) ؛ للدلالة على التجدد الاستمراري منهم ما داموا في الدنيا ، وختم بالفاصلة (يكسبون) دون (يكتسبون) الدالة على الافتعال ؛ للفت الأنظار إلى أن هؤلاء المنافقين قد اعتادوا المعصية حتى أضحووا يفعلونها بلا انفعال أو إحساس ، ولو قال : (يكتسبون) لأفاد أن المعصية تثير انفعالا وتهيجاً في داخلهم ؛ لأنهم لم يعتادوها .

وهكذا عرض النظم القرآني مقولة هؤلاء المنافقين بما يكشف عن عراقتهم في تلك الصفة الذميمة ، ثم ردّ عليهم بتوجيه النبي ﷺ إلى أن يواجههم بما يهددهم ويوقع الرعب في قلوبهم مع السخرية والتهكم بقوله : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ ، ثم كان ختام الآية بأسلوب الشرط الذي يشعّ بالسخرية والتهكم البالغ ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ ؛ وأخيرا كانت المقابلة في الآية التالية: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ ؛ لتزيد من حدة السخرية ، وترتقي بها إلى مراتب الألم النفسي الشديد لهؤلاء ، ولتظهر المعنى قويا واضحا ، وتكشف عن حالهم الفظيعة في الآخرة ، وما ينتظرهم من حر نار جهنم جزاءً وفاقا .

وإلى جانب السخرية من جبن المنافقين ، وخوفهم ، ورعبهم الشديد ، وضعفهم ، وتخاذلهم وعودهم عن الجهاد في سبيل الله - والذي تناولته الصفحات السابقة بالتحليل البلاغي - كانت سخرية القرآن - أيضا - من كذبهم الدائم وكثرة حلفهم بالأيمان الفاجرة ؛ حيث بين القرآن الكريم في أكثر من موضع أن هؤلاء المنافقين كاذبون ، ويلجأون - دائما - للحلف على كلامهم حتى يؤكدوه ؛ لسيطرة التوجس على نفوسهم ، والخوف من أن يفتضح أمرهم وينكشف ، فيجعلون من أيمانهم وتأكيداتهم محاولة أخرى لتضليل السامع وصرفه عن الشك في أمرهم ، ولكن القرآن يرد هذا السهم إلى نحورهم ، ويجعل الوسيلة التي أرادوا أن يغطوا بها نفاقهم هي نفسها الوسيلة لكشف نفاقهم ، ويسخر من الأيمان التي يحلفها المنافقون ويجهدون أنفسهم بها ليرضوا المسلمين عنهم ، فيبين لهم أن رضى الناس ليس غاية المؤمنين ، وإنما غاية المؤمنين رضى الله ﷻ ، فلو كانوا مؤمنين - كما يزعمون - لما نافقوا ، بل حرصوا على إرضاء الله ﷻ بالتزام الإيمان وصدق العقيدة ، وحينئذ يكونون قد حققوا - بالإضافة إلى رضا الله - الغاية التي ينشدونها بالحلف ، فحين يرضى الله ﷻ عنهم سيرضي رسوله عنهم ، وكذا المسلمين الذين يبذلون لهم الأيمان الكاذبة لينالوا رضاهم ، يقول تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ

وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ [التوبة : ٦٢] .

وسبب نزول هذه الآية ما روي عن قتادة أنه قال : اجتمع قوم من المنافقين منهم الجلاس ابن سويد ، ووديعة بن ثابت فوقعوا في النبي ﷺ ، وقالوا : إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير ، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس ، فحقروه وقالوا هذه المقالة ، فغضب الغلام وقال : والله إن ما يقول محمد حق ، وأنتم شر من الحمير ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فدعاهم ﷺ وسألهم : ما حملكم على هذا ؟ فحلفوا أن عامرا كذاب ، وأنهم ما

قالوا ذلك ، وحلف عامر أنهم كذّبة ، وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله هذه الآية ؛ ليفضح كذبهم ، ويظهر خبثهم أمام الناس جميعا ، وينشر على الدنيا كلها ما في صدورهم من كذب ورياء ونفاق .

وموطن السخرية في هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهي جملة خبرية جاءت لتوبيخهم والتهكم بهم بسبب سوء صنيعهم بالتماسهم الرضا من المؤمنين وبخاصة أصحاب الشأن والنفوذ والسلطان منهم وتركهم الأحق بالإرضاء وهو الله ﷻ ورسوله ، وهي جملة حالية معناها : " والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء منكم ، فلو كان ولاؤهم خالصا لله ورسوله لسَعَوْا إليه ، وآمنوا بالرسالة الإلهية " (١) ، وقدم المسند إليه (الله ورسوله) على المسند (أحق) ؛ لغرض بلاغي جليل هو الدلالة على التخصيص ، أي : لا أحد أحق بالإرضاء من الله ﷻ ورسوله ﷺ ، وإذا كان للناس حق في الإرضاء فإن هذا الحق داخل ضمن إرضاء الله ﷻ ورسوله ، فرضى الله ورسوله أوّلاً ثم يتبعه رضا الناس ثانيا ، وكان الظاهر أن يقال : (يرضوهما) ، فعدل التعبير عن ذلك إلى (يرضوه) ؛ إشارة إلى أن إرضاء رسوله عَيْنُ إرضائه ﷻ ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴾ [النساء : ٨٠] ، فتلازمهما جُعِلَا كشيء واحد ، وعاد إليهما الضمير المفرد ؛ للدلالة على أنه لا تفاوت بين الرضائين ، فكأنهما في حكم مرضي واحد ، وهذا من الإيجاز في التعبير ، ولو قال : (يرضوهما) لما أفاد هذا المعنى ، إذ يجوز في هذه العبارة نفسها أن يكون إرضاء كل منهما في غير ما يكون به إرضاء الآخر ، وهذا خلاف المراد هنا (٢) . وقد يكون في الكلام حذف ، والتقدير : (والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه) (٣) ، وعلى هذا الرأي يكون في الكلام احتباك ؛ حيث حذف من الأول : (أحق أن يرضوه) لدلالة الثاني (ورسوله أحق أن يرضوه) عليه ، وهو أسلوب إيجاز بليغ (٤) . ويجوز أن يكون الضمير للرسول ﷺ والخبر له ، ولا حذف في الكلام ؛ لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه ، ويكون ذكر الله - تعالى - تعظيما له - سبحانه - بإفراده بالذكر .

والذي زاد من شدة السخرية قوله في نهاية الآية : ﴿ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ حيث إنَّ التعبير بـ (إن) التي للشك تدل على عدم الجزم بوقوع الشرط مع تحقق عدم إيمانهم ، وهذا بلا شك أبلغ في إفادة الاستهزاء ، والسخرية ، والتهكم بهؤلاء المنافقين إلى جانب التوبيخ والتبكيت كما أن تقييد المسند (يرضوه) بالناسخ (كان) فيه حكاية لحالهم الماضية ، وبيان مبالغتهم في زعمهم الإيمان وحرصهم على إخفاء أمرهم بما يظهرون من أعمال ، ولذا جاء بالمسند (المؤمنين) في هذا الشرط اسما بصيغة اسم الفاعل ؛ للدلالة على زعم المنافقين بأن إيمانهم

(١) لغة المنافقين في القرآن الكريم ص ١٥٦ .

(٢) ينظر : الكشاف ٢ / ٢٨٥ ، والبيضاوي ٣ / ١٥٥ ، والقرطبي ٨ / ١٩٣ ، ١٩٤ ، ونظم الدرر ٣ / ٣٤١ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ٦٥ ، وتفسير الفخر الرازي ١٦ / ٩٥ بتصرف يسير .

(٤) ينظر : حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين ، لكوكبة من علماء الإسلام ص ٢٥٦ ، الطبعة الثالثة ، المجلس

الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

ثابت ، وفي ذلك استهزاءً بهم ، وإيماءً إلى ما يحرصون على إظهاره للناس دائماً بأنهم مؤمنون ، مصدقون ، مطيعون لله ورسوله ، ثابتون على ذلك ، وهم عن ذلك بألف معزل . ويلحظ في هذا الشرط أن جوابه محذوف تقديره : إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله بما ذُكر فإنهما أحق بالإرضاء (١) ، وفي هذا الحذف بُعدٌ عن التكرار الممل الذي يبعد بالكلام عن البلاغة ، فضلاً عن دعوتهم إلى أعمال عقولهم وشحنهم للإيمان بالقلب ، والسعي لإرضاء الله ورسوله بدلاً من إرضاء الناس .

وفي شاهد آخر يسخر القرآن من كذب المنافقين وكثرة حلفهم بقوله : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٩٥] ، وهذه الآية تصب على المنافقين احتقاراً شديداً ، وتأمراً للمسلمين بأن يعاملوهم بهذا الاحتقار ، فهم يحلفون للمسلمين كل هذه الأيمان حين يتخلفون عن الجهاد ، مدعين أن لهم أعدارا لم يستطيعوا معها أن يشاركوا فيه ، ليصدق المسلمون هذه الأيمان فلا يؤاخذونهم ولا يعاتبونهم ، فالقرآن يقول للمسلمين : إن هؤلاء المنافقين أهون وأحق من أن يرفعوهم إلى مرتبة العتاب ، فقله تعالى للمسلمين : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ ﴾ هو قمة السخرية والتهكم بهؤلاء ؛ لأن الأمر بالإعراض عنهم ليس مقصوداً به إعراض الصفح وقبول العذر ، بل المراد به إعراض الإهانة والتحقير ، وفي هذا التعبير ما يسمى بـ (القول بالموجب) أو (الأسلوب الحكيم) ؛ لأن معنى قوله : (فأعرضوا عنهم) : قبول ما يبغون من الإعراض عنهم ولكن على غير الوجه الذي يرجونه منهم بل ضده ، فالمنافقون يريدون من المسلمين أن يُعرضوا عنهم إعراض صفح وقبول معذرة ، والله ﷻ يريد أن يعرض المسلمون عنهم إعراض إهانة وتحقير وازدراء ، والسبب في هذا الطلب قوله ﷻ بعد الأمر بالإعراض عنهم : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ ؛ وهو تعليل لترك معابرتهم ؛ إذ المعاتبة لا تنفعهم ، ولا تصلحهم ؛ حيث إنهم صورة مجسمة من الرجس ، والرجس : النتن والقذارة (٢) ، فالتعبير عنهم بأنهم الرجس نفسه ، إلى جانب التأكيد بـ (إن) والجملة الاسمية فيه مبالغة شديدة في خسة أعمالهم ، وقبح بواطنهم ؛ فضلاً عن السخرية البالغة بهم ، والتهكم الشديد الذي يدعو إلى التقزز منهم والاشمئزاز .

ولتمام التعليل ختمت السخرية بقوله : ﴿ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ؛ وهذا التذييل يوحي بأن نجاستهم لا يمكن تطهيرها ، ولا يجب على المسلمين أن يأملوا ذلك ؛ لكون هؤلاء المنافقين من أهل النار ، وأنهم سيجازون في الآخرة بعملهم القبيح .

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ٤ / ٧٨ ، وفتح القدير ٢ / ٣٧٦ .

(٢) ينظر : (المعجم الجامع - رجس) ص ١٥٦ .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِّقِينَ

لَكَذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ [المنافقون : ١ - ٢] .

سخرية أخرى من كثرة حلفهم وكذبهم ؛ حيث كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على اقتضاح أمرهم ؛ فيجعلون أيمانهم وقاية وجُنَّةً يحتمون بها ، ويتقون مَنْ وراءها ليوصلوا كيدهم ، وقد صدوا غيرهم - بل وأنفسهم بهذه الأيمان الكاذبة - عن الإيمان والجهاد في سبيل الله ، فساء الذي كانوا يعملون .

وموطن السخرية والتهكم في الآيتين في قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ومنبعها آتٍ من تشبيه الأيمان الكاذبة الزائفة بلبس الجُنَّة ، والجُنَّة هي : الترس الذي يُجْنُ صاحبه ويستتره ، أو الدرع التي يلبسها المقاتل في الحرب ليتقي بها طعنات الأعداء (١) ، واختيار لفظ (الجُنَّة) والتعبير به في هذا المقام يوحي بأن المنافقين - في داخلهم - يعتبرون أنفسهم في حالة حرب مع المسلمين ، مهما يكن توددهم أو تقربهم لهم ، وهم بشعور الحرب هذا يتخذون أسلحة لها ، فاختراروا الحلف ليكون سلاح وقاية لهم من المسلمين كما يلبس المقاتل جُنَّتَهُ ليتقي بها ضربات الأعداء ، وزاوية السخرية في الآية من ناحية التصور والخيال ؛ حيث إن تصورهم وهم يلبسون دروعا من الأيمان يحتمون بها من غضب المسلمين تصوُّرٌ طريفٌ يثير التندر والسخرية من هؤلاء ، وخصوصا إذا كانت هذه الدروع التي يلبسونها ليست من الحديد ولا من أي شيء مادي بقي من أي طعن ، وإنما هي من الأيمان الكاذبة الزائفة .

هذا عن توضيح السخرية ، أما عن بلاغتها فالصياغة تكشف كثيرا من أحوال المنافقين ومكنون صدورهم تجاه الإسلام والمسلمين بصور وتعبيرات بليغة ودقيقة في موضعها :

فقد فصلت هذه الجملة ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ عن سابقتها ؛ للاستئناف البياني ؛ لأن تكذيب الله ﷻ

إياهم في قولهم للنبي ﷺ ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ يثير في أنفس السامعين سؤالا عن أيمانهم لدى النبي ﷺ بأنهم مؤمنون به ، وأنهم لا يظنونه بغيظه ، فأخبر الله ﷻ عنهم بأنهم اتخذوا أيمانهم تقيَّةً يتقون بها (٢) ، وفي هذا الجواب ما يبين حقيقتهم وسر تناقضهم .

وقد بدئت جملة السخرية بالفعل (اتخذوا) ، وهو مستعار (للاستعمال) استعارة تصريحية تبعية ؛ ليفيد أن هذه الجُنَّة لم تفرض عليهم ، ولم تقدَّم إليهم من أحد ، وإنما هم الذين صنعوها

بأنفسهم كقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الْمُتَكَبِّرِينَ اتَّخَذَتْ يَدًا ﴾ [العنكبوت : ٤١] ، وفي هذا الفعل ما يدل على أنهم يُعدُّون أيمانهم الكاذبة ويهيئونها لاستعمالها وقت الحاجة ليتخلصوا من المؤاخذة .

وأضاف النظم الكريم (الأيمان) إلى ضميرهم ؛ للدلالة على أنها أيمان من طراز خاص بهم فقط ، فهي أيمان كاذبة اتخذوها وقاية عندما تُوجَّه إليهم المؤاخذة ، فكلما ظهر على أحد منهم ما يوجب المؤاخذة حلفوا كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم ، والجمع في (اتخذوا) و(الأيمان)

(١) ينظر : (المفردات للراغب - جن) ص ٢٠٣ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٣٦ .

يدل على تعدد الحالفين ، وكثرة الأيمان الكاذبة .

ومن باب التغلغل في أعماق هؤلاء المنافقين استخدم القرآن لفظ (الجُنَّة) ، وهذا اللفظ فيه دقة بالغة ؛ إذ إنه يشير إلى حرب خفية من هؤلاء ضد المؤمنين ، كما يشير إلى الاستعداد للحرب النفسية إذا أُلْحِقُوا إليها ؛ لتضليل المسلمين وخداعهم ، ولو قال القرآن : (اتخذوا أيمانهم تضليلاً وخداعاً للمؤمنين ، أو إخفاءً لنفاقهم) لما كان في الكلام سخرية وكان على الحقيقة ، ولم يتضمن الدقة المشار إليها ، لكنه قال ذلك ؛ ليفيد أن درع المنافقين المصنوعة من الحلف الكاذب يظنون أنها تحميهم من الله ورسوله والمؤمنين ، وفي الحقيقة والواقع أنه لا توجد حولهم جُنَّة ولا توجد لهم حماية أصلاً ، وهم مكشوفون ومعرضون لما يصيبهم من الله ورسوله والمؤمنين ، ومن هنا كانوا عرضة للسخرية بهذا اللفظ ، والذي زاد من بلاغتها وجعلها موجعة صوغها في صورة التشبيه البليغ ؛ إذ شُبِّهت أيمانهم الكاذبة بالجُنَّة في الستر والوقاية ، مبالغة في بيان تحفزهم واستعدادهم لعاقبة فسادهم وخبثهم وكذبهم .

وعطف جملة ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ على جملة ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ ؛ لتفريع الصد عن سبيل الله على الحلف الكاذب ؛ وسبب هذا التفريع أن اليمين الفاجرة من كبائر الإثم ؛ لما فيها من الاستخفاف بجانب الله تعالى ؛ ولأنهم لما حلفوا الكذب ظنوا أنهم قد أمنوا اتهام المسلمين إياهم بالنفاق فاستمروا على الكفر والمكر بالمسلمين وذلك صدُّ عن سبيل الله (١) .
والفعل (صدوا) يمثل عنصراً أصلياً في دقة التعبير ؛ لأنه يحتمل أن يكون لازماً من الصدود بمعنى التحول والميل ، أي أنهم تحولوا عن طريق الله فمالوا وانحرفوا عنها ، ويحتمل أن يكون فعلاً متعدياً بمعنى المنع ، أي : منعوا غيرهم من الاتجاه إلى دين الله (٢) ، ويكون المفعول محذوفاً لإرادة التعميم ، وسواء كان متعدياً أو لازماً فإنه يبين أن هؤلاء المنافقين كانوا عقبة في سبيل وصول الناس إلى الإسلام ، كما يكشف عن مكنون ضمائرهم من إرادة المكر بخلق الله ومحاربة الدين من طرف خفي .

ولذا ختمت جملة السخرية بالتذييل ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وأكَّدت بآيٍ والجملة الاسمية ؛ لتفطيق حالهم عند السامعين مع التعجب من شأنهم بسبب صددهم عن سبيل الله ، والذي دل على ذلك : الفعل (ساء) ، وهو من أفعال الذم التي تجري مجرى (بئس) ، كما أن الجمع بين الفعل الماضي (كانوا) الذي يفيد الثبوت والدوام ، والفعل المضارع (يعملون) الذي يعني التجدد والاستمرار يُشعر بأن السوء طبيعة ثابتة وجبلة في المنافقين ، وأن مزاولتهم إياه متجددة دائمة التجدد ، وهذا من الذم بمكان .

ومن الصفات الأخرى في المنافقين - والتي كانت مقصداً لسخرية القرآن - **الاعتماد على المظهر وتنميق الكلام** ؛ والاهتمام بالمظهر شيء مرغوب وغير معيب إذا كان بالقدر المطلوب ولكن الاهتمام الزائد بالمظهر وتزيين الكلام بشكل فيه إسراف وخداع هو الذي كان

(١) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) ينظر : التصوير الساخر في القرآن الكريم ، د : عبد الحلیم حفني ص ٩٤ .

مقصدا لسخرية القرآن ؛ (لأن الخداع بالمظهر والكلام الجذاب كان من أهم الستائر التي يسدلونها على حقيقتهم لإخفائها ، فلشعورهم بالريبة في نفوسهم ، ولخوفهم من أن يفتضح أمرهم كانوا يلتمسون كل وسيلة لزيادة تضليل الناس عن حقيقتهم وصرافهم عن الشك في أمرهم ، ومن هنا كان التكلف في المظهر والكلام ؛ لتتشتغل عيون الناس وأفكارهم عن التفكير في أمرهم ، وكأنهم يجعلون هذا المظهر حاجزا وحجابا بين ما تنطوي عليه أنفسهم وبين الناس) (١) .

وإلى جانب الاعتماد على المظهر كانت لديهم قدرة فائقة على تنميق الكلام وتزيينه ، وجعله جذابا يصل إلى النفوس ، رنانا يصدح في الأذان ، ولذا رسم القرآن الكريم في دقة بالغة صورة اعتمادهم على مظهرهم الجسمي وكلامهم المعسول ، واعتمد في ذلك على أسلوب السخرية اللاذعة ، وذلك واضح في شاهد وحيد في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا

تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مِّنْ شَجَرٍ مُّسْنَدٌ يّحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَلَّهْمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون : ٤] ، وهذه الآية من سورة المنافقين قيل : إنها نزلت في شأن عبد الله بن أبي وجماعة ممن كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ من المنافقين ، حيث كان عبد الله بن أبي رجلا جسيما صبيحا فصيحا ، ذلق اللسان ، وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ، ولهم جهارة المنظر ، وفصاحة الألسن ، فكان النبي ﷺ ومَنْ حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم (٢) ، فنزلت هذه الآية لتبرز هؤلاء المنافقين في صورة مهينة مثيرة للسخرية والتهكم ، ولتمحو من نفس الرسول ﷺ ومن نفوس المسلمين كلّ إعجاب بهم واستماع إلى وقع حديثهم ، حيث صورت أجسامهم المهيبة ومظهرهم الأنيق في صورة ألواح من الخشب لا نفع فيها ، ولا فائدة منها سوى أنها متراسة مسندة إلى جانب الجدار ، تشغل حيزا من الفراغ كان إخلاؤه منها أجدى وأنفع ، ويبين للرسول ﷺ حقيقة ما خدعوا فيه من كلامهم ، فهم بطبيعة الحال يتحدثون إلى الرسول ﷺ والمسلمين بأنهم نعم الأنصار للإسلام ، وأنهم المرجوون للشدائد والملمات ، وأنهم الذين يُعتمد عليهم حينما يجدُّ الجد ويدعو داعي التضحيات ، ولكن القرآن يكشف لهم الحقيقة ، وهو أن كلامهم كذب أجوف ، وأن هذا المظهر الذي يبدو من كلامهم يخالف حقيقة نفوسهم ويناقضها ، فهم ليسوا شجعانا كما يدعون ، وليسوا من الاعتماد عليهم في قليل أو كثير ، بل هم أجبن الناس وأشدهم رعبا وهلعا ، حتى إن سيطرة الرعب والفرع عليهم تخرجهم عن الرشد إلى توهم الخطر في كل شيء ، والخوف من كل شيء ، فهم (يحسبون كل صيحة عليهم) .

ثم يبين القرآن الكريم للرسول ﷺ حقيقة مشاعرهم نحوه ونحو دينه في أن هؤلاء الذين يتوددون إليه ويظهرون الحب والمودة هم أعدى الأعداء بقوله : (هم العدو فاحذرهم) ، ويؤكد القرآن هذه الخطورة بالتعجب الشديد الذي لا يخلو من إشارة إلى مهارة المنافقين ومقدرتهم الفائقة على الخداع والتضليل بقوله : (قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

كل هذه المعاني عبرت عنها الآية الكريمة بجملة من الصور البلاغية البديعة والتعبيرات الموحية ، والألفاظ الدقيقة ؛ فقد مهد النظم القرآني لهذه السخرية بقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ص ٣١٥ بتصرف .

(٢) ينظر : الكشاف ٦ / ١٢٥ ، وإرشاد العقل السليم ٨ / ٢٥٢ ، ونظم الدرر ٢٠ / ٨٠ .

تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴿١﴾ (والخطاب في الآية قيل : لكل مَنْ يصلح له ، ويؤيده قراءة (يُسْمَعُ) بالياء التحتية والبناء للمفعول ، وقيل لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام وهذا أبلغ ؛ لأن أجسامهم إذا أعجبتهم فأولى أن تعجب غيره ، وكذا السماع لغيره ، وليوافق قوله تعالى : (إذا جاءك) في بداية السورة) (١) ، خلافا للشيخ ابن عاشور الذي يرى أن الخطاب في هذه الآية لغير معين ، ولا يدخل فيه النبي ﷺ ؛ لأن الله ﷻ قد أطلعَهُ على أحوالهم ، وأوقفه على تعيينهم (٢) .

وجاء النظم القرآني بـ (إذا) مع الرؤية و (إن) مع القول ؛ للدلالة على أن كل مَنْ يَرى المنافقين تعجبه أجسامهم ، ولكن ليس كل ما يقولونه حريٌّ بأن يُسْمَعَ إليه (٣) ، كما أن مجيء (إذا) مع الماضي (رأيتهم) لكون الرؤية واقعة كثيرا بخلاف القول فإنه نادر بالنسبة إلى الرؤية ولذا أتى بـ (إن) مع المضارع (يقولوا) (٤) ، فهم أجسام تعجب ، لا أناس تتجاوب ، وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون ، أما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ، ومن كل حس ، ومن كل خالجة (٥) .

كما جاء بجواب الشرط مضارعا (تعجبك) (تسمع) ؛ للإشعار بتجدد واستمرار الإعجاب بصورتهم وهيتهم كلما رأوهم ، والاستماع لأقوالهم كلما قالوا ؛ بسبب فصاحتهم ، وذلاقة لسانهم ، وحلاوة كلامهم ، " وكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم ، ويسمعون إلى كلامهم " (٦) ، ولذا سخر القرآن الكريم من هؤلاء المنافقين ، وشوّه صورهم المعجبة ، وفضح حقائقهم الباطنة بتشبيهه هو الغاية في الدقة والبراعة والإيجاز ، حيث " شبههم في جلوسهم في مجلس رسول الله ﷺ وهم مستندين فيها ، بخشب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونهم أشباحا خالية عن العلم والخير " (٧) ، ولما كان ظاهرهم وذلاقة لسانهم توحى بعكس ذلك قوى التشبيه بـ (كأن) مع تباعد الطرفين حياة وجمادا ، فهم أخشاب لا روح فيها ؛ لأنهم فقدوا الخير ففقدوا الحياة والنعمة ، ومما يثير الذهن ويسرح بالخيال هذا التماثل الشكلي بين مَنْ لا خير فيه وبين ألواح الخشب المسندة ، حتى صار ذلك مثلا قرانيا يتمثل به الناس (٨) ؛ لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به تشبيه تمثيل في حسن المرأى وعدم الجدوى . وقد أوما الزمخشري إلى جواز أن يشبهوا بالأصنام في حسن الصورة وقلة الجدوى ، وهو بعيد لفقدان السخرية ؛ ولأن الأصنام كانت من حجارة وخشب (٩) .

(١) روح المعاني ٢٨ / ١١٠ - ١١١ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٣٩ .

(٣) ينظر : البلاغة : فنونها وأفنانها ١ / ٣٥٣ .

(٤) ينظر : حاشية القونوي ١٩ / ١٠٠ .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن ٣٥٧٤ .

(٦) الكشاف ٦ / ١٢٤ .

(٧) المطول في شرح التلخيص ص ٣٠٠ .

(٨) ينظر : دراسات في علم البيان والتشبيه القرآني ص ١٧٨ - د : صَبَّاح عبيد دراز - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

(٩) ينظر : الكشاف ٦ / ١٢٤ .

ومما لا شك فيه أن وصف المشبه به ﴿ حُشْبٌ ﴾ بأنها ﴿ مُسْنَدَةٌ ﴾ فيه دقة وطرافة وإبراز لوجه الشبه ؛ " لأن المقصود ليس تشبيههم بالخشب فحسب ، بل إن هذه الخشب مسندة ، فهي ليست خشباً قائمة في أشجارها لما قد يعرض لها من جمال من ذلك الوضع ، وليست موضوعة في جدار ؛ لأنها - حينئذ - تؤدي عملاً ، وتشعر بمدى فائدتها ، وليست متخذاً منها أبواباً ونوافذ ؛ لما فيه من الحسن والزخرف والجمال ، ولكنها خشبٌ مسندة قد خلت من أي جمال ، ولا شك أن تشبيه المنافقين بها يوحي بالغفلة والاستسلام والبلاهة " (١) ، فضلا عن نفي الروح والجمود ، والمبالغة في عدم الانتفاع ؛ (فتشبيههم بالخشب ؛ لأنه لا روح فيها ، وبالمسندة ؛ لأنه لا انتفاع بالخشب في حال تسنيده) (٢) .

ومن أسرار هذا التشبيه الرائع - أيضا - أن الخشب المسندة لو لم تسند لم يقر لها قرار ، وكذا المنافقون لو لم يأتوا إلى رسول الله ﷺ ويتخذوا من مجالسه ﷺ ما يشفع لهم من القتل والتشريد لم يقر لهم قرار أيضا .

وقيل (حُشْبٌ) جمع (خشباء) مثل : (حُمُرٌ وحمراء) وهي الخشبة التي نُخِرَ جوفها (٣) ، وعلى هذا المعنى يكون تشبيه المنافقين بها موحياً بجمال الظاهر وفساد الباطن ، وحسن المنظر وسوء المخبر ، ومن هنا كان التشبيه في غاية الدقة والبلاغة والإيجاز .

وفي الجملة التالية يصعد القرآن الكريم في حدة السخرية ، ويزيد من وقعها الأليم على هؤلاء المنافقين ؛ فلا يكتفي بتشبيههم بالخشب المسندة وإبرازهم في صورة مضحكة مهينة ، بل يكشف جانبا آخر من مكونات أنفسهم وهو الجبن الشديد ، حيث إنهم دائما يتلفتون حولهم ، يتوجسون من كل حركة ، ويفزعون من كل صوتٍ يصيح بهم أو بغيرهم ، ولذا قال عنهم : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وهي جملة خبرية بمنزلة بدل البعض من مضمون جملة : ﴿ كَانَتْهُمْ

حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ﴾ أي : من مخالفة باطنهم المشوّه للظاهر المموّه ، أي هم أهل جبنٍ في صورة شجاعان (٤) ، وهذه الجملة - على قصرها - توحى بمدى الرعب والفرع والهلع الذي يسيطر عليهم دائما ؛ فحرف الجر (على) وما يعنيه من العلو يدل على أنهم يظنون بكل صيحة أنها عليهم سلبا لا إيجابا ، كما أن هذه الجملة تجمع كل مقومات الصدق والإثارة معا ؛ لأنها تذكر مصدرا حقيقيا ينبنى عليه الشعور بالخوف والفرع وهو الصيحة ؛ فإنها - وما فيها من إزعاج ومفاجأة - تمثل مصدرا للخوف والفرع ، ليس لكل الناس ، ولكن لهم فقط ، وهذا من جوانب السخرية بالمنافقين التي يحملها التعبير القرآني .

كما أن وقوع (كل صيحة) مفعول أول للفعل (يحسبون) يزيد من السخرية المرة بالمنافقين ، فالعادة أن الصيحة التي تثير الخوف تكون معروفة ، لكنَّ المنافقين لشدة سيطرة الخوف عليهم لا يميزون بين الصيحات ، بل كل صيحة يظنونها موجهة إليهم وكأنها تطلبهم وتبحث عنهم ، وهذا الظن يوحي بضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم ؛ لكثرة ما يباشرون من سوء أعمالهم .

(١) من بلاغة القرآن ص ١٥٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٤٢٦ بتصرف يسير .

(٣) ينظر : حاشية القونوي ١٩ / ١٠١ ، و لغة المنافقين في القرآن الكريم ص ٣٧٠ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٤١ .

وبعد أن سخر منهم وتهكم بهم ، أماط اللثام عما تخبئه نفوسهم من كيدٍ للإسلام والمسلمين بقوله مستأنفاً استئنافاً ابتدائياً : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْنَهُمْ ﴾ ؛ فكشفهم وفضح أمرهم للرسول ﷺ بالقصر الذي طريقه تعريف الطرفين ؛ حيث قصر العداوة عليهم ، وخصصها بصورها منهم لا من غيرهم قصر صفة على موصوف قصرها حقيقياً ادعائياً ؛ مبالغة في كونهم الأعداء الحقيقيين برغم وجود أعداء للدين غيرهم ظاهرين كالمشركين واليهود ، ولكن لخباء هؤلاء المنافقين ، ولشدة ضررهم وكيدهم للدين ، جُعِلت عداوة غيرهم كأنها غير موجودة ، واعتُبروا كأنهم الأعداء الكاملون في العداوة ، الراسخون فيها ، وهو حق ؛ (لأن أعدى الأعداء العدو المُدَاجِي الذي يعاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي) (١) .

ومما زاد من بلاغة هذا القصر بناؤه على المجاز المرسل بعلاقة الخصوص في لفظ (العدو) ؛ حيث أطلق الخاص وهو (العدو) والمقصود به عبد الله بن أبي وأراد العام وهم : (أهل النفاق جميعاً) وأتى بلفظ (العدو) معرّفاً بأل ؛ مبالغة في إظهار شدة عداوته وعداوتهم للإسلام وأهله ، وشدة سعيهم فيها كأنهم على قلب رجل واحد وإن أظهروا التودد في الكلام ، والتقرب به إلى أهل الإسلام ، والتعبير عنهم بالجملة الاسمية يوحي بأن هذه العداوة قديمة ، دائمة ، ممتدة لا تنفك عنهم .

ولذا رتب الأمر بالحدز على كونهم أعدى الأعداء بفاء السببية في قوله : ﴿ فَاحْذَرْنَهُمْ ﴾ ؛ من باب النصح والإرشاد ؛ ليأخذ النبي ﷺ والمسلمون الحدز منهم ، فلا يغتروا بهم ، ولا يأمنوهم على أسرارهم ، ولا يلتفتوا إلى ظاهرهم .

وختم جملة السخرية بالتذييل بقوله : ﴿ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (*) ، وهي جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى غرضها البلاغي الدعاء عليهم بالهلاك والاستئصال ، أو التعجيب من سوء حالهم من باب المجاز المرسل المركب ؛ لوجود ملازمة بين الدعاء عليهم بالهلاك وبين التعجب من سوء حالهم (٢) ، ويجوز ألا يكون هناك طلب ودعاء من الله ﷻ لذاته على الحقيقة ، وإنما المراد لازم الدعاء وهو أن اللعن عليهم مقرر على وجه الكمال ولا بد منه (٣) ، فتكون جملة (قَاتِلَهُمُ اللَّهُ) كناية عن لعنهم وطردهم من رحمته ، " وقد يراد من هذه الجملة تعليم المؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ، فإنه لازم لأصل معناه فيكون كناية أو مجازاً " (٤) ، وعلى كلِّ فإن هذه الجملة

توحي بالذم والتوبيخ لهؤلاء المنافقين ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ وهي جملة استفهامية غرضها البلاغي شدة التعجب من انصرافهم عن الهدى إلى الكفر والضلال ، من باب المجاز المرسل المركب ؛ لأن الأمر العجيب من شأنه أن يستفهم عن حال حصوله ، كما أن فيها ذمًا وتوبيخًا لهؤلاء المنافقين الذين استحقوا سخرية القرآن .

(١) الكشاف ٦ / ١٢٥ ، بتصرف يسير .

(*) (أَنَّى) : هنا اسم استفهام عن المكان ، وأصل (أَنَّى) ظرف مكان ، وكثير تضمينه معنى الاستفهام في استعماله ، وقد يكون للمكان المجازي فيفسر بمعنى : كيف .

و(يُوْفَكُونَ) : يصرفون ، يقال : أفكه إذا صرفه وأبعده ، والمراد : صرفهم عن الهدى ، أي : كيف أمكن لهم أن يصرفوا أنفسهم عن الهدى ، أو كيف أمكن لمضليلهم أن يصرفوهم عن الهدى مع وضوح دلئلته . ينظر : التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٤٢ .

(٢) ينظر : السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : حاشية القونوي ١٩ / ١٠٣ .

(٤) السابق ، الصفحة نفسها .

المطلب الثالث : السخرية من حال المنافقين يوم القيامة :

وكما سخر القرآن الكريم من عقيدة المنافقين وسلوكياتهم البغيضة في الدنيا ، سخر أيضا من حالهم يوم الهول العظيم ، حيث صوّر في دقة بالغة مواقف التعذيب النفسي الرهيب الذي سيتعرضون له في هذا اليوم ؛ ليلفت أنظارهم في حياتهم ، ويبصرهم بالشرّ الذي هم فيه قبل أن يفوت أوان التبصير والرجوع إلى الحق ، وسواء أنظروا وتبصروا أو لم يكن ذلك ، فلا شك في أن توجيه هذه السخرية إلى أذهانهم ستجعلهم يفكرون في صحة موقفهم من النفاق الذي يسلكونه وفي هذا انتصار للإسلام والمسلمين ، وقد ورد هذا النوع من السخرية في شاهد واحد فقط مختصّ بهم في سورة الحديد في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَتُ لِلذَّيْتِ ءَامَنُوا أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ

تُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالُوا لِمَ لَا يُؤَخِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُولَئِكَ التَّارِكُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الحديد : ١٣ - ١٥] .

وهذه الآيات من سورة الحديد ، وهي من السور المدنية - عند معظم المفسرين - التي تعنى بالتشريع والتربية ، والتوجيه ، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية ، والخلق الكريم ، والتشريع الحكيم .

وقد تناولت ثلاثة موضوعات رئيسة :

الأول : أن الكون كله لله - جل وعلا - فهو خالقه ومبدعه ، والمتصرف فيه بما يشاء .

والثاني : وجوب التضحية بالنفس ؛ لإعزاز دين الله ورفع راية الإسلام .

والثالث : تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج كاذب ومتاع خادع ؛ لكي لا يغتر بها الإنسان (١) .

ومن بين الموضوعات التي تحدثت عنها السورة : بيان حال أهل الإيمان وأهل النفاق يوم القيامة ، حيث ذكرت أن المؤمنين في هذا اليوم يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، والمنافقين يتخبطون في الظلمات كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل والغي والضلال (٢) .

وقد جاءت هذه الآيات إثر الآية التي تبين حال المؤمنين والمؤمنات يومئذ ، وهي قوله

تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ [الحديد : ١٢] ، حيث بينت أن الله ﷻ يعطيهم نُورًا على قدر أعمالهم

يمشون به على الصراط ، ويُعطي المنافقين أيضا نورا خديعة لهم ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ

الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴿ [النساء من / ١٤٢] ، وبينما هم يمشون يبعث الله عليهم ريحا وظلمة ، فينطفئ نورهم ، ويتخبطون في حيرة وضلال ، ومهانة وإهمال ، ويتعلقون بأذيال

(١) ينظر : مساعد النظر ٣ / ٥٩ - ٦٠ .

(٢) ينظر : صفة التفاسير ١٧ / ٧٣ .

المؤمنين والمؤمنات قائلين لهم : ﴿ أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ ، ولكن كيف يقتبسون من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في ظلام؟! ، حينئذ يرد عليهم المؤمنون أو الملائكة بتهكم بالغ وسخرية لاذعة قائلين لهم : ﴿ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، أي : (ارجعوا ورائكم إلى الدنيا ، فمن هناك يُلْتَمَسُ النور بالعمل الصالح ، ارجعوا فليس اليوم يُلْتَمَسُ فيه النور) (١) ، فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئا ، فينصرفون إليهم مرة أخرى ليلقوهم ، فيميز بينهم وبين المؤمنين بحائط له بابٌ باطنه فيه الرحمة وهي الجنة من ناحية المؤمنين ، و ظاهره من قبله العذاب وهو النار من ناحية المنافقين .

هذا عن السياق الذي وردت فيه الآيات ، أما السخرية فيها فظاهرة في موضعين :

- الأول في قوله تعالى : ﴿ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ .

- الثاني في قوله تعالى : ﴿ مَاؤُنْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسُّ الْمَصِيرُ ﴾ .

أما الشاهد الأول : ﴿ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، فمنبع السخرية فيه آتٍ من الأمر الصادر من المؤمنين أو الملائكة للمنافقين ملتتمسي النور بأن يرجعوا إلى الدنيا لطلبه من هناك بالأعمال الصالحة ، أو يعودوا إلى الموقف الذي أعطي فيه المؤمنون النور فيلتمسوه هناك ، وهذا الطلب مستحيل التحقق والوقوع ، والمنافقون يعلمون ذلك ، ويعرفون أنه لا رجوع إلى الدنيا مرة أخرى ، ولا نور وراءهم ، وإنما ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن هنا كان طلب المؤمنين منهم الرجوع إلى الدنيا لالتماس النور على غير حقيقته ، وإنما مرادٌ به التهمك الموجع والسخرية البالغة من هؤلاء المنافقين جزاء وفاقا لما قدموه من استهزاء بهم في الدنيا ، حيث كشفت هذه السخرية عن خيبة أمل كبيرة وبوارٍ عظيمٍ لهؤلاء المارقين ، فانقلبوا بخزيهم يطلبون ويتوسلون لأجل الخلاص ، ولكن لا خلاص ، وإنما سخرية واستهزاء وحسرة عظيمة .

هذا عن بيان السخرية في الآية ، أما التناول البلاغي لها ، فقد مهد النظم القرآني لها بقوله

تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ ، حيث عبر عن أهل النفاق باسم الفاعل فلم يقل : (الذين نافقوا) كما قال (الذين آمنوا) ؛ للدلالة على عراقة المنافقين في إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، في حين عبر عن أهل الإيمان بالموصول وصلته (الذين آمنوا) للدلالة على أنهم مؤمنون ظاهرا وباطنا ؛ وأيضا لاشتغالهم بمضمون الصلاة ، حيث أفاد الموصول أن المذكورين قد عُرفوا بصفة الإيمان واشتهروا بها بين الناس ، وفيه إيحاءٌ إلى أن ما حصل لهم من النور والفوز العظيم كان بسبب إيمانهم وما اتصفوا به من الثبات واليقين (٢) ، وجاء بالأمر ﴿ أَنْظُرُونَا ﴾ دون غيره ؛ لأنَّ له دلالات بلاغية متعددة ، (فإما أن يكون بمعنى : (انتظرونا) ؛ لأنه يُسرَعُ بالمؤمنين إلى الجنة كالبروق الخاطفة ، والمنافقون مشاة ، وإما أن

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٣٤٨٦ .

(٢) ينظر : اسم الموصول الخاص في القرآن الكريم ، مواقعه وأسواره البلاغية (رسالة دكتوراه) ، د : مصطفى عطية سلمي ص ٧١٢ ، مكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

يكون بمعنى : (انظروا إلينا) ؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به ، وهناك قراءة حمزة (أنظرونا) بكسر الظاء ، وهي من النظرة والإمهال ، والمعنى أنه جعل اتئادهم في المشي إلى أن يلحقوا بهم إنظارا لهم (١) ، وعلى المعنى الأخير يكون في الفعل (انظرونا) استعارة تصريحية تبعية ، أو كناية عن طلب التؤدة في مشيهم (٢) ، وفي جميع الأحوال فإن الأمر ﴿ أَنْظُرُونَا ﴾ وما فيه من الالتماس والرجاء يوحي بمدى احتياج المنافقين الرهيب إلى مساعدة المؤمنين لهم في هذا اليوم ، كما يوحي بمدى الحسرة العظيمة التي تسيطر عليهم بسبب ترك المؤمنين لهم وإهمالهم ، فضلا عن البون الشاسع بين حال المؤمنين وحالهم ، حيث إن المؤمنين يُسرَع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة ، وتزفهم الملائكة بالبشرى ، وهؤلاء مشاة لا يدركونهم ، يتخبطون في الظلمات ، ولا يلتفت إليهم أحد .

ولما كان هذا حال المنافقين ، كان رد المؤمنين عليهم - لما طلبوا أن يقتبسوا من نورهم - يحمل سخرية بالغة ، وتهكما لاذعا ، حيث قيل لهم من جهة المؤمنين أو من جهة الملائكة : ﴿ اَرْجِعُوا وِرَاءَكُمْ فَالتَّمْسُوا نُورًا ﴾ ، وهذه الجملة هي موطن السخرية في الآية ، ومنبعها الفعل ﴿ اَرْجِعُوا ﴾ والفعل ﴿ فَالتَّمْسُوا ﴾ ، وقد سبق بيانها ، واتفقت كلمة المفسرين في ذلك ، (حيث قال ابن عباس : (ارجعوا ورائكم) أي من حيث جنتم من الظلمة ، أو من المكان الذي قسم فيه النور على ما صح ، وقال مقاتل : هذا من الاستهزاء بهم كما استهزأوا بالمؤمنين في الدنيا حين قالوا : (أمنا) وليسوا بمؤمنين ، وقال أبو أمامة : يرجعون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئا ، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور ، وهي خدعة الله - تعالى - التي خدع بها المنافقين في قوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٢] ، وقيل المراد : ارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نورا ، أي بتحصيل سببه وهو الإيمان ، أو تنحوا عنا والتمسوا نورا غير هذا فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه ، والغرض التهكم والاستهزاء أيضا ، وقيل : أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة الكثيفة تهكما بهم وهو خلاف الظاهر (٣) ، وقال الزحيلي : " قيل لهم استهزاء بهم : ارجعوا ورائكم إلى الدنيا فالتمسوا نورا ، أي إلى حيث شئتم فاطلبوا نورا آخر ، فإنه لا سبيل لكم إلى هذا ، وهذا تهكم بهم ، وتخيب لهم من المؤمنين أو من الملائكة " (٤) .

كما ذهب كل من الطاهر بن عاشور (٥) ، وأبو السعود (٦) ، والبقاعي (٧) ، والزمخشري (٨) وكثير غيرهم إلى أن المراد بالأمر (ارجعوا) و (التمسوا) التهكم والاستهزاء بالمنافقين .

(١) مفاتيح الغيب ٢٩ / ٢٢٥ بتصرف يسير.

(٢) ينظر : حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ١١١ / ٨ .

(٣) ينظر : روح المعاني ٢٧ / ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج - د : وهبة الزحيلي ٢٧ / ٣٠٨ - دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - ١٤١٨ هـ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٨٢ .

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم ٨ / ٢٠٧ .

(٧) ينظر : نظم الدرر ١٩ / ٢٧٤ .

(٨) ينظر : الكشاف ٦ / ٤٦ .

وإلى جانب إفادة التهكم ، فإن صياغة الجملة توحى فوق ذلك بكثير من البلاغة : فقد صُدرت الجملة بالفعل ﴿ قِيلَ ﴾ المبني للمفعول ، والقائل : هم المؤمنون أو الملائكة ؛ للدلالة على أن القائلين من أصحاب القول النافذ والعمل الناجز .

وعطف ﴿ فَالْتَسُوا ﴾ على ﴿ أَرْجِعُوا ﴾ بالفاء ؛ للدلالة على توالي الفعلين بلا فاصل ؛ وليشعر الثاني منهما بالخيبة التامة حين يرجعون إلى الوراء فلا يجدون نورا ، وإنما ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض .

ونكّر ﴿ نُورًا ﴾ ؛ للدلالة على أنه نور آخر غير النور الذي اكتسبه المؤمنون بأعمالهم الصالحة في الدنيا ، ويجوز أن يراد به : ما وراءهم من الظلمة الكثيفة (١) ، فيكون المراد بقول المؤمنين : ﴿ فَالْتَسُوا نُورًا ﴾ التهكم والاستهزاء بهم ، ويكون الأمر ﴿ أَرْجِعُوا ﴾ للتوبيخ .

ولما رجعوا لالتماس النور فلم يجدوا إلا الظلام ، عادوا للمؤمنين مرة أخرى مسرعين ، ولكن كان عقاب الله ﷻ سريعا ، حيث حيل بينهم وبين المؤمنين ، ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ سُورَ لَمْبَابٍ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ ، وهذه الجملة مكملة لجزئيات الصورة الساخرة ، وسخرية من المنافقين بطريق الإيحاء والتصوير ، حيث إنها تظهرهم في صورة الحيارى الضالين الذين لا يهتدون إلى طريق ، ولا يصلون إلى غاية ، وبرغم أن الصياغة ليس فيها ما يدل على التهكم ، إلا أن القرآن ببلاغته المعجزة ودقة تصويره يوحي بذلك ، حيث إن تصويرهم وهم يرجون من المؤمنين أن ينيروا لهم الطريق بقبس من نورهم ، ثم رجوعهم لالتماس النور من حيث أتوا ، ثم عودتهم إلى المؤمنين مرة أخرى وهم في حالة هلع وفرع ويأس شديد بسبب عدم عثورهم على النور ، يثير في النفس السخرية والتهكم من حالهم ، فوصف القرآن لحالهم هو الذي ولد حالة السخرية ؛ لأنهم لو كانوا في حال عادية ما كان القرآن ليذكرها ، ولكنهم - هنا - في حال غير عادية منظرهم فيها مثير للضحك والسخرية .
وهذه الصورة في ملابساتها حين تتأملها من الناحية البلاغية تجد أنها توحى بأعمق مما تدل عليه ألفاظها القليلة :

فقد صُدر الفعل ﴿ فَضْرَبَ ﴾ بالفاء ؛ للإشعار بأن الضرب كان في غاية السرعة والسهولة ، فالفاء تفيد كأنّ هذا السور عصا ضربت بها الأرض ضربة واحدة (٢) ، وهذه السرعة في ضرب السور بينهم وبين المؤمنين توحى بالخيبة الكبيرة لهؤلاء المنافقين ، خصوصا وأنهم طمعوا في التماس النور بعد إغراء المؤمنين أو الملائكة لهم ، ولا شك أن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة وأكثر إيلا من الناحية النفسية .

وضرب السور كناية عن امتناع عودتهم إلى الدنيا ، وكذا امتناع رؤيتهم للمؤمنين مرة أخرى ، مما يوحي بمدى الحزن الهائل ، والحسرة العظيمة التي حلت بهؤلاء من جراء ذلك ، فقد مُنعوا من التماس نور المؤمنين وبقوا في ظلمات كثيفة ستؤدي بهم حتما إلى السقوط في حفر النيران .

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ٨ / ٢٠٧ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ١٩ / ٢٧٥ .

ويجوز أن تكون هذه الجملة ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ بَاطِنَةً فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرَةٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ من قبيل الاستعارة التمثيلية ، حيث إن المؤمنين أو الملائكة لما منَعُوا المنافقين من اللقوق بهم والاستضاءة بأنوار معارفهم وأعمالهم ، بقوا في ظلمة نفاقهم ، وحُرموا من اللقوق بأصحاب الأنوار كما يُحرم الأعمى من الانتفاع بنور البصر ، فصاروا بذلك كأنه ضُرب بينهم وبين النور الذي يؤدي بهم إلى الجنة سوراً حائل ، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة التي هي النور ، وظاهره الذي يلي المنافقين الظلمة التي تؤدي بهم إلى السقوط في عذاب الجحيم (١) ، فشبَّهت حالهم بحال الأعمى على سبيل الاستعارة التمثيلية .

ومما زاد من بلاغة هذه الاستعارة المقابلة البديعة بين ما هو في باطن السور من الرحمة للمؤمنين وما هو في ظاهره من العذاب للمنافقين ، وهذه المقابلة وضحت المعنى وأكدته أيما تأكيد ، حيث كشفت عن حالين متناقضين ، ففي باطن السور نور ورحمة وجنة للمؤمنين ، وفي ظاهر السور حسرة ، وعذاب ، وألم نفسي ، وظلام يناسب ظلمات الضمير للمنافقين .

أما السخرية الثانية في هذه الآيات فجاءت بعد أن رجع المنافقون إلى المؤمنين مرة أخرى حين لم يجدوا نورا ، ووجدوا السور قد فصل بينهم ، " ويبدو أن هذا السور يمنع الرؤية ولكن لا يمنع الصوت " (٢) ، فنادوا المؤمنين حينئذ نداء عتاب ولوم ﴿ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أي في الدنيا ، أو في العبادات والمساجد والصلوات والغزوات ، وكان رد المؤمنين يحمل كثيرا من التوبيخ والتقريع : ﴿ بَلَىٰ وَلَنَكْفُرَنَّ بِفَنَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَرَبِّتُمْ وَأَزَيْتُمْ وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورِ ﴿١١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤَخِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، ثم كانت السخرية اللاذعة : ﴿ مَا أَوْيْتُمْ النَّارَ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴾ ؛ والسخرية واضحة في اللفظ ﴿ مَا أَوْيْتُمْ ﴾ واللفظ ﴿ مَوْلَانَكُمْ ﴾ ، وبيان ذلك : أن لفظ (المأوى) و(المولى) في أصل استعمالهما لا يصدق على جهنم ، بل يتصور في هذين اللفظين عكس ما يتصور في جهنم ؛ فلفظ (المأوى) يعني : المنزل ، والمكان الذي يُؤوى إليه (٣) ، وأويت له : رحمته (٤) ، فهذا اللفظ إنما يتصور فيه الحصول على الراحة والطمأنينة ، والقوة والمنعة ، كما يحمل معنى اللطف والحنان ، والله ﷻ يخبر أن جهنم مأوى للكافرين كناية عن الخلود والاستمرار فيها ، مع أنهم لا يجدون فيها السلامة ولا الأمن ولا الراحة ، ولكن يجدون فيها النار التي تحرق جلودهم ، وتقطع قلوبهم ، وتملؤها خوفا وهلعا .

ومثل هذا يقال في لفظ (المولى) الذي يدل على النصر والمعونة (٥) ، فهؤلاء المنافقون يرجعون إلى النار كما يرجع المستنصر إلى مولاه لينصره ، أو يفادي عنه ، فاستعير المولى للمفقر على طريق التهكم (٦) ، حيث شبه العائد إلى جهنم بالعائد إلى مولاه وناصره بجامع النصر

(١) ينظر : حاشية محي الدين شيخ زادة ٨ / ١١١ ، وفتح البيان في مقاصد القرآن ١٣ / ٤٠٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٤٨٦ .

(٣) ينظر : (لسان العرب - أوى) .

(٤) ينظر : (المفردات للراغب - أوى) ص ٣٤ .

(٥) ينظر السابق - ولى - ص ٥٣٥ .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٨٩ .

والمعونة في كل ، تحقيقا في المولى وتخبيلا في جهنم ، وتنزيلا للتضاد منزلة التناسب على سبيل الاستعارة التصريحية التهكمية ، " ومعنى (مولاكم) : أَمَلُّكُمْ بكم وأولى بأخذكم ، وهذا بمعنى المولى من طريق الرق لا المولى من جهة العتق ، فكأنَّ النار تملكهم رقًا ولا تحررهم عتقا " (١) ، والغرض البلاغي من هذه الاستعارة نفي الناصر لهم على أية حال ، فمن كانت النار مولاها فلا مولى ولا ناصر له .

وإمعانا في السخرية ختمت الآية بالتذييل ﴿ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ للدلالة على شمول جميع ما يصيرون إليه من العذاب .

وهكذا ، جاءت هذه الآيات من سورة الحديد لتكشف عن التناقض الرهيب بين حال أهل الإيمان وحال أهل النفاق يوم القيامة ، فالمؤمنون والمؤمنات في هذا اليوم يشع النور من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ثم يزداد على ما هم فيه من التكريم بقوله : ﴿ بُشِّرْكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ، والمنافقون والمنافقات يتخبطون في الحيرة والضلال ، ويسخر منهم المؤمنون والملائكة .

وقد جاءت هذه السخرية في موضعين : الأول بصيغة الإنشاء الطلبي : ﴿ أَرْجِعُوا وِرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ والثاني بصيغة الخبر : ﴿ مَاؤْتِكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ ، واتكأت كل سخرية على بعض الصور البلاغية العالية ، والألفاظ الدقيقة ، فكشفت عن معاني جليلة ، وبينت مآل مَنْ آمَنَ وَمَنْ كَفَرَ ؛ حتى يتعظ المنافقون وينتبهوا ، ويثوبوا إلى رشدهم قبل فوات الأوان .

الخطمة

الخاتمة

كل الحمد لك يا الله ، لا نهاية لفضلك ولا خاتمة ، وطوبى لمن كانت توبته هي الخاتمة والحمد لله الذي منّ عليّ بإكمال مسيرة البحث حتى الخاتمة ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، النبي الأمي الذي أرسل للعالمين رحمة دائمة ثم أما بعد .

فإن أساليب العبارة القرآنية ومعانيها ودلالاتها المختلفة ذخيرة لا يمكن أن يحيط بها مثل هذا البحث أو يستقصيها استقصاء ، وحسبه أن يلم بأطراف منها ويدل عليها ، وهي معين لا ينضب ، يفتح لذي الذوق والحس اللغوي أفاقاً رحبية في فهم الأساليب وذوقها . وإذا كانت حصيلة مسيرتي في هذا البحث كحصيلة من يعبر صحراء مقفرة باحثاً عن ظل ، فأدعو الله ﷻ أن يكون قد ألهمني كيف أغرس شجرة ، أو ألقى على الأقل بذرة في وادي البلاغة المترامي الأطراف .

والحق الذي لمستته من خلال هذه الدراسة أن الوصول إلى فهم جوانب من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم لا يكون بكثرة التقسيمات والمصطلحات البلاغية ، وإنما بجعل هذه المصطلحات أداة للوصول إلى ذلك من خلال اعتماد التحليل البلاغي المعتمد على النظر المتعمق ، والتذوق الفني للنص القرآني ، لذلك عمدت الدراسة إلى التحليل البلاغي الذي ينظر إلى الفنون البلاغية على أنها وحدة واحدة كما تأتي في النص ، ولم تعد إلى تجزئتها حسب شعب البلاغة الثلاثة ، بغية إظهار ما في النص من تواشج الفنون البلاغية ، والوصول من خلالها إلى ظلال المعاني ، وما يرمي إليه النص من أهداف وغايات .

وقد حاولت من خلال هذه الرحلة الطويلة مع أساليب السخرية في القرآن الكريم أن أتعلم فيها ، وما يحيط بها من صور وتراكيب بلاغية ساعدت على إبراز مواطن جمالها ، وأسباب سحرها ، والكشف عن قيمتها البلاغية ، وأثرها سلاحاً فعالاً في مواجهة أعداء الإسلام ومن خلال المعاشية الهادئة والمتأملّة مع تلك الأساليب من خلال القرآن الكريم اتضحت النتائج وتكشفت كثير من الأمور التي يمكن إيجازها فيما يأتي :

أولاً : المظاهر العامة للسخرية في القرآن الكريم :

١- تبين أن لفظتي السخرية والاستهزاء تضمان تحتها الكثير من المعاني مثل التهكم ، والضحك واللمز ، والغمز ، والهمز ، واللعب ، فالمصطلح واسع الدلالات ، والأسلوب يصدق على كل كلام أخرج على خلاف الظاهر .

٢- إن القرآن الكريم يتسم في كل منهجه وأساليبه بالتكامل ، حيث يجمع بين الدين والدنيا ، فيدعو إلى الله كما تدعو الأديان السماوية ، ولكنه يفترض - كما هو - أنه سيواجه بعداوة ومجابهة ، فلا يكتفي بالوضع الروحي ، وإنما يسلك سبيل الواقع بين الناس ، وهو الرد على هجوم الأعداء بهجوم آخر ، ويتفنن في أسلحة دفاعه وهجومه كما يتفننون ، ومن هذه الأسلحة

النفسية المألوفة بين الناس سلاح السخرية ، وتكون نتيجة التكامل حينئذ أن القرآن يتضمن الدعوة إلى الله ، ويتضمن أسلحة الدفاع والهجوم ضد من يتصدون لها بالعداوة والمقاومة .

٣- السخرية هي كل ما يؤدي إلى الاستهزاء والتحقير ، وليس لها صورة أو سلوك محدد ، فقد تكون بالإشارة كالنظرة المصحوبة بالاحتقار ، وقد تكون بالقول ، وقد تكون بالعمل ، وقد تكون باللفظ الصريح مثل (سخر ، يسخر ، سخريا ، يسخرون ، يستهزئ ، هزوا) ، وقد تكون سخرية معنوية فتسمى بأسلوب السخرية ، ومن الواضح أن كل ما في القرآن الكريم من سخرية سواء لفظية أو معنوية ، إنما هو سخرية بالقول ، وأوضح منه أن القرآن يختلف عن سائر القول اختلافا شديدا ، سواء من حيث الانتشار أو من حيث البقاء ، أو من حيث مستوى الصياغة .

٤- استخدم القرآن الكريم سلاح السخرية بكثرة ليضع المؤمنين به في موضع قوة دائمة مهما تذبذبت قوتهم العسكرية أو الاجتماعية ، فكما أن السخرية لا بد أن تتبع من مصدر قوة ، فكذلك القرآن باشتماله على السخرية من أعدائه يضع في أيدي المؤمنين سلاح قوة ، ويغرس في نفوسهم أنهم هم الذين ينبغي أن يسخروا من أعدائهم ، ومعنى هذا أنهم دائما في موضع قوة ، وهذا المعنى تعززه كل أساليب القرآن ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ

مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَمْعَلَكُمْ ﴿٣٥﴾ [محمد : ٣٥] .

٥- استخدم القرآن أسلوب السخرية ردا على سخرية أعداء الله من الإيمان والمؤمنين ، فهي سلاح دفاع من هذه الوجة ، وليست سلاح هجوم ، وقد سجل القرآن فيضا واسعا من أساليب السخرية التي استخدمها أعداء الله ضد كل ما يتعلق بالإيمان والمؤمنين ، فقد سخروا كثيرا وبأساليب متنوعة من ذات الله سبحانه وتعالى ، ومن رسله وأنبيائه ، ومن القرآن ، كما سخروا من الرسول ﷺ ، ومن البعث ، ومن المسلمين المستضعفين ، ومن الملحوظ أن القرآن عرض سخرية أعداء الرسول ﷺ به ، وبكل شيء يتعلق بالدين لإشعار المشركين ومن على شاكلتهم بأن سخرياتهم غير ذات شأن ، ولو كان القرآن يرى فيها خطرا أو تأثيرا على نفوس المسلمين ما ساقها .

٦- استخدم القرآن أسلوب السخرية ليكون أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله ، حيث جعل الآلهة التي يعبدونها المشركون ويقدمونها ويعظمونها موضعاً ومجالاً للسخرية ، وكانت هذه السخرية من أبلغ الوسائل لدعوة العقول إلى التفكير الموضوعي المحايد في حقيقة الآلهة التي يعبدونها .

٧- الفارق بين سخرية أعداء الله وسخرية القرآن جوهرية ؛ فإن سخرية أعداء الله تنصب على تحقير من توجه إليه وإهانته ، ولا تكاد تعدو ذلك ، بينما سخرية القرآن ترتبط بأهداف الدين

وغاياته ، وقد يبدو بعضها منصبًا على إهانة شخص أو طائفة ، ولكن باليسير من التأمل يظهر أن الهدف ليس التهوين أو التحقير لذاته ، وإنما خدمة قضية من قضايا الدين .

٨- اتضح من خلال الدراسة أن السخرية في القرآن الكريم تنسم بصلاحياتها لكل مشرك أو معاند مفتر على الله الكذب في أي زمان ومكان ، تناسبا مع عالمية الدين الخالد ، كما تنسم بأنها ترتسم دائما في صورة ، أو تقترن بصورة محددة ، بحيث تُشعر السامع كأنه يرى هذه الصورة بعينه ، ويرى منها موضع السخرية واضحا بارزا .

٩ - تميزت سخرية القرآن بأنها بعيدة كل البعد عن الألفاظ النابية ، بل عن طابع العداء الشخصي أو العداوة لذاتها ، فليس ذلك هو المقياس الذي ينظر به إلى سخرية القرآن ، وإنما المقياس أنها مثل أعلى للسمو الذي لا يهدف إلا إلى الغاية العليا وهو تحقيق الخير للناس في دينهم ومعيشتهم .

١٠ - استوعبت سخرية القرآن كل مظاهر البيئة العربية ، بحيث يرى المتأمل فيها كل المعالم العامة للبيئة والحياة العربية ، وبحيث يشعر أنه يعيش في هذه البيئة ، ومن أهم نواحيها التي ظهرت في سخرية القرآن : الأرض وطبيعتها ، كالجبال ، والسراب وغيرها ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] ، والسخرية واضحة في قوله تعالى : (إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) ، ويقول أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيغُ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] ، والسراب معروف ، والسخرية في الآية في قوله تعالى : (ووجد الله عنده) .

كذلك من مظاهر البيئة العربية التي وردت في سخرية القرآن حيوانات البيئة ، حيث تجد سخرية القرآن تشبه أعداء الدين من المشركين واليهود بالحمار ، والكلب ، والأنعام ، والحمير المستنقرة ، كما تشبه تشبثهم بعبادة آلهة لا تضر ولا تنفع ببيت العنكبوت ، فضلا عن تشبيه صوت المتجبرين الطغاة الذين يستخدمون أصواتهم العالية في إرهاب الناس بصوت الحمير ، حيث تجعل أصواتهم العالية المدوية ليست دليل قوة ، وإنما نهيق حمير ، وهو من الذم بمكان .

١١- يمكن القول بأن سخرية القرآن تميزت - أحيانا - بالشعبية ، وأقصد بذلك أن من جوانب إعجاز القرآن الكريم استعماله تعبيراتٍ دارجة يتناولها عامة الناس فيما بينهم ، ويستخدمون مضمونها أو أسلوبها في الحياة اليومية ، وقد أوردها القرآن في تعابيره ، وفي كثير من آياته ، ويلحظ في هذا الجانب الشعبي من أسلوب القرآن الكريم أنه يكاد يمثل الحياة العربية تمثيلا كاملا بما فيها من وسائل العيش ومناهج الحياة ، وبما فيها من عادات وتقاليد ، والقرآن بطبيعة الحال لا يهدف إلى تصوير الحياة العربية لذاتها ، وإنما يتخذ من ذلك وسيلة في تقريب دعوته إلى أذهان العامة ، والوصول إلى نفوسهم وعواطفهم وعقولهم من أقرب طريق ، ومن الآيات

الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٣] وقوله تعالى : ﴿ يَحْصِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنِبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصَيْرُونَ ﴾ [الطور : ١٣-١٤] .

ثانياً : الظواهر البلاغية لآيات السخرية في القرآن الكريم :

جاء نظم آيات السخرية محتويا على ظواهر بلاغية تناسب المقام والسياق ، وكان لها أثرها البالغ في الجمع بين التعجيز والتبكيث ، وجمال التصوير ، وجلال التأثير والإقناع ، وكان من أهم هذه الظواهر ما يأتي :

١- بروز الألفاظ ودلالاتها كمفردات ، لا من حيث أداء المعنى وإنما من حيث الإيحاء الخاص لها ، فالواضح البارز في سخرية القرآن الكريم احتواؤها على ألفاظ توحى فوق معناها اللغوي بكثير من المعاني ، مما يجعل السخرية تتسم بالإيجاز البليغ ، مع الدقة في أداء المعنى المراد ، والألفاظ التي من هذا القبيل كثيرة ، بل لا تكاد تخلو سخرية منها ، مثل (النُّزْلُ) في قوله تعالى : ﴿ قَتْلٌٌ مِّنْ حِمِيرٍ ﴾ [الواقعة : ٩٣] ، و (المهاد) و (الغواش) في قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، ولفظ (ذُقْ) في قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] ، وغيرها كثير .

٢- وردت كلمة السخرية بمشتقاتها ست عشرة مرة في إحدى عشرة سورة ، ثلاث منها مدنية وهي : البقرة (آية : ٢١٢) ، والتوبة (آية : ٧٩) ، والحجرات (آية : ١١) ، وثمانية مكية وهي : الأنعام (آية : ١٠) ، هود (آية : ٣٨) ، الأنبياء (آية : ٤١) ، المؤمنون (آية : ١١٠) ، الصافات (آية : ١٢) ص (آية : ٦٣) ، الزمر (آية : ٥٦) ، الزخرف (آية : ٣٢) .

ووردت كلمة (الاستهزاء) بمشتقاتها أربعاً وثلاثين مرة في إحدى وعشرين سورة ، أربع منها مدنية وهي : البقرة (١٤ ، ١٥ ، ٦٧ ، ٢٣١) ، المائدة (٥٧ ، ٥٨) ، التوبة (٦٤ ، ٦٥) ، الرعد (٣٢) ، وسبع عشرة مكية وهي : النساء (١٤٠) ، الأنعام (٥ ، ١٠) ، هود (٨) الحجر (١١ ، ٩٥) ، النحل (٣٤) ، الكهف (٥٦ ، ١٠٦) ، الأنبياء (٣٦ ، ٤١) ، الفرقان (٤١) ، الشعراء (٦) ، الروم (١٠) ، لقمان (٦) ، يس (٣٠) ، الزمر (٤٨) ، غافر (٨٣) ، الزخرف (٧) ، الجاثية (٩ ، ٣٣ ، ٣٥) ، الأحقاف (٢٦) .

٣- كان ورود لفظتي السخرية والاستهزاء وأساليب السخرية من المشركين في السور المكية أكثر بكثير من السور المدنية ؛ للتدليل على أن مرحلة الاستضعاف والتكوين قد تواجه محنا وشدائد أكثر مما هو في مرحلة القوة والتمكين ، وورودها أكثر في السور المكية إنما جاء

لبيان العناية الإلهية بالمؤمنين الذين عناهم بالإرشاد والتوجيه والتعليم ، حتى يتحلوا بالصبر ويتجاوزوا تلك المحن .

أما السخرية التي وردت في السور المدنية فجاءت بعد تجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة القوة والتمكين ، حيث انصبت في المقام الأول على اليهود والمنافقين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب .

٤- كثر التعريف باسم الإشارة على السنة المشركين وبخاصة (هذا) ، وذلك في مقام استهزائهم بالنبي الكريم ، والأنبياء قبله ، والبعث ، والقرآن ، كقولهم سخرية من النبي الكريم : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] ، وقولهم أيضا : ﴿ مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٧] ، وقولهم أيضا : ﴿ ...مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِمُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ لِحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ : ٤٣] ، وقول قوم نوح سخرية واستهزاء من نوح عليه السلام : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٣] ، وقول فرعون عن موسى عليه السلام سخرية واستهزاء : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، وقول المشركين سخرية من البعث : ﴿ قَالُوا أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَنَعْبُدُونَكَ (٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَاكَ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٨٢ - ٨٣] ، وقولهم سخرية من القرآن : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧] ، و ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام من / ٢٥] ، [الأنفال : ٣١] ، و ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (١٩) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٢٤ - ٢٥] .

وكان الرد عليهم باسم الإشارة (هذا) أيضا سخرية منهم في آيات العذاب كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات : ٢٠ - ٢١] ، وكقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [١٤] أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [١٥] أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [١٦] [الطور : ١٣ - ١٦] .

٥- (ساحر ، كذاب ، مجنون ، بشر مثلنا ، من المسحرين ، شاعر ، في سفاهة) معجم ألفاظ ورد في سخرية القرآن الكريم ، وتكرر كثيرا في مواقف الأنبياء مع أقوامهم ، من لدن نوح عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وزاد قوم شعيب صفتي (الحليم الرشيد) ، وزاد فرعون صفتي (مهين ولا يكاد يبين) على موسى عليه السلام ، مما يدل على أن الكفر ملة واحدة ، وكما يقول القرآن :

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [٥٢] اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢ - ٥٣] .

٦- جاءت السخرية في القرآن - أحيانا - غرضا بلاغيا منفردا بذاته ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نُنَادِيكَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلْيَمٍ ﴾ [لقمان : ٧] ، وأحيانا كثيرة جاءت متعاقفة مع أغراض بلاغية أخرى كالإهانة والتحقير ، والتبكيك ، والتوبيخ ، والتحدي والتعجيز .

فالإهانة مع السخرية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٦﴾ طَعَامٌ لِأَثِيمٍ ﴿٤٥﴾ كَأَلْمَهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان : ٤٣ - ٤٩] .

والتعجيز والتحدي المصاحبان للسخرية في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة : ٩٤ - ٩٥] .

والتبكيك والتوبيخ مع السخرية في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء : ١١ - ١٣] .

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة لأهل النار : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْتِس مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] .

٧- كثر استعمال كلمتي (ذوقوا) ، (ذق) في القرآن الكريم لتدل على السخرية والتبكيك ، والأمثلة على ذلك ليست بالقليلة كقوله تعالى : يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة : ٣٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [السجدة : ١٤] ، وقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات : ١٣ - ١٤] .
وغيرها من الآيات .

٨ - تنوعت سخرية القرآن وتشعبت طرقها بين علوم البلاغة الثلاثة ، فجاءت في صورة الخبر والإنشاء الطلبي ، كالاستفهام ، والأمر ، والنهي ، وأسلوب القصر ، والشرط التبكيبي ، وتجاهل العارف ، والتذليل ، والتشبيه المفرد والمركب ، والاستعارة بأنواعها ، والمجاز المرسل ، والكناية ، والتعريض ، والمقابلة ، وغير ذلك ، مما أضفى عليها شحنة بلاغية رائعة ، وتأثيرا قويا ضد أعداء الدين .

فمن الخبر الساخر قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَةَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) يُخَذُّونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة : ٨ - ١٠] .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩] .
ومن الاستفهام الساخر قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَبْتَخِطُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَدَىٰ أَلَدَىٰ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان : ٤١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئْتِكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٧] .
ومن الأمر الساخر قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءُ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٢٤) [الزمر : ٢٤] .

ومن أسلوب القصر الدال على السخرية قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤٤) [الفرقان : ٤٤] .
وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴾ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ [الشعراء : ١٥٣ - ١٥٤] .

ومن الشرط التبكيبي مع الأمر التعجيزي : قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكًا عَنَّا الْهِنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجمعة : ٦] .

ومن تجاهل العارف الدال على السخرية قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَرَأَ إِلَىٰ آلِهِم مِّن دُونِ آلَاتِنَا لَأَن نُّكْفِرَنَّ عَنْكُمْ قُلُوبَنَا وَلَآتِيَنَّكُم مِّن دُونِنَا فَأَذِّنَنَّ بِالَّذِي نَحْنُ بِصَادِقِينَ ﴾ [الصافات : ٩١ - ٩٢] .

ومن التذليل الدال على السخرية قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١]
 ومن التشبيه الساخر قوله تعالى: ﴿ صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَزْعُمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨] ، وقوله تعالى:
 ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُونَ
 فَاحْذَرُهُمْ فَتَلَّهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفِّكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤] .

ومن التشبيه التمثيلي الساخر قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ
 الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ يَتًّا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْمَعْكُوتِ لَوَكَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١] .
 وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِعَاثِرِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥] .

ومن الاستعارة الساخرة قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتِ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا
 مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦] .

ومن الاستعارة التمثيلية الساخرة قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ
 الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤] .

ومن الكناية الساخرة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨]
 ومن التعريض الدال على السخرية قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ
 وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] .

ومن المقابلة الساخرة قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢] .

٩- باستقراء المواطن التي سخر فيها المشركون من القرآن الكريم ، لُحِظَ أن بعضها جاء
 مصوغا بأسلوب القصر الذي طريقه النفي والاستثناء خاصة ، بأداة النفي (إن) ، وحرف
 الاستثناء (إلا) حصرا ، فقالوا عنه : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام من / ٧] ، [سبأ: ٤٣] ، ﴿ وَإِنْ
 هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام من / ٢٥] ، [الأنفال ٣١] ، و ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيْتَهُ ﴾ [الفرقان من / ٤] ،
 و ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتِرُهُ ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥] ، والسر في ذلك - كما يقول العلماء -
 أن هذا الطريق أصل الباب ، وأقوى الطرق ، ولا يكون غالبا إلا في المقامات العنيفة ، جهيرة

النبرة ، قوية الوقع ، حين تتشابك مواقف التأثير الوجداني مع الإقناع العقلي ، وهذا إنما يكون في مقامات الإنكار ، وليس الإنكار هنا موقفا عقليا فحسب ، بل إنه رفض ، تتعاقب فيه الطاقات الإنسانية (١) ، ولا شك أن الكفار منكرون القرآن الكريم إنكارا شديدا ؛ لخطره العظيم عليهم وعلى مكانتهم ؛ ولذلك صاغوا أسلوبهم الساخر منه بطريق القصر ، واختاروا بعناية حرف النفي (إن) دون (ما) ؛ لأن (إن) بجرسها الخاطف ، ومقطعها المغلق أكثر توكيدا من (ما) ؛ لشبهها بـ (إن) المخففة من الثقيلة ، والتي تأتي في المقامات التي هي أكثر توترا ، وأعلى حرارة ، تلك التي تستدعي مزيدا من الوثاقة والتركيز (٢) ، وليس هناك إنكار أشد حرارة ، وأكثر توترا من ذلك الموقف الذي يعيشه هؤلاء المنكرون الجاحدون ، كما أن إدخال (إن) على الجمل الاسمية إنما جاء للإيحاء بالثبات والجزم ، وبأن مدخولها محقق وقوعه ، وأن الصفات التي يصفون بها القرآن حقيقة لا ادعاء .

١٠ - كانت السمة الغالبة لسخرية القرآن من اليهود شيوع الاستفهام المنبثق من التبكيث والتفريع والتخجيل كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَسُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] ، وكذا الأمر التعجيزي الدال على التفريع والتوبيخ المقترن كثيرا بأسلوب الشرط التبكيثي كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] ، مع شيوع الأفعال المضارعة الدالة على استمرارهم في الضلال وارتكاب الرذائل ، وعدم اهتدائهم إلى سواء السبيل ، ولذا كان مسّ السخرية أوجع ، ووقعها أشد على ألد أعداء الدين .

١١ - أما السخرية في مواقف الأنبياء مع أقوامهم فيمكن إيجازها في النقاط الآتية :
 أ - تدرجت السخرية في قصة سيدنا نوح عليه السلام ، واختلقت باختلاف المواقف والسياقات التي قيلت فيها ، فكانت كل سخرية في موقعها معبرة عن الشعور النفسي المسيطر على قومه ، حيث بدأت بإثبات أنه بشر مثلهم وليس من الملائكة في سورة هود في بداية الدعوة عن طريق القصر : ﴿ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ [هود : ٢٧] ، ثم انتهت إلى وصفه صراحة بالجنون في نهايتها في سورة القمر بالأسلوب الخبري : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [آية ٩] .
 ولذا دعا نوح عليه السلام على قومه بالإهلاك بعدما لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فكان عقاب الله ﷻ بإغراقهم بالطوفان .

(١) ينظر : أساليب القصر في القرآن وأسرارها البلاغية ص ١٦٦ .

(٢) ينظر : السابق : ص ١٤٧ .

ب - اتسمت مواقف قوم هود عليه السلام تجاه دعوته بطابع الاستهتار والتعنت ، والتكبر والافتراء ، والسخرية ؛ فاتهموه بخفة العقل ، والكذب ، واتخذوا بشريته مانعة من تصديقه ونبوته ، وأنكروا البينة الدالة على صدق نبوته ، ثم اتهموه بالخبل والجنون بفعل آلهتهم المزعومة ، ثم أعلنوا شدة تمسكهم بدين الآباء والأجداد ، وكذبوا بالبعث والنشور ، وتحذوا أن يأتي بعذاب ، وتلك عادة الجاهليين يتواصون بها فيما بينهم ؛ لأن الكفر ملة واحدة ، وكان الأسلوب الخبري في طليعة الأساليب البلاغية التي استعانوا بها ، ثم كانت الخاتمة بالأمر التعجيزي في سورة الأحقاف : ﴿ قَالُوا اجْعَلْنَا لِنَأْوِكَا عَنْ ءَاهِلِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعُدُّنَا إِن كُنْتَمِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحقاف ٢٢] .

ج - كانت مواقف قوم صالح عليه السلام تجاه دعوته إلى التوحيد ومكارم الأخلاق تنسم بالسخرية ، والاستهزاء والاستخفاف به وبمن معه من المؤمنين المستضعفين ، كما اتسمت بالاحتكام إلى تقاليد الآباء في أمور الدين ، والتكذيب ، مع التشكيك في صدق نبوته باتخاذ بشريته شبهة مانعة للنبوة ، واتهامه بالجنون ، وطلب البينة على صدق دعواه تعنتا ، وعنادا ، ثم الكفر به ، وأخيرا تحديه تحديا سافرا بعقر الناقة ظلما وعدوانا ، فكان عقاب الله سريعا بإهلاكهم بعذاب الاستئصال .

د - تعد قصة إبراهيم عليه السلام من أطول القصص في القرآن ، وقد تعددت حلقاتها ، وتنوعت مشاهدتها واشتملت على ضروب من العظات ، وألوان من الدلائل البيّنات على وحدانية الله عز وجل وقدرته وسائر صفاته القدسية ، كما أن الخصائص البلاغية في القصة لها جانب كبير في إبراز المعاني المقصودة ، وإظهار الأغراض المرادة ، ومن ثم برزت هذه الخصائص في ثنايا القصة ، فلم يخل منها تعبير ولا أسلوب ، بل لم تخل منها كلمة ولا لفظة ، وكان الاستفهام الإنكاري التوبيخي ، وأسلوب السخرية والتهمك في طليعة هذه الأساليب .

هـ - جاءت السخرية في قصة لوط عليه السلام في صورة الخبر المؤكد (إنهم أناس يتطهرون) في موضعين ؛ في الأعراف والنمل ، وجاءت في صورة الإنشاء الطلبي ، وهو الأمر التعجيزي مقرونا بالشرط التبكيّتي في موضع واحد : (انتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) في العنكبوت ، ولكل موضع وجهاته البلاغية ، وقد تم بيانها والله أعلم .

و - هدد قوم شعيب شعيبا عليه السلام في سورة الأعراف وهود بالنفي والإخراج من القرية ، أو الإكراه على الكفر أو الشرك ، ولجأوا إلى السخرية والاستهزاء به ، وهددوه بالاغتيال ؛ اعتدادا بما لديهم من قوة ، واستضعافا له .

وفي سورة الشعراء تعنتوا وأظهروا تمسكهم بتقاليد الآباء في العبادة والمعاملة ، وكذبوه ، واتهموه بالجنون ، واحتكموا إلى المنطق الجاهلي الفاسد في رفض النبوة لبشرٍ بدعوى المماثلة لهم في البشرية ، وأخيرا طلبوا منه إنزال العذاب تعنتا واستهزاءً ، وكان أسلوب السخرية في سورتي هود والشعراء واضحا متنوعا بين الخبر والإنشاء ، وكان نهاية هؤلاء القوم من جنس ما طلبوا واستهزأوا ؛ حيث أخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم .

ز - من مجموع ما سبق من مواقف فرعون وملئه من دعوة موسى وهارون - عليهما السلام - يظهر جليا شدة شكيمة فرعون وملئه في الكفر والعناد ، والبغي والفساد ، وشدة الإصرار على الكفر والظلام برغم وضوح محجة النور والإيمان ، وتتابع الآيات والبراهين الساطعة ، وتنوعها كما وكيفا ، وكانت السخرية من موسى متنوعة بين فنون البلاغة من استفهام ساخر وأمر ساخر ، وخبر ساخر ، وأسلوب شرط تبكيتي فاستحقوا بذلك مع الإصرار والعناد عذاب الله ﷻ ، فأهلكهم بالغرق ، ونجى موسى ﷺ والذين آمنوا معه من بني إسرائيل ، وأورثهم الأرض من بعد أهلها لينظر كيف يعملون .

وبعد

فقد كانت هذه محاولة لدراسة أساليب السخرية في القرآن الكريم دراسة بلاغية متعمقة ؛ وبيان ما فيها من جمال رائع ، وعساها تكون أماطت اللثام عن قيمة هذا الأسلوب من الناحية البلاغية ، وأبرزت أثره في الدفاع عن الدين ، فإن كنت قد أصبت مفصل الحقيقة ومحزها ، وهو ماتهفو إليه نفسى ، وترنو إليه مهجتى ، فذلك من فضل الله تعالى وتوفيقه ، ، وإن كانت الأخرى فمن تقاعسى وتقصيرى ، وحسبى أننى بشر معرّض للصواب والخطأ ، والله أسأل أن يلقى هذا العمل عنده القبول ، ولا يحرمنى أجر المجتهد ، وأدعوه خالصا أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

يناير ٢٠١٨م

الفهارس

فهرس الشواهد القرآنية

فهرس الشواهد القرآنية

سورة البقرة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٤٣	٦	﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
٣٤١	٧	﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
٣٠١ ٣٤٤	١٠ - ٨	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾
٢٨١	١٥ - ١٥	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ءَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾
٢٨٦ ٣٤٥	١٨ - ١٥	﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رِحْتِ بِخَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بَيْكُمُ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يُرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾
٢٠٣	١٧	﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾
١٦٢ ٣٤٣	٢٣	﴿ وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

تابع : سورة البقرة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٣٤ ، ٢٠	٤٤	﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾
٢٥٨	٦١	﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾
٨	٦٧	﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَجِدُهَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾
٢٧٥	٨٠	﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾
٢٣٤ ٢٣٨ ٢٦٦	٩٢ - ٩١	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزُومُنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تقتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ * ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾
٢٦٧	٩٣	﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
٢٦٦ ٣٤٣	٩٥ - ٩٤	﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾
٢٧٢	١٠٩	﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾

تابع : سورة البقرة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٧٢ ، ١٣	١١٢ - ١١١	﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ .
٢٠٠	١٧١ - ١٦٨	﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمْى فهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ .
١٦	١٧١ - ١٧٠	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمْى فهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ .
٧	٢١٢	﴿ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا .

سورة آل عمران

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٥٦	٣	﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ .
١٨ ، ١٧	٢١	﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ .

تابع : سورة آل عمران

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٥٨ ، ٢٥٦	٢٢ - ٢١	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .
٢٥٨	١١٢	﴿ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ .
٣١٤	١٦٨ - ١٦٦	﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْفِ الْجَمْعَانَ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ .
٢٥٢	١٨٢ - ١٨١	﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَكَتْنَا مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

سورة النساء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٦٠	٥٤ - ٥٣	﴿ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ .

تابع : سورة النساء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٠٦	١٣٧ - ١٣٩	﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؕ أَبْنَعُونَ عَلَيْهِمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ .
٢١٦، ٢٠	١٣٨	﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ .
٣٠٩، ٨	١٤٠	﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ إِذْكَرُوا إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ .
٣٠٥ ٣٣١، ٣٣٣	١٤٢	﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾ .
٣٠٧	١٤٣	﴿ مُذَبَّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴿١٤٣﴾ .
٢٣٤	١٥٣	﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىَٰ أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَنبَأْتُهُمْ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ؕ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ .
٢١٧	١٦٨ - ١٦٩	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ؕ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ .

سورة المائدة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٧٤	١٨	﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ ۗ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ۗ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ .
١٢	٥٤	﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ .
٩	٥٨	﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَكِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ .
١٥	١١٦	﴿ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۗ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۗ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۗ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ .

سورة الأنعام

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٥٤	٧ - ٤	﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۗ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَّكَّنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ ۗ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ .
٣٤٢ ، ١٦٠ ٣٤٥	٧	﴿ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ .

تابع : سورة الأنعام

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٥	١٠	﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾
١٧١	٢٤-٢٢	﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾
٣٤٢ ، ١٦٠ ٣٤٥	٢٥	﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾
٨٤ ، ٦٠	٧٩-٧٤	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَّخِذُ اصْنَامًا وَاللَّهِ إِنِّي آرْتِكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِرُونَ لِي بِرِيءٍ مِّمَّا دُشِرُوكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾
٦٥	٨١	﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾
١٥٦	٩٣	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوٓآءِ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايٰتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

سورة الأعراف

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢١٨	٤٠ - ٤١	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۗ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۗ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ۝ .
١٧	٤٤	﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ۝ .
١١	٥٩ - ٦٠	﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ ۝ .
٢٥	٦٠	﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ ۝ .
٤١	٦٥ - ٧٢	﴿ وَإِلَىٰ عَادِ آحَابُ هُوْدًا ۗ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۗ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَّقُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْحَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَأذْكُرُوا ۗ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا يَمَانُؤُنَا ۗ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصْبٌ ۖ أَنْجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيَّتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنظِّرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ۝ .

تابع : سورة الأعراف

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٤٣	٦٧ - ٦٩	﴿ قَالَ يَنْقَوْمٍ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَلَيْفُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَأَنَا لَكَو نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ^٤ وَأذْكَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ^٥ فَأذْكَرُوا ءِآلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ .
٤٤	٧١	﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّدُونَ فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وءِآبَاءُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ^٤ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّن الْمُنظِرِينَ ﴿٧١﴾ .
٥٣ ، ٥٢	٧٥ - ٧٧	﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَن صَاحِبَا مَثَرَسَلٍ مِّن رَّبِّهِ ^٤ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ^٥ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ ^٤ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَن أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ ^٤ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾
١١ ١٣ ٨٧	٨٠ - ٨٢	﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحَشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ الْإِنْسَاءِ ^٤ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ^٤ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ ^٥ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٨٢﴾ .
٢٤٢	١٧٥ - ١٧٧	﴿ وَآتَلَ عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنْسَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ^٤ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ^٤ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ .

تابع : سورة الأعراف

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٧٣	١٩٢-١٩١	﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ .
١٧٣	١٩٦-١٩٤	﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ يَأْمُرْهُمْ أَنْ يُبْطِشُوا بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

سورة الأنفال

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٨	١٩	﴿ إِنْ كَسَفَتْكُمْ فَفَدَّكُمْ الْفَتْحُ ﴾ .
١٥٩	٢٣	﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .
١٥٨-١٥٧	٣٣-٣٠	﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذْ نُثِلْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا بِعَذَابِ آيِسٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ .
٣٤٢، ١٦١، ٣٤٥	٣١	﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ .
١٩	٣٢	﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا بِعَذَابِ آيِسٍ ﴿٣٢﴾ .
١٧	٣٥	﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ .

سورة التوبة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢١٦	٣	﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .
٢٦١ - ٢٦٠ ٣٤٣	٣٥ - ٣٤	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَفُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .
٢٩٦	٤٢	﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ .
٣١٢	٥٧ - ٥٦	﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِيُنكِرَكُمْ وَمَا هُمْ بِمُنكِرِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .
٣٢٢	٦٢	﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .
٨	٦٤	﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرْهُمْ وَإِنِ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا يُحْذَرُونَ ﴾ .
٣١٨، ٢٩٥ ٣٤٤	٧٩	﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
٣١٨ ٣٤٤	٨٢ - ٨١	﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .
٣١٣	٨٧ - ٨٦	﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاتِلِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .
٢٩٦	١١٠	﴿ لَا يَزَالُ بُعِثَتْهُمْ إِلَى الَّذِينَ بَوَّأَ رَبِّيَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

سورة يونس

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٦٢	٣٨	﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

سورة هود

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٦٢	١٣	﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣) .
٢٥	١٥	﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .
٢٦، ٢٠	٤٠ - ٢٥	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا نَذِيرٌ هُمْ أَزْدِلْنَا بَادِي الرُّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْ رَبِّي وَءَانِنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا كارهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْتَكْبِرُوا عَلَيْهِ مَا لَكُمْ أَنْ تَجْرُوا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَقُونَ وَلَكِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا مَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ

تابع : سورة هود

		تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثِيمٌ ﴿٣٦﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٥﴾ .
٣٤٦ ، ٢٥	٢٧	﴿ وَمَا زَنْكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا ﴾ .
٤٦ ، ٢٠	٥٤ - ٥٣	﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ .
٤٨	٥٦ - ٥٤	﴿ قَالَ إِنْ أَشِهُدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ .
٢٠٠ ، ١٧ ٩٤	٨٧	﴿ قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلَوَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ .
٥٧	٩١	﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ .
١٠٠	٩٩ - ٩٦	﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَرْوُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الْوَرْدُ الْمَرْوُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

سورة يوسف

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٤ ، ١	١١٠	﴿ حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

سورة الرعد

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٠	١١	﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .
٨٠١ ٢٤	٣٢	﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

سورة الحجر

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٤١ ، ٢١٧	٣	﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .
١٤٠ ، ١١	٧ - ٦	﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .
١٥٦	١٥ - ١٤	﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ .
١٢٨ ، ١٤	٩٥	﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ .
١٢٨	٩٦	﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .
١٢٩ ، ٢١	٩٧	﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْتَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

سورة النحل

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٧١	٢٠ - ٢١	﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوتُ عَيْرُ أَحْيَاءُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾
٢٠٧ ٣٤٥	٥٨ - ٥٩	﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَزَّى مِنَ الْقَوْمِ مِن سَوَاءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

سورة الإسراء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٤٠	٣٧	﴿ وَلَا تَمِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾
١٩٨	٤٤	﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .
١٤٥	٤٥ - ٤٦	﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٤٦﴾ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَوَلَّوْا عَلَىٰ آذَانِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ .
١٤٥	٤٧ - ٥٢	﴿ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴿٤٧﴾ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَهَذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَهَذَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْزِفُونَ إِلَيْكَ ذُرِّيَّتَهُمْ وَيَقُولُونَ مَنْ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

تابع : سورة الإسراء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٤٤	٥١ - ٤٩	﴿ وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥١﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ .
١٤٤	٩٩ - ٩٨	﴿ ذَلِكَ جَزَاءُهمُ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ .
١٠٤	١٠٤ - ١٠١	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَبَتْ بِئْسَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مَشْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مَن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَهُ وَعَدُ الْآخِرَةُ جُنَّابِكُمْ أَفِيضًا ﴾ .

سورة الكهف

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٧ ٢١٨	٢٩	﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ .
١٧٢	٥٢	﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ .
٢٢٦	١٠٢	﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

سورة مريم

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٧٠	٥٠ - ٤١	﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَاستَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ .
٨٣	٤٢	﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ .
١٤٤	٦٧ - ٦٦	﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ .

سورة الأنبياء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٤٣	١٣ - ١١	﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسُوا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَلَاتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ .
١٣١	٢١	﴿أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ .
١٥٠، ٨ ١٣٠ ٣٤٢	٣٦	﴿وَإِذْ رَأَىٰكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْخَدِعُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْدَىٰ الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتِكُمْ وَهُمْ يَذُكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ .

تابع : سورة الأنبياء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٧٠ ، ٦٩	٧٣ - ٥١	<p>﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعِبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَاًا إِلَّا كَبِيرًا ثُمَّ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٧٢﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾</p>
١٧	٦٣	﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ .

سورة الحج

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٨٥	٨ - ٧	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ .
١٥٤ ١٧٩	٧٢ - ٧١	﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمُطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا ﴿٧٢﴾ .
١٧٩ ٣٤٥	٧٤ - ٧٣	﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعْتُمُوهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِن يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ .

سورة المؤمنون

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٦	٢٥ - ٢٣	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَوَّضُوا بِهِ حَتَّىٰ حَبِطَ ﴿٢٥﴾ .
٤٢	٢٤	﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ .
٤٩ ٣٤٢	٣٤ - ٣٣	﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ .

تابع : سورة المؤمنون

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٤٨	٣٥ - ٣٨	﴿ أَعِدُّوا لَهُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا دُعِيَ الرَّسُولُ إِلَى الدِّينِ أَنْ يُعْزِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا تَمَّ لَهُمْ نِعْمَتُنَا وَمِنْهَا فِرَاقُ دِيَارِهِمُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا يَحْتَضِرُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ .
١٠٥	٤٧	﴿ فَقَالُوا اتُّوِينُ لِلشَّرِّينِ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾ .
١٤٤	٨١ - ٨٣	﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ .
١٤٨ ٣٤٢	٨٢ - ٨٣	﴿ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ .
١٤	١١٠	﴿ فَأَتَّخَذَتْهُمْ سَخِرَاتٍ حَتَّى أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ .

سورة النور

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٤٠	٣٩	﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرِبٍ يَبِيعُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ .

سورة الفرقان

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٤٥ ، ١٦٠	٤	﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرْتَهُ ﴿٤﴾ .
١٣٢ ، ١٧ ٣٤٢	٧ - ٩	﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ .

تابع : سورة الفرقان

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢١٨	١٤ - ١١	﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِقًا مُقِرِّينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ .
١٦ ١٩ ١٢٨ ٣٤٤ ٣٤٥	٤٤ - ٤١	﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ .
٢٤٦	٤٣	﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴿٤٣﴾ .

سورة الشعراء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٠٥ ، ٢٠	٢٧	﴿ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ .

تابع : سورة الشعراء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٠٧ - ١٠٨	١٠ - ٦٨	<p> وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْفَقِيمَ الضَّالِّينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۗ أَلَا يَنْقُورُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدَأُ فَارِيسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِنَّهَا مِنِّي وَإِنِّي مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَىٰ فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَرَّابًا لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَيْكَ أَنْ عَبَدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِمَنِ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشَىْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدُّنْيَا حَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَلَّىٰ بِيكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِيَمِيقَتِ يَوْمِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلْنَا نَبْعِثُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ هُمْ مُوسَىٰ أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ </p>

تابع : سورة الشعراء

		<p>لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذِهِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَضْيَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ .</p>
٧٦	٧٧ - ٦٩	<p>﴿٦٩﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَظَائِقَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أفرءَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ .</p>
٥٠	١٣٨ - ١٣٦	<p>﴿١٣٦﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٩﴾ .</p>
٥٢ ، ٢٠ ٣٤٥ ، ٥٥	١٥٤ - ١٥٣	<p>﴿١٥٣﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٥﴾ .</p>

تابع : سورة الشعراء

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٩٨	١٧٦ - ١٨٨	﴿ كَذَّبَ أَحْسَبُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَيْسَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿١٨٨﴾ * ﴿١٨٩﴾
٩٥	١٨٥	﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ * ﴿١٨٥﴾
٩٥	١٨٦	﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * ﴿١٨٦﴾
٩٥	١٨٧	﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * ﴿١٨٧﴾

سورة النمل

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٨٧ ، ٢٠ ٩٠	٥٦	﴿ * فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ * ﴿٥٦﴾
١٤٤	٦٧ - ٦٨	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ الْمَخْرُوجِ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٦٨﴾

سورة القصص

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١١٣	٨	﴿ فَالْقَلْبَةُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴾ .
١٦٢	٤٩	﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
١٧٢	٧٧ - ٦٢	﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

سورة العنكبوت

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٧٩	١٧ - ١٦	﴿ وَإِذْ هَمِمْنَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .
٩٢ ، ٨٧	٢٩	﴿ أَيَنْتَظِرُ الْمُنْكَرَ لِنَاثُوتِ الرِّجَالِ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتَ يَا بَدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .
٣٤٤	٤١	﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ يَتِيمًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

سورة لقمان

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٨٦ ، ١٤	٦	﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .
١٨٦ ٣٤٣	٧	﴿ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِ ءآيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ .

سورة السجدة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٤٣	١٤	﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

سورة سبأ

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٤٤ ٣٤٤	٨ - ٧	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّمَّزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ .
١٧، ٣٤٥	٢٤	﴿ وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ .
١٦١ ، ١٦٠ ٣٤٢ ٣٤٥	٤٣	﴿ ...مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَاكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

سورة فاطر

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٧٥	١٤	﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يَسْمَعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾
٢٢٧	٣٧ - ٣٦	﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

سورة الصافات

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٥٠	٢١ - ١١	﴿ فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَءَا مَنَا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا ۖ أَوَءَا بَاؤُنَا الْأَوْلُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا بَنِي آدَمَ هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُوكَ ﴿٢١﴾ ﴾
١٤٤ ٣٤٢	٢١ - ١٦	﴿ أَوَءَا مَنَا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا ۖ أَوَءَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَا بَاؤُنَا الْأَوْلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا بَنِي آدَمَ هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُوكَ ﴿٢١﴾ ﴾
١١	٣٦	﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا ۖ إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مُّجْتَنِبٍ ﴿٣٦﴾ ﴾
١٤٨	٥٣ - ٥١	﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهٖ نَكَ لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَءَا مَنَا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا ۖ أَوَءَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾
١٤٤	٥٣ - ٥٢	﴿ يَقُولُ أَهٖ نَكَ لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَءَا مَنَا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا ۖ أَوَءَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

تابع : سورة الصافات

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٢٦	٦٢	﴿ أَدْلِكَ حَيْرُ نُزُلَا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴾
١٦	٧٠ - ٦٩	﴿ إِنِّي أَنبَأْتُ الْقَوْمَ عَن آبَاءِهِمْ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾
٨١ ، ٢٠ ٣٤٥	٩٨ - ٨٣	﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّيُزْهِمَنَّ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّكَاءِ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَرَّ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صُرُوبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِيُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنجُحُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْتُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾
٢٠٩	١٥٩ - ١٤٩	﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ﴿١٥٨﴾ وَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٩﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾

سورة ص

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٣٤	٨ - ١	﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾ كَرَّ أَهْلَكُنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَّاتٍ حِينٍ مِّنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ﴿٧﴾ أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُفَعُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾

سورة الزمر

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٢٧ ٣٤٤	٢٤	﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

سورة غافر

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١١٥	٢٣ - ٢٧	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَ وَقَتْرُونَ فَقَالُوا سَجِرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾
١١٥	٣٦ - ٣٧	﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمَنُ ابْنُ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كٰذِبًا وَكَذٰلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

سورة فصلت

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٢٤	٥	﴿ قُلُوبَنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقُرْ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَل إِننَا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾
١١	١٧	﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾

سورة الزخرف

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٤٠١	٧	﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .
٢٠٧	١٧	﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .
١٨ ٢١١ ٣٤١	١٩	﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .
٢٠٥	٢٢ - ٢١	﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .
١٢	٢٢	﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .
١١ ١٢٢ ١٣٠ ١٣٧	٣٢ - ٣١	﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

تابع : سورة الزخرف

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٢٢	٥٦ - ٥٦	<p>﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَأِيُّكَهُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞</p>
٣٤٢ ، ١١	٥٢	﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ۞

سورة الدخان

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٢٨ ٣٤٣	٥٠ - ٤٣	<p>﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُورِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۞</p>
٢٠ ، ١٨ ١٨٦ ٣٤٣ ، ٣٤١	٤٩ - ٤٧	﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۞

سورة الجاثية

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٨٦	٢٣	﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

سورة الأحقاف

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٤٤	١٧	﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهِي لَمَّا آتَيْتَنِي أَن أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهَمَا يَسْتَفْغِيثَانِ اللَّهَ وَيَلِيكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾
٣٤٤ ، ٥٠ ٣٤٦	٢٢	﴿ قَالُوا آجِئْنَا لِنُؤْفِكَا عَنْ ءَاهِلِنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

سورة محمد

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣١٤	٢٠	﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْقَوْلُ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾

سورة الحجرات

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١١ ، ١٠	١١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْمُسْتَوْقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

سورة الذاريات

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٤٣	١٣ - ١٤	﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَتَكُزْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾
١٣ ٣٤٢	٥٣ - ٥٢	﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٣﴾ اتَّوَصَّوْا بِهِ ۗ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٢﴾

سورة الطور

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٢٢ ، ٢٠ ٣٤١ ٣٤٢	١٦ - ١	﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍ مَنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
١٦٢	٣٤ - ٣٣	﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ ۗ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ۗ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

سورة القمر

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٤٦ ، ٣٩	٩	﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾
٥٦	٢٦ - ٢٣	﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَحِدًا نَدَّبَعُوا ۗ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أَهْلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكَذَّابِ الْآيِرُ ﴿٢٦﴾
١٣٧	٢٥	﴿ أَهْلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾

سورة الرحمن

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٢٨	٤٣	﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

سورة الواقعة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٤٨ ، ١٤٤	٥٠ - ٤٧	﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَجْعُوتُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْعُوتُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ .
٣٤١ ، ٢٠	٩٣	﴿ فَتَزَلُّ مِنَ حَيْمِرٍ ﴿٩٣﴾ .

سورة الحديد

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٣١	١٢	﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ .
٢٣١ ، ١٨ ٣٤٣	١٣	يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ .
٣٣١	١٥ - ١٤	يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ؕ مَأْوَانُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ .

سورة الجمعة

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٤٧	٢	﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾
٢٤٧، ٢٠٣٤٥	٥	﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
٢٧٠٣٤٤	٧ - ٦	﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

سورة المنافقون

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٢٥	٢ - ١	﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾
٣١٠	٢	﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
٣١٠	٣	﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾
٣٢٧٣٤٤	٤	﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخْذِرْهُمْ فَغَالِبُكُمْ اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّكَونَ ﴾

سورة القلم

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٩٠، ١٨٧	١٦ - ١٠	﴿ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَامٍ بِنَجِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتِلِّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالِ أَسْطِيرُ الْأُولَى ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحُرُوطِ ﴾ .
١٣٨	٥٢ - ٥١	﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

سورة المدثر

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٦٠ ١٦١ ٣٤٥	٢٤	﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ .

سورة المطففين

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٤، ١٠	٣٢ - ٢٩	﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴾
١٨	٣٠	﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .
١٦٤	٣٦ - ٣٣	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ نُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

سورة العاشية

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٢٢٨	٢	﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ .

سورة الكوثر

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٤١	٣ - ١	﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئٌ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ .

سورة المسد

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٩٣، ١٥	٥ - ١	﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسْكِ ﴿٥﴾ ﴾ .



**فهرس المصادر والمراجع
والمخطوطات والدوريات**

فهرس المصادر والمراجع والمخطوطات والدوريات

أولا : المصادر والمراجع

(أ)

- ١- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي ، دار المسيرة ، بيروت لبنان .
- ٢- اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ، الشيخ : أحمد محمد البنا ، ت . د : شعبان محمد إسماعيل ، الطبعة الأولى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- ٣- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ت : سعيد المنذوب ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، لبنان ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- ٤- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ت : مركز الدراسات القرآنية مجمع الملك فهد المملكة العربية السعودية ، بدون تاريخ .
- ٥- الأدب الساخر ، د : نبيل راغب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م .
- ٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبو السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .
- ٧- أساس البلاغة ، محمود بن عمر الزمخشري جار الله القاسم ، ت : محمد باسل عيون السود الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- ٨- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ، أ.د : صباح عبيد دراز ، الطبعة الأولى ، مطبعة الأمانة ، مصر ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .
- ٩- أساليب القصر في القرآن وأسرارها البلاغية ، د : صباح عبيد دراز ، الطبعة الأولى مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ١٠- أسباب النزول ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ، تدقيق : عصام عبد المحسن الحميدان ، الطبعة الثانية ، دار الإصلاح ، الدمام ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .
- ١١- أسرار البلاغة ، ت : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة وجدة ، بدون تاريخ .

- ١٢ - أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم ، الدكتور: محمود السيد شيخون ، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .
- ١٣ - أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو) ومواقعه في القرآن الكريم - محمد موسى حمدان - الطبعة الأولى - مكتبة وهبة - القاهرة - ٢٠١١ م .
- ١٤ - أسرار التكرار في القرآن - محمود بن حمزة الكرمانى ، ت : عبد القادر أحمد عطا وآخر دار الفضيلة ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ١٥ - أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د : عبد الحليم حفنى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ م .
- ١٦ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، العز بن عبد السلام ، دار الحديث القاهرة .
- ١٧ - إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، اللجنة العامة للقرآن والسنة ، الكتاب الرابع ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- ١٨ - الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، ت : محمود مصطفى وحسن عون ، مؤسسة شباب الجامعة .
- ١٩ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ت . د : محمد عمارة ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .
- ٢٠ - الأمثال القرآنية ، دراسة تحليلية ، د محمد بكر إسماعيل ، دار المنار ، ٢٠٠٠ م .
- ٢١ - الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، ابن المنير الإسكندراني ، طبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م .
- ٢٢ - آيات التحدي في القرآن الكريم الدلالة والإيحاء ، د : عبد العزيز صالح العمار ، دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٩ هـ .
- ٢٣ - الإيضاح في علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع ، الخطيب القزويني ، الطبعة الأولى دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٣ - ١٤٢٤ هـ .

(ب)

- ٢٤- البديع في القرآن الكريم أغراضه ووظائفه ، إبراهيم علان ، الطبعة الأولى ، دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة ، ٢٠٠٢ م .
- ٢٥- بديع القرآن ، ابن أبي الإصبع ، ت. د : حفني شرف ، الطبعة الثانية ، دار نهضة مصر .
- ٢٦- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، ت : عبد القادر أحمد عطا دار الكتب العلمية ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ .
- ٢٧- البرهان في علوم القرآن ، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٢٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ، ت : محمد علي النجار الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م .
- ٢٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، عبد المتعال الصعيدي ، الطبعة الثامنة ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٣٠- بلاغة تطبيقية ، دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص ، د بسيوني عبد الفتاح فيود مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- ٣١- البلاغة : فنونها وأفنانها ، علم المعاني ، د : فضل حسن عباس ، الطبعة الرابعة ، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
- ٣٢- البلاغة القرآنية د : صباح عبيد دراز ، المطبعة التوفيقية ، مصر ، بدون تاريخ .
- ٣٣- بنو إسرائيل في القرآن والسنة لفضيلة الإمام الأكبر د : محمد سيد طنطاوي ، دار الشروق الطبعة الثانية ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ٣٤- البيان عند الشهاب الخفاجي ، د : فريد النكلاوي ، القسم الثاني ، المجاز المرسل ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م .
- ٣٥- البيان في ضوء أساليب القرآن ، عبد الفتاح لاشين ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٥ م .

٣٦- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، الطبعة السابعة ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

(ت)

٣٧- تاريخ الأنبياء ، د : محمد الطيب النجار ، مكتبة المعارف ، الرياض ، بدون تاريخ .

٣٨ - التصوير الساخر في القرآن الكريم ، د : عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م .

٣٩- التعريض في القرآن الكريم ، د : إبراهيم محمد عبد الله الخولي ، دار البصائر ، القاهرة الطبعة الأولى ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

٤٠ - تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف أبو حيان التوحيدي ، ت : الشيخ عادل عبد الموجود وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

٤١- التفسير البسيط ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ، ت د : محمد بن صالح الفوزان مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر ، الرياض ، ١٤٣٠ هـ .

٤٢- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، د : عبد العظيم إبراهيم المطعني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٤٢١ هـ - ١٩٩٩ م .

٤٣- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للقاضي البيضاوي - ت : عبد القادر عرفات العشا حسونة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

٤٤- تفسير التحرير والتتوير : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس ، ١٩٩٧ م .

٤٥- تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٤٦- تفسير الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

٤٧- تفسير الشعراوي (خواطري حول القرآن الكريم) ، الشيخ محمد متولي الشعراوي مؤسسة أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٩١ م .

- ٤٨- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، ٢ / ٤٤٠ ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، ١٤٠١هـ .
- ٤٩- التفسير القرآني للقرآن الكريم ، د : عبدالكريم الخطيب ، دار الفكر ، بيروت ، بدون .
- ٥٠- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) الإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي ، الطبعة الأولى - دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
- ٥١- تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ، مطبعة مصطفى الباب الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م .
- ٥٢- تفسير المنار ، السيد محمد رشيد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية القاهرة ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م .
- ٥٣- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، د : وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ .
- ٥٤- تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضي ، ت : د علي محمود مقلد منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان .
- ٥٥- تنزيل القرآن لابن شهاب الزهري ، ت : أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، دار الكتاب الحديث ، بيروت ، لبنان - بدون تاريخ .

(ث)

- ٥٦ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، ت : محمد خلف الله ، ود : محمد زغلول سلام ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، مصر .

(ج)

- ٥٧- جامع البيان في تفسير القرآن ، محمد عبد الرحمن الشافعي ، ت : عبد الحميد الهنداوي الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٤هـ .
- ٥٨ - جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم ، د : حكمت صالح ، الطبعة الأولى ، وزارة الأوقاف الكويتية ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .
- ٥٩- الجنى الداني في حروف المعاني للمراذي ، ت . د : فخري الدين قباوة ومحمد نديم ، دار الآفاق ، بيروت ، لبنان .

٦٠- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، للثعالبي المالكي ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرين ، الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

(ح)

٦١- حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي ، دار صادر بيروت - لبنان .

٦٢- حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي ، محمد عبد القادر شاهين ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .

٦٣- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ، ت : عبد الله محمود محمد عمر ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

٦٤- الحذف البلاغي في القرآن الكريم ، مصطفى عبد السلام أبو شادي ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة .

٦٥- حروف المعاني أبو القاسم الزجاج ، ت . د : علي توفيق الحمد ، الطبعة الأولى ، نشر مؤسسة الرسالة بيروت ، لبنان ، ١٩٨٤ م .

٦٦- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين ، لكوكبة من علماء الإسلام ، الطبعة الثالثة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

٦٧- الحوار في القرآن الكريم ، محمد حسين فضل الله ، دار التعارف ، بيروت ، لبنان .

(خ)

٦٨- الختم والطبع ودلالاتهما البلاغية في القرآن الكريم ، أ.د : السيد محمد السيد سلام ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، شبين الكوم ، بدون تاريخ .

٦٩- خصائص التراكيب ، د : محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

٧٠- خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام ، د : الشحات محمد أبو ستيت الطبعة الأولى ، مطبعة الأمانة ، شبرا ، مصر ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .

(د)

٧١- دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، للدكتور : عبد العظيم إبراهيم المطعني ، الطبعة الأولى مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

٧٢- دراسات في علم البيان والتشبيه القرآني ، د : صَبَّاح عبيد دراز ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

٧٣- الدر المصون في علم الكتاب المكنون ، أحمد بن يوسف المعروف بالسمن الحلبي ، ت د أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق .

٧٤- (درة التنزيل وغرة التأويل) في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

٧٥- دلائل الإعجاز ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ت محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٧٦- دلالات التراكيب ، د : محمد محمد أبو موسى ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م .

(ر)

٧٧- الرحيق المختوم لفضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، دولة قطر ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .

٧٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، محمود الألوسي البغدادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .

(ز)

٧٩- زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، الطبعة الثالثة المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٤هـ .

(س)

٨٠- السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، د : نعمان أمين طه الطبعة الأولى ، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ١٩٧٨ .

- ٨١- السخرية في أدب المازني ، د : حامد الهوال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢م .
٨٢- سيكلوجية الفكاهة والضحك ، د : زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر للطبوعات ، ٢٠١٢م .

(ش)

- ٨٣ - شرح طيبة النشر في القراءات العشر ، أبو القاسم محمد بن محمد النويري
ت . د : مجدي محمد سرور ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٤هـ -
٢٠٠٣م .

(ص)

- ٨٤ - الصاحبى ، أحمد فارس ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٨٥ - صحيح البخاري " الجامع الصحيح المختصر " ، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ،
ت . د : مصطفى ديب البغا ، الطبعة الثالثة ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ،
١٩٨٧م .
٨٦- صفوة التفاسير ، محمد على الصابوني ، دار الصابوني - الطبعة التاسعة - ١٣٩٦هـ .

(ط)

- ٨٧ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ٣ / ١٦٢ ، مطبعة المقتطف ،
القاهرة ، ١٣٣٣هـ - ١٩١٤م .

(ع)

- ٨٨- العجاب في بيان الأسباب ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
ت : عبد الحكيم محمد الأنيس ، الطبعة الأولى ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ١٩٩٧م .
٨٩ - عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، الشيخ بهاء الدين السبكي ، ت . د : عبد الحميد
هنداوي ، المكتبة العصرية ، الطبعة الأولى ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .
٩٠ - علم المعاني ، أ.د : صبايح عبيد دراز ، طبعة ١٩٩٢م .

(غ)

- ٩١- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري ، دار
الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

(ف)

- ٩٢- فتح البيان في مقاصد القرآن ، أبو الطيب صديق بن حسن البخاري ، ت : عبد الله
إبراهيم الأنصاري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٩٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ت : سيد إبراهيم ، الطبعة الثالثة ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٩٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ت : يوسف الغوشي ، الطبعة الرابعة ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .

٩٥- الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، ت : محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، مدينة نصر ، القاهرة ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٩٦- الفكاهة في مصر ، د : شوقي ضيف ، سلسلة دار الهلال ، ١٩٥٨م .

٩٧- الفكاهة في الأدب ، د : أحمد الحوفي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٥٦م .

٩٨- فن البلاغة ، د : عبد القادر حسين ، الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

٩٩- في البلاغة القرآنية أسرار الفصل والوصل ، د : صباح عبيد دراز ، الطبعة الأولى مطبعة الأمانة ، شبرا ، مصر ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

(ق)

١٠٠- قبس من نور القرآن - د : محمد علي الصابوني ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

١٠١- قصص الأنبياء ، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء محمد إسماعيل بن كثير القرشي ت.د : عبد الحي الفرماوي ، دار الطباعة والنشر الإسلامية ، الطبعة الخامسة ، دار الطباعة والنشر الإسلامية - القاهرة ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

١٠٢- القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، ت : محمد نعيم العرقسوسي ، الطبعة الثامنة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

(ك)

١٠٣- الكشاف عن غوامض حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، ت : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، الطبعة الأولى ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

١٠٤- كشف المعاني في متشابه المثاني ، بدر الدين بن جماعة ، ت : د / محمد محمد داود دار المنار ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

(ل)

١٠٥- لباب النقول في أسباب النزول ، جلال الدين السيوطي ، دار إحياء العلوم ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ .

١٠٦- لسان العرب ، لابن منظور ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ م .

١٠٧- لغة المنافقين في القرآن الكريم ، د : عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .

(م)

١٠٨- مباحث في طرق علم البيان ، د : رفعت إسماعيل السوداني ، ٢٠٠٢ .

١٠٩- المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم ، د : عبد المجيد يس ، الطبعة الأولى ، دار ابن حزم ، لبنان ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

١١٠- مجاز القرآن ، خصائصه الفنية والبلاغية ، د : محمد حسن الصغير ، الطبعة الأولى دار المؤرخ العربي ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ .

١١١- محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ ، ١٩٥٧ م .

١١٢- محاضرات في علم البيان ، د : الشحات محمد أبو ستيت ، ، دار اللوتس للطباعة .

١١٣- المحتسب ، أبو الفتح عثمان بن جني ، جمع الإمام محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

- ١١٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، ت : أحمد صادق الملاح - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .
- ١١٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق غالب بن عطية الأندلسي ت : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
- ١١٦- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي ، الطبعة الأولى ، دار الحديث القاهرة ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
- ١١٧- مختصر تفسير ابن كثير ، الشيخ محمد علي الصابوني ، طبعة دار القرآن ، بيروت .
- ١١٨ - مذكرات في الفصل والوصل والقصر ، سليمان نوار ، مطبعة العلوم ، الطبعة الثانية ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م .
- ١١٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ت : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
- ١٢٠- مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، برهان الدين البقاعي ، ت : د : عبد السميع محمد أحمد حسنين ، الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٨ - ١٩٨٧م .
- ١٢١- معاني القرآن ، أبو جعفر النحاس ، ت : الشيخ محمد علي الصابوني ، الطبعة الأولى ، جامعة أم القرى مكة المكرمة ، مركز إحياء التراث الإسلامي ، ١٤٠٩ هـ .
- ١٢٢- المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم ، ابن عباس ، ابن قتيبة ، مكي ابن أبي طالب ، أبو حيان ، ترتيب : عبد العزيز عز الدين السيروان ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦م .
- ١٢٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ١٢٤- معجم مقاييس اللغة ، أحمد فارس بن زكريا أبو الحسين ، ت : عبد السلام محمد هارون دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ١٢٥- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف السكاكي ، ت : نعيم زرزور ، الطبعة الأولى دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١٢٦- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من أي التنزيل العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ، ت : سعيد الفلاح ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

١٢٧- من بلاغة القرآن ، الدكتور : أحمد محمد بدوي ، نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع ٢٠٠٥ م .

١٢٨- المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الطبعة ٢٠ - القاهرة - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

١٢٩- من طرائق البيان (التشبيه) ، د : عبد الرازق فضل ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

١٣٠- الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية ، د : أحمد مصطفى متولي الطبعة الأولى ، دار ابن الجوزي للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٥ م .

(ن)

١٣١- النحو المصفى ، د : محمد عيد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨٧ م .

١٣٢- نظرات حديثة في التفسير ، محمد عبد الرحمن الجديلي ، منشورات المكتب التجاري ١٩٦٣ م .

١٣٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين البقاعي ، دار الكتاب الإسلامي القاهرة بدون تاريخ .

(هـ)

١٣٤- الهجاء في الأدب الأندلسي ، د : فوزي سعد عيسى ، دار المعارف ، بيروت ، لبنان .

(و)

١٣٥- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، علي بن أحمد الواحدي ، ت : صفوان عدنان داوودي الطبعة الأولى ، دار العلم ، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت ، ١٤١٥ هـ .

ثانيا : المخطوطات

- ١٣٦- اسم الموصول الخاص في القرآن الكريم ، مواقعه وأسراره البلاغية (رسالة دكتوراه)
د : مصطفى عطية سلمي ، مكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
- ١٣٧ - الحوار في القرآن الكريم ، خصائصه التركيبية وصوره البيانية ، (رسالة دكتوراه) ،
الباحث : محمد إبراهيم شادي ، إشراف د : محمد عبد الرحمن الكردي ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ١٣٨ - الشعر الاجتماعي عند جماعة الديوان ، د : رزق محمد داود ، (رسالة دكتوراه
١٩٨٦ م) ، كلية اللغة العربية ، إيتاي البارود ، البحيرة .
- ١٣٩ - شعر الهجاء بين الحطيئة وابن الرومي (رسالة ماجستير) ، للباحث : عادل نصورة
التمساحي ، كلية اللغة العربية ، إيتاي البارود ، البحيرة .

ثالثا : الدوريات

- ١٤٠ - مجلة لواء الإسلام - العدد الثاني - ١٩٦٣ م .
- ١٤١ - محنة السخرية والاستهزاء بالدعوة في ضوء القرآن الكريم ، د : عبد السميع خميس
العراييد ، بحث منشور في كلية أصول الدين والدعوة ، الجامعة الإسلامية بغزة ، ٢٠٠٥ م .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
أ- و	المقدمة .
١	التمهيد : السخرية ، أسبابها ، وخصائصها في القرآن الكريم .
١	مفهوم السخرية .
٤	السخرية والهزاء والعلاقة بينهما .
٦	الساخر وصفاته .
١٠	أهم أسباب ودواعي السخرية .
١٨	خصائص السخرية في القرآن الكريم .
١٨	الأغراض البلاغية للسخرية في القرآن الكريم .
٢١	الأثر البلاغي لأسلوب السخرية في القرآن الكريم .
٢٣	الفصل الأول : السخرية في مواقف الأنبياء مع أقوامهم وأسرارها البلاغية
٢٥	المبحث الأول : السخرية من نوح <small>عليه السلام</small> وعاقبتها .
٤٠	المبحث الثاني : السخرية من هود <small>عليه السلام</small> والرد عليها .
٥١	المبحث الثالث : السخرية في قصة ثمود مع النبي صالح <small>عليه السلام</small> .
٥٩	المبحث الرابع : سخرية إبراهيم <small>عليه السلام</small> من قومه .
٨٧	المبحث الخامس : السخرية في قصة لوط <small>عليه السلام</small> مع قومه .
٩٤	المبحث السادس : السخرية في قصة شعيب <small>عليه السلام</small> مع قومه .
١٠٠	المبحث السابع : السخرية في قصة موسى <small>عليه السلام</small> مع فرعون .
١٢٦	الفصل الثاني : سخرية القرآن من المشركين وأسرارها البلاغية .
١٢٨	المبحث الأول : معركة السخرية بين المشركين والقرآن .

رقم الصفحة

الموضوع

- ١٢٨ - أولا : سخرية المشركين من النبي ﷺ والرد عليها .
- ١٤٤ - ثانيا : سخرية المشركين من البعث والرد عليها .
- ١٥٤ - ثالثا : سخرية المشركين من القرآن والرد عليها .
- ١٦٤ - رابعا : سخرية المشركين من المسلمين المستضعفين والرد عليهم .
- ١٧١ المبحث الثاني : السخرية من معتقدات المشركين الباطلة .
- ١٨٥ المبحث الثالث : السخرية من قادة الكفر .
- ١٠٠ المبحث الرابع : السخرية من بعض عادات المشركين وأخلاقهم السيئة .
- ٢١٥ المبحث الخامس : السخرية من المشركين في آيات الإنذار والتخويف
- ٢٢٦ المبحث السادس : السخرية المصورة لنتيجة الشرك يوم القيامة .
- ٢٣٢ **الفصل الثالث : السخرية من اليهود وأسرارها البلاغية .**
- ٢٣٤ المبحث الأول : سخرية القرآن من عقيدة اليهود .
- ٢٥٢ المبحث الثاني : السخرية من ردائل اليهود ومزاعمهم الباطلة .
- ٢٥٢ - السخرية من جرأتهم وسوء أدبهم مع الله .
- ٢٥٦ - السخرية من قتلهم الأنبياء .
- ٢٦٠ - السخرية من البخل واكتناز المال .
- ٢٦٦ - السخرية من زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم .
- ٢٧٢ - السخرية من زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى .
- ٢٧٤ - السخرية من زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه .
- ٢٧٨ **الفصل الرابع : السخرية من المنافقين وأسرارها البلاغية .**
- ٢٨١ المبحث الأول : سخرية المنافقين من المسلمين والرد عليها .
- ٣٠٠ المبحث الثاني : سخرية القرآن من المنافقين .

- ٣٠١ - المطلب الأول : سخرية القرآن من عقيدة المنافقين .
- ٣١٢ - المطلب الثاني : سخرية القرآن من سلوك المنافقين .
- ٣٣١ - المطلب الثالث : السخرية من حال المنافقين يوم القيامة .
- ٣٣٨ الخاتمة .
- ٣٥١ فهرس الشواهد القرآنية .
- ٣٩٠ فهرس المصادر والمراجع والمخطوطات والدوريات .
- ٤٠٤ فهرس الموضوعات .
